


## تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول
## وفق منهج كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل»

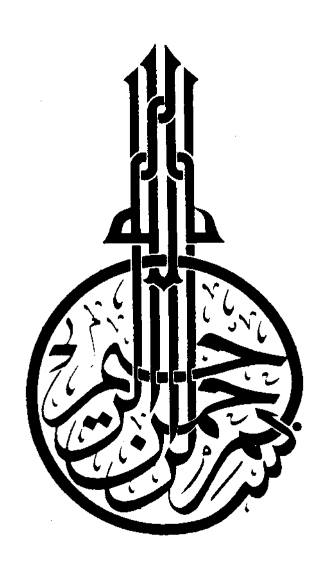
## المجلد السابع

## تفسير سورتي
## فاطر/ ٤٣ - مريم/ ٤٤


عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني



دار القلم
دمشق




معارج التفكر
ودقائق التدبر

الطّبْعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



تُطلبُ جميعُ كتُبنا مِنْ :
دَارُ القَلَمِ - دمَشق : صَ.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّارالشّاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعودية عن طريق
دَارُ البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

# سُورة فاطِر

## ٣٥ مصحف ـ ٤٣ نُزُول

وَهِيَ مَكّيّةٌ كُلّها



# (١)
# نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٖ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٞ مِّن قَبْلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾

١ ـ • ﴿مَا يَشَآءُۚ إِنَّ﴾ سهّل الهمزة الثانية وأبدَلَها واواً مكسورة، نافع، وابن كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر، ورُوَيس، وقرأها باقي القرّاء العشرة همزاً محققة.

٢ ـ • قرأ قالون، وأبو عَمْرو، والكسائي، وأبو جعفر: **[وهْو]** بإسكان الهاء. وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وهُو]** بضمّ الهاء. وهما وجهان عربيان. ووقف يعقوب بهاء السكت.

٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف: **[هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيرِ اللّه]** بكسر راء «غيرِ» على أنّها صفة للفظ خالق المجرور بحرف الجرّ الزائد. وقرأ باقي القرّاء العشرة بضم راء «غيرُ» على أنّها صفة لمحلّ لفظ خالق وهو الرفع.

٤ ـ • قرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: **[تَرْجِعُ الأُمورُ]** ببناء فعل «ترجع» للمعلوم. وقرأ باقي القرّاء العشرة **[تُرْجَعُ]** ببناء الفعل لما لم يُسَمَّ فاعله. والقراءتان متكاملتان، أي: تُرجَعُ بقضاء الله وقدره فتَرْجِعُ.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ

---

٨ - • قرأ أبو جعفر: [فَلَا تُذْهِبْ نَفْسَكَ]. وقرأ باقي القرّاء العشرة: [فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ] ومؤدّىٰ القراءتين واحدٌ، وهما من قبيل التفنُّن في التعبير.

٩ - • قرأ ابنُ كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف [الرِّيح] بالإفراد. وقرأ باقي القرّاء العشرة: [الرِّيَاح] بالجمع. ومؤدّي القراءتين واحد، إلّا أنّ في الجمع دلالةً صريحة على أنواعِ الرِّياح.

٩ - • قرأ نافع، وحفص، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخَلف: [مَيِّتٍ] بتشديد الياء المكسورة. وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مَيْتٍ] بإسكان الياء. «مَيْت ومَيِّت» لغتان عربيتان.

١١ - • قرأ يَعْقُوب: [وَلاَ يَنْقُصُ] من فعل «نَقَصَ». وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَلاَ يُنْقَصُ] من فعل «أَنْقَصَ». «نَقَصَ وأَنْقَصَ» لغتان بمعنى قلّلَ من مقدار الشيء.

مِن عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦۚ وَإِلَى

---

١٥ ـ • ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى﴾: سهّل همزة «إلى» وأبدلها واواً مكسورة: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ورُوَيس. وقرأها باقي القرّاء العشرة همزةً محققة.

١٦ ـ • قرأ أبو جعفر: ﴿إن يَشَا﴾ بدون همز، وقرأها كذلك حمزة في الوقف. وقرأها باقي القرّاء العشرة ﴿إن يَشَأْ﴾ بهمزة محقّقة ساكنة.

ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا
ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا
يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ
بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ
أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ
﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ
بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ
ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى
ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾

٢٥ ـ • قرأ أبو عمْرو: [رُسْلَهُمْ] بإسكان السّين. وقرأ باقي القرّاء العشرة: [رُسُلَهُمْ] بضم السّين. والقراءتان لغتان عربيتان.

٢٦ ـ • قرأ: [نَكِيري] بإثبات ياء المتكلم، ورشٌ في الوصل، وقرأها كذلك يعقوب في الوصل والوقف، وقرأها باقي القرّاء العشرة: [نَكِيرِ] بحذف ياء المتكلم. وحذف ياء المتكلم لغة عربية يحسنها الإيجاز في النطق.

٢٨ ـ • ﴿ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ﴾: سهّل همزة «إنَّ» وأبْدَلَها واواً، نافعَ، وابْن كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر، ورُويس. وقرأها باقي القرّاء العشرة بالتحقيق.

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ

٣٣ ـ • قرأ أبو عَمْرُو: [يَدْخَلُونَها] من فعل «أَدْخَلَه» وقرأ باقي القراء العشرة: [يَدْخُلونَهَا]: من فعل «دَخَلَهُ» وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذْ هم يُدْخَلُونَها بأمر الله، فهم يَدْخُلونَها طائعين مكرّمين.

٣٣ ـ • قرأ نافع وحفص: [وَلُؤْلُؤًا] بتحقيق الهمزتين. وقرأ شعبة، وأبو جعفر: [وَلُولُؤًا] بتسهيل الهمزة الأولى، وتحقيق الثانية. وقرأ الدوري عن أبي عمْرو: [وَلُؤْلُؤٍ] بالجرّ عطفاً على [مِنْ ذَهَبٍ] مع تحقيق الهمزتين. وقرأ السّوسي: [ولُولُؤٍ] بالجرِّ مع تسهيل الهمزة الأولى وتحقيق الثانية. وقرأ باقي القراء العشرة: [وَلُؤْلُؤٍ] بالجرّ مع تحقيق الهمزتين. وفيهاقراءات أخرىٰ هي من قبيل الأداء.

٣٦ ـ • قرأ أبو عمْرو: [كَذَلِكَ يُجْزَىٰ كُلُّ كَفُورٍ] ببناء فعل «يُجْزَى» لما لم يُسَمَّ فاعله. وقرأ باقِي القرّاء العشرة: [كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ] ببناء الفعل للمعلوم، مع نون المتكلّم العظيم.

فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ
نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ
فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي
جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ
ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ
إِلَّا خَسَارٗا ﴿٣٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ
كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا
إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن
تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ
كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن
جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا
زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا

---

٤٠ ـ • [أَرَأَيْتُم] سهّلَ الهمزة الثانية نافع، وأبو جعفر، وحذفها الكسائي، وحقّقها باقي القرّاء العشرة.

٤٠ ـ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، وحمزة، وخلف: [عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ] بإفراد «بيّنة» وقرأ باقي القراء العشرة: [على بيّناتٍ مِنْهُ] بالجمع. والمؤدّي واحد، فالبيّنة اسم جنس يشمل البينات، ولكن في قراءة الجمع دلالة صريحة على تعدّد البيّنات وتنوّعها.

٤٣ ـ • قرأ حمزة: [وَمَكْرَ السَّيِّءْ] بإسكان الهمزة في الوصل. ووقف بإبدال الهمزة ياءً، وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَمَكْرَ السَّيِّءِ] بكسر الهمزة المحققة، ويقف هشام كحمزة، وله غير ذلك من الأداء.

يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾.

❀ ❀ ❀

٤٣ ـ • [الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا] سهّل همزة «إلّا» نافع، وابن كثير، وأبو عمْرو، وجعفر، ورُوَيس. وأبدلوها واواً مكسورة. وقرأها باقي القراء العشرة همزة محقّقة.

٤٣ ـ • [سُنَّتَ] وقف بالهاء ابن كثير، وأبو عمْرو، والكسائي، ويعقوب، «سُنَّهْ» وقرأ الباقون بالتاء «سُنَّتْ».

٤٥ ـ • [جَاءَ أَجَلُهُمْ]: قرأ بإسقاط الهمزة الأولى: قالون، والبزّي، وأبو عمرو. وقرأ بتسهيل الهمزة الثانية: ورْشٌ، وقنبل، وأبو جعفر، ورُوَيْس. وقرأ بتحقيق الهمزتين باقي القراء العشرة.

## (٢)
## موضوع سورة «فاطر»

لدى تأمُّلي في سورة (فاطر) وآيات دُروسها ظهر لي أنَّها تتابع تفصيل بياناتٍ تتعلّق بفروع شجرة موضوع سورة (الفرقان) التي نزلَتْ قبلها مباشرة، وأن موضوع سورة (فاطر) هو موضوع سورة (الفرقان).

إنّ سورة (فاطر) سورة منفصلة، إلَّا أنّها في البياناتِ الّتي اشتملت عليها بمثابة سورة مُلْحَقَةٍ بسورة (الفرقان) وتابعةٍ لَهَا، ومضيفة تفصيلاتٍ تتعلَّقُ بعناصر موضوعها.

وقد سبق أنّ عرفنا أن موضوع سورة (الفرقان) جذْرٌ من عناصر القاعدة الإيمانية تنطلق منه شجرةٌ ذات أربعة فروع، وأنّ آياتها موزعات على هٰذهِ الفُرُوع الأربعة، فبعضها يختصُّ بفرعٍ منها، وبعضها يشْترِكُ بفرعَيْنِ أو أكثر منها.

وهذه الفروع الأربعة هي ما يلي:

## الفرع الأوّل:

فرعٌ يتعلّقُ بالله عزّ وجلّ وبعض صفاته الجليلة، ولا سيما توحيد رُبُوبيّته وتوحيد إلَهيَّتِه، ويتعلَّقُ بمناقشة المشركين ومناظرَتِهم حوْلَ عَقَائِدِهم المخالفة للحقِّ الّذي جاء به الإسلام، لإقناع من لدَيْهِ استعدادٌ للاقتناع بالحقّ، ولإقامة البراهين الدامغَةِ القاطعة لأعذار المكابرين المصرّين على باطلهم من عقائدهم الشركيّة.

## الفرع الثاني:

فرع يتعلّق بالقرآن المنزَّل على الرسول محمد ﷺ وتكذيب المشركين الكافرين به، ومناظرتهم حول تشكيكاتهم فيه، وشبهاتهم حوله، والرّدّ على اعتراضاتهم ومقترحاتهم بشأنه، وإقامة الحجَجِ عليهم لإقناع طالب الحقّ منهم، ودَمْغِ المعاند المكابر المصرّ على الباطل وجُحود الحقّ.

## الفرع الثالث:

فرع يتعلّق بالرسول محمّد ﷺ، وتكذيب المشركين الكافرين له، وتكذيبهم بما جاء به عن رَبّه، والردّ على اعتراضاتهم وتشكيكاتهم في

صحة نبوته ورسالته، لإقناع طالب الحقّ، ودَفْعِ المعاند المكابر المصرّ على الباطلِ وجُحُودِ الحقّ.

**الفرع الرابع:**

فرع يتعلّق بالمرسَلِ إليهم وهم جميع العالمين، مع التركيز على الّذين تبلّغُوا إبّان التنزيل دعوة الرَّسول محمّد صلوات الله وسلاماته عليه، وهم يومئذٍ قسمان، ويقاسُ عليهم كلُّ الناس حتّىٰ آخر مُمْتَحَنٍ منهم في الحياة الدنيا.

**القسم الأول:** الذين آمنوا وصدّقوا واتّبعوا الرَّسول، واتّبعوا ما أُنْزِلَ إليهم من رَبّهم، على مراتبهم ودراجاتهم في الإيمان والعمل الصالح، والالتزام بمطلوب الله منهم إلزاماً أو ترغيباً.

وهؤلاء لهم ثلاث مراتب:

- ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾: وهم أهل مرتَبةِ التقوىٰ على تفاضلهم ارتفاعاً ونزولاً في درجات هذه المرتبة (مرتبةُ التقوىٰ هي المرتبة الدنيا).

التقوى تكون بفعل الواجبات وترك المحرّمات.

- ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾: وهم أهل مرتبة البرّ على تفاضُلهم في درجات هذه المرتبة (مرتَبَةُ البر هي المرتبة الوسطى).

- ﴿ٱلْبِرَّ﴾: هو التوسّع في أعمال الخير من نوافل العِبَاداتِ والْقُربان.

- ﴿مُحْسِنُونَ﴾: وهم أهْلُ مَرْتَبَةِ الإحسان، على تفاضُلِهم في درجات مرتبة الإحسان (مرتَبَةُ الإحسان هي المرتبة العلْيَا).

- ﴿ٱلْإِحْسَٰنِ﴾: أن يَعْبُد المؤمن ربّه كأنّه يراه فيُحْسِن عمله ويجوّده.

وقد اختير للسابقين في الخيرات بإذْن الله وهم أهل مرتبتي البرّ

والإحسان عنوان: «عباد الرحمن» وقد جاء في سورة (الفرقان) بيان الصفات الّتي امتازُوا بها، فجعلَتْهُم مُرَشّحِين لأن يكونوا أئمّةً للمتقين.

**القسم الثاني**: الّذين كَذَّبُوا وَكفَروا على مهابطهم في دركاتهم كُفْراً وإجراماً وعناداً، ومعاداةً للحق الرّبّانيّ، ومقاومةً للذين آمَنُوا، ومحاربَةً لأنصار الحقّ ودُعاته، واضطهاداً لهم.

وقد سبَق شَرْحُ ما جاء في سورة (الفرقان) ممّا يتعلَّقُ بمعالجتهم إقناعاً ومجادلةً، وموعظةً بالترغيب والترهيب، وضرب الأمثال التاريخية، وبيان سُنَّةِ الله في عباده.

واقتضت الحكمة البيانيّة الرّبّانيّة إتباع سورة (فاطر) لسورة (الفرقان) في التنزيل، وجَعْل آياتها تتوزّع على الفروع نفْسِها التي توزّعَتْ عليها آياتُ سورة (الفرقان) استقصاءً لكلّ ما يَحْسُنُ تفْصِيله، ومُحاصَرةً لنُفوس المتَلَقّين المبلَّغِين من كلّ جوانبها الفكرية، والعاطفيّة، والوجدانيّة، بغْيَةَ قطْعِ أعذار المعرضين، والمدْبِرين، الّذين يمْكِنُ أَنْ يتذَرَّعُوا بباطلات المعاذير، لدى الحساب وفصل القضاء يوْمَ الدِّين، أو لدىٰ مناظرات المؤمنين الدُّعاة إلى الله لهم في الدنيا.



## (٣)
## دروس سورة فاطر

تشتملُ سورة (فاطر) على أحد عشر درساً ضمن وحدة موضوعها، الذي تفرّعت شجرته إلى أربعة فروع كما سبَق بيانه.

**الدرس الأول**: يتضمن الثناء على الله بكل المحامد، وبيان أنه فاطر السماوات والأرض، وأنه جاعل الملائكة رسلاً له، يؤدّون وظائفهم في

كونه بحسَبِ أوامِرِه لَهُمْ، وأنَّهم أصناف ذوو أجنحة مثنى وثُلَاثَ ورُبَاع وأكثَر، وأنَّهُ سُبْحَانه على كلِ شيء قدير.

وهذا الدرس يتَعَلَّق بالْفَرْعِ الأوَّلِ من فروع موضوع السورة، وهي الفروع الممتدَّة من شجرة موضوع سورة (الفرقان) كما سبَقَ به البيان.

وفي هذا الدّرس ربط بما جاء في سورة (الفرقان) بشأن طلب المشركين أن يُنَزِّلَ اللَّهُ عليهم الملائكة، لتبليغهم دينه، وأنْ لا يقتصر الأمر على إنْزَالِ الوحي على محمّد الذي ادّعَىٰ أنه رسول الله وأنّه يوحىٰ إليه، وهذا ما جاء بَيَانُه في الآيتين (٢١ ـ ٢٢) منها.

هذا الدرس الأوّل هو الآية الأولى من سورة (فاطر).

**الدرس الثاني**: درْسٌ له صلةٌ ببعْضِ ما جاء في سورة (الفرقان) إذْ جاء فيها بيان اعتراض قادة المشركين في مكّة على حالة الرسول محمّد الماليّة، فلم يؤته سعةً من المال، وهو يدّعي أنَّه رسولُ رَبِّه الّذِي اصطفاه لحمْلِ رسالته.

وقَدْ تَضَمَّن هذا الدرس بيانَ أنّ الله عزّ وجلّ بحكمته يفتح على بعض عباده ما يشاءُ من رحمته، فإذا فتح شيئاً من رحمته على بعض عباده فلا ممسك له، وإذا أمْسَك شيئاً من رحمته عن بعض عباده فلا مُرْسِلَ له، ومن رحمته عطاء النبوة والرّسالة، إلى سائر عطاءاته لعباده.

ويتضمّن بيان أنّه تبارك وتعالى عزيز حكيم، فهو بعزّته يفعل ما يشاء، ويخلق ما يشاء، وهو بحكمته يَخْتَارُ من الممكنات في تصاريفه ما هو الأحكم والأجْدَرُ بالاختيار.

ويتضمَّنُ تذكيرَ النّاس بنعمة الله عليهم التي اختَصَّهُم بها، ففضَّلهم على كثيرٍ ممَّن خَلَقَ وممّا خَلَقَ تفضيلاً عظيماً، فجعلهم في أحسن تقويم، وأمدهم بعَطَاءات رُبُوبيَّتِه، ويُمِدُّهم دواماً بأرْزاقِهم، مع بَيَانِ أنّه لا رازق في الوجود غيره، إذَنْ فلا إلَه إلّا هو.

ويتضمَّنُ تأنيب المشركين على شِرْكهم الّذي صُرِفُوا به عن قاعدة الحقّ وصراطِ الهُدَىٰ.

هذا الدرس هو الآيتان (٢ و٣) من السورة.

**الدرس الثالث:** درسٌ يتضمن علاج نفس الرَّسول محمّد ﷺ بشأن تكذيب كفّار قومه في مكة له.

وفي هذا العلاج أَبَان الله عزّ وجلّ له أنّ رُسُلاً كثيرين من قَبْلِه قَدْ كُذِّبُوا من قِبَلِ أقوامهم، أي: فَصَبَروا على ما كُذِّبُوا وأوذوا، فَعَلَيْه أنْ يقْتَدِيَ بهُدَاهُمْ، وظاهرٌ في هذا الدرس أنّه يتعلّق بفرع الرسول من فروع موضوع السورة.

هذا الدرس هو الآية (٤) من السورة.

**الدرس الرابع:** درسٌ يتضمَّن نداءً تحذيريًّا من الله عزّ وجلّ للناس أجمعين، بأنَّ وَعْدَهُ بشَأْنِ يُومِ الدّين، وما فيه من دار للنّعيم ودارٍ للعذاب وعْدٌ حقٌّ. ويتضمَّنُ معالجةً إقناعيّةً لَهُمْ بأنْ لا تغُرَّهُمُ الحياةُ الدنيا، وبأن لا يَغُرَّهم الشيطانُ الغَرُور، إذْ هُوَ عَدُوٌّ لهم، فعَلَيْهم أن يتّخِذُوهُ عدُوّاً.

ويتضمّن الترهيب من العذاب الشديد للّذين كفروا، والترغيب في المغفرة والأجر الكبير للذين آمنوا.

ويتضمّن معالجةَ نَفْسِ الرسول محمّد ﷺ بأنْ لا تتأثّر نفسه بالحسْرَة على أنّ كفَّار قومه لم يستجيبوا لدعوته، مع إشعارِهِ بأنّهم في رحلة امتحان، وبأنّ الله عليم بما يصْنَعُون.

وظاهرٌ اتّصال هذا الدرس بفروع شجرة موضوع السورة، وهي الفروع الممتدة من سورة (الفرقان) والسائرة مع آيات سورة (فاطر) وهو موصولٌ بفَرْعَي المرْسَلِ إليهم والرَّسُول.

هذا الدَّرْسُ هو الآيات من (٥ ـ ٨) من السورة.

**الدُرسُ الخامس**: درسٌ يتضمَّن بياناً لبعض الظواهر الكونيّة الدالّة على رُبوبيَّةِ الله للكَوْن كلِّه، ووحدانيَّته فيها، ويلْزَم عقلاً من توحيد الله في رُبوبيَّتهِ وجوبُ تُوحيدِه في الإِلَهيَّة. وهذا موصول بالفرع الأول من فروع شجرةِ موضوع السورة (الله).

هذا الدرس هو الآية (٩) من السورة.

**الدرس السادس**: درسٌ يتضمَّنُ إقناعاً للمشركين الّذين يعبدون آلهة من دون الله ليكونوا لهم عزّاً، بأنّ العزّةَ (وهي القوة الغالبة) كُلَّها في الوجود كلّه هي لله وحده لا شريك له، فلا عزَّة لدىٰ آلهة المشركين حتىٰ يطلبوها منهم.

ويتضمّن إقناعاً بأنّ دُعَاءَ غير الله من آلِهَةٍ دُعاءٌ ضائع، أمَّا دُعَاءُ الله عزّ وجلّ فهو من الكلام الطيّب وإلَيْه جلّ جلالَهُ يَصْعَدُ، فهو بحكْمَتِهِ يجيبُ دُعَاءَ من دَعَاهُ إذا شاء.

ويتضمَّنُ بَيَانَ أن الْعَمَلَ الصَّالِحَ الَّذِي يعْمَلُه المؤمنون يرفَعُه جلَّ جلاله، فَيرْتَفِعُ بِرفْعِه أهْلُه.

ويتَضمَّنُ بيانَ أنّ الذين يمكُرُون السّيئات ضد الرسول وضدّ المؤمنين وضدّ دين الله لَهُمْ عذابٌ شديد، مع أنّ مكرهم السّيِّئَ لا يُعْطِيهم ما يُحبون من نتائج، إذْ يُحبِط الله أعمالهم.

وظاهرٌ ارْتِباطُ هذا الدرس بالفرع الرابع من فروع شجرة موضوع السورة (المرسل إليهم) إقناعاً وتوجيهاً وترغيباً وترهيباً.

هذا الدرس هو الآية (١٠) من السورة.

**الدرس السابع**: درسٌ يتضمن عوداً إلى عرض بعض آيات اللَّهِ في

كونه، الدالة على أنَّهُ هو وحْدَه رَبُّ كُلِّ شيءٍ، فهو الإلّه وحْدَهُ الّذي يسْتَحِقُّ أن يُعْبَد.

وفيه تنبيهٌ على عدّة ظاهراتٍ كونيّة، من ظاهرات خَلْقِ الله الدالّات على كمال قدرته، وإتقانِ صُنْعِهِ لكلِّ شيء، وشمول علمه، وعظيم نِعَمِه علىٰ عباده رحمةً بهم.

وفيه إقناع للمشركين بأنّ عبادتهم لشركائهم لا تنفَعُهم شيئاً..

هذا الدرس هو الآيات من (١١ ـ ١٤) من السورة.

**الدرس الثامن**: درسٌ يتضمَّن بياناتٍ كثيراتٍ للنَّاس، حول قضايا من أصول الدين، وأصول حقائق الأشياء، تعليماً وإقناعاً.

وفيه إنذارٌ للمشركين. وفيه بيانٌ حول طائفة من آيات الله في كونه.

وهذا الدرس هو الآيات من (١٥ ـ ٢٦) من السورة.

**الدرس التاسع**: درسٌ فيه عوْدٌ إلى عرض بعض آيات الله في كونه، وهيَ آيات تتعلَّق بظاهرة الألْوَان في الأكْوَان.

هذا الدرس هو الآيتان: (٢٧ و٢٨) من السورة.

**الدرس العاشر**: درسٌ يتعلّق بالقرآن المجيد، الفرع الثاني من فروع شجرة موضوع السورة.

وفيه بيان مطلوب الله من المؤمنين بشأن تلاوته والعمل بما أوجب الله عليهم فيه.

وفيه بيانٌ يتعلَّقُ بالأمَّة المحمّديّة الوارثة له، مع بيان أقسامها..

وفيه وعْدٌ للّذين آمَنُوا بجنّاتِ النعيم، مع عرض بعض أحوالهم فيها، على سبيل الترغيب.

وفيه وَعِيدٌ للذين كفروا بنار جَهنَّم، مع عَرْض بَعْض أحوالهم فيها، على سبيل الترهيب.

هذا الدرس هو الآيات من (٢٩ ـ ٣٨) من السورة.

**الدرس الحادي عشر:** دَرْسٌ يشتمل على أساليب إقناعيّة للمشركين الّذِين اشتملت سورتا (الفرقان) و(فاطر) على كثير من معالجاتهم الإقناعيّة بمختَلِفِ الحجَجِ، لقطع أعذارهم، وبيان أنهم معاندون مكابرون جاحدون، يستَحقُّون الخلود في عذاب النارِ يَوْمَ الدين.

هذا الدرس هو الآيات من (٣٩ ـ ٤٥) آخر السورة.



## (٤)
## التدبّر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة وهو الآية (١) منها

قال الله عزّ وجلّ:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾.

**تمهيد:**

من ارتباط سورة (فاطر) بشجرة موضوع سورة (الفرقان) نلاحظ في بدء سورة (فاطر) الثناء على الله عزّ وجلّ بعبارة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كما جاء في بدء سورة (الفرقان) الثناء عليه جلّ جلالُه بعبارة: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾ وكذلك في الآية (١٠) منها، وفي الآية (٦١) منها.

فكان من الحكمة البيانيّة في سورة (فاطر) افتتاحُها بإثباتِ كلّ

الحمْدِ لله، ما يمكن أن تُدْرِكه الخلائق منه، وما لا يمكن أن تُدْرِكه، وكان إثباتُ كلّ الحمدِ لله في افتتاح (فاطر) بمثابة التعميم الشامل، بعْد ذكر أنواع من الثناء على الله مقترنة بشيءٍ من التفصيل في سورة (الفرقان).

**التدبر:**

• ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: **الحمْدُ**: هو التحدُّثُ على وجْهِ التمجيد بصفات المحْمُود الجميلة، وهو مرادِفٌ لكلِمَةِ: «الثناء».

وتعريف بعض أهل العلم للْحَمْد: «بأنَّهُ الثناءُ باللّسَان عَلَىٰ الجميل الاختياري» تعريفٌ قاصر، لأنّ صفاتِ الله الذاتيّةَ الأزليّة تُحْمَدُ، مع أنّها ليسَتْ من أفعاله الاختياريّة، ولأنّ القلب والنَّفْس قَدْ يتحدَّثان بالْحَمْد ولو لم يتحرَّكِ اللّسانُ بعبارة الْحَمْد.

و(ال) في كَلمة «الْحَمْدِ» هُنا استغراقيّة، تعمُّ كُلَّ أجناس الحْمدِ، وأنواعه، وأصنافه، وأفراده.

والحْمدُ لله يتناوَلُ تمجيدَهُ بصِفَاته الوُجوديّةِ الّتي هي من ذاته، وبصفات أفعاله، فهو يشْمَلُ الثناء على الله بكُلِّ صفاته وأسمائه الحسْنَىٰ، مَا عَلِمْنَا منْها وما لم نَعْلَمْ.

ويتناول أيضاً تنزُّهه جلّ جلالُه عن كلّ الصفاتِ الّتي لا تليقُ به، ما عَلِمْنا منها وما لَمْ نَعلَمْ، فله الحمْدُ لبراءَتِه منْها وتنزُّهِهِ عنها.

واللّام الجارّة في ﴿لِلَّهِ﴾ هي هنا بمعنىٰ المِلْكِ أو الاختصاص.

ولفظ الجلالَة «الله» علَمٌ في اللّسان العربيّ على خالِقِ الكون الأزلِيّ الأبَدَيّ الّذي لَا أوّلَ لَهُ ولَا آخِر، فَهُو الأوّل والآخر.

فمعنى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: كلُّ الْحَمْدِ مَا نَسْتَطِيعُ تَصوُّرَهُ ومَا لا

تَسْتَطيع تَصَوُّرَهُ، منْ صفات ذاتِ الله، وصفاتِ أفعاله، وبراءَتِه من كلّ الصفات الّتي لا تليقُ بجلَالِه، هو لله ملكاً أو اختصاصاً.

ويَلْزَمُ من كوْنِ كلِّ الحمْدِ لله تفرُّدُهُ بهذا الحمدِ، فلا يُشارِكه في كمال الحمْد شيءٌ في الوجود، وهذا يتضمَّنُ الإعْلانَ عن توحيد الله في ذاته، وفي صفاته وأسمائه الحسْنىٰ.

بهذه الجملَةِ القصيرة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يُعَلّمُنا رَبُّنا جلَّ جلالُهُ كيْفَ نَحْمَدُهُ تَبارَك وتَعالىٰ، وكيف نثني عليه، إذْ نحنُ بوصفنا بشراً مَحْدُودِي المدارك لا نَسْتَطِيعُ أنْ نُدْرِكَ من كمالات الله جلّ جلالُهُ وعظم سلطانهُ إلّا على مقادير أوعيتنا الإدْراكيّة، إذنْ فنَحْنُ لا نسْتَطيعُ أنْ نُحْصِي الثناءَ علَيْه بما هو لَهُ من كمالاتٍ على وجْهِ التفصيل، لكن نَسْتَطيعُ أن نقول على وجه الإجمال: كلُّ الحمْدِ الذي يُمْكن أنْ يُحْمَدَ به اللَّهُ هو لَهُ وَحْدَهُ لَا يُشارِكُهُ فيه أحَدٌ، ولدَىٰ اختصار هٰذه العبارة إلَىٰ أقَلِّ الكلماتِ الدَّالّاتِ علَيْها نقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ».

وهذه العبارة متعلقة بالفرع الأول من فروع السّورة الأربعة، الممتَدَّة إلى سورة (فاطر) من سورة (الفرقان).

• ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: كلمة: «**فَاطِر**» اسْمُ فاعل من فعْلِ «فَطَرَ» أي: فاعل الْفَطْرِ، وهي هُنَا صفَةٌ للَّهِ، أو بَدَلٌ منه، إذا اعتبرنا الإضافة غير محضة.

**الفَطْر**: هو في اللُّغة الشَّقُّ، ويُسْتَعْمَلُ في شَقِّ ظاهرِ الشيْءِ من باطِنِه، وخروجِ ما من أَجْلِه حصَلَ الشَّقُّ من الباطن.

يقال لغة: فَطَر السِّنُّ اللَّحْمَ في الْفَمِ وطَلَع نامِياً، أي: شَقَّهُ وخرجَ من باطنه، ويُقال: فَطرَ النَّبَاتُ الأرْضَ، أي: شقَّها ونَبَتَ مِنْ باطِنِها مُتَنامياً.

وقَدْ حَمَلَ الْفَطْرُ مَعْنَى الْخَلْق على نظام ابتداءِ الشيْءِ منْ عُمْقِ باطِنِه، والاتّسَاعِ به إلى الأبْعاد الّتي تكُونُ في ظاهره، فالنواةُ الصُّغْرىٰ تنشَقُّ وَتَنْمُو وتتكاثَرُ حتَّىٰ تكون شجرةً عظيمة، والْبُيَيْضَةُ بعْدَ تَلْقِيحِها بالْحُوَيْنِ الّذي يأتي إليها من الذّكَر تَنْفَطِر مُنْشَقَّةً ومُنْشَطِرَةً، وتَنْمُو وتتكاثر وفْقَ الْخَرِيطَةِ المسجَّلَةِ في عُمْقِ نَوَاتها، حتَّىٰ تكُونَ حيواناً كبيراً مُطَابقاً لبَرْنامج خريطَتِه المسجَّلَةِ في نواتِه الأولىٰ الْمُودَعَة في عُمْقِ بُيَيْضَتِه بَعْدَ أن اتَّحَدَتْ معَ نَواةِ الْحُوَيْن الذي اقترن بها قادِماً من الملَقِّحِ الذّكر، إذْ تتكامل بهما خريطة إيجادِه.

وقد كان الله عزّ وجلّ ولَا شيْءَ معَه، وفَطَر السَّمَاواتِ والأرضَ، أي: خَلَقَهُمَا وفْقَ نِظَام الْفَطْرِ ابْتِداءً من الْعَدم. والْعَدَمُ يتَّضِحُ تَصَوُّرُه من مَرْكَزِ عُمْقِ كُلّ شيءٍ، إذْ يَتَفَجَّرُ منْهُ الموجُودُ مُتَنَامِياً بإيجاد الخالق البارئ المصَوِّرِ له.

وقد اخْتار الله عزَّ وجلَّ لأعْمَالِ خَلْقِهِ لِلْأَكْوان نِظَامَ خَلْقٍ قَائم على أمْرَين:

**الأمر الأول:** نظام الْفَطْرِ من الْعُمْق الّذي يَسْهُلُ تَصوُّرُ الْعَدَم عِنْدَ مَرْكَزِهِ، مع قُدْرَتِه ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُم سلطانُه ـ على أنْ يَخْلُقَ من الظاهر إلى الباطن، إلّا أنّ الْخَلْقَ من الباطن إلى الظاهر أدلُّ على الْخَلْقِ من العَدَم.

**الأمْرُ الثاني:** نظامُ الإنشاء المتدرّج للأشياء حتَّىٰ غايَاتِها الّتِي تتكامَلُ عنْدَها، وهو نظام التربيَة، ولِهٰذا عرَّفَنا اللَّهُ عزّ وجلّ، أنّ من صفاته الجليلة العظيمة أنَّهُ رَبُّ العالمين، أي: موجد العالمين بُربوبيَّتِهِ وفْقَ نظام الإنشاء المتدرّج، والإنقاص التنكيسِيّ المتَدرِّج أيضاً، مع قُدْرَته جلّ جلالُهُ على أن يخْلُقَ أيَّ شيءٍ يُريد خَلْقَه دُفْعَةً واحدةً، فَمَا يُنْشئه وَيُرَبّيهِ خلالَ

مليارات السنين، قادِرٌ على أن يُوجِدَهُ بكَلِمَة: «كُنْ» في أقلَّ من طرْفة عَيْنٍ، ولَكِنَّ حِكْمَتَه في التكوين اقتضَتْ أن يكونَ خَلْقُهُ على نظام التَّربية، فهو جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُه ربُّ العالمين، ومن حكْمَةِ هذا الاختيار أنْ يكون خالقاً دواماً مهما تعاقَبَتِ الأزمان.

وإنّ بَدْءَ إيجاد الشَّيْء من عُمْقِ باطنه إلى ظاهره، أكثَرُ دَلَالَةً لدى أذهان المخلوقين، على أعمال الخلْقِ الإبداعي، من تجميع العناصر على الشيء من أبعاد ظاهره.

إنّ أعمال الناس الإبداعيَّةَ في البنَاء والإنشاء والمخترعاتِ كلّها تَتِمُّ عن طريق جلْب العناصر من خارج الشيءِ، وضمّ بَعضِها إلى بعْضٍ عن طريق الظاهر حتَّىٰ تتكامل، وهم لا يستطيعون مهما كان بعْضُهُم لبَعْضٍ ظهيراً، أن يجعَلُوا ما يُبْدِعُونه ينفطر من باطِنِه، ولو من خِلَالِ قنواتِ صغرياتِ نواتِه الأولىٰ التي علَيْهم أن يبدعوها، وأن تكون هذه الصُّغْرياتُ هي المحدِّدَةَ لخريطَةِ صفاته الجسديّة والنفسيَّة، المادّيّة والمعنويّة، حتَّىٰ يتكامَلَ خلْقُهُ وفْقَ مَا قُدِّر له في خريطة إيجاده.

إنّ مَرْكز جِسْمٍ ما، كَكُرَةٍ حَجَرِيَّةٍ أو مَعْدَنيَّةٍ مثلاً، هي نقْطَةُ الْعَدَم المطْلَقِ الْذِي يَبْدَأُ عِنْدَها الإيجادُ من العَدَم، لأنّ الخطُوطَ التقديريَّة المتَصَّورَة في الذّهن، والممتدّةَ من سَطْحِ الْكَرَةِ إلى عُمْقِها، ستنقطع حتْماً عند التلاقي في الْعُمْق.

فالمركزُ الّذي تنقَطِعُ عنْدَهُ مُتَلَاقيَةً هُوَ عَدَمٌ حَتْماً، لأنَّهُ ليْسَ شيئاً مادّيّاً، ولا فراغاً قابلاً للامتلاء.

ومن هذا البدْءِ الْعَدَمِيّ خَلَقَ الله السَّمَاواتِ والأرض، على طريقَةِ الْفَطْر، ويجري تتابُعُ عَمَلِيّاتِ الخلْق قي تصاعُدٍ وتنامٍ ضمن الأبعاد حوْلَه،

ويَحصُلُ التوسِيعُ في المخلوقاتِ مع التقيُّد بنظام الْفَطْر، سواءٌ أكانَتْ هٰذهِ الأبعادُ حول ظاهر الشيءِ فراغاً مطلقاً، أمْ كانت مملُوءةً بَعْضَ امْتِلاءٍ بأشياء سَبَق إيجادُها.

ولِلْإشارة إلى أنّ عمليّاتِ الخلْقِ الرَّبّانية تجري وفْقَ نِظَام الْفَطْرِ من عُمْقِ الباطن، الّذي يتّضحُ عنْدَهُ تصوُّرُ الْعَدَم المطْلَق، ولا سيما عند بَدْءِ إيجاد الأكوان، جاء في القرآن المجيد وَصْفُ الله عزّ وجلّ بأنّه فاطر السَّماوات والأرض في عدّة نصوص، وبأنّه فطَرَ السّماوات والأرض، وبأنَّهُ فَطَر الناس.

ومثْلُ كلمة «الْفَطْر» ومشتقّاتها التي هي بمعنى «الشَّقّ» كلمة: «الْفَلْق» ومشتقاتها، وقد جاء في القرآن بيان أنّ الله عزّ وجلّ فالق الحبّ والنّوى، أي: خالق النّباتات والأشجار على وفق نظام الْفَلْق، وهو الشّقّ، ويَكُونُ الإِخْراجُ والإنماءُ من الباطن إلَىٰ الظاهر. وجاء فيه بأنّه تبارك وتعالى فالِقُ الإصباح، أي: مُخْرِجُهُ ضِمْنَ نظام الفلْق، وبأنَّه رَبُّ الْفَلَق، وهو الصّبْح.

سُمِّيَ الصُّبْحُ فَلَقاً، لأَنَّهُ يشُقُّ ظُلُمات اللّيل، وينَبَثِقُ نوره من داخلها.

ومن معنى ابتداء الخلْقِ وفْقَ نظام الشّقّ من عُمْق باطن الشيء الْمُرَادِ خَلْقُه، اشْتُقَّتْ كلمة: «الفِطْرَة» أي: الخِلْقَة الْتِي فُطِرَ المخلُوقُ وهو عليها تقديراً وقضاءً وتنْفِيذاً، منْذُ بَدْءِ إيجاده من عُمْقِ نواتِه الأولى، المشتملَة على خريطة تكوينه الّذي يتِمُّ إنماؤه على وَفْقِها.

وعلى هذا نَفْهَمُ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرُّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

فالناسُ منْذُ بَدْءِ نَشْأَتِهِمُ الأولىٰ مفطُورون على أنْ يكونَ دِينُ الله

الْقيمّ هو الملائم لسَعَادتهم وصَلاح أحوالهم، وهو الّذي تَنْزِعُ إلى قبوله أعماقُ قلوبهم ونُفوسهم، وتقبلُهُ عقُولُهم، لولا نزعات أهوائهم، ومطالِبُ شهواتهم، ونَزَغَاتُ ووَساوِسُ شياطينهم.

وهذا المعنى هو الذي جعل سيّدنا إبراهيم يَرْفُضُ الشّرْك بالله عزّ وجلّ، ويقولُ كما جاء في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) مخاطباً قومَهُ:

﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٧٩﴾.

وهذا هو الذي جَعَلَ مُؤْمِنَ أَصْحَاب الْقَرْيَةِ يَقُولُ لِقَوْمِه كما جاء في سورة (يسٓ/٣٦ مصحف/٤١ نزول):

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٢﴾.

وجُمْلَةُ النُصوص القرآنيَّة الّتِي جاءت فيها هذه المادَّةُ بمعْنَى الخَلقِ وفْقَ نظام الشّقّ، وإخراجِ نماء المخلُوقِ من باطنه إلى ظاهره خمسْةَ عشَرَ نَصّاً.

• ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾: الحديث هُنا عن الملائكة تابع للحديث عنهم في سورة (الفرقان) وهو ما جاء في الآيتين (٢١ و٢٢) منها.

**جاعل**: اسم فاعل من فِعْل «جَعَل» أي: فَعَل، أو عَمِل، أو صَنَع. ويأتي فِعْل «جَعَل» بمعاني: صَيَّر، وادّعَىٰ، واعتقد، وحَكَم، وقَضَىٰ، وقدّر.

وهو بمعنَى «فَعَل أو عَمِل» قد يكون على سبيل الخلْق والتكوين الإبداعي، وقد يكون بمعنىٰ إجراء حدَثٍ ما من الأحداث، كقَطْع شجرة وجَعْلها حطباً وإلقائها في النّار وقوداً، وكجَعْلِ الكرسيّ في الزاوية اليمنَىٰ دون اليُسْرَىٰ، وكجَعْل المدير أحد الموظفين أمين سِرِّ مكتبه.

فالجعْلُ اسم جنْسٍ يشْمَلُ إحداث شيءٍ ما، ومن الإحداثات أعمال الخلْق والإبداع على غير مثالٍ سبَق، ومنْها أمُورٌ أخرىٰ مادّيّةٌ أو معنويَّةٌ ليسَتْ من قبيل الخلْق والإبداع.

ولا يشترط في الجعْلِ أن يوافقَ الحقَّ أو الحكمة، لكن ما يجعله الله عزّ وجلّ هو حقٌّ وموافقٌ للحكمة حتماً، فكلُّ أفعال الله واختياراته وإجراءاتِه في الوجود كلِّه أمورٌ حكيمة، إنَّه جلّ جلالُهُ وعظُم سلطانُه يفْعَل ما يَشَاءُ ويختار، وهو العليم الحكيم القدير.

• ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: نوْعٌ من الأحياء النُّورَانيّة الّتي لم نُعْطَ القدْرة على إدْراكها بحواسِّنا في مجرَىٰ العادات، ما لم تتشكَّلْ هي بالأشكال الجسمانية التي نستطيع إدْراكَها بحواسِّنَا.

وقد خلق الله الملائكة من نور، وخلَقَ الجنَّ من مَارِجٍ من نارٍ، أي: من أصْناف مختلطة من نار صافية، وخلَق الإنْسَ من طينٍ، أي: من ماءٍ وتراب.

وأُجْمِلُ التَّعْرِيفَ بالملائكة فيما يلي:

هُمْ مخلوقاتٌ غيبَيَّةٌ عنَّا، لهَا حياةٌ وعِلْم، وهي ذواتُ أجسام نورانيَّة لطيفة، لا نراهم في الحالة العادية، قادرون على التشكُّلِ بالأشكال الجسمانيّة المختَلِفة المرئيَّةِ لنا، أُولُو أجنحة مثْنَىٰ، وثُلاثَ، ورُباعَ، وأكثر، لَا حَصْرَ لهم إلّا في عِلْم الله، مُخْبِتُونَ إلى الله، مطيعون له، لا يعصون الله ما أمَرَهم، ويفعلون مَا يُؤْمَرُون، لا يتناكحون ولا يتناسَلُون، ولا يأكلون ولا يشربون، إنّما هُمْ عبادٌ مُكْرَمُون، يُسَبّحون الله ويذكُرُونه، ويَعْبدونَهُ لا يَفْتُرون، يحملون رسالات ربّهم في العالمين، ويُؤَدّون وظائفَهم في الأكوان، بحسَب تَدْبيراتِ الأقْدار، على مراد العزيز الحكيم الجبّار.

ولفظ «الملائكة» جمْعٌ مفردُه «مَلَك» و«مَلَاك». ومادّة الكلمة مأخوذةٌ من «الأَلُوك» و«الْمَأْلَكَة» بفتح اللّام، و«الْمَأْلُكَة» بضم اللّام، وهذه الأصول هي بمعنى الرّسالة الّتي يحْمِلُها الرّسول، ويؤدّيها على وفْق التكليف.

يقالُ لغة: أَلَكَ بين القوْمِ أَلْكاً وأُلُوكاً، أي: حمل بينهم رِسالة، وتَدَخَّلَ التصْريف في الكَلِمة بَعْدَ ذلك.

ولمّا كانت الملائكةُ رُسُلَ رَبِّهم في كَوْنِه لتأدية الوظائف الَّتي يأمُرُهم بها، كانَ من المناسب تسْمِيتُهُمْ «ملَائكة» والواحِدُ منهم «مُلْأَك» أي: حامل رسالة، وبتسهِيلِ الهمزة صار اللّفظ يُنْطَقُ «مَلَاكاً» وبحذف الألف صار «مَلَكاً».

• ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ﴾.

وصف الله عزّ وجلّ الملائكة في الآية بأنَّهُمْ أولُو أجْنِحَةٍ مثنىٰ وثُلاثَ ورُبَاعَ، أي: وأكثر من ذلك بدليل قوله تعالى فيها: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ﴾: أي: لِمَنْ شاء، ولِمَا شاء.

كلمة: ﴿أُوْلِيٓ﴾ جمْعٌ لا واحد له من لفظه، وهو بمعنى: «أصحاب» ويُعْرَبُ بالْحُرُوفِ إلْحاقاً بجمع المذكّر السّالم، وقد جاءت في الآية نعْتاً لكلمة: ﴿رُسُلًا﴾.

فالملائكةُ أصحابُ أجْنِحَةٍ تستعملها للصّعود والهبوط بين السَّماء والأرْض، قائمة بوظائفها المأمورة بها.

• ﴿أَجْنِحَةٖ﴾: جمْعٌ مفردُه «جَنَاح» وهو الأداة الّتي يطير بها الطائر فيما نعلَمُ من مخلوقاتٍ نُدْركُها بحواسّنا، وموضِعُه في الطائر نظير موضع اليد في الإنسان.

وظاهر العبارة في الآية يدُلُّ على أنَّ الملائكَةَ أصْناف، فصنْفٌ أولُو أجنحة مثْنَىٰ، وصنف أولُو أجْنِحَةٍ ثُلاثٍ، وصِنْفٌ أولو أجنحةٍ رُباع، بمعنى: كلٌّ واحدٍ من الصنف له جناحان، أو ثلاثة أجنحة، أو أربعة أجنحة.

وأشارت عبارة: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ إلى أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يُجْرِي بتجَدُّدٍ مسْتمرٍّ في أعمال خلْقه زياداتٍ تقتضيها حكْمتُه، لم تكُنْ موجودَةً فيما كان قد خلَق سابقاً، من أجناسٍ، وأنواعٍ، وأصنافٍ، وصفاتٍ، وزياداتٍ أُخرىٰ، ويدخُلُ ضمن هٰذِهِ الزّياداتِ في أعمال الخلْقِ ما يزيدُهُ من خَلْقِ أجْنِحَةٍ لأصنافٍ من الملائكة فوْقَ الرُّباع.

• ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: ألفاظ ممنوعة من الصرف، للوصْفيَّةِ والعدْل، لأن «مثنى» معدولة عن «اثْنَيْنِ اثْنَين» و«ثُلاثَ» معدولة عن «ثَلاثٍ ثَلاثٍ» وهكذا. . .

وهي هنا منصوبَةٌ على أَنَّها أحوال، أي: أولي أجنحةٍ حالة كونها مثْنَىٰ وثُلاثَ وَرُباعَ.

وعموم قوله الله عزّ وجل: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ يَدُلُّ على أنَّ ما يزيدُه اللَّهُ في الخلْقِ بتَجَدُّدٍ مستمِرٍّ لَا يقتصر على الزيادات في أجنحة الملائكة، بلْ هو يَشْمَلُ ما يزيدُهُ ـ جلَّ جَلَالُهُ وعظم سلطانُه ـ في الْخَلْقِ من كلِّ شيءٍ تقتضي حكمتُهُ أَنْ يزيدَ فيه، ومن ذلك ما جاء في قوله تبارك وتعالى في سورة (الذّاريات / ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿بِأَيْيْدٍ﴾: أي: بقُوَّة عظيمة.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾: أي: وإنَّا لَموسِعُونَ في السَّمَاء الّتي بنَيْناهَا بقُوَّةٍ عظيمة، توسِعَاتٍ مُتَجَدِّدَاتٍ باستمرار، معَ توالي الأزمان، وهذا من زياداتِ اللَّهِ جلَّ جلالُهُ في الخلْق.

وقد جاء عند البخاريّ في «صحيحه» عن عبد الله بن مسعود، أَنَّ النبيَّ ﷺ رأىٰ جبريلَ ليلَةَ المعراج له سِتُّمِئَةِ جناح.

ومثل هذا لا يكون من قِبَلِ الرّأي حتماً، فلَهُ قوةُ الخبرِ المرفوع إلى الرسول ﷺ.

• ﴿... إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: ختم الله عزّ وجلّ الآيَةَ بهذه الجُمْلَةِ، لِرَبْطِ ظواهر الخلق الرّباني في الوجود بهذه القاعدة العامّة من قواعد أصول الإيمان بالله جلّ جلالُه وعظُم سلطانه، الّتي دلَّت عليها ظاهراتُ الخلقِ في الكون، في السَّمَاواتِ وفي الأرض، وفي الأحياء وفي النباتات، وفي قِمَّةِ الأحياء المشاهدة لنا خَلْقُ الإنسانِ بصفاتِه العجيبة.

هذه الظاهرات الكونيَّةُ البديعة العجيبة تَدُلُّ على أنّ الله علىٰ كلّ شيءٍ قدير، ومن ذلك أنَّه يزيد في الخلْقِ ما يشاء، ومَا سبَقَ أن خَلَقَهُ اللَّهُ ـ جلَّ جلالُه وعظُم سلطانُه ـ دليلٌ على أنَّه قادِرٌ على أن يْخلُقَ مستَقْبلاً مَا يَشَاءُ، إنَّه على كلّ شيءٍ قدِير.



## (٥)
## التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة وهو الآيتان (٢ و٣) منها

قال الله عزّ وجلّ:

﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾.

**القراءات:**

(٢) • قرأ قالُون، وأَبُو عَمْرو، والكِسَائي، وأبو جَعْفَر: ﴿وَهْوَ﴾

بإسكان الهاء. وقرأها باقي القرّاء العشرة بضم الهاء، ووقف يعقوبُ بهاء السَّكتْ. وهي وجوه في النطق العربي.

(٣) • قرأ حمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلَف: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرِ اللهِ﴾ بجرّ لفظ «غَيْرِ» مراعاةً للفظ «خالقٍ» المجرور بحرف الجرّ الزائد. وقرأها باقي القرّاء العشرة برفْعِ لفظ «غَيْرُ» مراعاةً لمحل لفظ «خالق» إذ هو مبتدأ مجرورٌ لفظاً مرفوعٌ محلًّا.

**تمهيد:**

هذا الدرس موصول بما جاء في سورة (الفرقان) بشأن اعتراض قادةِ المشركين على ادّعاء محمد ﷺ بأنّه نبيُّ الله ورسولُه مقترحين إنزال مَلَكٍ معه أو إلْقَاءَ كنْزٍ عليه يُغْنِيه عن المشْيِ في الأسواق لكسب رزقه، وهو ما جاء في الآيتين (٧ و٨) منها.

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾.

ورَدّ الله عزّ وجلّ عليهم في سورة (الفرقان) بأسْلُوب خطاب رسوله، فقال عزّ وجلّ:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾.

لكِنَّ هذا الموضوعَ يحتاجُ إلى مَزيدٍ من التفصيلِ الّذي يُبَيّنُ مَشِيئةَ اللَّهِ العامّةَ في العطاء والمنْعِ، إذْ هُو وَحْدَهُ في الوجود كُلِّه المعطي والمانع، على وفق حكْمَتِه السنيَّة، جَلَّ جلالُه وعظُمَ سُلْطانه.

فجاء في هذا الدرس الثاني من دروس سورة (فاطر) بعْضُ تفصيل

له، نظراً إلى أنّ سورة (فاطر) تَسِير على فروع شجرة موضوع سورة (الفرقان) كما أَسْلَفْتُ في بيان موضوع السورة ودروسها.

وفي هذا الدرس الثاني أبان الله عزّ وجلّ أنّ عطاءاته، الّتي هي من رحمته الشاملة لِعَطَاءِ النبوّة وعَطَاءِ الرّسالة لمن يصطفيهم، ولِعطاءاتِ أنواعِ النّعَمِ الماديّة لعباده، مع التفاضُلِ فيما بيْنَهم فيها، في الخَلْق، وفي الرزق، وفي غير ذلك، أمورٌ خاضِعَةٌ لمشيئَتِه الحكيمة، جلَّ جلالُه وعظُم سلطانُه.

فَمَنْ قَضَىٰ الله لَه بعطاءِ شيْءٍ من ذلك فإنَّهُ لَا أَحَد في الوجود يستطيع أن يُمْسِكَهُ عنه، ومن قضى اللَّهُ بمَنْعِهِ فإنَّه لَا أحَد في الوجود يسْتَطِيعُ أن يُعْطِيَهُ ما منَعَهُ الله إيّاه.

إنّه لا مانِعَ لِمَا يُعْطي، ولَا مُعْطيَ لما يَمْنَع.

ومَنْ وَجَدَ نفسه محرُوماً من بعْض العطاءاتِ الرَّبّانيّة، كعَطاءِ النبوةِ أو الرّسالة، فلينْظُر إلَىٰ أنواعِ وأفرادِ النِّعَمِ الكثيرة والجليلَةِ في الخلْقِ والرِّزق وغَيْرِ ذلك مما أنْعمَ اللَّهُ به عليه، وليَنْظُرْ كَيْفَ فضَّلَهُ الله بعَطَاءَاتِه علىٰ كثيرٍ ممَّنْ خلَقَ تفضيلاً عظيماً، وليَذْكُرْ هذه النِّعَمَ دَواماً، فَمِنْ شأْنِ هذا التذكُّرِ أنْ يَدْفَعَهُ إلى أن يَحْمَد رَبَّه على ما أولاهُ من نِعَم، إذا كانَ ما زالَ على فِطْرَتِه السليمة التي فطَرَهُ الله عليها، ومن شأن هذا التذكّر أن يَدْفعَهُ أيضاً إلى أن يَعْمَلَ بما يتطَلَّبُهُ منْهُ إذْ هُو جلّ جلالُه رَبُّهُ الخالق، وهو رَبُّهُ الرازق، المُمِدُّ لَهُ بعَطَاءاتِ رُبُوبيَّتِهِ دَواماً، دُونَ أنْ يعْتَرِضَ عليه في شيءٍ من عطائِه ومَنْعِه، ودُونَ أن يَتطاوَلَ إلى ما ليْسَ هُوَ لَهُ بأهْل، كَطَلَبِ النُّبُوَّةِ أو الرسالة، أو نحو ذلك، فالله أعْلَم بعباده، وأعْلَمُ حيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه، ألَا يَعْلَمُ مَنْ خلَقَ وهُوَ اللّطيف الخبير.

## التدبّر:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾.

جاء في هذه الآية إطلاق فعل «يَفْتَح» للدّلالة على معنىٰ إجراء النِّعَم الرَّبّانيّة بالتَّتابُع مع الزمن، لأنّ فَتْح سُدود مجاري النِّعَم يجْعَلُها تتدَفَّقُ شَطْرَ من هيَ موجَّهةٌ له، فينتَفِعُ بها، ويقضي منْها أَوْطَارَه لدُنياه أو لآخِرَته.

ويمكن بالتحليل أن نقول: شُبّهَ إجراءُ النِّعَم بالتتابُع مَعَ الزّمن بفَتْحِ سُدُودِ وأبواب مجاري المياه، لمن يَنْتَفِعَ بِهَا على التوالي.

فعطاءاتُ اللَّهِ عزّ وجلّ من نِعَمِهِ تَأْتي غالباً على سُنَّةِ الجريان المتتابع، نظيرَ جرَيَانِ الكهْرُباء في الأسلاك، لإضاءة المصابيح الكهربائية، وعَمَلِ الآلات التي تسْتَمِدُّ قُوتَ عَمَلِها من الكهرباء، ولا تأتي عَطَاءَاتُ الله مِنْ نِعَمِهِ في الغالِب على سُنَّةِ العطاء دُفْعةً واحدةً ثمّ تنقطع، والحكمةُ من هذا أن يظَلَّ الْعَبْد المؤمِنُ مُرتبطاً بربِّه دَواماً، يُلاحِظُ عطاءاته المتواليات، فيُتَابِعُ هذه العطاءاتِ بالحمْدِ والشُّكر، ويكونُ دائِمَ الدُّعاء والالتجاءِ إليه، شاعراً بدوام افتقارِه إلَيْه، وخاضعاً له يَعْبُدُهُ وحْدَه لا شريك له.

• ﴿لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾: أطْلِقَت الرَّحْمَةُ الّتي هي صفَةٌ من صفاتِ اللَّهِ النفسيَّة على وفْقِ ما يليقُ به ـ جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانه ـ وأُريد بإطلاقها آثارها في المخْلُوقين المرحُومِين.

وجاء ذكْرُ الناس بالتَّعْيين، معَ أنّ آثار رحْمَة الله عزّ وجلَّ ليْسَتْ قاصِرَةً علَيْهم، لأنَّهم في هذا الدرس من دُروس السورة هُمُ المقصُودُون بالْبَيان لإقناعهم.

• ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾: إمْسَاكُ الشيءِ عَنِ الشيْءِ: منْعُه إيّاه عَنْه، يقال لغة: أمْسَك الله الغيثَ، أي: منعَ نزوله، وأمْسَك الرَّجُلُ عَنِ النّفقَةِ على عياله، أي: منعَها فلَمْ يُنْفِقْ عليهم.

إنّه لمّا كانَ فتْح أَبْواب مجاري عطاءاتِ الرَّبّ يجْعَلُها تتدَفَّقُ مُرْسَلَةً حتّى ينالَ منْها منْ هي مُوجّهةٌ له، كانَ منْعُ وُصُولها إلى من قضىٰ الله بأنْ يمْنَحه عطاءَه إمْسَاكاً لها عن متابَعَةِ جَرَيانها حتَّىٰ تَصِلَ إليه، فكان من فنِّيَّةِ الأداء البياني أنْ يأتِيَ التعبير القرآنيُّ بنَفْيِ وجُودِ الْمُمْسِك لَهَا.

وجاء الضمير في ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ عائداً على الرَّحْمَةِ لأنّها سبَبُ عطاءات الله لعباده، الّتي يَفْتَحُها لهم، وهذا من إطلاق السَّبَبِ وإرادة المسبَّب.

والْفَتْحُ الرَّبّانيُّ لمجاري عطاءاتِه قَدْ يكونُ على سبيل التخْصِيصِ لبَعْضِ الأفراد، وقد يكون لجماعةٍ من الناس، وقد يكون لجمِيع الناس، وكُلُّ ذَلِكَ خاضِعٌ لمشيئَةِ اللَّهِ الحكيمة.

وفي مقابلِ هذا الفتح لأبواب عطاءاتِ الرّبّ ـ جلَّ جلالُه ـ يأتي الإمْسَاك، وهو مَنْعُ النِّعَم عن أنْ تَجْرِيَ في مجاريها، لئلّا تَصِل إلى من قضىٰ الله بأن يَحْرِمه، ويمنَعَ عنه العطاء.

فما يُمْسِكُهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بحِكْمَتِهِ من نِعَم عن بْعضِ عباده، فيمْنَعُها عنهم، فَلا يَسْتَطِيعُ أحَدٌ في الوجود أنْ يُرْسِلَ النّعَم الَّتي أمْسَكها الله، ولا يسْتطيع أحَدٌ في الْوُجُود أن يجعلها تجري في المجاري الموصلة إلى من قضى الله أن يمْنَعَ وُصُولَها إليه.

وهو جلّ جَلَالُهُ في فَتْحِه وإمْسَاكِه عزيزٌ قَوِيٌّ غالب، وحكيم في تصاريفه.

وهذا المقابل دَلَّ عليه قولُ الله عزّ وجلّ في الآية:

• ﴿.. وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ..﴾.

وجاء الضمير هنا في: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ عائداً على «مَا» وَلَمْ يأتِ عائداً على «رَحْمة» كما جاء في العبارة الأولى، لأنّ الْإمْسَاكَ قد يكون من آثار عَدْلِه الحكيم جلَّ جلالُهُ وعظم سلطانه، أَوْ من آثار ابتلائِه الحكيم، فاقتضى عود الضمير هنا على ما يكون فيه الإمْسَاك.

إنّ توزيع الإرسَال والإمْسَاكِ في مجاري القضاء والقدر إنّما يَتِمُّ باختيارٍ حكيم، ولله الحكمة البالغة.

وختم اللَّهُ عزّ وجلّ الآية بقوله:

• ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: أي: وهو في الوجود كُلِّه ذو القُدْرة وَالْقُوّةِ الغالبة الْتي لا تستطيع أن تعانِدَها أو تُعَارِضَها قُوَّة. وهو الحكيمُ في تصاريفِهِ، إذْ يختار بعِلْمِه الشّامِل التدبير الحكيم، فيضَعُ الأشياءَ في مواضِعها الّتي تقتضيها الحكمة السَّامية، ولا بُدَّ أنْ يكون الحكيمُ عليماً خبيراً، فبعِلْمِه الشامل، وخِبْرَته بعباده، يختارُ ويَنْتَقِي من الاحتمالَاتِ الممكِنَاتِ في التَّصوُّر مَا هُو حكيم، فيَقْضِيه بمشيئته جلّ جلاله وعظُمَ سلطانه.

ومشيئة الله تبارك وتعالَىٰ غيْرُ اعتباطيّة ولا عشوائيَّة، بل هي اختيارٌ حكيم، ومن الثابتِ الحقّ أنْ صفاتِ الله عزّ وجل متكاملَةٌ فيما بيْنَها لا مُتَعَارِضَة ولا مُتَغالبة، وطلَاقة إرادته سبحانه لَا تطْغَىٰ على كَمالِ حِكْمَتِه.

«ما» في عبارة: ﴿مَّا يَفْتَحِ﴾ وفي عبارة: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ شرطيّةٌ جازمة، تَرْبِطُ بيْنَ جملتَيْن، ويُعبَّرُ بها عن غير ذي العلم، وتجزِمُ فِعْلَيْن، يُسمَّىٰ أوّلُهما: فِعْلَ الشّرْط، ويُسَمَّىٰ الثاني: جوابَهُ وجزاءه، وهي هنا مفعولٌ به لِفعْل الشرط الذي جزمته.

والضمير في: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ يعود على لفظ «ما» الشرطية، أي:

وما يُمْسِكُهُ اللَّهُ مِنْ شيءٍ مَا عَنْ عبْدٍ من عباده فلا مُرْسِلَ له، لأنَّهُ هو جلّ جلالَهُ العزيز الغالب على أمْرِه.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾.

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: يُنَادي الله عزّ وجل النَّاس بأَداة النّداءِ الموضوعة لِنداء البعيد، مع أنّه جلّ جلالُه أقْرَبُ إليهم من حَبْلِ الوريد، للإشعار بأنَّ أكْثَر النَّاسِ قَدْ أبْعَدُوا نُفُوسَهُمْ عنِ الله ربّهم، في تصوُّراتهم ومكتَسبَاتِ قلوبهم ونفوسهِمْ وسائِرِ جوارِحِهِمْ، فكانَ من المناسِبِ بَلاغيًّا أنْ يُنَادَوْا بأداة النّداء الموضوعَةِ لنداء البعيد.

نادىٰ الله عزّ وجلَّ النَّاسَ بأَنْ يَذْكُروا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِم في أجْهزَةِ التَّذْكُر الْتي منَحَهُمْ إيَّاها، وفي أَلْسِنَتِهِمْ الّتي تُسَاعِدُ ذَاكِرَاتِهم على التذكُّر دواماً، بعد أن أبَانَ لهُمْ في الآية السابقة أنَّ كُلَّ مَا يتقلَّبُونَ فيه منْ نَعَم ظَاهرةٍ وباطِنَةٍ، هو مِنْ عطاء الله لهم، لا يُشَارِكُه في خَلْقِه وتَدْبيرِهِ إرْسالاً وَلا إمْسَاكاً شريكٌ ما، لأنّ كُلَّ ما سِواهُ جلَّ جلالُهُ لَا يَمْلِكُ شيئاً من ذلك، إذ المخلُوقُ لَا يُمْلِكُ إلَّا مَا مَلَّكَهُ الله، وكلُّ ما سِوَىٰ الله مخلُوقٌ له جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه.

• ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: أي: أحْضِرُوا في ذاكراتِكم آناً فآناً نِعْمَةَ اللَّهِ عليكم، ونَعْلَمُ أنَّ مِن وسائل هذا الإحضار الذكر اللِّسَانيُّ، والتَّفكُّر في آلَاءِ اللَّهِ في نُفُوسِنَا وفي الكَوْن من حولِنَا، ليكون هذا التذكر باعثاً لَنَا على حَمْدِهِ وشُكْرِه، وعَدَمِ الاعتراضِ على مجاري حكمته في تصاريفه.

لفظ ﴿نِعۡمَتَ﴾ اسم جنْسٍ في الآية، وبإضافته إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ شمل كلَّ نعَمِه على عباده استغراقاً، فصارت العبارة بقوّة: اذْكُروا نِعَمَ الله عليكم.

إنّ نِعَمَ الله جليلة وكثيرة جدّاً، لا يَسْتَطيع العبادُ إحْصَاءَ أفرادِها، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً للناس:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾.

إنَّ نِعَمَ الله علىٰ عِبَادِهِ الّتي تَفيضُ بها مقاديرُهُ، تشْمَلُ أَعْمَالَ الخلْقِ المتتابعَةَ، الّتي يجعلُهُمْ بها باقين في الوجود، ولَا يشاركه فيها أَحَدٌ، وتشْمَلُ ما يَرْزُقُهمْ مِنَ السَّماءِ والأرض، فالرزقُ الآتي من جهة السَّماءِ، نُلاحظُ مِنْهُ الأمْطَارَ الَّتي تَنْزِل من السُّحُبِ على الأرض، فيُحْيِي اللَّهُ بها الأرْضَ بالنَّبَاتِ بَعْدَ مَوْتِ نباتاتها الّتي كانَتْ علَيْها في دوراتِ إنباتٍ سابق، ونُلاحظ منه أشِعَّةَ الشَّمْسِ الّتِي تَصُبُّ على الأرضِ ما دامَتْ مُشْرقةً علَيْها، فَتُمِدُّها بأسْبَابِ الحياة لكلِّ ذي حيَاةٍ نباتيّة وحيوانيّة.

وتَتَدَخَّلُ حرارةُ أَشِعَّةُ الشّمْسِ في عمليات تَبَخُّرِ المياه الموجودة على سَطْحِ الأرض إلَىٰ الجوّ، فإذَا تَجمَّعَتِ المتبخّراتُ صارت سُحُباً، وهي قطرات ماءٍ مُتَمَدّدات، ثم يَسُوقُها الله ويُزّجيها بعلْمِه وحكمته وقدرته، ويَرْحَمُ بها من يشاءُ من عباده، فيُنْزِلُهَا علَيْهم مطراً نافعاً، للشُّرْب والإنبات وغير ذلك من منافع للأحياء.

فَنِعَمُ الله تَشْمَلُ فيما تَشملُ أعمالَ الْخَلْق وعطاءات الرزْق، وهذان الصنفان يُصيبُ منهما الناس جميعاً، المؤمنون منهم والكافرون.

وبما أنّه لا خالق إلّا الله، ولا رازق في الوجود إلّا الله، كان من الحكمة الإقناعيَّة والتربويَّة، أن يُوجّه الله عزّ وجلّ للنّاس سؤالاً استفهاميًّا، لانتزاع إقرارهم بهذِه الحقيقة، فقال تعالى في هذه الآية:

• ﴿.. هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾؟.

﴿هَلْ﴾ حرف استفهام يُسْتَفْهَمُ بهِ عَنْ حُكْمٍ في قضيَّةٍ خبرية موجبة أو سالبة، ولا يسْتَفْهَمُ بها لتَصوُّر مفرد.

وبعد البحث والتأمُّلِ لَا بُدَّ أَنْ يقولَ كلُّ ذي لُبٍّ منْصِفٍ جواباً لهذا السؤال: لَا خالقَ في الوجُودِ غيْرُ الله، ولا رَازِقَ فِي الوجود من السَّمَاءِ والأرض، في عَمَلِيَّاتِ خَلْقٍ مُتَتابعةٍ غَيْرُ الله.

وقد دلَّتْ هٰذِهِ العبارةُ القرآنية المصدّرةُ بأداة الاستفهام ﴿هَلْ﴾ علىٰ أنّ أعمال الرزْقِ من السّماء والأرض الّتي يرزُقُ الله بها عباده، هيَ صُوَرٌ من صُوَرِ الخلْقِ الرَّبّانيّ الّتي يجريها اللّهُ في كونه تِباعاً، لأنّ جملة: ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في الآية، قد جاءت صفة لاسم الفاعل: ﴿خَٰلِقٍ﴾ ونفهم من هذا أنَّه يرزُقُ دواماً من السَّماء والأرض بوصْفِ كونه خالقاً، فالخلْقُ يشملُ الأحداث كُلَّها الّتي تُنْتِج للنَّاسِ أرْزاقَهم، ومنها إرْسَال أشعَّة الشمس، وأحْداثُ تبخُّرِ المياه، وإنزالِ الأمطار من السّماء، وإنْبَاتِ الزّرُوع والثمار.

إنّ الله جل جلالُه خالِقُ كُلّ شيءٍ، وخَلْقُ الرزْقِ من آثار وظواهر رَحْمَةِ اللّهِ بعباده، وقد أنكر المشركون أن يكون من أسماء الله اسْمُ «الرَّحْمٰن» كما جاء بيانه في سورة (الفرقان) فجاء في سورة (فاطر) متابعَةُ البيان الإقناعيّ بأنّ الرَّحْمَةَ من صفات الرّبّ الخالق جلّ جلالُه وعظُم سلطانه، فلا بُدَّ أن يكون من أسمائه «الرَّحْمٰن».

وبعد إثبات حقيقة أن الله عزّ وجلّ هو وحْدَهُ الخالق الرازق لا شريك له قال الله عزّ وجلّ في الآية:

• ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ..﴾.

أي: لَا معْبُودَ بحَقٍّ إلّا الرَّبُّ الخالق الرازق، الذي لا خالق ولا

رازقَ في الوجود إلَّا هو، جلَّ جلالُه، وتعالَىٰ وتنزَّهَ عن أيّ شريكٍ له في رُبوبيّته الّتي بها يخْلُقُ ويَرْزُقُ مَرْبُوبيه، وتعالىٰ وتنزَّهَ عنْ أيِّ شريكٍ له في إلَهيَّته، أي: في استحقاق العبادة.

أو نقول في شرح العبارة: لَا مُسْتَحقّ للإلَهيَّةِ بأَنْ يكونَ معبوداً لأيّ عابدٍ إلَّا هُوَ جَلّ جلالُه وتنزّه عن الشركاء.

إنّ اللّازم العقليّ الأوّلَ لإثباتِ الرُّبُوبيَّةِ إثباتُ الإلَهيَّةِ لمَنْ هُو الرَّب، أي: إثباتُ استحقاقه لأنْ يُعْبَد وحْدَهُ من قِبَلِ مَرْبُوبيه، وإثباتُ حقِّهِ عليهم بأن يَعْبُدوه دون أَنْ يُشْرِكوا بعبادته أحداً ما، أو شيئاً ما، مهما عظُم، فعبادةُ العابدين حقُّ رُبُوبيَّةِ الله لهم، وإعطاءُ هذا الحقّ لغير من هو الرَّبُّ وحْدَهُ ظُلْمٌ عظيم، وكُفْرٌ برُبُوبيّته أو بإلَهيَّتهِ كُفْراً كُليًّا أَوْ كُفْراً جُزْئيًّا، والكُفْر الجزئيُّ لا يَغْفِرُهُ الله، ويستَحِقُّ به الكافر الخلودَ في عذاب النار يوم الدّين، إذا مات على كُفْرِهِ ولم يتُبْ منه.

فقولُ الله في الآية: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بمثابة استخراج النتيجة، بعْدَ ذِكْرِ مُقَدّماتها العقليّة، الّتي تلْزَمُ عنها عقلاً النتيجة المستخرجة.

ويمكن أن نصُوغ الدّليل العقليّ الذي أشار إليه النصّ صياغةً منطقيّة، فنقول:

الله وحْدَهُ في الوجود هو الرّبّ الخالق الرازق، فهو وحده المالِكُ لمَرْبُوبيه، ومَنْ كان وحْدَه هو المالك فهو وحْدَهُ الذي يجبُ على عَبِيدِه أن يَعْبدُوه وحْدَه، ولَا يُشْرِكوا بعبادته أحداً، ولا يُشْرِكوا بعبادتهِ شيئاً.

إذن: فلا إلَهَ إلّا هُوَ.

والمعنى المطويُّ: هُو الأمْرُ بعبادته وحْدَه، أي: لا إلَه إلّا هُوَ فاعْبُدُوهُ وحْدَه.

وختم الله عزّ وجلّ الآية بقوله خطاباً للمشركين من الناس فمَنْ هم أشَدُّ كُفْراً مِنَ المشْرِكين:

• ﴿.. فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾:

أي: فكيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ هٰذِهِ الحقيقة الواضحة الجليَّة، الَّتي يُثْبتُها البرهانُ العقليُّ القاطع.

«أنَّىٰ» هُنَا استفهاميَّةٌ بمعْنَىٰ «كَيْفَ» والاستفهامُ هُنَا اسْتِفْهَامٌ إنكاريٌّ، فيه معنَىٰ التعجيب من انصرافهم إلى الشِّرْكِ أو ما هو أشدُّ كُفْراً منه، مع أنّ الدليلَ العقليّ بُرْهانٌ قاطعٌ دامغ.

﴿تُؤْفَكُونَ﴾: أي: تُصْرَفُون، الإفْكُ في الأصْل هُو الصَّرْفُ عن وجه الحقّ، ويأتي بمعنى افتراء الكذب.

أي: إنَّهُ لأمْرٌ جديرٌ بأنْ يتعَجبَ منْهُ العُقَلاءُ ذَوُو الْألْبَاب والرُّشد.

كيف يَعْبُد الإنسانُ ذو الفِكْر والإرادة الحرَّة مَنْ لَا يسْتَحِقُّ أن يُعْبَد بوَجْه من الوجوه؟!!.

وكيْفَ يجْعَلُ ما يَعْبُدهُ من دُونِ الرّبّ الخالقِ الرازق شريكاً لَهُ في إلَهيّتِه، الّتي هيَ حَقُّهُ وحْدَهُ بمقتضىٰ مَلَكِيَّتِه لهم التي لا يشاركُه فيها أحد.



## (٦)
## التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دُروس السورة وهو الآية (٤) منها

قال اللَّهُ عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٤﴾:

**القراءات:**

• قرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: [**وَإِلَى ٱللَّهِ تَرْجِعُ ٱلْأُمُورُ**] بفتح التاء وكَسْرِ الجيم على أنّ الفعل مبنيٌّ للمعلوم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ بضَمّ التاء وفتح الجيم، على أنَّ الفعل مبنيٌّ لمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله.

وبين القراءَتَيْن تكامُلٌ في الأداء البيانيّ، أي: إنّ الله عزّ وجلّ بسُلْطَانِه العظيم يُرْجِعُ الأمُور كُلَّها إليه يوْمَ الدّين، فتطاوع الأمُورُ بالجبْرِ فتَرْجِعُ إليه، إنَّه تباركَ وتعالى يُلْغي يَوْمئذٍ كلَّ أثَرٍ لإراداتِ من منحهم في الحياة الدُّنيا إراداتٍ حُرَّة، ولا يَبْقَىٰ يومئذٍ إلَّا سلطانُه وحده، إذِ انْتَهَتْ حياةُ الابتلاء، وجاءت حياة الجزاء، وعندئذ يكون السُّلْطانُ كُلُّهُ للْقَهْرِ الرّبّاني.

**تمهيد:**

هذا الدرس موصولٌ بالفرع الثالث من فروع شجرة موضوع السُّورة، الممتَدَّةِ من موضوع سورة (الفرقان) التي جاءت سورة (فاطر) تابعةً في موضوعها لها، وكالملْحقة بها، مع انفصالها التامّ في بناء وَحْدَتها، إنَّه فرْعُ (الرَّسول) وما يتعلّق به.

لقد جاء في سورة (الفرقان) بيان تكذيب مشركي مكّة رسولَ الله محمَّداً ﷺ في نبوّته ورسالته وفيما يحدِّثُهم به عن رَبّه، فكان من الحكمة التربوبيَّة من الله للرّسول تَسْلِيَتُه وإرْشادُه إلى التأسّي بالرُّسُلِ الكثيرين الذين كذّبتهم أقوامُهم، فَصَبروا على مَا كُذِّبُوا وأُوذوا.

**التدبّر:**

قول الله تعالى لرسوله:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ..﴾:

«إِنْ» هُنَا شَرْطِيَّة، والأَصْلُ في استعمالها كما يقولُ البلاغيون، أن تُسْتَعمل في الأمْر المشكوك فيه، أو في القليلِ لا في الكثير، فكيْفَ جاءت هنا مع أنّ تكذيب المشركين له مُتحقِّقٌ غير مشكوكٍ فيه، والمكذّبون إبّان نزول السّورة هم الأكثرون، والمصدّقون المتابعون هم الأقَلُّون؟

**أقول**: إنّ كُبَراء مشركي مكّة المعْنيين إِبَّانَ التنزيل، كانَ لَهُمْ ظَاهر وباطن.

• فهم في ظاهر تصَرُّفاتهم كانوا يكَذّبُون الرَّسُولَ ويتّهمونه بالافتراء على الله عزّ وجلّ.

• لكنّهم في باطِنِ نفوسهم وقلوبهم كانُوا في الغالِب مصدِّقين له، إلَّا قليلين شاكّين، إنّما كانوا جاحدين بآياتِ الله، والجاحِدُ عالمٌ بالحقِّ في باطنِه، مُنْكِرٌ لَهُ في ظاهره وَلِسَانِه.

هذا الواقع قَدْ أبَانَهُ الله لرَسُوله في قوله له في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول).

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وبهذا نُدْرِكَ أنّ كلمة «إِنْ» الشرطيّة في الآية مستعملةٌ في الأمْرِ المشكوك فيه أو القليل، على وفْقِ ما ذكَرَهُ علماء البلاغة.

• ﴿.. فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ..﴾: أي: فنُؤَكِّدُ لَكَ أنَّ رُسُلاً كثيرين ومن المفَضّلين الكبار قَدْ كُذِّبوا من قبلك، أي: فصَبَرُوا على مَا كُذِّبوا وَأُوذوا، فتأسّ بهم فاصْبِرْ كما صَبَروا، وتحمَّلِ الأَذىٰ كما تَحمَّلُوا،

وهذا المطويُّ قَدْ جاء مُصَرَّحاً بِهِ في نُصُوصٍ أُخْرَى، دلَّ تنكير «رُسُل» على الكثرة ورفعة المكانة.

(١) فجاء في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) قول الله له:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

(٢) وَجاء في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) قول الله له:

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

كلمة ﴿رُسُلٌ﴾ جاءت في الآية منكّرة، ونفهم من هذا التنكير معنى الكثرة، ومعنى رِفْعَةِ المنزلة، أي: فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ كثيرون، وذَوُو مكاناتٍ رَفيعاتٍ من قَبْلِكَ، فصبروا فتأسَّ بهم، وبهُدَاهُمُ اقْتَدِه، والإشارة إلى ذوي المكانات الرفيعات من المرسلين يلائم حالَ الرَّسُول محمد ﷺ وحال خُلقِه العظيم.

قوْلُ اللَّهِ تَعَالَىٰ في الآية:

● ﴿.. وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ وفي القراءة الأخرىٰ:

[وَإِلَى ٱللَّهِ تَرْجِعُ ٱلْأُمورُ] ببناءِ فعل [تَرْجِعُ] للمعلوم.

جاء في هذه العبارة تَقْديم المعمول وهو: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ على عامِلِهِ وهو فعل: [تُرْجَعُ] أو [تَرْجِعُ] لإفادة الحصْرِ والتخْصيص، أي: لَا تَرْجِعُ كُلُّ الْأُمور إلَّا إليه جلّ جلالُهُ ممَّا يجري في الحياة الدنيا، وله حاجَةٌ للرُّجوعِ إليه لإقامة العدْلِ أو الفضل.

والمرادُ المطويُّ: فتوكَّلْ على الله، وسَلِّمْ أمْرَكَ إليه، لأَنَّ الأمور كُلَّها تُرْجعُ إلَيْه وحده لَا شريك له.

وفي هذه الجملة إلماحٌ في بَيانٍ ضِمْنيٍّ، إلى أنّ الله عزّ وجل سيَجْزِي رَسُوله علىٰ صبْرِهِ وتحمُّلِه الأذىٰ من قومه جزاءً عظيماً، ومن هذا الجزاء تَأْييدُهُ بنَصْرِه في الحياة الدنيا، ثُمَّ يمنَحُهُ يوْمَ الدّين الأجْرَ العظيم الجليل في الفردوس الأعلىٰ من جنَّاتِ النعيم.

وفيها أيضاً إلماحٌ في بيانٍ ضِمْنِيٍّ إلى أنّ الله عزّ وجلّ سينتقم من مكذّبي رسُوله، بعقوباتٍ في الدنيا تناسبُ أحوالهم، ثم بعقوبات يوم الدين إذا ماتوا وهُمْ كافرون مُكذِّبون، وهذه العقوبات الآخرويّة مقرونَةٌ بالخُلودِ في دار العذاب الّتي أعدّها الله عزّ وجلّ للمجرمين.

وما جاء في هذه الآية يشْمَلُ بظلالِه حملَةَ رسالَتِه من أمْته، فَهُمْ مُطَالَبُون بالتحمُّل والصَّبْرِ على الأذى، وموعودون بالأجْرِ العظيم، وبالتأييد والنصر والتمكين، إذا صَدَقُوا، وأخْلَصُوا لله في تَبْلِيغ دين الله، وفي القيام بفضائل الدعوة إلى الله وحمل رسالة الرسول ﷺ.

## (٧)
## التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (٥ ـ ٨)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

**القراءات:**

(٨) • قرأ جُمهور الْقُرَّاءِ العشرة: ﴿فَلَا تَذْهَبْ﴾ بفَتْح التاء والْهَاء من فعل «ذَهَبَ» اللازم، وقَرؤوا: ﴿نَفْسُكَ﴾ بضمّ السّين على أنّها فاعل «تَذْهَبْ».

• وقَرَأ أبو جَعْفَرْ: [**فَلَا تُذْهِبْ**] بضَمّ التّاء وكَسْرِ الهاء، من فِعْلَ «أذْهَبَ» المتعدّي بالهمزة، وقَرأ: [**نَفْسَكَ**] بفتح السّين على أنّها مفْعُولٌ بِهِ لفِعْل «تُذْهِبْ».

والقِراءَتَان مُتكامِلَتَان في الأداء البياني، فقِرَاءَةُ أبي جَعْفَر، هيَ بمعْنَىٰ: فَلَا تَكُنْ سبباً بحُزْنِكَ مِنْ أجْلِ الّذين كَفَرُوا مِنْ أهْلِكَ وعَشِيرتِكَ وَقَوْمِكَ الأَقْربين في أنْ تَذْهَبَ نَفْسُكَ عليهم حَسَرَاتٍ، أي: لَا تَكُنْ سبباً في أن تَهْلِكَ حُزْناً مِنْ أجْلِهِمْ إذا لم يُؤْمِنُوا، وإذا عَرَّضُوا أنْفُسَهُمْ لعذابٍ خَالِدٍ في جَهَنَّمَ يوْم الدّين.

**حَسَرَات:** جَمْعُ «حَسْرَة»: وهي شِدَّةُ التلَهُّفِ والحُزْن.

وقراءة الجمهور هي بمعنى: فَلَا تَجْعَلْ نَفْسَكَ بالانْسِيَاقِ مع عواطفها تَذْهَبُ هَالِكَةً حُزْناً علَيْهم وتَحَسُّراً مِنْ أجْلِهِمْ.

**تمهيد:**

هذا الدرس من سورة (فاطر): تابعٌ لِلْحَدِيث عن السَّاعة الّتي كذَّبَ بها المشركون، والّذِي جاء بيان عنه في سورة (الفرقان) إذْ جاء فيها قول الله عزّ وجلَّ بشأْنهم:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

وقَدْ سبَقَ أن عَلِمْنا أنّ سورة (الفرقان) قَدْ نزلت قبل سورة (فاطر)

مباشرة، وأنّ سورة (فاطر) بمثابة التابعة والملحقةِ بسُورة (الفرقان) وأنّ آياتها تتوزّع على فروع شجرة موضوعها، مع أنّها جاءَتْ سُورةً منْفَصِلَةً وذاتَ وحْدَةٍ مستقلّة.

فنداء اللّهِ عزّ وجَلَّ النَّاسَ في هذا الدَّرْس بأنّ وعْدَ الله حقٌّ، هُوَ وعْدُهُ بالبَعْثِ وبالحياة الأخرىٰ للحِسَابِ وفَصْلِ القضاء، وتحقيقِ الجزاء، ويكونُ هذا البعثُ عنْدَ قيام سَاعَةِ إحْيَاءِ الأموات، الَّتي كذّبَ بها الّذين كَفُروا عناداً وجُحُوداً، على الرُّغم من إقامَةِ البراهينِ الدامِغَةِ لهم، لكنَّهُمْ آثَرُوا اتّباعَ أهوائهم وشهواتهم من زينةِ الحياة الدنيا العاجلة.

**التَّدَبُّر:**

قول الله عزّ وجل:

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: هَذا هو النّداء الثّاني من الله جلّ جلالُه في هذه السورة، وقد سبَقَ أن عرفْنَا أنّ نِداءَ الله عزّ وجلَّ للنّاس بأداة النداء التي تُسْتَعْمَلُ لِنداءِ المنَادَىٰ الْبَعيد، مع أنّه سُبْحَانَه أقربُ إلى كُلّ عَبْدٍ من عِبَاده مِنْ حَبْلِ الوريد، ويُسَمَّىٰ الْوَتِينَ الّذي هو الشّرْيانُ الرئيسُ الذي يُغَذِّي الجِسْمَ بالدَّم النَّقِيّ الخارج من الْقَلْب، باعْتِبَار أنَّ أكْثَرَ النّاسِ قداً أبْعَدُوا أنْفُسَهُم عَنِ اللَّهِ رَبّهم، في أذْهانهم، ومشاعر قلوبهم، ومُخْتَلِفِ أنواع سُلُوكِهم الإراديّ، الظاهر والباطن، فَحَسُنَ بلاغيًّا نداؤهم بحرف النداء «يا» الّذي ينادَىٰ به البعيد.

قول الله عزّ وجل:

• ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: وعْدُ اللَّهِ الّذِي وعَدَهُ عبادَهُ الموضُوعِين في ظُروفِ الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، يَشْمَلُ البعثَ إلى الحياة بَعْدَ الموْتِ يوْمَ القيامة، وهو الْيَوْمُ الآخِرُ، ويَشْمَلُ مَا يُجْرِي اللَّهُ فيه من الحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذ الجزاء في الجنَّةِ أَوْ في النار، ولهذَا سمَّاهُ اللَّهُ يَوْمَ الدّين، فَمِنْ معاني الدّينِ الحسَابُ والجزاء.

وهذه العبارةُ تشْمَلُ بعْمومِها كُلَّ وَعْدٍ يَصْدُر عَنِ الله جلَّ جلالُه، فَكُلُّ وعْدِهِ حَقٌّ.

**الْوَعْدُ**: هو الإخبارُ بأمْرٍ تَمَّ الْعَزْمُ على فِعْلِه في المستقْبل أو ادّعَىٰ المخْبِرُ به بأنَّه سيَقَعُ.

يُقَالُ لُغَةً: وَعَدَهُ الْأَمْرَ، وَوَعَدَهُ بِه، عِدَةً، وَوَعْداً، ومَوْعِدَةً.

ويكون الوعْدُ في الخيْرِ، وفي الشّرّ، يُقَالُ لُغةً: وعَدَهُ بنَفْعٍ، ووعَدَه بضُرٍّ، أمَّا الْوَعِيدُ والإيعادُ فَهُما في الشّرّ خاصَّةً، وفِعْلُ «أَوْعَدَهُ» لَا يُسْتَعْمَلُ إلّا في الشّرّ خاصَّةً.

والمقْصُودُ الأوَّلُ مِنْ وَعْدِ اللّهِ عزّ وجَلَّ في هذا النَّصّ الأجْرُ العظيم الّذي يمنَحُهُ عبادَهُ المتقينَ في جنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدّين، والعذابُ الأليم الّذي يُعاقب اللّهُ به المجرِمِينَ والْعُصَاةَ بَعدْلِه، في دَار الْعَذَابِ يوْمَ الدّين، ومَا يكُونَ قَبْلَ ذَلِكَ من أجْرٍ أَوْ عِقَابٍ بعد انتهاء رحْلَةِ الامتحان في الحياة الدُّنيا.

**والْوَعْدُ الحقُّ**: هو الْوَعْدُ الصادقُ الّذي يأتي الواقعُ في المستَقْبَلِ مُطابقاً لمَا دَلَّ علَيْهِ الإخْبارُ به.

ويُقَابِلُ الْوَعْدَ الحقَّ في الضّدّ الأقْصَىٰ الْوَعْدُ الْبَاطلُ المزَيَّنُ بمَا يَغُرُّ ويَخْدَعُ، وهو خَبَرٌ كاذب.

فوعْدُ اللّهِ وَعْدٌ حَقٌّ، سيَقَعُ حَتْماً بقُدْرَتِهِ على ما يشَاء، وهو العزيز الْقَهَّارُ، إذْ تَمَّ إمضاؤهُ بقضائه وقَدَره ومشيئَتِه الحكيمة.

أمَا وُعُودُ الشَّياطين فهي وَعُودُ باطِلَةٌ كاذِبَةٌ، مدْهُونَةٌ بأَصْبَاغٍ تزيينيَّةٍ زُخْرُفيَّة خادِعَةٍ، تَغُرُّ الكافرين وضُعَفاءَ الإيمان.

قول الله عزّ وجلّ خطاباً للناس:

• ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: فلا تَخْدعَنَّكم الحياةُ الدُّنْيا، بظَوَاهِر زِينَاتِها ولذَّاتِها ومَتاعِها، فتَصْرِفَكُمْ عن الْبَصِيرَة المدركَةِ للحقّ.

يقالُ لغةً: غرَّه، أي: خَدَعَهُ وأطمعَهُ بالباطل.

ومعْلُومٌ أنَّ الحياة الدنيا بزيناتها ولَذّاتها ومَتَاعِهَا تخْدعُ من يتعلَّقُ بها، ويُعْطِيها كُلَّ هَمّ نَفْسِه، غافلاً عن أكدارها، ونِهَايَتِها الحتميَّةِ بالموت، وقاطعاً نظَرَهُ عَنِ الحياة الأُخرى، وما سَوْفَ يَجْرِي فيها من حسَابٍ، وفَصْلِ قضاءٍ، وتحقيق جزاءٍ، علَىٰ ما قَدَّمَ في رِحْلَة امتحانه في الحياة الدُّنيا، وقاطعاً نَظَرَهُ عن أنَّ الحياة الأُخْرىٰ هي حياة الخلود الدّائم الّذِي لَا يَنْقَطِعُ بموت.

فَمَنْ قَطع نَظَرَهُ عن الحياة الأخرىٰ الخالدة، وعمَّا يَجْرِي فيها من جزاءٍ بالثواب وبالعقاب، غَرَّتْهُ الحياةُ الدُّنيا، بظواهِر زيناتها، ولذَّاتها، ومَا فيها من متاعٍ سَرِيعِ الزّوالِ، وغَفَلَ عن أنَّها دَارُ فناءٍ لَا دَارُ بَقَاءٍ، وغفَل عن أنَّ الموْتَ غايَةُ كلّ حَيٍّ فيها.

قول الله عزّ وجلَّ خطاباً للناس أيضاً:

﴿... وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾: أي: لَا تَغْتَرُّوا بما يَخْدَعُكُمْ به الْغَرُور.

**الْغَرُور**: هو في اللُّغةِ كُلّ خَدَّاعٍ يُطْمِعُ بالْبَاطِلِ، وبُزْخرُفِ الْقَوْلِ الكاذب، والأفكار التي ليس لها نَصِيبٌ من الحقّ.

وصيغة «غَرُور» من صِيَغِ المبالغة، أي: شدِيدُ الخدْع. ويُطْلَقُ غالباً على الشيطان سواءٌ أكان من الجنّ أمْ من الإنْس، والتعريف في لفظ «الغرور» يُشْعِرُ بأنَّه الشيطان المعْهُودُ منه أنّه كثير الخدع بالباطل.

ويُطْلَق لفظ «الْغَرُور» على كُلِّ مُضَلِّلٍ بتَزييناته ووساوسه وتسويلاته،

فهو كُلّ مُوَسْوِسٍ خنَّاسٍ، يُوَسْوِسُ في صُدُور الناسِ، من الجنَّةِ والنَّاسِ، فيغُرُّ ويَخْدَعُ بالتَّزْيينات الّتي تَسْتَدْرِجُ الإنسان إلى مواطِن الإِثْم والشّرّ، وَمَعْصِيَةِ اللَّهِ ورسُولِه، وتُصَوِّرُ لَهُ الْبَاطِلَ بصُورَةِ الحقّ، عن طَرِيق زُخْرُفِ الْقَوْل.

**التَّغْرِيرُ والْغُرُور**: الإطْمَاعُ بالْبَاطل، وإِيهامُ النَّفْعِ والصَّلَاحِ فيما هُو ضُرٌّ وَفَسَاد.

وقَدْ نَهىٰ الله عزّ وجلّ الناسَ بهذه الجملة عَنْ أَنْ يَغُرَّهُم الْغَرُور، أي: عن أنْ يتَأَثَّرُوا بوسَائِله التَّغْرِيريَّةِ الّتي يخادِعُ بها.

فمْعنَى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم﴾: لا تَغْتَرُّوا بما يخْدَعُكُمْ به.

إنَّ منطوق عبارة هذا النهْي يَدُلُّ على أنّ الشَّيْطَانَ الْغَرُورَ هُوَ المنهيُّ عن التغرير، ومعلومٌ أنّ الشيطانَ يمارِسُ تغريرَهُ دواماً، تَنْفِيذاً لما كان قد توعَّدَ به من الإغواء، فكان لا بُدَّ مِنْ حَمْلِ العبارة على معنَىٰ: لَا تُمَكّنُوا الْغَرُورَ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ عَلَيْكم، بإفساد مفهوماتكم، وإفساد نُفُوسكم بوساوسِه وتَسْويلاته وتغريراته.

ونتساءل: كيْفَ يَغُرُّ الشيطانُ الْغَرُورُ بالله جلّ جلالُهُ وعزَّ سُلْطانه؟! وتَنْفَتح أمامَنا في الإجابَةِ عَلَىٰ هذا السُّؤَالِ آفاقٌ متعدّدةٌ، مِنْها فكريَّة، ومِنْها عاطفيّة، ومِنْها نَفْسِيَّةٌ شَهْوِيَّة، وبعضُها يَدْخُلُ من أبواب عَفْوِ الله وغُفْرَانِه، لاسْتِدْراجِ الإنْسَان إلى ارتكاب المعاصي، ثُمّ الانتقالِ به خطْوَةً فَخُطْوةً حتَّىٰ يَجْحَد ربَّه، ويكونَ من الكافرين الّذين يسْتَحِقُّون الخُلودَ في عَذَابِ السَّعِير.

فالتغريرُ بالله هو بمعنى التَّغْرير بمطالبِ اللَّهِ من عبادِهِ للتَّهاوُنِ بها، ثُمَّ معْصِيَةِ الله فيها، والتَّغْرير بِمفْهُوماتِ الدّين الّذي اصطفاه لهم، تشكيكاً فيها، والتَّغْرِيرِ بوَعْدِ اللَّهِ ووعِيدِه، لتَكْذِيبهِمَا، أو اعتبارهما لمجرَّد التخْوِيفِ والترغيب، لا للتحقيق والتّنفيذ.

فالعِبَارَةُ على تَقْدِيرِ مُضَافٍ محذوفٍ، صالحٍ لتعميمه على كلّ ما يمكِنُ التغرير به، للتشكِيكِ في أنَّهُ حَقٌّ، أو للتكْذِيب به، أو لجُحُوده.

كأن نقول مثلاً: فلا يغُرَّنَّكُمْ بدِينِ الله لكم تشكيكاً فيه، أو إبطالاً له، أو جحوداً به، ونحو ذلك.

والشيطان يغُرُّ فيخْدَعُ عن طريق الأفكار تشكيكاً في مسائل الدين، واحِدَةً فواحدةً، حتَّىٰ يُوصِلَ مَنْ يسْتجيبُ لَهُ ويتّبعُهُ في تشكيكاتِهِ التَّضْلِيليَّة إلَىٰ الكُفْر بالله، وهذا هو حَضِيضُ اسْتِدْراجاتِه التغريريَّةِ، الّتِي تَجْعَلُ مَنْ يَسْتَجِيبُ له فيها من أصحابِ السَّعير في نار جهنم.

ويغُرُّ فيَخْدَعُ عن طَرِيقِ العواطفِ استثارةً لها، حتَّىٰ يقَعَ الإنسانُ في المعصيةِ والإثم، وبتَكْرَارِ ارتكابِ المعاصي والآثام تَصِيرُ أمُوراً مُزَيَّنَةً مقْبُولَةً في الأفكار، فإذا استحسنَتْها الأفكارُ بَدَأ الشَّكُّ في أحكام اللَّه الدّينيَّةِ يتَسَرَّبُ إلىٰ مَفْهوماتِ الإنسانِ الرَّاسخات، وعندئذٍ تَبْدَأُ سِلْسِلَةُ الاستدراجاتِ الفكريَّةِ، حتَّىٰ يوصِلَ الشَّيْطانُ الإنسانَ إلى الكُفْرِ بالله، وهذا هو حضيض استدراجاته تغريراً بالله، وهذا الحضيض يجعل من يَصِلُ إلَيْه من أصحاب السّعِير في نار جهنم.

وكذلك يفْعَلُ الشّيْطانُ عَنْ طَرِيق الشَّهَواتِ واللَّذّاتِ المحرَّمات، وقَدْ تكونُ البِدَايَةُ إِطْمَاعَهُ بِغُفران الله وعَفْوه.

ولهذا جاء في الآية (٦) الآتية التَّفْسِيرُ الضِّمْنِيُّ للْغَرُورِ بأنّه الشيطان، مع بيان عداوتِه الدَّائمةِ لبَنِي الإنسانِ، وبيانِ غايَتِه من تغريراتِهِ، وهي أن يَسُوقَ أو يَقُودَ حزْبَهُ الَّذِين يَسْتَجِيبُونَ لَهُ وَيَتَّبِعُونَهُ حتَّىٰ يكونوا مِنْ أصحاب السَّعِير، الملازمين للَهَبِ النار الذي يُحْرِقُ أجْسَادَهم، وكُلَّما نضجت جلودُهم بدّلَهم الله جُلوداً غيرها ليَذُوقوا العذاب.

قول الله عزّ وجلّ خطاباً للنّاس أيضاً:

• ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾.

• ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾: هذه جملَةٌ اسْتِئْنافِيَّةٌ تفسيريَّةٌ وتَعْلِيلِيَّةٌ، جاء فيها بيان المراد بكَلِمَة: [الْغَرُور] وجاء فيها تعْلِيلٌ للنَّهْي عن الاسِتجابَةِ لِتَغْرِيرِه، واتِّباعِهِ فيما يَدْعُو إِلَيْهِ من بَاطِلٍ وشَرّ، وإثْمٍ ومعْصِيَةٍ لله ولرَسُوله.

والشَّيْطانُ الّذي يشْمَلُ إبْلِيسَ ثُمَّ جُنُودَهُ من الجنّ أَعْداءٌ لبَنِي آدم، منْذُ رفَض إبليسُ السُّجُودَ لآدمَ علَيْه السّلام، وعَمِل بَوسَاوسه وتَسْويلاتِه حتَّىٰ خَدَعَ آدَمَ وزَوْجَهُ، فَجَعَلَهُما يأكُلان من الشجرة الّتي نَهَاهُمَا اللَّهُ عَنْ أنْ يَأْكُلَا منْها، فأوقَعَهُما في معْصِية الله عزَّ وجلّ، وتَسَبَّبَ بإخراجِهما من الجنَّةِ عقاباً لَهُما على معْصِيتَهما.

وحَمَل إبليسُ منذ ذلِكَ الحينِ في صَدْرِهِ العداوةَ لآدَمَ ولزَوْجِهِ ولِذُرِّياتهما، وأخذ على نَفْسِهِ عَهْداً بأَنْ يُغْويَهُمْ أجمعين، إلَّا عبادَ اللَّهِ المُخْلِصينَ (بكسر اللام) وعبادَ اللَّهِ المخْلَصِينَ (بفتح اللَّام).

• ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾: أي: فاجْعَلُوهُ عَدُوّاً، أصْلُ «اتَّخَذَ» علَىٰ وزْنِ «افْتَعَلَ» فعلٌ مزيدٌ من فعْلِ «أَخَذَ» للدَّلالَة على معنَىٰ التكلُّفِ والزِّيَادة في الأَخْذِ والشّدّةِ فيه. وحصَلَ تَوَسُّعٌ لُغَوِيٌّ في فعل «اتَّخَذَ» فصار يستَعْمَلُ بمعنى «جَعَلَ» بشِدَّةٍ ومبَالغة، ولهذا صار يَنْصِبُ مَفْعولَيْنِ مثل فعل «جَعَلَ».

والمفعولُ به الأولُ في الجملة هُنَا ضميرُ الشيطان ، والمفعول به الثاني كلمة: «عَدُوًّا».

**الْعَدُوُّ**: الّذِي يعْدُو بالمكروه ويظْلِم، مأخُوذٌ من: «عَدَا عَلَيْهِ» إذَا أقْبَل إلَيْه يَعْدُو لِيُنْزِلَ به مكْرُوهاً، أوْ يظْلِمَهُ.

وأشَدُّ الأعداء مَنْ يُخَادِعُ ويفْتِنُ لِيُغْوِيَ فَيُوقِعَ في عذابٍ أَلِيمٍ خالد.

**والْعَدُوّ**: هو الّذي وصَلَ به الحالُ إلى إرادة النكايَةِ بخَصْمِه وإنْزَالِ المكروهِ فيه، بأيَّةِ وسِيلَة.

ويُطْلَقُ لفظ «الْعَدُوّ» بالإفراد على المفرَدِ والمثَنَّىٰ والْجَمْع، والمذكّر من كلّ ذلك والمؤنث، وقد يُسْتَعملُ على الأصل.

واتّخاذ الشيطان عدُوّاً يكون باعتقاد عَدَاوته، ومقابلَتِه بالعَدَاوة، وبعدَم الاستجابة لإغراءاته وتَزْييناته الَّتي يُقَدّمُها في ثياب ناصح، وبالاستعاذة بالله منه، وبرَجْمِه وطَرْدِه والتحذير منه، وبالعَمَل بطاعَةِ الله وطاعة رَسُوله، وبكل ما يُرْضِي الرحيم الرَّحْمٰن من صالحاتٍ وقُرُبات.

• ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: أي: لَيْسَ للشيطان في الحياة هَمٌّ يُكابِدُ لبلُوغه إلّا أن يَدْعُوَ مَنْ يتأثَّرُ بِه ويَسْتَجيبُ لدَعْوته، فيَجْعَلَهم حزْباً له مُشاقًّا لحزْبِ اللّهِ، ومُعَادياً لَه، ومتَنكّباً في مَسِيرَتِه في حياتِه صِراط اللّهِ المستقيم، صِراطَ الحقِّ والْهُدَىٰ والْخَيْر، ومُتّبعاً سُبُلَ الباطل والضَّلالِ والشّرّ والإثْم ومعْصِية الله ورَسُوله.

فإذا اتَّبَعَ أفرادُ حِزْبه هذه السُّبُلَ أوْصلَتْهُمْ إلى سَخَط الله وغَضَبِه، فكانوا بعَدْلِ الله من أصحاب السّعِيرِ يوْمَ الدّين.

وبوصولهم إلى عذاب السّعير يشْفِي إبليسُ غِلَّهُ الّذِي يَحْمِلُه في عَدَاوَتِه لبَني آدم، إذْ يكُونُون شُرَكَاءَه في العذاب الأليم الخالد.

**الحزب**: كلُّ جماعَةٍ تَشَاكَلَتْ أَهْوَاءُ أفْرادها وأعمالُهم، واتَّفَقُوا على التعاون والتناصر والْعَمل، ضِمْن بَرْنامجٍ وضَعُوه لأنْفُسِهم، أو وَضَعَهُ لهم قائِدُهُمْ وسَيّدُهم.

فأَتْبَاعُ حِزْبِ الشيطان يَعْمَلُون ضمْنَ بَرنامجِ شيطانيّ، ويتَّبِعُونَ سبُلَ الباطل والضَّلالِ والشّرّ، ومعْصِيَةِ اللّهِ ورَسُولِه، حتّى يَصِلُوا إلى دَرَكَةٍ يكونُون فِيها منْ أصْحابِ السَّعِيرِ في نارِ جَهَنَّم.

وأتْبَاعُ حزْب الله يَسِيرُونَ على صراط الله المستقيم، ويَعْملونَ بمراضي الله حتَّىٰ ينالُوا رضوان الله، ويكُونُوا يومَ الدّين سُعَدَاء في جنّات النعيم.

**السعير**: يأتي في اللُّغَةِ بِمعنَىٰ النّار، وقيل: السَّعِيرُ لَهَبُ النّار، وأصحاب السّعير هم الملازمون لِلَهَب النَّار، الّذين يحترقون بها ويَذُوقون عذاب الحريق.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧)﴾.

بَعْدَ تحذيرِ اللَّهِ جلَّ جلالُهُ النَّاسَ من الشيطان، وأمْرِهِ إيَّاهُمْ بأنْ يتَّخِذُوا الشيطانَ عَدُوّاً، مُعَلِّلًا هذا الأمْرَ بأنَّ الشيطان لَا يَدْعُو أفراد حِزْبِه لاتّباع خُطُواته إلَّا ليكونُوا باتّباعِهم لَهَا مِنْ أصحاب السَّعير، جاءَتْ هذه الآية (٧) مُبَيّنَةً جَزاءَ الّذين كفروا وجَزاءَ الَّذِين آمَنُوا بصُورَةٍ مُجْملَةٍ كُلّيَّة.

وبما أنَّ دعْوَةَ الشيطان لأفْراد حزْبه غايَتُها إيصالُهُمْ إلَىٰ الكُفْرِ بالله ورُسُلِه، وكلِّ ما جاء عن الله وبلَّغَهُ رُسُلُه الصَّادقون، المؤَيَّدُونَ مِنَ الله بالمعْجزاتِ الباهرات، وهذا الكُفْرُ يَجْعَلُ لَهُم في دار العذاب يوْمَ الدين عذاباً شديداً، كمًّا وكَيْفاً وزمَناً مَدِيداً، إذْ هُمْ يَخْلُدون فيه، دُونَ أنْ يخَفَّفَ عَنْهُمْ شَيْءٌ مِنْهُ، كان من الحكمة البيانيّة التَّذْكِيرُ بهذه الحقيقة، في سياق بَيَانِ غاية الشيطان من إغواءاته وتزييناته، فقال الله تبارك وتعالى:

• ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ..﴾.

أي: الّذين كَفَرُوا كُفراً إرادياً عِناديًا جَاحِدِين فيه الحقَّ الرَّبّانيَّ، وانْتَهَتْ حَيَاةُ امتحانِهم دون أن يُراجِعُوا أنفسهم بالتَّوْبة والإيمان، فمَاتُوا وهُمْ كافرون برَبِّهم، وكافرون بِبيَاناتِه الّتي أنْزَلها على رُسُله، لَهُمْ عذابٌ

شديدٌ في دار العذاب الّتي أعدَّها للمجرمين والعصاة الفاجرين.

هذه البيانات الشارِحَاتُ مقْتَبَسَاتٌ من نُصُوصٍ قرآنية موزَّعَةٍ في كثير من السُّور.

أمّا الدَّعْوَةُ الرَّبَّانيَّة فهي دَعْوَةٌ إلَىٰ الإيمان بالحقّ، المتَّصِلِ بالغاية من خَلْقِ النَّاسِ، وجَعْلِ الحياة الدُّنيا هي مجال امتحانِهم، لمُحَاسَبَتِهِمْ، وفَصْل القضاء بشَأْنهم، ومُجَازَاتِهم يوْمَ الدّينِ، علىٰ ما قَدَّمُوا وَأَخَّرُوا[١] في رِحْلة امتحانهم في الحياة الدُّنيا، ودَعْوَةٌ إلىٰ الْعَمل الصّالح الّذي هو في أنْواع سُلُوكهم الظَّاهر والْبَاطِن من آثار إيمانهم، ومِنْ ظواهِرِهِ في السُّلُوك. وغايةُ هٰذِهِ الدَّعْوةِ الرَّبَّانيَّة إسْعادُ مَنِ استجابَ لَهَا واتَّبَع ما أَنْزَلَ اللَّهُ لعباده، بعْدَ أنْ يظْفَرُوا بسَتْرِ ذُنُوبهم الّتي سلَفَتْ منْهُمْ في رِحْلَةِ امْتِحانهم، ويظْفرُوا بالتجاوُز عن سيّئات أعمالهم، ويكونُ إسْعَادُهم بالظفر بالأجْرِ العظيم علىٰ إيمانهم الصحيح الصادق، وعلى ما قَدَّمُوا في الحياة الدُّنيا من أعْمَالٍ صالِحَةٍ، وعلى ما جاهدوا نفوسَهُم فيها من اجتناب أعمال سيِّئَةٍ كانَ لَهُمْ فيها هوىً، يَبْتَغُونَ بكلّ ذلِكَ رِضْوانَ رَبِّهم، والظفَرَ بالسّعادة الّتي أعَدَّها اللَّهُ عزّ وجلّ للمتّقين في جنَّاتِ النعيم.

ولمَّا كانَ كُلُّ بَنِي آدَمَ خطَّائين، لَا تَخْلُو حياةُ كلّ فردٍ منْهُمْ من المعاصي والآثام الظاهرة أو الباطنة، الجسَدِيَّةِ أو النَّفْسِيَّة، ولو كان من المتَّقِينَ البالغين سَقْفَ دَرَجات مرْتبة التَّقْوى، ولو كان أيْضاً من الأبرار أو المحسنين، كان من حكمة الله في بيان ثواب الّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات أنْ يكون مشتملاً على عُنْصُرَين:

**العنصر الأول:** مغفرةُ ذُنوبهم.

---

(١) وأخّرُوا: أي: وتركوا ما كان يجب عليهم أن يعملوه، وهو استعمالٌ قرآني.

**العنصر الثاني**: أجْرٌ كبيرٌ على صالحاتِ أعمالهم، ولا يَصِفُهُ الله جلّ جلالُه بأنَّهُ أجْرٌ كبيرٌ، إلّا إذا كان كِبَرُهُ مُناسباً لِكِبَرِ الله وعَظِيم عطاءاتِه الجليلَةِ لعباده.

فقال تبارك وتعالى في بيان جزائهم: ﴿... لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

❊ ❊ ❊

قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

اشتملت هذه الآيةُ على ثلاثِ قضايا مُتواليةٍ تواليًا ترتيبيًّا، إذْ تدلُّ كلُّ سابقَةٍ منْها باللُّزوم الفكريّ على الّتي تَلِيها.

**القضية الأولى**: دلَّ عليها قولهُ الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا..﴾؟!.

لقَدِ اقتضى البيانُ نَفْيَ التَّساوي بيْنَ حِزْب الشيطان وحزب الرَّحْمٰن، مع الإشارة الضمْنِيَّةِ إلى أنَّ الرَّبَّ الّذي هو أَحْكَمُ الْحَاكِمينَ، ليْسَ من حكْمتِه أَنْ يُسَوِّي بَيْنهما في الحكْم، وليْسَ من حكْمَتِه أنْ يُسَوِّيَ بَيْنَهُما في الجزاء، فجاءت هذِهِ العبارة دَالَّة على نَفْي التساوي بَيْن الفريقَين.

وطُوِيَ في هذه العبارة الكلامُ عن الفريق المقابل لمنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه فرآهُ حَسَناً، وهُوَ فَرِيقُ مَنْ حَبَّبَ اللَّهُ إلَيْهِمُ الإيمانَ وآثارَهُ وظواهِرَهُ في السُّلُوك وزيَّنَهُ في قُلُوبهم، لأنَّ إرادَاتِهم الصَّادِقاتِ توجَّهَتْ لابتغاء الحقِّ والخيرِ، فجاءَتْهُمُ المعونَةُ من الله جلّ جَلَالُه وعظُمَ سلطانه.

والمعنى: أيَسْتَوي هذان الفريقان: حزْبُ الرَّحْمٰن، وحِزْبُ الشيطان، في ميزان الْعَقْلِ وميزان الْعَدْلِ والفضل؟!.

استفهام لا جوابَ له لدَىٰ العقلاء وأولي الألباب، إلَّا نفي التساوي بين الفريقين.

أي: وبما أن الله جلّ جلالُهُ أحْكَمُ الحاكمين، وأعْدَل العادِلين، وأعظَمُ المتفضّلِين، فإنّه ليْسَ من حكْمَتِه وعَدْلِه وفضْلِه سبحانَه أن يُسَوّيَ بين هٰذيْن الفريقَيْن، بلْ لا بُدَّ أنْ يَحْكُمَ علَىٰ حِزْب الشيطانِ بالضَّلَالَةِ، ضِمْنَ مشيئتِه الحكيمة، ولا بُدَّ أنْ يَحْكُمَ للّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات بالهداية ضمْن مشيئته الحكيمة.

﴿زُيِّنَ﴾: فعْلٌ مبْنِيٌّ لمَا لَمْ يُسَمَّ فاعلُهُ، وبالتَّدبُّر نُدْركَ أن فاعل هذا التزيين هو الشيطانُ والنَّفْسُ الأمَّارة بالسُّوء، وهذا ما جاء بيانُه في نُصُوصٍ قرآنيَّةٍ آخرى.

• فَمِنْها قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

• ومنْها قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) حكايةٌ لقول يوسُفَ عليه السّلام:

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

**القضيَّةُ الثانية**: دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿... فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ...﴾:

أي: ولمَّا كانت حكْمَةُ اللَّهِ الجليلةُ تَأْبَىٰ التَّسْوية بين هٰذين الفريقين: حِزْب الرَّحْمٰن، وحِزْبِ الشَّيْطان، في فَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء يوْمَ

الدّين، بعْدَ المحاسَبَة على المكتَسَباتِ الإراديَّةِ للموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، كانَ من المناسِبِ في البيان القرآنيّ كَشْفُ أنَّ اللَّهَ جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سلطانُه، سوف يحْكُمُ يوم الدّين، في الموقف الذي يحكُمُ فيه بين العباد، على الفريق الّذي ضَلَّ في الحياة الدُّنيا بالضّلال، وعلىٰ الفريق الّذي اهْتَدَىٰ بالْهِدايَة، ويكونُ هذا بمحْضِ مشيئَتِهِ الحكيمة القائمة على الفضل والْعَدْل، دُونَ أنْ يكون على مشيئته الحكيمَةِ سُلْطانٌ ما مِنْ غَيْرِ صِفاتِ كمالِه جلَّ جلالُه.

وبناءً علىٰ أنَّ الحكمةَ تقْتَضي نَفْي التَّساوي بيْنَ المجرمين والمسلمين رتَّبَ اللَّهُ عزّ وجلّ عليه قوله: ﴿.. فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ..﴾: أي: يَحْكُمُ في محكمة يَوْمِ الدّينِ على منْ ضَلَّ في رِحْلَة امتحانِه بالضَّلال، فَيُضِلُّهُ بمَشِيئته القضائيَّة الّتي لا سُلْطانَ عَلَيْهَا من غَيْر ذاتِ الله وصفاته، لكنَّه سبْحَانَهُ وتعالى لَا يحكُمُ بمَشِيئَتِه المطلَقَةِ الحكيمَةِ على من ضلَّ إلَّا بالعدْل، فلا يَظْلِمُ أحداً مثقالَ ذرَّة.

ويحكم في محكمة يوْم الدّين لِمَن اهْتَدىٰ في رِحْلَةِ امتحانِه بالهداية، فَيَهْدِيه بمَشيئَتِهِ القضائيَّةِ الَّتي لَا سُلْطانَ علَيْها من غير ذَاتِ الله وصفاتِه، لكنّه بمشيئته المطلقَةِ الحكيمة لَا يَحْكُمُ لِمَن اهْتَدى إلَّا بالْهِدايَةِ، على مقدار الدَّرَجَةِ الَّتي بَلَغَها قَبْلَ مَوْته، فيجْعَلُهُ مَشْمُولاً بالْعَدْلِ والْفَضْلِ معاً، ولا يَظْلِمُ ربُّنَا في حُكْمِهِ أَحَداً مثقالَ ذرَّةٍ.

وحُكْمُ الله عزّ وجلَّ يكُونُ لكلّ فَرْدٍ بما يُلائم ما كَسَب ومَا اكْتَسبَ من خَيْرٍ أوْ شرّ، ولَا يكُونُ حُكْماً جماعيّاً، بدليل ما سيأتي في السُّورة من بيانِ أنَّهُ لَا تزرُ وازرَةٌ وِزْرَ أُخرىٰ.

**القضيّة الثالثة**: دَلَّ عليها قولُ الله عزّ وجل: ﴿... فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ خطاباً لرسُوله محمد ﷺ، فلكُلّ

حامِلٍ مِقداراً ما من رسالَتِه من أمّتِه. وفي القراءة الأخرى: **[فَلَا تُذْهِبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ]**.

إنّه لمّا كانت رِحلَةُ الحياة الدنيا رحْلَةَ امْتحانٍ، لكَشْفِ أحوال نفوس العباد فيها، وما تكسِبُهُ فيها باختياراتِها الحرّة، لمحاسبتهم يوم الدّين، وفصل القضاء بينهم على مقادير ما قدّموا من خَيْرٍ أو شرّ، ثمَّ لمجازاتهم بمقتضىٰ عَدْلِ الله أو فضله، كانَ من شأن الرَّسُول ﷺ ويُلْحَقُ به كلُّ دَاعٍ إلى سبيل الله من أمّتِه، أنْ يُسَلِّمُوا للّهِ تَدْبيراتِه في مجاري حكْمَتِه، فلا يحزَنُوا من أجل الّذين يختارُونَ لنفوسهم اتّباعَ سُبلِ الضلالات الشيطانية، فالحزْنُ من أجْلِهم يخالف مقتَضياتِ حكمة الله، إذْ قَضَىٰ وقَدَّر أنْ يمتَحِنَ عباده، فيكْشِفَ بالامتحان أحوال نُفوسهم، وما تختارُ باختيارها الحرِّ من خَيْرٍ أو شرّ، ثم ليُحاسبهم، ويفْصِلَ القضاء بيْنَهم، وليجازِيَهُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ على ما كان منهم باختياراتهم الحرَّة، الّتي لم يُجْبَرُوا فيها على اختيار أيّ شيءٍ بالْقَهْر، ولم يُجْبَرُوا فيها على سُلُوك أيّ شيءٍ بالقهر.

إذن: فَمَن أرَادَ شيئاً باختياره الحرّ، فعَلَيْهِ أن يتحمَّلَ هو وَحْدَهُ نتيجة اختياره.

فجاء هذا الخطابُ البيانيُّ التوجيهيُّ كاشفاً لهذه الحقيقة، ومُعْلِماً بها، ومُرَبِّياً حَمَلَةَ الرّسالة الرَّبَّانيّة على ما ينبغي أنْ يَلْتَزِمُوا به.

**النفس**: قد تُطْلَقُ في اللُّغَةِ وَيُرَادُ بها الرُّوح، وجاء إطلاق النفس في القرآن على ما يجمع طَبْعَةَ خصائص الإنسان، في كلّ فرد من أفراد الناس، وهي الّتي تَذُوقُ الموْتَ بمفارقة الرّوح لها.

والمعنى الّذي يُفْهم من هٰذه القضيّة: فَيَا حَامِلَ الرِّسالة الرَّبَّانِيَّةِ! لَا تَجْعَلْ نَفْسَكَ تَذْهَبُ من جَسَدِك بالموت، بسبب توالي الحَسَراتِ فيها، وشدّة الأحزان فيها، من أجْلِ الّذين اختاروا لأنفسهم الكفرَ بما أوجب

رَبُّهُمْ عليهم من إيمانٍ ومنْ عَمَل صالح يُرْضيه، دُونَ أنْ تكُفَّها بالتّسليم التَّامّ للَّهِ في تَدْبيراتِ كونه، والتَّسليم التامّ لحكْمَته في قضائه وقَدَرِه، واعْلَم بأنّه عَلِيمٌ بكلِّ ما يَصْنَعُونَ من أعمالٍ ظاهرة وباطنة، في أجسادهم وفي نفوسهم، وأنّ هٰذه الأعمال من آثار إراداتهم الحرَّة.

أو: فيا حامل الرّسالة الرَّبَّانيَّة، لَا تَعْمَلْ على إذْهَاب نَفْسِكَ من الحياة فتذوقَ بذلِكَ الموت، بسَبَب توالي الحَسَراتِ والأحْزَانِ الشديدة عليها، من أجْلِهم إذْ لم يُؤْمِنُوا ولم يَعْمَلُوا صَالحاً، بَلْ قابِلْ حِكْمَةَ اللَّهِ في مقاديره وتدبيراته بالتَّسْلِيم التّام، ولو كان من اختار لنَفْسِهِ الكُفْرَ والعِصْيَانَ من أَقْرَب النَّاسِ إلَيْكَ رَحِماً أو وَلاءً، واعْلَمْ بأنَّ الله عَلِيمٌ بما يصْنَعُون بإراداتهم الحرَّة من أعمالٍ ظاهرة وباطِنَةٍ في أجْسَادهم وفي نفوسهم.

إنّ الحياة الدُّنيا حيَاةُ ابْتِلَاءٍ كاشفٍ لإراداتِ الموضوعين فيها موضع الامتحان، وإراداتُهُمْ فيها حُرَّةٌ غَيْرُ مجْبُورَة، ثم يكونُ في الحياة الأخرى الحسَابُ، وفَصْلُ القضاء، وتنفيذ الجزاء الرَّبَّاني بالْعَدْلِ لمستحقيه، أو بالفضل لمستحقيه.

بهذا قَضَتْ حكْمَةُ اللَّهِ في خَلْقِ النَّاس.

ولمَّا كانت أحكام الله ـ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه ـ الّتي يفْصِل بها بَيْنَ عباده يَوْمَ الدّين بالضّلال أوْ بالْهدَاية، لَا بُدَّ أنْ تكون مُسْتَنِدَةً إلى علْمِه الشّامل الّذي لا يغادر صغيرةً ولَا كبيرَةً من مُكْتَسباتِهم الإرادية، الظاهرة والباطنة، الجسَدِيَّةِ والنفسيَّةِ إلَّا أحْصَاها إحصاءً تامًّا، قال الله عزّ وجلّ في آخر الآية (٨): ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿يَصْنَعُونَ﴾: أي: يَعْمَلُون.

وقد جاءت هٰذه الجملة بمثابَة جواب سؤالٍ مطويٍّ، يُثِيره كَوْنُ الله

عزّ وجلّ يحكم يَوْمَ الدّين علَىٰ من كان في الحياة الدُّنيا ضالًّا بالضّلَال، ويَحْكُمُ لمَنْ كَانَ في الحياة الدُّنيا مهتدياً بالْهُدىٰ وهو ما جاء بيانه في الآية نَفْسها، ومُفَادُ هذا السؤال المطويّ: هل يعْلَمُ الله ما كان عباده يصْنَعُونَ في الدُّنيا من خَيْرٍ وشرّ، وحَسَنٍ وقبيح، حتَّىٰ ما كان من مكتَسَباتِ قُلُوبهم وإراداتهم ونفوسهم وأجْهزَةِ الإدراك لديهم؟

فجاءت هذه الجملة جواباً على هذا السؤال المطويّ.

﴿عَلِيمٌ﴾: صيغةُ مبالغة، أي: بالِغٌ علْمُهُ بِهِمْ كُلَّ شيءٍ، كبيراً كان أم صغيراً، ظاهراً كان أم باطناً، جسَدِيًّا كان أم نَفْسِيًّا، حتىٰ مكتسبات القلوب والنفوس والأذهان الإراديَّة.

﴿عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾: أي: عليم بما يَعْمَلُون الآن في الحياة الدُّنيا لحظة فلحظَة، وما يصْنَعُونَ في أقَلّ زَمَنٍ يحْصُلُ فيه عمَلٌ ما جَسَدِيٌّ أو نفسي.

وما يَعْلَمُهُ اللَّه ـ جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانُه ـ يظَلُّ معلوماً لدَيْهِ أبداً، لأنّ الله سبحانه لا يَضِلُّ ولا ينْسَىٰ، ويَعْلَمُ السِّرّ وأخفى.

كيْفَ لَا يَعْلَمُ سبحانه أعمال العباد ومكْتَسَباتهم الإراديّة، الظاهرة والباطنة، الجَسَدِيَّة والنفسيَّة، مع أنَّه ما مِنْ ذَرَّةٍ في الوجود كُلّه، ولا أصغر ولا أكبر إلَّا هو عليم بها، وبخصائصها، وصفاتها، وموقعها، وأجزائها، وحرَكة أجزائها، حتى الإلكترونات حول نويات الذّرّات، وهو مع علمه بها يُمِدُّها بِقُوتِ بقائها في الوجود، وبِقُوتِ حَرَكاتها في دَورانِها في مَدَارَاتها الذَّرِّيَّة.

وقد جاء بعضُ تفصيل لشمول علم الله في القرآن، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ

وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

• وقال اللَّهُ عزَّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿... وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾.

• وقال اللَّهُ عَزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بشأن المنافقين:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾.

إلى غيرها من نصوص كثيرة موزّعَةٍ في سُور القرآن المجيد.

وقد جاء توكيد الجُملتَيْنِ من الآية (٨) الّتي نتدبَّرها: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ بمؤكّدين: «إنَّ - والجملة الإسميَّة» مراعاةً لأحوال الشَّاكّين من الّذين يتلَقَّوْنَ الخبر، فمُجْمَلُ الخطاب في النصّ ليْسَ خَاصّاً بالرَّسول ﷺ.

وبهذا انتهىٰ تدبّر الدرس الرابع من السورة والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته.



## (٨)
## التدبّر التحليليّ للدرس الخامس من دُرُوس السُّورة وهو الآية (٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾.

**القراءات:**

• قرأ ابْنُ كثير، وحمزة، والكسائي، وخَلَف: ﴿ٱلرِّيحُ﴾ بالإفْراد، وهو اسم جنس يَعُمُّ أنواع الرّياح وأصْنَافها ذوات الآثار المختلفة.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع، وهذه القراءة ذاتُ دَلَالة صريحة على أنّ الرّياح أنواع وأصناف مختلفة.

فبَيْن القراءتَيْنِ تكامل في الأداء البياني، وقراءة الجمع تُفَسِّر المرادَ بقراءة الإفراد، إذْ فيها دلالة صريحة على اختلاف أنواع الرِّياح وأصنافِها. وفي قراءة الإفراد دلالة على جواز إطلاق اسْم الجنْسِ المفرد على المعنى الجامع للأنواع والأصناف المختلفة.

• وقرأ نافع، وحفص، وحمزة، والكِسَائي، وأبو جَعْفر، وخلف: [مَيِّتٍ] بَتَشْديد الياء المكسورة.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مَيْتٍ] بإسْكان الياء.

والقراءتان لغتان عربيّتان للكلمة.

**تمهيد:**

هذا الدرس يتعلَّقُ ببعض الظواهر الكونيَّة الدالّة على رُبوبيَّة اللَّهِ للكَوْن كُلّه، ووحدانيّته في رُبوبيّته، ويلْزَمُ عقلاً من توحيد الله في الرُّبُوبيّة تَوْحِيدُهُ في الْإلَهيَّة، فَمَنْ أثْبَتَ البرهان العقليُّ أَنَّهُ هو الرَّبُ وَحْدَهُ، كَان لا بُدَّ باللُّزُوم العقليّ الحتميّ أنْ يكونَ هو الإلَه المعبود وحْدَه لا شريك له.

وقد جاءت آيَةُ هذا الدرس معطوفة على قول الله عزّ وجلَّ في الآية (٣) من السُّورَة:

﴿... هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾.

وكُلٌّ منْهما من توابع البيانات المتعلّقات بالفرع الأول من فروع شجرة موضوع السورة التابع لفروع شجرة موضوع سورة (الفرقان) وهو فرع: «الله جلّ جلاله» الذي يتعلَّق به إثباتُ وَحْدَانيّتِه في رُبوبيّته، وفي إلٰهيّته، والرَّدُّ على المشركين، والكافرين الجاحدين.

ودلَّ هذا الرَّبط على أنَّ موقِفَ المشركين إِبَّانَ نُزُول سورة (فاطر) لم يتَغَيَّرْ فيه شيْءٌ عمَّا كانُوا عَليْهِ إبَّانَ نُزُولِ سورة (الفرقان).

**التدبّر:**

هٰذه الآية بشأن ظاهرة الرّياح، إحدى آياتِ الله في كونه ذوات الآثار النفعيَّة للناس، وقد يكون فيها إهلاكٌ وتدمير إذا شاء الله عقاب المجرمين، وقد يكون فيها مصائبُ دون ذلك إذا شاء الله عقاب أو تذكير العصاة والظالمين، وقد جاءت هنا لبيان أثرٍ من آثارها النفعيّة الّتي يمُنُّ الله بها على عباده.

وسبق أن نزل في نجوم التنزيل قبْلَها نَصَّان آخران حول موضوعها نفسه، وفيهما يمُنُّ الله عزّ وجلّ على عباده بآيَةِ الرّياح وآثارها النفعيّة.

إذْ أنزل الله عزّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قوله:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وأنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) قوله:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾.

وسبَق تَدَبُّر هٰذَيْنِ النَّصَّيْن في مواضعهما، وأضيفُ هُنا أنّ هٰذَيْن النَّصَّين مع النّصّ الثالثِ وهُو الآيَةُ (٩) من سورة (فاطر) الّتي نتَدَبَّرُها، نُصُوصٌ مُتَكامِلَةٌ في دَلَالاتها، وغير متطابقة، مع أنّ موضوعها واحد، وهذا التكامل هو أَحَدُ خَصَائص القرآن الإعجازيَّة القائمة على تجزئة عناصِرِ الموضوع الواحد في إطاره الكُلِّي، وتوزيع دلَالاتِهَا في عدَّة نُصُوص، وفي أكْثَر من سورة، وقد تُكَرَّرُ بَعْضُ عناصِر الموضوع لاستكمال الصّورة البيانيّة في النّصّ، أو للاهْتِمام بهٰذِه العناصِر وتأكيدها لكِنْ لَا علىٰ سبيل التَّطابُقِ الكُلِّيّ في الغالب.

وعلى المتدبِّرِ أنْ يَضَعَ في تصَوُّره دواماً أنّ التَّكَامُلَ هُو القاعِدَة، وأَنَّ التَّطابُقَ قَدْ تقتضيه الْأَهَمِّيَّة القُصْوى لتكرير الموضوع، كأَنْ يكُونَ من الأُسُسِ الاعتقادية، أو تقتضيه العِلاجَاتُ التربويَّةُ الفكريَّةُ أو النفسية.

وبنظرة عَجْلَىٰ لبيان التكامل في هذه النُّصوص الثلاثة نلاحظُ ما يلي:

(١) أنّ ما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بالنسبَة إلىٰ إرْسَال الرّياح بُشْراً بين يَدَيْ رَحْمَة الله، أي: مُبَشّرَاتٍ بنزول المطر، قد جاء بصِيغَةِ الفعل المضارع، لبَيانِ ما يحْدُثُ بتجدُّدٍ في ظاهراتِ تصاريفِ اللَّهِ في كونه، فَحَرَكة هٰذا الإرْسالِ حَرَكَةٌ مُتجدّدةٌ قبْلَ كلّ سحَابٍ ثِقَالٍ بالماء تتجمَّعُ في السَّماء، فقال الله تعالى فيه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا . . . ﴿٥٧﴾﴾.

**سحاب**: اسم جنس جمعي، مفرده «سَحابة».

وهذا الحدث المتجدِّدُ في المسْتَقْبَل من الأزمنة، هو من الأحداث الّتي سبَقَتْ في الماضي، وقد جاء بيان إرسال الرياح في هذا النصّ في

مَعْرِضِ الحديث عن الرّياح التي تثير السُّحُب، وتجمعها، وتحملها، وهي ثِقَالٌ بمياهِ الأمطار.

(٢) ومَا جاءَ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بشأن إرْسال الرّياح بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رحْمَةِ الله، أي: مبشّراتٍ بنزول المطر، قد جاء بصيغَةِ الْفِعْلِ الماضي، للدّلالة على أنّ سُنَّة الله فيما مضى مِثْلُ سُنَّتِه فيما يتجدّد في أزمان المستقبل، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾.

وقد جاء بيان إرسال الرّياح في هذا النصّ في معرض الحديث عن تأثير الرياح في إنزال الماء الطهور من السحاب.

(٣) وَمَا جاء في سورة (فاطر/ ٢٥ مصحف/ ٤٣ نزول) قَدْ جاء بصيغة الفعل الماضي، إلّا أنّه اشتمل على عناصر مُضافة لَمْ تَرِدْ في النَّصَّيْن السابقين، كما جاء في النَّصَّيْن السابقين عناصر لم تَرِدْ فيما جاء في سورة (فاطر).

ففي آية سورة (فاطر) جاءت أفعال: «أَرْسَلَ ـ سُقْنَاهُ ـ أَحْيَيْنَا» بصيغة الفعل الماضي، للدّلالة على سُنَّة اللَّهِ في الأحداث الماضية، لكنَّهُ أضاف إثارة الرّياح للسّحاب، وسَوْق الله له إلى بَلَدٍ بعيدٍ ميّت، في خُطَّة تكامليّة.

أمّا فِعْلُ ﴿فَتُثِيرُ﴾ في آية (فاطر) فقَدْ جاء فعلاً مضارعاً، ضمْن سِبَاقِ وسِيَاقِ أفْعالٍ ماضية على خلاف مقتضى الظاهر، لغَرَضٍ بلاغيّ، وهو تصويرُ حَدَثٍ مَضَىٰ بصُورَةِ حَدَثٍ يجْري بالتّتابعُ في الحاضر، ولأنَّهُ ليْسَ في اللّغة العربيَّة صيغةُ فِعْلِ مَاضٍ يَدُلُّ على الحركة المتكرِّرة بتَتَابع، فاسْتُعِيرَتْ صِيغَةُ الفعلِ المضارعِ للدّلَالَةِ علَىٰ هٰذا المعنى، فجاء تعبير ﴿فَتُثِيرُ﴾ بقُوَّةِ قولنا: فأثارَتْ إثاراتٍ متتابعاتٍ سَحَاباً.

**الإرسال**: البعثُ والتوجيهُ، لأداء عَمَلٍ يقصد المرسِلُ أداءه بتُؤَدَةٍ وتَرَفُّق وأناة وتعقُّلٍ وحكمة.

**الإثارة**: التَّهْيِيجُ والنَّشْر، يقال لغة؛ أثارَهُ، أيْ: هيَّجَهُ ونَشَرَه، ويُقَال، ثارَ يثُورُ، إذا هَاجَ وانْتَشر.

وبالنظر التأمُّلِيّ في هٰذه النصوص الثلاثة الواردة في سور: «الأعراف والفرقان وفاطر» نُدْرك أنّه لَا تكرار في الدّلَالَاتِ المقْصُوداتِ فيها.

• فنصّ (الأعراف) يتحدّث عن الرّياح الّتي تجمع السُّحُبَ حتَّىٰ تكونَ ثقالاً بالماء، وأضاف الدّلالةِ على أنَّ السحاب الثقال تُسَاقُ لمكان قريب من تجمُّعِه، أخذاً من دلالة حرف اللام في: [لِبلَد مَيّت] وعلى أن الله يخرج به من كلّ الثمرات، وعلى أنّ إخراج الموتى إلى الحياة الأخرى مشابه لإخراج النبات من الأرض بماء المطر، وعلى أن الغاية من هذا التدبير الكوني تذكير الناس بقدرة الله على إحياء الموتىٰ.

• ونصّ (الفرقان) يتحدَّث عن الرّياح التي يعقُبُها إنزال المطر من السماء، أي: من السحاب، وأضاف الدّلالة على أنّ الماء الذي ينزل من السّحاب ماء طهور، والدّلَالةَ على الغاية من إنزاله في خُطّة التكوين، وهي إحياءُ أرض ميّتة، وإسقاء كثير من الأنعام والأناسيّ.

• ونصُّ (فاطر) أضاف الدّلالة على أنّ الرّياحَ تُثِيرُ سَحاباً فيسوقُه الله عزّ وجلّ إلى بلَدٍ بعيد ميّت، وفي هذه الحالة لا يشترط أنْ تكون السُّحُب المسُوقَةُ ثِقالاً بالماء، لأنّ سَوْقها يكونُ إلى بَلَدٍ بعيد، بدليل استعمال حرف [إِلَىٰ] بخلاف النصّ الذي جاء في (الأعراف).

وفي فعل [فَسُقْنَاهُ] في آية (فاطر) التفات من الغيبَةِ إلى المتكلّم، وهذا من فنون الأساليب البلاغيّة ذوات اللطائف النَّفِيسة.

وجاء تكرير الدّلالة على أنّ إحياء الموتى يوم البعث يُشبِهُ إحياء

الأرض بَعْدَ موتها في كلٍّ من (الأعراف) و(فاطر) لأنّ هٰذه القضيّة من الأمور الْعَقَدِيَّة المهمَّة، الّتي اهْتَمَّ القرآنُ بالإقناع بها، وتكرير الدّلالة عليها في نصوصٍ مُتَعَدِّدَة من القرآن.

ولكن جاءت هذه الدّلالة بعبارتَيْن مختلفتَيْن، ففي سورة (الأعراف) قال الله عزّ وجلّ: ﴿... كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾. وفي سورة (فاطر) قال الله عزّ وجلّ: ﴿... كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾.

**النُّشُور**: مصْدَرُ «نَشَرَهُ» أي: أحياه بَعْدَ الموت.

وهذه العبارة موصولة بما جاء في الآية (٥) من سورة (فاطر): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فظهر لنا بالتحليل التّكاملُ في الدّلالات بيْنَ النصوص الثلاثة الّتي في (الأعراف، والفرقان، وفاطر).

والحمْدُ للّه على فَتْحِه وتوفيقه ومعونته.



## (٩)
## التدبّر التحليليّ للدّرس السّادس من دُروس السّورة وهو الآية (١٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

**تمهيد:**

إنّ المشركين الَّذِينَ تُعَالج سورة (فاطر) كفريّاتهم بالبيانات العقليّة التربويّة، متابعةً لمعالجاتها الّتي سبقت في سورة (الفرقان) قد اتَّخَذُوا آلِهَةً

مِنْ دُون الله كما جاء بيانه في سورة (الفرقان) واضِعين في تصَوُّرهم الاعتقاديّ الباطل غرضَيْنِ من عبادتهم شُرَكَاءَهم:

**الغرض الأول**: أنْ تَرْحَمَهُمْ شُرَكَاؤهم في قضايا أرْزاقهم المادّيّة والمعنويَّة، زاعِمينَ أَنَّها هي الّتِي تَرْحَمُهُمْ، ولهٰذا أنْكُروا اسْم الله الرحمٰن، وهُوَ ما دَلَّ عليه قول الله عزّ وجل في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بشأنهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾.

وقد سبق في سورة (الفرقان) بيانٌ بُرْهَانيٌّ يدُلُّ على بُطْلانِ اعتقادِهم الفاسدِ هذا، وإثباتِ أنّ أرْزَاقهم إنَّما تَصِلُ إليهم من آثار رحمة الله لعباده.

**الغرض الثاني**: أنْ تَنْصُرَهُمْ شُرَكَاؤهم عَلَى خُصومهم وأعدائِهم في معاركهم الباردة والسَّاخنة، بتأييد غَيْبيّ.

وقد جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) ما يَدُلُّ على اعْتقادهم بأنّ تَفَوُّقَهم على الرَّسُول وعلى الذين آمنوا به واتَّبَعُوه في العَهْدِ المكيّ من سيرَة الرسول ﷺ، إنَّما هو بسبَبِ تأيِيد ونَصْرِ شُرَكَائهم لهم، يُشِيرُ إلى هذا قول الله عزّ وجلّ فيها خطاباً لرسُوله ﷺ بشأنهم:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

أي: فهم يوم يرَوْنَ العذابَ يَوْمَ الدِّين، لَا يَجدُونَ مِنْ شُرَكَائِهِمْ تَأْييداً وَلَا نَصْراً، بل سَوْف يخْذُلونَهم، وَيَتَبَرَّؤُون منهم.

وقد جاء بيانُ هذا الغرض مُصَرَّحاً به في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) إذْ جَاءَ فيها قولُ الله عزَّ وجلَّ بشَأْنهم:

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

فجاء في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/٤٣ نزول) مُتَابَعَةُ مُعَالَجَةِ المَعْتَقَدَين الفاسِدَيْن الباطِلَيْنِ للمشركين، حوْلَ قضيَّةِ الرّزْق الّذي هو مظهر من مظاهر رَحْمَةِ الله لعباده، والنَّصْرِ الَّذِي تقتضِيهِ مُكافَأَةُ المعْبُود لعابده.

أمّا قضية الرُّزْقِ فقد جاءَتْ مُتَابَعَةُ مُعَالجة اعتقاد المشركين حولَها في الآية (٣) فقال اللَّهُ عَزّ وجلّ فيها:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾.

وقد سبَقَ أن تَدَبّرْنا هٰذِه الآيَةَ على قَدْرِنا.

وأمّا قضيَّةُ النَّصْر، فقد جاءَتْ مُتَابَعَةُ مُعَالَجَةِ اعتقاد المشركين حوْلَها في هٰذا الدَّرْس من دروس السورة، وهو الآية (١٠) منها.

**التدبّر:**

اشتمَلَتْ آيَةُ هٰذا الدّرس على بيَانِ أرْبَعِ قضايا مترابطَةٍ تَرَابُطَ أعْضاءِ جَسَدٍ وَاحِدٍ.

**القضيَّةُ الأُولى**: دَلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا . . .﴾.

**الْعِزَّة**: هيَ القُوَّة الغالبة، يقول الْعَرب: مَنْ عَزَّ بَزَّ، أي: من غَلَبَ سَلَب.

هذه القضيّة تكْشِفُ عن حقيقَةٍ من حقائق الوُجُودِ الكبرى، مع تضمُّنِها البُرْهَانَ العقْلِيَّ عليها.

فالله عزّ وجلّ في اعتقاد المشركين هُو خالق الكون كُلّه بقُدْرته العظيمة، وكلُّ ذي فكْرٍ يُدْرِكُ أنَّ الْقُدْرَة العظيمة الّتي خلَقَ اللّه عزّ وجلّ بها الكون، وهو مُهَيْمِنٌ عليه برُبُوبيّته الدائمة، لا بُدَّ حَتْماً أنْ تكون هيَ القوّة الغالبةَ دَواماً.

فَمَنْ نَصَرَهُ الله بقُدْرَتِه مُكافَأَةً لَهُ عَلَى حُسْنِ عبادَتِه لَهُ، وصِدْق الْتِجائه إلَيْه واعتماده عليه، فهو المنْصُورُ العزيز الغالِبُ لا مَحالَة، ومَنْ خذَلَهُ الله وأذَلَّهُ لَمْ تَنْفَعْه قُوَّةٌ فِي الوجُودِ بَالِغةً مَا بَلَغَتْ.

إذَنْ: فَشُرَكاءُ المشركين لَا يملكُون لعابِدِيهم وطالِبي النَّصْر منْهُمْ تأييداً وَلَا نَصراً، ولا يملكون أن يجلُبُوا لهم نفعاً، أو يدفعوا عنهم ضُرّاً.

فَمَن كان يُرِيدُ العزَّة، أي: القوَّة الغالبة، فلْيعْلَمْ، ولْيَضَعْ في تَصَوُّرِه دائماً أنَّ العزَّةَ لله جميعاً، وعَلَيْه أن يكون مؤمناً حقًّا، وعابداً لله حقًّا، وعاملاً بمراضيه، ومُلْتزماً في سِلْمِهِ وحَرْبِهِ بأوامر الله ونواهيه، وناصراً دينَهُ على وفْقِ شرائعه، وضِمْنَ صراطه المستقيم، وداعياً مُلْتجئاً إلَيْهِ أن يهبَهُ النَّصْرَ المبين.

فإذا فَعَلَ ذَلِكَ نَصَرَهُ الله وَأعزَّه، وكان هو الغالبَ لَا محالة، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (محمّد/٤٧ مصحف/٩٥ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾.

وهذه القضيّة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ مُؤلَّفَةٌ من جُمْلَةٍ شَرْطيَّة.

﴿مَن﴾ اسْمُ شرطٍ جازم وهو مبتدأ وخبرُهُ جُمْلَةُ الجزاء.

وجاءت جملةُ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ دَالَّةً على جُمْلَةِ الجَزَاءِ، وسادّةً مَسَدَّها، وأصل العبارة يمكن تقديره كما يلي: مَنْ كانَ يُرِيدُ العزَّةَ طَلَبها من اللّهِ على وفْق أحكام شريعته لعباده، فَلِلّهِ العزّةُ جميعاً.

لفظ ﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ، أي: فلِلّه العزَّةُ حالَةَ كوْنها جميعاً له لا يشاركه فيها غيره.

**القضية الثانية**: دلّ عليها قول الله تعالى: ﴿... إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ...﴾.

إنَّهُ بعْدَ تهْيئَة الشروط السّببيَّة الّتي أمر الله بها لاكْتِساب النَّصْر بعزَّة الله ـ جلَّ جلالُهْ وَعَظُمَ سلطانُه ـ يأتي طلَبُ النَّصْرِ بعبادَةِ الدُّعاء الخالص لله وحْدَه لَا شريك له.

والدُّعَاءُ الخالصُ لله وحْدَه هو من الكلم الطيِّب الّذي يَصْعَدُ إليه، ولا يكونُ دون وُصوله إلى الله عزّ وجلّ حاجزٌ ولا حاجب، وهو في صُعوده لا يحتَاجُ زَمَناً لوُصوله، بل يَصِل صاعداً إلَيْه فَوْرَ الدُّعاء الخالص له.

وجاء استعمال حرف «إلى» في لفظ: ﴿إِلَيۡهِ﴾ مُرَاعَاةً لمقام الْعُلُوّ المعنويّ لله تبارك وتعالى، إذْ هو العِليُّ الأعلى دواماً.

والله جلّ جلالُه يُمِدُّ على وفْقِ مقْتَضَىٰ حكْمَتِه عبادَه المؤمنين الصادقين، بالتأييد والنصر علَىٰ أعدائِهم الكافرين.

ويُستفادُ الْقَصْر في العبارة من تقديم المعمول: ﴿إِلَيۡهِ﴾ على عامله: ﴿يَصۡعَدُ﴾. أي: إلَيْهِ وَحْدَهُ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيّبُ، ولا أَحَدَ في الوجود يَصْعَدُ إلَيْه كَلِمٌ طيّب.

إنَّ الدُّعَاء الخالصَ لله عزّ وجلّ من نفائس الكَلِمِ الطيّب الّذي يتقبَّلُهُ الله جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه.

**الكَلِمُ**: اسْم جنس جمعي، مُفْرَدُ «الكَلِمَة» مثل النَّبِق والنَّبِقة، ولا يكون أقلّ من ثلاث كلمات.

والكلام جمع «الكلمة» أيضاً، وهو اسم جنس يقع على القليل والكثير.

**الطيّب:** أي: الطاهر الخالص من الشوائب، النظيف الذي لا خَبَثَ فيه، وهو ضدُّ الخبيث.

أمّا الدُّعاء لغير الله فَهُوَ كَلِمٌ خبيثٌ، لأنّ فيه رِجْسَ الشّرك والكُفْرِ بالله سبحانه وتعالى.

وجاءت جملة ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ عامَّةً شاملةً كُلَّ كَلِمٍ طيّبٍ، كعبَارة «لا إلّه إلّا الله» وكلمات الذّكر لله عزّ وجل، وكلمات الدَّعْوَة إلى الله، وكلماتِ الحُجَجِ والْبَراهين المثبتَةِ لحقائق الدّين وشرائعه وأحكامه، لتكون ذاتَ دَلَالَةٍ كُلّيّة يُسْتَشْهَدُ بها لكُلّ كَلِمٍ طيّبٍ،ولتَدُلَّ على دُعَاء المؤمنين رَبَّهم طالبين منه التأييد والنّصر، وهو الأمْرُ الذي يَسْتَدْعيه السِّباقُ والسِّيَاقُ في الآية.

أي: فادْعُوا الله أَنْ يَنْصُركم عَلَىٰ عَدُوّكم أيُّها المؤمنون، بَعْدَ اسْتِكْمَال الوسائل السببيَّة المادّيَّة الّتي أَمَرَكم بها، فهذا الدُّعاءُ هو من الكَلِم الطيّب الّذي يَصْعَدُ إليه، وهو يستجيب بحِكْمَتِهِ لكم فيَنْصُرُكم ويُعِزُّكم، إذا عَلِمَ أَنَّكُمْ صادقون تَسْتَحقُّون التأييد والنّصر.

**القضيّة الثالثة:** دَلَّ عليها قول اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾.

أي: ولكِنْ مع الدُّعاء بالكَلِم الطيّب، لَا بُدَّ من القيام بالْعَمَل الصّالح، الّذي يُلائِمُ صَلاحُهُ في نظام الأسْباب والمسَبَّبات الرَّبَّانيّة، مَا يَتَحَقَّقُ بِهِ النَّصْر والظفر، حتَّىٰ يَرْفَعَهُ اللَّهُ ـ جَلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانه ـ بحكمَتِهِ ومعونته وألْطَافِهِ ومقاديرِه الخفيَّة، ويُحَقِّقَ به لأولِيَائه النَّصْرَ والعزَّةَ والتمكين.

فالدُّعاء وحْدَهُ دُونَ اتّخاذ الأسباب الّتي أمَرَ اللَّهُ ويأمُرُ باتّخاذها، لا

يُحقّقُ اللَّهُ بِهِ النَّصْرَ والظفرَ والعزَّةَ والتمكين، إذْ لَمْ يَعِدِ الله عزّ وجلّ المؤمنين المهْمِلين في اتّخاذ الأسباب الكونية المادّيّة والمعنويّة بأنْ ينْصُرَهُمْ وهُمْ كُسَالَىٰ، مخالفون لأوامِرِهِ ونواهِيهِ، بلْ هم قد يكونون معرَّضين للعقاب على معاصيهم، ومن العقاب ما يُنْزلُ اللَّهُ بِهِمْ من هزائم.

وقَدْ يُثَابُونَ علىٰ صِدْق دُعَائِهم والتجائهم إلىٰ رَبّهم ثَواباً حسناً يَوْمَ الدّين، لأنَّ الدُّعاء عبادةٌ مقبولَةٌ عنْدَ الله جلّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُه.

وهذه القضيّة الثالثة، تَدُلُّ على أَنَّ جَعْلَ المؤمنين الداعين بالدُّعاء الخالص يَعْلُونَ ويَرْتَفِعُونَ علىٰ الكافِرين في المعارك الباردة والسَّاخنة مشروطٌ بالْعَمَلَ الصالح.

فقول الله تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾: أي: والْعَمَلُ الصالحُ يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ الْعُلُوَّ والارْتفاع على الأعْمالِ الأخْرَىٰ غَيْرِ الصالحة.

وَرَفْعُ العَمَلِ الصَّالِحِ كِنَايَةٌ عَنْ رَفْع أصْحَابه، ومَنْحِهِمُ العُلوَّ والْعِزَّةَ الغالِيَة.

وقد جاءت هٰذه الجملَةُ عامَّةً شاملَةً للدَّلاَلَة على سُنَّةِ الله في خَلْقه أنْ يَرْفَعَ ويُعْلِيَ الأعمالَ الصالحة، ويَخْفِضَ الأعمال غَيْرَ الصالحة.

ومن ضِمْن الأعمال الصالحةِ، الأعْمَالُ الجهاديَّةُ الّتي يقُومُ بها المؤمنون الصادقون لاكْتِسَاب النَّصْر على أعدائهم إعلاءً لكلمة الله عزّ وجلّ.

**القضية الرابعة**: دَلَّ عَلَيْهَا قول الله تعالى: ﴿... وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

**المكر**: تدبير أمْرٍ في خفاء، يكونُ في الخير ويكونُ في الشرّ.

﴿يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: أي: يُدَبِّرُونَ أُمُورَهُمْ في خفاء، قاصدين

بمكرهم السَّيِّئَاتِ ضِدَّ الّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحات، إذْلاَلَهُمْ والتخَلُّصَ مِنْهُمْ ومن دَعْوَتهم إلى دين الله الحقّ.

أرَىٰ أنّ فعل ﴿يَمْكُرُونَ﴾ قد ضُمّن معْنَىٰ فِعْلَ «يَقْصِدُون» أو «يَعْمَلُونَ» فَعُدّيَ تَعْدِيته فأغنت الجملة عن جملتين، والفعل المضارع يَدُلُّ على حركة مكرهم المتجدّدة.

وعُلِمَ من قرينَة السِّبَاق والسِّيَاق أنّ مَكْرَهُمُ السّيِّئَاتِ هو لمقاومة المؤمنين المسلمين المجاهدين في نَشْر دين الله الحقّ.

وكلمةُ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ تَشْمَلُ كلَّ ما يَسُوءُ الْمَمْكُورين المقصودين بالمكر، من أَخَفّ ما يَسُوءُ حَتَّىٰ أشدِّهِ الذي يكون بالتعذيب والْقَتْل.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: أي: لهم عقابٌ شديدٌ يوم الدِّين على ما سبَقَ أن مَكَرُوه في الحياة الدّنيا، ضدّ الحقّ الرَّبّاني، وضدّ الّذين آمنوا به واتَّبَعُوا تعليماته ووصاياه.

﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾: أي: ومَكْرُ أُولَٰئِكَ الْبُعَداء إلى الحضيض هو يَهْلِكُ وَيَضْمَحِلُّ، ثم يكونون هُمُ الخاسِرين الخائبين، لَا يحقِّقُونَ بمكرهم النَّصْرَ والعزّة على المؤمنين العاملين بما أوصاهم الله به.

﴿يَبُورُ﴾: أي: يَهْلِكُ وَيَضْمَحِلّ.

وجاءت الإشارة إلى الكافرين باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموضوع للبعيدين، تعبيراً عن انحطاط منزلتهم إلى الحضيض الأسفل.

لفظ ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل لتوكيد أنّ مكرَهم لَا بُدَّ أَنْ يبور هالكاً مضْمَحلًا، واضمحْلَال مَكْرِهم وبوارُه كنايَةٌ عن أَنَّهم هُمُ البائرون المضمَحِلُّون الهالكون، وهم الخاسرون المغلوبُونَ الخائبُونَ أخيراً.

وقد دلّت هٰذه القضيَّة الرابعة على أنَّ الأعمال السّيِّئة التي يُدَبِّرُها في

الخفاء أعداء الرسُول ﷺ، وأعداء الذين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ، سيُحْبِطُها اللَّهُ ـ جلّ جلالُه ـ في الدّنيا، ويَجْزِي الماكرين بعذاب شديد يَوْمَ الدّين، وقَدْ يُنْزِلُ اللَّه بهم عذاباً شديداً في الدُّنيا أيضاً.

وقد جاءت عبارة هذه القضيَّةِ عامّة كسابقاتها، لتكونَ دالَّةً على سُنَّةِ الله في عباده، في كلّ تصَرُّفاتهم أنّ الَّذِينَ يمكُرُونَ السَّيئاتِ لَهُمْ عذابٌ شديد، وأنَّ مَكْرَهُمْ مَهْما كان مَكْراً كُبَّاراً سيكُونَ بائراً هالكاً مضْمَحِلًّا، وأَنَّ أصحابه سيكونون هم الخاسِرِين الخائبين أخيراً.

وقد جاء هذا الدرس السادس في المرحلة المكيّة، بمثابة التوطئة الرَّمزِيَّة للأحداث الّتي تحققت في المرحلة المدنية. من مسيرة الرسول الدعوية.

وبهذا انتهى تدبّر الدرس السادس من دُروس السّورة والحمد لله على معونته وفتحه وتوفيقه.



## (١٠)
## التّدبُّر التحليلي للدرس السّابع من دُروس السورة وهو الآيات من (١١ ـ ١٤)

قال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ

ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴿١٤﴾﴾.

**القراءات:**

• قرأ جُمهور القراء العشرة: ﴿وَلَا يُنقَصُ﴾ مَبْنيًّا لما لم يُسَمّ فاعله، من فِعْلِ: «أَنْقَصَ».

وقرأ يعقوبُ فقط: **[وَلاَ يَنْقُصُ]** مبنيًّا لِلْمعَلُوم من فعل: «نَقَصَ».

يُقال لغة: نقَصَ الشَّيْءُ، أي: قَلَّ مقْدارُه. ويُقَال: نَقَصَ فلانٌ الشَّيْءَ، أي: قَلَّلَ مِقْدارَهُ. ويقال أيضاً: أَنْقَصَ فُلانٌ الشَّيْءَ، أي: قَلَّلَ مِقْدارَه.

وعلى هٰذا فالقراءتان متكاملتان في المعنى، وجاريَتَانِ على وَجْهَيْنِ عَرَبِيَّيْنِ جائزَين ومستعملَيْن.

والتكامُل يُفْهَمُ على معنىٰ: أَنْقَصَ اللَّهُ من عُمْرِه، فنقص مطاوعاً.

**تمهيد:**

في هٰذا الدرس عَوْدٌ إلى عَرْض بَعْضِ آياتِ الله في كونه الدَّالَّاتِ على رُبوبيَّةِ الخالق فيها، وهٰذه الصفة يلْزَمُ عنها عقلاً وحدانيّةُ الله الخالق الرَّبّ في إلَـهيّته، فَمَنْ عَبَدَ مع الله أحداً من دُونه كان من المشركين، وأشْنَعُ منْهُ مِنْ عبد إلَهاً أو آلهةً من دُونِ الله، ولَمْ يَعْبُدِ اللَّهَ رَبَّه، الَّذي لَهُ عليه حقٌّ أن يَعْبُدَه وحْدَهُ لا يُشْرِكُ بعبادتِه أحداً، وأشنع منهما جاحِدُ الرُّبوبيّةِ والإلَهيَّةِ كلَيْهِما، ويَعْتَقِد أَنَّهُ لا ربَّ في الوجود ولا إلَه يُعْبَد.

واشتمَلَ هذا الدرس علىٰ التَّنْبيه علىٰ عدَّةِ ظاهراتٍ كونيَّةٍ مِن

ظَاهراتِ خَلْق الله، وآياته الجليلاتِ، الدَّالاَتِ علىٰ كَمالِ قُدْرَته، وإتقان صُنْعِه، وشُمولِ عِلْمِه، وعظيم نِعَمِه عَلَىٰ عِبَادِه رَحْمَةً بهم، وأنَّ له المُلْكَ كلَّه لَا يُشَارِكُه في مُلكِهِ ومِلكِه أَحَدٌ.

واشْتَمل أيضاً على إقناعِ المشْرِكينَ، بأنَّ عبادَتَهُمْ لشُرَكائهم بالدُّعاءِ اسْتِجْداءً لِرَحْمَتِهم، لَا تَنْفَعُهُمْ شيئاً، لِأَنّ شركاءَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً من الكَوْنِ الّذي هُوَ مِلْكٌ لِلَّهِ وَحْدَه، ولأنّ شركاءَهم لا يَسْمَعُونَ دُعَاءَهُمْ إذَا دَعَوْهم، ولو كان فيهم من يسْمَعُونَ دُعَاءَهم كالمعْبُودين من الجنِّ والملائكة لم يسْتجيبوا لَهُم، لأنّهم لا يملكون ذلك، ويوْمَ القيامَةِ يكْفُرُ المعْبُودونَ بشِرْكِ عَابديهم من المشركين، إذْ يتبَرَّؤُونَ مِنْهُمْ ومِنْ دَعْوَتِهِمْ إلى اتّخاذهم آلِهَةً من دُونِ الله.

**التدبر:**

اشتمل هذا الدرس على تِسْعِ قضايا، وبيانات مُفَصَّلاتٍ في بعضها:

**القضية الأولى**: دلّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا. . . ﴿١١﴾﴾:

في هٰذه القضيَّة عرضُ الآيَة الرَّبّانيّة التكْوينيَّة الأولىٰ، من الآيات الّتي عرضها هذا الدرس من دروس السورة.

والخطابُ في هٰذِهِ العبارة مَوَجَّهٌ للنّاس، إذْ هو تابع لنداء الله للنّاسِ الّذِي جاء في الآية (٥): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ . . .﴾.

جاء بيانُ خَلْقِ آدم من تُرابٍ ومن طين في نصوص قرآنيّة متعدّدة، وهذا البيانُ هو فيما أرىٰ يَدُلُّ علىٰ السِّلْسِلَةِ الغذائيَّة الّتِي يخْلُقُها اللَّهُ عزّ وجلّ من التراب والماء نباتاً، فتأكُلُ منْهُ الأنعام، ويأكُلُ منْهُمَا النّاس، ويتحوّل الغذاء دماً ولَحْماً وعظماً بخَلْقِ الله، ثُمَّ تَجْرِي تَحَوُّلَاتٌ بِخَلْق الله

داخلَ الأجسادَ فَتَتَكَوَّنُ بخلْقِه النُّطَفُ المنَوِيَّةُ فيها، ثُمَّ تَتَكَوَّنُ في النُّطَفِ المنويَّة الأزْواجُ منْ صِنْفَي الذَّكرِ والْأُنثىٰ، ثُمَّ يكونُ الحمْلُ بالتقاء الْحُيَيْوَانِ الصغير جدًّا الَّذي يجتمع الألُوفُ منْهُ على رأس إبْرَةٍ، والقادم من نُطْفَةِ الرَّجُل، بالْبُيَيْضَةِ الهابِطَةِ من المرأة إلى الرَّحم، فإذا كانَ هٰذا الْحُيَيْوانُ من صنْفِ الذكورِ انْعَقَدَ الجنِينُ بخَلْق اللَّهِ ذكراً، وإذا كان من صنف الإناث انعقد الجنين أنْثىٰ بخلْقِهِ وقَضائه وقَدَره، على وفْق حكْمَتِه.

وطوَىٰ النصُّ هُنَا ذكْر الماء واقتصر على ذكر التراب، إذْ جاء بيان الماء في نُصُوص أخرى، ولعلَّ في هذا الاقتصار هنا إشارةً إلى أنّ العناصر الترابية هي العناصر البانيّةُ للموادِّ الأساسيَّة للأجساد الحية، وأمّا الماء فهو على الرَّغم من كونه أكثرَ قِوَام الأجساد فإنه المادة المالِئَةُ للفراغات بين الموادّ الأساسية.

وهذه الآيةُ هي من عجائب التكوين الرَّبّاني، الدّالّةِ علىٰ قُدْرَةِ الله العظيمة، وإتْقَانِه البالِغ غايَةَ الإبْداع، والدَّالَّةِ على شُمُولِ عِلْمِهِ كلَّ صغيرة وكبيرَة، والدّالّة علىٰ لُطْفِهِ المذْهِشِ في عَمَلِيَّاتِ الخَلْقِ الَّتي يَقُومُ بها آناً فآناً.

ولمرَاعاة الْفَوارِقِ الزَّمَنِيَّةِ بيْنَ المرْحَلَةِ الترابيّة، والمرحلَة الّتي تتكَوَّنُ فيها النُّطَفُ المنَوِيَّة، والمرحلة الّتي يَجْعَلُ الله فيها أزواجَ الذُّكور والإناث في النُّطَف، أو عنْد الْتِقاءِ الحيَيْوان بالبيَيْضة جاء في العبارة العطفُ بحَرْفِ العطف «ثُمَّ» الّذي يَدُلُّ على الزمن المتراخي نِسْبِيًّا.

ولعلماء الأحياء من مُخْتَلِف التخصُّصاتِ دراساتٌ مستفيضَاتٌ، حول إتقانِ الخالق الرَّبّ جلَّ جلَالهُ وعظُمَ سُلطانه، وعجائب تكوينه في المراحل الّتي دَلَّتْ عَلَيْها هٰذهِ القضيَّة، من قضايا هذا الدرس.

❁ ❁ ❁

**القضيّة الثانية:** دلَّ علَيْها قول الله تعالَى: ﴿... وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ ...﴾.

في هٰذِهِ الجملة بيانٌ بأسْلُوب الْحصْرِ بالنَّفْي والاسْتثناء، أنَّهُ لَا تَحْمِلُ أنْثَىٰ من النَّاس، ولا أنْثَىٰ منْ غيْرِ النَّاسِ في الْوُجُودِ كُلّه إلّا بعِلْم اللَّهِ جلّ جلالُه وعظُم سلطانه. وأنَّه لَا تضَعُ أنْثَىٰ من النّاسِ حَمْلَها، ولَا أُنْثَىٰ من غَيْرِ النّاسِ في الوجود كُلّه إلّا بعِلْمِه.

أي: إنّ عَمليّاتِ الخَلْق الرَّبَّانيّ مقْتَرِنَةٌ بعِلْمِه الشّامل لكلّ صغيرةٍ وكبيرة في الوجود كلّه.

إِنَّهُ لَوْلَا مُتابعَةُ عمَليّاتِ الخلْق بشمولِ العلْم لتعرَّضَتِ أعْمالُ الخلْق للخَلَلِ والْفَساد.

وبما أنّ النّسْبة العظمى من الأحياء تأتي مواليدُها مستجمعةً كمالَاتِها المقدّرَةَ لها، كانَ واقعُها المشاهَدُ دليلاً على شمول عِلْمِهِ كلَّ شيءٍ فيها من الذّوات والصفات، جلَّ جلالُه وعظُمَ سلطانُه.

فالخبَرُ الواردُ في هذِهِ القضيَّة مُقْتَرِنٌ من الواقع بالبُرْهان على أنّ الله حقٌّ لا شكّ فيه، وعلى أنَّ عِلْمَهُ محيطٌ بكُلّ شيْء.

وقد جاءت عبارة هذه القضيّة بصيغَةٍ عامّة، لتَشْمَلَ كلّ أنْثَىٰ، والعمومُ الّذي دلَّ علَيْه النفْيُ والاستثناء، قد جاء توكيدُه والتنصيص عليه بحرف الجرّ الزّائد «مِنْ» في ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ﴾ فهو صِلَةٌ للتَّوْكيد والتنصيص على العموم.

والإناثُ في الأحياء لا يُحيط بعلْمِها إلّا الله الرَّبُّ المهيْمِنُ عليها برُبُوبيّته دواماً، فلا تأخُذُهُ عنها سِنَةٌ ولَا نَوْم.

ويَدْخُلُ في العبارَة الكليّة العامّة لهذه القضيَّة الإناثُ من النّاس، إذْ

كُلٌّ من السِّبَاق والسِّيَاق يتعلَّقُ بخَلْقِ النَّاس، فهم المخاطبون في النصّ.

وقد هدانا التدبُّر لنُصُوصِ القرآن إلى أنَّ من أساليبه لإثْراء الفائدة، الإتيانَ بالكُلِّيَّاتِ العامّاتِ اللّوَاتِي هي من جوامع الكَلِم، مع أنّ السِّبَاقَ والسِّيَاقَ يتعلّقَانِ بمَوْضوعٍ خاصّ، أوْ أنّ الكلامَ واردٌ في مَعْرِضِ مَوْضوع خاصّ. وعلىٰ متدبّر آياتِ كتاب الله المجيد أنْ يضَعَ هٰذِهِ الطريقة القرآنية نُصْبَ عَيْنَيْه دواماً.

❁ ❁ ❁

**القضيَّةُ الثالثة**: دلَّ عَلَيْهَا قولُ الله تعالى: ﴿... وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ...﴾

إنّ الحديث عن إنْشاء الخلْق من تُراب، ثُمَّ من نُطْفَةٍ ثُمَّ ما يتْبَعُ ذَلِكَ مِنْ تَحْدِيد الذكور والإناث في النُّطَف، وحَمْلِ الأمَّهَاتِ أَجِنَّتَها بعِلْمِ الله وقدره وقضائه وخلْقه، يسْتَدْعي الْحَدِيث عن إنْهاء أعمار الأحياء بالموت في آجالها المقدّرة لها.

فجاءت عبارَةُ هٰذه القضيّة مُبَيِّنَةً وَاقِعَ حال المقادير الرّبّانيَّة في الآجال.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾: يقالُ لُغَةً: عمَّرَ اللَّهُ فُلاناً، أي: أطَالَ عُمْرَه، فَهُو مُعَمَّر.

**الْعُمر**: هو مُدَّةُ حياة الحيّ، ومُدَّةُ بقَاءِ كُلّ مَخْلُوق أيضاً، وتَدُلُّنا الملاحظة المتكرّرة على أنّ النباتات لها أعمار، حتَّى الأشجار العظيمة، فإذا جاءت آجالُها انتهت أعمارُها، وأنّ الأدوات المصنوعة لها أعمار، حتَّى عَنَاصر الأرض ونجوم السماء لها أعمار.

﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾: أي: ولَا يُقَلَّلُ من عُمْرِه، يقالُ لغة: نَقَصَ

الشَّيْءُ، أي: قَلَّ مقداره. ويُقالُ: نَقَصَهُ فلانٌ وَأَنْقَصَه، أي: قَلَّلَ مقداره.

ولا تَدُلُّ هٰذِه العبارَةُ لُغةً علىٰ أنّ المقدارَ كانَ أَكْثَر فتَعَرَّضَ للنَّقْصِ أو الإِنْقَاصِ.

﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾: أيْ: إلَّا مُسَجَّلةٌ فِي كتابٍ عنْد الله جلّ جلاله، والتسجيلُ في كتاب يَدُلُّ عن طريق اللُّزُوم الذّهْنِي على سَوابق التَّسّجيْل، وهي العِلْمُ، والتقدير، والقضاء.

إنّ كُلَّ مُسَجَّلٍ عنْدَ اللَّهِ في كتابٍ، ممَّا يَتَعَلَّقُ بمخْلُوقاته ـ جلّ جلالُه وعظُم سُلْطانُه ـ مَسْبُوقٌ حتماً بعِلْمٍ شامِلٍ، وقضاء وقَدَر، وعِلْمُ اللَّهِ ثابتٌ دواماً، إنّ رَبَّنَا لا يَضِلُّ ولا يَنْسَىٰ.

فالمعنىٰ: وَمَا يَطُوَّلُ في عُمْرِ مخْلُوقٍ مُعَمّر، وَما يُقَلَّلُ منْ عُمْرِ مَخْلُوقٍ آخر غير مُعَمّر، إلَّا التَّطْويلُ والتقليل مَسْبُوقانِ بِعِلْم رَبَّاني شَامل، وبقَدَرٍ مُحَدِّدٍ للمقدار، وقضاءٍ تَمَّ به بَتُّ مُرادِ اللَّه في المخْلُوق، وتسْجِيلٍ لكلّ ذَلِكَ في كتاب، ثُمَّ يَأْتي التَّنْفِيذُ بالخلْقِ عَلَى وفْق كلّ ذلِك، والعلْمُ الشاملُ مُصَاحِبٌ لكلّ أطوار الخلْقِ، حتّىٰ إنْهاءِ عُمْرِ المخلوق فما بَعْدَ ذلك.

❀ ❀ ❀

**القضيّة الرابعة**: دلّ عليها قول الله تعالى: ﴿... إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾:

**الْيَسِيرُ**: الْهَيّن اللَّيِّنُ، والْيُسْرُ في اللُّغَةِ ضِدُّ الْعُسْر، ومادّة الكلمة تدور حول معنى اللّين والانقياد والسُّهُولة.

والمشارُ إليه باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو فيما أرىٰ يَعُودُ إلى كُلّ القضايا التي أبانَتْها الآية (١١).

وهي قضايا مراحل خلْق الأحياء، وعلْم الله الشامل، وتَسْجِيلِ قضائه وقَدَرِه في كتاب عنده، جلّ جلالُه وعظُم سلطانه.

فكُلُّ ذَلِكَ يَسِيرٌ علَىٰ الله لَيْسَ بعَسِيرٍ، إنَّما أَمْرُهُ إذَا أراد شيئاً أن يقول له: كُنْ فيكُون.

فعلَىٰ المؤمن أن يُرِيحَ نفسَهُ من عناء التفكير، فكُل شيء ممّا يريدُه اللَّهُ يسيرٌ عليه ولَيْسَ بعَسِير.

❁ ❁ ❁

**القضيّة الخامسة:** دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

في هذه القضية ستَّةُ بيانات:

**البيانُ (١):** ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ...﴾:

تحدَّث هذا البيان عن آيةٍ من آياتِ اللَّهِ في كَوْنِه، وهي ظاهرة الْبَحْرَين: الْبَحْر العذب الْفُرَات، والْبَحْرِ الْمِلْح الأُجاج.

إنّهما من ظاهرات الخلْقِ الرَّبَّانيّ العجيب المتقن الحكيم، الّذي انْدَمَجَ فيه إنعامُ الله على عباده بنِعَمٍ عظيمَةٍ وفيرة.

وفي هذا البيان نَفْيُ التساوي بَيْنَ البحْرين، ونَفْيُ التساوي لا يَقْتضي إثباتَ أفْضَلِيَّةِ أحَدِ الْبَحْرَيْن على الآخر بشكل عامّ، إذِ الواقعُ المشهودُ يثْبِتُ أنَّ لكلٍّ من الْبَحْرَيْنِ أفْضَلِيَّةً من بعضِ الوجوه للغايَة الّتي خُلِقَ أَوْ هُيِّئَ لَهَا، فَمَا يَتَحقَّقُ بالْبَحْرِ الْعَذْب الفُرَاتِ من المصالح والمنافع لا

يتحقَّقُ بالبَحْر الملْحِ الأُجَاج، وما يتحقَّقُ بالبَحْر الملْحِ الأجاج من المصالح والمنافع، لا يَتحقَّقُ بالبَحْرِ الْعَذْب الْفُرات.

**الْعَذْب**: هو المسْتَسَاغُ من الشَّراب والطّعام، والماءُ الطيِّبُ الحلْوُ الّذي لا مُلُوحة فيه، ولا مَرَارة، ولا شوائب مُسْتكْرَهَة.

**الفُرَات**: هو أفْضَلُ الماء عُذُوبةً، يقالُ لغة: فَرُتَ الماءُ يَفْرُتُ فُروتَةً، أيْ: عَذُب، فَهُو فُرَات.

**سِائِغٌ شرابُهُ**: أي: يمُرُّ في الحَلْق سَهْلاً طيّباً مُسْتَمْرأً، يقال لغة: ساغ الشرابُ أو الطّعامُ، أي: طابَ وسَهُلَ دخولُه في الحَلْق، وسهُلَ انحدارُهُ إلى الجوف.

**مِلحٌ**: المِلْحُ: هُو المالح، يقالُ لغة: مَلُحَ الماء يمْلُحُ مُلُوحةً ومَلَاحةً، أي: صار مِلْحاً ومَالحاً ومَلِيحاً.

**الأجاجُ**: ما يَلْذَعُ الْفَمَ بمرارَته أو مُلُوحَتِه، فهو المالِحُ الْمُرّ.

وقد دلّ هذا البيان على أنّ من آيات اللَّهِ في الأرض ونِعَمِهِ العظيمة على عباده، أنْ خلَقَ لهم الماءَ، وجعَلَ لهم منْه بَحْرَيْنِ عظيمَين:

فالْعَذْبُ الْفُراتُ مِنْ هٰذَيْن الْبَحْرَين جعَلَهُ اللَّه عزَّ وجلّ في الأنهار، والآبار الحلْوَة، والعيُون، والْبُحَيْرات الكبيرة الْحُلْوة، وفيما اخْتُزِن في باطِنِ الأرْض ومَسَاربها وتجاويفها، وفيما جَمَدَ مِنْ ثُلُوج.

والملْحُ الْأُجَاجُ جعلَهُ الله عزَّ وجلّ في الْبِحَارِ العظيمة الّتي غَطّتْ قُرابَةَ ثُلثَي الأرْض.

وحينَ يَتَتَبَّعُ الباحِثُونَ ما في كلٍّ من هٰذَيْنِ الْبَحْرَيْن العظيمَيْنِ مِنْ منافع ومصالح للنّاس، ولسائر الأحياء في الأرض، يَسْتطيعون كِتَابَةَ مُجَلّدَاتٍ يفَصِّلُونَ فيها ذخائر نِعَم اللّهِ على خلْقِه فيهما، وما فيهما من إبْداعٍ وإعجاز في الخلْقِ وإتقان الصُّنع.

فتبارَكَ اللّهُ أحْسَنُ الخالقين.

**البيان (٢):** ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾: أي: ومنْ نِعَم اللّهِ على النّاس في البَحْرَيْنِ: الْعَذْب الفراتِ، والمِلْح الأجاج، مَا هيّأ لهم فيهما من أحياءٍ بحريَّة يَسْتَخْرِجُونها، فيأكلون منها لحماً طَرِيًّا لهم فيه لذَّةٌ وغذاء.

ولعلماء الغذاء في الأسْمَاك بُحوثٌ مُوَسَّعةٌ، دلَّتْهُمْ عَلَيْها الملاحَظاتُ والتّجربَاتُ والمَختَبراتُ الكاشفات للخصائص، فَمَنْ شاء التوسُّع في معرفتها، فليَرْجع إلى الأبحاث العلميّة الإنسانيّة في هذا المجال.

**البيان (٣):** ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾: أي: ومنْ نِعَم اللّهِ على الناس في الْبَحْرَيْن، أن هيّأ لهم فيهما ما يَسْتَخْرِجُونه من حُلِيّ يلْبَسُونها للزّينة.

- فمن البَحْر الملْحِ الْأُجاج يسْتَخْرِجون اللُّؤْلُؤ والمرجان.
- ومنَ الأنهار ومجاري المياه الحلْوَة العذبة يَسْتَخْرجون الألماس.

عبارة: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾: أي: ومِنْ كُلٍّ من الْبَحْرَيْن: الْعَذْب الفرات والملْحِ الأجاج. والتنوين في لفظ «كُلٍّ» عِوَضٌ عن المضاف إليه المحذوف كمايقول النّحويّون.

والخطابُ في هٰذين البيانَيْن مُوجَّه من الله للناس، مذكّراً لهم ببعض نعمه عليهم.

**الحِلْيَةُ والْحَلْيُ:** ما يُتَزَيَّنُ به من حجارة كريمة، أو مَصُوغ من المعادن، كالذّهب والفضّة، وغيرهما.

وفي الامتنان بما يُتَزَيَّنُ به إشعارٌ بجواز التزيُّن به، إلّا ما ثبَتَ المنع منه، . كتَتَزَيُّنِ الرّجال بالْحُلِيِّ من الذّهب.

**البيان (٤)**: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾: أي: في كُلٍّ، أُعِيدَ الضمير على لفظ [**كُلٍّ**] بالإفراد والتذكير، لأنّ حُكْمَ لفظها الإفرادُ والتذكير، كما يقولُ النُّحاة.

أي: ومن آيات الله في البحرين: الْعَذْب الْفُرات، والمِلْحِ الأجاج، ومن نِعَمه على الناس، تَسْخيرُهُ المياهَ لإجراء المراكب فيها، بمقتضىٰ قانون الطَّفو، الذي جعَلَهُ عزّ وجلّ بين الماء وبين الأشياء القابلة للطَّفْو عليه، والْجَرْي فيه، والانتقال عليه بالأحْمَالِ والأثقالِ العظيمة، إلى بلادٍ بَعِيدَة، وأرْضٍ لَا يَبْلُغُ إليها قاصِدُوها إلّا بشِقِّ الأنفس.

**الْفُلْك**: مَرْكبُ البَحْر، يُطْلَقُ على الواحد والاثنَيْن والجمع، ويُذَكّر ويُؤنّث، فيقال: هو الفُلْك، وهي الفُلْك.

كان الخطابُ مُوجّهاً للناس بصيغة الجمع، ولكن تحوّلَ في هٰذا البيان إلى خطاب كلّ صالح للخطاب بصورة إفرادية أي: وترَىٰ أيها الرَّائي أيًّا كُنْتَ الْفُلْكَ في كلٍّ من البحرين مواخر.

وقد ترجّحَ لدَيَّ أنّ مثل هذا التحوّل هو من الخروج عن مقتضىٰ الظاهر، الذي سمّاه عُلَماءُ المعاني «الْالتفات» وأنّ الالتفاتَ لا يقتصر على التحوُّل بين التكلّم والخطاب والغيبة.

والغرض من هذا التحوّل من خطاب الجماعة إلى الخطاب الإفرادي، التَّنْويعُ لشَدِّ الانتباه، وإشعارُ المخاطب بالعناية بمخاطبته بصورةٍ إفرادية، ليُوَجّه اهتمامه للتفكُّر في الموضوع الّذي دعاه البَيانُ للتفكّر فيه.

﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾: أي: جاريَات تَشُقّ الماء شقًّا، متَنَقّلةً فيه وقاطعة المسافات البعيدات.

يقال لغة: مَخَرَت السفينةُ تمخُرُ مَخْراً ومُخُوراً، أي: شَقَّتِ الماءَ جارِيَةً فيه.

أصل معنى المخرِ الشَّقُّ، ومنْهُ مَخَرَ الزَّارعُ الأرضَ، أي: شقها للزّراعة.

في هذا البيان جاء التعبير ﴿... وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ بتقديم: ﴿فِيهِ﴾ على ﴿مَوَاخِرَ﴾.

أمّا في سُورة (النّحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) فقد جاء التعبير فيها: ﴿... وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ...﴾ بتقديم: ﴿مَوَاخِرَ﴾ على: ﴿فِيهِ﴾.

فما الحكمةُ من هذا الإجراء؟

بالتأمُّل نُدْرِكُ أنّ الناظرَ إلى الْبَحْر وامْتِداد سطحه، يَشْهَدُ فيه عند إقبال سفينَةٍ جارِيَةٍ شيْئاً يشُقُّه، وهذا المنظر تُلائمُه عبارة سورة (فاطر): ﴿... وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ...﴾.

أمّا النَّاظِرُ إلى السُّفُنِ وهي تجري في الْبَحْر، فإنَّه يَشْهَدُ أنَّها تشُقُّ الماءَ شَقًّا، وهذا المنظر تُلائمُه عبارة سورة (النحل): ﴿... وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ...﴾.

فتكامل النَّصّان في التعبير عن المنْظَرَيْن، إِذْ كُلٌّ من التعبيرَيْن يَتْبَعُ ابتداءَ النظر، هل هو من جِهَةِ الْبَحْر، أم من جِهَةِ الفُلْك؟

فجاء الأداء البيانيُّ في النَّصَّيْن مُلائماً للحالَتَيْن، وهٰذا مِنْ فِنِّيَّةِ الْأَداء البيانيّ والإِبْدَاعِ فيه.

**البيان (٥)**: ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ﴾: أي: سَخَّرَ الله لَكُمْ أَيُّها الناس الفُلْكَ تَجْرِي في الماء مَواخِرَ، لتبتَغُوا في التَّنَقُّلِ مَحْمُولِينَ عليها، أَنْتُمْ وأثْقالُكم ودَوابُّكم وأمْتِعتُكم، مَصَالح دُنْيَاكم وأرْزاقَكُمْ مِنْ فَضْل رَبِّكُمْ عليكم.

إنّ تَسْهِيلَ المصالحِ واكْتِسَاب الْأَرْزاقِ، إنَّما يكونان بفضل اللَّهِ على عباده، من خِلَالِ اتّخاذ الْأَسْباب الّتي جعَلها بحكْمَته أسْباباً صُورية، لِيُجْرِي مقاديرَه وأعمال خَلْقِه من خِلَالِ قنواتها.

**البيان (٦):** ﴿... وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: أي: ورَغْبَةً في تَهْيئَةِ المنافع والمصالح وقضاء الحوائج، الّتي تَدْعو الراغبين في الْفَوْز والْفَلاح والمنازل الرفيعة، أنْ يَشْكُروا نِعَمَ الله عَلَيْهِم بالعمل بمراضيه والتزام طاعته.

أصل معنى «لَعَلَّ» الترجّي، ويَلْزَمُ من معنَىٰ التَّرَجّي الرَّغْبَةُ في الْمَرْجُوّ، فأُطْلِقَت عبارة: ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ مُراداً بها لَازِمُ معنَىٰ التَّرَجّي، وهو الرَّغْبَة.

ومعلوم أنّ اللَّه ـ جلّ جلاله وعظم سلْطانه ـ يَرْضَىٰ ويُحِبُّ لعباده أن يكونُوا شاكرين، لِيُثِيبَهُم على شكرهم ثواباً عظيماً من فيض فضله، ولكن دُونَ أن يجعلَهُمْ مجبورين على الشكر، بل يُحِبُّ لهم أن يكونوا شاكرين باختيارهم الحرّ.

وكذلك لا يَرْضَىٰ ـ جلّ جلاله ـ لعباده أن يكونوا كافرين، ويَكْرَهُ كُفْرَهُمْ وخُروجَهم عن طاعته وصراطه المستقيم، ولَكِنْ دون أن يَجْعَلَهُم مجبورين على تَرْك الكفر، بل يَتْرُكُهُمْ لاختيارهم الحرّ.

والسّبَب في عدم الْجَبْر أنّهم في حياة امتحان واختبار، والْجَبْر يتنافى مع الامتحان القائم على حُرِّيَّةِ إرادة الممتَحَنِ فيما يختار لنفسه.

### نظرة عامة حول عبارة الْبَحْرَيْن فِي نُصُوص القرآن:

لدَىٰ تَتَبُّعِ النُّصُوص القرآنيّة، تَبَيَّنَ لي أَنَّ القرآن المجيد قَد اشْتَمَلَ عَلَى أَرْبَعَة نُصُوص، تَتحدَّث عن آيات اللّهِ في كونه، وعن نِعَمِهِ على عباده

بالبَحْرين: العذب السَّائغ، والمِلْح الأُجاج، وعن ظاهرة بَحْرَيْن مُتجاورَيْنِ مُتَلاصِقَيْنِ ماءً، ولكنْ بينهما برزَخٌ غَيْرَ مَرْئي، يَحجُزُ كُلًّا منْهما عن أن يُمْتَزِجَ بالآخر. فلْنَتَتَبَّعْ هٰذهِ النُّصوص بِتَدَبُّرٍ لَهَا، وِفْقَ تَرْتِيب نزولِها لاكتشاف تكامل الدّلات فيما بيْنَها.

## النص الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾.

سَبَقَ أن تَدَبَّرنا هذه الآية، لدى تدبّر سورة (الفرقان).

## النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

## النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النّمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

## النصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سُورة (الرّحْمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول).

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾.

**مَرَجَ**: يأتي بمعنىٰ: مَزَجَ وخلط، وبمعنى: أَرْسَلَ. وهٰذان المعنيان مُرادان في النُّصُوص الّتي وَرَدَ فيها هذا الفعل.

**عَذْبٌ**: أي: مستَسَاغٌ حُلوٌ، لَا مُلُوحَةَ فيه ولا مَرارة وَلَا شَوَائب.

**فُرَاتٌ**: الْفُرَاتُ هو أَفْضَلُ الماء عُذُوبَةً.

**سَائِغٌ شَرَابُهُ**: أي: يَمُرُّ في الْحَلْقِ سَهْلاً طَيّباً مستَمْرَأً.

**مِلْحٌ**: أي: مَالِحٌ.

**أُجَاجٌ**: أي: يَلْذَعُ الْفَمَ بِمَرَارَتِهِ أَوْ مُلُوحَتِهِ.

**الْبَرْزَخ**: الْفَاصِلُ الحَاجِزُ، وَالْبَرْزَخُ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ هو الحاجز الّذِي يَمْنَعُ اختلاطَهُما وامْتِزَاجهُمَا.

**وَحِجْراً مَحْجُوراً**: أي: وفاصلاً يَمْنَعُ نُفُوذ أَحَدِ الْبَحْرَيْنِ إِلَى الآخرِ، وَهذا الفاصِلُ مَمْنُوعٌ بمادَّتِهِ التكوينيَّة من الانْحلال في كلا البَحرَيْن أو في أَحَدِهما.

**لا يَبْغِيَان**: أي: لا يتجاوز كُلٌّ من الْبَحْرَيْنِ المتلاقِيَيْنِ حَدَّهُ الْمَقَدَّر له.

هٰذه النُّصُوص الأربعة دَلالاتُها في موضوع الْبَحْرَيْنِ مُتكاملاتٌ فيما بينها، لا متطابقات.

(١) فما جاء في سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) تحدَّث عن البَحْرَيْنِ: العَذْب الفراتِ، والمِلْحِ الأجاج، وعَنْ حِكْمَةِ اللّٰهِ في جَعل كُلٍّ مِنهما له مَزِيج خاصٌّ به، وله إرْسَالٌ في الأرض خاصٌّ به، وعن حِكْمَةِ اللّٰهِ في فَضْلِ كُلٍّ مِنْهُمَا عَن الآخَرِ بحاجِزٍ من الأرض يَمْنَعُ اختلاطهما، وهذا

الحاجزُ مَحْجُورٌ عَنْ أنْ يَنْحَلَّ بأيّ واحدٍ منهما، إذْ هو من عناصر الأرض صُخُورِها ورِمَالِها وأَتْرِبَتها.

إنَّهُما في الأَرْضِ بَحْرَانِ عَظِيمان، خلقهما الله عزّ وجلّ لمنافِع الحياة والناس، وكُلٌّ مِنْهُما يقتضي لتحقيق المنفعة به أَنْ يستَمِرَّ علىٰ وَصْفِه في النِّسْبَةِ المزيجيّة الّتي جعلَهُ اللَّه عليها.

ومَعلُومٌ أَنَّ الماء الحلْوُ فيه عناصر مخلوطة ممزُوجة، قد مَرَجَها اللَّهُ ـ جَلَّتْ حِكْمَتَهُ ـ أيْ: خلطها بِنِسَبٍ صالحةٍ لحياة الناس والنّبات، وأَرْسَلَهَا في الأرض، فانْدَفَعَتْ تُؤَدّي وظائِفها.

وَمَعْلومٌ أنّ الماءَ المِلْحَ الأُجاج فيه عناصر إضافيَّةٌ مَخْلُوطَةٌ فيه مَمْزُوجَة، قَدْ مَرَجَها اللَّه بحكمَتِه، أي: خَلَطَها وَأَرْسَلَها في الأرض، فانْدَفعَتْ تُؤَدّي وَظائِفَها.

وإيجازاً في التعبير جاء في القرآن استخدامُ كلمة «مَرَجَ» للدَّلَالة على معنَىٰ: «خَلَطَ» العناصِرَ، حتَّى تكوّنَتْ ماءً حُلْواً، أو ماءً مِلْحاً أُجاجاً. وعلى معنى «أَرْسَلَ» كُلًّا من الماءَيْنِ: العذْبِ الفُرات والملْحِ الأجاج، لما في الماء من سيولة قابلة للتَّدافُع المتلاحق، كأنّ مُرسلاً أَرْسَلَهُ لِيُؤَدّيَ وظائفه الّتي أُرْسِلَ مِن أَجْلِها.

ودلّ هذا النّص على العناية الرّبّانيَّةِ الّتي حفَّتْ هٰذَيْنِ الْبَحْرَيْنِ حتَّى لا يَمْتَزِجَا وَيَختَلِطَا، فتذهَبَ خصائص الماء العَذْبِ الفُرات، الّتي بها حياة الحيوان والنبات، ومصالح أُخرَىٰ كثيرَةٌ للناس والحياة، وذلك بأنْ جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجزاً، إذْ جَعَلَ تَكْوِينَ الأرْض في أوضاعها صالحةً لاحتواء الماء العذْب في تجاويفها ومَسَاربها، ولإجرائه في السُّهُول والوِدْيان، وأخراجه من العيونِ، فأقامَ جلَّ جلالُه بحكْمَتِهِ الحواجز والفواصلَ الّتي تَفْصِل بين البَحرَيْن، حتَّىٰ لَا يَنْتَهِيَ أَمْرُهُمَا إلى الامْتِزاج

والاختلاط ببعضهما، فتذهب الخصائص المطلوبة من كلٍّ منهما.

وقد لزم لتحقيق ذلك تدبير قوانين طبيعيّة، فتَمَّ تَدْبيرها بقَدَرِ اللَّهِ فقضائه، ثم بأمْرِهِ التكوينيّ الذي تحقّق به المطلوبُ الحكيم.

وهٰذه الحواجز الّتي جاء التعبير عنها البرْزَخ، هي حواجزُ مَشْهُودَةٌ، يَشْهَدُها الناس جميعاً، إذْ هي جبال ورِمال وأتربةٌ وسُهول ونحو ذلك.

ويزيد الباحثُونَ العلميّون على ذلك ما توصَّلوا إلَيْهِ من قوانين تُفَسِّر ظاهرة هذا البرزخ وتوابعه.

ووصف الله هذا البرزخ بأنّه حِجْرٌ مَحْجُورٌ، أي: هو مانع من اختراق أحَدِ الْبَحْرَيْنِ له، حتّىٰ لا يختلط بالماء الآخر، وهو مَمْنُوعٌ بالتَّكْوِين الذي فطَرَهُ اللَّهُ عَلَيه من الذوبان والاختلاط بأحد البحرين.

فلو لَمْ يكن مانعاً لاختلط البحران، ولو لم يكُنْ هو ممنوعاً لذاب في البحرين واختلط بهما.

والوصف لهذا البَرْزخ بأنّه حِجْرٌ مَحْجُورٌ يدلُّ على أنَّه مادّةٌ ممّا قَدْ يُتَصَوَّرُ فيه الانحلال في الماء، إلّا أنّه محجُورٌ عن ذلك بما جعل الله الحكيم القديرُ فيه من صفاتٍ وخصائص.

(٢) وَمَا جاء في سورة (فاطر/٤٣ نزول) تحدَّث عن البحرين: العذْبِ الْفُراتِ الذي جعل اللَّهُ شرابَهُ سائِغاً، وعن المِلْحِ الأُجاج، بسِتّ بيانات، سبَق في النصّ لدى تَدَبُّرِه شَرْحُها، وهي:

١ ـ أنّهما لا يَسْتَوِيَانِ.

٢ ـ وأنّ الناس يأكلُونَ مِنهُما لحماً طَرِياً.

٣ ـ وأنّ الناسَ يَسْتَخْرِجونَ منهما حِلْيَةً يَلْبِسُونَها.

٤ ـ وأنّ الْفُلْكَ تَجْرِي فيهما مَواخِرَ.

٥ ـ وأنّ إحْدَى الغايتين من هٰذا التدبير الرَّبَّاني، أنْ يَبْتَغِي الناس بركوبهم الفُلْك أرْزاقَهم ومصالِحَهُمْ من فضل ربِّهم.

٦ ـ وأنّ الغاية الأخرىٰ رغْبَةُ الله في أن يكونوا شاكرين نِعَمَهُ عليهم، حتّى يَجْزِيَهُمْ يوم الدّين ثواباً عظيماً خالداً.

(٣) وما جاء في سورة (النمل/٤٨ نزول) دلَّ على أنّ الأنهار في الأرض هي جزْءٌ من البْحر العذْبِ الفرات المحجوز عن البَحْرِ المِلْحِ الأجاج.

وفيه طرح سؤالٍ على المشركين عن الرّبّ الخالِقِ الّذي جعَلَ الأرض قراراً للناس، وأجْرَى لهم خلالها أنهاراً لسُقياهم، وسُقْيا أنعامهم وزُروعهم وأشجارهم.

وآيات الله عزّ وجلّ المذكورة في هذا النصّ والتي وُجّه السّؤالُ عنها هي:

١ ـ جعْلُ الأرض قراراً، أي: صالحةً للاستقرار علَيْها، والتَّمَكُّنِ فيها، إذْ هي لَيْسَتْ بقَلِقَة ولا مضطربة، لا تَصْلُحُ للثبات عليها.

٢ ـ إرْسالُ المياه الحلْوَةِ الْعَذْبَةِ خِلَالَ أَنْهَارِها.

٣ ـ تثبيتُ قِشْرَةِ الأرض بالجبالِ الرّواسي، مع ما في الجبال من منافع أخرى.

٤ ـ إقامة الحاجز الفاصل بَيْنَ البحريْن: الْعَذْب الْفُراتِ، والْمِلْحِ الأُجاج.

ومن المفروض أنْ يأتي جواب السُّؤال من المنصفين الّذين يؤمنُونَ بالحقّ، عُقَلاءَ وعُلَمَاء وحُكماء، ولو بَعْدَ مراحِلَ جَدَلِيّة، أو مراحل زمنيّة من البحث العِلْمِيّ، بأنّ الجاعل لكُلّ ذَلِكَ هو الله الرَّبُّ الخالِقُ وَحْدَه لا شريك لَهُ فِي رُبُوبِيَّته.

إذَنْ: وجب أن تكونَ له وَحْدَهُ الإلٰهيَّة، فلا يَصِحُّ أنْ تُوجَّهَ عبادةُ عابدٍ إلَّا لَهُ، إذْ عبادَةُ غَيْرِه ظُلْمٌ عَظِيمٌ لحقّ رَبِّه عَلَيْه، وهو من الكفر به، ولا يَغْفِرُه اللَّه، لأنَّه لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِه.

ويظهر أنّ المرَادَ بالبَحْرَيْنِ في هٰذا النّصّ البحران المذكوران في نصّ سورة (الفرقان) وهما: الْعَذْبُ الْفُراتُ، والمِلْحُ الأجاج، وقد جاء الحديث عنهما في نصّ سورة (النمل) على طريقة سؤال المشركين عمَّنْ جعَلَ بَيْنَ هٰذَيْنِ الْبَحْرَيْنِ هٰذا البرزخ، لانْتِزَاعِ الإقرار منهم بأنَّه هو الرَّبُّ الخالق، وسيلةً لإلْزَامِهِم بوجوب أن يتْرُكوا شِرْكَهُم، ويَعْبُدوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له.

(٤) وما جاء في سورة (الرَّحمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) وهيَ من أواسط التنزيل المدني، فقد جاء الحديث فيه عن الْبَحْرَيْن اللَّذَيْن يَلْتَقِيَانِ، ومع الْتقائهما يُوجَدُ بينهما بَرزَخٌ فاصل، فهو مانعٌ لَهُمَا من التمازُج، لكنَّه لم يُوصَفْ بأنّه محجور، أي: مَمْنُوعٌ من أن يَخْتَلِطَ هو بهما، إذْ ليس هُو ممَّا يظَنُّ فيه قابليَّةُ الانْحِلالِ والاختلاط ـ وهٰذان البحرانِ مع الْتِقَائهما يَسْتَمِرُّ كُلُّ واحدٍ مِنْهُما عِنْدَ حَدِّه، فَلا يَبْغِي أَحَدُهما على الآخر، فيُغَيّر من خصائصه، ومن نِسْبَة العناصر المختلطة فيه.

وقد وُصِفَ هٰذان البحران بأنهما يخْرُجُ منهما اللُّؤْلُؤُ والمرجان، إشارةً إلى أنَّ كُلًّا منهما مِلْحٌ أُجاجٌ، إذْ من المعْرُوف أنّ اللُّؤْلؤ والمرجان يُسْتَخْرَجان عادةً من الْبَحْرِ الملْحِ الأُجاج.

وتحيّر المفسّرون في فهم المراد بهذا النصّ:

● هل المرادُ بالبحريْن في هذا النصّ بحْر الماء الْعَذْبِ الْفُرَاتِ والملْحِ الأجاج، وذلك في ظاهرة دُخول مياه الأنْهُر في مِيَاهِ البحار، إذْ يَسْتَمِرّ الماءُ الْعَذْبُ الفراتُ على صفاتِه مسافةً طَوِيلةً قَبْلَ أن يَمْتَزِجَ بماء الْبَحْر.

وأخَذَ الباحِثُون العلميّون في دراسة الكونيات يفسّرُونَ هٰذِه الظاهرة بما يُسَمَّى بقانون «الْمَطّ السَّطْحيّ» الّذي يَفصِلُ بَيْنَ السَّائلَيْن، لأنّ تجاذُبَ الجزئياتِ يختَلِفُ من سائل إلى سائل آخر، ولهذا يَحْتَفِظُ كلٌّ سائل باستقلاله في مجاله.

• أم المرادُ شيْءٌ آخَرُ؟

ثم جاءت المكتشفاتُ العلميّة المعاصرة. فأثبتَتْ أنّ في البحار الموصوفة بأنّها ملحٌ أجاجٌ ظاهرة الْبَحْرَيْنِ اللّذَيْنِ يلتقيان، وبينهما برزخٌ، أي: فاصل، وهما لا يبغيان، أي: لا يَبْغِي كُلٌّ منْهُما على جاره، ويَخْرُجُ منْهما اللُّؤْلُؤ والمرجان.

فعَلِمْنَا أنّ وصْفَ خُروج اللُّؤْلُؤ والمرجان من كلّ منْهما قد كان مقْصُوداً، للإشارة إلىٰ أنّ كُلًّا منهما بَحْرٌ مِلْحٌ أُجَاجٍ مع ما في ذكر هذا الوصف من امتنان الله على عباده باللُّؤلؤ والمرجان، اللّذَيْن يتخذ الناسُ منهما حِلْيَةً يَلْبِسُونَها للزّينة، مع منافع أخرى.

ذكر تقرير لبِعْثَةٍ علميّة بين جامعة القاهرة المصرية، وجامعة «أدنبرة» الإنكليزية: أنّ ماء الْبَحْرِ في خليج العقبة تختلف خواصُّه وتراكيبُهُ عن ماء الْبَحْر الأحمر.

واستطاعت البعثة بوساطة قياس الأعماق اكتشاف حاجزٍ مَغْمُورٍ عنْدَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ، يَبْلُغُ ارتفاعُهُ أكْثَرَ من ألف متر.

**أقول**: ولعلَّ مجمع الْبَحْرَين هذا هو المجْمَعُ المشار إليه في قصّة موسى عليه السلام، إذ انْطَلَقَ مع فتاهُ للقاء الخضر في القصّة المذكرة في سورة (الكهف).

وكذلك استطاعت البعثة العلميَّة الّتي اتَّجهَتْ في البَحْرِ على السَّفينة «مباحث» في رحلتها الأولى في المحيط الهنديّ وَالْبَحْر الأحمر، إذْ

تَوَصَّلَتْ إلى اكْتشاف حاجزٍ مَغْمُورٍ بَيْنَ الْبَحْرَين، وظهر لهما بالتحليل أنَّ ماء المحيط الهندي مختلفٌ في خواصّه عن ماء الْبَحْرِ الأحمر[1].

❁ ❁ ❁

**القضية السادسة**: دَلَّ عليها قول الله عز وجل:

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ ...﴾.

﴿يُولِجُ﴾: أي: يُدْخل. يقال لغة: أوْلَجَ الشيءَ في الشيءِ أي: أدخله فيه. ويُقال: وَلَجَ يلِجُ وُلُوجاً ولِجَةً شيءٌ في شَيْءٍ إذا دخل فيه.

وإيلاجُ شيءٍ في شيءٍ آخر يكون غالباً بإدْخاله فيه شيئاً فشيئاً بالتتابع، لا على طريقة دَفْعِه بمَرَّة واحدة، أو إلْقائه وقَذْفِهِ فيه.

هٰذه الْقضيّة تَدُلُّنا على آيَةٍ باهرةٍ من آيات الله في كونه، نشاهدُ منها على سَطْح الأرْض تتابُع اللّيل والنهار دائرين، فكلَّما امْتَدَّ أحَدُهُما من جهة تقلَّص الآخر من الجهة نفْسِها، وكلَّما اختفىٰ أحَدُهما من جهة ظهَرَ الآخر من الجهة نفسها، وهكذا دوالَيْكَ مع توالي الأيّام.

واكتشف علماء الكونيّات بالبحث العلميّ، أنّ حركةَ دوران الأرض حَولَ نَفْسِها باتّجاه الشمس ضِمْنَ نظامٍ مُتْقَنٍ عجيب، يَجْعَلُ اللَّيلَ يختفي شيئاً فشيئاً على سَطْحِ الأرضِ كلَّما امتدَّت بالتدرُّج أشعَّةُ الشمس صباحاً، على مَسَافات من الأرض بتتابع الشروق.

هٰذه الظاهرة تُشْبِهُ إيْلاجُ شيءٍ في شيءٍ آخر، إذْ يختفي من الوالج بمقدار ما يَدْخُل منه في المولوج فيه، فكأنّ اللَّيْل مع تتابع الشروق على مسَافَةٍ فمسَافَةٍ من الأرض يَلِجُ في النهار الّذي يُخْفِيه.

---

(١) انظر «الإسلام والنظر في آيات الله الكونية» تأليف الدكتور: «محمد عبد الله الشرقاوي» كتاب من سلسلة دعوة الحق العدد (٤٧) طبع رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة. ص(١١٦ ـ ١١٧).

وهذه الحركة نَفْسُها إذا شاهدها الناظر، وهو مرتفع في الطائرة ويَنْظُر من الجوّ، عند تَتابُع الغروب على مسافةٍ فمسَافةٍ من الأرض، فإنّه يَرَىٰ اختفاء النهار شيئاً فشيئاً، كما يختفي منَ الوالج بمقدار ما يَدْخُلُ مِنْه في المولوج فيه، فكأنّ النّهار مع تتابُع الغروب يَلجُ في اللَّيْل الّذي يُخْفِيه.

فَجاء في النصّ تشبيهُ تتابُعِ ذَهَابِ اللّيل، عند تتابُع حَالَات الشروق، وتشبيه ذهاب النهار عند تتابُع حالات الغروب، بولوج شيءٍ في شيءٍ آخر.

ولكِنْ طُوِيَ التَّشْبِيهُ، واسْتُعِيرَ منه لفظ «يُولِج» للدّلالة عليه، ففي العبارة استعارة.

إنّ هذا التشبيه مع ما فيه من إبداعٍ رائعٍ في عَرْضِ الصّورة، ومع ما فيه من دقَّةٍ بالغةِ الغاية في توصيل المعنَىٰ المراد، يَدُلُّ بأوْجَزِ عبارَة على حركة شَيْئَيْنِ متلاصقَيْن، أحَدُهُما يَخْتَفِي والآخَرُ يَظهر، واختفاء اللَّيلِ عند الشروق من جهة مطلع الشمس، واختفاء النهار عند الغروب من جهة مغرب الشَّمْس، يَدُلُّ على أنّ الحركَةَ حَرَكَةٌ دائِرِيَّة، إذْ يَدْخُلُ كُلُّ طَرَفٍ من طَرَفَي أَحَدِهِمَا في الطَّرَفِ الآخَرَ من الآخَر منهما، وهكذا دوالَيْكَ مع تتابُع الأيّام.

وعَرْضُ هٰذه الآية من آيات الله في كَوْنِه، يَدْفَعُ المشتغلين بالبحث العلميّ في الكونيَّات، للبحث الْجَادّ عَنْ سَبَبِها التكوينيّ، وحين يتوصَّلُون إلى معرفة السَّبَب، وأنّه يَرْجَعُ إلى التَّنْظِيم البديع، والاتقان الرائع العجيب، في وضْعِ كُلٍّ من الشّمْس والأرض في مَجْمُوعَةِ نجوم مَجَرَّتنا وكواكبها، وفي حركة دوران الأَرْض حوْل نفسها في اتجاه الشمس، مع المحافظة على المسافة ومقدار الحركة، طَوالَ مئات الملايين من القرون، فإنَّ ذوي الألباب المنْصِفين منهم، لا بُدَّ أن يُؤْمِنوا بالخالقِ الرَّب جلَّ

جلالُه وعظم إتقانه وسمَتْ حكمته، ولا بُدَّ أَنْ يُذْعنوا لَهُ وَيَخْضَعُوا، وأنْ يَتَوَجَّهُوا لَهُ بالعبادة، دون أنْ يُشْرِكُوا بعبادته شيئاً.

ومع ما في هٰذه الآية الكونيَّة من دَلَالاتٍ على قُدْرَةِ الله، وشمول عِلْمه، وعظيم إتقانه، وجليلِ حِكْمَتِه، ففيها أيضاً دلالةٌ على عنايَتِهِ بعباده، وعلى واسع رحْمَتِه، وفُيوضِ إنْعَامِهِ على خَلْقِهِ الَّذِين لهم منافع جليلَةٌ من تتابع اللَّيْل والنّهار على سَطْح الأرض.

واهتماماً بظاهرة تَتَابُع اللَّيْلِ والنّهارِ، على طريقةٍ تُشْبِه إيْلاج شيءٍ في شيءٍ آخَرَ برفْقٍ بالنسْبَةِ إلى النَّاظرين، فَقَدْ جاء في القرآن المجيدِ التَّنْبِيهُ عَلَيْهَا في خَمْسَةِ نُصُوص:

**النصّ الأول:** هذا الّذي تدبّرناه من سورة (فاطر) وقَدْ جاء هذا النّصّ في مَعْرِضِ بيانٍ خَبَرِيٍّ، يشتمل عَلَى عَرْض بعض آيات الله في كونه، المتضمّنَةِ الإشعارِ بإنْعَامِهِ على عباده.

وهذا النّصُّ مُوجَّهٌ لمشركي مكَّة، في أواسط المرحلة المكيّة، من سيرة قيام الرّسولِ ﷺ بتأديَة رسالة ربّه.

**النصّ الثاني:** قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴿٢٩﴾﴾؟!

وقد جاء هٰذا النصّ بأسلوب حثّ كلّ ذي نَظَرٍ بَصَرِيٍّ، وفِكْرٍ تَدَبُّرِيّ، أنْ يَتَفَكَّرَ في آيَتي اللّيلِ والنهار.

وقد جاء الخطابُ فيه بأسْلُوب الخطاب الإفرادي، والاستفهامِ الذي يراد به الحثُّ على التأمُّل والتفكّر.

**النصّ الثالث:** قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

وقد جاء هذا النصّ في سِبَاق وسِيَاق تعليم المؤمن بأسْلُوب الخطاب الإفرادي ذِكْراً ودُعاءً يُخَاطِبُ به المؤمنُ الله رَبَّه.

**النصّ الرابع:** قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾.

وقد جاء هٰذا النصّ في معرض الكلام على بعض صفات الله عزّ وجلّ، وأسمائه الحسْنَى، وطائِفَةٍ من آياتِهِ في كَوْنِهِ.

ومنها إثباتُ مِلكِيَّةِ الله للسَّمَاوَاتِ والأرض، وقيامه بتدبير تصاريف كلّ شيءٍ فيهما دواماً، ما توالت الأزمان، فالمالك الْعَلِيمُ الخبير، الحكيمُ القدير، هو المتصرّف دواماً فيما يَمْلك.

**النصّ الخامس:** قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾.

وقد جاء هذا النصّ في معْرِض الاسْتِدْلَالِ علَىٰ حِكْمَةِ اللّهِ وقُدْرَته، بشأن إدْخالِ أهل الكُفْر النّار، وإدْخال أهل الإيمان الجنّة يوم الدّين، وأنّ ذلك يَسِيرٌ عليه كَيُسْرِ إيلاج اللَّيْلِ في النّهار، وإيلَاج النَّهارِ في اللّيلِ.

والتَّكَامُلُ في هذه النُّصوص هو من جِهةِ المناسبة الداعِيَةِ لكلٍّ منها، والتي اقتضاها السِّبَاق والسِّيَاق في السورة الّتي هو منها.

ويُلاحظُ في كُلّ هذه النصوص أنّه قد جاء فيها بيانُ إيلاج اللّيل في النّهار، قبْلَ بيانِ إيلاج النّهار في اللّيل، ونفهم من هذا الإجراء الحكيم إيثار الْبَدْء بما يَدُلُّ على الصَّباح، المقْتَرِن بظهور ضَوْءِ النَّهار، على الغروب المقترن باخْتِفاء ضوء النهار وقُدوم ظُلْمة الليل.

وهٰذا يُشْعِرُ بأنّ تقديم ما هو الأشرفُ في البيان هو الذي يَنْبَغي الأَخْذُ به واتّباعُه.

❁ ❁ ❁

**القضية السابعة**: دلّ عليها قول الله عزّ وجل:

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ... ﴿١٣﴾﴾:

في هذه القضية امتنانٌ من الله عزّ وجلّ على الناس بنعمة تسخير الشَّمْس والْقَمر من أجرام السّماء.

فبالشَّمْس يكون ضياءُ النهار، ومنّها يأتي الدّفْءُ والحرارةُ الضروريَّةُ لكلّ ذي حياة على الأرض، وبدون الضوْءِ والحرارة لا تنبت النباتات الّتي هي المادّة الأولىٰ لِغِذاء الأحياء، وإمْدادِها بقُوتِ بقائها إلى آجالها المقدَّرة لها.

﴿وَسَخَّرَ﴾: **التَّسخِيرُ**: يأتي بمعنى تطْويع المخلوق بالْجَبْرِ الرَّبانِيّ، للعَمَل والتحرُّكِ على وفق إرادَتِهِ جلّ جلالُه وعظُم سلطانه.

ويأتي بمعنى تَذْلِيلِ المخْلُوقِ لِعَمَلٍ ما أو أمْرٍ ما، وجعله مطاوعاً لما يُراد به أو يرادُ منه ضِمْنَ قانون تَسْخِيرِهِ.

وهذه المطاوعة ذاتُ وجوه:

- فقد تكون بالطَّبْع، كتَسْخير الماء والهواء والنار وعناصر الأرض، وسائر الأشياء الّتي لا حياة لها للناس يقضون بها مصالحهم، وهي مطاوعة لهم ضمْن قوانينها.

ومن هذا الوجه تَسْخِيرُ الشمسِ والْقَمَرِ في السَّماء لمنافع الناس وسائر الأحياء على الأرض، وتسخير النجوم الّتي يَهْتَدي النّاس بها في البرّ والْبَحْرِ.

• وقد تكون المطاوعَةُ بالْقُوّةِ مع التَّذْلِيلِ كتسْخِيرِ الْعَجماوات من البهائم للناس.

• وقد تكونُ بالاختيار الحرّ، لمَا في المطاوعة من مصْلَحَةٍ للمطاوع، أو تخلُّصٍ ممَّا يكْره، كتَسْخِير بَعْضِ الناس لبَعْض، ولو مَلَكُوا أن يُحَقّقُوا مصالحهم وما يَرومُونه من مطالب أجسادهم أو نفوسهم دون أن يُطاوعوا لما فَعَلُوا.

والتسخيرُ الجبريُّ قد يكون ضمْنَ سُنَّة ثابتَةٍ، كَسُنَنِ اللَّهِ وقوانين خلقه في كونه، وقد يكونُ على خلاف السُّنَّة الثابتة، كتَسْخِير الأشياء في معجزاتٍ وخوارق عادات، ومن هذه تسخير الله عزّ وجلّ الْعَصا لموسَى عليه السلام فيما كان يُجْرِيه له فيها من معجزات كبرى.

والتسخير كُلُّه لا يخْرُجُ عن دائرة التحرُّكِ ضمْن إرادة الرَّبّ الخالق وخَلْقِه دواماً، جلّ جلالُه وعظُم سلطانه.

هذه القضيّة تُنَبِّهُنا علَىٰ أنّ من آيات الله في كونه، ونِعَمِه الوفيرة والجليلة على الناس في الأرض، تسخيرَه الشَّمْسَ والْقَمَرَ لهم، لتحقيق كثيرٍ من منافعهم ومصالحهم، وضروريَّات حياتهم.

وقَدْ جاء في القرآن المجيد التَّنبيهُ على مَا فيهما من دَلَائِلِ خَلْقِهِ، وَرُبُوبيّتِهِ الدَّائِمَةِ المهيْمِنَةِ عَلَىٰ كَوْنِهِ ـ جَلّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وعلى مِنّتِه على الناس بتَسْخِيرِهما لَهُمْ فِي عدّة نصوص.

وقد أَثْبَتَ الله عزّ وجلّ في القرآن جَرَيان كلٍّ من الشَّمْسِ والْقَمَرِ في السّماء، وخصّ الشَّمْسَ بالتعبيرِ عَنْ جَرَيَانِها بعبارة صَريحة، في قولِه تبارَكَ وتعالى في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨﴾.

كان يُدَرَّسُ في مادّةِ الْعُلُوم الطَّبِيعِيَّةِ المأخُوذَةِ من مُقَرَّرات الْعُلومِ الْغَرْبِيَّة، قَبْلَ عشراتِ السِّنين من هٰذا القرن العشرين الميلاديّ، أنّ الشَّمْسَ ثابِتَةٌ لَا تَجْرِي، وأنّ الْأَرْضَ وَالْكواكِبَ مِنْ حَوْلِ الشمس هي الّتي تَجْري حَوْلَها.

وانْطَلَقَتِ الْأَسْئِلَةُ حينئذٍ تَدُورُ مِنْ قِبَلِ دَارِسي هٰذه العلوم الطبيعيَّة، حوْلَ مخالَفَةِ هَذا النَّصّ القرآنيّ وأشباهِهِ لِمَا هو مُقَرَّرٌ في العلوم الطبيعيَّة الإنْسانِيَّةِ عن الكونيات.

وأخَذَ المشكِّكُون حينئذٍ يُوجّهون المغامِزَ والمطاعن للبَيَانِ القرآني.

وقامَتْ جَدَلِيَّاتٌ بَيْنَ المؤمنين بالقرآن، وبين المؤمنين بمقالات العلوم الطبيعيَّة الإنسانيّة، دون تحفُّظ.

فالمؤمِنون يَبْنُونَ أقوالَهُمْ على أنّ القرآن من عند الله، وأنَّ الله عزّ وجلَّ عَلِيمٌ بكُلّ شيءٍ، وأنَّ الكَوْنَ كُلَّهُ كَوْنُهُ وَخَلْقُهُ، فَهوَ الْعَلِيمُ الخبيرُ به، ولا يُمْكِنُ أنْ يُخْبِرَنَا إلَّا بالْحَقِّ والصِّدْقِ، ولا يُمْكِنُ أَنْ يُنْزِلَ في كتابه إلَّا حقاً وصِدْقاً.

أمّا مُقَرَّرَاتُ عُلَمَاءِ الْعُلُوم الْكَوْنِيَّة، المستَنِدَةِ إلى مُلاحظاتهم، وتأمُّلاتهم، وتجرباتهم، فكثير مِنْها قَدْ كان مبنياً على الْحَدْسِ والظنّ، والرُّؤىٰ الناقِصَة، مع إعطائها قراراتٍ عامَّاتٍ، تتَنَاوَلُ ما لَم تَصِلْ بَعْدُ إلَيْها عُلُومُهُمْ المحقَّقَة، وكَان هٰذا الكثِيرُ من مُقَرَّرَاتِهم غيْرَ مَبْنِيٍّ على الْبُرْهَانِ القاطع واليقين.

وكان أَهْلُ الْعَقْلِ والْعِلْمِ والإنْصَافِ من عُلَماءِ المسلمين ذوي التمكّن في مُخْتَلِفِ العلوم الإسلاميّة، يُقرّرُون أنّه إذَا تَناقضَتْ مقرّراتُ الْعُلُومَ الكونيّة الإنسانيّة، الّتي لم تَبلُغْ مَبْلَغَ اليقين الذي لا يقبل التعديل والتبديلَ

والنقض، مع مفاهيم النُّصُوصِ الدينيَّة الصَّحِيحَةِ الثابتَة، دون إمكان التأويل الذي تَسْمَحُ به قواعِدُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وقواعِدُ استنباطِ المعاني والأحكام لدى عُلَماءِ المُسْلِمِينَ الموْثوقين، فالحقُّ مَا جاء في القرآن، أو في السُّنَّةِ الْقَطْعِيَّة الثبوت، والقطعيّة الدّلالة، لا ما قرَّرَتْهُ النظراتُ الظنِّيَّةُ الإنسانيَّةُ الناقصة في العلوم الكونية.

ثُمَّ تَقَدَّمَتِ البحوثُ العِلْميَّة الْفَلَكِيَّة، وأثبتَتْ دراساتُ عُلَمَاءَ الْفَلَكِ أنَّ الشَّمْسَ بِالنِّسْبَةِ إلَىٰ مَجْمُوعَتِها الدّائرةِ حَوْلَهَا، والّتي هِيَ أُسْرَتُها، ذَاتُ وَضْعٍ ثابت، لَكِنَّها مَعَ كُلّ أُسْرَتِها تَجْرِي بِحَرَكَةٍ خاصَّةٍ في فَلَكٍ أَكْبَرَ ضِمْنَ المَجَرَّةَ، فَهِيَ بالنِّسْبَةِ إلى وَضْعِهَا مَعَ أُسْرَتِهَا في المجرَّةِ جارية غير ثابتة.

وظَهَرَ بهٰذا صدْق النصّ القرآنيّ، ومطابقته للواقع، وظَهَرَ نَقْصُ الدراسات الإنسانيَّة في هذا الموضوع، عن مطابقته للواقع.

ونظير ما جاء في هذه القضية من سورتي (يس/ ٤١ نزول) و (فاطر/ ٤٣) قد جاء في الآية (٥) من سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) وفي الآية (٢) من سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول) لَكِنْ جاء في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول) قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

فجاء فيه استعمالُ حَرْف ﴿إِلَىٰ﴾ في ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ بينما جاء في النّصوص الأخرى الّتي سبقت الإشارة إليها استعمال حرف (اللام) فما الحكمةُ في هٰذا التنويع؟

يقولُ كثيرٌ من المفسّرين: إنّ اللام بمعنى «إلى» الدَّالَّة على الغاية، فَهُما يَصْلُحَان في موضع واحدٍ والمخالفةُ تفنّنٌ في النظم.

لكِنَّ الزَّمَخْشَرِيّ رَفَضَ هٰذا بِشِدَّة، واعتَبَرَهُ من ضِيقِ موقع المتدبّر، في فهم الفروق اللّغويّة، وفَهْم النصوص.

وقد فهم الزّمخشريُّ أنّ اللام في النُّصوص الثلاثة الّتي جاء فيها: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هِيَ بمعنَىٰ «التعليل ـ أي: لتحقيق الوظيفة المسَخَّرَيْنِ لَهَا طوال مُدَّةِ الأَجَلِ.

أمّا حَرْف «إلىٰ» فَهُوَ بمعنىٰ بُلُوغِ الغاية.

**أقول**: إنّ من مَعَانِي «الأجل» المدَّة المحدَّدَة للشَّيْءِ، والمحصُورةَ بَيْنَ أوّلٍ وآخِرٍ، وهذا المعنى يناسِبُهُ ويلائمُه اسْتِعمالُ حَرْفِ اللام» للإشَارَة إلى قيام كلٍّ من الشَّمْسِ والقمر بوظائفهما الّتي سَخَّرَهُما اللَّهُ لَهَا طَوالَ هذا الأَجَلَ من بدايَتِهِ وحتى نهايته.

ومِنْ مَعاني الأجَل غايَةُ الزَّمَنِ المحدَّدِ لشيءٍ ما، وهذا المعنىٰ يلائمُهُ ويناسبُهُ استعمالُ حرف «إلىٰ» أي: كلٌّ يجري إلى بُلُوغ غاية الزّمن المحدّد، إذْ يَتَوَقَّفُ جَرَيانُها عنْده.

﴿مُّسَمًّى﴾: أي: مُعَيَّنٌ باسمه المحدَّدِ لَه في عِلْم الله، وفي الكتاب الّذي كتَبَ اللَّهُ فيه قضاءَهُ وقَدَرَهُ، وكُلُّ زمن له عند الله عزّ وجلّ اسْمٌ يُحَدِّدُه، ويُمَيِّزُهُ عن سائر الأزمان، كما نقول نَحْنُ مثلاً ولِلَّهِ المثلُ الأعلى، سَتَصِلُ الطائرةُ بَعْدَ إقْلاعها من ميناء «كذا» الجوي، إلى ميناء «كذا» الجويّ في الدقيقة العاشرة بَعْدَ طَيرانٍ يَسْتَمِرُّ أَرْبَعَ سَاعَاتٍ، وفي الدقائق العشر يكونُ هُبُوطُها على أرض الميناء.

❁ ❁ ❁

**القضية الثامنة**: دلَّ علَيْها قولُ اللَّه عزّ وجَلَّ:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ... ﴿١٣﴾﴾:

أي: ذَلِكُم الجليلُ العظيمُ الْعَلِيُّ الّذي سَبَقَ في البيان التنْبيهُ على بعْضِ آياتِهِ وتَدْبيراته في كونه، وعلى بعضِ ظاهراتِ رَحْمَتِهِ لعباده والذي

هو اللَّهُ رَبُّكُمْ، والمتابعُ مَعَ كُلِّ أَقلِّ زَمَنٍ تَرْبيتَكم بالخلْقِ والتدبير، والهَيْمَنَةِ والعِنَايَة، وكمال التقدير ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾: أي: له وَحْدَهُ مُلْكُ ومِلْكُ كُلِّ شيءٍ في الكَوْن، فَلا يُشَارِكُهُ فيه غيره، جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه.

**الْمُلك**: يأتي بمعْنَيَيْنِ:

- فيأتي بمعنَىٰ الامْتِلاك والانْفِراد بحقّ التصرّف.
- ويَأْتي بمعنىٰ حقّ التَّسَلُّطِ بالأمْر والنَّهْي، والتَّصَرُّفاتِ الإراديّة.

يُقَال لغة: ملَكَ الشيءَ يَمْلِكُهُ مِلْكاً، ومُلْكاً، وَمَلْكاً، أي: حَازَهُ وانْفَرَدَ بحَقِّ التَّصَرُّفِ فيه، وكَانَ لَهُ عَلَيْهِ سُلطانٌ وقُدْرَةٌ عَلى التَّصرُّف.

❊ ❊ ❊

**القضيّة التاسعة**: دل عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿... وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿مِن قِطْمِيرٍ﴾: الْقِطمِيرُ: الْقِشْرَةُ البيضاء الرقيقة الّتي تكون حَوْلَ النواة، فاصلةً بَيْنَ التَّمْرَةِ وَنَواتها.

أي: إنّ الْمُلْكَ كُلَّهُ في الكونِ كُلِّهِ للَّهِ وَحْدَهُ، إذَنْ: لَا تَمْلِكُ آلهة المشركين مِنْ كَوْنِ الله شيئاً، لا خَلْقاً ولا تصَرُّفاً.

فيا أيُّها المشركون إذَا كانت آلِهَتِكُمْ لَا يَملِكُون من الكون مقدار قِطْمِير، حتَّىٰ يَتَصرَّفوا به، ويَنْفَعُوا بِهِ الّذين يعبدونهم من دون الله رَبِّهم، فكيْفَ بِما هو أكْبَرُ من قطمير، كالخلْق، والرزْقِ، والنَّصر.

إنّ عبادَتَكُمْ لآلِهتكُمْ ضَائِعَةٌ كضَياعِ أوْهَام الَّذِينَ لا عَقْلَ لَهُم، ولا بَصِيرَةَ لَهُمْ تَكْشِفُ لَهُم الحق.

والمعنى: فَمَا هِيَ فَائِدَتُكُمْ أَيُّها المشركون من عبادة الّذين اتَّخذْتُموهُم آلِهَةً مِنْ دُون الله تَعْبُدُونَهُمْ، وتَدْعُونَهُمْ، رجاء أن يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ، فَيُحَقِّقُوا مَطَالِبَكُمُ الّتي تَطْلُبُونها منهم؟!

• ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾.

أي: إنْ تَدْعُوا يا أيُّها المشركونَ آلِهَتَكُمْ من دُونِ رَبّكم طالبين منهم نفعاً، أو معونَةً أو نصراً، أوْ دَفْعَ ضُرٍّ أو رَفْعَهُ، فإنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ دُعَاءَكُم، لأنّهم أشياء جَامِدَةٌ لا تَسْمَعَ، أو مَوْتَىٰ لَا تَصِلُ إلى أَرْواحِهم أصْوَاتُكُم، فكيْفَ تَسْمَحُ لكم عقولَكُمْ بأنْ تَدْعُوهم، وهم لَا يَسْمَعُونَ أصْواتَكُمْ؟!!

ولو سَمِعَ منْهُمْ أحَدٌ كَأَنْ كانَ المعْبُودُ من الجنّ، أو مِمّنْ يَزْعُمُ المشركون أنّهم من الملائكة، فإنّهم لا يَسْتَجِيبُونَ لدُعاء من دَعَاهم، لأَنَّهُمْ لَو أراد بَعْضُهُمْ الإجابَةَ لما استطاع، إذْ هو غير مُمَكَّنٍ من ذلِكَ بسُلْطان القهر الرَّبّاني.

**الدعاء**: النّداء وَرَفْعُ الصَّوْتِ بأمْرٍ ما، وطلَبُ أَمْرٍ ما على سبيل الاستجداء المقرون بالخضوع، ولهذا كانَ الدُّعاء من العبادة التي يجب أنْ تكون لله وحْدَهُ لا شَرِيك له.

## نظرة عامة إلى آلهة المشركين:

تنقسم آلهةُ المشركين إلى قسمين:

**القسم الأول**: أشياء لا حياة لها، كأحجارٍ وأشجارٍ وأشياء أُخرى من الكون، من الأرض أو السماوات، ممّا لا حياة له، والمشركون يتَوَهَّمُون أنَّ لها حياةً خفِيَّةً، وأنّ لها تأثيراتٍ في الكون، أو يتوهَّمون أنّها رُموز ذوي حياةٍ مُدْرِكة لَهُم اطّلاع على عابديها، فَهُمْ يَسْتَجِيبونَ لعابديها مطالبهم، بسبب أنّ عبادة الرُّموز إنّما هي عبادةٌ لمن دَلَّتْ عليه.

وبالنسبة إلى هذا الصنف من آلهة المشركين جاء في نصّ هٰذِه القضية التاسعة، قول الله عزّ وجلّ خطاباً للمشركين:

• ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ ...﴾:

أي: يا أيُّها المشركون، إنَّكُمْ إنْ تَدْعُوا آلهتَكُمْ الّتي اتَّخَذْتُمُوها من أشياء الكون شركاء لله، فاعلموا أنّ آلهتَكُمْ هٰذهِ لَا تَسْمَعُ دُعَاءَكُمْ.

والبُرْهَانُ على هذا هو الواقع التجريبي، فامْتَحِنُوها إنْ شِئْتُمْ، فتكرار الخِبْرَةِ شاهد من الواقع لا يَرْفضه إلّا غبيٌّ، أو مكابِرٌ مُعَاند.

**الْقِسْمُ الثاني:** غيبيَّاتٌ من الأحياء، أو مما يُظَنُّ أنّ لها حياة، كالجنّ، وإبليسُ أخبثُهم، وكالملائكة بزعم عابديهم، وكأرْواحِ موتَىٰ صالحين، أو كافرين.

أمّا الملائكة فإنَّهُمْ لَا يَسْتَجِيبونَ لدُعاء عابديهم، ولو سَمِعُوا دعاءَهُمْ، لأنَّهم بفِطْرتهم لا يَعْصُون اللَّهَ ما أمَرَهُم ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، وهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّهم لو استجابُوا لدُعاء عابديهم لعَصَوُا الله رَبَّهم، وهُمْ مَعْصُومُونَ عن ذلك.

وأمّا الجنُّ والشياطين، فإنَّهم ممنوعون بسلطان الرَّبّ ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سلطانُه ـ من أنْ يسْتجيبُوا لدُعاء عابديهم، إلّا بإذْنِ الله لامتحان الناس في بعض قضايا السِّحر، كالتفريق بيْنَ المرْء وزوجه.

وأمّا أرْواحُ الموتَىٰ فهِيَ في عالَم الْبَرْزَخ لا تَمْلِكُ أن تَعْمَلَ شيئاً، فأرواح الكافرين منْها حَبِيسَةٌ، وأرْواحُ المؤمنين ولو كانوا من أهل الصلاح أبراراً أو محسنين قد انقطع عنها بالموت إنشاءُ أيّ عَمَلٍ جديدٍ في الدُّنيا.

وبالنسبة إلى هذا الصنف من آلهة المشركين جاء في نصّ هٰذه القضيّة التاسعة، قول الله عزّ وجلّ خطاباً للمشركين:

﴿.. وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ...﴾.

وبرْهَانُ عَدَم استجابتهم يَدُلُّ عَلَيْهِ الواقع التجريبيُّ المتكرّر، الّذي اكْتَسَبَ بِهِ المُجَرّبُونَ خبراتٍ عَمَلِيَّةً واقعيَّة.

• ﴿... وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ...﴾:

هذه الجملَةُ تنطَبِقُ علىٰ كُلِّ الْمَعْبُودِين من دُون اللَّهِ من إنْسٍ وجنّ وملائكة.

أمّا الشيطان المعبُود بالطاعة من دون الله عزّ وجلّ، فقد قال الله عزّ وجلّ بشأنِهِ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢) إخباراً عمَّا سوفَ يقول يوم الدِّين:

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾: أي: ما أنا بمُغيثكم لأنْقِذَكُمْ من عذاب الله، وما أنتم بمغيثيَّ لإنقاذي من عذاب الله.

• وقال الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول) يتحدّث عَنْ مَشْهَدٍ من المشاهِدِ الّتي يُحَاسِبُ اللَّهُ فيها المشركين وشركاءَهم الذين كانوا يَعْبُدونَهم في الحياة الدُّنيا، متوَهّمينَ أنَّهم سَوْفَ يَدْفَعون عَنْهُمْ عذابَ رَبّهم يوم الدين، على تقدير صحّة البعث إلىٰ الحياة الأخرى:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

في هٰذا النصّ تصويرٌ لمشْهَدٍ مِنْ مشاهد الحساب الّتي سوف تكونُ يوم الدّين، وفي هذا المشهد يَجْمَعُ اللَّهُ فيه المشركينَ وشُركَاءهم.

(١) ينادي الله المشركين فيقول لهم: أَيْنَ شُرَكائي في رُبُوبيتي وفي إلٰهيّتي، الّذين كُنْتُمْ تَزْعُمُون أنَّهُمْ شُركائي؟

فيقولون: هٰؤلاء أمَامَنا.

(٢) فيقول اللَّهُ لهؤلاء الّذِين حقَّ عليهم العَذَاب الأليم الخالِدُ في الدَّرْك الأسْفَلِ من النّار: لماذَا أضْلَلْتُمْ هؤلاء حتَّىٰ أوقَعْتُموهم في الغَوَايَة؟ (معنى هذا السؤال مطويٌّ في النّصّ غير مُصرَّحٍ به، ولكن يُفْهَمُ باللُّزوم الذهني).

(٣) فيقول هؤلاء الشُّركاء: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَاۖ﴾: أي: كُنَّا نَحْنُ غَاوِينَ، فوَسْوَسْنَا لهم حتَّىٰ صاروا غاوين مثْلَنا...

ويقولون أيضاً: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ﴾ ربَّنا مِنْ عِبادَتِهم لَنا ومِنْ أنَّا دَعَوْنَا لِنَكُونَ آلِهَةً يَعْبُدُونَنا، وهم في واقع حَالِهِم ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ وإنَّما كَانُوا يَعْبُدُونَ أهْوَاءَهم وشَهَواتِهِمْ ولذَّاتِهِمْ وَمَطَالِبَ نُفُوسهم من الحياة الدُّنيا.

(٤) فيُقَال للمشركين: ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾.

(٥) فَيَدْعُونَهُمْ لِيَنْصُرُوهم ويَدْفَعُوا عنهم عذابَ الله في نار جَهَنَّمَ.

(٦) فلا يستجيبُ الَّذِينَ كَانُوا شركاءَهُمْ في الحياة الدُّنيا لهم بِشَيْء.

(٧) ويُدْنَونَ مِنْ أبوابِ جَهَنَّم لِيَرَوْا مَا فيها من عذاب، فَيَرَوْنَه، فَتَنْخَلِعُ قُلُوبُهُمْ ذُعْراً ممّا هُمْ صَائِرُونَ إليْهِ.

(٨) عندئذٍ يَتَمَنَّونَ ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ﴾ في الحياة الدُّنيا ﴿يَهْتَدُونَ﴾ مُتَّبِعين دَعَوَات الَّذين كانوا يَدْعُونَهُمْ إلى دين الله الحق، واتِّبَاع ما جاء بِهِ المُرْسَلُون، وما أنْزَلَ رَبُّهُمْ إليهم في كتابه المبين.

• وقال اللَّهُ عزَّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) متحدثاً عن بَعْضِ مشاهِدِ يوم الدّين:

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ (١٦٧)﴾.

﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾: أي: لَوْ أَنَّ لَنا رَجْعَةِ إلى الحياة الدُّنيا حَياةِ الابْتلاء.

• حتَّىٰ عيسَىٰ النبيّ الرَّسُول الّذي عُبِدَ مِنْ دُون الله، يَسْأَلُهُ الله عزّ وجلَّ بشَأْن الّذِينَ عَبَدُوه، كما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ ... (١١٧)﴾.

• عبارة: ﴿... وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)﴾ في آخر هذه القضيَّةِ التاسعة.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾: أي: ولَا يُخبِّرُكَ بالْخَبَرِ الجليل الرفيع الحقّ.

**الإنباء والتنبيء**: الإخبارُ والإعلام، يقالُ لغة: أنبأَهُ ونَبَّأَهُ الخَبَرَ وَبالْخَبَر، أي: أعْلَمَهُ به.

ويُسْتَعْمَل النبأُ كثيراً في الْخَبَر ذِي الأهميّة، لأنّ مَادَّة الْكَلِمَةِ تَدُورُ حَوْلَ الارْتفاعِ والظُّهورِ.

**فالنّبأ**: الْخَبَرُ البارزُ الظاهِرُ ذُو الأَهَمِيَّة، ومِنْ هٰذا سُمِيَ المنَبَّأُ بِأَخْبَارِ الوَحْيِ «نَبِيًّا» و«نَبِيئاً».

**الخبيرُ**: هو الْمُجَرِّبُ الممارِسُ لِلْأَمْرِ بصُورَةٍ مُتَكَرِّرَة أكْسَبَتْهُ عِلْماً مُسْتفاداً مِنْ خِبْرَةٍ اطَّلَعَ فيها على أجْزَاءِ الْعَمَلِ الّذي مارسه، ظاهره وباطنه.

والْعَليمُ الخبير الأجَلُّ الّذي لا تخفى عليه خافِيَةٌ في السماوات ولَا في الأرض، هو الله جَلَّ جلالُهُ وعظُم سُلْطَانه.

ومن دونِه الخبراءُ من عباده، وتَدُلُّ هذه العبارةُ على أنَّ مُجَرِّبي دُعاءِ الآلِهَةِ من دون الله من قِبَلِ المشركين، يُثْبِتُونَ بَعْدَ تَجْرِبَاتِهِمْ المتكرّرات طَوالَ حياتِهم، أنّ آلِهَتَهُمْ لَمْ تَجْلُبْ لهم رِزْقاً ولا نَصْراً، ولَمْ تَدْفَعْ عَنْهُمْ أذًى ولا ضُرّاً، وَلَمْ تَنْفَعْهُمْ بنافِعَة.

والمعنى: فاسْأَلُوا مُجَرّبي دُعاءِ شُرَكَائهم من دون الله، هلْ يَسْتَطِيعُ أَحَدُهُمْ إثْبَاتَ اسْتِجَابَةِ شُرَكَائِهِمْ لدعَائِهِم في تَجْرِبَةٍ مُتَكَرِّرَة، أَثْبَتَتْ لَدَيْهِمْ خِبْرَةً مُؤَكَّدَة.

أمّا الحوادث الفرديّة الّتي اقترنَتْ بمُصَادَفَاتٍ فلا تُثْبتُ حقيقَةً عِلْميَّة.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾: أي: ولا يُنَبّئُكَ نَبأً صَحيحاً مُطابقاً لِلْواقِعَ تَماماً، مِثْلُ خَبِيرٍ ذي تَجرِبَاتٍ متكَرّراتٍ أكْسَبَتْهُ خِبرةً تامّة.

هذه العبارة قد جرت مَجْرَىٰ الأمثال.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدَّرس السَّابع من دُروس السورة، والحمد لله على معونته وتوفيقه وفتحه المبين.

❁ ❁ ❁

## (١١)
# التدبّر التحليليّ للدّرس الثامن من دُروس السورة وهو الآيات من (١٥ ـ ٢٦)

قال الله عزّ وجل:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

**القراءات:**

● (١٥) في عبارة: ﴿ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى﴾ قرأ نافع، وابْنُ كَثِير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر، بِتَسْهِيل الْهَمْزَةِ الثانية كالْيَاء، وبإبدالِها واواً مكْسُورة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة همزةً محقّقة.

● وكلمة: ﴿يُنَبِّئُكَ﴾ فيها لحمزة في الوقف تَسْهيلُ الهمزة، وإبدالُها يَاءً.

● (١٦) قرأ أبو جعفر: [إِنْ يَشَا] بتسهيل الهمزة وجعلها ألفاً مَديَّة في الوصل والوقف، وقرأها كذلِك حَمْزَة في الوقف.

وقرأها باقي القُرّاء العشرة [إِنْ يَشَأْ] بتحقيق الهمزة.

- (٢٥) قرأ أبو عمرو: [رُسْلَهَمْ] بإسْكَان السّين.

وقرها باقي القرّاء العشرة: [رُسُلَهُمْ] بضم السِّين.

وهما لغتان عربيتان في نُطْق الكلمة.

- (٢٦) قرأ ورْش: [نَكِيري] بإثبات ياء المتكلّم في الوصّل. وقرأها كذلك يعْقُوبُ في الوْصْل والوقف.

وقرأها باقي الْقُرَّاء الْعَشَرَةِ [نَكِيرِ] بحذف ياء المتكلّم مطلقاً، وإبقاء الكَسْرَةِ دَليلاً عليها. وهذا الحذْف من الوجوه العربيَّة الجائزة، ويَكْثُرُ في القرآن حذْف ياء المتكلّم.

**تمهيد:**

هذا الدرسُ من درُوس السورة، تتراوح مسيرتُهُ على فرعي الرسول، والمشركين من فروع شجرة موضوعها، ويُلْحَقُ بالرَّسول حَمَلةُ رِسالَته من أمّته، وقد سبق أن علمنا أنّ فروع موضوعِها مُمْتَدَّةٌ من فروع شجرة موضوع سورة (الفرقان).

**أولاً:** فهو يتابع معالجة المشركين بشأن إنكارهم أنّ الله عزّ وجلّ رحْمنٌ يَرْزُقُهُمْ من فَضْلِه، ويُبَيّنُ لهم أَنَّهُمْ فُقراء إلى اللَّهِ دوماً في كل مطلبٍ من مطالب حياتهم.

ويُتابِعُ معالجتهم بشأن عدم إيمانهم بالجزاء الّذي سوف يلاقونه يوم الدّين، ورُبما بعقاب الله لهم في الدنيا أيضاً، إذا اقتضت حكمة الله أن يُعجّل لهم شيئاً من عقابهم.

(١) فإنكارُهم لرحمة الله لهم في قضايا رزقهم وسائر حاجاتهم ومطالب حياتهم، جاءت حوْلَه المتابعة للمعالجات السابقات ببيان أنّ

حالَهم مَقْصُورٌ علىٰ أنَّهُمْ فُقَراء إلىٰ اللّهِ في كلّ مطْلَبٍ مِنْ مَطالِب حياتهم، وأنّ اللّه بغِنَاهُ المطْلَق هو الّذي يَمُدُّهم بالرّزْق وغيرِه من مطالب حَيواتِهم.

(٢) وجاءت مُتَابَعَةُ عَدَمِ إيمانِهم بالجزاء الرَّبَّاني المؤجل إلى يوم الدّين، وما تَقْتَضِيه حِكْمَةُ الله من جَزَاءٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدنيا، بِبَيَانِ أَمْرَيْن:

**الأمر الأول**: أن الله عزّ وجلّ من صفاته أنّه حَمِيد، أيْ: يَحْمَدُ من آمَنَ به وأطاعه.

وحَمْدُ الله يَكُونُ بالثناء على عباده المؤمنين العابدين في الملأ الأعلى، وبما أنّه جلَّ جلالُه كريم جواد، فَحَمْدُهُ لهم يَسْتَلْزِمُ مجازاتَهُمْ على إيمانهم وصالحات أعْمَالهم بالثواب الجزيل يَوْمَ الدِّين، مع ما قَدْ يُكْرِمُهُمْ بِهِ من أنواع وأفْراد ثوابٍ مُعَجَّل في الحياة الدنيا.

**الأمر الثاني**: بَيَانُ قُدْرَةِ اللّهِ عَزّ وجلَّ على إهلاكهم والذَّهَابِ بهم من الوجود إلى العدَمِ، كما أَوْجَدَهُمْ، وأنْشَأَهُمْ من الْعَدَمِ، وَمَنَحَهُمْ الوجود، وسائر صفاتهم في هذا الوجود.

وبيانُ قُدْرَتِهِ على أنْ يأتيَ بخَلْقٍ جَدِيدٍ يكونُون خَلفَاً لهم.

وكُلُّ ذَلِكَ أَمْرٌ هَيِّنٌ يَسِيرٌ عليه جلّ جلاله وعظم سلطانه، إنَّما أَمْرُهُ إِذَا أرادَ شَيْئاً أنْ يَقُول له: كُنْ فَيَكُون.

إلَّا أنّ حكْمَةَ الله اقتضَتْ أنْ يُمْهِلَهُمْ ليقْطَع كُلَّ أعْذارِهِمْ.

واستَتْبَعَ هٰذا الْبيانُ عن الجزاء الرّبّانيّ بالثواب أو بالعقاب، بيانَ بَعْضِ مَوَادِّ قانونه عند الله العليم الحكيم القدير الْعَدْلِ ذي الفضل.

وما وردَ في هذا الدّرس من موادِّهِ بصورة مفرّقة غير متتابعة، ما يلي:

**المادة الأولى**: أنّه لَا تَزِرُ نَفْسٌ من شَأْنِهَا أن تكونَ وازِرَةً وِزْرَ نَفْسٍ أُخْرَىٰ.

**المادة الثانية**: أنّ النَّفْسَ الَّتِي تَحْمِلُ أَوْزَارَها الثقيلَةَ، إنْ دَعَتْ إلى حَمْلِ شَيءٍ من أَوْزَارِهَا، ولَوْ أَقْرَبَ الناسِ إليها، لم يَسْتَجِبْ لَهَا مِنْهُمْ أحَدٌ.

**المادة الثالثة**: أنّ مَنْ تَزَكَّىٰ (أي: تَطَهَّرَ من الكُفْرِ والعِصْيَانِ) فإنَّما يَتزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ فقط: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾.

**المادّة الرابعة**: أنّ الجزاءَ الأَمْثَلَ مُؤَجَّلٌ إلَىٰ يَوْمِ الدّينِ الذي يكُونُ فِيهِ الْمَصِيرُ إلَىٰ الله وَحْدَه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝١٨﴾.

**المادّة الخامسة**: أنَّ تَطْبِيقَاتِ الجزاء بالثواب أو بالعقاب تكون بحَسَبِ مَا يَكْسَبُ كُلُّ فَرْدٍ من عَمَلٍ ظاهرٍ أو باطنٍ في رحلة ابتلائه، وأنّه لَيْسَ من الحكمةِ التسْوِيَةُ فيه بَيْنَ المتفاضِلين ارْتقاءً، ولا بَيْنَ المتفاوِتين تَسَفُّلاً.

فقانون الوجود كُلِّه قائم على العدل، ومن شأن العدل ما يلي:

(١) أنّه لا يَسْتَوِي الأعْمَىٰ والْبَصِير.

(٢) أنّه لا تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ المتفاوتات، ولا يَسْتَوِي النُّورُ المتفاضل.

(٣) أنّه لا تَسْتَوِي أفرادُ الظّلّ في الوجود، ولا تَسْتَوِي فِيهِ أفْرادُ الْحَرُور.

(٤) أنّه لا تَسْتَوِي في الْوُجُود والصفات والخصائص أَفْراد الأحياء، ولا تَسْتَوِي أفراد الأمواتِ في البرزخ الذي لهم فيه جزاءٌ بالثواب أو بالعقاب.

**ثانياً**: وهٰذا الدَّرْسُ يُتَابعُ أيضاً تَرْبِيَةَ الرَّسُولِ ﷺ بِتَراوحٍ غَيْرِ مُتَتَابع، إيثاراً لفَنِّيةِ التَّنَقُّل في المُتَابَعَات المجَدِّدَة للانْتِبَاه، والمحرّكة للأذْهان.

ويُلْحَقُ بالرَّسُولِ كُلُّ حَامِلٍ لرِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ.

(١) فَيُؤَكِّدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فيه لِرَسُوله أنَّ إنْذَارَهُ المؤثّر النافِعَ إنَّما يَكُونُ للَّذِينَ يَخْشَونَ رَبَّهُمْ بالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ولَوْ من أدْنَى الحدُود: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ... ﴿١٨﴾﴾.

أي: فَلا تَعْبأْ بالميْؤُوس مِنْهُمْ بَعْدَ التجربات الكافيات لليَأْسِ من استجابتهم، ويَكْفِيكَ أنْ تُوَجِّه لَهُمْ الإنْذَارَ الأخير وأنْتَ منْصَرِفٌ عن معالَجَتِهم، وإنْفَاقِ أوقاتِكَ في أمْرٍ لا جَدْوَىٰ منْه.

وإنْ تُتَابِعُ هؤلاء بالإقناع والمجادلة والترغيب والترهيب فإنَّكَ تكُونُ فيهم كَمَنْ يُحَاوِل أنْ يُسْمِعَ الْمَوْتَى وَهُمْ فِي قُبُورِهِم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

(٢) وأبان الله عزّ وجلّ فيه لِرَسُوله بأسْلُوب الْقَصْرِ والحصْرِ، أنَّ وَظِيفَتَهُ الأخِيرَةَ بالنِّسْبَةِ إلىٰ الميؤُوس من إصلاحهم عن طريق إراداتهم الحرّة، هو توجيه الإنْذار في آخِرِ مراحِلِ معالجاتهم: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

(٣) وأبانَ الله عزّ وجلّ فيه لرسُوله، أنَّ وظيفتَهُ العامَّة للجميع بَعْدَ تَبْلِيغ الحقّ الرَّبَّانِي وبيانه والتذكير به، في مجالات الموعظة المحرِّكة للنُّفُوسِ مِنْ مُحْوَرَي ما تُحِبُّ وَمَا تَكْرَهُ قائمة على الترغيب بثواب الله العظيم، والترهيب من عقابه الأليم: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ... ﴿٢٤﴾﴾.

(٤) وأبان الله عزّ وجلّ فيه لرسوله، أنّه مَا مِنْ أُمَّةٍ سَلَفَتْ في تاريخ الْبَشَرِيَّة، إلَّا خَلَا فِيها نَذِير: ﴿... وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ووصل حالُهُ مع قومه أنْ وجَّهَ لَهُمْ آخِرَ وظائف رِسالَتِه، وهي

الإنْذَارُ، لأنَّهُمْ قد وَصَلُوا إلى حالةٍ ميؤوسٍ من إصْلاحِهم مَعَها عن طَرِيق إراداتهم الحرَّة.

(٥) وأخيراً أبان اللَّهُ لرسوله فيه أنَّ قَوْمِه إنْ يَكذِّبوه، وهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي قرارة نفوسهم أنّه كذّاب، وهذا احتمال نادِرٌ وقليل، فقد سبَقَ أنْ كَذَّبَ الَّذِين من قَبْلِهم رُسُلَ رَبّهم، الّذِين جاءوهم بالبيّنات وبالزُّبُر وبالكتاب المنير.

وأبان لَهُ أنّ الله جلَّتْ حِكْمَتُهُ قد أخذ الّذين كَفَرُوا بإهْلاكٍ جماعيّ شامل، ونَصَرَ رُسُلَه والّذين آمَنُوا بهم واتَّبَعُوهُم في آخر مَرَاحِلِ تأديَةِ الرُّسُلِ وظَائِفَ رِسالَاتِهم: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

بهذا التحليل لهذا الدرس القائم على اكتشاف الروابط غير المنظورة، في عباراته الملفوظة، بفروع شجرة موضوع السّورة، ظهرت لنا الوحْدة الفكريَّة العجيبة الّتي انْتَظَمَتْ آيات السّورة وفقراتها بهذا الدَّرْس، من أوّل آيةٍ فيها حتَّى آخر هذا الدرس الثامن، وأنّ فقراتها بمثابة أفنان وأزهار وثمرات وأوْراق نابتات من فروع شجرة موضوع السورة الأربعة، التي سبق في المقدمات بيانها، وأنّها تابعَةٌ لفروعِ شجرة موضوع سورة (الفرقان) التي نزلت قبل سورة (فاطر) دون فاصل تنزيلٍ آخر بينهما.

**التدبّر:**

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾.

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: هذا النداء من الله عزّ وجلّ للناس هو النداء الثالثُ لَهُمْ في هٰذِهِ السُّورة، والمعنيّونَ الأوّلُون من عموم الناس هنا، هُمُ الكافرون المكذِّبُون بِرِسالة محمد ﷺ من قومه إبّان نزول السورة.

والمنادَىٰ به في هٰذه الآيات الثلاث (١٥ ـ ١٦ ـ ١٧) ثلاث قضايا:

**القضيَّة الأولى**: دَلَّ عليها خطاباً للناس: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ . . .﴾:

**الْفُقَراءُ**: جَمْع الْفَقِير، وهو من الناس ذو الحاجَةِ الّذي لا يَمْلِكُ ما يَكْفِي مطالِبَ معيشته.

ويقال لغة: افْتَقَرَ إلى الشيء أو إلى الْأَمْر، أي: احتاج إليه.

فالمعنى: أَنْتُمُ الفقراءُ الْمُحْتَاجُونَ دَوْماً إلى إِمْدَادِ الله لكم بعطاءاتِ رُبُوبيته لكم، لا تنفَكُّ عَنْكُمْ حَاجتُكُمْ إِلَيْهِ مقدار أَقَلِّ زَمَنٍ مِنْ وُجُوداتكم وحيواتكم.

فوجُودَاتكم، وأرْزَاقُكُمْ، وَمَطَالِبُ حَيواتِكُمْ، وعِزُّكم، ونَصْرُكم، وعَافياتكم، وقُوَّاتُكُمْ، وَحَرَكَاتُكُمْ، وسَكَنَاتُكُمْ، وسائر ما يجري فيكم، أو يَصْدُرُ عنكم، لَا تَتِمُّ إِلَّا بإمْدَادٍ مُتَتابع من الله لكم، كتتابُعِ تَيَّارِ الكَهْرباء لإمْدَادِ الآلات الكهربائيَّة بقُوتِ أعمالها، ففي اللَّحظة الَّتي يَتَوقَّفُ عنها التَّيَّارُ الكهربائي تَتَوَقَّفُ عن أعمالها.

أي: والآلِهَةُ الّتي تَجعَلُونَها شركاءَ لِلّهِ في إِلٰهِيَّتِهِ الّتي لا تكون لها حقًّا، ما لَمْ تَكُنْ شُرَكاء لله في رُبُوبِيَّتِهِ، وهذا باطل حتماً بالبراهين الْعَقْلِيَّةِ القواطع، فآلهتكُمُ التي تَعْبُدونَها من دُون اللّهِ أيّها الناسُ المشركون، لا تَمْلِكُ لَكُمْ جَلْبَ نَفْعٍ ولا دَفْعَ ضُرّ، ولا تَمْلِكُ لَكُمْ عِزّاً وَلَا نَصْراً.

وهٰذه الجملة: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ جاءت على طرائق الْجُمَلِ الّتي تفيد الحصْر والقصْرَ، لأَنَّها من مُبْتَدأ وخَبَرٍ مَعْرِفَتَيْنِ، ولَكِنْ كَيْفَ

نَفْهَمُ الحَصْرَ والْقَصْرَ هُنَا مع أنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ في الْوُجُودِ، هُوَ فَقِيرٌ دَواماً، مُحْتاجٌ إلى خالِقِهِ ومُمِدِّهِ بالْبَقاء.

وفي الإجابة على هذا السؤال أقول:

إنَّ المشركين المعنيِّين بالْخِطَاب، كانُوا يَعْتَقِدُونَ أنَّ آلِهَتَهُمْ الّتي يَعْبُدُونَها من دُون الله، هيَ التي تَرْحَمُهُمْ، فَتَرْزُقُهم مُخْتَلِفَ أَرْزَاقِهِمْ المادّيّة والمعنوية، ممّا لا يُكْتَسَبُ بالْوَسَائِلِ السَّبَبِيَّةِ الكونيَّة، أمّا مالَهُ وسائل سَبَبِيَّةٌ كَونيَّة، فإنَّهُمْ يَقُومُونَ بِهَا بأنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَغْنُونَ بها عن الرّبّ الخالق الرازق.

فجاءت العبارة على طريقة الْقَصْر الإضافيّ المراد بِه قَلْبُ اعتقادهم إلى نَقِيضِهِ تَماماً، أي: يا أيُّهَا الشَّاكُّون في افتقاركم إلى الله ربكم، أنْتُمْ المحتاجُونَ إلى الاعتقاد بأنَّكُمُ الْفُقَراء إلى الله، أمّا غَيْرُكم من أهل الإيمان، فإنَّهُمْ لَا يَشُكُّونَ في هٰذِهِ الحقيقة، بَلْ يُؤْمِنُونَ بأنَّهُمْ أغنياء بالله.

وهذا قد يَدْخُلُ في قِسْمِ قَصْر القَلْب الّذي ذكره علماء البلاغة، ويُمْكِنُ أن نُسَمِيَهُ «قَصْرَ بَيَان» وأنْ نُضِيفَهُ إلى الأقْسَام الأرْبَعَةَ الَّتي ذكرها البلاغيون، أو نَجْعَلَهُ من قسم القَصْرِ الإضافيِّ إذَا تَوَسَّعْنَا في مَفْهُوم هٰذَا الْقِسْمِ من أقْسَام القصر.

وفي هٰذِهِ القضية نَجِدُ مُتَابَعَةَ مُعَالَجَةِ المشركين إبّان التَّنْزِيل، بشأن عقيدتهم في أنَّ أرْزاقهم ومطالِبَ حيواتهم، إنَّما تُمِدُّهم بها آلِهَتُهُمْ الّتي يَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ اللَّهِ بوسائل غَيْبِيَّة.

وقد سَبَقَ أنْ جَاءَتْ معالَجَتُها في سورة (الفرقان) وفي أوائل سورة (فاطر).

• ففي سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) أبَانَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لهؤلاء المشركين، بأنَّهُ هُو الرَّحْمٰنُ الّذِي يَرْحَمُهُمْ دواماً، فَيُمِدُّهم من السَّماءِ بأسْبَابِ الرِّزْق، ومنْها أنْ جَعَلَ لَهُمْ في السَّمَاءِ الشَّمْسَ سِرَاجاً تُمِدُّ الأَرْضَ بالضَّوْءِ والحَرَارة، وهما عُنْصُران ضَرُورِيَّان للحياة.

نجد هذا في الآيات (٦٠ ـ ٦١ ـ ٦٢) منها.

• وفي السوابق من سورة (فاطر/٤٣ نزول) ناداهُمُ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣﴾.

وأبانَ لهم في الآيات (٩ ـ ١٢ ـ ١٣) منها أنّه جلّ جلاله أرسَلَ الرِّياح المثيرة للسَّحاب، فَساقتها إلى بَلَد ميّت، فأحيا بالماء الأرْض بَعْد موتها، فأنبتت لهم ولأنعامهم الزُّرُوعَ والثمار، وكلّ ذلك من عنايتِه ورحمته بهم، ومن عنايته بتَهْيِئَةِ أرْزَاقِهم.

وأنّه سخَّر لهم البَحْرَ يَأْكُلونَ مِنْهُ لَحماً طِرِيًّا، وسخَّر لهم الْفُلْكَ، ليبتَغُوا بالسَّفَرِ على ظهورها من فَضْلِ اللَّهِ أرْزاقهم وتحقيق مصالح ومنافع لهم.

وأنّه سخّرَ لَهُمُ الشَّمْسَ والْقَمَرَ، وكلُّ ذلك من عنايتِهِ ورحمته بهم.

**القضية الثانية:** دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

هذه الجملة واردة على طريقة الحصْرِ والقَصْر أيضاً بتعريفِ طَرَفَي الإسناد، وبالتأكيد بضمير الفصل، والقصْر فيها قَصْرٌ حقيقي، لأنّ الله عزّ وجلّ هو وَحْدَهُ الغني عن كُلّ ما سواه، فلا يحْتَاج شيئاً، وعبادَةُ العِباد لَهُ هِيَ لمصْلَحَتِهم، فلا تزيدُ في مُلْكِ اللَّهِ شيئاً، ولا تُقَدِّمُ لِنَفْسِهِ شَيْئاً لَمْ يَكُنْ فيها.

وكَذَلِكَ كُفْرُ الْعِبَادِ لَهُ هُو لشقائهم، فلا يَنْتَقُصُ من مُلْك الله شيئاً، ولا يُؤَثِّرُ على نَفْسِ الله عزّ وجلَّ بشَيْءٍ، وسخَطُهُ وغضبُهُ عليهم هو من آثار عَدْلِه.

﴿ٱلْغَنِىُّ﴾: من أسماء الله عزّ وجلّ: أي: الّذي لا يَحْتَاجُ إِلَىٰ أحَدٍ أَوْ شَيْءٍ في ذَاتِهِ أو صِفَاتِهِ، وكلُّ شيءٍ في الوجُود مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ.

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: أي: وهُو وَحْدَهُ ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ الكامِلُ الْحَمْد، سواءٌ في كوْنِهِ مَحْمُوداً، إِذْ لَهُ الْحَمْدُ كُلُّه، أمْ في كَوْنه حامداً، إِذْ هو يُكافئ كُلَّ فاعِلِ خَيْرٍ بالْحَمْدِ الَّذي يَسْتَحِقُّه، مع زيادَاتِ فَضْلٍ منه.

**الحمِيد**: على وزن «فَعِيل» من صِيَغِ المبالغة، وصيغ المبالغة في وصْفِ الله، تَدُلُّ على الكمالِ المطلق في اتِّصافِهِ بهذا الوصف.

**القضية الثالثة**: دلّ عليها قول الله تعالى: ﴿... إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾:

أي: إنْ يشأْ إذْهابَكُم إِلَىٰ الْعَدَم يُذْهِبْكُمْ، فَقَدْ كُنْتُمْ عَدماً، فَخَلَقكم، وهُوَ القدير على أن يَصْرِفكم من الوجود ويُعِيدَكُمْ إلى العدم، وإن يَشَأْ أَنْ يَأْتِيَ بِخَلْقٍ آخَرَ جَدِيدٍ، يأتِ به.

**الخلْقُ هُنا**: هو بمعْنىٰ المخْلُوق.

وَمَا ذَلِكَ الْإِذْهَابُ والإتيان على الله بصَعْبٍ ولا شَاقٍّ وَلَا عَسِير بلْ هو هيّن عليه، إِذْ يَتِمُّ بِأَمْرِ التكوين.

﴿بِعَزِيزٍ﴾: أي: بِصَعْبٍ، أو شاقٍّ، أو عسير.

والمعنى: أنَّه لمَّا كان من عناصِرِ افتقار النّاسِ إلىٰ الله جلَّ جلالُه، افتقارُهم في بَقَائِهم في الوجود إلى إمداد الله بِقُوتِ البقاءِ آنَاً فآناً، كان من الحكمة في الأداء البيانيّ أن يُنَبِّهَهُمْ على حقيقةٍ هُمْ غَافِلُونَ عنها.

وهي أنهم مخلوقون لله كَما يَعْتَقِدُ المشركون المعنيُّون الأوَّلُون بالخطاب في السورة.

وبمقتضىٰ قُدْرَةِ الله على الخلْق، فإنَّه قادرٌ إنْ شاءَ علىٰ أَنْ يُذْهِبَهُمْ إلى الْعَدَم بالإهْلاك، ويأْتِي بِخَلْقٍ آخَرَ جَدِيد، كما خَلَقَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يكونُوا شيئاً مَذْكوراً.

والذّهَابُ بِهم إلى الْعَدَم، والإتيانُ بِخَلْقٍ آخر جَدِيد هيّنٌ عليه، لَيْسَ صعباً وَلا شاقاً.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

في هٰذِه الآية بَيَانُ بَعْضِ مَوادِّ الجزاء الرَّبَّاني، بالعقاب أو بالثواب، مع توجيه فِقَرَةٍ تَرْبَوِيّةٍ للرَّسُول ﷺ في أثنائها عقب بيان مادَّتَيْنِ تَتَعَلَّقانِ بحاملِ الوزْرِ المستحقّ للعقاب.

وهذه الفقرة التربويّة استدعَتْها مُناسبةُ الحدِيثِ عن حاملي الأوزار، الّذين يخُصُّهم بيانُ بَعْضِ مواد الجزاء الرَّبَّانيّ بالعقاب.

وقد اشتملت هذه الآية على بيان خَمْسِ قضايا مُترابطة فكْرياً:

**القضية الأولى**: دَلّ عَلَيْها قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾:

أي: ولَا تَحْمِلُ نَفْسٌ وازِرَةٌ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَحْمَلَ أوزارَها الّتي تكْتَسِبُها، وِزْرَ نَفْسٍ أُخْرىٰ قَدْ حَمَلَتْ بِما اكْتَسَبَتْ أَوْزَاراً وذُنُوباً.

**الْوِزْرُ**: هُو في اللُّغَةِ الْحِمْلِ الثَّقِيلِ، ومن الأحْمَالِ الثقيلة أسْلِحَةُ الْحَرْبِ.

ولمّا كان ارْتِكابُ الذَّنْبِ وفِعْلُ الإثْمِ، ممَّا يَتَحَمَّلُ بِه الْإِنْسَانُ مَا يُشْبِهُ الْحِمْلَ الثقيلَ، أُطْلِقَ في اللُّغة لفظ «الوِزْرِ» عَلىٰ الذَّنْبِ الّذِي يَرْتَكِبُهُ المكلَّفُ المختارُ، المسؤولُ عن أعمالِهِ الإراديَّة.

وجمع الوِزْرِ الأَوْزَارِ، يُقالُ لغة: وَزَرَ يَزِرُ وِزْراً، وَوَزْراً، وزِرَةً، أي: حَمَلَ حِمْلاً ثَقِيلاً، أو ارْتَكَبَ ذَنْباً، فَهُوَ «وَازِرٌ» وَهِيَ «وَازِرَةٌ».

هذه القضيَّة دلَّتْ على أنَّ المسؤوليَّةَ عن الأوزار مسؤوليَّةٌ شَخْصِيَّة، وهٰذا هو ما يقتضيه الْعَدْل.

ونستطيع أن نعتبر هذه العبارة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ مادّة منْ موادِّ قانون الجزاء الرّبّاني.

**القضيَّةُ الثانية**: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللّهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾:

أي: وإنْ تَدْعُ نَفْسٌ تَحْمِلُ حِمْلاً ثَقِيلاً منْ أَوْزَارها الّتي اكْتَسَبتْهَا في الحياة الدّنيا، صَدِيقاً حَمِيماً، أو قريباً مُشْفِقاً، ليَحْمَلَ عنْها بَعْضَ أَوْزَارِها، ويُخَفّفُ عنْها بمُشَارَكَتِها أثامَها مقدار ما من العقوبَةِ الّتي يُبْدِي استعدَادَهُ لتحمُّلها عَنْها، فإنَّها لا تَجِدُ أَحداً يَسْتَجِيبُ لَهَا.

﴿مُثْقَلَةٌ﴾: أي: مُحَمَّلَةٌ حِمْلاً ثقيلاً مِنْ أَوْزَارِهَا الّتي اكْتَسَبَتْهَا.

إنّ كُلّ نفْسٍ كاسبةٍ أوزاراً، تَأْتِي يَوْمَ الدِّينِ إلى مَوْقف الحسابِ وفَصْلِ القضاء، حاملةً أوزارَها الّتي اكْتَسَبَتْها في رِحْلَة الحياة الدُّنيا، رحلة الابْتِلاء.

فَلَوْ بَدَا لها أَنْ تَدْعُوَ صَدِيقاً أوْ قَرِيباً، أَوْ مَنْ كانَ مُحِباً في الحياة الدّنْيا، إلىٰ أَنْ يَحْمِلَ عَنْهَا شيئاً منْ أوزارِها، إذا كانَ حِمْلُهُ من الذُّنُوب

أخفَّ منْ حِمْلِها، فإنَّهُ لا يَسْتَجيبُ لها، فَلَا يَحْمِلُ عَنْهَا شَيئاً مَهْمَا قَلَّ مِقْدَارُهُ.

يمْنَعُهُ من الاسْتِجَابَة لهٰذِهِ الدَّعْوَةَ أمْرَان:

**الأمْرُ الأوَّل:** أنَّ قانون الجزاء الرَّبَّانِي لا يَأْذَنُ لَهُ بِذَلِكَ، فَمُوافَقَتُهُ ـ لَوْ أنَّه وافَقَ ـ لا قيمة لها عند الله.

**الأمْرُ الثاني:** أنَّ كُلَّ مَدْعُوٍّ لِلْحِسَابِ وفَصْلِ القضاء، مُهْتَمٌّ يَوْمَئِذٍ بنَفْسِهِ، يَطْلُبُ النجاة، والفوزَ بالجَنَّةِ، ومَنَازِلها.

وقد جاءَ في البيانَاتِ القرآنيّة ما يَدُلُّ على هٰذَيْنِ الأَمْرَيْنِ دَلَالةً صَرِيحة:

• فقال اللَّهُ عزّ وجلَّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾.

• وقال الله عزّ وجلّ في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول):

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

عبارة ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾: أي: ولَوْ كَانَ المَدْعُوُّ للمشاركة في حَمْلِ شَيْءٍ من الأَوْزَارِ، ذَا قُرْبَى، كَأَخٍ، أَو أبٍ، أو ابْنٍ، أَوْ أُمٍّ، أَوْ نَحْوِهِمْ مِنْ الأَقْرَبِين.

وجاء استعمال حَرْف الشَّرْطِ «إنْ» في عبارة: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ إشارةً إلىٰ أنّ مِثْلَ هٰذِهِ الدَّعْوَةِ الميْؤوس من إجابتها لَا تَحْصُل، فَهيَ افتراضيَّة.

ونستطيع أن نعتبر هذه القضية مادة من موادّ قانون الجزاء الرَّباني.

**القضيَّة الثالثة**: دَلَّ عَلَيْها قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

بمناسَبَة الْإِلْمَاحِ إلى المكذِّبين المعَانِدين الْمِصرِّين على كُفْرهم، في القضيَّتَيْن الْأُولَىٰ والثانية، جاءَتْ هٰذِهِ الْقَضِيَّةُ مُشْتَمِلَةً على تَرْبِيَةِ الرَّسُولِ في موضوع دعْوتِه للّذين وَصلُوا في كُفْرِهِمْ إلى دركَةٍ مَيْؤُوسٍ من إصْلَاحِهِمْ معها، عن طريق إراداتِهم الحرَّة.

ويُلْحَقُ بالرَّسُولِ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ إلى النَّاس مِنْ أُمَّتِهِ.

**الإِنْذَارُ هُنَا**: هُو الْإِخْبارُ بما أَعَدَّ اللَّهُ للكافرين يوم الدِّينِ من عذابٍ أليم خالدٍ في نار جهنم، مع ما يُمْكِن أنْ يُعَاقِبَهُمْ بِهِ الله في الحيَاةِ الدُّنيا.

والحصْرُ في عبارة ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ خطاباً للرَّسول ﷺ يُرادُ به حَصْرُ فائِدَةِ الْإِنْذَارِ، وتَأْثِيرِهِ فِي الَّذِينَ يُوَجَّهُ لَهُم.

﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾: أيْ: يخافُونَ عِقَابَ رَبِّهِمْ خَوْفاً مصحوباً بتعظيم وإجلالٍ ومَهابَة.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: أي: حَالَةَ كَوْنِهِ محجوباً عن حواسّهم الظاهرة، مَسْتُوراً بالغيب، إِلَّا أَنَّهُ مَعْلُومُ الْوُجُودِ وبَعْضِ الصِّفَاتِ العظمى له، بالفكر وأدَوَاتِ الإِدْرَاكِ في العقل، وفي هذا إِلْمَاحُ إلى أنَّ تَأْسِيسَ الإيمان بالإقناع يجب أن يَكونَ قبل الترغيب والترهيب والإنذار.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: ودفعهم إيمانُهُمْ بِهِ إلى إقامة الصلاة لَهُ، ولَوْ من مُسْتَوىٰ أدْنَىٰ الْحُدُود المعبِّرَةِ عَنْ صَحَّةِ الإيمان بالرَّبِّ جلَّ جلالُهُ، وَلَوْ لم يَسْتَكْمِلُوا الإيمان بسَائِرِ ما يَجِبُ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ من أرْكانه.

فالمعنى: ولَا تَطْمَعْ في أنْ يَنْفَعَ إنْذَارُكَ الَّذي تُنْذِرَ به، مُخَوِّفاً مِنْ عذاب اللَّهِ ونِقْمَتِهِ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا برَبّهم إيماناً صَحِيحاً، وهُوَ غَيْبٌ عن

حَوَاسّهم الظاهرة، واثِقين بالأدِلَّة الْبُرْهَانِيَّة العقليَّة، فَهُمْ يَخْشَوْنَهُ بالغيب، وكانوا علىٰ صِلَةٍ بِهِ عَنْ طَرِيقِ إقامَةِ الصَّلاةَ بوَجْهٍ من الوجوه، وهٰذِه الصَّلَاةُ تُذَكِّرُهُمْ به وبِصفَاتِه الجليلة، ومنها علْمُهُ وحكمتُه وعَدْلُه.

ويتضمَّنُ هٰذا التوجيه للرَّسُول ثُم لكُلّ حاملٍ لرِسَالته من أمَّتِه، إشعارَ المشركين المعانِدِينَ الْمَقْصُودِين الأوَّلِينَ بالْبَيَان في السُّورَة، بأنَّهم غَيْرَ مُؤْمِنِينَ بربِّهم إيماناً صحيحاً، ومن أجل هذا فإنّ الإنْذَارَ بعقابه لا يُؤَثِّرُ فيهم، ويَنْبَغِي معالجتُهُمْ بأدِلَّةِ الإيمان قَبْلَ الإنْذَارِ.

**القضيَّة الرابعة**: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾:

﴿تَزَكَّىٰ﴾: أي: تَطَهَّرَ منْ رِجْس المعاصي والآثام، بطاعَةِ الله والْتِزَامِ صِرَاطِهِ المستقيم، وبالإيمان الصحيح الخالي من الشرك، وبالعمل الصالح.

وفي التعبير بالتَّزَكّي هُنا إشارة إلىٰ أنَّ حامل الأوزار مُتَدَنّس بأرْجاس أوْزاره.

ودَلَّتْ هٰذه القضيَّة علىٰ أنّ مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالحاً، كَانَ هو المستفيد وَحْدَهُ مِنْ تَزْكِيَتِهِ لِنَفْسِهِ، لا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ في ذلك.

ونستطيع أن نعتبر هٰذه القضيّة مادّةٌ من موادّ قانون الجزاء الرّبّاني.

**القضيّة الخامسة**: دَلَّ عَلَيْها قولُ الله عزّ وجل: ﴿... وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ أي: وإلى الله نِهَايَاتُ الأمُورِ كُلّهَا، ومِنْهَا مَصِيرُ الموضوعين في الحيَاة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الابتلاء، إذْ يَنْتَهُونَ إلَى حِسَابِ اللّهِ يَوْمَ الدِّين، وفَصْلِ قضائِه، وتَنْفِيذ جزائه.

**الْمَصير**: هو ما يَنْتَهِي إلَيْهِ الأَمْرُ، ومنه مَصِيرُ المياه، وهو آخر مَكانٍ لتَجَمُّعِها بَعْدَ جَرْيِهَا في المنْحَدَرَاتِ إلى الأخفض فالأَخْفض.

ولفظ «المصير» يصْلُح اسْمَ مكان، واسم زَمَانٍ، ومَصْدراً مِيمياً، وهذه المعاني كلُّها صالحةٌ هنا.

وعبارة: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ كنايةٌ عن مادَّة من موادّ قانون الجزاء الرّبّانيّ، مُفَادُها: والجزاءُ الأَمْثَلُ يكونُ يَوْمَ الدين بَعْدَ بَعْثِ الموتَىٰ إلى الحياة مرَّةً أُخْرىٰ، إذْ يَكونُ مَصِيرُ حِسَابِهم، وفَصْلِ القضاء بَيْنَهُمْ، وتَنْفِيذِ الجزاء، إلى الله وَحْدَهُ لا شريك له.

## بيان الترابط الفكري بين الفقرات:

(١) في إعلام الكافرين منكري رحمة الله بفقرهم الدائم إلى الله الغنيّ الحميد، الذي يَحْمَد المؤمِنينَ الّذين يَعْبُدُونَه لَا يَشْرِكُون بعبادته شيئاً، فيَجْزيهم من فَضْله على صالحات أعمالهم جزاءً حسناً يُرْضيهم، في هذا الإعلام حثٌّ وتَحْرِيضٌ ضِمْنيّ للكافرين على أنْ يَلْتَمِسُوا مِنَ الله رَبِّهم مطالِبَهم مُخْلصِينَ في دُعائهم له، لِتُثْبِتَ لَهُم التَّجْرِبَةُ أنّ اللَّهَ يَسْتَجِيبُ دُعَائَهُمْ، بُرْهاناً على أنَّهُ هو الرَّبَّ الّذي لا إلٰه إلّا هو.

(٢) وفي إعلامهم بأنّ الله إنْ يَشَأْ يُهْلِكْهُم بِذُنُوبهم ويأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيد يكُونون خلفاً لهم، تهديدٌ لهم بإهلاكهم جَميعاً إهلاكاً عاماً شاملاً، إذا اسْتَمَرُّوا على كُفْرِهم ومعانَدَتهم الحقّ، ومعاداتهم رسُول رَبّهم، واضطهادهم للّذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه.

وهٰذا الإعلامُ المشْتَمِلُ على هٰذَيْن الأمْرَيْنِ يَسْتَدْعي بيان موادّ تتعلَّقُ بقانُون الجزاء الرَّبَّانيّ، على ما يكسبُهُ الممتحنون المكلّفُون بإراداتهم الحرَّة، من كُفْرٍ وشرٍّ وإثم وسيّئات، أو إيمانٍ وخَيْرٍ وطاعةٍ وقُرُبات.

فجاء البيانُ القرآني دَالاً على أنّ المسؤولية والحسابَ والجزاءَ كُلَّها فَرْدِيَّةٌ شخصيَّة.

• فَمُكْتَسِبُ الوِزْرِ وحاملُه هو وحْدَهُ الَّذِي يتحمَّل عقُوبَةَ وِزْرِه يوم الدّين، لا يُشاركُه غَيْرُهُ فيه.

• وكاسِبُ العمل الصّالح إنّما يَكْسِبُه لمصْلَحة نَفْسِه، لا يشاركُهُ فيه أحد.

وهذا من البيان التفصيليّ في الْقُرآنِ المجيد.

واستدعى الإلْماحُ إلى أنّ كُبَراء مشركي مكّة، قد وصلوا في كُفْرِهم إلى دَرَكةٍ مَيْؤُوسٍ من إصلاحهم معها عن طريق إراداتهم الحرَّة، وذلك إبَّان تنزيل السورة، أنْ يُوجِّه الله عزّ وجلّ في الأثناء تَربيةً للرَّسُول بأنَّ إنْذَارَه النافِعَ المؤثِّرَ فيمن يُوجّهه لهم، مقصورٌ عليّ الّذين يَخْشَوْن رَبّهم بالغيب، وأثَّرَتْ فيهم هٰذه الخشية فصَلَّوْا له.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

**تمهيد:**

إنّ بيان موادَّ مُهمَّةٍ مِنْ قانون الجزاء الرَّبَّاني في الآية (١٨) يسْتَدْعي

بيانَ أنّ هٰذا القانون الرَّبَّانيَّ الجزائي القائم على العدل، لا على التسوية بين المتفاضلين في الدرجات، أو المتفاوتين في الدركات، مُتَّسِقٌ مع الأصول العقليّة المنطقية، الّتي تَنْطَبِقُ على كلّ المتناقضاتِ والمتضادّاتِ والمتفاضِلَاتِ والمتفاوتات، في المادّيات والمعنويّات، والّتي يُدْرِكُها كُلُّ ذي فكْرٍ يَتأمَّل في الظاهرات الكونيّة، وفي نظائِرها من الأمور المعنويَّة.

إنّه لَيْسَ من الحكمة بحالٍ من الأحْوال التَّسْوِيَةُ في الجزاءِ بَيْنَ من كفر وعصَىٰ وتمرَّدَ على بارئه، وآخَر آمن وأطاعَ وأذْعَنَ لَهُ مُسْلِماً مُسْتَسْلِماً.

ونظير هذا في الظاهرات الكونية الأعمى والبصير، فهل يَصِحُّ عقلاً بالنّسْبَةِ إلى المرئيات البصريّة أنْ نُسَوّي بين الأعمىٰ الّذي لَا يَرَىٰ المشهوداتِ الْبَصَرِيّة، وبين البصير الذي يراها بعَيْنَيْنِ سليمتين.

وكذلك سائر المتضادات الّتي يقومُ تضادُّها على الوجود والعدَم، سواءٌ أكان ذلك في وُجُودٍ وعَدَم كلّيَّيْن، أم في وجودٍ وعَدَمٍ نِسْبِيَّيْنِ كالظُّلُمات، إذْ هي متفاضلاتُ النِّسَب فيما بيْنَها، بالنَّظَرِ إلى مَا في كُلٍّ منْها من مقاديرَ من أنْوارٍ مختلطةٍ بها، وكالأنوار المختلفة، إذْ هي متفاضلاتُ النّسَب فيما بيْنَها شِدَّةً وضَعْفاً.

وكذلك الظُّلْمَةُ الّتي لم يخالطها شيءٌ من النور، بالقياس على الأنوار المتفاضِلَات حتّى النور الأعظم.

فهل يَصِحُّ عقلاً التَّسْوِيَة بين المتضادّات من كُلّ ذلك، أو التسوِيَةُ بيْنَ المختلفات؟!!

وهل يصحُّ عقلاً التّسْوِيَةُ بين المتفاضلاتِ والمتفاوتات من الظّل، أو من الحرُور (وهو حرارة الشمس المباشرة للشيء) أو بين قِسْمَيِ الظّلّ والْحرُور؟!!

وهل يَصِحُّ عقلاً التسويةُ بين المتفاضلات من الأحياء، أو بَيْنَ المتفاضِلاتِ من الأموات؟!!

إنّ الأحياء تبدأ من أدْنَىٰ المراتب في الحياة حتَّىٰ الإنسان، وأفرادُ الإنسان الحيّ متفاضلو الدَّرجات تفاضلاً كثيراً، بتفاضل الصفات فيما بينَهُمْ.

وإنَّ الأمْوَات ينطبق عليهم واقع التفاضل، فمن الميّتات حقيرات سامّات، ومنها طيّباتٌ نَافعات، كالأسماك.

ومن أموات الناس خُبَثاء تُعَذَّبُ نفوسُهم، ومنْهُم أطهارٌ منعَّمونَ عنْدَ رَبّ العالمين.

إنّ سُنَّة الخالق في الوجود قائمةٌ غالباً على قانون التفاضل، وقانُونُ التفاضل يُلائمه الحكْمُ بالعدل، وهو إعطاءُ كلّ ذي حقٍّ حقّه، ومن الظُّلْم التَّسْوِيَة بَيْنَ المتفاضلات والمتفاضلين، ولا تَصِحُّ التّسويةُ في الحكْمِ إلَّا في حالَةِ التَّساوي في الواقع بين الشيئَيْن أو الأشياء.

هٰذه الحقائق جاء بيانُها في الآيات: (١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢) من هذا الدرس دليلاً على حِكْمَة الله في إقامة العدل بَيْنَ الناس الموضوعين في الحياة الدّنيا موضع الابتلاء.

فالذّين كَفَرُوا لهم عذابٌ شَدِيدٌ يُلائم ما لَدىٰ كلٍّ منْهم من مكتسباتٍ إراديّة.

والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات لَهُم مع المغفرة أجْرٌ كبيرٌ يُلائم ما قدَّم كُلُّ فَرْدٍ منْهُمْ من إيمانٍ وعَمَلٍ صالح.

وإنَّ تَرْبيةَ اللَّهِ لرسُولِهِ في الآية (١٨) اسْتَدْعَتْ ضمن أُسْلوب المراوحة مُتابعة تَرْبِيَتِهِ في الآيات: (٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦)، من هذا الدَّرْس، كما سيأتي في التَّدَبُّر إن شاء الله.

**التدبّر:**

• قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩﴾:

**الأَعْمَىٰ**: هو الّذي لا يَرَىٰ شيئاً بِبَصَرِهِ، ومعلومٌ أنَّ الْعَمَىٰ الكُلّي لا يُتَصَوّر معه التفاضل.

**البصير**: هو سَليم الرُّؤية، الّذي يَرَىٰ الأشياء بأداة الإبْصارِ لَدَيه.

وقد جاء نفْيُ التساوي بين الأعمىٰ والبصير، بمثابة شاهدٍ على أنَّه لا تَصِحُّ التسويَةُ بين الجاهل الّذي ساقه الجهلُ إلى الكُفر، وبيْنَ العالم الّذي هَدَاهُ عِلْمُهُ إلَىٰ الإيمان.

فالجاهل كالأعمىٰ، والعالم كالبصير.

• قول الله تعالى: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠﴾:

أي: وَلَا تَسْتَوي أفرادُ الظُّلُمَات، لأنّ الظلمات متفاوتات فيما بينها في مقادير ظلماتها، ولا تَسْتَوي أفرادُ النّور للتفاضُل المشهود فيما بينها في المصابيح الكهربائيّة وغيرها.

وجاء هذا بمثابة شاهد على أنّه لا يَصِحُّ التسويةُ بيْنَ الكافر الضّالّ في الظلُمات، والمؤمن الذي يَسِيرُ في النور مَهْدِيّاً.

وقد جاء في هذه العبارة تكرير حَرْفِ النَّفْي «لَا» إشارة إلىٰ التّفاضل والتفاوت بين أفراد الظلمات وأفراد النور.

فالظلمات ذواتُ مقادير من الظلمة متفاوتات، والأنوار ذوات مقادير من النور متفاضلات.

ويضاف إلى ذلك التضادّ بين عموم الظلمات وعُموم النُّور.

• قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١﴾:

أي: ولَا تَسْتَوِي أفْرادُ الأشياء ذواتِ الظلّ، ولا تستوي أفرادُ الأشياء ذواتِ الحرُور.

**الظلّ**: هو ما يبقَىٰ من انكشاف في المرئيّ بعْدَ ستْر أشعَّة الشَّمْسِ عنْه بساترٍ ما، وهو يختلف بحَسَبِ اختلافِ كثافة السَّاتر.

**الْحَرُور**: هو حَرَارَةُ أشِعَّةِ الشمسَ المباشرة للشَّيْءِ، وأفراد الْحَرُور مختلفة في درجات حَرَارَتِها، بحَسَب اختلافِ الْفُصُول من السَّنة، وبحَسَب اختلاف الأقاليم والمواقع من الأرض، والقرب والبُعْدِ عن تساقط أشعة الشمس.

وجاء في هذه العبارة أيضاً تكرير حرف النفي «لا» إشارةً إلى التفاوت بَيْنَ أفراد الأشياء ذواتِ الظلّ، وأفْرادِ الأشياء ذواتِ الحرور.

ويلاحظ أن الظلّ قبْل طلوع الشمس ظِلٌّ بارد، وهو في الظهيرة حارّ، وهو في البلاد الباردة شديدُ البرودة.

وكذلك الحَرُور مختلف النّسب باختلاف الأزمنة والأمكنة.

يضاف إلى ذلك التضادّ بين عُمُوم الظلّ وعموم الْحرُور.

● قول الله عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾:

أي: وَمَا يَسْتَوِي أنْوَاعُ الأحياء، ولا أفرادُ الأحياء من نوع واحد، فَلِلْأَحياء سُلَّمٌ يَبْدَأُ من أدْناها ذواتِ الخليَّة الواحدة، وفوْقَهُ دَرجاتٌ متفاضلاتٌ، حتىٰ الإنسان الّذي خلقه الله في أحْسَن تقويم.

وأفراد الناس مُتَفَاضِلُونَ في صفاتهم الجسَدِيَّةِ والنَّفسيَّة.

وما يستوي أنواع الأموات، ولا أفراد الأموات من نوع واحد، وقد سبق بيانُ هٰذِه الحقيقة، فلا يصِحُّ الحكمُ بالتساوي بين المتفاضلات منها.

وقد جاء بيَانُ عدم التساوي هذا بمثابة شاهدٍ على أنّه لا يَصِحُّ

التسويةُ بيْنَ المؤمِنِ الّذي يُشْبِه الحيَّ، لأنَّهُ حيُّ الفِكْرِ والقلْب والوِجْدانِ بالإيمان، وبَيْنَ الكافِرِ الّذي يُشْبه الميّت، لأنَّهُ مَحْرُومٌ بكُفْره من نَعْمة التفكير بما وراء الظواهر، ومن سعادَة القلْبِ وتَحَرُّكِ الوجْدَانِ بالخيْر والعواطف النبيلة.

والقرائنُ تدُلُّ على أنّ هٰذِه الْعبارة تحمل دلالَتَيْن معاً حقيقيَّةً ومجازيةً، والمجازية هي دلالتها على المؤمنين والكافرين.

وجاء في هٰذه العبارة أيضاً تكريرُ حرف النفي «لا» إشارة إلى التفاوُتِ بَيْنَ أفراد الأحياء، وبَيْنَ أفراد الأموات.

فالأحياءُ بالإيمان والْعمَل الصَّالح متفاضِلُون فيما بَيْنَهم، بِنِسْبَةِ ما لدى كُلٍّ منهم من إيمانٍ وعَمَلٍ صالح.

والأمواتُ بالكُفْرِ وانطماسِ البصيرَة عن رُؤية الحقِّ، واستماع كَلمة الحقّ والْهُدى، متفاوتون فيما بينهم، بِنِسْبةِ ما لدى كُلٍّ منهم من كفر وأعمال سيِّئَةٍ وقبيحة.

وإطلاق الأحياء على الأحياء بالإيمان والعمل الصالح، وإطلاق الأموات على مَوْتى الْقُلُوب بالكفر والمعاصي وارتكاب كبائر الإثم، إطلاقٌ هو من قبيل المجاز، وهذا المجاز أساسه استعارةُ لفظ «الحياة» أو مشتقاته وإطلاقُه على الإيمان الذي ينتج عنه العمل الصالح، ويَنْتِجُ عنه الإصلاح، واستعارة لفظ «الموت» أو مشتقاته وإطلاقه على الكُفْر الّذي يَنْتُجُ عنْهُ الْعَمَلُ الْفاسِدُ السّيِّءُ، ويَنْتُجُ عنه الإفساد.

• قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٖ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾:

بمناسبة قول الله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ﴾ ودَلالَتِهِ المجازيّة على المؤمنين والكافرين، كان من الحكمة

التربوية عند المناسبة الملائمة أن يُوجّه الله لرسوله بشأن الذين وصَلَتْ حالَةُ نفوسهم إلى دركة الموت المجازيّ، بالكُفْر الذي يَطْمِسُ البصيرة، فيَجْعَلُها لَا تُبْصر آيات الله في كونه، ولَا تَسْمَع البيانات الدّاعيات إلى الحقّ والْهُدَى، مهما اتَّخَذَ الدّاعي لإسماعِها من وسائل وأسباب، ما يلي:

إنَّ مَنْ وصَلَتْ حالَةُ نُفُوسِهِمْ إلى مثل حالة منْ في الْقُبور، فإنَّهُ لا فائدة من تكْرِيرِ الاشتغال بدعْوَتهم، وإضاعَةِ الأوقات في معالجاتهم، بُغْيَة إصلاحهم عن طريق إراداتهم الحرّة.

فالدَّاعي إلى الله ليْسَ أكْثَر من مُبَلّغ، يُبَلّغ ما أمَرَهُ اللَّهُ بتَبْلِيغه لِذَوِي الإراداتِ الحرّة. الّذين أعطاهم الله إراداتهم الحرّة المختارة ليبْلُوهم فيما آتاهم، وليْسَ الداعي إلى الله مُجْبِراً وَلَا مُحَوِّلاً بالإكراه.

أمّا القادر على الْجَبْرِ، بتغيير طبائع النفوس، فهو الرَّبّ الخالق جَلَّ جَلالُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾ بتَغْيِير طبيعةِ تكوينِه، وجَعْلِه مَجْبُوراً لا مختاراً.

لكنه ـ جلّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلطانه ـ لا يجْعَلُ عبادَهُ مَجبورين، بعْد أنْ تمّتْ مشيئتُه بأنْ يجْعَلَهُمْ مُخيّرين، ليمتَحِنَهم بالتكاليف الّتي يَجِبُ عَلَيْهم أنْ يَلْتَزِمُوا بها من خلال اختيارهِمْ الحرّ، لا مِنْ خلالِ الجبْرِ الّذِي تُجْبَلُ عليه طبائع نفوسهم، فهم لا يملكونَ القدْرَة على الخروجِ عن نظامها.

هٰذا البيان الذي عرضْتُه عَرضاً تَحْليلياً مُطوَّلاً، قَدْ جاء التعبير عنه في الآية (٢٢) بعبارة وجيزةٍ بديعة، خطاباً من الله لرسوله، فلكُلّ داعٍ إلى الله من أمّته بأُسْلوب الخطاب الإفرادي فقالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾. عقِبَ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾.

أي: فَمَنْ وصَل إلى حالةٍ تُشبهُ حالَةَ الميِّتِ المقبورِ، الَّذِي صارَ ميؤوساً من إسْماعِه بياناتِ الدَّعْوَةِ إلى الله إسْماعاً مؤثراً في نَفْسِه، فَلَا تَطْمَعْ بإسْمَاعه، واشتغل بدَعْوَةِ من لم يَصِلُوا إلى حالةٍ ميؤوس منها، لأنَّك لا تَسْتَطِيعُ أنْ تُوصِلَ الإسْمَاع إلى مراكز الإدْراكِ فيهم بالجبْرِ، وقَدْ جَعَلَهُمْ اللَّهُ ذوي إراداتٍ حُرَّاتٍ مختاراتٍ بأصلِ تكوينِهِم الفِطْرِيّ، وقد وصَلُوا باختياراتهم الحرَّة إلى دَرَكَةِ المقبُورين، بَعْدَ مَوْتِ كيانَاتِهم الداخِلِيَّةِ بالكُفْر بالحقّ.

إنّ الذي يسْتَطيع إيصالَ الإسْمَاعِ إلى مراكز الإدْراكِ بالْجَبْرِ هو الله القادر على تَحْوِيلِ طبائع النفوس وتغييرها، وجَعْلِها مجْبُورَةً غَيْرَ مختارة، لكِنَّ الله ـ جلّ جلالُهُ وَعظُمَ سُلْطانُه ـ ليْسَ من حكمته أن يشَاءَ لعباده الممتَحَنين المخيّرين ليَكْشِفَ أيُّهُمْ أَحْسَنُ عَملاً، فيجعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ، إذ المجبورُ لا اختيارَ لَهُ، فلا يُوضَعُ مَوْضِعَ الامتحان، ولو كان كذلِكَ لم يَكُنْ مَسُوقاً يَوْمَ الدِّينِ لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، وهٰذا نَقْضٌ لأصْلِ حكْمةِ وَضْعِ العبادِ المكلّفين موضع الامتحان، ومعلومٌ أنّ مشيئات الله لا تتناقض.

• قول الله تعالى خطاباً لرسوله: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾:

بعد الإشعار بأنّ المعنيّين الأولين بالمعالجة في السورة، وهم كبراء مشركي مكّة إبّان التنزيل، قد وصَلُوا إلى حالةٍ ميؤوسٍ منْها، فهم كالموتىٰ المقبورين، أبان الله لرَسُولِهِ أنَّ وَظيفتَهُ الأخيرة، بالنِّسْبَةِ إليهم مقْصُورَةٌ على إنْذارهم بعذاب الله وعقابه ونقمَتِه يَوْمَ الدّين، مع ما قَدْ يُنْزِلُ بِهِمْ من عذابٍ مُعَجّل.

أي: ما أَنْتَ بالنِّسْبَةِ إلىٰ هؤلاءِ إلَّا نَذِير، أي: مُنْذِرٌ تُوجِّه لَهُمُ الإنْذَارَ بعذاب الله.

«إنْ» حَرْفُ نفي بمعنى «ما» والقَصْرُ هُنَا قَصْرٌ إضافيٌّ، أي: بالإضافَةِ إليهم.

• قول الله تعالى خطاباً لرسوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ...﴾:

أي: لكِنَّكَ يَا مُحَمَّد بوجْهٍ عَامّ، لا بخُصُوصِ الميؤوس منهم، قَدْ أَرْسَلْناكَ حاملاً عدّة وظائف.

**الوظيفة الأولى**: دلَّ عليها: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾: أي: إنَّا حَمَّلْنَاكَ رِسَالَةَ تَبْلِيغِ الحقِّ الدّيني للناس، فأنْتَ حامل رسالَةِ حقٍّ من رَبّك رَبّ السّماواتِ والأرض وربّ كُلِّ شيْءٍ، ومُكَلَّفٌ أن تُبلّغ رِسالَته، بكُلِّ وَسِيلَةٍ طيّبةٍ تُتَاحُ لَكَ، وتَسْتَطِيعُ الْقِيامَ بها.

والتبليغ التّامّ يَسْتَدْعِي الْبَيَان والشَّرْحَ والإقناعَ، والمتابَعةَ بالتذكير، والمجادلة بالتي هي أحسن.

وجاء في العبارة استعمال ضمير المتكلم العظيم، للدَّلَالَةِ على ارتفاع منزلة هٰذِهِ الرّسالة وعظَمَتها، وللدلَالَةِ على عِظَمِ المسؤوليّة التي اصطفاه الله للاضطلاع بأعبائها الجليلة.

**الوظيفة الثانية**: دلّ عليها: ﴿بَشِيرًا﴾: أي: مُبَشّراً برِضوان اللّهِ وجنّتِه، الّذِين يَسْتجيبون لدَعْوةِ الحقّ، ويتّبِعُون مَا أُنْزِلَ إلَيْهِم منْ ربِّهم.

**الوظيفة الثالثة**: دل عليها: ﴿وَنَذِيرًا﴾: أي: ومُنْذِراً بسَخَطِ الله ونِقْمَتِهِ وعذابه الأليم الخالد، الّذين لا يسْتَجِيبُونَ لدَعْوةِ الحقّ الرَّبّانيّة، ويَعْصُون مُعْرِضين، أو مُدْبِرين ومُوَلّين.

وهاتان الوظيفتان «الثانية والثالِثَة» قَدْ جاءتا تَفْصيلاً للموعظة الحسَنَةِ، إذْ هي: النُّصْحُ بالفِعْلِ أوْ بالتَّرْك المقْرُون بما يُثِيرُ الرَّغْبَةَ أو الرَّهْبَة في النفس للانتفاع بالنُّصْح.

• قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾:

أي: وَمَا مِنْ أُمَّةٍ مَضَت في تاريخ الناس إلَّا مَضَىٰ نَذِيرٌ كان فيها، بلّغَهَا ما أرْسَلَهُ الله لِيُبلِّغَهُ إليها، وبشَّرَها برضوان الله وجنَّتِه، إذا استجابَتْ لِدَعْوَةِ رَبِّها وأطاعت، وأنْذرَهَا بسَخَط الله وَنِقْمَتِهِ وعذابه، إذا أبَتْ وعانَدَتْ ولم تَسْتَجِبْ لدَعْوَةِ رَبّها في بَلاغاتِ رسُوله.

لكِنَّ معْظَمَ هذه الأمم لم تستجب لدَعْوَةِ رَبّها في بَلاغاتِ رُسُله، فكانَتِ الوظيفَةُ الأخيرَةُ من وظائِفهم في أُمَمِهِمْ، أنَّ كُلَّ واحِدٍ منهم كان في أُمَّتِهِ مُنْذِراً لَهُمْ بالإهْلاك الشامل لِلَّذِينَ كَفَرُوا وعَانَدُوا، وآذَوْا رَسُولَهُمْ، واضْطَهَدُوا الّذين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ.

وقد تحقّق في الواقع ما أنْذَرُوهُم به فَأخَذَهُمُ الله بعَذَابٍ شاملٍ مُهْلِكٍ مُدَمِّر، ومن أمثلة ذلك ما حصل لعَادٍ وثمود وأهل مدين، وفرعون وآله وجنودهم.

فكُلُّ أُمَّةٍ أُهْلِكت إهلاكاً عامّاً شاملاً مَقْروناً بتَعْذِيبٍ لها في تاريخ الناس، قدْ كان لدَيْها رَسُولٌ مُرْسَلٌ إليها من رَبّها، وفي آخِرِ آمْرِه مَعَها أنْذَرَها بعقاب الله وعذابه وإهلاكه الشامل لكفَّارِها.

﴿إنْ﴾ حرفِ نفي بمعنى: «ما».

﴿مِنْ﴾ حَرْفُ جَرٍ جيء به زائداً، وداخلاً على المبتدأ، لتأكيد عُمُوم النفْي والتَّنصِيص عليه.

﴿خَلَا﴾: أي: مضَىٰ.

• قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

**تمهيد:**

سبق في الآية (٤) من هٰذه السّورة قولُ الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾.

ويتساءل المتفكّر قائلاً: ما الدّاعي لإعادة هذه القضية في السّورة نفسها؟!

**أقول:** بالتأمُّل في النَّصّين يَكْتَشِفُ المتدبّر، أنّ الآية (٤) جاءت لتربية الرَّسُول ﷺ بشأن تَكْذِيب كبراء قومه له، وهذه التربية تَعْتَمدُ على بيان أنّ رُسُلاً كثيرين سابقين قد كُذِّبُوا من قِبَلِ الْأُمَم الّتي أُرْسلوا إليها، فتَعَرُّض خاتَمِ المرسَلِينَ للتَّكْذِيب لَيْسَ بِدْعاً في الرُّسُل، وعليه أنْ يَصْبِر مثْلَمَا صَبَرُوا، وأن يتحمَّلَ الأذى مثْلما تحمَّلُوا، متأسِّياً بأُولي العزْمِ منهم، وعليه أن يتَوَكَّلَ على ربّه في أمُورِهِ كُلِّها، وأنْ يُفوّضَ كُلَّ أمْرِهِ إليه، كما فَعَلَ الرُّسُلُ من قَبْلِهِ، مُوقِناً بأنّ إلَىٰ اللَّهِ وَحْدَهُ تُرْجَعُ الْأُمُورِ كُلّها.

أي: وبما أَنَّ الأمْرَ كذَلِكَ فإنَّ رَبَّكَ الَّذِي أَرْسَلَكَ لَنْ يُضَيِّعَكَ، وهو مَعَك دواماً.

أمّا الآيتان (٢٥ و٢٦) فقد جيءَ بِهِما لتَهْدِيد مُكَذِّبي الرَّسُول ﷺ، من الَّذِين بلّغَهُمْ رسالة رَبّه، وَوَصَلُوا إلَىٰ حالة ميؤوس من إصلاحهم معها عن طريق إراداتهم الحرَّة.

ولهذا جاء فيهما بعضُ تفصيلٍ لتَكْذِيبهم، وبيانٌ لمعاقبتهم بالإهلاك الشامل، حينما أَمْسَت حالَتُهُمْ حالَةً مَيْؤُوساً منها.

ويُسْتَفَادُ من بيان هٰذه الحقيقةِ التاريخيّة، الّتي سلَفَتْ في تاريخ الناس، مع مُلاحظة أنَّ سُنَّة الله في عباده واحدة، أنَّ مُكَذِّبي الرَّسُولِ محمد ﷺ من قَوْمه، يُعَرِّضُونَ أنْفُسَهُم لمعاقَبَةِ الله لهم بالإهلاك الشامل،

متىٰ وَصَلُوا إلى مِثْلِ ما وَصَلَ إليه مُكَذِّبو الرُّسُل من قبلهم، فَلْيَأْخُذُوا حِذَرَهم إنْ كانُوا عُقَلَاء، ولْيَسْتَجِيبُوا لدَعْوَةِ رَسُولِ ربّهم، فالله عزّ وجلّ لهم بالمرصاد، إذْ إنَّ كُفَّارَ سُكّانِ مَكَّة إبَّانَ التَّنْزِيل لَيْسُوا أكْرَمَ عنْدَ الله من الّذين سلَفُوا من كُفَّار الأمم السّابقة، الّذين أهلَكَهُمُ الله بكُفْرهم وتماديهم في العِنَادِ والْغَيّ ومعاداةِ الرَّسُولِ ومقاوَمَةِ دَعْوَته.

وفي هذا البيان غايَةُ التَّهديد والإنذار، لكِنَّ واقع حال معظم مشركي مكّة إبّانَ التنزيل لم يَصلْ بوجْهٍ عامٍّ إلى مثل ما وصَلَ إليه الَّذين أهْلَكَهُم الله من كُفَّارِ الْقَرونِ السَّابقة، قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شُعيب، وإخوان لُوط، وآلِ فِرْعَون، بِدَليل أنَّ الله ـ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ ـ لم يُنزِلْ بهم إهلاكاً عامّاً، وإنّما اقتضَتْ حكْمَتُهُ أن يُهْلِك بَعْضَهُمْ إهلاكاً إفرادياً، وأنْ يَنْصُرَ رسُولَه والَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه في مَعارِك القتال، على الّذين تَجَمَّعُوا لحَرْبِهِمْ ومُقَاتَلَتِهِمْ.

ولا يفوتني أن أُنبّهَ على أنَّ هٰذا الإجراءَ في النَّصَّيْنِ، هو من البيان التَّفْصِيليِّ في القرآن، الّذي هو أحَدُ سِمَاتِ القُرْآن المجيد، إذْ يأتي فيه التّعبيرُ عن كلّ قضيَّةٍ جُزْئِيَّة يَعْتَنِي البيانُ الْقُرآنيُّ بإبْرازها بعبارة خاصَّةٍ منْفَصلة، مَعَ ما فيه منْ عباراتٍ كُلّيَّةٍ هِيَ من جوامع الْكَلِم.

وقد دَلَّ على التفصيل في القرآن المجيد عدَّة نُصُوصٍ فيه، ومنها آخر آيَةٍ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) فقد قال الله عزّ وجلّ فيها بشَأْنِ الْقُرآن:

﴿... مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

**التدبُّر:**

قول الله تعالى:

- ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ... ﴿٢٥﴾﴾.

أقول في استعمال «إنْ» الشرطيّة هنا نظير الذي سبَقَ بيانُه لدى تدبّر الآية (٤) من السورة، وهي الدرس الثالث من دروسها.

أي: وإنْ يكُنْ من قومك يا محمَّد تكذِيبٌ لَكَ فيما أخْبَرْتَهُم به، من أَنَّكَ نَبِيّ الله ورسولُه، تُبلّغُهم عن الله ما أمَرَكَ الله بتبليغه، فقد سَلَف في تاريخ النّاس، أنَّ الأقوامَ الّذين مَرُّوا برحلة ابتلائهم من قبلهم، قَدْ كَذَّبُوا مُعَانِدِينَ رُسُلَ رَبّهم، كما كَذَّبَ هٰؤلاء.

إنَّ طبائع النّاس متشابهة، وهم يسْتَعْمِلونَ إراداتهم الحرَّة فيما يُرْضُون به أهواءَهم، وشهواتِهم ولذَّاتِهِمْ من زينةِ الحياة الدُّنْيا العاجلة الضئيلة الفانية، ويُؤْثِرُونها على النَّعِيم الخالِدِ العظيم، فكلّما جاءهُم الحقُّ الّذي يُخَالِفُ أهْوَاءَهم وشَهُواتِهِم ولذاتِهم العاجلات، وما يَحْرِصُونَ على الاستمتاع بِه من زينَةِ الحياة الدُّنيا، كذَّبوا به، وكذّبُوا من يُبَلّغُهُمْ إيَّاه، ولَوْ كان رَسُولَ رَبِّهم المؤيَّدَ منَ الله بالآياتِ البيِّنَات، والمعجزات الباهرات، والبراهين الدَّامِغات.

قول الله تعالى:

• ﴿... جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: إنَّهم كذَّبوا الرُّسُلَ، معَ أنَّ رُسُل رَبِّهم قَدْ جَاءُوهم بما يَكْفِي لإقناعهم بأنّ ما دَعَوْهُمْ إلَيْهِ هو الحقُّ من رَبّهم، الَّذِي لا شَكَّ فيه، ولاَ رَيْبَ يَخْدِشُه.

• ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: أي: بالْوَاضِحاتِ الجَليَّات، واللّفظ هنا صِفَةٌ لموصوفٍ محذُوف أغْنَى ذكْرُ صِفتِه عنْ ذكره.

فما هو الموصوفُ المحذوف هُنا؟

**أقول**: الظاهر أنّ المُرَادَ الآياتُ المعجزاتُ، وخوارقُ العادات، الّتي

كانت بمثابَة شهاداتٍ من الله عزَّ وجلَّ، على صِدْقِ الرّسُلِ المبلّغينَ عنه ما أمَرَهم بتبْلِيغه لأقوامهم.

• ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾: الأصْلُ في الْعَطْف أنّه يقتضي التّغاير، فدَلَتْ هٰذه العبارَةُ على أنّ بَعْضَ الرُّسُل أتاهم الله عزَّ وجلَّ زُبُراً، وأنّ بَعْضُهم آتاهم الله كتاباً منيراً.

والْجَمْعُ في لفظ «الزُّبُر» دون لفظ «الكِتَابِ المنير» يُشْعِرُ بأنّ أكْثَرَ الرُّسُلِ كانَ يُنْزِلُ اللَّهُ على الواحِدِ منهم «زَبُوراً».

وأنّ الأقَلَّ من الرُّسل كان يُنْزِلُ الله عَلَيْهِ «كِتاباً مُنِيراً» مثل التوراة، والإنجيل، والقرآن المجيد.

«الزُّبُر»: جَمْع «الزَّبُور» وهو الكِتَابُ المزبُور، يقال لُغَةً: زَبَرَ الكتابَ، أيْ: كَتَبه، أو اتْقَنَ كتابته، فَهُوَ مَزْبُورٌ، وزَبُور.

وأطْلِقَ لَفْظُ «الزَّبُور» وجمعه «الزُّبُر» على البياناتِ اللَّفْظِية المنزّلة من عنْدِ اللَّهِ على رَسُولٍ من رُسله، إلَّا أنها لم تَبْلُغْ أنْ تكونَ كتاباً منيراً، حافلاً بالشّرائع والأحكام والبراهين، كالتوراة والإنجيل والقرآن المجيد.

ومن الزُّبُر صُحُفُ إبراهيم عليه السلام، وزَبُورُ داود عليه السلام.

«الكِتَابُ الْمُنِيرُ»: يُرادُ به الْكِتَابُ العظيم الذي يشْتَمِلُ علىٰ آياتٍ بيانيَّة كالمصابيح، تَكْشِفُ الحقَّ والخيرَ وصِرَاطَ الله المستقيم، للعقول والقُلُوبِ والنّفوس، بما فيها من بياناتٍ هَادِيَاتٍ دَالَّاتٍ على ما فيه سَعَادَةُ النّاس في دُنياهُمْ وفي آخِرَتهم.

وقد جاء في القرآن بيانُ أنَّ التَّوْراة «كتابٌ» وجاء في وصفه أنَّهُ هُدًى ونور، أي: فَهُوَ منير.

فقال الله عزّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ... ﴿٨٧﴾﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ... ﴿٤٤﴾﴾.

وجاء بشأن عيسى عليه السلام قول الله عز وجل في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) حكاية لما نطَقَ به وهو في المهْدِ صبيّ:

﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) بشأن عيسى عليه السلام.

﴿... وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ...﴾.

وقال الله عزّ وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً لرسوله محمَّدٍ ﷺ:

﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

ونفهم من قوله تعالى: ﴿... جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أنَّ كُلَّ رُسُل الله قد أيَّدَهُم الله بآياتٍ بيّناتٍ تُثْبِتُ أنَّهُم صادقون في ادّعاء أنَّهُمْ رُسُلُ رَبّهم، وأنّ بعض الرسُلِ عليهم السلام قد أنْزَلَ اللّه عليهم زُبُراً، هي بمثابة صُحُفٍ أو أكثر من ذلك، دُون أن تَبْلُغَ كُتُباً كُبرىٰ، وأنّ بعض الرُّسُل عليهم السلام قَدْ أَنْزَلَ الله عزّ وجلّ عَلَيْهم كتُباً عظيمَةً هي كُتُبٌ مُنيرة، وأكْمَلُها وأَجْمَعُها وأعظمها القرآنُ المجيد.

قول الله تعالى:

- ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ :

﴿ثُمَّ﴾ دَلَّ استِعمالُ هذا الحرف الدّال على الترتيب مع التراخي، عَلَىٰ أنّ الّذين أهْلَكَهُمُ اللَّهُ من كفَّارِ أهْل الْقُرون السَّابقة قَدْ أمْهَلَهُم، وأمْلَىٰ لهم، ولم يُعجّل بمعاقبتهم، حتَّىٰ إذا وصَلُوا إلى حَالَةٍ ميؤوسٍ منها أخَذَهم أخْذَ إهلاكٍ شامل، مُعَذّباً ومُعاقباً ومُنْتقماً، ضمْن مجاري إرادته الحكيمة العادلة.

أصل الأخْذِ تناوُل الشيءِ والقَبْضُ عليه، وأخْذُ المجْرِم يُعَبَّرُ بِه عن مُعاقَبَتِه على جُرْمه.

وقَدْ دَلَّتِ الأخبارُ التاريخيَّةُ على أنَّ أَخْذَ اللَّهِ لكُفَّارِ الْقُرون السَّالِفَةِ قَدْ كانَ بإهْلاكِهِمْ بعَذَابٍ شامل، وإنْهاء وجودهم في ظُرُوف الحياة الدنيا.

﴿... فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ أي: فانْظُر أيُّها المتفكّر العاقِلُ الرشيد المتَلقِّي لهذا البيان، أو التالي أو القارئ له، كيفَ كانَ إنكاري على المعانِدين المصرّين على كُفرِهم من كُفَّار القرون السالفة، ووصولهم بَعْدَ إمْهالهم إلى دَرَكَةِ اليأس من استجاباتهم.

ويُطْلَقُ لفظ «النَّكير» على العقاب والعذاب، أي: فانْظُرْ متفكّراً كيْفَ كان عقابي وعَذَابي، وآمِنْ بَعْدْلي وبحكمتي، واتّعظ بآثارهما في عبادي.

الاستفهام عن حال الإنكار، الّذي يَسْتَلْزِمُ عِقَابَ القادر الْعَدْل الحكيم، استفهام خارجٌ عن أصْلِ دَلَالَتِه الّتي هي طَلَبُ الْفَهْم، والمرادُ المطالبةُ بالنظر والاعتبار.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدرس الثامن من دروس السورة، والحمد لله على معونته وفَتْحِه وفَيْض عطاءاته.

❁ ❁ ❁

## (١٢)
## التدبّر التحليلي للدّرس التاسع من دُروس السّورة
## وهو الآيتان: (٢٧ و٢٨)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

**تمهيد:**

في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ عَوْدٌ إلَى عَرْضِ بَعْضِ آيات اللَّهِ في كونه، وهي آياتٌ تَتعلَّقُ بظَاهِرَة الْأَلْوَانِ في الْأَكْوَانِ.

اختلافُ الألْوَانِ اختلافاً كثيراً وعجيباً في الثَّمَراتِ إحْدَىٰ آياتِ اللَّهِ في كونه، ومعلومٌ أنَّ أصْنافَ الزُّهُور والوُرُودِ هي من الثمرات، وفي الثمرات الأخرى ألوانٌ عجيبة تُمَيِّزُ كُلَّ نوعٍ وكُلّ صنف منها.

وكذلك اختلاف الألوان في الجبالِ والصُّخور، وتُلْحَقُ بها الرّمالُ والأتْرِبَة وسائر عناصر الأرض.

وكذلك اختلاف الألوان في النّاس والدّواب والأنعام، ويلْحَقُ بها سائر الأحياء، كالطُّيُور والأسماكِ وأنواع الفراش وخشاش الأرض والحشرات.

إنّ آيات الله عزّ وجلّ في اختلاف الْأَلْوان في الأكْوان، من الظواهر الكونيّة الدّالّة على رُبُوبيَّة اللَّهِ في الكَوْن، وعلَىٰ وحْدَتِه في رُبُوبيّته ومعلُومٌ أنّ توحيدَه في ربوبيّته يَسْتَلْزِمُ عقلاً توحيدَهُ في إلهيّته، فهو المسْتَحقُّ وحْدَه في الوجود كُلِّهِ أَنْ يُعْبد، فلا إلٰه بحقٍ إلّا هو.

هذا الدرس مرتبط بالفرع الأول من فروع شجرة موضوع السّورة، وفيه متابعةُ معالجةِ إقناع المشركين بشأن وحدانيَّةِ الله في ربُوبيته لِلْكَوْن كُلّه، ووحْدَانِيَّتِهِ في استحقاقِه أنْ يكون هو الإلٰه المعبود وحده.

وظاهرة الألْوانِ المختلفة اختلافاً عجيباً في الأكوان، هي من آيات الله المنبثَّة في الأرضِ وفي الكائنات عليها.

وبما أنّ اختلاف الألوانِ في الأشياء والنباتاتِ والأحياء يعتمد على طبائع الأشياء الموجودَةِ في الذَّرَّات، وهذه لا يستطيع التوصُّل إليها إلَّا أهْلُ البَحْث العلميّ، جاء في هذا الدَّرْسِ قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

وعلى الرُّغْم من أنّ علماء البَصريات والألوان، من علماء الظاهرات الكونيَّة، قد تَوَصَّلُوا إلى مَعْرِفَةِ أشْيَاءَ ذَواتِ شأْنٍ عن الألْوانِ ورُؤيتها بالأبْصار، إلَّا أنَّهُمْ لم يتوصَّلُوا بَعْدُ إلى مَعْرِفَةِ آلِيَّةِ إدْرَاكِهَا في الأدْمغَة، بعْدَ مُرورها في أجْهِزَةِ الإدْراكِ البَصرِيّ.

ومَا تَوَصَّلُوا إلى معرفَتِه هُو من الأمور المدهشةِ حقاً، والدَّالَّةِ عَلَىٰ أنّ الرَّبّ الخالِقَ قَدْ أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً، إذْ أحْكَمَ الرَّبْط التكامُلِيَّ بَيْنَ الطَّاقَة الضَّوْئِيَّة، ومَوْجاتِ الضَّوْءِ ذَوات الأطْوال المختلِفَةِ، الّتي تَرَىٰ منْها أعْيُنُ الْبَشَرِ سِتّاً على شَكْلِ سِتَّةِ ألْوانٍ هي ألوان قَوْسِ قُزَح، وهٰذِه تُسَمَّىٰ الطَّيْفَ المرْئِيّ، وأقْصَرُ مَا تَرَىٰ أعْيُنُ الناس طَيْفَهُ مِنْ هٰذِهِ الأمْوَاج الضَّوْئِيَّة تَرَاهُ باللَّوْن البنفْسَجيّ، والأطْوَلُ منْهُ ضِمْنَ السُّلَّم الارتقائي تَراهُ باللّونِ الأزْرق، ثُمَّ تَرَى الأطول باللَّوْنِ الأخْضَر، ثمَّ تَرى الأطْولَ باللَّوْنِ الأصْفر، ثُمَّ تَرَىٰ الأطْول باللَّوْنِ البرتقالي، ثُمَّ تَرى الأطولَ باللّونِ الأحْمَر، وهذا اللَّونُ هو آخِرُ سُلَّم الطُّيُوفِ الضَّوْئِيَّة، الّتِي تَسْتَطِيع عُيُونُ الناسِ رُؤْيَتَهَا.

والضَّوْءُ ذُو الموجَةِ الأطْوَلِ مِنَ الموجَةِ ذَاتِ الطَّيْفِ الأحمر، ضَوْءٌ لَا تَرَاهُ أَعْيُنُ الناس، وكذلِكَ الضوْءُ ذو المَوْجَةِ الأقْصَرِ من الموجة ذات الطيف البنفسجِيّ ضَوْءٌ لَا تَراهُ أَعْيُن الناس.

وبعض الكائنات الحيَّةِ تَرىٰ طُيُوفَ أشِعَّةِ الضوءِ ذي الموجات الأقْصَر مِنْ مَوْجَة الضَّوْءِ الذي ترىٰ أعيُن الناس طيْفَهُ بنَفْسَجِياً، وهذِهِ الموجَاتُ الضَّوْئِيَّةِ الأقْصَرُ محجوبةٌ عن أعْيُن الناس، لأنّ الخَالقَ المدبّر الحكيم لم يَمْنَحْهُمُ القدرة على رؤيتها، ولم يجعل فيهم الوسائل الصالحة الّتي تُمَكِّنُهُمْ من رُؤيتها.

ونَسْأَلُ عُلَمَاءَ البَصَرِيَات والألْوان: كَيْفَ نَرىٰ الأشْيَاءَ ذوَاتَ ألْوانٍ مختلفة.

وتُجِيبُنا مُدَوَّنات العلُوم، بأنَّ الضوءَ الَّذِي يَرْتَدُّ إلىٰ أعْيُنِ الناس مُنْعَكِساً عن سُطُوحِ المرئيَّات، هو الَّذِي يَجْعَلُهُمْ يَرَوْنَها بأَشْكَالِها، وأنّ سُطُوح المرئيّاتِ تختَلِفُ عناصِرُها، فَمِنْ هٰذِهِ العناصِرِ مَا يَعْكِسُ إلىٰ أعْيُنِ الرَّائين كُلَّ الموجاتِ الضوئيَّة السِّتَّة الّتِي لدَىٰ الناسِ قابِليَّاتٌ لِرُؤْيَةِ طُيوفها، فتراها الأعْيُنِ بيضاء، لأنّ اللّونَ الأبيض لَوْنٌ مُرَكَّبٌ من الألوانِ السّتَّةِ بِنِسَبٍ مُتَساوية، وتختَلِفُ دَرَجَةُ البياض بسَبَبِ نَقْصِ الارْتِدادِ المُنْعَكِس، إذْ يَمْتَصُّ سَطْحُ الجِسْمِ المرئيّ بَعْضَ أخْلاطٍ من أمْواج الضَّوْء.

وحين يَمْتَصُّ سَطْحُ الجِسْمِ المرئيّ كُلَّ أَمْوَاجِ الضوء الّتي يراها الناس، ولا يَعْكِسُ إلى أعْيُنِ الرَّائين منها شيئاً، تَراهُ أَعْيُنُهُمْ أَسْوَدَ شَدِيدَ السّواد، ويُفَسِّرُ علماءُ البصريَّات هذا بانْعِدامِ اللَّوْن، وتَخِفُّ حدَّة السّواد بسَبَبِ انْعِكَاسِ بَعْضِ الأشعَّة.

أمّا الألْوانُ السّتَّةُ: البَنَفْسَجِيُّ، فالأزرق، فالأخْضَرُ، فالأصْفَرُ، فالبُرْتُقَالِيُّ، فالأحْمَرُ، فعيونُ الناسِ تَرىٰ الأشياء بواحِدٍ منها من خلال

انْعِكَاسِ الموجَةِ الضَّوْئِيَّة ذاتِ اللَّوْنِ الَّذِي يَرَوْنَ بِهِ طَيْفَهَا، وأمّا الموجاتُ الأُخْرَىٰ الّتي امْتَصَّهَا سَطْحُ الجِسْمِ المرْئِيّ، واحْتَفَظَ بِطَاقَتِها داخِلَه، فإنّ الأعْيُنَ لَا تَرَىٰ ألوان طُيُوفها.

فما يَعْكِسُ الموجَةَ الْقَصِيرَة منْها فقط، تراه أعين الرائين بنفْسَجِياً، وَمَا يَعْكِسُ الموجَة الأطْوَل التالية، تراه الأَعْيُن أزْرَق، ومَا يَعْكِسُ الموجَة الأطْوَل التالية فقط تراه أخْضَر، وهكذا حتّى أطول الموجات منها فقط، فإنَّ الأعْيُن تراه أحْمَرَ.

وتختَلِطُ عناصر الأشياء في المرئيات، وتكُونُ مِنْهَا مُرَكَّبات، ينْتُجُ عنْها انْعِكاسَاتٌ مختلطاتٌ مختلفات من الأمواج الضوئية، الّتي ترىٰ عُيُونُ الناسِ طُيُوفها، وبهٰذا الاختلاط تَظْهَرُ أَلْوَان كثيرةٌ جدّاً، يَعْجَزُ النَّاس عن حَصْرِها.

والعامِلُ في عَكْسِ الأمواج الضَّوْئِيَّة أو امْتِصَاصِها، يَرْجِعُ إلى طَبيعَةِ الموادّ الكيمائِيَّة في الأشياء، وما أودَعَ الْعَلِيم الحكيم الخبير فيها من قابليَّاتٍ لامْتِصَاصِ الأمْواجِ الضَّوْئِيَّةِ أو عَكْسِها.

وكلُّ ذَلِك من آيات الله العجيبَةِ في هٰذا الكون الْمَلِيء بالعجائب، والمحفوف بإتْقان صُنْعِ الخالِق، جلَّ جلالُهُ وعظُمَتْ حِكْمَتُهُ.

فمن الحكمة في البيان القرآنيّ التَّنْبيهُ علىٰ ظاهرة الألْوانِ المتقنة العجيبة، مع الإشارة إلى أنَّ العلماء المتَتَبِّعينَ للظاهرات بالبَحْث والتنقيب والدّراسة والتأمّل، لِمَعْرِفَةِ إتقان صُنْعِ الله لها، هم الجدِيرُون بأن يَشْهَدُوا أنَّهُ لَا رَبَّ إلَّا الله، فَلَا إله في الوجود كُلّه بحَقٍّ إلّا هو، وهم الجدِيرُونَ بأنْ يَخْشَوْهُ، فيُعَظِّمُوهُ ويُجِلُّوه، ويُؤْمِنُوا بأنَّهُ لَمْ يَخْلُق الناسَ عبثاً، وإنَّما خَلَقَهُمْ لِيَبْلُوهُمْ في ظروف الحياة الدُّنيا، ثُمَّ لِيُحَاسِبَهُمْ وَيَفْصِلَ القضاء بَيْنَهم يَوْم الّدين، ويَجْزِيهم على ما قَدَّمُوا وأخَّرُوا في رِحْلَةِ امتحانِهِمْ

بالثواب أو بالعقاب، على وفْقِ مُكْتَسَبَاتِهم الإراديَّةِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا.

وبِسَبَبِ وُضوحِ الرُّؤْيَة الفكريَّة لديهم، يَطْمَعُونَ بثواب الله، ويخافونَ من عقابه، وبذَلِكَ تتحقَّقُ في نفوسهم حتَّىٰ عُمْقِ أفئِدَتِهم الخشْيَةُ مِنْهُ، جَلَّ جَلَالُه وعَظُمَ سُلْطانه.

وللدَّلَالة على أنَّ الْعُلَماءَ المتحقّقِين بعِلْمِ ظواهر الحياة الدُّنيا وبَوَاطِنِها وَدَلَالَاتها على الرّبّ الخالق وعَظيم صفاته، قال اللَّهُ عزَّ وجَلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

وللدَّلَالَة على أنَّ هؤلاءِ العلماء هم المؤهَّلُون من الناسِ للْخَشْيَةِ من الله قال الله عزّ وجلّ في هذا الدَّرْسَ التاسع من دُرُوس السَّورَةِ الّتي نَتَدَبَّرُها:

﴿... إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

**التدبّر:**

قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ ... ﴿٢٧﴾﴾.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي: من السّحاب، لأنّ كلّ ما عَلَا فَأظل يُسَمَّىٰ في اللُّغَة «سماءً».

جاء هٰذا الخطابُ بأُسْلُوب الخطاب الإفرادي الموجّه لكلّ صالح للخطاب، والمقْصُودُ الأوّلُ كُلُّ فَرْدٍ يُعْوِزُهُ الاقتناع بأنَّ ظاهرةَ اختلاف

الألوان في الأكْوَان ظَاهِرةٌ عجيبة، ذات آياتٍ دَالَّاتٍ على عجيبِ إتقان صُنْعِ الخالق البارئ جلَّ جلاله.

إنّ هٰذه العجيبَة من عجائب صُنْع الله وآيَاتِه في كوْنِه تَهْدِي أُولي الألباب، وأصْحَابَ النُّفُوسِ الزَّكِيَّة الْبَرِيئَةِ من الانحرافِ الْخُلُقِيّ، إلى الإيمان بأوَّلِ أَرْكَان الإيمانِ في الدِّين الحق، وتَهْدِي إلى الاستمساك به، واتّباع صِراطِ الله المستقيم.

• ﴿أَلَمْ تَـرَ﴾ استفهامٌ عن عَدَمِ الرُّؤْيَةِ، والْغَرَضِ مِنْهُ أَحَدُ أمرَين:

**الأمْرُ الأوّل**: التقريرُ بحُصُولِ الرُّؤْية، وهٰذا يُوَجَّهُ لِمَنْ رَأىٰ فَعْلاً ظاهِرَةَ اختلاف الألوان في الأكْوان، وأدْرَكَ أنَّها آيَةٌ عَظيمَةٌ من آيات الله في كونه.

ويتضمَّنُ هذا التقريرُ التَّلْويمَ إلىٰ حَدِّ الإنْكارِ والتوبيخ، إذَا كانَ غَيْرَ مستفيدٍ منْها في التَّوَجُّهِ للإيمان بالحقّ الّذي دلّتْ عليه، وهو الخالق البارئ الّذي أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً.

**الأمْرُ الثاني**: الحثُّ على توجيه النَّظَرِ التفكّريّ، والبحث العلميّ، لدراسة هٰذه الظاهرة والتنقيب في أسبابها وعَوَامِلها، وَمَجَارِي مقادير الله عزّ وجلّ في بواطِنِ أمُورها، للتَّوصُّل إلى إدْراكِ عجائب اتقان الصُّنْع الرَّبَّانيّ فيها.

فإذا أدْرَكَ ذَلِكَ كانَ هٰذا الإدْراكُ مُحَرّضاً لَهُ على الإيمان بِرُبُوبيَّةِ الله عزّ وجلَّ، والإيمان بإلٰهيَّتِهِ، وتوحيده فيهما، فلا يُشارِكُه فيهما أو في أَحَدِهما مشاركٌ في الوجُودِ كلّه.

والاستفهامُ وفْقَ هذا المعنى مُوجَّهٌ لِمَنْ هُو مؤهَّلٌ مِنْ أهل البحث العلميِّ لمثْلِ هٰذا التفكُّر والتأمُّل لمتابَعَةِ البحث والدّرْسِ وإجراء التجرباتِ في المختبراتِ الْعِلْمِيَّةِ.

حتَّىٰ الإنسانُ العاديّ الّذي لَيْسَتْ لدَيْهِ الأهْليَّةُ للبحْثِ الْعِلْمِي، الكاشِفِ لأسرار اختلاف الألْوانِ في الأكوان، صالحٌ لأنْ يُكَلَّفَ أنْ يُوجِّه نَظَرَهُ التفكُّريَّ لِهَذِهِ الظاهرة، إذْ باستِطاعتِه أنْ يُدْرِكَ مِنْهَا حِكْمَةَ الله عزّ وجلّ، إذْ جَعَلَ الألوانَ المختلفة إحْدَىٰ الأدِلَّةِ على الأشياء واختلاف صفاتِها وطبائعها.

فَمَنْ رأىٰ الثمرةَ خَضْرَاءَ على شجرتها، وسبَقَ في تَجْرِبَتِهِ أنها لَا تَنْضَجُ إلَّا إذا احْمَرَّتْ أو اصْفَرّت، أو نحو ذلك، أدْرِكَ أنّها لم تنضج بَعْدُ.

ومن رأىٰ النّباتَ قَدْ بَدَأَتْ الصُّفْرَةُ تَدِبُّ في أوراقه، أدْرَك أنَّهُ قد بدأ يَنْضَجُ إذا حَانَ حِينُ نُضْجِهِ، أو أَنَّه قد أُصِيبَ بعِلَّةٍ مَرَضِيَّةٍ، إذَا لَمْ يَحِنْ حِينُ نُضْجِهِ.

وهكَذَا إلَىٰ أُمُورٍ كثيرة جدّاً تَدُلُّ عليها ظواهِرُ الألوان، في الجامِدَاتِ والنَّباتاتِ والأحياء.

ومن الألْوان في الجامداتِ الحجَرِيَّةِ يُسْتَدَلُّ علىٰ الجواهر الكريمة، ومن الْأَلْوان في اللّآلئ يُسْتَدَلُّ علىٰ دَرَجَاتِ نفاستها.

ومن الألوان في الأحياء يُسْتَدَلُّ علىٰ صِحَّتِها، أو مَرَضِها، أو انفعالاتها، أو خَصَائِصِها النَّفْسِيَّة.

يُضَافُ إلىٰ كُلّ ذلك ما في الألوان منْ خصائِصَ جماليّة، تَفُوقُ ما لدَى الخلائق من قُدْرَاتِ حَصْر، ومِنْهَا المتلائمات، ومنها المتنافرات، ومِنْها الهادئات، ومنْها المثيرات، وهكذا إلى ما لا حصر له في إدراك الناس.

ومن تأمَّلَ فِي أنْواع وأصْناف الزُّهُور والْوُرودِ وألْوانِها وأشكالها، دَهِشَ وتَحَيَّرَ لمَا فيها من بديع صُنْعِ الله.

ومعلومٌ أنّ هٰذه الأشياء وأمثالَها، يَسْتَطِيعُ الأذكياء التوصُّلَ إلى إدْرَاكِ إتقان الله المذْهِش فيها، دون بحوثٍ علميّة دقيقة ومستفيضة، ودُون معامل ومختبرات.

ولا ينقطع وُجودُ أمثالِ هؤلاء في الناس مُنْذُ عصر تَنْزِيلِ القرآن المجيد، وحتّى آخر الدَّهر، والخطابُ في النصّ يصْلُح لأنْ يُوجَّهَ لهم.

وممَّا يسْتَطِيعُ أنْ يُدْرِكَهُ الأذكياء العادِيُّون أيضاً، ما نَبَّه عليه النصّ، من أنّ ظاهرة اختلاف الألوان في النباتات الذي يتسبَّبُ عن اختلاف عناصر المركبات فيها، يُسْقَىٰ بماء واحد، هو ما ينزل من السحاب، ويَدُلُّ الواقعُ عَلَىٰ أنَّهُ قد يكون في أرْضٍ واحدة.

إنّ اختلاف الألوان في النباتات سَبَبُهُ اختلاف الخصائص الكيمائية، الّتي تتأثّر بالجينات الوراثيّة لبُزُور النَّباتات، وهٰذِهِ الجينات في البُزُور من بدائع صُنْع الرَّبّ الجليل القدير، كما أنَّ نماءَها حتَّىٰ تكُونَ أشجاراً ذوات ثمارٍ، إنّما يَكُونُ بالخلْقِ الرَّبّانيّ المتلاحقِ آناً فآناً.

﴿... فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ... ﴿٢٧﴾﴾: في هذه العبارة الْتِفَاتٌ إلى التكلُّم بضمير المتكلّم العظيم، المشْعِر بعظمة إتقان صُنْعِهِ، في اختلاف ألوان الثمرات، وفي إخراج الثمرات وأشجارها ونباتاتها من بزورها وجُذورها، بعد اختلاط الماء بتُرابِ الأرض حوْلها.

وقبل هذه العبارة كان الحديث عن الخالق بضمير الغيبة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ...﴾.

﴿ثَمَرَٰتٍ﴾: تَشْمَلُ الأزهار والوُرُودَ وكلَّ نَوْرٍ تَنْشَقُّ عَنْهُ البراعِم، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أوحىٰ إلى النحل أن تأكُلُ من كُلّ الثمرات، ومعلومٌ أنّ أجْوَد غِذَاءِ النَّحْلِ رَحِيقُ الأزهار والوُرُودِ وكلّ نَوْرٍ تنشقُّ عنه البراعم.

قول الله تعالى:

﴿... وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾:

**الجِبَال**: هي من عناصر الأرض، وقَدْ ذُكِرَتْ في النصّ على وجْهِ الْخُصُوص لبُروزِها لِأَنْظَارِ النَّاسِ، وسُهُولَةِ اكْتِشَافِ اخْتِلافِ الْأَلْوَانِ في صُخُورها، وفي قِطَع منْها.

أمّا السُّهُولُ فقَدْ تَحْتَاجُ حُفَراً لاكتشافِ اختلاف ألوان طبقاتها وأقسامٍ منها.

• ﴿جُدَدٌۢ﴾: جَمْعُ «جُدَّة» وهي الطريقَةُ في السّماء، وفي الجَبل.

قال الفرّاء: **الجُدَدُ**: الخِطَطُ والطُّرُقُ تَكُونُ في الجبال، أي: هَيَ طَبقَاتٌ مخْتَلفاتُ الألوان بيضٌ وحُمْرٌ وسُودٌ، فَهِيَ تُشْبِهُ الطُّرُق.

**أقول**: من الظاهِر أنّ المرادَ بيانُ اختلاف الألْوان في الصخور، ونظيرُه اختِلافُ الألْوانِ في أقْسامٍ من الأرضِ على مُسْتَوىٰ السُّطُوحِ وعلى مسْتَوىٰ الأعْمَاقِ وَطَبقَاتِ الأرض، لاختلَاف العناصِر في ذرّاتِ كُلٍّ منها.

وجاء ذِكْرُ الأبْيَض لأنَّهُ الجامِعُ لكُلّ ألْوانِ الطَّيْفِ السّتَّة: «البنَفْسَجِي، فَالْأَزْرَقِ، فَالْأَخْضَرِ، فَالْأَصْفَرِ، فَالْبُرْتُقَالِي، فَالْأحْمَر».

وجاء ذِكْرُ اللَّوْن الأحْمَرِ على وجْهِ الْخُصُوصِ لأنّ الموجَةَ الضوئيَّةَ الّتي يَرَىٰ الناسُ من طَيْفِها اللَّوْنَ الأحْمَرَ، هيَ أَطْوَلُ الموجاتِ الضَّوْئيّة الّتي تَسْتَطِيعُ أعْيُنُ النّاس رُؤْيَةَ ألْوَانِ طُيُوفها.

وجاء في النَّصّ ذكْرُ الأسْود، لأنّ السَّطْحَ الّذي تراه أَعْيُنُ الناس أسْوَد قد امتصَّ كُلَّ الأمواج الضُوئية التي ترىٰ أعْيُنُ الناس طُيُوف ألْوانها، فالأَسْوَدُ يُمَثِّلُ انْعِدَامِ اللَّوْنِ بالنّسْبَةِ إلينا.

• ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾: جاءَتْ هٰذه العبارة للدّلَالة على أنَّ الأقسامَ البِيض والأقْسَامَ الْحُمْر مُخْتَلِفَةُ الدَّرجَاتِ فيما بينها، فالبيضُ متفاوتة

الدرجات في بياضها، والحُمْرُ متفاوتة الدَّرجات في حُمْرَتها، ويقاسُ عليهما سائر الألْوان.

• ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾: كَلِمَة «غَرابيب» هي جَمْع «غِرْبيب» وهو الأسْوَدُ المتناهِي في السَّوَاد.

وقد جاء ذكر «الغرابِيب السُّودِ» بَعْدَ ذِكْرِ اخْتِلافِ الألْوَانِ الْبِيضِ والْحُمْرِ، لأنَّ السَّوَادَ لَيْسَ لَوْناً في الحقيقة، بَلْ هُوَ انْعِدَامٌ لِلَّون.

والمعنى: وجُدَدٌ غرابيبُ سُودٌ، فَلَمْ تُجْمَعْ مع البِيضِ والْحُمْر.

وذِكْرُ الْغَرَابِيبِ المتناهية في السّوادِ يُشير عن طَريق اللُّزُومِ الفكْرِيّ المستَنِدِ إلى الواقع المشاهد إلى وُجُودِ أَشْيَاءَ يراها الناسُ سَوْدَاء، لكِنَّها في الحقيقة مختلطَةٌ بألْوانٍ قَرِيبة من السَّواد المتناهي في السّواد.

وجاء ذكْرُ لفظ «سُود» بَعْدَ ذكْر لفظ «غرابيب» بَدَلًا شارحاً للْمُرادِ بِلَفْظ «غرابيب» إذْ كَلِمَةُ: «غرابيب» قَلِيلَةُ الاستعمال، واقتضىٰ الْبَيَانُ الجمْعَ بيْنَهُما للدَّلالة على معنىٰ التناهي في السَّوادِ الذي دَلَّ عليه لفْظُ: «غرابيب».

واقتضىٰ إيثارُ الجمالِ اللَّفظيّ في تَرْتِيب كلمات الآية، تأخيرَ لفظ «سُود» ليكون رأسْ آية.

ولفظُ «سُود» هو جمع «أسْوَد».

ولا يفوتُني بيان ما في اختلاف الألوانِ من نِعْمَةٍ عظيمة للنَّاس، إذْ يَتَعَرَّفُونَ عن طَرِيق اختلاف الألوان على تَنَوُّعِ الأشياء وخصائصها، مع ما يَسْتَمِعُونَ به من جمالياتٍ كثيرات تكون بسَبَب الألْوَانِ الّتي يُحسُّونَ بها، حِينَ يَرَوْنَ مُرَكَّبَاتٍ كثيراتِ الاختلافِ من ألْوانِ الطيْفِ المنعكِسِ عنها.

قول الله تعالى:

• ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ... ﴿٢٨﴾﴾.

**الدَّواب**: جمع «الدَّابّة» وهي اسمٌ لما يَدِبُّ من الحيوان، سواءٌ أكان مُمَيِّزاً أمْ غيْر مُمَيِّز.

يقالُ لغة: دَبَّ يَدِبُّ دَباً وَدَبِيباً، أي: مشىٰ على هينَتِه. وكُلُّ ماشٍ على الأرْض دابَّةٌ، ودَبِيب.

وقد غَلَبَ هٰذا الاسمُ على ما يُرْكَبُ من الدَّوابّ، كالخيل والبِغَال والحمير.

وجاء في القرآن إطلاقُ لفظ «دابَّة» على كلّ ما يمْشِي على الأرض، حتَّىٰ ما يَمْشي علىٰ بَطْنِه، أو رِجْلَيْن، أو أرْبَعَ، أو أكثر.

وجاء في هذا النَّصّ تخصيص ذكْرِ النّاس من عُمُومِ الدَّوابّ قَبْلَ ذِكْرِها اهتماماً بالمخاطَبين، وبَعْدَ ذكْرِ الناس جاء ذكْرُ عُمُوم الدّوابّ، وبَعْدَ الدّوابّ جاء ذكْر الأنعام على سبيل الخُصُوصِ، مع أنّ الأنْعامَ من الدّوابّ، لأنَّها تَمْشِي على الأرض، وسبب تخصيص الأنعام بالذكر أنّ المخاطبين إبَّانَ التنزيل لهم عنايَةٌ عظيمة بها، إذْ هي أفضل أموالهم، وأعظم مجالات استثماراتهم الناميات، ولهم عناية بألْوانِها، وفي مُقَدَّمَتِها حُمْرُ الإبْل الّتي هي أكْرَمُ أمْوالهم.

﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ مُتَعلّقٌ بخبر مُتَقدّم ﴿مُخْتَلِفٌ﴾ مبتدأ متأخّر، وهو اسْمُ فاعل صِفَة لموصوفٍ محذوف، قيل: تقديره: «نوع، أو صنف، أو بعض» وقال الفرّاء: تقديره: «خَلْقٌ».

**أقول**: يتَرَجَّحُ لدَيّ أنّ تقْدِيرَه: «مَرْئِيٌّ» مُراعاةً لما جاء في صدر الآية (٢٧): ﴿أَلَمْ تَـرَ﴾ ولأنّ ظاهرة الألوان ظاهرةٌ مرئيَّة. ولفظ ﴿أَلْوَٰنُهُۥ﴾ فاعل لاسم الْفاعِل ﴿مُخْتَلِفٌ﴾ إذْ هو يَعْمَلُ عَمَل فِعْله.

فالمعنى: ومَرْئِيٌّ مُخْتَلِفٌ ألْوانُهُ من الناس والدَّواب والأنعام.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ عبارة جيءَ بها لتَدُلَّ على أنّ اختلاف ألوان هٰذهِ الأحياء، نظير اختلاف الألْوانِ في الثّمرات وجُدَدِ الجبال، وهو يخْضَع للقانون العامّ الذي تختلف فيه ألْوان الأشياء بمقتضىٰ اختلاف موادّها وعناصرها.

وبناء على هذا يُقاسُ على المذكوراتِ كلَّ ما يُرىٰ له لوْنٌ ممَّا خَلَقَ اللَّهُ من شيء، فقانون الله عزَّ وجلَّ في المرئيَّات من الألوان واحِدٌ في الكائنات المادّية، وهو يعتمد على أمْرَين:

**الأمر الأول:** خَصَائِصُ مُرَكَّبَات المرئيّ الكيمائيَّة.

**الأمر الثاني:** ألْوانُ طُيوف أمواجِ الضَّوْءِ المنْعَكِسَةِ عن المرئيّ إلَىٰ أعْيُن الناس.

وهٰذِه قدْ تَوصَّلَ إلَيْها عُلَماء البَصَرِيَّاتِ والألْوان بعد نزول النَّص القرآني بقُرُون.

قول الله تعالى:

﴿... إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ... ﴿٢٨﴾﴾:

في هٰذهِ العبارة إشارةٌ ضِمْنِيَّةٌ إلىٰ أنَّ إدْراكَ سرٍّ ظاهرة اختلاف الألوان يتطلّبُ بحثاً علميّاً متعمّقاً، ولا يُتَوَصَّلُ إليه بمجَرَّدِ النظر السَّطْحِي الَّذي يَسْتَمْتِع بجمالها، ويستفِيدُ من اختلاف دَلالاتها على خصائص الأشياء من ورائها.

ويُلاحظ أنّ هٰذه العبارة قد جاءت في النصّ بِصيغَةٍ كُلّيَّةٍ عَامَّةٍ، لَا تختَصُّ بالألْوان، لتَدُلَّ على انْحِصَار الخشية الحقيقيّة (الخوف، والإجْلالِ، والتعظيم، والْحُبّ) من الله بالْعُلَماءِ به، وبعظيم صفاتِه جلّ جلالُه، وَيَدْخُلُ فيهم عُلَمَاءُ الْبَصَرِيَّاتِ والألوان.

ولَيْسَ مَعنى هذه العبارة أنّ كُلَّ الْعُلَمَاءِ يَخْشَوْنَ الله، لكِنَّ معناها أنَّ كُلَّ الّذِينَ يخْشَوْنَ الله جلَّ جَلالُهُ حقّ خشيَتِهِ، لا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا عُلَمَاءَ بهِ وبجلائل بَعْضِ صفاته.

فالعبارة فيها حَصْرُ الخشية الحقيقيَّة بِعُمُومِ طَائِفَةِ العلماء، لا بكلّ فردٍ من إفرادهم، وأداة الحصر هي: لفظ «إنّما».

قول الله تعالى:

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾:

يتساءل المتدبّر: ما الحكمةُ مِنْ خَتْمِ هذا الدَّرْس بالتذكير باسْمَي الله: «العزيز الغفور».

**أقول**: بشيء من التفكّر التّدَبُّري، يظهر للمتدبّر أن الخطابَ موجَّهٌ توجيهاً أوّلياً للمشركين وسائر الكافرين، لإقناعهم بقضيَّةِ الإيمان الكُبْرىٰ، وهؤلاء يُلائم حالَهُم التَّخْوِيفُ من الله، والإطْمَاعُ بغُفْرانِه، إذا آمنوا وتابُوا واسْتَغْفَرُوا.

أمّا التَّخويف من الله وعقابه وانتقامه، فيَتَلَاءَمُ مَعَهُ من أسماء الله عزّ وجلّ أنَّهُ **«العَزِيز»** أي: القويُّ القدير الغالب، الّذي لا تَمْنَعُهُ قُوَّةٌ معارضة من غَيْر ذاته.

وأمّا الإطْماعُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ لِمَنْ يؤمن ويَتُوبُ ويستغْفِر، فيتَلَاءَم معه من أسماء الله الحسنىٰ أنَّهُ **«الغُفُور»** أي: كثيرُ المغفرة وعظيمها.

فجاء في آخر الدرس الجمع بينهما.

❋ ❋ ❋

## نظرة تكاملية حول ما جاء في سائر القرآن بشأن الألوان (موضوع هذا الدرس):

(١) سبَق أن تَدَبّرنا ما جاء في سورة (فاطر/٤٣ نزول) بشأن الألْوانِ في الأكوان.

(٢) ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الزُّمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾.

جاء الخطابُ في هذه الآية بأسْلُوب الخطاب الإفرادي، كالّذي جاء في سورة (فاطر) وصَدْرُ النَّصَّيْنِ مُتَماثلان، فما ذكرتُه من تَدَبُّرٍ هُناك يُغْني عن إعادته هُنا.

• ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾: أي: فَأَدْخله. السُّلُوكُ: في اللُّغة، الدُّخُولُ، والإدْخال. يقال لغَةً: سَلَكَ الشيْءُ في الشَّيْءِ، أي: دَخلَ فيه. ويقال: سلَكَ فُلانٌ الشَّيْءَ فِي الشَّيْءِ، أيْ: أدْخَلَهُ فيهِ، وَجعَلَهُ يَعْبرُهُ.

• ﴿يَنَٰبِيعَ﴾ جمْع: «يَنْبُوع» وهو عَيْنُ الماء. والمعنى: فَسَلَكَهُ مَسَالِكَ في باطِنِ الأرضِ، وأخْرَجَهُ منْها يَنابيع، أي: خارجاً منْها عُيُونَ ماء. والمسالِكُ في الأرض هي العُرُوقُ الّتي يجري فيها الماءُ في باطِنِ الأرض، ثُمَّ يَخْرُجُ منْها يَنابيعَ متفرِّقَةً سدّاً لحاجات الناس، وسائر الأحياء في أماكن من سَطْحِ الأرض، وليَسْقِيَ النّاسُ منها أشجارهم ومزارعهم.

والعبارة فيها تَضْمِينُ: ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ معنى فِعْلِ: «فَأَخْرَجَهُ» أي: فَسَلَكَهُ مُخْرجاً إيّاهُ يَنابِيع، فأغنت الجملةُ عن جُمْلَتَين، وهذا من إبْداعات القرآن المجيد.

فَأَضَاف هٰذا النَّصُّ من سورة (الزّمر): فِكْرَةَ إِدْخَالِ الْمَاءِ في مَسَالِكَ من عُروق الأرْض، وإخراجِهِ يَنَابِيعَ تَتَفَجَّرُ مِنْهَا، وهذه الفكرة لم تُذْكَرْ في النّص الذي من سورة (فاطر).

ويكونُ النَّصُّ الذي في سورة (فاطر) قد دَلَّ على المطر الَّذي يَنْبُتُ به الزَّرْعُ دُونَ أن يكون عن طريق الينابيع، أمّا النَّصُّ الّذي في سورة (الزّمر) فقد دَلَّ على الْيَنَابِيعَ الَّتِي تُسْقَىٰ منْها الأرضُ فَتَنْبُتُ الزُّرُوع بمائها.

وهذا الأسْلوبُ البيانيُّ هو من منْهَجِ القرآن القائم على التفصيل والتكامُل في نُصُوصِه.

• ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ جاءت هذه العبارة معطوفَةً بحَرْف العطفِ «ثُمَّ» الدَّالِّ علَىٰ التراخي في الزَّمن، للدَّلالة على أنْ الماءَ الذي يَدْخُلُ في الأرض، وتحتَفِظُ به خزَّاناتها، ويَسْلُكُهُ اللَّهُ عزّ وجلّ في عُرُوقِ الأرض، ويُخْرِجُهُ منها ينابيع، يتطَلَّبُ زَمناً فيه طُولٌ نِسْبِيٌّ، حتَّىٰ تُسْقَىٰ به الأرضُ المشْتَمِلَةُ على بزُورِ النباتَاتِ أو جُذُورِها، ويُخْرِجَ اللَّهُ بِهِ زَرْعاً من أنواعٍ شَتَّىٰ، ومُخْتَلِفاً ألْوانُه.

بخلاف العبارة الْتي جاءت في سورة (فاطر) فقد جاءت بحرف العَطْف «الفاء» الّذي يَدُلُّ على الترتيب مع التعقيب، لأنّ البيان فيها يتناوَلُ الحديثَ عن إنْزالِ الماء على الأرض المشْتَمِلَةِ على البزور مباشرةً.

فتكامَلَ النَّصّان في الدَّلالة على الوُجُوهِ الواقِعيَّةِ المختلفة.

يُضَافُ إلى هٰذا أنّ نصّ (فاطر) تحدّث عن الثمرات، أمّا نصُّ (الزُّمر) فتحدّث عن عُموم الزّرْع، وهٰذا تكامُلٌ آخرُ أسَاسُهُ التفصيلُ في النُّصوص القرآنية.

• ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾:

﴿يَهِيجُ﴾: أي: يَيْبَسُ وَيَصْفَرُّ. يُقَالُ لغة: هَاجَ النَّباتُ يَهِيجُ هَيْجاً وَهَيَجاناً، أي: يَبِسَ واصفرّ، وهاجَتِ الأرض، أي: يَبِسَ بَقْلُها واصْفَرَّ.

فذكَرَتِ العبارة هُنا اللَّوْنَ الأصْفر، إضافة إلى الألوان الَّتي ذُكِرَتْ في سورة (فاطر) لأنّ الصَّفْرَة هي اللَّونُ المألُوفُ لما يَيْبَسُ من النبات.

وجاء العطفُ بحرف «ثُمَّ» للدَّلَالَةِ على التراخي الزمني بيْنَ إخراج الزَّرْع ويُبْسِهِ واصفراره.

• ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَٰمًا﴾:

**الْحُطَامُ**: هو من كُلّ شيْءٍ مَا تَكَسَّرَ مِنْه. يُقالُ لغة: **حَطَمَ** فلانٌ الشيءَ يَحْطِمُه حَطْماً، أي: كَسَرَهُ. **وحطَّمَهُ**، أي: كَسَّرَه. فَهُوَ «حُطَام».

وهكذا تكونُ الزُّروع بَعْدَ يُبْسِهَا واصْفِرارها، وذهاب ماء الحياة منها. ولا يَحْدُثُ هٰذا مُباشَرَة، بَلْ يَحْدُثُ بَعْدَ تَراخٍ زمَنِيّ.

• ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾:

**الذِّكْرَى**: اسْمٌ للتَّذْكير، ويأتي اللَّفْظ اسْماً للتَّذْكِرَةِ، أي: إنّ في إنْزَالِ الماءِ من السَّماءِ، وإنْبَاتِ الزَّرْع ذي الألوان المختلفة، ثُمَّ يَبْسِهِ واصْفِراره، ثُمَّ جَعْلِهِ حُطاماً متكسِّراً، لَتَذْكِرَةٌ مُتَكَرِّرَةٌ في الظّاهرات الكونيّة الّتي هِيَ من آيات الله الكونيّة، تُنَبِّهُ أُولي الألْبَابِ علَىٰ عظيم قُدْرَةِ اللَّهِ وجليل حكمته، وأنّ بَعْثَ الناس إلى يَوْم الدّين يُشْبِهُ إنْباتَ الزّرْع من بزُوره بَعْدَ أَنْ يَبِسَ وَصَارَ حُطَاماً.

﴿لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أي: لِأَصْحَاب الْعُقُول الحصيفة. **اللُّبُّ**: هو الْعَقْلُ الخالِصُ مِنَ الشَّوائب.

(٣) ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) نصَّيْن:

**النصّ الأول:** قول الله عزّ وجلَّ فيها ضِمْنَ عَرْضِ بَعْضِ نِعَمِهِ على عباده التي هي من آياته في كونه:

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: أي: وَمَا خَلَقَ لَكُمْ في الأرض. ويأتي الذَّرْءُ بمعْنَىٰ الْبَثّ.

﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾: سبَقَ أنْ عَلِمْنا أنّ ذِكْرَ اختلاف الألْوَانِ يَدُلُّ علىٰ اخْتِلافِ الْخَصَائِصِ الكيمائيَّة للمُرَكَّبَاتِ، لأنَّ اختلاف الألْوانِ الّتي تَراها الأعْيُنُ للأشياء، إنَّما هُوَ أثَرٌ لاخْتِلَافِ الْمَرْئِيَّاتِ في عَنَاصِرِها الكِيمائيَّة، واختلافُ العناصر الكيمائيَّة يَلْزَمُ عَنْهُ اختلاف الخصائص.

**النصّ الثاني:** قول الله عزّ وجلّ فيها بشأن النَّحْلِ إحْدَىٰ آيَاتِ الله في كوْنه:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿ذُلُلًا﴾: أي: سَهْلَةً مُمَهَّدَةً مُيَسَّرَةَ السُّلُوك، وهو جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «ذَلُول».

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾: أي: يَخرُجُ من بُطُونِ النَّحْلِ بقضاء الله وقَدَرِه وجَلِيل تَدْبيره لِكَوْنِهِ، شرابٌ هُوَ «الْعَسَلُ» مُخْتَلِفٌ أَلْوانه.

اختلافُ الألْوانِ يُشِيرُ إلى اختلاف خصائِص مُرَكَّبَاتِ أصْناف الْعَسل، كما سَبَقَ بيانُه، وفي كلّ صِنْفٍ من أصناف الْعَسَلِ شفاءٌ مَا لِصِنْفٍ من أصْنافِ الأمْراضِ والْأوجاع، وعَلَىٰ النَّاسِ أَنْ يُتَابِعُوا البحْثَ والتَّجْرِبَة لمَعْرِفَة خصائِصِ كُلِّ صِنْفٍ وتأْثيراتِه العلاجيَّة.

(٤) ثم أنزل الله عز وجل في سورة (الرُّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول) قوله بَيَاناً لِبَعْضِ آياتِهِ في كونه:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

فَنَبَّهَتْ هذه الآيَةُ علىٰ أنّ إدْرَاك آيَاتِ اللَّهِ في خَلْقِ السَّماواتِ والأرْض، وفي اخْتِلافِ الْسِنَةِ النّاسِ وَلُغَاتِهِم في شُعُوبِهِم، وفي اختلاف ألْوَانِهِم، إنَّما يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ الْعَالِمُونَ، الّذِين يُتَابِعُونَ البحثَ العلميَّ التجريبيَّ لِمَعْرِفَة أسْرَارِ نَشْأَةِ وَتَرْكِيبِ وخَصَائِصِ هٰذِهِ الظَّاهِراتِ الكونيَّة، الدَّالّاتِ على حِكْمَةِ الخالِقِ العظيم، وعلى قُدْرَتِهِ على أن يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ، وعلى إتْقَانِ صُنْعِهِ لكلِّ ما خَلَقَ، جَلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُه.

فأضاف هذا النصّ بياناتٍ لم تأتِ في النُّصُوص السّابقات، وهذا مُنْسَجِمٌ مع منهج بيان الله في القُرْآنِ المجيد، القائم على التفصِيل والتكامُل في النُّصُوص التي تتناول مَوْضوعاً كُليّاً واحداً.

وبهذا تمَّ تدبّر الدَّرْس التاسع من دروس السورة، والحمد لله على معونته، وتوفيقه، وفتحه.



## (١٣)
## التدبّر التحليلي للدرس العاشر من دروس السورة وهو الآيات من (٢٩ ـ ٣٨)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن

فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾».

## القراءات:

(٣٣) • قرأ أَبو عَمرو: **[يُدْخَلُونَهَا]** بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعِلُه. وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[يَدْخُلُونَها]** بالبناء لِلْمَعْلُوم. وبَيْن القراءتين تكامل في الأداء البياني، أي: إنّ الله عزّ وجلّ يُدْخِلُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ جنَّاتِ عَدْن، فَهُمْ يَدْخُلونها حامِدِينَ رَبَّهم على ما تَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ به.

(٣٣) • قرأ نافع، وحفصٌ: **[وَلُؤْلُؤاً]** بالنَّصْبِ عطفاً على محلّ: **[مِنْ ذَهَبٍ]** وبتحقيق الهمزتَيْن. وقرأ شعبة، وأبو جَعْفر: **[وَلُولُؤاً]** بالنَّصْبِ، وبإبدال الهمزة الأولى واواً مِدّيَّة، وبتحقيق الهمزة الثانية.

وقرأ الدُّوري عن أبي عَمْرٍو: **[وَلُؤْلُؤٍ]** بالجرّ عطفاً على لفظ **[مِنْ ذَهَبٍ]** وبتحقيق الهمزتَيْن.

وقرأ السُّوسي: **[وَلُولُؤٍ]** بالجرّ، وبإبْدال الهمزة الأولى واواً مَدِّيّة.

وقرأ باقي الْقُرَّاءِ العشرة: [وَلُؤْلُؤٍ] بالجرّ، وبتحقيق الهمزَتيْن، ولحمزة وهشام في الوقف إبْدال الهمزة الثانية واواً مع سكونها، أو رَوْم حَرَكتها، ولَهُمَا تسهيلها مع الرَّوْم.

وحمْزَةُ في الوقف يَبْدِلُ الهمزة الأولى واواً خلافاً لهشام.

(٣٦) • قرأ أبو عمرو: [يُجْزَى كُلُّ] بالبناء لما لم يُسَمَّ فَاعله، ورفع «كُلُّ»، وقرأ باقي القراء العشرة: [نَجْزِي كُلَّ كَفُور] بالبناء للمعلوم ونَصْبِ «كلَّ».

وبَيْن القراءتَيْن تكَامُلٌ في الأداء البياني.

**تمهيد:**

هذا الدرس من دروس السورة يتعلّق بأمَّةِ دَعْوة مُحَمَّدٍ ﷺ وهُمْ كُلُّ النّاس بَعْدَ بِعْثَتِه، والمسْؤوليَّة تلْزَم أعْنَاقَ مَنْ بَلَغَتْهُمْ بِعْثَتُه، وأنَّهُ رَسُول اللَّهِ الخاتم لِرِسَالَات الله للناس.

وجاء في هذا الدرس ما يلي:

(١) دعوة المؤمنين إلى تلاوة كتاب الله القرآن، وإقام الصلاة، والإنفاق ممّا رزَقهم الله سرّاً وعلانِيةً، وهم يرجون الربح العظيم من ربهم، مع غفران ذُنوبهم.

(٢) بيانُ أنّ ما أوحى الله بِهِ إلىٰ رسوله من القرآن هو الحقّ، فما ناقَضَهُ باطِلٌ لَا مَحَالة.

(٣) بيانُ أنّ القرآن مُصَدِّقٌ للكُتُب الرَّبَّانِيَّة الّتي أَنْزَلَها الله عزَّ وجلّ على رُسُلِه من قبله.

(٤) بيان أنّ الله بعباده السّابقين واللَّاحِقِينَ لخبير بصير، أي: فهو يحاسِبُهم، ويفصِلُ القضاء بينهم، ويجازيهم بحسب ما قَدَّمُوا وأَخَّرُوا من أعمال في رحلة امتحانهم.

(٥) بيان أنَّ الله عزّ وجلّ أوْرَثَ الأُمَّةَ المحمَّدِيَّةَ الّتي اصطفاها من عبادِه، الكِتَابَ الجامع لزُبْدَةِ مَا أنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ أوْ زَبُورٍ أَوْ صُحُفٍ، على رُسُلِهِ السَّابقين، لِعَلْمِهِ بأنَّ هٰذِهِ الأمَّةَ بوجْهِ عامّ هي الأمَّة الحافظة الراعية المتدبّرة لكتابه الخاتم وهو القرآن.

(٦) بيان أن هٰذهِ الأمَّة المحمديَّة تَنْقَسِمُ إلى ثلاثة أقسام:

**القِسْمُ الأول الأدنى:** الظالمون لأنْفُسِهِمْ بالمعاصي، مَعَ صحَّةِ إيمانهم، وهؤلاء هم الجمهور الأكثر منهم، وهُمُ القِسْمُ الأدنىٰ في سلّم الإيمان والعمل الصالح.

**القسم الثاني الأوسط:** المقْتَصِدُون، وهم الّذين يُؤدّون الواجبات، ويتركون المحرَّمات، ولا يَسْتَزِيدُونَ من نوافل القربات، وهؤلاء قَلِيلون بالنِّسْبَةِ إلى القِسْمِ الأول الأدنىٰ، وهم القسم الأوسَطُ في سلَّم الإيمان والعمل الصالح.

**القسم الثالث الأعلى:** وهم السابقون بالخيرات والأعمال الصالحات، فَوْق فِعْلِ الواجبَاتِ وَتَرْكِ المحرَّمات، وهؤلاء هم الأقَلُّون بالنسبة إلى عموم المؤمنين المسلمين، وهم القسم الأعلى في سُلَّم الإيمان والْعَمَلِ الصالح، وهم على مرتبتين: «أبرارٌ ومحسنون» أخذاً من نصوصٍ أخرى.

ومن حِكْمَةِ الترتيب مع النَّظَرِ إلى الواقع فَهِمْنَا أنّ الظالمين لأنفسهم هم الأكثرون، وأن المقْتَصِدِين هم الأقلُّ منهم، وأنَّ السَّابقين بالخيراتِ بإذْنِ الله هم الأقلُّون، مع أنّ الأمَّة المحمّدِيَّة بمجْمُوعِها العامّ مصطفاة، لأنّها لا تجتمع على ضلالة، بخلاف الأممِ الأخرىٰ السابقة فقد اجتمع خَلْفُ كلٍّ منْها على ضلالَة، فحرَّفوا وبَدَّلُوا فِي دِين الله، ولم يؤمِنُوا بمَنْ جاء بَعْدَ رَسُولِهم من رسول، ولا بما أنزل الله عَلَيْه من كتاب.

(٧) بيانُ لَقْطَةٍ تصويريَّة من لقطات ما أعَدَّ اللَّهُ لِلأُمَّةِ المحمّدِيَّة، من ثوابٍ عظيم في جنَّات النَّعِيم يَوْمَ الدّين، وما يَجْرِي منهم وهم يُنعَّمُون.

(٨) بيانُ لقطة تصويريَّةٍ من لقطات ما أعَدَّ الله للّذين كَفَرُوا برسالة محمّد ﷺ من أُمَّة دَعْوَتِه، وما يَجْري منهم في دار عَذَابِهم من مطالب، وما يُجَابُونَ به، مع بيان الحكمة ممّا يجابون به.

وهذا الدرس موصول بالفرع الرابع من فروع شجرة موضوع السورة، التابعة لفروع شجرة موضوع سورة (الفرقان) كما سبق بيان ذلك، وهو فرع المرْسَلِ إليهم، وهم العالَمُونَ بَعْدَ بِعْثَةِ محمّد ﷺ، من آمَن واتَّبع، ومن كفَرَ وتولّى.

## التدبّر:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرۡجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾﴾.

## مقدمة:

القرانُ المجيدُ أنْزَلَه الله الرَّبُّ العليم الحكيمُ الخبير جلّ جلالُهُ، ليكونَ ذكراً لِمَنْ آمَنَ وأسْلَم، واتَّبَعَ خاتَمَ رُسُلِ الله محمداً ﷺ، أي: ليتَجَدَّدَ حُضُورُ معانيه في ذاكراتِ الّذِينَ آمنوا واستجابوا لدَعْوَته، مُصَدّقين رَسُول رَبّهم مؤمنين به.

وتَجَدُّدُ حُضُور معاني القرآن إنَّما يكونُ بتلاوته بالتتابُعِ آناً فآناً، في الأيّام واللّيالي، حِزْباً فَحِزْباً، ليكونَ قوتَ العقول والأفكار والقلُوب والنفوس، ولهذا سمَّىٰ الله عزّ وجلّ القرآن ذِكْراً.

وتلاوةُ المؤمن المسْلِم لكتابِ الله القرآن ينبغي أن تكُونَ وِرْداً يومِيًّا متكَرّراً، كالطّعام والشّراب، وتلاوَةُ قِسْمٍ منْهُ واجبٌ مفروضٌ يَوْمياً في الصلوات الْخَمس المفروضة، وما زاد علىٰ ذَلِكَ فَهو مَنْدُوبٌ إلَيْهِ بتأْكِيد.

وتلاوة شيءٍ من القرآن ينبغي أن تكُونُ مَصْحُوبَةً بِتَفَهُّمٍ ما، وتَدَبُّرٍ لما تدلُّ عليه ألفاظُهُ من مَعَانٍ.

وللتالي من الأجْرِ عْشر حَسَناتٍ على تلاوةِ كُلِّ حَرْفٍ من حُرُوفهِ بِفَهْمٍ أو بغير فَهْمٍ، لكِنَّ الثّوابَ علىٰ الْفَهْمِ وحُسْنِ التَّدَبُّرِ أَجَلُّ من ذَلِكَ وأعظَمُ، وعلى مقدار اجتهاد التالي في التدبّر يكونُ ثوابُهُ عند الله تباركَ وتعالى.

قول الله تعالى:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ... ﴿٢٩﴾﴾:

**التّلاوَة**: هي في اللّغة الاتّباع، واستُعْمِلَتْ كلمةُ التلاوة بالنّسبةِ إلى القرآن، بمعْنَى النُّطْقِ به، مع تَتَبُّعِ حُرُوفه وكلماتِه كما أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَزّ وجلّ على رسوله مُحَمَّد ﷺ.

فإذا كانت التلاوة تَتَبُّعاً لِلْمَكْتُوب مِنْهُ فهِيَ قراءة، تقول لغة: تَلَوْتُ القرآنَ أتْلُوهُ تِلاوَةً، إذَا تَتَبَّعَت حُرُوفَهُ وكَلِمَاتِه، فنطَقْتَ بها، فإذا كان ذلك من المصْحَفِ مثلاً، فهي قراءةٌ وتِلَاوَة، وقد يُقال: «قَرَأ» ولو من حفظه دون نظر إلى المكتوب ممّا تَلا تَوَسُّعاً. ومادّة «تَلَا» تَدُور حَوْلَ معْنَى اتّباع التّالي للمتْلُوّ، يقال لغةً: تَلَا المأمُومُ إمَامَهُ، أي: تَبِعَهُ في أعْماله، وتَلا الطِّفلُ أمَّهُ، أي: أتْبَعَها.

والمرادُ بكتاب الله هُنا الْقُرْآن المنزّل على محمَّد بن عبد الله ﷺ، لأنَّ الخطابَ هُنا مُوَجَّهٌ لِمَنْ آمَنَ به.

قول الله تعالى:

• ﴿... وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾: المرادُ بإقامة الصَّلاة إقامة الصَّلاةِ المفروضة، والصَّلاةُ المفروضة إبَّانَ نُزُول سورة (فاطر) الّتي نزلَتْ في أواسِط العهد المكيّ من تاريخ دعوة الرَّسُول هي الصلاة الّتي كانت مَفْرُوضَةً على المسلمين مُنْذُ أوائل الرّسالة المحمّدية، قَبْلَ حَادِثَةِ الإسراء الّتي فُرِضَتْ الصَّلواتُ الْخَمْسُ فيها على المسلمين.

قد يقال هي الصَّلَواتُ الْخَمْسُ، لأنَّ الأقوال في زَمَنِ حُدُوثِ قِصَّةِ الإسْراء والمعراج كثيرة، ومِنْهَا أنَّها حَدَثَتْ قَبْلَ الهجرَةِ بِنَحْوِ سِتِّ سِنين، فَمِنَ الممكِنِ أنْ تكونَ سُورَةُ (فاطر) قَدْ نَزَلَتْ بَعْدَهَا، لكن سورة (الإسراء) الّتي افتتحها الله بذكر حادثة الإسراء قد نزلت بعد (فاطر) بست سور، فالظاهر أنّ المراد الصلاة التي كان يصليها المسلمون قبل فَرْضِ الصلوات الخمس.

على أنّ عبارة ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيها إيحاءٌ بأن المراد الصَّلاةُ الّتي سَتَسْتَقِرُّ فَرْضِيَّتُها في الإسلام، وسَتَجِب إقَامَتُها في أوقاتها، الّتي ستكون من المعلومات الثابتاتِ الّتي يَعْرِفُها عُمُوم المسْلِمين.

فالصَّلاةُ عبادَةٌ تَلْزَمُ المؤمِنَ بَعْدَ إعلانِه الشَّهادَتَيْن، ودُخُوله في الْأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّة المسلمة، سواءٌ أكانت ركْعَتَيْنِ في أوّل النهار، وركْعَتَيْنِ في أوّل اللَّيل، كما قيل: إنّها كانت كذلِكَ في أول الأمْر، أمْ كانَتْ خَمْسَ صَلَواتٍ في الأوقات الخمس، الّتي اسْتَمرَّ علَيْها الحكْمُ التَّشْرِيعيّ بَعْدَ حَادِثَة الإسْراءِ والمعراج. وسواءٌ أكانت ثِنْتَيْن من الرَّكَعَاتِ باسْتِثْنَاءِ صلاة المغرب، أمْ كانت أَرْبَع رَكَعاتٍ في الظُّهْر والْعَصْر والعشاء، ثُمَّ قَصُرَتِ إلى ثنتَيْنِ في السَّفَر تخفيفاً، أمّا الْفَجْر والمغرب فقد بَقِيَتا على ما كانتا عليه.

فعِبَادَةُ الله بالصَّلاةِ تَأْتِي في التَّعْلِيمِ الدِّينيّ عَقِبَ إعْلانِ الإسلام مُبَاشَرَةً، لما فيها من تعبيرات التَّوَجُّهِ لِلَّهِ، والخضوع لَهُ بالرُّكوع والسُّجُود، والانقطاع له بالذّكر والتسبيح.

والمراد بإقامَة الصَّلاة هُنا المداوَمَةُ والمواظَبةُ عَليْها في أوقاتها، وأداؤها على الوجْهِ الشَّرْعِيّ المطلوب فيها، أي: جَعْلُها مستقيمةً لا عِوَجَ فيها، ومعنىٰ المداومة يدُلُّ على معنى التكرار والتجدُّد فيها.

يقال لغة: أقامَ الرَّجُلُ الشيءَ، أي: أدامَهُ وواظبَ عليه، وأدَّاهُ مُوَفِّياً حَقَّهُ تماماً غير مَنْقُوص.

و«ال» في كلمة «الصَّلاة» هي «أل» التي للعهد، أي: هي الصلاة المعهودة في الإسلام، والتي لا تكون إلا لله وحده.

قول الله تعالى:

• ﴿... وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ...﴾:

• ﴿وَأَنفَقُواْ﴾: أصْلُ الإنفاق في اللّغة للمال، هو بمعنى إفنائِه وإنْفاده، يُقَالُ لغة: أنفَقَ المال، أي: أَنْفَدَهُ وأفناه.

وجرى الاستعمال على مَعْنَى بَذْلِ المال أوْ قِسْمٍ منه في أمرٍ ما، بطاعة الله أو معصيته، نظراً إلى أن المبذول منه لم يبق له عند باذله وجود.

والمراد بالإنفاق هُنا هو ما كان في طاعة الله ومراضيه ووجوه الخير، كالزّكاة والصَّدَقة، ومصالح الإسلام والمسلمين الّتي رغَّبَ الإسلام في الإنفاق فيها.

وجاء استعمال الفعل الماضي في ﴿وَأَنفَقُواْ﴾ بَعْدَ استعمال الفعل المضارع في: ﴿يَتْلُونَ﴾ للدلالة على أن الإنفاق لا يشترط فيه التزام

التكرار والتجدّد دواماً، كالتلاوة لكتاب الله، بل تثبت الصفة الإسلامية بحُصُول الإنفاق المطلُوبِ شرعاً فيما مضىٰ، وأمّا المستقبل فَقَدْ يُوجَدُ فيهِ المقْتَضِي للإنفاق وقد لَا تُوجد، بخلاف التلاوة للقرآن، فَهِيَ مَطْلُوبَةٌ تَرْغيباً في كُلّ آنٍ.

﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾: كلُّ ما يَمْلِكُ الناسُ من أموالٍ على اختلاف أنواعها وأصْنافِها، هي رِزْقٌ يَرْزُقُهُ الله عبادَهُ بعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِه لهم، وجميل ألطافِه الخفِيَّة، وإشارةً إلى هٰذا المعنى جاء في العبارة اسْتِعْمالُ ضَميرِ المتكَلِّمِ العظِيمِ.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: أي: في الخفاء عن أعين الناس بُعْداً عن الرّياء، وعَلانيَةً مع الإخلاص لله في الإنفاق في طاعَتِه طلَباً للثواب العظيم والأجْرِ الجسيم، وهما وصفان لمصدر «أَنفقُوا» المحذوف، فهما نائبان عنه.

وجاء تَقْدِيمُ الْإِنْفَاقِ في السِّرِّ، لأنَّهُ أَفْضَلُ من الإنفاق في العلانية غالباً، بسبب بُعْدِه عن الرِّياء والسُّمْعَةِ المحْبِطَيْنِ لْلعَمَل الصالح.

﴿... يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾:

أَصْلُ معنى الرَّجاء مُطْلَقُ التَّوَقُّعِ للمرغُوبِ فيه، أو المخوف منه، ويُفْهَمُ منه في كلّ نصٍّ بحسبه، وهٰذه الجملة خبر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾.

وفعل ﴿يَرْجُونَ﴾ هُنَا هو بمعنىٰ تَوَقُّع الثواب العظيم من فيضِ فَضْلِ الله عليهم، مقابل تلاوتهم لكتاب الله وإقامتهم للصَّلاة وإنفاقهم من أموالهم ابتغاء مرضاة الله جلّ جلاله، وعظُمَ جُودُه وفَضْله، وهذا التوقُّع مبنيٌّ على يقينٍ إيماني مستندٍ إلى وَعْدِ الله الصادق، وعلمهم بأنّ الله لا يُخْلفُ الميعاد.

وجاءت هٰذه العبارةُ للدَّلَالَةِ علىٰ النِّيَّةِ الصَّادقَةِ المُخْلِصَةِ لَدَىٰ هؤلاء المؤمنين وهي أنهم يُؤدُّون مطلوب الله منهم ابتغاء مرضاة الله، إذِ التجارَةُ الرَّابِحَةُ الَّتي لَنْ تَبُورَ مُسْتَقبلاً هي التجارة مع الله الأزَلِيّ الأبَدِيّ، الَّذِي يُعْطِي أجُورَ العامِلينَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِه كامِلَةً غَيْرَ منقوصَةٍ، ويزِيدهم من فَضْلِهِ.

﴿تِجَـٰرَةً﴾: **التّجَارَةُ**: هي أعْمالُ الْبَيْعِ والشّراء بقَصْدِ الرِّبْحِ من فرقِ القيمَةِ بين الشراء والبيع.

وأطْلِقَت التجارة على التَّعامُل مع الله بالأعمال الصالحة ابتغاء مرضاته، على سبيل الاستعارة، لأنَّ فيه ربحاً عظيماً، وثواباً جزيلاً.

﴿لَّن تَبُورَ﴾: أي: لن تَكْسَدَ ولَنْ تَخْسَر، إذ هي تجارة مع الله جل جلالُه وعظم سُلطانه.

- ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.
- ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾: أي: ليُعطِيهم اللَّهُ أُجُورَهَمُ على أعمالهم الصالحة في الحياة الدُّنيا كما وعَدَهُمْ، وهو وعْدُ تفضُّلٍ منْهُ عليهم. وفي العبارة مطويٌّ يمكن تقديره. بأن نقول فيه: إنهم يتقرّبون إلى الله بمحابِّه ليوفيهم أجورهم.
- ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾: وليزيدَهم من فَضْلِه على ما سَبَقَ أنْ وَعَدَهُمْ إيَّاه زياداتٍ لَا تَخْطُر على بالهم، ولا تقَعُ في تصَوُّراتهم التوهميَّة.

**الفضل**: هو الإحسانُ ابتداءً دون مقابلٍ ولا رجاء مكافأة أو شكر، وأصل الفضل الزيادة.

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: إنّه كثير المغفرة وعظيمها، وكثير الشُّكْرِ وعظيمه، أخذاً من صيغة المبالغة «فَعُول» في كلٍّ منهما.

**المغفرة**: سَتْرُ الذُّنُوبِ والآثام وعَدَمُ المحاسبة عليها.

**الشُّكر**: المقابلَةُ على الْعَمَلَ الصَّالح، بما يسُرُّ العامل ويُرْضِيه.

ومن الزيادة من فضل الله أمران:

**الأمر الأوّل**: أن يَغْفِرَ الله عزّ وجلّ لهم ذُنُوبَهم فيَسْتُرَها ولا يُحاسِبَهُمْ عليها، لأنَّه جَلَّ جَلالُهُ «غَفُورٌ» أي: كثير المغفرة وعظيمها.

**الأمر الثاني**: أن يُضَاعِف لَهُم أُجُورَهُمْ على أعْمَالِهِمْ الّتي عَمِلُوها، لأنَّه شَكُورٌ، أي: كثير الشكر وعظيمه.

إنّ الإنفاق في وجُوه الخير الّتي فيها طاعةٌ لله عزّ وجلَّ وتقرُّبٌ إلَيْه بمحابّه، قد كان مطلوباً في الإسلام منْذُ أوائل الرّسالة المحمّديّة، إلّا أن الزّكاة المفروضة المحدّدَة في مقاديرها وشروطها، قد تَأَخَّرَ إنْزَالُ فَرْضِيَّتِها إلى ما بَعْدَ الهجرة إلى الْمَدِينَةِ، وقيامِ الدَّوْلة الإسلاميَّة فِيها.

ولا يخفىٰ على ذي الفكْرِ المتأنّي أنَّ إنفاقَ الأموال في سبيل الله هو التعبير العَمليُّ التَّالي لعبادة الصلاة، لما فيه من معاني شُكْرِ الله على نِعَمِه الّتي أنْعَمَ بها على عَبْدِه، في تيْسِيرِ أسْباب الرزْق، وفتح أبوابه، من ثَرواتٍ حيوانيَّة، وثرواتٍ زراعيَّة، وثرواتٍ تجاريَّة، إلى غَيْر ذلك من أسباب.

ولهذا جاء في نُصُوص القرآن المجيد غالباً الحثُّ على الإنفاق في سبيل الله، عَقِبَ ذِكْر الصلاة، للإشعار باقترانهما في التعبيرات الإسلامية، مع الإشعار بأن رُتْبَةَ الإنفاق في سبيل الله تاليَةٌ لرتْبَةِ إقامَةِ الصّلاة المفروضة.

ومُطْلَقُ إنفاق المال دون قَيْد قد يكون إنفاقاً من أجل شهوات النفس ومصالحها، وقد يكون إنفاقاً على مَنْ يُحِبُّ المنْفِقُ من أهْلٍ ووَلَد، أو إنفاقاً للفَخْرِ، أو لتحقيق مصالح دُنيويَّةٍ لدَىٰ الناس، فاحْتَاجَ البيانُ إلى الإشْعار بأنَّهُ يُقْصَدُ به رِضْوانُ الله، وشُكْرُهُ على ما رَزَقَ عَبْدَهُ من أنواعِ رِزْقٍ.

وحينما يكون الإنفاق ابتغاء مَرْضاة الله حَقّاً، فلا حرج أنْ يكون إنفاقاً في السّرّ أوْ إنفاقاً في العَلَن، ولكن جاء في النصّ تقديم الإنفاق في السّر على الإنفاق في العلن، للإشعار بأنّ الإنفاقَ في سبيل الله في السِّرّ أفْضَلُ من الإنفاقِ في العلانية، لأنَّهُ أعْوَنُ على استجماع النّيّة الخالصة في ابتغاء مرضاة الله.

على أنّه قَدْ يكونُ الإنفاقُ في العلانية في بعض الأحْوال أكْثَرَ تشجيعاً لِذَوِي الأمْوال على البذْلِ، تأسّياً بالْقُدْوَة الحسنة، فيكُون الأمْرُ العلنيّ أنْفعَ للبَذْلِ في جهات الخير، التي يُحَقِّقُ الإنفاق فيها رِضوان الله عزّ وجل.

❊ ❊ ❊

قول الله تعالى خطاباً لرسُوله محمد ﷺ:

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴿٣٢﴾﴾.

**تمهيد:**

عَقِب توجيه المؤمنين المسْلِمينَ لِتِلاوةِ كتاب الله عزّ وجلّ (القرآنِ المجيد) اقتضتِ الحكمةُ في البيان، أنْ يَأتيَ الحديثُ في هذا الدّرْس عَن القرآن بأنَّهُ حَقٌّ، وبأنَّهُ مُصَدِّقٌ لِمَا نَزَلَ قَبْلَهُ مِنْ كُتُبٍ رَبَّانِيَّةٍ، ومِنْهَا فيما نَعلَمُ التوراةُ والزبُورُ والإنجيلُ وصُحُفُ إبراهيمَ ومُوسى، وتَشْتَمِلُ العبارةُ سائِرَ ما أنْزَلَ الله على الْمُرْسَلِينَ السَّابِقِينَ، ومُصَدِّقٌ أيضاً باللزُوم الْعَقْلِيّ للرُّسُلِ والأنبياء الصادقين الّذين جاءُوا قَبْلَ محمَّد صلّى الله وسلَّم عَلَيْهِمْ أجْمَعِينَ، لأنَّهم حَمَلَةُ رِسَالاَتِ رَبّهم، وهُمْ دُعَاةٌ صَادِقُون لها.

**التدبّر:**

﴿وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾:

هٰذه العبارةُ معطوفةٌ على: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ . . .﴾ من قَبيلِ عَطْفِ الْجُمل.

وقد جاء توجيه الخطاب فيها للرَّسُولِ ﷺ، والْغَرَضُ إعلام الَّذِين يَشُكُّون في أَنّ الْقُرْآن وَحْيٌ من الله إلى رسوله.

وعبارةُ: ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تَدُلُّ على أنَّ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَىٰ الرَّسُول ﷺ من سُوَرٍ وآيات قَبْلَ نزول هٰذا النصّ من سورة (فاطر) هو بعض القرآن، ولَيْسَ هو كلَّ الكتاب، فَلَيْسَ حَرْف «مِنْ» للبيان كما ذَهَبَ إليه بعض المفَسِّرين، وإنّما هو لبيان البعضِيَّة كما هو الواقع قبلَ إنزال سَائر القرآن.

وعبارةُ: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ بتَعْرف طَرَفي الإسناد (المبتدأ والخبر) تَدُلُّ على الْقَصْرِ والْحَصْرِ، وهو من قبيل الْقَصْرِ الإضافي، أي: ما جاء فيه من بيان عن الأمور الّتي يكُونُ الحديثُ عَنْها حقًّا أو باطلاً هو الحقُّ وَحْدَهُ بالإضافة إلى ما ناقَضَهُ من أحاديثَ وأقوالٍ وادّعاءات، أمَّا ما وافَقَهُ فَهوَ مطابقٌ له، ويَنْطَبِقُ عَلَيْهما أنَّه هو الحقُّ في الموضوع الّذي اتَّفقا في بيانه.

ومعلومٌ ظاهرٌ أنَّه لَيْسَ ما أنْزِلَ هُوَ كُلُّ الحقّ بالإطلاقِ العامِّ، إذْ كثيرٌ جدّاً من القضايا الّتي هي حقٌّ في واسع عِلم اللَّهِ وفيما آتاه اللَّهُ عبادَه لم يأتِ بيانُها في القرآن، إنَّ القرآن قَدْ أُنزِل لبيان قضايا الدّين الّذي اصطفاه الله لعباده، الّذين وضَعَهُمْ في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان.

• ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أي: والذي أوْحَيْنَا إلَيْكَ مِنَ الكتاب الذي هو القرآن خَاتمة الكُتُب الرَّبَّانيَّة هو الحقُّ حالةَ كونه شاهداً لما جاء قَبْلَهُ بالصِّدْق، أو حالُهُ ووصْفُهُ وما جاء فيه مطابقٌ لما جاءَ من إخبارٍ عنْهُ في الكُتُب والزُّبرِ والصُّحُفِ الرَّبَّانِيَّةِ المنَزَّلَة قَبْله.

وقد تَشْتَمِلُ العبارة الرُّسُلَ والأنبياءَ، إذا اعتَبَرْنَا لفظ «مَا» أُطْلِقَ بالتغليب على ذوي الْعِلْم أيضاً، معَ ما هي له في أصْلِ الوضْعِ اللُّغَوي.

واللام في: [لِمَا] يَقُول عنها علماء النحو «لاَمَ التقوية» لضعف عَمَلِ اسْم الفاعل عن عمل الفعل.

وعبارة ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تُفِيدُ ما سَبَقَهُ في الزّمان، لأنَّ المخاطبين في النصّ هم الناسُ، ومَعْلُومٌ أنّ ما بَيْنَ يَدَي النَّاسِ هو الأحداثُ السَّابِقَةُ في الزّمن، إذ المستقبلُ بِالنِّسْبَة إلَى المخْلُوقِ مَجْهُولٌ غَيْرُ مَرْئي، فهُو يُشْبِهُ مَا وَراء ظَهْرِهِ، أمَّا ما سَلَفَ فَقَدْ سَبَقَ به الْعِلْمُ، فَهُوَ يُشْبِهُ المرئيّ بَيْنَ يَدَيْه.

إنّ الناس يَرْكَبُونَ مَرْكَبَةَ حَيَاتِهم وظُهُورُهُم إلى مُقَدِّمَةِ مَسِيرها، وَوُجُوهُهُمْ إلى مُؤَخِّرَتِها، فَهُمْ يَرَوْنَ الحاضِرَ والماضي، ولاَ يَرَوْنَ الآتِيَ مُسْتَقْبلاً.

• ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾:

في هٰذهِ العبارة تَهْدِيدٌ وتَحْذِيرٌ للَّذِينَ كَذَّبُوا بما أَنْزَلَ اللَّهُ من القرآن، ولا سيما أهل الكتاب الّذين بَلَغَهُم مَا أُنْزِلَ من القرآن فَكَذَّبُوا بِهِ وَلَمْ يُصَدّقوه.

وقد جاءت هٰذه العبارة بِصِيغَةِ قضيَّةٍ كُلّيَّةٍ عَامَّة، لأنَّها تتعلَّقُ بصفات الله عزّ وجلّ، الّتي تَنْطَبِقُ على جُزْئِيَّاتٍ كثيراتٍ بعَدَدِ أفرادِ العباد الَّذِين خَلَقَهُمْ، من كُلّ الأجْناسِ والأنواع والأصناف.

وفي هٰذه العبارة أيضاً إطْماعٌ للمؤمنين بالأجر العظيم والثواب الجزيل، فَمَنْ هو خبيرٌ بَصِيرٌ بعباده الَّذين خَلَقَهُمْ لِيَبْلُوهُمْ في ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، ثم ليحاسِبَهُمْ يَوْمَ الدّين، ويَفْصِل قضاءه بينهم، ثُمَّ لِيُجَازِيَهُمْ، فلا بُدَّ أَنْ يُحقِّقَ لَهُمْ وَعْدَه.

والإلْماحُ في هذه الآية (٣١) إلى تحقيق وَعْدِ الله جلَّ جلالُهُ عبادَه، يُشِيرُ إلى ما جاء في الآية (٥) من السورة، وهي قول الله عزَّ وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾.

وبشيءٍ من التفكّر نُدْرِكُ أنّ وَعْدَ الله بالبعث، والحسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتحْقِيق الجزاء يَوْمَ الدّين، يَسْتَلْزِمُ عَقْلاً أنَّه لَا بُدَّ أنْ يكون اللَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعظُمَ سُلطانُه ـ عَلِيماً بأَحْوالِ عِبَادِهِ كُلّها عِلْماً تَفصيليّاً دقيقاً.

وقد جاء توكيد العبارة بأدوات التوكيد: «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزحْلَقة».

﴿خَبِيرٌۢ﴾: من صيغ المبالغة، أي: له غايَةُ الخِبْرَة.

﴿بَصِيرٌ﴾: من صِيَغ المبالغة أيضاً، أي: له غايَةُ الْبَصَرِ المحيطِ بكُلِّ مَا يُمْكِن عقلاً أن يُدْرَكَ بالبَصَر.

**الخِبْرَة**: هي العِلْم بالْعَمَل عِنْدَ ممارَسَتِه، على سَبِيل الشُّهودِ والحضُور المصاحِبِ لكُلّ أجْزَاء الْعَمَلِ، ظَواهِرِه وبواطِنِه.

وهيَ غَيْرُ العِلْمِ بالْعَمَل قَبْلَ حُصُوله، أو العلْمُ به بَعْدَ حُصُولِهِ عن طَرِيقِ الأخبار ونحوها.

ومعلومٌ من المفهومات الدّينيَّة، أنّ عِلْمَ الله بعباده، وبكُلّ شيْءٍ، يَشْمَلُ دَقَائِقَ الأمُور وَجَلائِلَها، وخَفَاياها وظواهرها، وكلَّ ما يتعلَّقُ بها، وهُو أكْثَرُ مِنْ عِلْم أصْحاب الأعمال بأعْمالِ أنفسهم.

وجاء الجمع بين الاسْمَينِ «خَبِير وبَصِير» لأنّ الخبرَةَ قَدْ تكُونَ دُونَ مُشَاهَدَةٍ بَصَرِيَّة، فاقتضَت الدِّقَّةُ في البيان إضافَة أنَّ الله ـ جلَّ جلالُه ـ بَصِيرٌ بِعِباده.

قول الله عزّ وجل:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

**تمهيد:**

إنّ الكتاب الرَّبَّانيَّ الَّذي تَضَمَّنَ تعليماتِ الدِّين الذي هو عنْدَ الله الإسلامُ دَواماً، وتَضَمَّنَ أحكام الشَّرائع والْوَصَايا للموضوعين موضع الابتلاء في ظروف الحياة الدُّنيا، وتضمَّن بيانات الحسَابِ والجزاء يومَ الدِّين، وبياناتٍ تتعلَّقُ بدَارَي الجزاء فيه، قدْ أنزل اللَّهُ عزّ وجلّ مِنْهُ على رُسُلِهِ مُنْذُ عَهْدِ آدم عليه السلام، وحتَّى عَهْدِ عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ، مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الأُمَمُ لصَلَاحِ أُمُورِ دينهم ودُنياهم، ومَا يُعِدُّهم لسَعَادَتهم في آخِرَتهم في جنَّاتِ النَّعيم، وكان ذلِكَ في الأُمم، وتتابع أجيالهم بحسَب أحوالهم، وتَطَوُّرِ ثقافاتهم، وتزايُدِ علاقاتهم الاجتماعيّة، وتنامي تجمُّعاتِهم الْبَشَرِيَّة.

وادَّخَرَ اللَّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ ـ الصِّيغَةَ النهائيَّة الجامعة لكلّ تعاليم الدِّين الّذي اصطفاه اللَّهُ لعباده، فجَعَلها للرّسالة الخاتمة، الّتي اصْطَفَىٰ لهَا مُحَمَّدَ بْنَ عَبْد الله عليه الصلاة والسلام، خاتَمَ أنبيائه ورُسُلِهِ، وهذه الصّيغَةُ التَّامَّةُ الكاملة الخِتَاميّة، هي القرآنُ الْعَربيُّ المبين.

وأبان الله فيه أنَّ هذا الكتاب الْخَاتم مَوْجُودٌ مضْمُونُه في زُبُر الأوّلين، والظاهِرُ أنّ وُجُودَهُ فيها وُجُودٌ على سَبِيلِ التوزيع، مع وُجود الأصُول العامَّة الكُبْرَىٰ في كُلٍّ منها.

فقال الله عزَّ وجلَّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشأنِ القرآن خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾.

أي: وإنَّهُ لَفِي مَجْمَوع كُتُب الأوَّلين.

لكِنَّ الأوَّلين من الأُمَم لَمْ يُحافِظُوا علَىٰ ما أَنْزَلَ اللَّهُ على رُسُلِهِمْ مِنْ كُتُب، فَدَخَلَ فيها النِّسْيَانُ والضّياع، والتحريفُ في الألفاظ وفي المعاني، إذْ لَمْ يتكَفَّلِ الله عزّ وجلّ بحفظها.

فكان من الحكمة أن يصْطَفِي اللَّهُ ـ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ وَعظُم سلطانُه ـ لكتابه الخاتم الأمَّة الخاتمة لِلْأُمَم جَمِيعاً، والمؤهَّلَة لحفْظِه وحُسْنِ فهمِه وتدبُّرِه، كما اصطفى لها الرسُولَ الخاتم لأنبيائه ورُسُله أجمعين، محمَّد بْنَ عَبْدِ الله العربيَّ من ذُرِّيَّة إسماعيل بْنِ إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

وإذ اصْطَفَى اللَّهُ الأمَّةَ الّتي تُؤمِنُ بخَاتَم الأنبياء والمرسلين، من مختَلِفِ الشُّعُوبِ عَرَبِها وعَجَمِها، لحَمْلِ الرِّسَالَةِ الخاتِمَةِ، وَتَبْلِيغها للنّاسِ أجْمَعِينَ، كانَ من الحكمة أن يَصْطَفِيها لتكون وَارِثَةَ كِتَابِ اللَّهِ لعباده، وفْقَ الصيغَةِ الختاميَّةِ المسْتَوْفَاةِ الجامِعةِ لكُلِّ مَا قَضَتْ حكْمَةُ اللَّهِ بإنزالِهِ للناسِ أجْمَعِينَ إلى أن تقوم السَّاعة، ممّا يَشْتَمِلُ على بياناتِ الدين الّذي اصْطَفاهُ اللَّهُ للناس، وهو الإسلام، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ... ﴿١٩﴾﴾.

واقتضت حكمةُ الله أيضاً أنْ يجْعَلَ هٰذِهِ الأمَّةَ الخاتمَةَ المصطَفَاةَ مُؤهَّلَةً لحفظ كتابِهِ الخاتم، من كلِّ تحريفٍ أو زيادةٍ أو نقْصٍ أو نِسْيانٍ أوْ ضَياعٍ، وأنّ يَعْصِمَها منْ أنْ تجتمع على ضلالةٍ، بعصمَةٍ منْهُ، جلَّ جلالُه وعظُم سُلْطانُه.

فهٰذِه الأمَّة المؤمنَةُ المسلمةُ الّتي هِيَ آخِرُ الأُمَم الرَّبَّانِيَّةِ وَخاتِمَتُها، هيَ الأُمَّةُ الوارِثَةُ لكتاب اللَّهِ المشتَمِلِ على بيان الإسْلام الّذي هو دِينُ الله للنّاس أجْمَعين.

ولا تختصُّ هٰذهِ الأمَّةُ بقَوْمٍ دُونَ قوم، ولا بشَعْبٍ دُونَ شعب، ولا بأهل لِسَانٍ دُونَ أهل لسَانٍ آخر، بلْ كُلُّ من آمَنَ بهذا الدِّين إيماناً صَحِيحاً صادقاً لا شائبَةَ تَشُوبُه، فهُو من هٰذه الأُمَّةِ المصطفاة في مجْمُوعها، لا في جميع أفرادها، هو من الأمَّة الوارثةِ لكتاب الله، وفْق الصيغَة الخِتامِيَّة، المنزّلة قرآناً عَرَبياً مبيناً، على رسُول الله محمّد، خاتم الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلاماته عليهم أجمعين.

فالمؤمنون المسْلِمُونَ من كلّ شَعْبٍ، ومن كلّ أمَّة، ومن كلّ لِسَانٍ، ومن كلّ لَوْنٍ، هم الوارثون للقرآن، آخِرِ كتب الله المنزلَةِ وخاتِمها.

**التدبّر:**

قول الله تعالى:

• ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ... ﴿٣٢﴾﴾:

جاء العطف بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالّ على الترتيب مع التراخي مُعَبّراً عن الواقع، لأنّ الأمّة المحمَّديَّة الوارثَةَ لكِتَابِ اللَّهِ، قد جاءَتْ بَعْدَ أَزْمَانٍ مَدِيدَة تَتَابَعَتْ فيها الأُمَمُ، الَّتِي أنزلَ الله على رُسُلِهم زُبُراً وكُتُباً فيها هُدىً ونور.

﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي: جَعَلْنَاهُمْ يَرِثُونَ الكتابَ المنزَّل وفْقَ صيغته الختامِيَّة التامَّةِ الكاملة.

**وَرِث المالَ أو الشيءَ:** أي: صارَ هُوَ المالِكَ لَهُ، أو الحائزَ عَلَيْهِ، أو المتصرّف فيه، أو صاحبَ السُّلْطانِ عليه، بَعْدَ من كان له ذلك قبلَه.

﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾: هم الأمَّةُ المحمَّديَّة الّتي آمنت به، واتَّبَعَتْهُ، في مجموعها لا في جَمِيعِ أفرادها، وقد يكون المرادُ حملةَ الرِّسَالة الرَّبَّانِيَّةِ مِنْهُم بصِدْق، الَّذِينَ لا يَضُرُّهم مَنْ خالفهم، ويَبْقَوْنَ ظاهِرِينَ على الحقّ، أو هؤلاء هم الأئمة فيهم.

**أورثنا:** فعلٌ يَتعدَّىٰ إلى مفعولين، الأوّل منهما هنا لفظ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والثاني: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾.

وقد جاء في البيان القرآني توكيد هٰذا الاصطفاء لأمّة محمّد ﷺ، في خطاب الله عزّ وجلّ الّذين آمنُوا في خواتيم سورة (الحج/٢٢ مصحف/١٠٣ نزول) فقال تعالى فيها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾: أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ ربَّكُم هو الَّذي اصْطَفَاكُم واخْتارَكم لِحَمْلِ هٰذه الرِّسالة الخاتِمَة، وتبلِيغها للنَّاس، لتَكُونُوا شُهَدَاء على مَنْ بَلَّغْتُمْ دِين ربّكم يَوْمَ الدِّين، كما أنّ الرّسُولَ محمّداً شَهِيدٌ عليكم بأنّه أدّى إليكم الرّسالة، وبَلَّغَ الأمانَةَ، ونَصَحَ الأمّة.

وبالتَّدَبُّر نُلاحِظُ أنَّ هٰذَيْنِ النَّصّيْنِ من سورتي (فاطر) و(الحج) مُتكاملانِ في موضوع اصْطفاء الله للأمّة المحمّديّة المؤمِنَة المسلِمَة، ولَيْسَا بمُتَطابقَيْنِ لِمُطْلَق التوكيد بالتكرير.

فما جاء في سورة (فاطر) المنزّلة في أواسط الْعَهْدِ المكّي مِنْ مَسِيرَة دَعْوَة الرَّسُولِ ﷺ، قد تَضَمَّنَ بيان اصطفاء أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ لِوِرَاثَةِ الكتاب الخاتم، الجامع لصَفْوة ما في كُتُبِ الله السابقة المنزَّلة على الرُّسُل السابقين عليهم السلام، فهو الكتابُ الصفوة.

وما جاء في خواتِيم سورة (الحج) المنزَّلة في أواسط الْعَهْدِ المدَنِيّ من مَسِيرَة دَعْوَة الرَّسُول، قَدْ تَضَمَّن بيان اصطفاء أُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ، لتبليغ

دين الله للناس، والدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، والمجاهَدَةِ في الله حَقَّ جِهَادِهِ، وقَبُولِ شَهَادَتِهِمْ على النَّاسِ يَوْمَ الدِّينِ، بأنَّهُمْ بَلَّغوهُمْ الرِّسَالَةَ الَّتِي آمَنُوا بِها، وَتَحَمَّلُوا أَمَانَةَ تَبْلِيغها للنَّاس، كما يكونُ الرَّسُول ﷺ شهيداً عليهم، بأنَّهُ بَلَّغَ مَنْ لَقِيَ مِنْهُمْ رِسَالَةَ رَبِّهِ الَّتي أنْزَلَها عليه، وأَمَرَهُ بأنْ يُبَلِّغَها، ويُحَمِّلَ المُبَلَّغين الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ أَمَانَةَ تَبْلِيغِها.

وبهذا تتواصَلُ حَلْقَاتُ سِلْسِلَةِ التَّبْليغ، ويَكُونُ المبَلِّغُ يوم القيامة شهيداً علىٰ مَنْ أَوْصَلَ إِلَيْهِم البلاغ.

إنَّ الرِّسالَةَ الخاتِمَةَ المصْطَفَاة، اقتضَتِ اصطفاءَ الرَّسُولِ الخاتم، واصطِفَاءَ الْأُمَّةِ الخاتِمَةِ لِورَاثَةِ كِتَابِ الله الخاتم لكتب الله، واصطِفاءَها لحَمْلِ رِسالة الرَّسُولِ الخاتم، وتبْليغِيها للنَّاسِ كافَّة، واصطفاءَها لتشْهَدَ علىٰ الناس بالبلاغ يوْم الدّين، وبهذا تكامَلَتْ عناصرُ حكْمَةِ الله في هذا الأمر.

ولا يخفى على المفكّر المتدبّر المراقب لواقع حال الأمَّة المحمّدية المسلمة، أنَّه ليس المرادُ باصطفاء أمَّةِ محمَّد ﷺ، أنّ كُلَّ فَرْدٍ من أفراد هٰذه الأمَّة، قَدْ حَظِيَ بهذا الاصطفاء من الله جَلَّتْ حكمَتُه، بل المرادُ وُجُودُ هٰذا الاصطفاء فيها، ولو لطائفةٍ منْها في كلّ عَصْر، وتُوَزَّعُ عناصِرُ الاصطفاء علىٰ أفراد هٰذِه الطائفة.

وقدْ دلّنا على هذا ما جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ، فيما رواه البخاريُّ ومُسْلِمٌ عن المغيرة، أنَّه قال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ».

وروىٰ مُسْلِمٌ والترمذيُّ وغَيْرُهُما عَنْ ثَوْبَانَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذٰلِكَ».

وروى البخاري ومُسْلِمٌ وأحْمَدُ عن مُعاوية، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ يأتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَىٰ النَّاسِ».

**أقول**: المرادُ بظهور هٰذه الطَّائِفَة جُرْأَتُها في إعْلانِ الْحَقّ وعَدَمُ مُوافَقَتِها علىٰ انتشار الباطل والدَّعْوَةِ إليه، وانتصارُها لِدِينِ الله، والمجاهَدَةُ في تَبْلِيغِهِ ما استطاعَتْ إلى ذلك سبيلاً.

ويَدُلُّ علىٰ أنّ المرادَ وُجودُ هؤلاء المصطفين في أمّةِ محمّد ﷺ، وأنّه ليس الْمرادُ اصْطِفاء كُلّ فَرْدٍ من أفْراد هٰذه الأمّة المسلمين، قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر):

• ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ... ﴿٣٢﴾﴾.

فأبان الله عزّ وجلَّ أنَّ هٰذِهِ الأمَّة المحمّديَّة المسلِمة تَنْقَسِمُ إلى ثلاثَة أقْسام كُبْرَىٰ، وأفراد كُلِّ قِسْمٍ من هٰذِه الأقسامُ مُتَفاضِلُونَ فيما بينهم:

**القسم الأدنى وهُمُ الأكْثَرُ عَدَداً**: دَلَّ عَلَيْهم قول الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾: أي: ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ بالمعاصي والمخالفات وارْتكاب كبائر الذّنوب والآثام.

وكلّ فرد من أفراد هذا القِسْم صحّ إيمانه وإسلامه، ولكِنَّهُ ظلم نفسه، وأَسْرَفَ عليها، باقترافِ المعاصي والآثام، وارْتكاب الكبائر التي نهىٰ الله عنْها نهْياً مَقْروناً بتَحْذِيرٍ شَديد، وقَدْ رتّب عليها عقاباً أليماً.

وأفرادُ هذا القسم، الظالمون لأنفسهم، والمسْرفونَ عليها، يَتَنازَلُونَ في دَرَكَاتٍ هابِطاتٍ عن سَقْف مَرْتبة التقوى.

وهٰذه الدّركاتُ لا يُحْصِي عَدَدَها إلّا الله جلّ جلاله، ومن شاء تبارَكَ وتعالى أنْ يُعَلِّمَهُ من ملائكته أو رُسُلِه.

فقول الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾: أي: فقِسْمٌ من وارثي الكتاب الرَّبَّاني، الّذي ختمَ الله عزّ وجل به الكُتُبَ المنزّلة، هو قِسْمٌ ظَالِمٌ لنفسه.

لقد وصَفَ الله عُصَاةُ المؤمنين المسْلِمين بأنَّهُمْ ظالمون لأنْفُسِهم، بسَبَب تَعْرِيضِهم أنفُسَهم بمعاصيهم لعقاب الله العادل، وبِسَبَبِ حِرْمَانِهِمْ أَنْفُسَهُمْ من النَّجَاة، ومن الْفَوْزِ بالأجْرِ العظيم، والثواب الجزيل، الّذي وعَدَ اللَّهُ به عِبادَه كاملي التقوى.

وهذا الوصف يَنْطَبِقُ على الكافرين من بَابِ أولَىٰ، لأنَّهُمْ جَلَبُوا لأنفسهم بكُفْرِهم عذاباً أبَدِياً خالداً.

إنّ الله ـ جلَّ جلالُه وعظُمَ سُلْطانه ـ لا يَضُرُّهُ كُفْرُ الكافرين، ولا جُحودُ الجاحِدين، ولا عِصْيَانُ العاصين مهما أسْرَفُوا على أنفسهم بالمعاصي، ولكنّ هؤلاء يضُرُّونَ أنْفُسَهم بما يَكْتَسِبُونَ، لأنَّهم يجلُبُون لأنفسهم العذابَ الخالِدَ الأليم العادل، أو يُعَرّضُونها لِعِقَاب الله الْعَادِلِ، فهم يظلمون أنفسهم، إذْ لا يَقُومون بحُقُوقِ أنْفُسِهم عليهم، منْ صيانةٍ وحمايةٍ، وجَلْب منَافِعَ ضَرُورِيَّة، وهٰذِهِ لَا تَتحقَّقُ لها إلا بأنْ يُؤَدّوا ما أوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهم، وبِأَنْ يَجْتَنِبُوا مَا نَهَاهُمْ الله عنه نهي إلْزامٍ وتَحْرِيم.

وفي مقابل ذلك فإنّ الله لا ينفَعُهُ إيمانُ المؤمنين، ولاَ إسلام المسلمين، ولا طاعة المطِيعين، ولكنّ هؤلاء ينفَعُونَ أنْفُسَهُمْ بما يكْسِبُون من أعمال صالحة يرضىٰ بها اللَّهُ عنهم.

إنَّهم بما يكسبون من صالحاتٍ يحْمُونَ أنْفُسَهم من عقاب اللَّهِ وعذابه ونِقْمَتِهِ، ويَجْلُبُونَ لأنْفُسِهم الثوابَ العظيم الذي جَعَلَهُ اللَّهُ بفَضْلِهِ للمتَّقِينَ الْقَانِتِينَ العاملين بمراضيه.

إنّ أقْبَحَ الظُّلْم وأَشْنَعَهُ وَأَكْثَرَهُ دَلَالَةً على حماقَةِ مُرْتَكِبِهِ، وَسَفَاهَتِهِ، وقِلَّة عَقْلِهِ، أنْ يَظْلِمَ الإنسان نَفْسَه.

مَا أشَدَّ حَمَاقَةَ مَنْ يَنْطَحُ الْجَبَلَ الْعَظِيمَ بهَامَتِهِ، أو يُعَانِدُ الْحَدِيدَ المحمِي فَيُدْنِيهِ مِنْ بُؤْبُؤ عَيْنَيْهِ، لِيَسْتَمتِعَ برُؤيَةِ وَهج النّار الّذي يُسَبِّبُ له انطفاءَ نِور عينيه، أو يَشْرَبُ السُّمَّ القاتل المحلّىٰ بالْعَسَلِ أو يَعْصِي اللَّهَ رَبَّه، مُسْتَهِيناً بما رَتَّبَ من عقابٍ على من عصاه في أوامره ونواهيه.

وبهذا يظهر لنا أنَّ أدنى وصْفٍ وأَحْكَمَهُ لِقِسْم العصاة لله عزَّ وجلَّ أنَّهم ظالمون لأنفسهم.

**القسم الأوسط**: وعَدَدُهم أقَلُّ من عددِ القسم الأدنى بفارق كبير، وقد دلَّ على هذا القسم قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ فهو قسم المقتصدين.

**المقتصد**: هو الّذي يتوسَّطُ في أَمْرِهِ، فلا يَزيد على المطلوب الواجب عليه، ولا ينقُصُ منه، والمقتصد في النفقة هو الذي لا يُسْرِف ولا يُقتّر، بل تكون نَفَقَتُهُ وسطاً.

والمرادُ بالمقْتَصِد في السُّلُوك الديني، هو مَنْ يَحْرِص على فِعْلِ الواجبات، وترك المحرَّمات، ولا يعتني بالتوسُّع في نوافل العبادات والْقُرُبات، بفِعْلِ المنْدُوباتِ وتَرْك المكْرُوهَات.

فقولُ الله تعالىٰ؛ ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾: أي: ومن وارثي الكتاب الرَّبَّاني، الذي ختم الله عزّ وجلّ به الكُتُبَ المنزّلة، قِسْمٌ مقتصد.

وأَصْلُ معنى المقتصد المتوسِّطُ بَيْنَ طَرَفَيْن، فإذَا كَانَ توسُّطُهُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ غَيرِ مَحْمُودَيْنِ، كان توسُّطه هو الأفْضَلَ والأكْمَلَ والأَعْلَىٰ، وإذَا كان تَوَسُّطُهُ بيْنَ جِهةٍ غَير مَحْمُودَةٍ هابِطَةٍ في الدَّرَكَاتِ، وَبَيْنَ جِهَةٍ صَاعِدَةٍ مَحْمُودَةٍ ذَاتِ دَرَجاتٍ تَتَرَقّى في الكَمَالات، كانَ اقتصادُهُ مُنقِذاً لَهُ مِنَ الذّمّ والمؤاخذة، ومُحَقّقاً لَهُ أَدْنَىٰ دَرَجاتِ الكمال.

والمقْتَصِدُ في فَضائل السُّلوك الإسلاميّ، هوُ الَّذي يُؤَدّي حُقُوقَ أدْنَىٰ

دَرَجَاتِ الكمال، ويكونُ هذا كما سبَقَ بيانُه بتأْدِيَةِ الواجبات، واجتنابِ المحرَّمات، وقدْ يُجْبَرُ الْخَلَلُ فيها بالاستغفار والتَّوْبة، وبتأدية بَعْضِ نَوافِلِ الْقُرُبَاتِ من غير فعل الواجبات وتَرْكِ المحرَّمات.

ودَرَجَةُ الاقتصاد هي أُولَىٰ دَرَجَاتِ الكمال إذَا نَظَرْنَا إلىٰ مَا فَوْقها، وهي أعْلَىٰ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ التقوى، إذ نَظَرْنا إلى مَا تَحْتَها.

فَمَنْ كانت أعمالُه هابطةً عَنْهَا كانَتْ مُخْتَلِطَةً بالمعاصي والمخالفات وكان من الظَّالِمِينَ لأنْفُسِهم على مقدار تناقُصِ دَرَجاته عن أَعْلَى دَرَجَات مُرْتَبَةِ التقوى.

**القسم الأعلى**: وهم الأقل عدداً، وقد دَلَّ على هذا القسم قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

فهو قسم السّابقين بالخيرات، وأفرادُ هذا القِسْم همُ الَّذِينَ يتَقَرَّبُونَ إلىٰ الله بالنَّوافِلِ ممَّا يُحِبُّهُ الله من عباده، فوق أدائهم للواجبات، وتركهم للمحرَّماتِ، طَلَباً لمرضاة الله، والثواب الجزيل عنده.

وأفراد هذا القسم علىٰ دَرَجات متفاضِلاتٍ كثيرات، بمقدار سَبْق كلّ واحِدٍ منهم بِفِعْلِ الخيراتِ الّتي يَحِبُّ الله من عباده الصالحين أَنْ يَفْعَلُوها، وبتَرْكِ المكروهات التي يحبُّ الله من عباده الصالحين أن يَتْرِكُوها، مع أنَّه جلَّ جلالُه يُلْزِمْهُمْ بذلك رحمةً بهم.

**الْخَيْرات**: مُفْرَدُها «الخَيْرَة» وهي الخَصْلَةُ الفاضِلَةُ من كلِّ شيءٍ، أيْ: ذاتُ الزيادة من الخيْر فِعلاً أو تَرْكاً.

وقسم السّابقين بالخيْرات قد سمَّاهم الله عزَّ وجلّ باسم «عباد الرحْمٰن» في سورة (الفرقان).

وجاء في القرآن بيانُ أَنَّهُمْ على مرتبتَيْن:

**المرتبة الأدنى**: «الأبرار» وهُمُ الذين ارتَقَوْا فَوْقَ مرتَبَةِ المتقين، ودَخَلَوا في درجات مرتبة «**البرّ**» بسَبَب توسُّعِهِم في القيام بنوافل القربات من مَرَاضي الله عزّ وجل، وتركهم للمكْرُوهات وما هو خلاف الأولى، فوقَ أدائهم للواجبات وتركهم للمحرمات.

وهؤلاء يتفاضلون في الدرجات بمقدار توسُّع كلّ فردٍ منهم في ذلك.

**المرتبة الأعلى**: «المحْسِنُون» وهم الذين ارْتَقَوا فَوْقَ مرتبتي المتقين والأبرار معاً، ودخلوا في درجات مرتبة «**الإحسان**» مع قيامهم بحُقُوق مَرْتَبتي «**البِرّ**» و«**التَّقْوَى**».

**والمُحْسِنُونَ**: هُمُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الله من مستوى مرتبة «**الإحْسان**»: وقد شرح الرَّسُول ﷺ الإحْسَانَ بأنْ يَعْبُدَ العابِدُ لله عزّ وجلَّ كأنَّهُ يَرَاهُ، وظاهرٌ جَليٌّ أنّ من يَعْبُدُ الله وَهُوَ يَراهُ تكونُ عبادَتُه في أعْلَىٰ دَرَجَةٍ من التجويد والإتْقَانِ والإحْسَان والإخلاص.

وهؤلاء يتفاضَلُونَ في الدَّرَجاتِ، بحَسَبِ تفَاضُلِهم في أعمال الْبِرّ والإحْسَان.

وقد وصَفَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ أهْلَ مَرْتَبَتَي **الأبرار** و «**المحسنين**» بوَصْفِ «**المقَرَّبين**» في سورة (الواقعة) إذْ هُمْ بما كَسَبُوا من أعْمال البرّ والإحسان قد جَعَلَهم الله بفَضْلِه وجُودِه من المقَرَّبين إليه، وقد أعْطاهم الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان) لقَبَ «**عِباد الرَّحْمٰنِ**» إذْ جَعَلَ حَظَّهُمُ الأوفَىٰ عندَهُ من اسْمِه «الرَّحْمٰنُ» فَيْضَ عَطاءٍ وإسْعَادٍ ونَعِيمٍ ورضوان.

فـقـول الله عـزّ وجـلّ: ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾: أي: ومِـنْ وَارِثـي الكتاب الرَّبَّاني الّذي خَتَمَ الله عزّ وجلّ به الكتُبَ المنزَّلَة، قِسْمٌ سَابِقٌ بالخيْرات الّتي يُحِبُّ اللَّهُ جلَّ جَلالُهُ من عباده الصالحين أنْ يَفْعَلُوها، ممَّا

لم يَفْرِضْهُ فيما اصطفىٰ لعباده من الدّين، وبتركِ ما لَا خَيْرَ فيه ممَّا يحبُّ الله من عباده الصالِحينَ أنْ يَتْرُكُوه، وهُوَ بحِكْمَتِهِ لم يُحَرّمْهُ عَلَيْهم رَحْمَةً بهم وَتَيْسِيراً.

وهٰذا القِسْمُ السَّابِقُ بفعل الخيرات هو سابقٌ لِقِسْمِ «**المقتصد**» الذي اقتصر على فِعْلِ الواجبات وترك المحرَّمات، ولم يتوسَّعْ في أعمال الْبِرّ، ولم تصِلْ إلى درجات مَرْتبة «الإحْسان»، والباء في عِبارة: ﴿بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ سببيَّة.

ولمّا كانت الخيراتُ كثيراتٍ جدّاً كانت مجالاً واسعاً، ومَيْداناً مَدِيداً للتنافُس والتَّسَابُق وتفاضُلِ الدّرجات.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: في هٰذه العبارة بيانٌ دقيقٌ يُفيدُ أنّ كَسْبَ العباد سواءً أكانوا ظالمين لأنْفُسهم، أمْ مُقْتَصِدِين، أم سابقينَ بِفَعْلِ الخيرات، إنَّما يَتِمّ بإذْنِ الله جلَّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطَانُه.

فإذَا لَمْ يَأْذَنِ اللَّهُ عزّ وجلّ بِحُدُوث أمْرٍ ما، أوْ لكاسبٍ أن يَكْسِبَ عملاً ما، لم يكُنْ ذلِكَ الأمْرُ، ولا ذلِكَ الكَسْب.

إنَّهُ بَعْدَ التمكين العامّ من استخدام المسَخَّراتِ لا بُدَّ من الإذْنِ الخاصّ من الله تبارك وتعالى، عِنْدَ مُمَارَسَةِ الكَسْبِ الذي يَكْسِبُهُ الْعَبْدُ باختيارِهِ الحرّ.

وأُقَرّبُ هذا إلى الأذهان، ولِلَّه المثَلُ الأَعْلَى ـ بِمَنْ يُمِدَّ بالطَّاقَةِ الكَهْرَبَائِيَّةِ عَدَداً من السَّاكِنِينَ في عمارته ضُيُوفاً عليه، وهُوَ مُراقِبٌ دواماً لاسْتخدامهم لهٰذه الطاقة، فَمَا دَامُوا يستخدمون الطاقَة الكهربائية ضِمْنَ الحدود الّتي لا تُضِرُّ بنظام العمارة العامّ، فإنَّهُ يَتْرُكُ لَهُمْ الحرِّيَّةَ في اسْتِخْدَامِها، ويَسْتَمِرُّ على إمدادهم بها، لكِنْ إذا جاء أَحَدُهم بآلَة كهْرُبائيَّة،

إلى مكان إقامته، وأراد أَنْ يَسْتَخْدِمَ الطَّاقَةَ الكهْربائية الّتي يُمِدُّ بها صاحِبُ العمارة في جعل الآلة تعمل بها، ومِنْ شأنِ عَمَلِ هذِهِ الآلَة أَنْ يُضِرَّ بِالْعِمَارَةِ أو بمصالح السّاكنين الآخرين عِنْدَه فيها، فإنَّهُ يَفْصِلُ عنْهُ التَّيَّارَ الكهربائي، ولَا يَأْذَنُ لَهُ بأن يَفْعَل ما يُرِيد بآلته.

وبهذا نُدْرِكُ أنَّ أعْمال العباد، الّتي تَتَحَقَّقُ في الأكْوان عن طريق اختياراتهم الحرَّة، إنَّما تَتِمّ بإذْنِ الله، لأنّه جلّ جلالُه وعظُمَ سُلْطانه هو الّذي يُمِدُّهم بطاقاتهم التي يَعْمَلُونَ بها أعمالهم، وهو عالم دواماً باختياراتهم، وشهيدٌ دواماً على ما يَعْملونَ، فإذا لم يأْذَنْ بما اختارُوه من عَمَل قطَعَ عَنْهُمْ مَدَدَه، بوسيلة من وسائله الخفية، فلم يُمَكِّنْهُمْ مِن تحقيق ما اختارُوا عَمَلَهُ وإنْجازه.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

﴿... ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾.

**تمهيد:**

في هٰذِهِ الآياتِ بيان مَشْهَدٍ مِنْ مَشاهِدِ فَضْلِ اللّهِ الكبير يَوْمَ الدّين، على المؤمنين المسلمين الّذين أورثَهُمُ الله الكتابَ الخاتم، واصْطَفاهم لتَبْليغ رسالة الإسلام إلى العالمين، لأنّ سَوابِقَ هٰذِهِ الآياتِ كان الحديث فيها عنهم، ويختصّ هذا الفضل الكبير بقِسْمِ السابقين بالخيرات منهم.

ولا يفيدُ النصّ أنَّ هٰذا المشْهَدَ خاصٌ بهم، دون المؤمنين المسلمين السابقين بالخيرات من أتباع الرُّسُلِ قَبْلَهُم، فَلِكُلِّ المؤمنين السابقين

بالخيرات من سائر الأمم قبلهم فضلٌ كبير من الله في جنَّات عَدْن، وقد جاء بيانُ هذا في نُصُوصٍ أُخرى.

ولَكِنْ بَعْدَ بِعْثَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ، لا يُقْبَلُ مِمَّنْ بَلَغَتْهُ إلَّا الإيمانُ به، واتِّبَاعُ ما جاء به، فَلَا حظَّ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ وَلَمْ يَتَّبِعْ مَا جَاءَ به في هذا الْفَضْلِ الكبير، الذي جاء بيانُهُ في هذه الآيات، ولا حظَّ في دُخول الجنَّة بسَبب كُفْرِهِ الذي لا عُذْرَ لَهُ فيهِ.

وينبغي أن لا نغْفُل عن أنَّ هٰذا المشْهَدَ هو أحَدُ المشاهِدِ الكثيرة، الَّتي عَرَضَها القرآن المجيد، لنعيم المؤمنين المسلمين يوْم الدين، وبضَمّ بَعْضِها إلى بَعْضٍ، معَ التّدَبُّر التحليليّ، يُمْكِنْ إخراجُ سِفْرٍ كبيرٍ، يَشْتَمِلُ علَىٰ مَا سَوْفَ يَكُونُ لأَصْحَاب الجنَّةِ فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ عظيم، بفضل الله على عباده المتقين.

**التدبّر:**

قول الله تعالَى:

﴿.. ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ..﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: الـمُشَارُ إلَيْه بهذا الاسم من أسماء الإشارة الموضوع للمشارِ إلَيْه البعيد، هو: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ والغرضُ بيانُ عُلُوِّ شأن جنَّاتِ عَدْنٍ وارْتِفاعِ مَنْزِلَتِها الفاخِرَة.

﴿هُوَ﴾ ضمير فَصْلٍ ﴿ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ خَبَرُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ وتَعْرِيفُ طَرَفَي الإسْنَادِ يَدُلُّ على الْحَصْرِ والْقَصْرِ، فالمشارُ إليه هو الْفَضْلُ الكبيرُ لا غَيْرُهُ، لأنَّ جنَّاتِ عَدْنٍ أعْظَمُ ما أعَدَّ الله للمتقين من عباده.

وعبارة ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ تَشْمَلُ كُلَّ مَا يُنْعِمُ الله فيها على عِبادِهِ، ومن ذلِكَ رِضوانُه الَّذِي يُفْرِغُهُ عليهم.

وعلى الأديبِ الذَّوَّاقِ للأدَب الرَّفيع أنْ يَتَأَمَّلَ مُسْتَمْتعاً بهٰذه المفاجأة في البيان، إذْ يقولُ اللَّهُ عزّ وجلَّ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ فإذا انْدَفَعَتْ نَفْسُهُ للسُّؤالِ عَنِ المشارِ إلَيْهِ مُسْتَجْمِعاً كُلَّ وَعْيِهِ، جاءه البيانُ التالي: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾.

﴿جَنَّٰتُ﴾ بَدَلٌ من ﴿ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أو عطفُ بيان.

إنَّ هذا الجزاءَ ذا المنزلَة الرَّفيعة في جنّاتِ عَدْنٍ خاصٌّ بالسّابقين بالخيرات، يَدُلُّ على هذا ما يلي:

(١) أنّ جنّاتِ عَدْنٍ منازِلُ رَفِيعَةٌ في عُمُومِ الجنَّة.

(٢) أنَّ أهْلَ جَنَّاتِ عَدْنٍ يُحَلُّوْنَ فيها مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهب، وهذا خاصّ بالسَّابقين بفعل الخيرات أيضاً.

أمّا غير السّابقين فقد جاء في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) بيان أنَّهم يُحَلَّوْنَ أسَاوِرَ من فضَّةٍ، فقال الله عزّ وجلّ فيها بشأنهم:

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾.

وجاء توكيد أنَّ السّابقين بالخيرات يُحَلَّوْن في الجنَّةِ من أَساور من ذهب فيما يلي:

- في الآية (٣١) من سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول).
- وفي الآية (٢٣) من سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول).

**الجنَّة**: هي في الدنّيا الحديقةُ ذاتُ الشَّجَر الكثير السّاتر لما تحتَهُ سَتْراً يُعْطِي ظِلاً ولا يمنَعُ النور، والبُسْتَانُ ذو الأشجار الكثيرة المتنوّعة.

وجاء إطلاقُ اسم «الجنَّة» في النصوص الدينيَّة علىٰ دار النعيم في الآخرة، الّتي وُصِفَتْ بأنّ عَرْضَها كَعَرْضِ السّماوات والأرض، ومَعَ كوْنِها

بِعُمُومها جَنَّةً واحِدَةً، إلاَّ أنَّها بالنِّسْبَةِ إلى أقْسَامِها ودَرَجاتِها المتفاضلات، ومنازِلِ المنَعَّمِينَ فيها، هي جنّاتٌ مُتَعَدِّدات، وحظوظ أصْحَابها فيها متفاضلات أيضاً. ولهذا جاء إطلاق لفظ «جنَّات» في القرآن على دار النعيم يوم الدّين (٦٩) مرَّة أمَّا إطلاق لفظ «جنَّة» بالإفراد فقد جاء في القرآن (٦٦) مرَّة.

﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾: أي: جنَّاتُ ثَباتٍ واسْتِقْرارٍ دائم، يُقالُ لغة: عَدَنَ بالمكان يَعْدِنُ، ويَعْدُنُ، عَدْناً وعُدُوناً، أي: استقرَّ فيه وثبت. وجنَّاتُ عَدْنٍ منازلُ رفيعة في عموم الجنّة، ذات حظوظ أوفر للمقيمين فيها.

﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ وفي القراءة الأخرى [**يُدْخَلونَها**]: أي: يُسَاقُون إلى دُخُولها مُكَرَّمين يَوْمَ الدّين، فَيَدْخُلُونَها سُعَداءَ فرِحين بما آتاهم الله من فضله. وجملة ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ خَبَرُ ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾.

ودلَّ على السَّوْقِ قولُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (الزمر/٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

قول الله تعالى:

﴿... يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾: خَبَرٌ ثانٍ لـ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾ وهو فيما أرى أولى من اعتبارها حالًا مقدَّرة.

أي: يَلْبَسُونَ في جنَّاتِ عَدْنٍ تَزْييناً لهم حُلِياً مِنْ صِنْفِ أسَاوِرَ مِنْ

ذَهَب، ويُلْبَسُونَ فيها أيضاً لُؤلُؤاً، على شَكْلِ أطْواقٍ وتيجانٍ وأسَاوِرَ، وغير ذلك.

وقراءة الجرّ للفظ [لُؤلؤ] تَدُلُّ على أنّ الأساور من ذهبٍ مُطعَّمَةٌ ومُزَيَّنَةٌ باللُّؤلُؤ.

فالقراءتان متكاملتان في تأدية المعنى المراد.

يُقَال لغة: حَلّاهُ، أي: ألْبَسَهُ حُلِيّاً، أو أعطاه حُلِيّاً لَيَلْبَسَه.

الْحُلِيّ: جَمْعٌ مُفْرَدُه «الْحَلْيُ» وهو ما يُتَزَيَّنُ به من مصُوغ المعادن، كالذَّهَب والْفِضَّة، وما يُتَزَيَّنُ به مِن اللَّآلِئِ والْحِجَارَة الكريمة، كالألْمَاس، والزُّمُرّدِ والياقوت، وغيرها.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾: أيْ: وكُلُّ أنواع ألْبِسَتِهِمْ في جنَّاتِ عَدْنٍ مصنوعةٌ بخَلْقِ الله عزّ وجل، من خيوط الْحَرير، أَنْفَسِ الْخُيُوطِ وَأنْعَمها، إلاَّ أنَّ حَرِيرَ الْجَنَّة لا نظير له في حَرِير الدُّنيا، إذِ هو يتناسَبُ مع ما فيها من كلّ رفيع نفيس، ومع ما فيها مما لا عينٌ رأتْ ولا أذُنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر. ودلَّ هٰذا البيان على أنّ النظام العامّ لأهل الجنَّةِ نَظَامُ ارْتِداء ألْبِسَةٍ ساترة، لا نظامُ عُرْيٍ وكَشْفٍ لِلْعَوْراتِ.

قول الله تعالى:

• ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

مَقَالَةٌ يَقُولُها أهلُ جنَّاتِ عَدْنٍ بَعْدَ أن يَسْتَقِرُّوا فيها، وقد جاءت هٰذه المقالَةُ مسْتَقْطعةً من حَدَثٍ مُسْتَقْبلي، ومَقَدَّمَةً في النصّ بأسْلُوب حَدَثٍ وَقَعَ ومضَىٰ، لتأكيد أنَّه سَوْفَ يَقَعُ حَتْماً.

وفي هذه المقالة ثناءٌ من أهْلِ جَنَّاتِ عَدْنٍ على الله ـ جلّ جلالُه

وعَظُمَ جُودُه وفَيْضُ عطائه ـ بإسْنَادِ كلّ الحَمْدِ له، إذْ يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

والّذي أطْلَقَ ألسنَتَهُم بهٰذا الحمْدِ ما نَالُوه في جنَّاتِ عَدْنٍ من فَضْلِ الله عليهم، ويذكُرُون في هذا الثناء ممّا تفضَّل الله به عليهم خَمْسَةَ إنْعَامات:

**الإنْعَامُ الأوّل**: دلَّ عليه قولهم في الثناء على الله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾:

**الْحَزَنُ والْحُزنُ**: مَا يُصِيبُ النَّفْسَ من غَمٍّ وألَم بِسَبَبِ مُصِيبَةٍ لَمْ يُمْكِنْ دَفْعُهَا وَلَا رَفْعُها، أَوْ بسَبَب فَوَاتِ مَحْبُوبٍ، أو مَرْغُوبٍ فيه.

إنَّ أهْلَ الجنَّةِ في الجنَّةِ لَا يَجِدُونَ في أَنْفُسِهِمْ حُزْناً عَلىٰ شَيْءٍ فَاتَهُمْ قَبْلَها، ولا حُزْناً على شيْء لم يَنَالُوه فيها، إذْ لَهُمْ فيها مَا يَدَّعُون.

ولا يَجِدُونَ في أَنْفُسِهم حُزْناً على مُعَذَّب في النّار مِمَّن كانَتْ لَهُمْ بِهِ قرابَةٌ، أو خُلَّةٌ، أو صَدَاقَة، لأنَّهُمْ لا يُرْضِيهم يَوْمَئِذٍ إلَّا ما يَرْضَىٰ الله به، فلا يَجِدُونَ في أنفسهم حُزْناً على أحَدٍ قضَىٰ اللَّهُ عَليْه بأنْ يكونَ من المعذَّبين.

**الإنْعامُ الثاني**: دلَّ عليه قولُهُمْ في الثناء على الله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾:

إنّهم يتَذَكَّرُونَ مَا سَعَوْا في الحياة الدُّنيا، فَيَجِدُونَ ذُنُوباً كثيرةً جدّاً قَدْ غَفَرها الله لهم، وتَجاوَزَ لَهُم عَنْها، ويَجِدُون أعمالاً صالحةً قَلِيلةً قَدْ أثابَهُمْ اللَّهُ عليْها ثواباً جزيلاً جدّاً، لَا يَسْتَحِقُّونَه، فَيَقُولُونَ: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾: أي: نؤكّد أن رَبّنا لكثير المغفِرة وعظيمها، ولَكِثيرُ الشُّكْرِ وعظيمه، والْغَرَضُ من التأكيد تعظيم الثناء على الله.

**غَفُور:** صيغة مبالغةٍ وتكثيرٍ وتعظيمٍ لصيغة «غافر».

**شَكُور:** صيغة مبالغة وتكثير وتعظيم أيضاً لصيغة «شاكر».

ومن آثار شُكْرِهِ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أنَّه يَجْزِي على الْعَمل الصالح اليَسِير، بالجزاء الجزيل الكثير الْوَفير.

ويؤكدون عبارَتَهُمْ بالمؤكدات: «إن ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحلقة» لما سبق بيانه.

**الإنعامُ الثالث:** دلَّ عليه قولهم في الثَّناء على الله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾:

أي: الّذي جَعَلَنا نَحُلُّ دَارَ الإقَامَةِ الدَّائِمَةِ من فضله، لا بِعَمَلِنا وكَسْبِنا، وهذه الإقامة لا نهاية لها لأنّ أهل الجنّة خالدون فيها.

إنَّهم حينئذٍ يُدْرِكُون، أنَّ ما قَدَّمُوه من أعمالٍ صالحةٍ في الحياة الدُّنيا، لا يُكافئ نِعَمَ اللّهِ عليهم فيها. فَمَا أنْعَمَ اللّهُ عليهم به في الآخرة قَدْ كان بمحْضِ فَضْلِ اللّهِ عَلَيْهِمْ.

ومن هذا نفهم أنَّ «الباء» في: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصف/ ٣٩ نزول) بشأن أصحاب الجنّة:

﴿... وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

وفي قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠):

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

هي «بَاءٌ» سَبَبِيَّة، دالَّةٌ على أنّ ما كانوا يَعْمَلُونه من صالحات في الحياة الدُّنيا، قَدْ كانَ سَبَباً في تَحْقِيقِ وَعْدِ الله لهم بأنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بإدْخالِهِمُ الجنَّةَ مُنَعّمِين خالِدين، ولا تَدُلُّ هٰذِهِ الباء على أنَّ المتّقين يَسْتَحِقُّونَ دُخولَ الجنّةِ بأعْمالِهِم استحقاقاً ذاتياً.

وهذا ما أبانه الرَّسُول ﷺ بقوله فيما روى البخاري ومسلم عن أبي هُرَيرة:

«لَنْ يُدْخِلَ أَحداً عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَني اللَّهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ»[1].

﴿ٱلْمُقَامَةِ﴾ هي في اللُّغة: الإقَامَة، ومَوْضِعُ الإقامة. ويقال لغة: أقام بالمكان، أي: لبث فيه واتَّخَذَهُ وَطناً.

**الإنعام الرابع**: دلَّ عليه قولُهُم في الثناء على الله: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾:

**الْمَسُّ**: أَخَفُّ الْتِصَاقٍ يَشْعُرُ بِهِ ذو الحِسّ.

**النَّصَبُ**: هو التَّعَبُ من الاجتهادِ والكَدْحِ في الْعَمل.

إنّ أهْلَ الجنَّةِ لَا يحْتَاجُونَ فيها إلى عَملٍ لِكَسْبِ أرْزَاقهم، وتحقيق حاجاتهم، فَهُمْ لَا يَمَسُّهُمْ فيها تَعَبٌ ما، أمّا مُمارَسَةُ لذَّاتِهم مَع أزْواجِهم فهي ممارَسةٌ مُريحَةٌ سَعِيدَة.

فَهُمْ يُثْنون على الله بِفُيُوض نِعَمِه عليهم، الّتي لا يَمسُّهَمْ في الحصُولِ عليها تَعَبٌ ما.

**الإنْعَام الخامس**: دَلَّ عَلَيه قولهم في الثناء على الله: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾:

**اللُّغوبُ**: هو الإعْيَاءُ والعجْزُ عن مُتَابَعَةِ العمل.

وفي هٰذا الثناء على الله منْهم إشارَةٌ إلى أنَّهُمْ لا يَعْيَوْنَ من كَثْرَةِ مُعَاشَرَتِهم لأزْواجهم، بَسَبِب الْقُوَّة الّتي يَمْنَحُهُمْ دَوامَها في الجنّة.

❁ ❁ ❁

(١) انظر «صحيح الجامع الصغير وَزِيَادَته» رقم الحديث «٥٢٢٢».

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

**تمهيد:**

بعد بيان مشْهَدٍ من مَشاهِدِ فَضْلِ الله الكبير يَوْم الدين، على المؤمنين الّذين أورثَهُمُ الله الكتاب الخاتم، بَعْدَ بِعْثَةِ مُحَمّد وإيمانهم به واتّباعهم له ولمَا أُنْزِلَ عَلَيْه من رَبّه، كان من الحكمَة تقديمُ لَوْحَة من جزاء الكفورين، الذين كَفَرُوا بِرِسَالة محمّد ﷺ، وفي هذه اللَّوْحَةِ مَشْهَدٌ تَصْويريٌ من مشاهِدِهِمْ وهُمْ يُعَذَّبونَ في نار جَهَنَّمَ، إذْ كَانُوا في الحياة الدّنيا كَفُورين من أشْنَعِ وأخسّ دَرَكَاتِ الكفر.

**التدبّر:**

جاء في هَاتَيْن الآيَتَيْن (٣٦ و٣٧) بيانُ ثَماني قضايا:

**القضيّةُ الأولى:** دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾:

هذه الجمْلَةُ معطوفَةٌ علَىٰ الكلَام الّذي جاء فيه بَيَانُ ثوابِ الَّذِينَ آمَنُوا بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وكانُوا باجتهادهم ومجاهَدَتهم من السَّابقين بالْخَيْرات.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أي: والّذِينَ سَتَرُوا بَرَاهِينَ الحقّ الَّذِي جاء به رسُولُ الله محمَّدٌ ﷺ، بتَشْكِيكَاتِهم وشُبُهَاتِهم، وحِيَلِهم الكلاميَّة، وزُخْرُفِ أقوالهم، فَجَحَدُوا حَقَّ رَبّهم عليهم، واتَّبَعُوا أهواءَهم وشهواتِهم وأوغَلُوا

في سُبُل الضلال، فكانوا بذلك كَفُورِين جاحدين، يَعْلَمُونَ الحقَّ ويُنْكِرُونَهُ جُحُوداً.

﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾: أي: أُعِدَّتْ لهم نارُ جَهَنَّم لِتَعْذِيبهم بالْحَرِيقِ فيها على كُفْرِهِم وجُحُودِهم الحقَّ الَّذِي جاءهم به رَسُولُ رَبِّهم.

فَهُمُ الَّذِينَ يَصْلَوْنَها مُحْتَرِقِينَ بِلَهَبِهَا، إِذْ هُمُ الأشْقَوْنَ، الكَفُورُون.

﴿جَهَنَّمُ﴾: اسمٌ عَلَمٌ من أسماء دار العذاب يوم الدين، الّتي أعَدَّهَا اللَّهُ لِيُعَذِّب بها الكافرين والعصاة في رحلة امتحانهم في الحياة الدُّنيا. وهو ممنوعٌ من الصَّرْف للعلميَّة والتأنيث.

ويُقالُ لُغَةً للقَعْرِ البعيد: جَهَنَّم. ويُقَال: بِئْرٌ جَهَنَّم: أي: بَعِيدَةُ الْقَعْر.

**القضية الثانية:** دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾:

أي: لا يُقْضَى علَيْهم بالموت فَيَمُوتُوا بتَنْفِيذِ قَضَاءِ الله بموتِهِم، فَيَسْتَرِيحُوا به من العذاب الذي يُحِيطُ بهم في نار جَهَنَّم وَيُلازِمُهُم، فقد ذُبْحِ مِثَالُ الْمَوْتِ على الصِّراطِ، ورأَوْا ذبْحه قبل إدْخالهم دار العذاب.

قضاء الأمر: إمضاؤه وإنْهاؤه:

• فإذا كان حُكْماً قَدَرِياً فَهُوَ إمضاءٌ وإنْهاءٌ لَهُ بالبتّ، ثُمَّ يكون التنفيذ على وَفْقِ ما تمَّ به القضاء.

• وإذا كان عملاً تَنفيذيّاً كانَ قضاؤه إنَّهاءَ تَنْفِيذِهِ، وإحْداثَهُ في الواقع.

• وإذا كان حُكْماً تَشْرِيعياً مَطْلُوباً من الْعِبَادِ أَنْ يَعْلَمُوا به، فَهُوَ إمضاءٌ له بالْبَتِّ، والمكلّفون مطالَبُون باتّباع ما جاء فيه من أمْرٍ أو نَهي أو تَرْغِيب أو إباحة.

وتكرَّرَتْ في الاستعمال عبارة «قَضَىٰ عَلَيْهِ» بِمَعْنَىٰ اتَّخَذَ وسيلَةً أماتَهُ بِها.

إنَّ الخالِدِين في عذاب النّارِ حِينَ يَيْأَسُونَ مِنْ إجابَةِ دُعَائِهم، في استئنافِ رِحْلَةِ ابْتِلائهم، يَسْأَلُون أَنْ يُقْضَىٰ عليهم بالموتِ الأَبَدِي، لِيَسْتَرِيحُوا من العذاب، فلا يُسْتَجابُ لهم، بل يقالُ لَهُمْ: إنَّكُمْ ماكِثُونَ في عذاب نار جَهَنَّم، دلَّ على هٰذا قَوْلُ الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (الزُّخْرُفُ/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ۝٧٧﴾.

**مَالك**: هو خَازِنُ النَّار الأكْبَرُ من الملائكة، والمسؤولُ عن أهْلِ النّارِ في النّار.

**القضيّة الثالثة**: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾:

أي: إنّ نِسْبَةَ تَعْذِيبِهِمْ فِي نَار جَهَنَّمَ تَسْتَمِرُّ دواماً على مِقْدارِها، فَلَا يُخَفَّفُ مِنْهَا شيءٌ مَهْمَا طَالَتْ مُدَّةُ إقامَتِهِمْ، لأَنَّهُمْ كَفُورُونَ من أشْنَعِ دَرَكَةِ وأخسِّ كُفْرٍ وجُحُودٍ.

**القضيّة الرابِعَة**: دَلَّ عَليها قَوْلُ الله عزَّ وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾:

أي: مِثْلَ ذَلِكَ الجزاءِ الشّدِيدِ ذي الدّرَكَة السَّحِيقَةِ الّذي نَجْزِيه الّذِين كَفَروا برسالة مُحَمَّدٍ ﷺ، نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ من الأمم السابقة الَّذِينَ كَفَرُوا برسالاتِ رَبِّهم، وكذَّبوا رُسُلَه، فَسُنَّة الله عزّ وجلّ في عباده واحدة.

﴿نَجْزِى﴾: جاء الفعل بنُون المتكلّم العظيم، لتَرْبيَةِ المهابة، فالموقفُ موقِفُ سُلْطانِ الْقَهْرِ والجبَرُوت لتحقيق العدْل الرَّبّاني.

وجاء في قراءة أبي عَمْرو الْبَصْري: [يُجْزَىٰ] على أنّ الفِعْل مَبْنيٌّ لما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُه، وبرفع لفظ [كُلُّ] على أنّه نائبٌ عن الفاعل في الإعراب.

وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البياني، فاللَّهُ يَجْزي جزاءً مِثْلَ ذَلِكَ الجزاء كُلَّ كَفُورٍ، وكُلُّ كَفُورٍ لَا بُدَّ أنْ يُجْزَىٰ مِثْلَ ذَلِكَ الجزاء، لأنّه لَا أَحَدَ غيْرَ الله يَمْلِكُ أنْ يجْزِيَ العبادَ يوم الدّين، سواءٌ أكانُوا من الكَفُورين برسالة محمد ﷺ بَعْدَ بِعْثَته، أمْ من الكَفُورين الّذين كَفَرُوا برسَالَاتِ الرُّسُل السَّابقين، فَسُنَّةُ اللَّهِ في عبادِه واحدَة.

**القضية الخامسة**: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾:

في هٰذه العبارة تصويرٌ لِمَشْهَدٍ منْ مَشاهِدِ أَهْلِ النَّارِ المعذَّبينَ فيهاعذاباً خالداً.

وهٰذِهِ الصّورَةُ تَعْرِضُ مَشْهَدَ صِياحِهم وصُراخِهم الشديد، في تَظَاهُرَةٍ جماعيَّةٍ يُنادُون فيها قائلين: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صالحاً غير الذي كُنَّا نَعْمَلُ.

أي: أَعِدْ لنَا رِحْلة امْتحاننا، فإنَّنا نَعِدُكَ بِأَنْ نُطيعَ أوامركَ وَنواهِيك، ونَعْمَلَ عملاً صالحاً تَرْضَاهُ مِنَّا، غَيْرَ الْعَمَلِ السَّيِّءِ الذي سَبَقَ أنْ عملْنَاهُ عُصاةً لك، فأسْخَطَكَ عَلَيْنا.

﴿يَصْطَرِخُونَ﴾: أي: يَصْرُخُونَ بِشِدَّةٍ وَصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ جدّاً، أخذاً من زيادة المبنىٰ بإضافة تاء الافتعال إلى فعل «صَرَخَ يَصْرُخ».

**القضيّة السّادسة**: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾.

أي: وبَعْدَ أن يَصْطرخوا قائلين: رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالحاً غَيْرَ الَّذِي

كُنَّا نَعْمَلُ، يجابُونَ مِنْ ربِّهِم بهذا الجواب أوّلاً. الواو في: ﴿أَوَلَمْ﴾ عاطِفَةٌ على مَحْذُوفٍ يُمْكِنُ تقديره بما يلي، أَلَمْ نُمْهِلْكُمْ بَعْدَ البيانات الكافيات والتَّحْذِيرات الكثيرات في الحياة الدُّنيا، أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ عُمْراً كافياً، وأَخّرَتِ «الواو» عن همزة الاستفهام، لأنّ الاستفهام لَهُ الصَّدارَةُ فِي الْجُمَلِ الْعَرَبِيَّة.

والاسْتِفْهَامُ في: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ فيه معنَىٰ تَكْذِيبهم في ادِّعائهم، أَنَّهُمْ إِذَا أُعِيدَ امْتِحَانُهُمْ عَمِلُوا صالحاً غير الذي كانوا يَعْمَلُونَه، إِذْ لَوْ رُدُّوا إلى حياة الامتحان مَرَّةً أخْرَىٰ، لَعَادُوا لِما نَهُوا عَنْهُ، ولَمْ يَعْمَلُوا صالحاً.

والسَّبَبُ في هٰذا أَنَّهُمْ حينَ يَرِدُونَ لَا بُدَّ أَنْ يُمْسَحَ مِنْ ذَاكِرَتِهِمْ كُلُّ مَا هُمْ فِيهِ من عَذابٍ في نارِ جَهَنَّم، وعندئذٍ لَا بُدَّ أَنْ يَعُودُوا لِمَا كَانُوا عليه في رِحْلَةِ امتحانهم الأُولىٰ.

وفي هٰذا الاستفهام أيضاً معنى انتزاع إقرارهم، بأنَّ رَبَّهُم قَدْ أعْطَاهُمْ فُرْصَةَ الإيمانِ في الحياة الدنيا، الّتي تَكْفِي لَهُ السَّاعَةُ الأخيرة من عُمْرِهم، قَبْلَ أَنْ يَعْبُرُوا عَتَبَةَ الآخِرَة.

وفيه أيضاً توبيخٌ وَتَقْرِيعٌ وإسكاتٌ لهم عن الصُّرَاخ والثرثَرَة.

وكلمة ﴿مَّا﴾ في عبارة: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا﴾ كناية عن المدَّة الّتي عاشُوها في الحياة الدُّنيا، الّتي كانَ باستطاعتهم أن يُعْلِنُوا إيمانَهم وتَوْبَتَهم وإسْلامهم في سَاعَةٍ واحدةٍ منها، لينْقِذُوا أنْفُسَهُمْ من الخُلُودِ في عَذَابِ النَّار.

فالمعنى: أو لَمْ نُطِلْ عُمْرَكُمْ زماناً مَا، كافِياً لأنْ يَتَذَكَّرَ فِيه تَذكّراً نافعاً، من قَدْ تَذَكَّرَ فِعْلاً منْكُمْ، فيتوبَ إلىٰ ربّه، ويُؤْمِنَ به، ويُعْلِنَ إسْلَامه له.

ومعلومٌ أنَّ كُلَّ واحدٍ مِنْهُمْ قَدْ أطالَ الله عُمْرَهُ بِحَسْبه، وقَدْ تَذَكَّرَ

فَعلاً تَذَكُّراً ذِهْنِياً إلَّا أنَّهُ لم يسْتَجِب لما دَعَاهُ إليه تَذَكُّرُه، فلم يؤمن ولم يُسْلم ولم يَعْمل عملاً صالحاً يُصَدِّقُ به صحَّة إيمانه وإسلامه.

فلفظ: ﴿مَّآ﴾ هنا هو فيما أرى نَكِرَةٌ مَوْصُوفَةٌ بجملةِ ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ والتقدير: أَو لَمْ نُعَمِّرْكم عُمْراً مَا يَتَذَكَّرُ فيه تَذَكُّراً نافعاً يَتُوبُ فيه إلى ربّه فَيُؤْمِنُ به ويُسْلِمُ مَنْ تَذَكَّرَ فَعْلاً، وكُلٌّ مِنْكُمْ قَدْ حَصَلَ في ذِهْنِهِ هذا التَّذكُّر، لكنَّهُ لم يَسْتَجِب لِدَاعِيهِ.

فالمراد بفِعل ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ أَثَرُ التَّذَكُّرِ في الْإِيمانِ والإسلام والسُّلُوك.

والمراد بفعْلِ: ﴿تَذَكَّرَ﴾ بَيَانُ أنَّ كُلَّ مَنْ عَمَّرَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ عُمْراً مَا، جَعَلَهُ فِيهِ مُمْتَحَناً مُكَلَّفاً مسؤولاً، ووضَعَهُ فيهِ مَوْضع المحاسَبَةِ والجزاء، فلا بُدّ أن يكون قَدْ تَذَكَّرَ فِعْلاً مَا يَجِبُ عليه من الإيمانِ بربّه، والْإِسْلامِ له، والتعبيرِ عن صِحَّةِ إيمانه وإسلامِه في سُلُوكه بِعَمَلٍ صالح، فإذا لم يَفْعَلْ ذلك علىٰ الرُّغم من تَذَكُّرِهِ فقد اسْتَحَقَّ بالْعَدْلِ الْخُلُودَ في عَذَابِ النار، لأنَّه لو اسْتَمَرَّ خالداً في الحياة الدُّنيا، لَبَقِيَ جاحِداً كَفُوراً أبداً.

**القضيَّة السابعة**: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ خطاباً لهم: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾:

أي: ومع حُصُولِ تَذَكُّرِكُمْ لما يجب عَلَيْكُمْ تُجاه رَبّكُم، فقد جاءكم النّذير، وهو أمْران:

**الأول**: الرَّسُولُ الَّذِي أنْذَرَكُمْ بِعذَابِ رَبّكُمْ يَوْمَ الدّين.

**الثاني**: كتابُ رَبّكم الّذي جاءَ فِيهِ إنْذارٌ من الله للكافرين الجاحدين المجرمين، بعذابٍ خالِدٍ في نارِ جهنَّم.

فلا عُذْرَ لَكُمْ تَعْتَذِرُونَ به، وقَدْ كُنْتُمْ على عِلْمٍ كَافٍ بما أَنْتُمْ فيه

الآنَ من عَذَابٍ أليم، إذْ كُنْتُمْ في رحْلَةِ امتحانكم في الحياة الدُّنيا عالمين جَاحِدين.

**القضيَّة الثامنة**: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ خطاباً لهم: ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٣٧﴾:

أي: فَذُوقُوا اسْتِمْرارِيَّةَ عَذَابِ النَّار، فَمَا لَكُمْ من نَصِيرٍ يَنْصُرُكُمْ فَيُخرجُكم من هذا العذاب، لأنَّكُمْ مِنَ الظالِمِينَ.

والقَاعِدَةُ الرَّبَّانِيَّة الْعَامَّةُ من قَواعِد جَزائِه بالعدل، أنَّهُ لا يُوجَدُ للظالمين أمام عَدْلِ الله وتنفيذ قضائه بالعدل، من نَصِيرٍ ينْصُرُهم، فَيَرْفَعُ عَنْهُمْ مَا قَضَىٰ اللَّهُ به عليهم.

لفظ ﴿مِن﴾ في ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ حَرْفَ جَرٍّ زائِدٍ جيء به لتأكيد استغراقِ النَّفْي.

❁ ❁ ❁

قول الله عزَّ وجل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨﴾.

**تمهيد:**

تضمَّنتْ هذه الآية دَفْعَ إشْكالٍ، قَدْ يثيرُه مَا جاء من بيان عذاب الكافرين الخالد يوْمَ الدِّين، في نار جهنَّمَ، وبأنَّهم لا يُقْضَىٰ عليهم فَيَمُوتوا، ولا يُخفَّفُ عنهم من عذابها، وبأنَّهُمْ لا يُستَجابُ لطلبهم إعادة امتحانهم في رِحْلَة امتحان أُخرىٰ، غيْر رحلَة امتحانهم الأولى في الحياة الدنيا.

وهذا الإشكالُ يَدُورُ حَوْلَ احْتمال أنَّهُمْ قَدْ يُغَيِّرُون من أحوالهم إذا أُخْرِجوا من نار جهنَّم، وأُعِيدَ امْتِحَانُهُمْ مَرَّةً أُخرَىٰ، فلماذا لَا يُمْتَحُونَ

هٰذه الْفُرصَة، عسَىٰ أن يكونَ لهم وضْعٌ آخَرُ غَيْرُ الوضْعِ السَّابق، الذي كانُوا علَيْه في الحياة الدُّنيا، فيُؤمِنُوا إيماناً صَحِيحاً صالحاً، ويُسْلِمُوا إسلاماً صحيحاً صادقاً، ويَعْمَلُوا عملاً صالحاً يَدُلُّ على صِدْقِ إيمانهم وإسلامهم؟!

وجاء دفع هذا الإشكال ببَيَان أنَّ الله عَالِمُ غَيْبِ السماواتِ والأرض، وأنَّهُ عَلِيمٌ بذَاتِ الصُّدُور، أي: عليم بالنّيّاتِ والسرائر صَاحبة الاستقرار في الصُّدُور داخل النفوس، ويشْمَلُ ما في الصُّدُور ما في القلُوب، وما في الأَفْئِدَة، الّتي هي أَعْمَقُ في داخل دوائرِ النُّفُوسِ في الصُّدُور، فهي فيها حتماً.

أي: فلَوْ عَلِمَ اللَّهُ في صُدُورِهم خيراً قابلاً لتغيير أحْوالهم، وتغيير أوْضَاعهم، إذا أعَادَ امتحانَهُمْ إعادةً مُشَابهةً لِظُرُوفِ ولشُروطِ الامتحان الّذي كانوا فيه، لاستجاب لِطَلَبِهِمْ، لِكِنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا إلى مِثْلِ أَحْوالهم الّتي كانوا عليها في الحياة الدُّنيا، لعَادُوا إِلَىٰ مِثْلِ مَا كانُوا عليه، من كُفْرٍ وعِنادٍ وجُحودٍ وسُوءِ عَمَلٍ وجرائم، ولَوْ كَرَّرَ اللَّهُ لهم هٰذه الإعادةَ مرَّاتٍ لَا حَصْرَ لها.

إذَنْ: فإعَادةُ امْتِحانهم لا تُفِيدُ شيئاً، ولا تغيِّرُ من أمورهم شيئاً، وتكُونُ صُورَةً من صُوَرِ الْعَبَث.

وفي تحْليل هذه الحقيقَةِ أقولُ مُكرّراً:

إنَّ إعادَةَ امْتِحَانِهم مرَّةً أُخرَىٰ تَسْتَدْعِي إيجادَهُمْ في أحوالٍ وظروفٍ مطابقَةٍ تماماً لأحوالهم وظروفهم الّتي كانوا عَلَيْها في رِحْلَةِ الامْتِحان الأولى، وأوَّلُها وأَوْلاها بالعناية أنْ يُمْسَحَ من ذاكراتِهم ما شَهِدُوه من عَذَابٍ في نار جَهَنَّمَ علىٰ كُفْرهم وجُحودِهم وسُوءِ عَمَلهم في امتحانهم الأول، وأن يُمْسَحَ من ذاكراتهم كُلُّ ما شَهِدُوه من أحداث البعث ويوم

القيامَةِ والحِسَاب وفَصْل القضاء والسَّوْقِ إلى دار العذاب، فلا يَذْكُروا منه شيئاً، وأن تكون خصائص نفوسهم مثل ما كانت عليه في الحياة الأولىٰ، وأنْ تكونَ مجالاتُ فعْل الخير وفِعْلِ الشّرّ مفتوحةً أمامَهُمْ، كَمَا كانت عليه في الحياة الأولى.

بهذا يَتِمُّ التكافُؤُ بيْنَ الامتحان في الْبَدْءِ والامتحانِ في الإعادة.

وَعَلينا هُنا أنْ نَتفكّر بمنْطِق العقْلِ السَّوِيّ، وتَجْرِبَات واقع حالِ النفوس، ونتساءَل: هل سَيُغَيِّرُ هؤلاء من سلوكهم النفسيّ والظاهري، في امتحان الإعادة، فيؤمنوا ويُسْلِمُوا صادقين ويَعْملوا صالحاً، وهم لا يَذْكُرُون شيئاً ممّا كانوا فيه أو شَهِدُوه يوم الدّين، ولا يذْكُرُونَ شيئاً من رِحْلَةِ امتحانهم الأول؟

**الجواب الحقّ:** إنَّهم سيُعِيدُونَ حتماً سيرتَهُمُ الأولى كُفْراً وجُحوداً وعناداً وإصراراً على الباطل، اتّباعاً للأهواء والشهوات بفُجُورٍ وَقِحٍ، وظُلْماً وبَغْياً وفساداً في الأرض، مِثْلَما كانوا عَليْه في رِحْلة الامتحان الأوّل.

فلَوْ كَرَّر الله امتحانَهُمْ ما لا حصر له من المرّاتِ، ضِمْنَ شروط وظروف الامتحان الأوّل لكان حالُهُمْ في كُلّ مرَّاتِ الامتحان المستأنَفِ مُطابقاً في النتيجة للامتحان الأوّل.

فما الداعي إلى إعادة امتحانِهم، وأحوالُهُم لا تتغيَّرُ نتائجُها ولا أحكامُها الجزائيَّة؟!!

إنّ الله جلّ جَلَالُهُ وأحَاطَ عِلْمُهُ بكلّ شيءٍ عليمٌ بذاتِ الصُّدُور، وهذا جُزْءٌ من شُمُول عِلْمِه لكُلّ شيء، ومنْهُ غَيْبُ السَّمَاواتِ والأرْض.

إنّ إعادة امتحانهم عبَثٌ لَا يَليقُ بِحِكْمَةِ الحكيم، فالاستجابَةُ لطلَبهم أمْرٌ يُنافي الحكمة، والله جلّ جلالُه عَلِيمٌ حكيم، لَا يُجْرِي في مقاديره شيئاً مُنافياً للحكمة المقترنَةِ بالْعِلْمِ المحيط الشامل.

هذا الجواب الذي دلَّتْ عليه هٰذه الآيَةُ بمضْمُونها ولوازمه، قد دلَّ عليه أيضاً قول الله لهم الذي سَبَق تَدَبُّره: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ جواباً لطَلَبِهِمْ إذْ قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

وقد جاء التصريح بأنَّهم لَوْ رُدُّوا إلى حياة الامتحان، لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عنه، من كُفْرٍ وجحودٍ، وفسادٍ في الأرض وسُوءِ عمل، في قول الله عزّ وجلَّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

وهكذا تكامَلَت النُّصوص القُرْآنيَّةُ في دَلَالاتها، فَدَلَّ كُلُّ نَصٍّ على جانبٍ من الموضوع، مع دلالَتِهِ باللُّزُوم الذّهْنِيِّ عَلَىٰ سائرِ الجوانب، وهذا من روائع القرآن المجيد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ . . . ﴿٣٨﴾﴾:

**الغَيْب**: هو ما غاب عن الشهود الحسّيّ، والمغَيَّباتُ بالنِّسْبَةِ إلى المَخْلُوقَاتِ كثيراتٌ لَا تُحْصَر، ومنها ذات الله جلَّ جلالُه، وكمالات صِفاته، وممّا هو غيبٌ عنَّا أرْوَاحُنا في ذَواتنا، ونفوسُنا داخل أجسامنا، وممّا هو غيبٌ عنَّا عالَمُ الملائكة، وعالَمُ الجِنّ، ومَا هو في الأَبْعَادِ البَعِيدَة في السَّماوات، وما هو في الأعماق حتَّىٰ أَعْمَاقِ الذَّرَّات.

فهَلْ يُوجَدُ شيءٌ في الوجُودِ كُلّه هو بالنِّسبَةِ إلى الله غيبٌ؟

الواقع أنّه لا يُوجَدُ شيءٌ هو بالنسبة إلى الله غيب، فالله علىٰ كُلّ شيءٍ شهيدٌ، حاضرٌ مشاهِدٌ له يَراه، لا تَخْفَىٰ عليه خافيَةٌ في السَّماواتِ والأرْض، وهذا ما دَلّت عليه النصوص القرآنية، ومنها ما يلي:

• قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾.

• وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

إلى غير ذلك من نُصُوص.

وبما أنَّ اللَّهَ على كُلّ شيءٍ شَهِيدٌ، وأنَّهُ لَا غَيْبَ بالنِّسْبَةِ إلَيْهِ، فما الغرضُ من ذكر لفظ «غَيب» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ...﴾؟؟

**أقول**: إنّ المرادَ بَيانُ أنَّ كُلَّ مَا هُوَ غَيْبٌ بالنِّسْبَةِ إلى غير الله عزّ وجلّ، فاللَّهُ عالم به، لا تخفَىٰ عَلَيهِ منْهُ خافِيَة، والعالِمُ بالغيب لا بُدَّ أن يكون عالماً أيضاً بما هُو ليْسَ بغَيْبٍ بالنِّسْبَةِ إلى غيره، وعِلْمُ الله ـ جِلَّ جلالُهُ ـ عِلْمٌ مَقْرُونٌ بِشُهُودٍ.

وجاء تأكيدُ الجملَةِ بمؤكِّدَيْن: «إنَّ ـ والجملة الإسميَّة» مراعاةً لحالِ طَارِحِي الْإِشْكال في نفوسهم، كما سَبَقَ بيانُه آنفاً.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿... إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾:

في هذه العبارة من الآية (٣٨) انتقالٌ من قضيَّةٍ كُلّيَّةٍ عامَّة، هي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ إلى بيان قضيَّةٍ هِيَ جُزْئِيَّةٌ من جزئيَّاتها، فَعِلْمُ ذواتِ الصُّدُور جزئيَّةٌ من كُلّيَّةِ عِلْم غَيْبِ السَّمَاواتِ والأَرْض، والسَّبَبُ إرادة التأكيد للْقَضِيَّة الجزئيَّة، لأنَّ الإشكال الذي يُمْكِنُ أن تُثِيرَهُ الآيتان (٣٦ و٣٧) يَتَعَلَّقُ بهٰذِهِ القضيَّةِ الجزئية بالذات.

كلمة «ذات» من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

هي بمعنى **«صاحبة»** وهي مؤنث «ذي» بمعنى «صاحب». وصاحِبَةُ الصُّدُور، هي الملازمة لها، وهِيَ النيَّاتُ والضمائر، والسَّرَائِر، وما تُخْفِيهِ الصُّدُور ولا تُظْهِرُه.

وقد تكون **«ذات»** بمعنى حقيقة الشيء، فيكُونُ المعنىٰ: إنَّهُ عليمٌ بحقِيقَةِ الصُّدُور ومَا تُخْفِيهِ وتُكِنُّهُ فيها.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدرس العاشر من دروس السورة، والحمْدُ لله مُفِيض النِّعَم على معونته وتوفيقه وفتحه.



## (١٤)
## التدبّر التحليلي للدّرس الحادي عشر من دروس السورة وهو الآيات من (٣٩ ـ ٤٥) آخر السورة

قال الله عزَّ وجل:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ

ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

**القراءات:**

(٤٠) • قرأ ابنُ كثير، وأَبُو عَمْرٍو، وحَفْصٌ، وحَمْزَة، وخلف: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ بالإفراد.

وقرأ باقي القُرّاء العَشرةِ [عَلَى بَيِّنَاتٍ] بالْجَمْعِ.

وَبَيْنَ القراءتَيْنِ تكاملٌ في أداء المراد، أي: فمن ادعى وجُودَ بَيِّنَاتٍ فَلْيَأْتِ بها، ومَنِ ادَّعَىٰ وُجُودَ بَيِّنَةٍ واحدةٍ فَلْيَأْتِ بها.

ولَكِنْ لَا وُجُود لشيءٍ من ذلك.

وتوجد قراءاتٌ في أداء: [وَمَكْرَ السَّيِّء ـ السَّيِّءُ إلاَّ ـ سُنَتَ ـ أَرَأَيْتُمْ ـ جَاءَ أَجَلُهُمْ] وهي قراءات لا أثَر لها من جهة المعنى، فلم أذكرْها هُنا.

**تمهيد:**

في هذا الدَّرس بيانُ أَسَالِيبَ وَمُنَاظراتٍ إقناعيَّةٍ وإرهابيَّة لِلْمُشْرِكين، الّذين تَدُورُ السُّورَةُ حَوْلَ مُعَالجاتهم في القضايا الشِّرْكيَّة ولوازمها، التي جاء في سورة (الفرقان) بيانُ جدَلِيَّاتهم واعْتِرَاضَاتِهم ومقترحاتهم حوْلها، وسبق أن عرفنا أن سورة (فاطر) نَزَلَتْ بَعْدَها، فهي بمثابَةِ السُّورَة الملْحَقَة.

**التدبّر:**

قول الله عزّ وجل خطاباً للناس جميعاً:

• ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾.

**تمهيد:**

هذا هو الخطاب الرابع في السورة لعموم الناس، والمقصودون الأوّلون بالخطاب هم الّذين كفَرُوا برسالة محمّد ﷺ.

• فالخطاب الأول: جاء في الآية (٣) منها، فقال الله عزّ وجل لهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾.

فأبانَ لَهُمْ أنّ الرّازق الوحيد لَهُم هو اللَّهُ جَلَّ جلالُه، وكان المشركون يَجْحَدُون هٰذه الحقيقة، إذْ كانوا يَعْتَقِدُونَ أنّ شركاءهم الذين يَعْبُدونهم من دون الله هم الذين يَرْحَمُونَهم فَيَرْزُقونَهم.

• والخطاب الثاني: جاء في الآية (٥) منها، فقال الله عزَّ وجلّ لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ فأبان لَهُمْ أنّ الحياةَ الدُّنيا مَرْحلة امتحان، وأنّ وَعْدَ اللَّهِ بالبَعْثِ بَعْدَ الموت للحسَاب وفَصْل القضاء والجزاء وعْدٌ حقٌّ، وأنّ الصارف لهم عن الإيمان بهذا الوعْدِ الرَّبَّانيّ، وعن الْعَمَلِ للآخرة أمران:

**الأمْرُ الأول:** الْغُرورُ بالحياة الدُّنْيا.

**الأمْرُ الثالث:** الْغُرُورُ بوساوس الشيطان الْغَرُور.

• والخطاب الثالث: جاء في الآيات (١٥ و١٦ و١٧) فقال الله عزّ وجلّ لهم:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾.

فأبان لهم حاجاتهم الدّائمة في أرْزاقهم، وفي تحقيق مطالب حيواتهم، وفي بقائِهِمْ في الحياة إلى آجالهم، هي لله وحْدَهُ الَّذِي هو الغنيُّ الحميد، فلا يَلْتَمِسُوا تحقيق حاجاتهم عنْدَ غَيْره، إنَّه إنْ يَشَأْ يُذْهِبْهُمْ وَيَأْتِ بخَلْقٍ جَدِيدٍ.

• والخطابُ الرابع: جاء في الآية (٣٩) في صَدْر هذا الدرس الحادي عشر آخرِ دُروس السُّورة.

قول الله تعالى خطاباً للناس:

• ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴿٣٩﴾﴾:

﴿خَلَٰٓئِفَ﴾: جَمْعُ **«خَلِيفَة»** على وزن «فَعِيلَة» وصِيغَةُ «فَعِيل» تأتي بمعنىٰ اسم الفاعل، مثل **«خَالِف»** في حالة التذكير ومثل **«خالفة»** في حالة التأنيث، وتأْتي بمعنى اسم المفعول، مثل **«مَخْلُوف»** في حالة التذكير، ومثل **«مَخْلُوفَة»** في حالة التأنيث.

وقد جاءت ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ هُنَا للدَّلالة على المعْنَيَيْن معاً. فأجْيالُ النَّاسِ خَالِفُونَ مَنْ سَبَقَهُم، ومَخْلُوفُون مِمَّنْ جاءَ بَعْدَهم، أي: يأتي اللَّاحِقُ فيكُونُ خَلَفاً للسَّالف، وحالاً محَلَّهُ امْتِلاكاً واسْتِيطاناً وانتفاعاً.

والمعنى أنّ الله ـ جلّ جلالُه ـ جعَلَ الناسَ ضمن خطَّة حكيمَةٍ في الْخَلْقِ يتَعاقبُونَ أجيالاً، جِيلاً فجيلاً، فلم يَخْلُقْهُمْ دُفْعَةً واحِدَةً ولا في عصْرٍ واحِدٍ.

وهٰذا يَدُلُّ على أنَّهُ إنْ يَشَأْ أنْ يُذْهِبَهُمْ من الوجود أَذْهَبَهُمْ، وإنْ يَشَأْ أنْ يَأْتِي بخَلْقٍ جَدِيد أتىٰ به، لا يُعْجِزُهُ إعْدامُ مَوْجُود، ولَا إيجادُ مَعْدُوم، فَدَلِيلُ التَّعَاقُب في الأجْيَال قائِمٌ باسْتِمرار.

أي: إنَّكُمْ أيُّها الناسُ تُشَاهِدُونَ دَواماً أجْيَالاً تَنقَرِض، وأجيالاً تَأْتِي بَعْدَهَا خَلَفاً لها، وكُلَّما انْتَهَى دَوْرُ امْتِحَانِ واحدٍ من النّاس، أَوْ جِيلٍ مِنَ أجيالهم أهْلَكَهُ الله، وتتعاقَبُ الأجْيالُ الْبَشَرِيَّةُ لِيَعْبُرَ كُلٌّ مِنْهُمْ رِحْلَةَ امْتحانه، وبَعْدَ رِحْلَةِ الامتحان يأتي دَوْرُ الحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذ الجزاء يَوْمَ الدّين.

هٰذه هي خُطّة الله ـ جلَّ جلالُهُ وعظُمَتْ حِكْمَتُهُ ـ فِي إيجاد النّاسِ وامْتِحَانِهم في ظروف الحياة الدنيا.

ونتيجَةُ الامتحان لا بُدَّ أن يكونَ التمييز في الجزاء بَيْنَ مَنْ آمَنَ وأسْلَمَ وعَمِلَ صالحاً، وبَيْنَ من كَفَرَ وأجْرَمَ وَعَمِلَ السَّيِّئاتِ، واتَّبَعَ أهواءَهُ وشهواته، وَوَسَاوِسَ الشياطين.

وكُفَّارُ الْعَرَب إبَّانَ نُزُول القرآن كانَ أكْثَرُهم مُشْرِكين ولَا يُؤْمِنُونَ بيَوْمِ الدِّين، ويَعْتَقِدُونَ اعتقاداً تَوَهُّمياً، أنَّ شُرَكاءَهم الّتي يَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ الله هيَ الّتي تَرْحَمُهُمْ في شُؤُون دُنْيَاهم.

وكانَ بَعْضُ العَرَب طبيعيِّينَ، يَرَوْنَ أنَّ ظَاهِرَةَ الْحَيَاةِ والمَوْتِ أثَرُ الْتِقَاء وافتراقِ العناصِر في الكوْن، بما فيها من طبائع مختلفة، مع عامل مُرُور الزَّمن، وهؤلاء لا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ الخالق، الرَّبِّ الأزَلِيِّ الأبَدِيّ، وكانُوا يُعَبِّرُونَ عن تَصَوّراتِهِمْ الباطلة هٰذه بقولهم: إنْ هيَ إلَّا أرْحَامٌ تَدْفَعُ، وأَرْضٌ تَبْلَعُ، وبقولهم: إنْ هي إلَّا حياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ ونَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنا إلَّا الدَّهر.

فجاء قول الله عزّ وجل لهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾

مبيّناً للحقيقة المخالفة لما يَعْتَقِدُ الفريقان من الكافرين، ومشيراً ضمناً إلىٰ حكمة الباري جلَّ وعَلا، في اختيار جَعْلِ إيجاد الناس في الحَياة الدُّنيا حياةِ الامتحان، ضِمْنَ خُطَّة الخلائف.

ومن حِكَمِ الله عزَّ وجلَّ في هٰذا الاختيار أنْ يَعْتَبِرَ اللَّاحقونَ بما جَرَىٰ للسَّابقين، وأن يكون من عناصر امتحانِهم ابتلاءُ الأجيالِ التي اقتربت آجَالُ انتهاء حَيَواتِها، بالأَجْيَال الوافِدَةِ والسَّائِرَةِ في تنامِي حيواتها، وبالعكس.

فإذا أهلك اللَّهُ عزّ وجلّ كُفَّارَ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ، إهلاكاً جماعياً مَقْرُوناً بعذابٍ أليم، واستخلف في الأرض غَيْرَهم لِيَبْلُوهم فيما آتاهم، كانَتْ قِصَّةُ المهْلَكِينَ السَّابقين عِبْرَةً مَاثِلَةً في تَصَوُّراتِ الَّذِينَ خَلَفُوهم في الأرض، فإذا كانُوا أَهْلَ عَقْلٍ ورُشْدٍ اتَّعَظُوا ولَمْ يعملوا مثل أعمالهم الَّتي جنَتْ عليهم، فأنزل الله بهم عقابَهُ، فأَبْعَدَهُمْ عَنِ الوجود في ظُروف الحياة الدنيا، بمُهْلِكَاتٍ سَاحِقَاتٍ ماحقاتٍ شاملات.

أي: أَنْتُمْ أَيُّها المتلَقُّونَ هٰذا الخطاب، خَلائفُ في الأرض لأَسلافٍ لَكُمْ كَانُوا فيها، وقَدْ تَحقَّقَ هٰذا بقضاء الله وقَدَرِه وخَلْقِهِ.

وسكَتَتِ العبارةُ هُنا في سورة (فاطر) عن بيان الحكمة صراحةً، ولكنْ يُدْرِكُها المتَدَبّرُ بالاسْتِنْباط الذهني.

ثـمَّ جاء بيانُ بَعْض الحكمة في آية نَزَلَتْ بَعْدَ مُدَّةٍ من الزَّمن، فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (يُونُس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) خطاباً للكافِرين في معرضِ الحديث عن كُفَّارِ القرون السابقة:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

ثُـمَّ جاء التَّصْرِيحُ في آخِرِ آيَةٍ من سُورَة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول)، فقال الله عزّ وجلَّ فيها:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿... فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾.

بما أنّ الخطاب مُوجَّهٌ للكافرين، كانَ من الحكمة الاقتصارُ في هذا البيان من سورة (فاطر) على توجيه الإقناعِ لَهُمْ بأنّ الكُفْرَ شَرٌّ لهم، وهو ضِدُّ مَصْلَحَتِهِم، ولا يَجْلُبُ لهمْ نفعاً ولا رِبْحاً في حياتهم، بلْ يجلُب لهم مَقْتَ اللَّهِ الّذي يَحْرِمُهُمْ من مشاعر السَّعادة التي يَسْعَوْنَ للحُصُولِ عليها، ويَجلُبُ لَهُمْ خساراً عظيماً في عاجلِ أمْرِهِمْ وآجله، وعلى نقيض ما يتوهَّمُونَ من أنَّ الكُفْرَ يَجْلُبُ لهُمْ زِيَادَةً في حُبِّ الناسِ لهم، وزيادَةً في الرِّبْحِ.

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾: عبارة «عَلَيْهِ» تفِيدُ أنَّ كُفْرَهُ جَانٍ عليه، وحِمْلٌ ثقيلٌ كريه يضنِيه ويُشْقيه، ثمَّ يكونُ وبالاً مُنصباً عليه، وعذَاباً أبَدِياً أليماً.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾:

**المقتُ**: هُوَ أشَدُّ الْبُغْض، ومن مقتَهُ اللَّهُ أشْقَاهُ في ذاتِ نَفْسِه، حتَّىٰ إنَّهُ ليَمْقُتُ نَفْسَهُ وهو في بَعْضِ أشواط حياته، الّتي يَسْعَىٰ فيها لتحقيق ما يتوهَّمُ من سَعَادَة.

وكُلّما اسْتَمَرَّ في الكُفْرِ مَعَ تتابُعِ الزَّمَن زَادَ مَقْتُ اللَّهِ له، فزادَهُ شقاءً وعذاباً نَفْسيّاً.

إنّ الكافر يَسْعَىٰ في حياتِهِ متوهّماً أنّه بِكُفْرِهِ ولوازم كُفْرِهِ يَسْتَزِيدُ من لذَّاتِ الحياة الدُّنيا، فَيَجِدُ نفسه بَعْدَ حين أنّه لم يَزْدَدْ إلا اكتئاباً، وضِيقَ صَدْرٍ، وهماً وغماً، وبحْثاً عمَّا يُسْعِدُهُ، ولكن في الأشياء التي كانت سببَ اكتِئابِهِ وضيقِ صَدْرِهِ وهَمِّه وغَمِّه، فَيُدَاوِي نَفْسَهِ بالأشياء الّتي جلَبَتْ له الدَّاء.

ولو عَقَلَ فآمَنَ وأسْلَمَ وسَعَىٰ في صراط اللَّهِ المستقيم، لمَنحَهُ الله السَّعادة، وسَقَاهُ برحمته الدواءَ الشافي.

﴿... وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾.

**الْخَسَارُ**: النَّقْصُ ممَّا يَمْلِكُ الإنسان، أو يَكُونُ حائزاً عَلَيْه ومنتفعاً به، وخَسَارَة التاجِرِ تَظْهَرُ حِينما يكونُ ثَمَنُ ما باعَهُ أَقَلَّ من الثمن الذي اشتراه به، أو حينما تَتْلَفُ بضاعَتُه، أو حينما يَتَعَرَّض لسَلْبٍ أو نَهب أو جائحة أو نحو ذلك.

يقال لغة: خَسِرَ التَّاجِرُ في تجارته يَخْسَرُ خَسْراً، وخَسَراً، وخُسْراً، وَخُسُراً، وَخَسَاراً وخُسْراناً، فهو «خاسِرٌ» و«خَسِرٌ».

ويقالُ: خَسَرَ يَخْسِرُ، خَسْراً، وخُسْراً، وَخَسَارَةً، وَخُسْراناً، أَيْ: نَقَصَ مالُهُ في تجارَته، وغُبِنَ فيها.

إنَّ الكافِرَ الّذي يَسْعَىٰ لتحصِيل اللَّذَّاتِ والشهوات والممتلكاتِ من متاع الحياة الدُّنيا، يتَوَهَّمُ أنّ سَعْيَه فيما حَرَّم الله على عبادِهِ، سيزيدُهُ رِبْحاً وثراءً من الممتَلَكاتِ من متاع الحياة الدُّنيا، فيَجِدُ نَفْسَهُ بَعْدَ حينٍ أنَّهُ لَمْ يَزِدْهُ سَعْيُه إلَّا خساراً، وأنَّ ما استفادَهُ من أرْبَاحٍ في مَعْصِيَة الله، لم يَلْبَثْ عِنْدَهُ لُبْثاً مفيداً نافعاً، إذْ تتوالَى عليه المخْسِراتِ مِنْ جِهاتٍ لم يَكُنْ يَتَرَقَّبُها، فاسْتَهْلَكَتْ ما جَناه من أرْبَاحٍ بمعصِيَةِ الله، واسْتَهْلَكَتْ أموالاً له أخْرى لم يَحْصُلْ علَيْها بمَعْصِيَةِ الله، وتراكبَتْ عليه بها المؤلِمات

والمشقيات والْهُمُوم والأحزان، وصَارَ يَشْكُو من الخَسَارِ الذي حلَّ به.

فالكُفْرُ يجْعَلُ الإنْسَانَ في حالة خُسْرٍ من رأْسِ مالِهِ في الحياة، وفي حالة خُسْرٍ من سَعادَتِه وَرَاحَةِ نفسِهِ، وكُلَّمَا اسْتَمَرَّ في كُفْرِهِ عناداً وجُحُوداً وانطلاقاً في الفجور ازْدَادَ خساراً.

## التحليل النفسِيّ مع سُنَنِ الله في كَوْنه:

والتحليل النَّفسيُّ لكَوْنِ الكُفْر بالله وبما جاء عن الله على لِسَانِ رُسُلِ الله الصَّادِقين لا يزيدُ الكافرين عنْدَ ربِّهِمْ إلَّا مقْتاً، ولا يزيدُهم إلَّا خَسَاراً، مع مُلاحظة سُنَنِ الله في كونه، يكشِفُهُ البيانُ التالي:

إنَّ الكُفْرَ باللَّهِ وبما أنْزَلَ لِعبَادِهِ من شرائع وأحكام، وبما أعَدَّ من جزاءٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدنيا، ومؤجَّل إلى يوم الدّين، يُوَلِّدُ في النَّفْسِ أنَانِيَّةً مُسْرِفَةً جدّاً، وهذه الأنانيَّة تَجْعَلُهُ شحيحاً حَرِيصاً على الحياة، حَرِيصاً على امْتِلاكِ كُلّ شيءٍ لنَفْسِهِ، لاغْتِنَام لذَّاتِ الحياة الدنيا، وتجعَلُه شَرِهاً لحيازة مَا يتصوَّرُ أنَّهُ يُحَقّقُ له أهواءَهُ وشهواتِه ومطالِبَهُ من الحياة الدُّنيا. وهذه الصّفاتُ النَّفْسيَّةُ تَجْعَلُهُ ظَلَّاماً لعباد الله في جَمْعِه ومَنْعِه، نَهَّاباً لمَا لَا حقَّ لَهُ فيه ممَّا هو من حقُوقِ الآخرين، منَّاعاً لحقوقِ ذوي الحقوق عندَه، فيَكْرَهُهُ النَّاسُ ويَمْقُتُونه، حتَّىٰ يمقُتُهُ أقْرَبُ النَّاسِ إلَيْهِ، فإذا وَجَدَهُمْ يَمْقُتُونَهُ ويُخْفُونَ مقتهم بالنفاق، مقَتَهُمْ ونَفَرَ منهم.

وبهذا يُحْرَمُ من مشَاعِرِ المحبَّةِ السَّعِيدَةِ، ويعيشُ في مشاعِرِ المقْتِ الكَرِيهِ، والاكتِئاب الخانق للصَّدْر، والجاعل له ضَيِّقاً حَرَجاً، وكلَّما تطاوَلَ الزَّمَنُ زادَ هذا المقتُ بيْنَه وبَيْنَ النَّاس، إلَّا أن يَرْجِعَ إلى رحاب الإيمان والإسْلَامِ والعمل بمراضي الله.

وهذا المقْتُ هُوَ في الحقيقة أثَرٌ في قانون الوجود من آثار مقْتِ الله له، لأنَّ مقادير الله عزّ وجلّ تجري ضِمْنَ سُنَنِهِ التكوينيَّة.

وبسَبَبِ هٰذا المقت يَجِدُ الكافِرُ نَفْسَهُ مُتَتَابِعَ الْخَسَارَةِ مِنْ سعادةِ نفسه، ومن أصحابِه وأوليائه المقرّبين الطامعين بثَرْوَتِه وميراثهم منها، أو المتضايقين والنافِرين والمتضجّرين من خِدْمَتِه وعجْزِه، وكَثْرَةِ مطالِبه المزْعجَة.

وقدْ تتلاحَقُ عَليْه الْخَسَارَةُ المادّيَّةُ مِنْ مَالِه، لجفَاءِ النّاسِ له وانقطاعهم عنه.

وفوقَ كُلِّ ذَلِك يأتي مَقْتُ اللَّهِ له، وعذابُه الشديدُ يَوْمَ الدّين، وما يُلْحَقُ بِه مِنْ خَسَارَةٍ أبَدِيَّة.

فهل الكُفر يجلُبُ للكافر منافعَ ومَصالح حقيقيَّةً دائمةً، أمْ يُوقع عليه عذاباً وشقاءً وخَساراً أبَدِياً؟!.

اللَّهُمَّ إنا نَعُوذُ بكَ من الكُفر، وممّا يجلُبُه الْكُفْرُ، من تَعَاسَةٍ وشقاءٍ وعَذَابٍ وخسارَةٍ أبديَّة.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

**تمهيد:**

في هٰذه الآيةِ يُعَلِّمُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ الرَّسُول ﷺ فكُلَّ دَاعٍ إلى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، حواراً جَدَلياً لإقْناع المشركين بأنّ شِرْكَهُمْ اعتقادٌ باطلٌ، لَيْسَ له أسَاسٌ فِكْرِيٌّ عَقْلِيٌّ يَعْتَمِدُ عَليْه، ولَيْسَ لَهُ أساسٌ خَبَرِيٌّ من نصٍّ دينيٍّ في كتابٍ مُنَزَّلٍ مِنْ رَبِّ العالَمِين، ولَيْسَ له شاهِدٌ من الواقِعِ يُمْكِنُ أن يُعْتَمَدَ عليه لإثباته.

أمّا ذَرَائع الشِّرْكِ فأوهَامٌ ومواعيدُ كواذِبُ، يَغُرُّ بها دُعَاةُ الشِّرْك وَسَدَنَةُ الشُّرَكاء المعْبُودِين من دون الله من يسْتَجِيبُ لَهُمْ، وهٰذه المواعيدُ تَدُورُ حَوْلَ تَحْقِيقِ مطالب المشركين في أمُور دُنْيَاهم، بدُعائهم لآلِهَتهم الّتي يَعْبُدونَها من دون الله، ويُقَرِّبُونَ لَهَا القرابين الّتي يَسْتَحْوذُ عليها السَّدَنَة.

وفي هذا التَّعليم الجدليّ مُحَاصَرَةٌ فِكْرِيَّةٌ للمشْرِكِينَ، حَوْلَ اتِّخَاذِهِمْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ في إلٰهِيَّتِهِ، الَّتِي لا تَصِحُّ عقلاً ما لَمْ يَكُونُوا شُرَكَاءَ لَهُ في رُبوبيَّتِه، أو يأمُرْهم الرَّبُّ عزَّ وجلَّ أَوْ يأذَنْ لهم بعِبَادَتِهم.

وهذه المحاصَرةُ تَدُور حَوْلَ مطالبة المشركين بإثْباتِ شَيْءٍ من الرُّبُوبيَّةِ لآلِهَتِهم، الَّذين يَدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ، حَتَّىٰ يَسْتَحِقَّ هؤُلَاءِ الآلِهَةُ أنْ يَكُونُوا مَعْبُودِينَ من دون الله، أو مشاركين للَّهِ في استحقاق العبادة بوصْفِ الرُّبُوبِيَّة.

فإذَا لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مُشَارَكةٌ لِلَّهِ في الرُّبُوبِيَّة في واقِعِ الأمْر، فالمشركون مُطَالَبُونَ بأنْ يأتُوا بدليلٍ صحيح ثابتٍ عن الله جلَّ جلاله، وهٰذا الدليلُ يُثْبِتُ أنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَرَ أَوْ أَذِنَ بعبادتِهم.

فإذا لَمْ يَفْعَلُوا فقد سَقَطَتْ كُلّ ذَرَائِعهم، وظهر أنَّ شِرْكَهُمْ باطِلٌ يَعْتَمِدُ علىٰ أوْهامٍ باطلة، وأنَّ شِرْكَهُمْ يتضمَّنُ كُفْراً باللَّهِ الرَّبِّ الجليل العظيم، وظُلْماً عَظيماً لحقّ الله عَلَيْهم في أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ ولا يُشْرِكُوا بعِبَادَتِهِ أحداً.

إنّ استحقاق العبادة لا يكُونُ إلَّا لِمَنْ هُوَ الرَّبُّ، الَّذي يَخْلُقُ ويَرْزُقُ، ويُحْيِي ويُمِيتُ، ويَرْحَمُ ويَنْتَقِمُ، ويُثِيبُ ويُعَاقب، ويُمِدُّ بالبقاء، ويَتَصَرَّفُ بمَخْلُوقاتِهِ على ما يَشَاءُ، ويُهَيْمِنُ بسُلْطَان الرُّبوبيَّةِ وخصائصها، أو لِمَنْ هوَ مشارِكٌ لله في شيءٍ مِنْ ذَلِكَ، أو لمن يأمُرُ الرَّبُ جَلَّ جَلالُهُ أو يَأْذَنُ بِعبادَته.

**التدبر:**

إنَّ التعليم الجدَليَّ الَّذي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ هٰذِهِ الآية قَدْ جَاء مُفَصَّلاً وَمُقَسّماً إلى ثلاث مراحل:

**المرحلة الأولى:** دلَّ عليها قول الله عزَّ وجل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ . . .﴾.

دلَّ هذا البيان على أنّ من الحكمة في مناظرة المشركين الْبَدْءَ بسُؤالهم عن رُبُوبيَّةِ شركائهم، فإنْ كانَتْ لَهُمْ ربُوبيَّةٌ ما، اسْتَحَقُّوا بها أنْ يَكُونُوا آلِهَةً تُعْبَدُ مِنْ دُون الله، وإذا لم تكُنْ لهم رُبُوبيَّة ما، فَعِبادتُهم لَا تَجلُبُ نفعاً ولا تَدْفَعُ ضُرّاً، فهي عَمَلٌ باطل، وهي ظُلْمٌ عظيم لحقِّ الخالِقِ الرَّبّ الذي يجب أنْ يُعْبَدَ، لأنَّهُ هو الرَّبُّ المالك لِعَبِيدِهِ، ويجِبُ أَنْ يُفْرَدَ وَحْدَهُ بالعبادة، إذْ لا يُشارِكُهُ في رُبوبيّتِهِ للكَوْنِ أحدٌ.

والمناظر السَّائل المؤمِنُ بربّه وبأنه لا شريك له في الرُّبُوبيَّةِ، يطرح السُّؤال التالي على المشركين:

إنْ كانَتْ آلِهَتِكُمُ الذين تَدْعُونَ من دُونِ الله شركاءَ اللَّهِ في رُبُوبيَّتِهِ في الأرض، فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا من الأرْض.

أي: أَرُونِي رُؤْيَا بَصَرِيَّة، أو رُؤيا فِكْرِيَّة، شيئاً ما. ـ أيَّ شيء ـ من الأرض الّتي هم يَسْكُنُونها، ويسْتَمتعون بخيراتها، وهذا الشيءُ قد خَلَقَهُ شُركاؤُهُمْ، حتّى يكونَ ذلك مُثْبتاً لها شيئاً من الرُّبُوبيَّة، الّتي تَسْتَحقُّ بها أنْ تُعْبَدَ عبادةً ما، فتكُونَ مُشَارَكةً لله في إلٰهيَّتِهِ.

لكنَّ المشركين لا يسْتَطيعون أنْ يأتُوا بشيءٍ من الأرْضِ مُثْبِتِينَ أنَّه ممَّا خَلَقَهُ شركاؤهم، جَبلاً، أو وادياً، أوْ أرضاً مُنْبَسِطَةً، أو بَحْراً، أو شَجراً، أو رِزْقاً ما، أو غير ذلك من الأشياء غيْرِ ذاتِ الحياة، أو حيًّا من الأحياء بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَها من الأحياء، أو فما دُون الْبَعُوضَةِ كوَحِيدِ

الْخَلِيَّة، أَو شَيئاً من التصاريف المختلفة، غَيْرَ ادِّعاءاتٍ كاذباتٍ لا دَلِيلَ عليها.

وبعَجْز المشركين عن تحقِيق المطْلُوب في هٰذا السُّؤالِ، يَسْقُط احتمالُ مُشَارَكَة آلِهَتِهِمْ للّٰهِ في صِفَةِ الرُّبُوبيَّة المُهَيمِنَةِ على كُلّ الأرض.

وقد جاء وصْفُ شُركاء المشركين في هٰذا البيان بعبَارَة: ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إشَارَةً إلى أنَّ المرْمُوزَ لهم بالأوثَانِ أحْيَاءُ عُقَلاء مُدْرِكونَ في اعتقاد المشركين.

وكذلك جاءت إعادة الضمير فيه عليهم بضَمِير جماعَةِ الذُّكُور الْعُقَلاء العلماء.

﴿تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: تَسْأَلُونَهم وتطْلُبُونَ مِنْهُمْ مطالبكم في حياتكم، وتَسْتَعِينُون وتسْتَغيثون بهم، بعِبَادَة الدُّعاء.

**مِنْ دُونِ اللَّهِ**: أي: من أشياء غير الله، هي بطبيعَتِها تَقَعُ دُونه، في مقابل اتّصافِهِ جلَّ جلالُه بالفَوْقيَّة المطلَقَة، فهو الْعِليُّ الأعلى.

والمعنى: قلْ: يا أيُّها المشركون الَّذِين تَعْبُدونَ آلِهَةً من دُونِ الله، تَجْعَلُون لها أوثاناً وصُوراً رُموزاً، فتَدْعُونها وتتقَرَّبُون إليها بالْقرابين، وتَلْتَمِسُونَ مِنْهَا أَنْ تَرْحَمَكُمْ في مطالِبِ دُنْيَاكُمْ، وأنْ تَنْصُرَكم على أعدائكم.

أرأيْتُم هذه الآلهة الّتي اتَّخَذْتُمُوها شُرَكاءَ لله، واعْتَقَدْتُمْ أنَّ لَهَا الْقُدْرَةَ على جَلْبِ النَّفْع لَكُمْ، ودَفْعِ الضُّرِّ عَنْكُمْ، وأَنَّ لها الْقُدْرَةَ عَلَى نَصْرِكُمْ، وَتَغْلُّبِكُمْ على أعدائكم، واعتقدْتُم أنَّهم من وراء رُمُوزهم أحياء يَسْمَعُونَ دُعاءكم، ويَفْهَمُونَ مَطَالِبَكُمْ، وتُرْضِيهم قَرابينُكُمْ فَيَسْتَجيبُونَ لدُعائكم ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿أَرُونِي﴾: أي: أَرُوني بالشُّهُودِ الحسِّيّ، أو أَرُوني بالدَّلِيلِ الْعَقْلي.

﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾: «مَا» اسم استفهام، وهو مبتدأ «ذا» اسمْ موصول بمعنى: «الذي» وهو خبر. أو «مَاذَا» بمَنْزِلَةِ اسْم واحد، وهو مَفعُولٌ به لفِعْلِ ﴿خَلَقُوا﴾ وجْهَانِ مقبولان عند النحاة.

والاسْتِفْهَام في هٰذه العبارة استِفْهامٌ تَعْجيزي، أيْ: أيَّ شَيْءٍ خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ، حتَّىٰ اسْتَحقُّوا في نَظَرِكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهم.

وهذا مَبْنيٌّ على أنّ الْعِبَادَةِ حَقُّ الرُّبُوبيَّة علىٰ المرْبُوبين، لٰكِنَّ المشركين لا يَسْتَطِيعُونَ إثباتَ رُبُوبِيَّةٍ لغَيْرِ الله.

فتَنْتَهِي هٰذه المرحَلَةِ الجداليَّة بإفْحَامهم، أَوْ بتَسْلِيمِهِم، وهو المطلوب.

**المرحلة الثانية:** دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾:

دَلَّ هٰذا البيان على أنّ من الحكمة في المناظَرَةِ الانتقالَ إلَىٰ طَرْحِ السُّؤالِ التالي على المشركين: أَيْ:

بَلْ أَتَعْتَقِدُونَ أنَّ من تَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ، شُرَكاءُ للَّهِ في خَلْقِ شيءٍ من السَّمَاوَاتِ، أو في إجراء تَصَارِيفها، حتَّى تَسْتَحِقَّ برُبُوبِيَّتِها في السَّمَاواتِ أَنْ تُعْبَد؟؟!

لكنَّ حَال المشركين تُجاهَ هٰذا السؤال أَضْعَفُ من حالِهِم في السؤال الذي طُرِحَ عليهم في المرحَلَةِ الأولى إنَّهُمْ إذا كانوا لا يملكون إثبات شيءٍ من الرُّبُوبيَّةِ لشُرَكائهم في الأرْض، وموادُّها والتصاريفُ فيها مَشْهُودَة، فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُونَ إثْبَاتَ شَيْءٍ من الرُّبُوبِيَّةِ لشُرَكائهم في السَّمَاوات؟!

إنَّهم سيكُونُونَ أشَدَّ عجزاً، وسيَنْقَطعُونَ، وتَنْتَهِي المرْحَلَةُ بإفحامهم، أو بتَسْلِيمهم، وهو المطلوب.

على أنَّ مُشْرِكي العَرَبِ كانُوا يُؤْمِنُونَ بتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ لله عزّ وجلّ في السَّمَاوات، إلَّا أنَّهم كانُوا يَنْسُبُونَ إلى شُرَكَائِهم بَعْضَ صفات الرُّبوبيَّةِ في الأَرْضِ.

﴿أَمْ﴾ هٰذه «أم» المنقطعة، وفيها معنى الإضراب عمَّا جاءَ قَبْلَها، والانتقالِ إلى ما يُراد بيانُهُ بَعْدَها، فهي في قُوَّةِ «بَلْ» الإضرابيَّة الممزوجَةِ بمعنىٰ الاستفهام.

﴿شِرْكٌ﴾ مَصْدَرُ «شَرِكَ» يُقَالُ لغة: شَرِكَ فُلاناً فِي الأَمْرِ «شِرْكاً» و«شَرِكَةً» و«شِرْكَةً» أي: كان لكُلٍّ منهما نصيب فيه، فَهو شَرِيك.

**الْمَرْحَلَة الثالثة**: دلَّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُۚ﴾ وفي القراءة الأخْرَى: [عَلَىٰ بيِّنَاتٍ مِنْهُ] بالجَمْعِ.

بعد إفحام المشركين في المرحلتين السابقتين من مراحل مناظرَتهم، لم يَبْقَ من الاحتمالات الّتي قَدْ يَتذَرَّعُونَ بها، غَيْرَ ذَرِيعةٍ واحِدَةٍ للدّفاع عن صحَّةِ شِرْكِهِم، وهي إدِّعاؤهُمْ أنَّ اللَّهَ قد أَمَرَهم أو أَذِنَ لهم بعِبادَةِ آلهتهم.

وهُنا يُوَجِّه الداعي إلى الله المناظرُ لَهُمْ السُّؤال التالي:

هلْ لديكم نَصٌّ صَرِيحٌ واضح الدَّلالة، في كتابٍ مُنَزَّلٍ من عِنْدِ الله صَحِيح النِّسْبَةِ إليه، فِيهِ آياتٌ بَيِّنَاتٌ، أو آيَةٌ بَيِّنَةٌ واحِدَةٌ، يأمُرُكُم اللَّهُ بها، أو يَأْذَنُ لكُمْ بعبادَةِ آلِهَتِكُمْ.

إنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا بياناً واحداً، في كتاب رَبَّانيّ صحيح النّسْبَةِ إلَىٰ الله، يأذَنُ لَهُمْ بأَنْ يَعْبُدُوا غير الله، أَوْ أن يُشْرِكُوا بعبادَتِهِ أحداً.

بَلْ كان الرُّسُلُ جَمِيعاً، والأنبياء جَمِيعاً، يَأْمُرُونَ بعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَه، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الإشراك به.

ولا بُدَّ أَنْ تَنْتَهِيَ هٰذه المرحَلَةُ بانْقِطَاعهم إفحاماً، أو أنْ يُعْلِنُوا تَسْلِيمَهُمْ بأنَّهُ لا إله إلَّا الله، وهو المطلوب.

وهُنا لا بُدَّ أن تَنتهيَ المناظرةُ بانْتِصَارِ الدَّاعي إلَىٰ اللَّهِ على المشْركين.

وفي نهاية التعليم خَتَمَهُ اللَّهُ عزَّ وجلّ بقوله:

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾:

أي: بل مَا يَعِدُ الظَّالِمُونَ المشْرِكُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إلَّا وَعْداً كاذِباً، يَغُرُّونَهُمْ بِه، ويَدَّعُونَ به دَعَاوىٰ كاذِبة.

ويَظْهَرُ للمتَدبِّر أنَّ الكَهَنَةَ، وسَدَنَة الأوثان، والمنْتَفِعينَ من شِرْك المشركين، هُمُ الّذِين يَفْتَرُونَ الأكاذيب، ويَزْعُمُونَ لِمُقَدِّمي القرابين لأوثانهم، أنَّ عِبادَتَهُمْ لها تَنْفَعُهم في مطالِبِهِمْ من الحياة الدُّنيا، كالرِّزْقِ، وَمَنْحِ الذُّرِّيَّة، والنَّصْرِ، والشَّفاءِ من الأمْراضِ، وتَيْسِيرِ الأمور، وغيْر ذلك من مصالِحِ ومنافِعِ الناس في حيواتهم، ويُوهِمُونَهُمْ بالمواعيد الكواذب أنَّ عبادتهم لشُرَكائهم تَنْفَعُهُمْ في أُمُور دُنياهم، وهٰذا منْهُمْ تَغرير وإطماعٌ بالباطل.

**الْغُرُور**: مصْدَرُ فعل «غرَّهُ». يُقال لغة: غَرَّهُ، يَغُرُّهُ، غرّاً، وَغُرُوراً، وَغِرَّةً، أيْ: خَدَعَهُ وأطْعَمَهُ بالباطل.

وكلمة [**غُرُوراً**] في العبارة صفةٌ نائبة عن المفعول المطْلق، أي: ما يَعِدُ الظالمون بَعْضُهُم بعضاً إلَّا وَعْداً غُرُوراً، أي: إلَّا وَعْداً كَاذِباً باطلاً يَغُرُّونَ به غُروراً.

❀ ❀ ❀

قول الله عزّ وجل:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾.

**تمهيد:**

بعد إسْقاط شِرْكِ المشركين، وبيان بُطلانِهِ جُملةً وتفصيلاً، كان من المناسب بَيَانُ حقيقة اعتماد الكَوْنِ كلِّه في وجُودِهِ أوّلاً، وفي بَقَائِهِ مع تَتَابُع الأزمان وتواليها، على رُبُوبيَّةِ اللَّهِ وحْدَهُ لا شَريك له، وعلى هيمنَتِهِ عليه، وسلطانه الدّائم، الّذِي لا يَنْقَطِعُ أقَلَّ زَمَنٍ يُمْكن أن تُقَسَّمَ الثانية الواحدة فيه إلى عشرات المليارات، بحِسَاب سُرْعَاتِ الأشياء في الوجود، والتي تجتاز فيها مسافات في أبْعاد الكَوْن.

إنّ الكَوْنَ الّذي منْهُ السَّمَاوَاتُ والأرض، وما فيهما، ومنْ فيهما، ومنه الْعَرْشُ والْكُرْسِيُّ وسِدْرَةُ الْمُنْتَهىٰ، لم يَكُنْ لَهُ وجُودٌ، إذْ أَصْلُهُ الْعَدم، ووجُودُهُ مُمْكِنٌ عقلاً غَيْرُ مُسْتَحِيلٍ، هو بالبرهان العقْليّ يحْتاجُ إلى مُوجِدٍ أزَلِيٍّ أبَدِيٍّ يُوجِدُهُ بِقُدْرَتِهِ، عَلَىٰ وَفْق عِلْمِهِ وَإرادَتِهِ وحِكْمَتِهِ، وإيجادُهُ يَتِمُّ بأمْرِ التكْوين منه، بَعْدَ إبْرام قضائِه وقَدَرِه بشأْنه.

وهٰذا الأزلِيُّ الأبَدِيُّ واحِدٌ أحَدٌ لا شَريكَ له، وهو الله الخالقُ الرَّبُّ القادر على الإيجاد ابْتِداءً، وعلى الإمداد بالبقاء دواماً.

ومعلومٌ أنّ الإيجاد ابْتِداءً يحْتَاجُ إلى خَلْقٍ إبداعِيّ، وقَدْ دَلَّ بُرهان الْعَقْل على أنّ الواحد الأحَدَ الأزَلِيَّ الأبَدِيَّ هُوَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ والأَرْض، أي: خَالِقُهُما خَلْقاً إبْداعياً عَلَىٰ غَيْرِ مثالٍ سبَق، فَهُوَ مُبْدِعُهما، ولهذا جاء من صفات الله جلّ جلالُهُ في القرآن المجيد: أنَّهُ بَدِيع السَّماواتِ والأَرْض، أي: مُبْدِعُهما على غَيْر مثالٍ سَبَقَ.

لكِنَّ كُلَّ مَا خَلَقَ الله في الْوُجُودِ كُلِّه، لَمْ يَمْنَحْهُ تبارَكَ وتعالىٰ وُجُوداً له صِفَةُ الْبَقاء المتواصِلِ دون إمدادٍ منْه له بالْبَقَاء مع تتابُع الزَّمن.

بل جعل وُجُودَهُ يحْتَاجُ منْهُ إمْدَاداً مُتَتَابَعاً للبقاء كَنُورِ المِصْبَاح الكَهْرَبَائي، لا يتَتَابَعُ نُورُهُ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَدَدٌ مُتَتَابعٌ من الطَّاقَةِ الكَهْرَبَائِيَّة، فَهُوَ مَشْدُودٌ إلى الْعَدَم الَّذِي هُو الأصْلُ فِيه، ولا بُدَّ لَهُ من قُدْرَةٍ تُمْسِكُهُ في الْوُجُودِ زَمَناً فَزَمَناً، أو تَجَدُّدُ بقاءَهُ في الوجود زمَناً فزمناً مَعَ أصْغَرِ الْوَحَدات الزَّمنيَّة، ما دام له وجُودٌ مُقْدَّرٌ في خُطَّةِ التكْوِين الّتي قَدَّرَها وقضاها.

وهٰذِهِ الْقُدْرَةُ الّتي تُمْسِكُهُ في الوجود زمناً فزمناً، لا تكونُ إلَّا لِمَنْ خَلَقَهُ ابْتِداءً، وأبْدَعَهُ على غَيْرِ مثالٍ سبَقَ، لأنَّ كُلَّ مَا سِوَى الله ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ هو جُزْءٌ مِنْ هٰذا الْكَوْنِ المشْدُودِ إلى أصْلِهِ الّذِي هو العدَم، ويَحْتَاجُ بقَاؤُه في الوجُودِ إلى قُدْرَةٍ تُمْسِكُهُ فيه حتَّىٰ لَا يَزُولَ عن الْوُجُودِ، ويَعُودَ إلى الْعَدَمِ الَّذِي هُوَ أصْلُهُ، وهٰذِهِ الْقُدْرَة هي قُدْرَةُ الْخَالِقِ الأزلي الأبَدِي الَّذي أبْدَعَهُ، إذْ لا وُجُودَ لِقُدْرَةٍ أزليَّةٍ أبَدِيَّةٍ سواها.

**التدبّر:**

قول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ ... ﴿٤١﴾﴾:

﴿يُمْسِكُ﴾: إمْسَاكُ الشيء، القبض عليه حتىٰ لا يُغَيِّرَ مَوْضِعَه أو وضْعَهُ وَحَالَتَهُ الّتي هو عليها.

يقال لغة: أَمْسَكَ الشيءَ بيَدِهِ أيْ: قَبَضَ عليه بها.

﴿أَن تَزُولَاۚ﴾: أي: أنْ تَنْتَقِلا من الوجود إلى الْعَدَمِ الذي هو الأصْلُ فيهما.

**الزَّوال**: هو في اللُّغَةِ التحرُّكُ والانتقال، فزَوَالُ الشَّمْسِ عَنْ كَبِدِ السَّمَاءِ، هو انتقالُها من وسَطِها إلى جهة الغروبِ المقابِلَةِ لجهة الشُّرُوق.

لكِنَّ كُلَّ شيءٍ في الوجود هو متَحرِّكٌ دواماً، من أجزاء الذَّرَّةِ إلى كُلِّ المجرَّاتِ في السَّمَاوات، وكُلِّ أجرام الْوُجُود الصغرىٰ والكبرىٰ، فلا ساكِنَ في الموجودات الكونيَّةِ سُكُوناً كُلّياً، لَكِنْ قد يَكُونُ سَاكِناً سُكُوناً نِسْبِياً، أي: بالنِّسْبَةِ إلى حركة غَيْرِهِ.

وهذا يَدُلُّنَا على أنَّ المرادَ بالزَّوالِ في الآيَة الزَّوالُ عَنِ الْوُجُودِ إلى العَدَمِ، لا مُجَرَّدُ الانتقال من مكان إلى مَكَانٍ آخر.

وظاهرٌ عقلاً أنَّ الزَّوالَ عن الوجود لَا يَكُونُ إلَّا إِلَىٰ الْعَدَمِ، إِذْ لا واسِطَةَ بَيْنَ الوجود والْعَدَمِ.

فالله ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سلطانُهُ ـ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ بِقُدْرَتِهِ إمْدَاداً لها بالبقاء، ويَدْخُلُ في السَّماواتِ كُلُّ مَا هُوَ فِي جهتها من كُلّ ما سِوَىٰ الله عزّ وجلّ.

وبالتأمُّل الفكريّ نُدرِكُ أنَّ الإمْدَادَ بالبقاء هو في حَقِيقَتِهِ إيجادٌ بَعْدَ إيجاد بصُورة متتابعة، وخَلْقٌ من بَعْدِ خَلْق.

ومن أمثلة ذلك الطّاقَةُ الّتي تُحَرِّكُ الآلة الميكانيكيَّةَ ـ ولِلَّه الْمَثَلُ الأعْلَىٰ ـ إذا انْقَطَعَتْ عنها تَوَقَّفَتْ حَرَكتها، لكِنَّها إذا استَمَرَّتْ تُمِدُّ بأجزائها تتابَعَتْ الآلة الميكانيكيَّة في حَرَكَتِها، ما دَامَتْ سَلِيمة لم تتعرَّضْ لِخَلَلٍ ما، فإيجاد التحريك المتتابع يكُونُ بالإمْدَاد بالطَّاقةِ المحرِّكة.

وإذا كَانَ الإمداد بالإيجاد المتَتابع من الخالق الرَّبّ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فَهُوَ خَلْقٌ رَبَّانِيٌّ بَعْدَ خَلْقٍ بصُورَةٍ مُتَتَابِعة.

فقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ أي:

إنّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ بِقُدْرَتِهِ الْجَلِيلَةِ العظيمة في الوجود، مَنْعَ أَنْ تَزُولَا إلى العَدم الذي هو الأَصْلُ فيهما، فيما لَوْ تَرَكَ إمْسَاكَهُما في الْوُجود.

إنّ إمْسَاكَ شيْءٍ ثَقِيلٍ في جَوّ الأرْضِ يَنْجَذِبُ إلَيْهَا بجاذِبِيَّتِها، لا يكُونُ إلّا بِبَذْلِ قُوَّةٍ مُتَجَدِّدَةٍ تَتَوَالَىٰ مع الزَّمَنِ آناً فآناً، وفي اللَّحظَةِ الّتي يَرْتَفِعُ عَنْهُ فيها الإمْسَاكُ، يَسْقُط ذلك الشيءُ إلى الأَرْض الّتي تَجْذِبُهُ إلَيْها.

ولمَّا كَانَ كُلُّ مَوْجُودٍ سِوَى الله مَشْدُوداً ومُنْجَذِباً إلَىٰ الْعَدَم الَّذِي هو الأصْلُ فِيهِ، وكانَ الإمْدَادُ بالْبَقَاءِ في الْوُجُودِ لَا يُقابِلُهُ إلَّا الْعَدَم، كانَ التَّعْبِيرُ بالإمْسَاكِ أدَقَّ تَعْبيرٍ عَنِ الإمْدَاد المتَتابِعِ بالبقاء، للإشعار بأنّ الإمْسَاكَ من الله للمَوْجُودات في الوُجُودِ، متىٰ ارْتَفَعَ عَنْهَا عَادَتْ إلى الْعَدَمِ الّذي هو الأصْلُ فيها.

ولَنْ تُوجَدَ قُدْرَةٌ بَعْدَ قُدْرَةِ اللَّهِ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُبْقِي في الْوُجُودِ مَا رَفَعَ اللَّهُ إمْسَاكَهُ لَهُ فِيهِ.

قول الله تعالى:

﴿... وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِۦٓ ... (٤١)﴾.

أي: وأقْسِمُ لَئِنْ زَالَتِ السَّماواتُ والأرض فيما لو رفع الله إمْسَاكَهُ لَهُما في الوجود بقُدْرَته، مَا أمْسَكَهُمَا في الوجود من أحَدٍ من بَعْدِه، على سبيل الاستغراق العامّ الشامل المؤكّد، وأضيف إلى العبارة حَرْف «مِنْ» في: ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ الّذي هو حرف جرٍّ زائد، لتأكيد التنصيص على العموم المنفي بحَرْف النَّفْي ﴿إِنْ﴾.

إنَّ كُلَّ شَيْءٍ سوىٰ اللَّهِ عزّ وجلّ في الوجود، سَيَنْصَرِفُ فوراً إلى العدم، فيما لو رفع الله إمْسَاكَهُ لَهُ في الْوُجود، إذِ الْعَدَمُ هُوَ الأصْلُ فيه.

فأيَّةُ قُوَّةٍ إذَنْ تُمسِكُ السَّمَاوَاتِ والأرْضَ في الْوُجُودِ بَعْدَ قُوَّةِ اللَّهِ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سلطانه.

قول الله تعالى:

﴿... إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾:

البيانُ السَّابِقُ يُثِير سُؤالاً في أذْهَانِ بَعْضِ النّاسِ، مُفَادُهُ: إذَا كَانَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ هُوَ الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ والأرْضَ في الْوُجُودِ مَنْعَ أَنْ تَزُولَا إلَىٰ أصْلِهِما الذي هو الْعَدَم، فَلِمَاذَا يُمِدُّ الْكَافِرِينَ والمشركينَ والْمُجْرِمِينَ والمعَانِدِين بالبقاء في الوجود، وفي يَدِهِ رَفْعُ إمْسَاكِهِ لَهُمْ فيه، حتَّىٰ يَنْصَرِفُوا إلى الْعَدَم؟!

هذا السؤال المطويُّ جاءت الإجابَةُ عليه في هٰذه العبارة.

أي: إنَّهُ جَلَّ جلالُهُ يُمْلِي للظَّالِمِينَ بِحِلْمِهِ، لِيَتْرُكَ لَهُمْ أَقْصَىٰ أَمَدٍ يُرْجَىٰ فيه هِدَايَةُ ذِي ضلالَةٍ لَدَيْهِ إرادةٌ صَحِيحةٌ لِلْبَحْثِ عن الْحَقِّ والإيمان به.

وهو جلَّ جلالُهُ بِرَحْمَتِهِ غَفُورٌ لعباده المذنبينَ، إذا تَابُوا وآمَنُوا واسْتَغْفَرُوا وأصْلَحُوا.

فِعْلُ ﴿كَانَ﴾ بالنِّسْبَةِ إلىٰ الله يَدُلُّ على الدَّوامِ في الأزْمانِ كُلّها، لأنّ ما كان للَّهِ أزلاً فَهُوَ لَهُ أبداً، وبرهان العقل يَدُلُّ على أنَّ كُلَّ أزَلِيٍّ لا بُدَّ أن يَكُونَ أبَدِياً، إذْ لا يُوجَد ما يُمكِنُ عقْلاً أنْ يُحوِّلَهُ من كوْنه واجِبَ الْوُجود إلى جائز الوجود.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ

وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

**تمهيد:**

هذا البيان متعلّقٌ بالمشركين المعنيّين بالْمُعَالَجَة في سُورَتي (الفرقان) و(فاطر).

وقد كانوا قَبْلَ بعْثَةِ محمَّد ﷺ ينْظُرُون إلَىٰ أهْلِ الكتاب من الْيَهُودِ والنَّصارىٰ نَظْرَة إكبارٍ وإعجاب، وكانوا حينَ يَدْعُوهُمْ دُعَاةُ النَّصرانيَّة إلى الإيمان بعيسَىٰ عَليْهِ السَّلامُ، وإلى اتّباع الدّين الذي يقولون لهم بشأْنِهِ إنَّهُ الدّين الذي جاءَ بِهِ عيسىَ عليه السَّلام، يَرْفُضونَ دَعْوَتهم، ويَرَوْنَ أَنَّ دَعْوَةَ عيسَىٰ غَيْرُ مُلْزِمَةٍ لهم.

لكن تأثَرَتْ بدَعْوَة دُعَاة النَّصرانية بَعْضُ قبائل العرب، منها: «تَغْلِب، ولَخْم، وكَلْب، وأهْلُ نجران».

بَيْدَ أَنَّ قُرَيشاً لم تَسْتَجِبْ اعتزازاً بعُرُوبتها، وبأَنَّها على مواريثِ ما بَقِيَ من الدِّينِ الّذي تَلَقَّوْهُ مِنْ إسماعيلَ بْنِ إبراهيم عليهما السَّلام، كمناسك الحجِّ، وأثَارَةٍ من عبادات وأخلاقٍ، وبعْضِ عِلْمٍ من قضايا الدّين.

وكان قادَتُهم وزُعَماؤهم يتمَنَّوْنَ أنْ يَأتِيَهُمْ رَسُولٌ عَرَبيٌّ منْهُمْ، حتَّى يَتَّبِعُوهُ، ويَكُونُوا باتِّبَاعِهِ أكْثَرَ هِدَايَةً والْتِزاماً بشرائع الدّين وأحكامه من إحْدَىٰ الأُمَمِ الَّتِي تَعْتَزُّ بِرَسُولِهَا وبالكتاب الَّذِي أُنْزِلَ عليه، ويَعْنُونَ بإحْدَاها أكْثَرَها هدايَةً والْتِزاماً بشرائع الدّين الرَّبّاني وأحكامه، يَهُودِيَّةً كانت أمْ نصرانيَّة أم غيرهما، إلَّا أنّ اليهود والنصارى كانوا هُمُ الْمَرْمُوقِين في بلاد الْعَرَب بأنَّهُمْ أهْلُ الكتاب.

وكانوا يُقْسِمُونَ بالأيمانِ المؤكّدَةِ المغلَّظَةِ، الَّتِي يَجْتَهِدُونَ في جَمْعِها بعبارات الْقَسَمِ الّتي يَقُولُونَها باذِلين غَايَةَ جَهْدِهِمْ، قائلين بَعْدَ عبارات القَسم: لَئِنْ جاءنا رَسُولٌ فبلَّغَنَا مَا أنْزَلَ الله عليه، وعَلَّمَنَا وبَشَّرَنَا وأخيراً أنْذَرنا بما أعْتَدَ الله لمن كَفَرَ من عذاب، لنَكُونَنَّ أهْدَىٰ من النَّصارى، أو لنكونَنَّ أهْدَىٰ من اليهود.

فمن كان منهم يَرَىٰ أنَّ النصارىٰ هُمُ الأكثر هداية قال: لنَكُونَنَّ أهْدَىٰ من النصارىٰ، ومن كان منهم يَرَىٰ أنَّ الْيَهُودَ هم الأكْثَرُ هِدَايَةً قَالَ: لَنَكُونَنَّ أهْدَىٰ من اليهود.

فلَمَّا بَعَثَ الله فيهم رسُولاً مِنْهُمْ كَفَرُوا بِهِ، وأمْعَنُوا في الكُفْرِ برسَالاَتِ الله للنَّاس، فبَدَلَ أنْ يَزْدَادُوا بِبَعْثَتِهِ اقتراباً مِنْ دِينِ اللَّهِ الحقّ، ازْدَادُوا نُفُوراً منْه، فزادَتْهُمْ بياناتُ دِينِ الله، وتكاليفُ أحْكام شريعَتِهِ اسْتِكْبَاراً في الأرض، وزادتهم اتّخاذاً لأنواع وأصْنافِ وتدابير المكْرِ السَّيِّءِ، ضِدَّ الحقّ الرّبَّانيّ، ودُعَاتِهِ.

فأبَانَ الله لَهُمْ أنْ مَكْرَهم سَيَحِيقُ بهم، وأنّ سُنَّة اللَّهِ في الكافِرِينَ السَّابِقِينَ سَيَتِمُّ تَحْقِيقها فيهم، إذا أصَرُّوا على ما هُمْ عليه من كُفْرٍ وعِنَادٍ وفجور، ومُقَاوَمَةٍ للحقّ الرَّبّانِيّ ودُعَاته.

**التدبر:**

قول الله تعالى:

• ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ . . . ﴿٤٢﴾﴾.

• ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: أي: كان من أمْرِهم قَبْلَ بِعْثَةِ محمّد ﷺ هذا القسم، ولكِنْ لم يَبَرُّوا بقسمهم بَعْدَ بِعْثَتِهِ، بل أخْلَفُوا ما وَعَدُوا رَبَّهُمْ به.

**القَسَم**: هو الْحَلِفُ بمُعَظَّم عنْدَ المقْسِم، يقال لغة: أَقْسَمَ باللَّهِ، أي: حلَفَ باسم الله مُوَثِّقاً بحَلِفِهِ خبراً أخْبَرَ بِهِ، أوْ وَعْداً وَعَدَهُ، وألْزَمَ نَفْسَهُ باليمين أنْ يَفِيَ بِهِ.

﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾: أي: أبْلَغَ أيمانهم، وآكَدَها، وأَجْمَعَها للعبارات.

**الْجَهْدُ**: في اللُّغَةِ، الجِدُّ والاجْتِهاد، وبَذْلُ أقْصَىٰ الطَّاقَة، ويُطْلَقُ علَىٰ تقديم غَايَةِ ما عِنْدَ الإنسانِ من شيءٍ، فبَذْلُ غايَةِ ما يَمْلِكُ مِنْ مالٍ، يُقَالُ فيهِ: **جَهْدُ الْمالِ**، أي: غايَتُهُ وأقصاه. **وجَهْدُ الْقُوَّة**: أي: غايةُ ما لَدىٰ الإنْسَانِ من قُوَّة، وبذْلُ ذَلِكَ يُوقِعُ في المشقَّةِ والإعْياء.

**وجَهْدُ الأيْمَانِ**: غايَةُ ما لدىٰ الإنْسَانِ منها.

- ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾؛

أي: لَئِنْ جاءهم رسُولٌ صادقٌ يُبَلِّغُ عن رَبّه مَا أنزل الله عليه، فعلَّمَهُمْ وَبَيَّنَ لَهُمْ وَبَشَّرَهُمْ وأنْذَرَهُمْ لآمَنُوا به، ولاتَّبَعُوا ما أنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ من شرائع وأحكام، ولَكَانُوا أهْدَىٰ منْ إحْدَىٰ الأُمَم الَّتِي بَعثَ اللَّهُ لها رَسُولاً، وأنْزَلَ عليه كتاباً، وفي عبارتهم إلْماحٌ إلى اليهود والنَّصَارىٰ، وَقَدْ ظَهَرَ لي أنَّ بَعْضَهُمْ قال: لنكوننَّ أهْدىٰ من النصارىٰ. وبعضهم قال: لنكونَنَّ أهْدَىٰ من اليهود، بحَسَب اعتقاد كُلٍّ منْهم في اليهود أو في النصارىٰ.

جاء في هذا البيان التعبيرُ عن الرَّسُول المبلّغ المعلّم المبشِّرِ المنذر، بعبارة ﴿نَذِيرٌ﴾ إيجازاً في العبارة، لأنّ الإنْذار بعذاب الله، علىٰ رَفض الاستجابة لدَعْوَةِ الرَّسُول، تكونُ عادةً كما سبَقَ شَرْحُهُ عدَّة مرَّاتٍ، في آخر المراحل الدَّعويّة، فَهُو يَدُلُّ باللُّزُوم الفكريّ علىٰ كُلّ المراحِلِ الّتي تَسْبِقُهُ من التبليغ، والتعليم، والتَّذكير، والنُّصح، والجدالِ بالَّتي هي أحْسَنُ، والإرشادِ بأحْكم الوسائل، والبشارَة، وغَيْرِ ذَلِكَ من الوسائل الدَّعَوِّية.

وفي عبارة: ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ إيجازٌ يُشِيرُ إلى مقالَاتهم في هذا الشأن، بحَسَبِ اعتقاد كُلٍّ منهم: هل الْيَهُودُ أهْدَىٰ، أم النصارىٰ أهْدَى، أم المجوسُ أهْدَىٰ.

﴿أَهْدَىٰ﴾: أفعل تفضيل، أي: أكْثَرُ هِدَايَةً والْتِزاماً بالحق، وبشرائع اللَّهِ وأحكامه من إحدى الأمم.

﴿... فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾:

أي: فلَّما جاءهم الرسول المبلغ عن رَبّه، والمعلّم الناصح الأمين، والمرشد إلى صراط النَّجَاةِ والسعادة العاجلة والآجلة، والبشيرُ النذير محمَّدٌ ﷺ، لم يَبرُّوا بقَسَمِهِم، وكَانَ المترقَّبُ منهم بحَسَب قَسَمِهم المؤكّد المشدّد أن يزْدادوا ببِعْثَتِه اقتراباً من الحقّ الرَّبَّانيّ، وأن يزْدادوا اهتداءً إلىٰ رحاب النُّور وصراط الهدى، لكِنَّهُمْ في واقِع حالِهم لم يَزْدادوا إلَّا نُفُوراً من الحقّ والخير والْهُدَىٰ، ونُفُوراً من الدّين الرَّبَّانِيّ الحقّ.

**النُّفُور**: هو الإعراضُ والصَّدُّ والابتِعَادُ كحالَة المذعُور الخائف الشارد، أو كَحالَة الممتَنِع المتراجِعِ بحِرانٍ.

لقَدْ كَانُوا نَافِرِينَ عن اتّباع دِين الله، إذْ كانَ بإمكانهم أن يستجيبوا لدُعاة النَّصارىٰ، الَّذين كانوا قَبْلَ بِعْثَةِ الرَّسُول مُحمّد ﷺ، يَدْعُونَ إلى الله على بَصِيرَةٍ وهُدىٰ، دَعْوةً لَيْسَ فيها شركٌ ولا تحريفٌ في دين الله، لكِنَّهُمْ نَفَرُوا، فلم يسْتجيبوا، فلمَّا بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بالحقِّ ازْدَادُوا نُفوراً عن دِينِ الله، وازْدادُوا تَمَسُّكاً بِشِرْكياتهم.

لقد كان المفروض فيهم بالنَّظر إلى ما حَلَفُوهُ من أيمان مُغَلَّظَة، أنْ تَزِيدَ مَعْرِفَتُهم للحقّ الرَّبَّاني، وأنْ يَزْدَادَ مَيْلُهُمْ إلى الاستجابةِ لدِين الله، وأنْ يتّبِعوا رَسُول الله محمّداً ﷺ.

لكن كان منْهُمْ ضِدُّ ذَلِكَ تَماماً، فَقَدِ ازْدادُوا نفوراً.

وكان قادتهم وزُعماؤُهم يَتَمَنَّوْن أن يكُونَ عِنْدَهم كتابٌ ربَّانيٌّ مَوْرُوثٌ عن إسماعيل عليه السلام، أو أبيه إبراهيم عليه السلام، لاتّخذوه ذكراً يتلُونَه ويَعْمَلُون به، مثل الذكر الّذي لدى اليهود، أو لدى النصارى، ولكانُوا عبادَ اللَّهِ المخلِصِينَ والمخلَصِينَ.

فَلَمَّا جاءهم القرآن أعظم كتابٍ رَبَّانِيٍّ هو ذِكْرٌ للعالمين، وبلِسَانٍ عَرَبيٍّ مُبِينٍ كفَرُوا به، فظهر من سُلُوكهم أنّهم كانوا كاذبين فيما كانوا يَدَّعُون.

دلَّ على هٰذا قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الصَّافَّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾:

وفي قراءة متواترة أخرى: ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ ٱلْمُخْلِصِينَ﴾ بكسر اللام، اسْم فاعل من فعل «أخْلَصَ».

أي: لو أنّ عِنْدنا كتاباً هو ذِكْرٌ لنا من رُسُلِ اللَّهِ الأوّلين، كإسماعيل وإبراهيم عليهما السّلام، لَكُنَّا عَمِلْنَا بِهِ مُخْلِصِين لله، ومُخْلَصِينَ من قِبَلِه.

فلَمَّا جاءهم الْقُرآن، وبلَّغَهُمْ الرَّسُول ما نزل عليه منه كَفُروا به، ولم يُؤْمِنُوا به، ولَمْ يَتَّبِعُوهُ، وكذَّبوا رَسُول رَبِّهم محمّداً ﷺ.

وأبان الله عزّ وجلّ مِنْ خلائقِهِم الْجَدَلِيَّة الاحْتِجاجيّة، أنَّهُ لو عذَّبَهُمْ بما قَدَّمُوا من كُفْرٍ وشرْكٍ وقبائِحَ وسَيِّئَاتٍ عذاباً مُعَجَّلاً في الدُّنيا، لَقالُوا محتجّين على رَبِّهم هلَّا أَرْسَلْتَ إلَيْنَا رَسُولاً، وأنزلْتَ إلينا كتاباً، فنتَّبِعَ آياتِكَ، ونكُونَ من المؤمنين، فلَمَّا جَاءَهم رسولُ الله ﷺ كذَّبُوه، وقالُوا: هَلَّا أُوتي من المعجزات مثْلَ ما أوتي مُوسَىٰ، فقال الله بشَأْنِهم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ مع كلّ الآيات المعجزاتِ الّتي آتاه الله

إيَّاها، وقالوا عن التوراة وعَنِ القرْآن ﴿سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا﴾ وقالُوا: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ﴾.

دلَّ على هذا من خلائقهم الشَّنِيعَة قول الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

فوبَّخَهُمُ اللَّهُ علىٰ كُفرِهِمْ بما أُوتِيَ مُوسَىٰ منْ كتاب، وكَانَ الواجب علَيْهم أَنْ يُؤْمِنُوا بالْحَقّ الرَّبَّانِيِّ من أيِّ مُبَلِّغٍ رَسُولٍ صادقٍ تَلَقَّوْهُ، أو مُبلِّغِينَ عَنْهُ صَادِقين سَمِعُوه.

ويُرَجّحُ عِنْدِي أنَّ المراد بما جاء في عبارة: ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾: لَيكُونُنَّ أهْدَىٰ مِنَ اليهود أو من النصارىٰ، وأنَّ هٰذِهِ العبارة تُشِيرُ إلَىٰ أنَّ كُلَّ فرِيقٍ من المشركين كَانَ مُعْجباً بأُمَّةٍ دِينِيَّة من أُمَمِ الأَرْض في زَمَانهم، قول الله عزّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً للمشركين، في مَعْرِض الحديث عن الكتاب الّذي أنزلَهُ الله عزّ وجلّ على موسىٰ عليه السلام، تماماً على الّذي أحْسَنَ، وتفصيلاً لكُلّ شيءٍ من أحكام الدّين المنزَّلِ على موسى وهُدًى ورحمة.

﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿يَصْدِفُونَ﴾: أي: يُعْرِضُونَ وينْصَرِفُون غير عابئين.

فدَلّ هذا النَّصُّ على أنّ الأمم الدينيَّة الماثلَةَ في أذهانِ مشركي الْعَرب، ومنهم زعماءُ قريش وقادتُهم، هم أهل الكتاب الْيَهُودُ والنَّصارى، فعبارة: ﴿أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ في سورة (فاطر) تُحْمَلُ عَلَيْهم.

ولهذا قال الله عزّ وجلّ في سُورَة (الأنعام) قاطعاً معاذِيرَ وتَعِلّاتِ المشركين الّتي يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَذِرُوا بها يَوْمَ الدّين: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ أي: القرآن ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾: أي: كثير الْعطاءِ العلميّ والمعْرِفِي، وكَثِيرُ الْهِدَايَةِ والتأثيراتِ القلبيّة والنفسيَّة، وعَلَىٰ رسولٍ منكم، بلِسَانٍ عَرَبيٍّ مُبينٍ ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟﴾ عِقَابَ رَبّكم بالإيمان والعمل الصالح ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أي: راجِين أن يرحَمَكُمْ رَبُّكم، فَيَغْفِرَ لَكُمْ ويُدْخِلَكُمْ في جنَّتِهِ مع عبادِهِ المتقين، وبَعْدَ إرْسال الرَّسُول وإنْزَالِ الكِتَاب الّذِي كُنْتُمْ تَتَمَنَّونَ أن يكون عنْدكُمْ مِثْله ذكراً قبل بِعْثَةِ محمد، فلا عُذْرَ لَكُمْ وَلَا تَعِلَّةَ تجعلُكُمْ تتذَرَّعُونَ بها لتكْذِيبه والتكْذِيب بما جاء به عَنْ رَبّه، والصُّدُوفِ عنه، وببِعْثَته وإنْزالِ الكتاب عليه امْتَنَعَ عليكُمْ ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ هم الْيَهودُ والنَّصارى ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي: فَلَمْ تَكُنْ لنا معهم مُدارَسَاتٌ دينيَّة ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾: أي: وامتنع عليكم أَنْ تَقُولُوا هٰذِهِ المقالة في إلْقَاءِ معاذيرِكم يوْمَ الحساب ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ وهو القرآن المجيد.

قول الله عزّ وجل:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ...﴾:

أي: فلَمّا جاءهم الرَّسُولُ محمّد ﷺ، وبلَّغَهُمْ دِينَ الله، وتَلا عَلَيْهِمْ ما أنْزَلَ اللّهُ عليه من كتاب رَبّهم القرآنِ المجيد، وأنْذَرَهُمْ عذابَ الله إذا أَصَرُّوا على كُفْرِهم وعنادِهم وفجورهم، ما زادَهُمْ اقتراباً من دعْوَةِ الحق،

بل زادَهم نُفُوراً عن الاستجابَةِ لِمَا جَاءَهُمْ بهِ عن رَبّهم، ونُفُوراً عن تَلَقِّي كتاب اللَّهِ وتَدَبُّرِه، والعمل بما جاء فيه، ونُفُوراً عن الإيمان بالحقّ، واتّباعِهِ، والاهتداء بهَدْيه.

والسَّبَبُ الذي جَعَلَهُمْ يَنْفِرُونَ هٰذا النُّفُورَ الغبيَّ الأحْمَق، يَرْجِعُ إلى دَاءَيْنِ نَفْسِيَّيْنِ خبيثَيْن:

**الدَّاءُ الأولُ**: حُبُّ الاسْتِكْبَار في الأرض، واتّخاذ الوسائل المختلفة للْعُلُوّ فيها، واحتلالِ مراكز العظَمَة والكِبْرِياء على الناس، ومراكِزِ الزَّعَامات المختلفات، والأنَفَة من اتّباع رسول اللَّهِ محمّد فيما جاءهم به عن رّبهم.

وهذا الدّاءُ يظْهَرُ في قادَةِ أهْلِ الكُفْر وزُعَمائهم وذوي نَزَعَاتِ الكِبْرِ فيهم، وقَدْ دَلَّ عليه قول الله تعالى في العبارة: ﴿ٱسۡتِكۡبَارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ازْدادوا نفوراً لأجْلِ أنْ يُحقّقُوا لأنْفُسِهِم الاستكْبَارَ في الأرض، متوهّمِينَ أنَّ اتّباعَهُمْ للرَّسُولِ يَحْرِمُهم من مكاناتِهم الاجْتماعيَّةِ الرَّفِيعة، أوْ لا يَسْمَحُ لَهُمْ بأنْ يَعْمَلُوا لبلُوغ ما يطْمَحُونَ إليه منها.

**الدَّاءُ الثاني**: شَهَواتُ النُّفُوسِ وأهْوَاؤها، ومطالِبُها من زِينَةِ الحياة الدُّنيا بفجورٍ وقِحٍ، وانْطلاقٍ بلا قُيُودٍ ولا حُدُودٍ، وهذه لَا تَتحقَّقُ لِطُلَّابها إلَّا بالْمَكْرِ السَّيّئ، فأُطْلِقَ المكْرُ السَّيّىءُ كنايَةً عَمَّا يتَحَقَّقُ بِهِ من فُجُورٍ وقبائحَ وسيّئاتٍ وظُلْمٍ وفسادٍ في الأرض.

**المكر**: هو تَدْبيرُ أَمْرٍ في خفاء، يكُونُ في الْخَيْر، ويكُونُ في الشرّ، فالمؤمنون المتقون يَمْكُرونَ، أي: يُدَبّرون أمُورَهُمْ في خفاء، ومَكْرُهم يكون في الخير.

والله ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه ـ يَمْكُر في الخير دائماً، وهو خَيْرُ الماكرين، والمكْرُ في الخير مَكْرٌ حَسَنٌ دواماً.

والكافرون الفاجِرُونَ يَمْكُرُون، أي: يُدَبِّرُون أُمُورَهُمْ في خفاء، ومَكْرُهُمْ يكُونُ في الشّرّ غالباً، والشيطان يَمْكُرُ في الشّرّ دائماً، وهو شرّ الماكرين، والمكْرُ في الشّرّ مَكْرٌ سَيّىءٌ دواماً.

ولمّا كان المكْرُ صالحاً لأن يكون في الخيْر، وصالِحاً لأنْ يَكُونَ في الشَّرّ، كانَ لَا بُدَّ مِنْ وصْفِ المذْمُومِ منْهُ بأَنَّهُ سَيّىءٌ بالوصف الصّريح أو بدلالة الْقَرائن.

وجاءَ التعبير بالمكْرِ السّيّئِ عن رغبات الفجور في الْأرض، إمَّا على سبيل الكنايةِ، بإطلاق العبارة وإرادة لوَازِمِها في السُّلُوك، وإمَّا على طريقة المجاز الْمُرْسل، وهو هنا من إطلاق الوسيلة عَلَى ما يُتَوسَّلُ بها إليه.

وإضافة كلمة «مَكْر» إلى كَلِمة «السَّيّئ» هي من قبيل إضافة الموصُوف إلى صفته، على رأي الكوفيّين، وبالإضافة لا تشترط المطابقة بين الصفة والموصوف، وبهذا حصل تقييد المكْر بأن يكون سَيّئاً، لاسْتِبعَاد المكر الحسن.

ويَرَىٰ الْبَصْرِيُّونَ أنّ هذه العبارة على تقدير: ومَكْرَ الْعَمَلِ السَّيّئ، ويُقَاسُ عليها أمْثَالُها، لأنّهم لَا يَرَوْن جواز إضافَةِ الموصُوف إلى صفته.

**أقول**: الأمْرُ سَهْلٌ يَدُورُ في فَلَكِ الصّناعة النحويَّة، أمَّا المعنى المرادُ بالعبارة فواضِحٌ لَا يَحْتَاجُ جَدَلاً.

والمكْرُ السّيّئ يَشْتَرِكُ فيه المسْتَكْبرون الْحَرِيصُون على تحقيق رغبات نفوسهم في الْعُلُوّ في الأرض، وأهْلُ الأهواءِ والشَّهَواتِ وإرَادَةِ الفجور.

قول الله تعالى:

• ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾: أي: ولا يُصيبُ المكْرُ ويُحِيطُ إلَّا بأهْلِه المستحقّين له.

يقالُ لغة: حَاقَ بِهِ الشيءُ، أي: أصابه وأحاط به. ويُقالُ: حَاقَ به الْأَمْرُ، أي: لَزِمَهُ وَوَجَبَ عليه.

هذه سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ في كوْنِهِ، فَمَنْ كان أَهْلاً لأَنْ يَحِيقَ به المكرُ السَّيِّئُ حَاق به، ومَنْ لَمْ يكُنْ أهلاً لَهُ أنجاهُ اللَّهُ منْهُ.

يُلاحظُ في بيان هٰذه السُّنَّة مِنْ سُنَنِ اللَّهِ في المجتمع الإنسانيّ، أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ بَعْدَ أنْ أبان الدَّاءَ الذي جعَلَ المشركين يمْكُرُونَ المكْرَ السَّيِّئَ، لبُلُوغ ما يَرْغبون فيه من انْطِلَاق وقِحٍ في الفجور، كان من الحكمة بيَانُ سُنَّةٍ من سُنَنِهِ في الاجتماع البشريّ، وهِيَ أنَّ المكْرَ السَّيِّئ لَا يَحِيقُ إلَّا بأهْلِه، في آخر المراحل.

ولا يُفِيدُ هٰذا البيان أنّ الممْكُورَ بِهِمْ لَا يَصِيبُهم شيءٌ من الأذَىٰ أو الضَّرّ، بَلْ قَدْ يُصِيبُهُمْ شيءٌ من ذلِكَ، وقَدْ يكونُ ضُرّاً بالغاً، على سبيل ابْتِلَاء الله لهم في الحياة الدُّنيا، لَكِنَّ الإحَاطَةَ الشَّامِلَةَ للمكْرِ السَّيِّئ لَا تَكُونُ إلَّا بِمُسْتَحِقِّيهِ الَّذِين هُمْ أَهْلٌ له، وتكُونُ العاقبةُ الحُسْنَىٰ للمتقين، وللأبرار، ولِلْمُحْسِنِين.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿... فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾:

بعد بيان الدّائَيْنِ اللَّذِين جَعَلا المشركين المعنيِّين يُصِرُّون على الكُفْرِ وعَدَم الاستجابة لدعوة الحقّ، وجَعَلاهم يزْدادُونَ نُفُوراً، بدَلَ أن يَزْدُادوا اقتراباً إلى رِحَابِ الحقّ والخير والهدى، صار من المناسب في العلاج التربويّ أنْ يُهَدَّدُوا بعذابٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدُّنيا، يُهْلِكُهُمْ وَيَسْتَأْصِلُهُمْ، كما أهْلَكَ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سلطانُهُ ـ كُفَّارَ الْقُرُونِ الأولى، ضِمْن سُنَّتِه الَّتي لَا تَبْدِيلَ لَهَا، ولا تَحْوِيل.

• ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: فَهَلْ يَنْتَظِرُون ويَتَرقَّبُونَ إلَّا سُنَّةَ اللَّهِ الّتي أجْرَاهَا في الكافرين الأوَّلين.

السَّنَّةُ: هي الطريقة المتَّبَعَةُ دَواماً.

الإضافَة في ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ دلَّتْ على أنّ الإضافات يكْفِي فيها أَدْنَىٰ مُلَابَسَة. وهي هُنا على تقدير مضاف محذوف، أي: إلَّا سُنَّةَ اللَّهِ في الْأَوَّلين، وهُمْ كُفَّارُ الْقُرُونِ السَّابقة.

والمعنى: إنْ كانُوا يَنْتَظِرُونَ وَيَتَرقَّبُونَ في أوهامِهم وتَصَوُّراتِهم أَنْ يَسْتَمِرَّ لَهُمُ الْعُلُوُّ في الأرض، مستكْبرِين على الرَّسُول والّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، ويَنْتظرون وَيَتَرقَّبُونَ أَنْ يَجْلُبَ لَهُمْ مَكْرُهُمُ السَّيِّئُ مَا يُحِبُّونَ من القضاءِ على الإسلام ودُعَاته، ومَا يُحِبُّونَ مِن مطالِبِهِم الفاجرات من زينَةِ الحياة الدُّنيا، فَلْيَعْلَمُوا أنّهم لا يَنْتَظرون في الحقيقة وواقع الأمْرِ إلَّا أَنْ تَجْرِيَ عَلَيْهم سُنَّةُ الله الَّتي أجْرَاها علَىٰ الكُفَّارِ الأَوَّلين، بتَكْرارٍ في الأَقْوَام والْأُمَمِ السَّابِقَة. وأدْنَىٰ ذَلِكَ أنْ يَنْصُرَ رَسُولَهُ والَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ عليهم، وأن يُحْبِطَ مَكْرَهم وكُلَّ مكايدهم الَّتي يَكِيدُونها ضدَّ الإسلام، وضدّ الرَّسُول، وضِدَّ الذين آمَنُوا بِه واتَّبَعُوه.

فَلْيَكُونُوا بإنْذَارِ الله لَهُمْ في كتابِه الْمِبين، على بَيِّنَةٍ من أَمْرِهم.

وإنْ كانوا أَهْلَ عَقْلٍ وَرُشْدٍ وَبَصِيرَة، لم يُعَرِّضُوا أنْفُسَهم لِنِقْمَةِ الله وسَخَطه، وإجراء سُنَّته فِيهم.

• ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾:

بعد بَيَانِ أنَّ المشركين المعنيّين، لا يَنْتظرون في الحقيقة وواقع الأمر إلَّا أن يُجْرِي اللَّهُ فيهم سُنَّتَهُ الَّتي أجراها في الكافرين الأوّلينَ، من أَهْلِ القرون الأولى، وهي الانتصارُ لرُسله وأَتباعهم على من عاداهُمْ من كفَّار الأُمَم، كان من الحكمة بيانُ أنَّ سُنَّة الله التربويّة والجزائيّة سُنَّةٌ ثابتة، لا

تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَحَوَّل، ولا تُوجَدُ قُوَّةٌ في الوجود قادِرَة على تَبْدِيلها أو تَحْويلها، إذْ كُلُّ قُوَّةٍ في الوجود لا تتوجَّهُ إلَّا بإمْدَادٍ مِنْهُ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه ـ وَبإذْنٍ مِنْهُ في أَنْ تَعْمَلَ وَتُحقِّقَ آثَارَها.

والله عزّ وجلَّ لَا يُجرِي في سُنَّتِه تَبْدِيلاً وَلَا تَحْويلاً، إذْ هي قائمةٌ علىٰ الحقّ والْعَدْلِ وكَمَالِ الحكمة.

**التَّبْدِيل**: يَكُونُ بِتَنْفِيذِ عَمَلٍ آخَرَ غَيْرِ الْعَمَلِ الَّذِي تَقْتَضِيه سُنَّةُ الله، وهٰذا لا يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ في الكَوْن الّذِي هو مِلْكُ اللَّهِ وَخَاضِعٌ لسُلْطَانِهِ وَقَهْرِهِ وَعِزَّته الغالِبَة.

**والتَّحْويلُ**: يكونُ بصَرْفِ الْعَمَل الّذي تقتضيه سُنَّةُ اللَّهِ عن مَجْراه الْمُحَدَّدِ له بقضاء الله وقَدَرِه.

ولن يَسْتَطِيعَ أحَدٌ في الوجُود أنْ يُجْرِي هٰذا التَّحْويل.

إذَنْ: فلا تَبْدِيل لسُنَّةِ الله، ولا تَحْويلَ لسُنَّةِ الله.

وإذا كان الأمْرُ كذلك، فلَنْ تجدَ أيُّها المُتَلَقّي لهذا البيان أيًّا كُنْت لسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً، ولَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ اللَّهِ تَحْويلاً.

فَكُونُوا أيّها المشركون على بيّنَةٍ من أَمْرِكم، ومن أمْرِ سُنَّةِ الله في عباده، ولَا تُعَرِّضُوا أَنْفُسَكُمْ لعقاب اللَّهِ ونِقْمَتِه.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾.

أي: أَلَمْ يَتَّعِظُوا بما جاءَهُمْ من أخبارٍ عَنْ قَوْم نوحٍ، وعادٍ، وثمودَ،

وأهْلِ مَدْيَنَ، وقَوْمِ لوطٍ، وفِرْعَوْنَ ومَلَئِه وجنُوده، وأنّ اللّهَ بعِزَّتِه ضِمْن مجاري سُنَّتِه الحكيمة أهلَكَهُم، لمَّا كذّبوا الرُّسُل وعانَدُوا وعَتَوْا في الْأرض.

أوَ لَمْ يَسِيرُوا في الأرضِ فَيَنْظُروا في آثار المهْلَكِينَ الأوّلينَ، وكَيْفَ كانَتْ عَاقِبَتُهُمْ، بسَبَبِ تكذيبهم رُسُلَ رَبّهم، وتَوَلّيهم عن دَعْوَتِهم إلى دين اللّهِ الحقّ، وبسَبَبِ طُغْيانهم، وظُلْمِهِمْ وعُتُوّهم وفجورهم.

فهٰذِهِ مَدَاينُ صالح المدَمَّرَة على أهلها ثمود، يشاهدون آثارها في طَريق سَفَرِهم إلى الشّام للتجارة.

وهذِهِ آثار قوم لوطٍ عند الْبَحْرِ الميّت، التي يُشَاهِدُونها في أسْفَارهُم التجاريَّةِ إلى بلاد الشام، ألَا تكْفِي لأنْ تَكُونَ واعظةً لهم، ومنْذِرَةً بحالها، إذْ حَالُها يَنْطِقُ بلِسَانٍ تَسْمَعُهُ العقول والألْباب، دُون أن تَسْمَعَهُ الآذان.

إنّ آثار المهلكين الأوَّلين، تَدُلُّ على سُنَّةِ اللّهِ في عباده الكافرين الظالمين المجرمين المعاندين بإصرار، والذين يَسْعون في الأرض فساداً.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾: الواو في: ﴿أَوَلَمْ﴾ تعطف على محذوف مُقدَّرٍ ذهناً: أي: ألَمْ يَتَّعِظُوا بما جاءَهم من أخبار عن المهْلَكِينَ الأوَّلين من أهل الكُفْرِ والعناد، كما سبَقَ في التحليل[1].

﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: أي: كانَ هٰؤلاء المهلَكُون السَّابقون أكْثَرَ أمْوالاً، وأعظم حضَارة وعمراناً من المشركين المعنيين الأولين بالخطاب، وهم قَادَة مُشْرِكي مكَّةَ إبَّان التنزيل، وكانوا أشَدَّ منهم قُوَّةً ومَنَعَةً وتمكُّناً في الأرض.

الواو في ﴿وَكَانُوٓاْ﴾ عَاطفة على محذوف أيضاً[1]، وهذا المحذوف قد فَسَّرَتْهُ آياتٌ أُخرَىٰ في القرآن:

---

(١) تأكد عندي أن العطف على محذوف لا يقتصر على الفاء الفصيحة الّتي تَنَبَّه إليها النحاة، بل قد يكون بكُلّ حروف العطف، والقرائن الّتي تحفُّ هي الكواشف، وقد سبق أن ذكرت هذا في مناسبات متعدّدات.

فمنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١)﴾.

ومِنْها قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرُّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩)﴾.

فأضافت آية سورة (غافر) أنّ المهْلَكينَ الأوَّلينَ أثارُوا الأرض، أي: حَرَثُوها للزّراعة، والمعْنِيّون بالْبَيان من كفّار مكّةَ إبّان التنزيل لم يكن منهم إثارة للأرض.

وأضافت آية الرُّوم أنّ المهْلكين الأولين أثارُوا الأرض وعَمَرُوها أكثر ممّا عَمَرها المعنيون بالبيان.

إلى غير ذلك من إضافات جاءت في آيتي «غافر» و«الرُّوم» ضِمْنَ حكمة التكامل في القرآن المجيد.

أيْ: فلَمْ تَحْمِ الْأَوَّلين من عَذَابِ الله وإهلاكه لَهُمْ، قُوّتُهُم ولَا مزارِعُهُم، ولا تَقَدُّمُهُمَ العمرانيّ[1].

قول الله تعالى:

﴿... وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ ...﴾:

---

(١) انظر الملحق الثاني من ملاحق تدبّر سورة (فاطر): «الدعوة في القرآن إلى السّير في الأرض للاعتبار».

كيْفَ يُعْجِزُهُ شيْءٌ في الكون، وكُلُّ شيءٍ فيه خَلْقٌ من خَلْقِه ابتداءً، وخاضِعٌ لإمْدَادِه بالْبَقَاء مع اسْتِمرار وجُوده، إذْ لا يكون لشيءٍ في الوجود بقاءٌ إلّا بإمْسَاك الله لَه فيه، خلقاً من بَعْدِ خلق، كما سبَقَ بيان هذا.

وجاءَتِ العبارةُ بأسْلُوبِ كوْنٍ منفيٍّ بَعْدَهُ لَامُ الجحود، وهذا من أقوى أساليب النفي، مع تأكيد النفي بحرف الجرّ الزائد «من» الّذي يفيد التنصيص على عموم النفي.

قول الله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾: أي: إنَّهُ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه ـ على الدَّوام عَلِيمٌ بِكُلِّ شيءٍ، بَدْءاً من أجزاء الذَّرَّة، وانْطِلَاقاً إلى أَعْظَمِ كائنٍ في الوجود. وقَدِيرٌ على ما يُرِيدُ من إيجادٍ وإعدام، لا نِدَّ لَهُ، ولا مُعارِضَ لسلطانه.

وقد سبَق بيانُ أنّ فعل «كَانَ» بالنّسْبَةِ إلى الله يَدُلُّ على الدَّوام في الأزمان كُلّها، لأنَّ ما هو أزليٌّ لا بُدَّ أن يكونَ أبدِيًّا.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

دلَّت هٰذه الآيَة بمنْطُوقِها، وبلَوَازِمها الفكريَّة، من الجذور الّتي تشْتَبكُ معها أركانُ القاعدةِ الإيمانية، ومن الفروع الَّتي تُزَيِّنُها أوراقُ المفاهِيم الخضراءِ عَنِ اللّهِ وتصَارِيفهِ في كونه، وتُثْمِرُ الرّضا عن الله في اختياراتِه، والفَهْمَ السَّلِيمَ لآثار حِكْمَتِه السّنيَّةَ، دلَّتْ على حقائقَ جَلِيلَة يَشْرَحُ بعْضَ جوانبها البيانُ التالي:

إنّ عطاءاتِ الرُّبوبيَّةِ عطاءاتٌ متواصِلَاتٌ مُتَتَابعاتٌ لَا تنقطع عن الْعَبْد المخْلُوقِ لله والممْلُوكِ له، ما دامَ مَوْجُوداً حيًّا يُرْزَق.

وإمدادُ الله له بعطَاءاتِ رُبوبيّتِه لبَقَاءِ وُجود ذاته وبَقَاء صفاتِه، يُشْبِهُهُ ـ وللَّهِ المثلُ الأعْلَىٰ ـ إمْدَادُ الطاقة الكهربائية للمصْبَاح الكهربائيّ، بالطّاقَةِ اللّازمَةِ لوجود الضياء والنور فيه.

ولَوْ أنَّ الرَّبَّ ـ جلّ جلالُه ـ فَصَل عن عباده عطاءات رُبوبيّتِه المتَتابِعات المتواصِلات، لكانوا في زَمَنِ الْفَصْل مَهْما قلَّ عَدَماً، لأنَّ أصْلَهُمُ الْعَدَم، ولم يُوجَدُوا إلَّا بخَلْقٍ منه ابتداءً، ولم يَبْقَوْا إلّا بإمْدَادٍ منْهُ لَهُمْ دَواماً.

ولَوْ فَصَلَ الرَّبُّ ـ جلَّ جلالُهُ ـ الإمْدَادَ بِبَعْضِ عطاءاتِ رُبُوبيَّته المتَتابعاتِ المتواصِلَاتِ، لتعطَّلَتْ، أو لَانْعَدَمَتْ الْجِهَةُ الّتي فُصِلَ عَنْهَا تيَّارُ الإمْدَادِ بالْعَطاء الرَّبَّانيّ.

فإنْ كانت الجهةُ دِمَاغاً أَوْ جُزْءاً مُحَدَّداً منْهُ لكان هذا الجزْءُ بفَصْلِ تيَّارِ العطاء الرَّبَّانيّ عنْهُ عاطلاً عن العمل، أو ميّتاً، أو مُنْعَدِماً، على حَسَب حالة الفصْل.

وإنْ كانت الجهةُ قَلْباً أو جُزْءاً مُحَدَّداً من الْقَلْب، لكان هذا الجزْءُ بفَصْلِ تَيَّارِ العطاء الرَّبَّانيّ عَنْهُ عاطلاً عن العمل، أَوْ مَيّتاً، أو مُنْعَدِماً، على حسب حالة الْفَصْل.

وإنْ كانت الجهة عيناً أو جُزْءاً مُحَدَّداً من الْعيْن، لكانَ هذا الجزْءُ بفَصْل تيّار الْعَطاءِ الرَّبَّانيّ عَنْه عاطلاً عن الْعَمل، أو ميّتاً، أو مُنْعَدِماً على حَسَب حالة الفَصْل.

ونَظِير ذلك كلُّ عُضْو، وكُلُّ جُزْءٍ من أجزاء العضو، وكُلُّ جُزْءٍ من أجزاء العَبْدِ المخْلُوق، حتّىٰ آخرِ كُلّ خَلِيَّةٍ من خَلَايَاهُ.

ونظير ذلك كلُّ شَيْءٍ في الْوُجود ماديٍّ أو معنويّ، من أجزاء الذَّرَّة، إلى المخْلُوقاتِ العظمىٰ الماديّةِ والرُّوحيّة، وإلَىٰ القُوىٰ الْمُنَبَّةِ في الوجود كُلّه سِوَىٰ ذاتِ اللّهِ وصفاته.

وبناءً على هذا فإنَّ منطِقَ الفكرِ السَّلِيم، والْفَهْمِ الصَّحِيح المستقيم، القائم على قواعد الحقّ، يقْضِي بأنْ يكون الْعِبَادُ في حالة طاعَةٍ دائمة، وعُبُودِيَّةٍ إراديَّةٍ للَّهِ عزّ وجلَّ لَا تنقطع، في مُقَابل عطاءَاتِ الرُّبُوبيَّةِ المتَتَابِعاتِ المتواصِلات، ما دامَ الواحِدُ منهم حيًّا مَرْزُوقاً مُدْرِكاً، يَمْلِكُ بعَطَاءِ الله إرادةً حُرَّة.

وبناءً على هٰذا أيضاً فإنَّ قواعِدَ الْعَدْلِ المستَنِدَةَ إلى قواعِدِ الحقّ، تَقْضي بأنْ يُفْصَلَ عَنِ الْعَبْدِ الَّذِي يَسْتَمِدُّ بَقَاءَ وجُودِ ذاته وصفاته دواماً من عَطَاءاتِ رُبُوبيَّةِ الرَّبّ جلّ جلالُه تيَّارُ الإمْدَادِ عَنِ الجهَةِ الَّتي يَعْصِي ربَّهُ فيها.

وإذا كانت المعصِيَةُ جُحوداً كاملاً لكلّ رُبُوبيَّةِ الرَّبّ جلّ جلالُه، فإنَّ قواعِدَ الْعَدْلِ تَقْضِي باستحقاقه فَصْلَ كُلّ تيَّارِ الإمْدَادِ عنه، وبهذا الْفَصْلِ يكونُ مَيِّتًا، أو عَدَماً.

ولولا أنّ الله ـ جلَّ جلالُهُ ـ قَدْ وَضَعَ الإنْسَ مَوْضِعَ الامتحان في ظروف الحياة الدُّنيا، لِيَكْشِفَ اختياراتهم الحرَّةَ في أنواع الطاعات، وأنواع المعاصي، وفي الإيمان على اختلاف درجاته، وفي الكُفْرِ على اختلاف دَرَكاته، خِلَالَ مُدَّةٍ من الزَّمن حدَّدَها لكُلٍّ منهم، لكانت المؤاخَذَةُ تقضي بأنْ لَا يَتْرُكَ على ظَهْرِ الأَرض دابّةً ما.

وحالُ الجنِّ كحالِ الإنْسِ في هٰذِه القضيَّة، لأنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مختارٌ مكلَّفٌ، موضوعٌ في الحياة الدُّنيا مَوْضع الامتحان، وفي كلٍّ منهما المسلمونَ والمجرمون، وفي كلّ منهما المطيعونَ والعاصُون، وفي كلٍّ منهما المؤمنون والكافرون على اختلاف الدّرجاتِ والدَّرَكات.

أمّا الدَّوابُّ غيْرُ المكلَّفة، إذْ لَمْ تُوضَعُ مَوْضِع الامتحان في ظروف الحياة الدُّنيا، فهي مخْلُوقَةٌ لانتفاع الناسِ بها، ولخِدْمَةِ مصالحهم.

فإذا قَضَىٰ اللَّهُ إهْلاكَ النَّاسِ جميعاً، لم تَبْقَ للدَّواب المخلوقةِ لهم وظيفَةٌ في الأرض، فيعُمُّها الإهلاك الذي يكون بإمَاتَتها، وهذا ليس تَعْذِيباً لها، بل هو إنْهَاءٌ لوُجُودِها دفعةً واحدة، بدلَ إمَاتتها في آجالها المقدَّرة لكلّ منها، إذْ يموت كلٌّ مِنْها في أجله.

وأمّا المؤمِنُونَ الصالحون من عباد الله فيكُونُونَ قد أدَّوْا امتحانهم، وظفِرُوا بالنجاة من النار، وبالنّعيم المقيم الخالد في جنّاتِ النعيم، ويميتُهُمُ اللَّهُ نظير إماتَتِهِ لَهُمْ في مجاري سنّتِه الدائمة، ويكونُ موتُهُمْ راحَةً لهم من عناء الحياة الدُّنيا وَكدْحِها.

فلَوْ يُؤَاخذ اللَّهُ النَّاسَ بما كَسَبُوا من كُفْرٍ وشِرْكٍ وجُحُودٍ وفِسْقٍ وفُجُورٍ وعِصْيَانٍ، ما تَرَكَ على ظَهْرِ الْأَرْضِ من دابَّةٍ تَدِبُّ عليها مُطْلَقاً.

أي: ما تَرَكَ عَلى الأرض مَخْلُوقاً ذَا حَيَاةٍ، لأنّ كُلَّ مَخْلُوقٍ ذي حياةٍ جَسَدِيَّة، من شَأْنِه أنّه يدبّ على الأرض، مَهْمَا صَغُرَ جسْمُهُ وخَفَّ وزنُه.

لكنَّهُ ـ وهو الرَّحْمٰن الرحيم ـ يَرْحُمُهُمْ فَلَا يُؤَاخِذُهم في الحياة الدنيا هذه المؤاخذة، بل يُمْهِلُهُمْ، ويُمْلِي لهم، ويؤخِّرُهم إلى آجالهم المسمَّاة لكلٍّ منهم، والمقرَّرة بقضائه وقدره في خُطَّتِهِ التكوينيَّة لابتلائهم في ظروف الحياة الدنيا.

فإذا جاء أجَلُ كُلّ واحدٍ منهم بعد أنْ منَحَهُ الله بحِكْمَتِه أوْسَعَ فُرْصَةٍ لامتحانه، مُلائمة لخصائص نفسه، أماتَهُ اللَّه، ليَلْقَىٰ يَوْمَ الدّين حِسَابَه، وفَصَلْ الْقَضاء بشأْنِه، ثمّ ليَلْقَىٰ جزاءَهُ بالْعَدْلِ أو بالفضل.

أمّا المجْرِمُون والظالمون والكَفَرةُ الجاحدون فيَلْقَوْنَ جزاءَهم بالْعَدْلِ، عذاباً أليماً خالِدين في جهنّم وبئس المصير.

وأمّا المؤمِنُون الَّذِينَ عَمِلُوا الصّالحات، فَيَلْقَوْنَ جزاءَهُمْ بالفضل الرَّبَّانيّ مَغْفِرَةً وأجْراً كبيراً خالداً في جنَّاتِ النعيم.

بَعْدَ هذا البيان التحليليّ، أَتَناول فِقَراتِ الآية الأخيرة من الدَّرس الأخير من دُرُوس السُّورَة، بتَدَبُّرٍ مُتابع لألفاظِها.

قول الله تعالى:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ . . . ﴿٤٥﴾﴾:

﴿وَلَوْ﴾: «لَوْ» حرْف شَرْطٍ يَدُلُّ على امْتِنَاع الجواب لامتناع الشرط.

﴿يُؤَاخِذُ﴾: **المؤاخَذة**: المعاقبة على الذَّنب. تقولُ لغة: آخَذَه بذَنْبِه، أي: عاقبه عليه.

وفعل ﴿يُؤَاخِذُ﴾ فِعْلٌ مضارع، ومعناه المضي، والغرضُ الدلالة، على أنه لو كان من سُنَّةِ الله في الماضي أنْ يُؤَاخِذَ الناسَ مَرَّةً فَمرَّةً بِذُنوبهم الَّتي كَسَبُوها لأَهْلَكَهُمْ جمِيعاً، ولمَا ترك على ظهر الأرض من دابّة.

﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾: أي: بما كسَبُوا من جرائم وذنوب عظيمة تستحقُّ الْإِهْلَاك، والباء سببيَّة.

﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾: أي: ما تَرَك على ظَهْر الأرض المعَدَّةِ في الحياة الدُّنيا لسكنَىٰ الناس في رحلة امتحانهم.

﴿مِن دَآبَّةٍ﴾: **الدَّابَّة**: اسمٌ يُطلَقُ علَىٰ كلِّ ما يَدِبُّ من ذي حياة على الأرض، ولو كان من نَوْع الطير، وأصنافه الصُّغرى.

ولفظ «من» في هذه العبارة حرْفُ جَرٍّ زِيدَ لإفادة التنصيص على استغراق العموم.

فالمعنى: لقد انْتَفَتْ مؤاخَذَةُ الله للنّاسَ بما كَسَبُوا، فتسبَّبَ عن عدم المؤاخذة انتفاءُ إهْلَاك اللَّهِ النَّاسَ وكُلَّ دابَّةٍ علَىٰ ظهر الأرض.

ونَفْهَمُ عقلاً ومن دَلاَلاَتِ نُصُوصٍ قرآنيَّة أخرَىٰ مُوزَّعَةٍ في السُّوَر، أنّ الله ـ جَلّتْ حِكْمَتُهُ وعظُم حِلْمُه ـ لم يُؤَاخِذِ الناسَ في الحياة الدُّنيا بما كَسَبَوا إمْهالاً لهم، ورحمةً بهم، إذْ يمْنَحُهُمْ بذلك أوْسَع فُرصَةٍ لامْتِحَانِهم.

قَوْل الله تعالى:

﴿... وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ...﴾ أي: لا يُـؤَاخِـذُهُـمْ بـمـا كَسَبُوا ولَكِنْ يُؤَخِّرُ كُلَّ واحدٍ مِنْهُمْ إلَىٰ أَجَلِهِ الّذي قضاهُ اللَّهُ له، لامتحانه في ظُرُوف الحياة الدُّنيا.

هٰذا في الحالاتِ العادِيَّة، لَكِنْ إذا طَغَتْ أُمَّةٌ وبَغَتْ، وصار بقاؤها في الحياة وبَاءً عامًّا، وعَلِمَ اللَّهُ عزّ وجلّ أنّ الحكمة تقضي بتَعْذِيبها وإهلاكها، فإنَّ اللَّهَ ـ جلّ جلالُهُ ـ يُهْلِكُهَا، كما أَهْلَكَ مُجْرِمي الْقُرُون الأولى.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾: المرادُ بالأَجَلِ هُنَا الوقْتُ المحدَّدُ بقضاء الله وقَدَرِه، لإنْهَاءِ حياة كلّ ذي حياة بصُورَةٍ إفراديَّة.

﴿مُّسَمًّى﴾: أي: مذكور باسْمِه الزَّمَنِيّ على وَجْهِ التحدِيد. وتَحْدِيدُ الْعُمْر بقضاء الله يكون بأصْغَرِ وَحَدَاتِ الزّمَنِ من أجزاءِ الثانية.

قول الله تعالى:

• ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾: أي: فإذا جاء أَجَلُ كُلّ واحِدٍ منهم أماتَهُ الله، وبَعْدَ ذٰلِكَ يَلْقَىٰ حسابَهُ، وفَصْلَ القضاء بشأنِه، وأخيراً يَلْقَىٰ مُؤَاخَذَتَهُ ومُعَاقَبَتَهُ علىٰ ذُنُوبه، إذا كانَ من الّذين قضَىٰ اللّه عليهم بالعقاب.

أو يَلْقَىٰ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِ بالمغفرة ودخول جنَّةِ النعيم خالداً فيها، إذا كان من الَّذين قَضَىٰ اللَّهُ بأن يَغْفِرَ لهم ويُدْخِلُهُمْ جنّته.

ولَا يَخْفَىٰ علىٰ اللَّهِ مِمَّا كَسَبَ عبادُهُ في رحلة امتحانهم شيء، فإنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بعبادِه دواماً، ويقضي لهم بالفضل، ويقضي عليهم بالْعَدْل، بحسَب أحوالهم.

والله ـ جلَّ جلالُهُ وعظَمَ سُلْطانُه ـ قَدْ أَحَاطَ بكُلِّ شيءٍ علماً.

وفي هٰذه العبارة كِنَايَةٌ عَنْ كلِّ أحداثِ يَوْمِ الدِّين، لأنَّ عِلْمَ اللَّهِ وشُهُودَهُ لكُلّ أعْمَالِ عِبَادِه الظَّاهِرَةِ والباطنة، إحدىٰ القضايا الضروريَّة، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

والمعنى: فإذا جاءت آجالُهُم أماتهم الله بجَبَرُوته، ثُمَّ بَعَثَهُمْ بقُدْرَتِهِ وحكمته، ثم حاسَبَهُم بفضله أو بِعَدْله، محاسبة تَعْتَمِدُ على علْمِهِ الشاملِ عِلْماً شهوديًا لكُلّ أحوالهم الظاهرة والباطنة، مع وسائل الإثبات الأخرى، كصُحف الملائكة، والشهود الصادقين، ومن الشهود أعضاؤه وجوارحه، إذا جَحَد وجادَل ربّه. ثمّ يَفْصِلُ الله قضاءه بعباده، ثم يجازيهم بالثواب أو بالعقاب، بفضله أو بعَدْله.

وبهذا تمّ تدبُّر سورة (فاطر) والحمد لله على معونته وتوفيقه وفتحه.

❃ ❃ ❃

## ملاحق لتدبر سورة فاطر

**الملحق الأول:** مستخرجات بلاغية من سورة (فاطر).

**الملحق الثاني:** الدعوة في القرآن إلى السَّيْرِ في الأرض للاعتبار.

**الملحق الثالث:** توحيد الرُّبوبية وتوحيد الإلهية في الدلالات القرآنيّة.

❃ ❃ ❃

## (١٥)
# الملحق الأول
# مستخرجات بلاغيّة من السورة

تشتمل سورة (فاطر) على جماليّات وروائع بلاغيّة متعدّدة أُقَدّمُ منها في هذا الملحق المستخرجات التاليات:

**أوّلاً:**

في هذه السورة من إيجاز القِصَرِ ومن إيجاز الحذف ما يلي:

(١) في قول الله تعالى في الآية (١): [الْحَمْدُ لله] ففي هذه الجملة إيجازٌ هو من نوع إيجاز الْقِصَر، إذْ لَا تُوجَدُ جُمْلَةٌ تُؤَدِّي معناها هي أقْصَرُ مِنها، فمعانيها غزيرة ثَرَّة تُشْرَح بصفحات، مع دلالَتِها على الْقَصْر والْحَصْر بمضمونِها الفكري.

لكن يُمْكن صوغ عبارات كثيرات طويلات مؤديات لمعانيها.

(٢) وفي قول الله تعالى في الآية (٨): ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾.

والإيجاز في هذه العبارة هو من نوع الإيجاز بالحذف، ويُمْكن تقْدِير المحذوف بعبارة: كمَنْ لَمْ يُزَيَّنْ له سُوءُ عَمَلِه، بل رأى سبيل الْهُدَىٰ فاتَّبعَه.

(٣) وفي قول الله تعالى في الآية (١١): ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍۚ﴾.

ففي عبارة ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ إيجازٌ هو من نوع الإيجاز بالحذف، الذي يَسْهُلُ استخراجه، أي: إلَّا هُوَ مُدَوَّنٌ ومُسَجَّلٌ في كتاب.

(٤) وفي قول الله تعالى في الآية (١٠): ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾

والإيجاز في هٰذِه العبارة هو من نوع الإيجاز بالحذف مع تَضْمِينِ المذكور معنَىٰ المحذوف، إذْ ضُمّن فيها فِعْل ﴿يَمْكُرُونَ﴾ معْنَىٰ فعل: «يَقْصِدُون» أو فعل «يَعْمَلُونَ» فَعُدِّي تَعْدِيته، والتقدير: والذين يمكُرون قاصِدِينَ عَمَلَ السَّيِّئات.

**التضمين**: هو تضمين الكلمة معنى كلمة أخرى، وتَعْدِيتُها بالطريقَة الّتِي تُعَدَّىٰ بها الكَلِمَةُ غَيْرُ المصَرَّح بِها لفظاً، وبهٰذا التضمين تغني الجُمْلَةُ الواحِدَةُ عن جُمْلَتين.

والتضمين من الإبداعات القرآنيّة النفيسة في الإيجاز.

(٥) وفي قول الله تعالى في الآية (٣٠): ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

في هذا البيان إيجاز هو من نوع الإيجاز بالحذف، والتقدير: يَعْمَلُونَ أعمالهم الصَّالحات ابتغاءَ مَرْضاة الله لِيُوَفِّيَهُمْ أُجورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ من فضله، وقد جاء هذا البيان في مَعْرِض الحديث عن المؤمنين الَّذين يتلون كتابَ الله ويقيمُون الصلاة ومما رزَقَهُمُ اللَّهُ يُنْفِقُونَ.

❁ ❁ ❁

**ثانياً:**

وفي هذه السُّورَة من الْقَصْر ما يلي:

(١) في قول الله تعالى في الآية (١): [الْحَمْدُ لِلَّهِ] والْقَصْرُ فيها مستفادٌ من مَضْمُونِ العبارة، لَا بِدَليلِ أداةٍ مِنْ أدوات الْقَصْرِ، لأنَّ الْحَمْدَ كُلَّه إذا كان لله، فَهُو مَقْصُورٌ عليه. وهو من نوع قَصْرِ صِفْةٍ على موصوف، وهو هنا قَصْرٌ حقيقيّ.

(٢) وفي قول الله تعالى في الآية (٢): ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

في هذا البيان قَصْرُ إرْسَالِ آثارِ رَحْمَةِ اللَّهِ للناس وإِمْسَاكِهَا عَنْهُمْ على الله عزّ وجلّ، والأداة المسْتَعْمَلَةُ للدّلالة عليه النَّفْي بحرف النَّفْي «لَا» في: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ﴾ وفي: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾ بعد بيان ما يفتح الله وما يُمْسِك وهو من قَصْر الصفة على الموصوف وهو الله عزّ وجلّ، وهو قَصْرٌ حقيقيّ.

(٣) وفي قول الله تعالى في الآية (٣):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾.

في هٰذه الآية قَصْران:

**الأول**: في قول الله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾؟ إذ المراد بالاستفهام هنا النفي، أي: لَا يُوجَدُ خَالِقٌ ما غير الله، فالطريق المستعمل هنا للدّلَالة على الْقَصْر النَّفْيُ والاستثناء، وهو من قَصْرِ صفَةِ الْخَلْق على الله عزّ وجلّ، وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ.

**الثاني**: في قول الله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ والطريق المستعْمَلُ للدَّلَالة على الْقَصْر النَّفْيُ والاستثناء، وهو من قَصْر صِفَةِ الإلَهِيَّة الحقّ على الله عزّ وجل، وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ.

(٤) وفي قول الله تعالى في الآية (٤): ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ والْقَصْر هُنَا مُسْتَفَادٌ من تقديم المعمول على عامله، إذ: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ مَعْمُولٌ لـ: ﴿تُرْجَعُ﴾ أي: لَا تُرْجَعُ كُلُّ الْأُمُور إلَّا إلى الله.

وهذا من قصر الصفة على الموصوف، وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ.

(٥) وفي قول الله تعالى في الآية (٦): ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾.

في هذه الآية قَصْرُ دَعْوَةِ الشيطانِ المؤثّرة على حِزْبِهِ الَّذِينَ يَتَّخِذُونه لَهم وَلِيًّا. والأداة المستعملة في هذا الْقَصْر: «إِنَّما».

أي: ما يَدْعو دَعْوَةً مُغْوِيةً مُضِلَّةً فِعلاً إلّا حِزْبَه.

(٦) وفي قول الله تعالى في الآية (١٥): ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾.

في هذه الآيةِ قَصْران:

**الأول**: في قول اللَّهِ تَعَالى خطاباً للنَّاس الكافرين: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والقصر في هذه العبارة دلَّ عليه تعريفُ طَرَفي الإسْناد. وهو من قبيل قَصْر الْقَلْب، أي: أنتم تعْتَقِدُونَ غناكم عن الله، ونُبيِّنُ لَكُمْ أَنَّكُمْ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إلى الله. مع أنّ سائر عبادِ الله في الكائِنَات كُلِّها فقراءُ إلَيْه.

**الثاني**: في قول اللَّهِ تعالى: [واللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ] والْقَصْر في هٰذه الْجُملة مُسْتَفَادُ من تعريف طَرَفَي الإسناد «المبتدأ والخبر» مع توكيده بضمير الفصل «هو».

(٧) وفي قول الله تعالى خطاباً لرسوله في الآية (١٨): ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

في هذه الآية من الْقَصْر ثلاثةُ أمْثِلة:

**الأول**: في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ ...﴾ والقصر في هذه العبارة مُسْتفادٌ من الأداة: ﴿إِنَّمَا﴾ أي: ما تُنْذِرُ إنْذاراً مؤثّراً إلّا مَنْ يَخْشَىٰ رَبَّه وهو غَيْبٌ عن حواسّه الظاهرة، وهو من قَصْر صِفَةِ الإنذار النافع المؤثر على الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهم بالغيب، وهو قَصْرٌ حقيقي.

**الثاني**: في قول اللَّهِ تَعَالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ والقصر في هٰذه العبارة أيْضاً مُسْتَفَادٌ من الأداة «إنَّما» أي: ومن تَزَكَّىٰ فَلا يَتَزَكَّىٰ إلّا لنَفْسِه، إذْ هو المستفيد الوحيد من تزكيَتِه نفسه، وهو من قَصْر صِفَةِ نَفْعِ تَزْكِيَةِ الإنسانِ نَفْسَهُ، على أنَّه لا يَنْفَع بِتَزْكيتِهِ إلّا نَفْسَه.

**الثالث**: في قول الله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾: أي: وإلى الله وحْدَهُ تَصِيرُ كُلُّ الْأُمور، والقصر هنا مستفاد من تقديم المعول على عامله، وهو قَصْرٌ حقيقيّ.

(٨) وفي قول الله تعالى في الآية (٢٣) خطاباً لرسوله: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ والقصْرُ في هٰذِهِ العبارة مستفاد من النفي والاستثناء، وهو من قَصْرِ الموصُوف على صفة، وهو قَصْر إضافي غَيْر حقيقيّ، أي: ما أنت بالإضافةِ إلى المعاندين المكابرين المصرِّين على كُفْرِهم إلَّا نذيرٌ لهم بعذاب الله. أي: ليس عليك من الوظائف بالنسبة إليهم إلا وظيفة الإنذار.

(٩) وفي قول الله تعالى في الآية (٢٤): ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: وما من أمّة سَلَفَتْ في تاريخ البشرِيَّةِ إلَّا كانَ فيها نَذِيرٌ أنذر كفَّارَها بعذاب الله.

والقصر في هذه العبارة مستفاد من النفي والاستثناء، والقصر فيها قصر إضافيّ، وهو من قَصْر موصوفٍ على صفة.

(١٠) وفي قول الله تعالى في الآية (٢٨): ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ أي: مَا يَخْشَىٰ اللَّهَ خَشْيَةً حقيقيَّةً من عباده إلَّا الْعُلَمَاءُ ببعض صفاته الجليلة. وهو من قصر صفة على موصوف، وهو قصر حقيقي، والأداة الّتي دلَّتْ عليه هي: «إِنَّما».

(١١) وفي قول الله تعالى في الآية (٣١): ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

في هذه العبارة قَصْرُ صفة الحق على ما أنزل الله على رسوله، وقد دلّ على هذا القصر تَعْريف طَرَفَي الإسناد: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ أي: هو الحقُّ بالإضافة إلى ما ناقَضَه أوضادّه، فهو قصْرٌ إضافي.

(١٢) وفي قول الله تعالى في الآية (٣٢): ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ والقصر في هذه العبارة دَلَّ عليه تعريف طرَفَي الإسناد، أي: ذلك هو الْفَضْلُ الكبير يوم الدّين لا غَيْرُه. ودونه فَضْلٌ أدْنَىٰ مِنْه، وفوقه فضلٌ أكبَرُ منه.

❀ ❀ ❀

**ثالثاً:**

وفي هذه السورة من خروج الاستفهام عن أصل دلالته وهي طَلَبُ الإفهام، إلى معانٍ أخرى ما يلي:

(١) في قول الله تعالى في الآية (٣): ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؟!.

المراد بالاستفهام هنا التلويم، والتوبيخ والتقريع للمشركين، إذْ يُصْرَفُون عن الحقّ إلى اعتقاد الباطل، واتّباع ضَلَالَاته.

(٢) وفي قول الله تعالى في الآية (٨): ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾؟!.

المراد بالاستفهام هُنَا الإعْلَامُ وانْتِزَاعُ الإقرار بأنَّه لا يَسْتَوِي من زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه فَرآهُ حَسَناً فانْدَفَعَ في غَيّه، مع من لم يُزَيَّنْ لَهُ ذلك، بل استبان الحقّ والعملَ الصالح، ورأىٰ العمل السَّيِّئَ سَيِّئاً فاجتنبه.

وظاهر أنّ هذا الاستفهامَ خارجٌ عن أصل دلالَتِه وهو طَلَبُ الإفْهام.

(٣) وفي قول الله تعالى في الآية (٢٦): ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟.

المراد بالاستفهام هنا التوجيه للنظر التفكُّرِيّ في عقاب اللّهِ لمكَذّبي الرُّسل الأوّلين.

(٤) وفي قول الله تعالى في الآية (٤٤): ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؟.

المراد بالاستفهام هُنَا الحثُّ على السَّيْر في الأرْض للذين لم يسْبِقْ لهم أن ساروا ولا نظروا كيف كان عاقبة مُكذّبي الرُّسُل السابقين. وتلويم وتوبيخُ وتقريع الّذين سارُوا ونظروا كيف كان عاقبة مكذّبي الرُّسُل السَّابقين، ولكِنَّهُمْ لم يعْتَبِرُوا بما شاهدوا وبما عَلِمُوا.

❁ ❁ ❁

**رابعاً:**

وفي هٰذه السورة من اختيار أحَدِ البدائل من الكلمات للدّلالة علَى المعاني المرادة، ما يلي:

(١) في قول الله تعالى في الآية (٤) خطاباً للرَّسول ﷺ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾. ونظيره في الآية (٢٥).

كان مقتضىٰ ظاهر تكْذِيب المشركين رسُولَ الله محمّداً ﷺ أنْ يُقال: «وإذا كَذَّبُوك» لأنَّهم مُعْلِنُون تكذيبهم، وهذا أَمْرُ محقَّقٌ تُلائِمهُ كلمة «إذا» كما يقول علماء المعاني.

لكِنْ جاء التعبير بكلمة «إنْ» الّتي تُستَعْمَلُ في الغالب فيما هو مَشْكُوكُ فيه، للإشارة إلى أنَّهم مُصَدّقون له باطناً، إلَّا أنّهم يَجْحَدُون بآيات الله، والجحود إنكار للحقّ مع العلم به، وقد جاء بيان هذا في نصّ آخر.

وقد سبق في تدبر السورة شرح هذا شرحاً وافياً.

(٢) وفي قول الله تعالى في الآية (٩): ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾.

كان المتبادِرُ أَنْ يُقَالَ: «فأَثَارَتْ» ليَتَلاءَم الفِعْلُ الماضِي مع الْفِعْل الماضي الذي قبله: «أَرْسَل».

ولكِنْ عُدِلَ عَنْ هذا الظّاهر للدَّلالَة على أنَّ إثارَة الرّياحِ السَّحَابَ عَمَلٌ مُتجدّدٌ مُتَكَرِّرُ الْحَرَكة، وخاضع لقانون رَبَّانِيٍّ عام. وللإشعار بأنّ سُنَّة الله الدائمة في الرّياح بوجْهٍ عامٍّ أن تكونَ مِنْ صفاتها هٰذِهِ الإثارة، بخلاف سَوْقِ الرّياح إلى بلَدٍ مَيّتٍ فإنَّهُ لا يَتِمُّ وَفْق سُنَّةٍ ثابِتَةٍ، بل هو عَمَلٌ مَقْصُودٌ بعناية رَبَّانِيَّةٍ مَعَ حَرَكَةِ السَّوْقِ، في كلّ مَرَّةٍ يَحْصُل فيها هذا السَّوْق.

(٣) وفي قول الله تعالى في الآية (١٠): ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

كان الظاهر المتبادر أن يقال: «ومكرُهم هو يَبُور» فَعُدِل عن الضمير إلى اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ والغرض من هذا العدول الدّلالة على أنَّ الكافرين الّذِين يمْكُرُونَ السَّيِّئَات بَعِيدُونَ تَسَفُّلاً في الدَّرَكاتِ، حتَّىٰ يَصِحَّ أنْ يُشارَ إليهم بعبارة «أولّئك» أي: أولّئِك البعداء المنحطّين في الدركاتِ السَّافلات.

وقد يسْتَعْمَلُ نَظِيرُ هذا الاستعمال للدلالة على ارْتفاع المنزلَةِ، وبُعْدِها الشاسِع إلى جهة العلوّ، كما في عبارة: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ في الآية (٣٢) إشارة إلى جَنَاتِ عَدْن.



**خامساً:**

وفي هذه السّورة من التوكيد لوجود الدّاعي إليه ما يلي:

(١) في قول الله تعالى في الآيتين (٥ و٦): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾.

جاء في هذا النَّصّ التوكيد بالمؤكداتِ في أربعة مواضع:

**الأول**: في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وقَدْ أُكِدّ هذا الخبر بمؤكّدَين: «إنَّ ـ والجملة الإسميَّة» لوجود الداعي إليه.

**الثاني**: في قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وقد جاء توكيد النهي هنا بنون التوكيد الثقيلة، لوجود الدّاعي إليه، وهو اغترار معظم الناس بما في الحياة الدّنيا من زينات.

**الثالث**: في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ والتوكيد هنا نظير سابقه.

**الرابع**: في قول الله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ والتوكيد هنا نظير التوكيد في الأول: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

(٢) وفي قول الله تعالى في الآية (١٠): ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ في هذه العبارة التوكيد بضمير الفصل «هو» مراعاةً لحال ذوي المكر الذين يتَوَهّمونَ أنّ مكرَهم يجْلُب لهم نَفْعاً ويَدْفع عنهم ضرّاً.

مع ما في هذه العبارة من قَصْرٍ دلَّ عليه تعريف طرفي الإسناد.

(٣) وفي قول الله تعالى في الآية (١١): ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾.

في هذا البيان التوكيد بحرف الجرّ الزائد «مِنْ» مرَّتَيْن، والْغَرض توكيد عُمُوم النفي والتنصيصُ عليه.

(٤) وفي قول الله تعالى في الآية (٢٢): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: من يشاء إسماعه، والتوكيد في هذه العبارة بمؤكدَين: «إنَّ ـ والجملة الإسمية».

وفي قول الله تعالى فيها أيضاً: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ والتوكيد في هذه العبارة قد جاء بحرف الجرّ الزائد «الباء».

(٥) وفي قول الله عزّ وجلّ في الآية (٣٤): ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ والتوكيد في هذه العبارة قد جاء بالمؤكدات: «إنّ - والجملة الإسمية - واللّام المزحلقة للخبر».

والغرض من هذا التوكيد مع أنّ هذا القولَ يَقُولُهُ المؤمِنُونَ في الجنَّة، تَقْوِية اعترافهم لله بهذا الدُّعاء، وتوكيد يقينهم بأنَّ الله قد غَفَر كثيراً من ذُنُوبهم فتفَضَّل عليهم بدُخول الجنَّة دُونَ مُؤَاخَذَتهم عليها، ودُونَ أن يكون دُخولُهُمْ عوضاً عن أعمالهم، وتوكيد اعترافهم بأنّ الله عزّ وجلّ قد قابل أعمالهم الصالحة القليلة بشُكْرٍ عظيم.

(٦) وفي قول الله تعالى في الآية (٣٧): ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ في هذه الجملة توكيد عموم النفي مع التنصيص عليه بحرف الجرّ الزائد «من».

(٧) وفي قول الله تعالى في الآية (٣٨): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾.

في هذه الآية التوكيد للخبر في موضعين، وفي كلّ منهما التوكيد بـ «إنَّ - والجملة الإسميّة» لأنّ المقصودين بالإعلام لديهم داعٍ لهذا التوكيد.

(٨) وفي قول الله تعالى في الآية (٤٢): ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾.

يُبَيّن اللَّهُ عزّ وجلّ في هٰذهِ الآية ما كان كبراء مُشْركي مكَّة يَقُولُونه قبل بِعْثَة محمّد ﷺ، وكيف كانوا يُؤَكِّدُونَ مقالتهم.

والتوكيد فيها جاء بما يلي: «الْقَسَم ولواحقه - ومن لواحقه اللّامُ الموطئة له، واللام الواقعة في جوابه، ونون التوكيد الثقيلة».

(٩) وفي قول الله تعالى في الآية (٤٥): ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾.

في هذه الجملة التوكيد بـ«إنّ ـ والجملة الإسمية» لحاجة المتلقّين إلى التوكيد، إذِ الكافرونَ منهم مِنْكِرُونَ.

❁ ❁ ❁

## سادساً:

وفي هذه السورة من الكناية ما يلي:

(١) في قول الله تعالى في الآية (٨): ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ . . .﴾.

في عبارة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ كِنايةٌ عن انقسام الناس الموضوعين موضع الامتحان في الحياة الدنيا إلى قسمين: ضالين، ومهتدين.

وبناءً على انقسام الناس إلى ضالّين ومهتدين، فإنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ يَحْكُمُ بمشيئته الحكيمة على الضّالّ منْهُمْ بالضَّلالة، ويحكُمُ بمشيئته الحكيمة للمهتدي بالهداية، وكلُّ ذَلِكَ بمقْتَضَىٰ عَدْلِه مع مقتضىٰ فَضْلِه.

فجاءت الكناية عن وُجُودِ الضَّالّين بعبارة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ وجاءت الكنَاية عن وُجُود المهتدين بعبارة: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ ومعلومٌ من أسْسِ الإيمان بالله وجَليلِ صفاتهِ وأسمائه الحسنىٰ، أنّ حكْمَةَ الله وعَدْلَهُ وفضْلَهُ تقتضي باللُّزُوم العقْلِيّ، أنْ لَا يَحكُمَ علىٰ أحَدٍ بالضَّلال إلَّا إذَا كَانَ هو في واقع اختياره الحرّ ضالًّا، ولا يَحكُمَ لأحَدٍ بالهدايَةِ ما لم يكن لَدَيْه من الهداية باختيارِه الحرّ مقدارُ ما يَصِحُّ مَعَهُ وَمَعَ فَضْلِ اللّهِ عليه بأنْ يَحْكُمَ لَهُ بالهداية.

(٢) وفي قول الله تعالى في الآية (١٠): ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾.

في عبارة: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ كنايَةٌ عن جُمْلَةٍ أُخْرَىٰ يُمْكن التعبير عَنْها بأن نقول: فَلْيَرْجُها عنْدَ الله وحده، بدعائه، وبالعمل بمراضيه، وبالجهاد في سبيله، ولا يَطْلُبْها عند غيره بحالٍ من الأحوال.

فمن كانت القوَّة الغالِبَةُ في الوجود كُلّه لَهُ وحْدَه، كانَ طَلَبُ العزّة عند غَيْرِهِ من الحماقة وقلَّة العَقْلِ وسُوء التفكير والتدبير، وهذا هو الذي يفْعَلُه المشركون، إذْ يَبْتَغُونَ العزَّة عند شركائهم، فيَعْبُدونهم ويَدْعونهم ليكُونوا لهم عزّاً.

(٣) وفي قول الله عزّ وجل في الآية (١٠) أيضاً: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾ في هذه العبارة الدّالة بمنْطُوقها اللّفظيّ على رفع العمل الصالح كِنَايَةٌ، والْمُكْنَّىٰ عَنْه بها، رَفْعُ أصْحَابِ العمل الصالح.

فالّذين يَعْمَلُونَ عملاً صالحاً في القتال في سبيلِ الله، إعداداً قَبْلَه، وأداءً أثناءَهُ، مُتَّخِذِينَ الوسائل السَبَبيّة الكونية اللّازمة، بمقتضىٰ قوانين الأسْباب والمسبَّباتِ الرَّبانيَّة، يَرْفَعُهُم اللَّهُ ويُعْلِي سُلْطانهم، ويَنْصُرُهم على عَدُوّهم.

فجاء التعبير برفْع العمل الصالح كنايةً عن رفْع أصحابه، ومَنْحِهِمُ الْعُلُوّ والْعِزَّة الغالبة.

❁ ❁ ❁

**سابعاً:**

وجاء في هذه السّورة من الالْتِفَاتِ ما يلي:

(١) في قول الله تعالى في الآية (٩): ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ﴾.

في هذا البيان التفاتٌ من الغيبة في: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ إلى ضمير المتكلّم العظيم في: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا﴾.

والغرض من هذا الالْتِفَاتِ، التّنْبِيهُ على أنَّ سَوْقَ السَّحَاب إلى بلَدٍ مَيّتٍ، وإحياءَ الْأَرض بَعْدَ موتها، قَدْ كان أمراً مقْصُوداً بعناية من قِبَلِ الرَّبّ العظيم، الّذي يوجّه مقاديره لعباده بحكمةٍ عظيمة تتناسَبُ مع عظمتِهِ رحمةً بعباده المحتاجين إلى أن يُحْيِيَ الرَّبُّ العظيم لهم الأرض بَعْدَ مَوْتها.

(٢) وفي قول الله تعالى في الآية (٢٧): ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ﴾.

في هذا البيان التفات من الغيبة إلى التكلّم بضمير المتكلّم العظيم كسابقه. والغرض التَّنْبيهُ على عظمة إتقان صُنع الله في اختلاف ألوان الثمرات.

**ثامناً:**

وجاء في هذه السورة من الاستعارة ما يلي:

(١) في قول الله تعالى في الآية (٢): ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ﴾.

في هذه العبارة استعارة قائمة على تَشْبيه القيام بتَتَابُع النِّعَم الرَّبَّانيَّة على النّاس بفتح أبواب سُدود مجاري المياه لمن ينْتَفِعُ بها علىٰ التوالي.

واسْتُعِيرَ لفْظُ ﴿يَفْتَحُ﴾ للدّلالَة على إجراء تتابُع نِعَم اللّهِ على عباده، حينما يتوالَىٰ عطاؤه.

وجاءت عبارة: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ﴾ دالّة على المراد بعبارة: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ﴾.

(٢) وفي قول الله تعالى في الآية (١٣): ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾.

في هذه العبارة استعارة قائمة على تَشْبِيه تَقَلُّصِ اللَّيْلِ عنْدَ قُدُوم النهار، وتقلُّصِ النهار عند قُدُوم اللّيل، بِوُلُوج شَيْءٍ في شَيْءٍ آخر.

واستعير لفظ: ﴿يُولِجُ﴾ للدَّلَالة على هاتَيْن الظَّاهِرَين من الظواهر الكونية اليوميّة، الدّالّة على إتقان صُنْع الرَّب الجليل العظيم الّذي أتْقَن كُلَّ شيءٍ صُنْعاً.

(٣) وفي قول الله تعالى في الآية (٢٩): ﴿يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾.

في هذه العبارة استعارة قائمة على تَشْبِيه التعاملُ مع اللَّهِ عزّ وجلَّ بالأعمال الحسنة الصالحة ابتغاء مرضاته، بالأعْمال التجاريّة الرابحة، لأنَّ في هذا التعامُل مع الله ربحاً عظيماً، وثواباً جزيلاً.

❁ ❁ ❁

**تاسعاً:**

وجاء في هذه السورة من المجاز المرسل:

قول الله تعالى في الآية (٢): ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾.

في هذه العبارة إطلاق لفظ ﴿رَحْمَتَ﴾ التي هي صفة من صفاتِ الله النَّفْسِيَّة، على آثارها من عطاءات الله لعباده من النِّعَم.

وهذا من إطلاق السَّبَب وإرادة المسبَّب، على طريقة ما يُسَمّيه البلاغيّون مجازاً مُرْسلاً في اصطلاحهم.

❁ ❁ ❁

## عاشراً:

وجاء في هذه السّورة من التقاط لَقَطاتٍ من أحداثٍ مستقبليَّة، وتقديمها كأنّها تجري الآن، وهذا من الفُنُون الّتي انْفَرَدَ بِهَا القرآنُ المجيد:

قول الله عزّ وجلّ في الآية (٣٧) بشأن الكافرين وهم يُعَذَّبُونَ في نار جهنم:

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

## حادي عشر:

وجاء في هذه السّورة من المذهب الكلاميّ، وهو أن يأتي الأديب البليغ على صحّة دعواه وإبطال دعوىٰ خَصْمه بِحُجَجٍ عقلية برهانية أو دونها.

والسببُ في هٰذه التسميَة الّتي تُنْسَبُ إلى الجاحظ، أنّ علْمَ الكلام يَعْتَمِدُ في حُجَجِه على الحجَجِ العقلية، فإذا جاء في الكلام الأدبِيّ استخدام الْحَجَجِ العَقْلِيَّةِ، كانَ المذهَبُ فيه جارياً على مذهب علماءِ الكلام.

ومنه قول الله تعالى في الآية (٤٠): ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

ففي هذا النصّ استقصاءٌ لكُلّ الاحْتمالاَتِ الّتي يمكن أنْ يَتَذَرَّعَ بها المشْرِكُونَ، ونَقْضٌ لها واحدةً فواحدة، بالبرهان العقْلِيّ.

❁ ❁ ❁

**ثاني عشر:**

وجاء في هذه السورة من البديع «اللَّفُّ والنَّشر» ونجد منه فيها ما يلي:

(١) في قول الله تعالى في الآية (١٢): ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ...﴾.

في هذا البيان من البدائع المعنويّة لَفٌّ مُجملٌ وَنَشْرٌ مُفصَّلٌ، فاللَّفُّ في عبارة: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ فَقَد ذُكِرَ فيها البحرانِ على طريقة اللَّفّ المجْمل. والنَّشْرُ جاء في عبارة: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

ويحْسُن مثْلُ هذا الإجراء البديع لما فيه من مساعَدةٍ للْفِكْرِ على استيعاب الأقْسَام بَعْدَ ذكْرِ الجامع بينها، وتَحْديد حُدُودِ الكلّيَّاتِ والجزئيَّات.

(٢) وفي قول الله تعالىٰ في الآية (٣٢): ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ...﴾.

ففي هذا البيان من البدائع المعنويَّة لَفٌّ مُجْمَلٌ بعبارة: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ﴾ ونَشْرٌ مُفصَّلٌ بعبارة: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾.

والحكمة سبَق بيانُها في المثال الأول.

❁ ❁ ❁

**ثالث عشر:**

وجاء في هذه السُّورة ممَّا هو جارٍ مجرىٰ الأمثال السائرة ما يلي:

(١) قول الله تعالى في الآية (١٤): ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾. أي: ولَا يُنَبِّئُكَ نَبَأً مُطابقاً للواقع تماماً مثل ما يُنَبِّئُكَ بِهِ خَبير.

(٢) وقول الله تعالى في الآية (١٨): ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. أي: ولَا تَزِرُ نَفْسٌ مِنْ شَأْنِها أَنْ تَكْتَسِبَ وِزْراً، وِزْرَ نَفْسٍ أُخْرىٰ اكْتَسَبَتْ في الواقِع وزراً.

إذْ كُلُّ نَفْسٍ مسؤولَةٌ مسؤوليّةً شخصيَّةً عن عَمَلِها فقط، وعَنْ آثار عَمَلها، ولا تُسْأَل عن عَمَلِ غَيْرِها الَّذِي لم يكن لَهَا تأثِيرٌ مساعِدٌ على ارْتكابه.

(٣) وقول اللّهِ تعالى في الآية (١٨) أيضاً: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾.

أي: ومَنْ تَطَهَّرَ من الكُفْر والآثام والذُّنوب، فإنَّما يتَطَهَّر جالباً لِنَفْسِه فَقَط جزاءَهُ الْحَسَن، دون غيره من الناس مهما كان قريباً وحَبِيباً.

(٤) وفي قوله تعالى في الآيات من (١٩ ـ ٢٢): ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾:

في هذه الآيات خمْس جُمَل جاريَةٍ مجْرىٰ الأمثال السّائرة، يَسْتَعْمِلُها ذَوّاقُو الأدَب الرَّفيع:

١ ـ وما يَسْتَوي الأعمى والبصير.
٢ ـ ولا تستوي الظُّلُمَات ولا النور.
٣ ـ ولا يسْتَوِي الظّلُّ ولا الْحُرور.
٤ ـ ومَا يَسْتَوي الأحياء ولا الأموات.
٥ ـ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُور.

والحمد لله على توفيقه وتيسيره وفتحه.

❁ ❁ ❁

(١٦)

# الملحق الثاني

## الدعوة في القرآن إلى السَّيرِ في الأرض والنظر في الآثار للاعتبار

لقد جاء في القرآن حثُّ الكافرين على السَّيْرِ في الأرضِ والتَّنْقِيبِ فيها، بحثاً عن آثار المهْلَكِينَ إهلاكاً جماعيًّا عامًّا، من كُفّار أهل القرون الأولى ومُجْرِميهم ومُكذّبي رُسُلِ الله إليهم، للاعتبار والاتعاظ بما أَجْرَىٰ لهم من عقابٍ معجَّلٍ لهم، ولمعرفة أنَّ سُنَّةَ الجزاء الرَّبَّانيّ المعجَّل، شاهدٌ دُنيويٌّ على قانون الجزاء الرَّبَّانيّ المؤجّل إلى يوم الدين.

ولمَّا كانت الحكمة الرَّبَّانِيّة في تَعَدُّدِ النُّصوصِ القرآنية حَوْلَ موضوع واحد، قد قضَتْ في معظم أحوالها أن تَكُونَ نُصوصاً تكامليَّةً لا تطابقيَّة، وكان موضوع «الدَّعْوة في القرآن المجيد إلى السَّيْرِ في الأرض والنَّظَرِ في الآثار للاعتبار» قد جاء حوله في سور القرآن (١٣) نصّاً، كان من الخير والبحث العلميّ الرَّشيد تدَبُّرها جميعاً، على أنّها نُصُوصٌ متكاملة فيما بينها لا متطابقة.

إنّ إيراد نصوص متعدّدة حول موضوع واحدٍ، في مناسباتٍ مختلفات، قد تستدعيه الحكمة التربويّة، كتَكْرِير العلاج الدوائي حتَّىٰ يُؤَثّر آثارَه داخل الجسَد، وكذلك يكون تكريرُ العلاج الدوائيّ النَّفْسِي، إذْ يَعْمَلُ على استمرار حضور العلاج في حركة النفس، رجاء أن يؤثر فيها، ويُسَيْطرَ على العوارض والعوامل الّتي تُمرِضُها، وتُؤَثر فيها آثاراً ضارةً مُفْسِدَة.

ومع تأدية النصوص القرآنية المتعدِّدة حول موضوع واحد لهذه الوظيفة النافعة، فإنّنا نجدُ في معظم الأحوال أنّها متكاملةٌ فيما بينها، وهذا التكاملُ يجْعَلُها غيْرَ مُكرَّرَة، وبهٰذِه البراعة التكامليّة تؤدّي وظيفَتَي التأْسِيسِ والتأكيدِ معاً، وتَسِيرُ في بناء المعرفة لدَىٰ المتلَقِّين على سُنَّةِ التجزئة والترَقّي.

وإنّي أُوثِر لدى دراسة مجموعة من النصوص القرآنية حوْلَ موضوع واحد، أنْ أستَبْعِدَ فِكْرَة التكْرِير التطابُقِيّ ما استَطَعْت، باحثاً عن فُروق الدّلالات في النُّصُوصِ المتعدّدة، لأَنَّني وجَدْتُ أمثلةً كثيرة جدًّا منها قد جزّأتِ الحكْمَةُ الرَّبَّانِيَّة أفكار موضوعاتها، ووَزَّعَتْهَا على النصوص المتعدّدة الَّتِي ورَدَتْ بشأنها، ضمن المناسَبَاتِ الّتي اقتضَتْ إيرادَها.

وأتابع دراسة نصوص هذا الموضوع الثلاثة عشرة ضِمْن هذا المنهج، عسَىٰ أن يَكْتَشِفَ المتدبّر مَعِي فُرُوقَ دَلَالَاتها، وأنْ نتوصّل معاً إلى فَهْمِ مُجْمَلِ الموضوع الّذي دَلَّتْ عليه النُّصُوصُ المتعَدّدة، الَّتي تَبْدو في أوّل النَّظَرِ، وتُخَيِّلُ لبادي الرأي، أنَّها مُكرَّراتٌ مُتطابقات، وهي ليْسَت مع التدبُّر كذلك.

وفيما يلي استعراض هذه النصوص (١٣) وفق ترتيب نزول سُورها، مع مقدارٍ ما من التَّدبّر.

**النصّ الأول:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤)﴾.

سبق تَدَبُّر هذا النَّصّ في موضعه من سورة (فاطر) وهو أوّل نصّ نزَلَ في نجوم التنزيل بشأن دعْوَة الذين كفروا بالرّسول محمّد ﷺ، وبما جاء به عن الله، إلى السَّيْر في الأرض للاعتبار بالّذين أُهْلِكُوا من قَبْلهم من كُفَّار القرون السّابقة، الّذين كذّبوا رسُلَ ربّهم، وقاوَمُوهم واضطهدوا الّذين آمنوا بهم واتَّبَعُوهم من أقوامهم.

وهذا الاعتبار يأتي عن التفكّر في أسْباب إهلاكهم إهلاكاً جماعيًّا عامّاً، وعن طريق دراسة آثارهم وبقايا قراهم ومساكنهم، وكيْفَ دمّرَ اللَّهُ عليهم، فهٰذِه شواهدُ على أنَّ الله بعزّتِهِ وعَدْله وحِكْمَتِه أهْلَكَهُمْ بأحْدَاثٍ عظيمَةٍ كُبْرَىٰ مُدَمّرة تدميراً شاملاً، على خلاف مجاري الكوارث الصغرى، الّتي يَبْتَلِي اللَّهُ بها عبادَه، والّتي تأتي بها السُّيولُ والفيضانات والرّياحُ وغيرها والّتي تُصِيبُ بمصائب جزئية محدودة، ولكنّها لا تُدَمِّر تَدْميراً كُلّيًّا شاملاً.

فإذا دَرَسُوا وتفكّرُوا بأحوال هذه الْقُرَىٰ والمدُنِ المدمَّرَة تدميراً شاملاً، وعلموا أنّ ذلك قد حصل بسَبَبِ تَمادِيهم في الكفر والعناد وتكذيب الرُّسُل، ونَشْرِ الفساد والْإِفْساد في الأرض، وعَلِمُوا أنَّ الله جلّ جلالُه قد أنجَىٰ الّذين آمنوا واتّبَعُوا رُسُلَ رَبّهم، من هٰذا الهلاك الشامل، تحقَّقَ لدَيْهم دليلٌ ذُو آثار حِسِّيَّة مشهودة، وهذا الدّليلُ يضافُ إلى الدليل العقليِّ الّذي يكْشِفُ للنّاظِرين بأفكارهم النَّظِيفَة، وعقولهم الحصيفة، أنّ حكمةَ الله ـ جلّ جلاله ـ لا بُدَّ أن تُمَيِّز بَيْنَ المؤمن والكافر في الجزاء، ولا يُمْكن أن تُسَوّيَ بين المسْلِمين والْمُجْرِمين.

وقد جاء هذا النّصُّ معطوفاً بحرف العطف «الواو» على معطوف عليه مطويّ، دلّت عليه النُّصُوص السابقة له في سورة (فاطر) ومنها الدّالّةُ على أنّ الله ليْسَ من حكْمَته أنْ يُسَوّيَ في الجزاء بَيْنَ مَنْ زُيّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه فرآهُ حسناً، وبين من آمَنَ وعمل صالحاً.

وتحليل العبارة يكونُ كما يلي:

أَلَم يَكْفِهِم الدَّليل العقليُّ الدّالُّ على أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ ليْسَ من شأنه أن يُسَوّي في الجزاء بين المسلمين والمجرمين، والدّال على أن سُنَّةَ اللَّهِ في عباده سُنَّةٌ ثابتَةٌ لَا تَبْدِيل لها، ولا تحويل فيها، أَوَلَمْ يَسِيروا في

الأرض فيَنْظُرُوا آثار الّذين عاقَبَهُمُ اللَّه على كُفْرِهم، وتكذيبهم رُسُلَ ربّهم، وإسْرافهم في جرائمهم وفجورهم وظلمهم وطغيانهم، ليأْخُذُوا مِنْهَا شواهد واقعيّة على سُنَّةِ الله الثابتَة في مجازاةِ عباده.

قول الله تعالى:

• ﴿... وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ...﴾.

جاءت هذه الجملة أيضاً معطوفة على محذوف مقدّر ذهناً، ويستطيع المتدبّر إدْراكه، أي: كانُوا أكثر من المشركين المعنِّيّين بالخطاب عدداً، وأكثر منهم عمراناً وحضارةً، وأشدّ منهم قُوَّةً.

وهذا المطويُّ المحذوفُ من اللّفظ قد جاء في نُصُوصٍ أُخْرَىٰ مَا يكشِفُه، ويَدُلُّ عليه، كما سيأتي إن شاء الله، وهذا من التكامُلِ في النُّصُوص القرآنية.

قولُ اللَّهِ تعالى:

• ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وَمَا كان اللَّهُ عزّ وجلَّ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شيءٍ يُرِيدهُ مَهْمَا كان عظيماً، خَلْقاً، أَوْ إفْنَاءً، إحياءً أوْ إمَاتَةً، إيجاداً أو إعداماً، لأنَّ مِنْ شَأْنِ قُدْرَتِه ـ جلّ جلالُهُ وعَظُم سُلْطانه ـ أنَّه إذا أرَادَ شيئاً، فإنَّما يَقُولُ لَهُ: كُنْ فيَكُون.

فبِأَمْرِ التكْوينِ الرَّبَّانِيِّ تكُونُ الأَكْوانُ إيجاداً، وبالأمْرِ الرَّباني تَنْعَدِمُ الأكْوان، أو تفنى، وتموتُ الأحياء، ويُعَذَّبُ من يُعَذَّبُ مِنْها، ويُنَعَّمُ مَنْ يُنَعَّم مِنْهَا.

ولـمَّا كَانَ الإيـجاد والإعدام، وإجراءُ الأحداث في الأكْوانِ على اختلافها لا تتحقق إلَّا بصِفَتِي الْعِلْم والقدرة قال اللَّهُ عزّ وجلّ في آخر الآيَة:

• ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾:

أي: إنَّهُ على الدّوام من الأزَلِ إلى الأبَدِ عليم قدير، ففِعْلُ «كان» إذا كان مُسْنَداً إلى الله جلّ جلالُه كان معناه ثباتَ الوصف النَّفْسِيّ ودوامَه لَهُ من الأزل إلى الأبد، فما هو أزلِيٌّ لَا بُدَّ أن يكون أبَديًّا، ولا يَصحُّ في العقل تَعرُّض ما هو أزليُّ الْوُجُودِ إلى العدم الكلّيّ أو الجزئي.

❁ ❁ ❁

## النص الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

أنْكر الْمُشْركونَ مَا أنبأهم به الرَّسُول محمّد ﷺ من أحداثِ الآخِرَةِ وَيَوْم الدّين، مع أَنَّهُمْ قد تتابَع عليهم الْعِلْمُ بيومِ الدِّين، ممّا وَرِثُوه من دين إسْماعيل عليه السلام، وممّا سَمِعُوه من عُلَماء الْيَهودِ والنصارى، وقد كانَ هذا الْعِلْمُ مَوْجوداً عنْد آبائهم، لَكِنَّ آبَاءَهُمْ كَانُوا يُكَذِّبُونَ به، فَهُمْ على سُنَّة آبائهم في التكذيب بيوم الدّين.

وأَنْكرُوا أيْضاً الجزاء الرَّبَّانيَّ على أعمال العباد، سواءٌ أكانَ مؤجّلاً إلى ما بَعْدَ الموت، أمْ مُعَجّلاً في الدّنيا قبْلَ الموت.

أمّا بالنّسبة إلى المؤجّل منه إلى يوم الدّين، فقد جعلوا يتعلّلُون باستِبْعَادِ البعث إلى حياةٍ أخرى، بعْدَ صَيْرُورة الأجساد إلى تراب، فقالوا:

• ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ﴾: أي: وكان آباؤُنا تُراباً ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾: أي: أَئِنَّا لَمخْرَجُون إلىٰ حَيَاة أُخْرَى، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، استفهام يَقصِدون به إنكار الحياة بَعْدَ الموت.

فأعْلَنُوا بهذا الاستفهام الإنكاريّ عَدَم إيمانهم بالبعث وبما بَعْدَ البعث من أحداث يوم الدين.

وقالوا أيضاً:

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ فَشَهِدُوا علَىٰ أنفسهم وعلى آبائهم بأنَّهُمْ قَدْ أُنْذِرُوا بعَذَاب الله يَوْم الدِّين، من قَبْلِ بِعْثَةِ محمّد ﷺ.

وهذا يُؤَكِّدُ عِنْدِي مَا سَبَقَ أَنْ أوضَحْتُه في سورة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول) عند قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾: أي: لِتُنْذِرَ قَوْماً الَّذِي أُنْذِرَه آباؤُهم من قَبْل، فهُمْ عَنْه غافِلُونَ مَعَ عِلْمِهِمْ به.

وأرَىٰ أنَّ من الخطأ حَمْلَ كَلِمةِ ﴿مَّآ﴾ في عبارة: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ على أنّها حرف نَفْي، بل هي اسم موصول، فقولُهُم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ يَدُلُّ على أَنَّهُمْ قد جاءَهُمْ نَذِيرٌ، وأنْذَرَهم بعذاب الله يوم الدّين، بَعْدَ أَنْ يَبْعَثَهُمْ إلى الحياة مَرَّةً أُخرَىٰ، وأنذرهم بأنهم سوف يُحَاسَبُون، ويفْصِلُ اللَّهُ قضاءَهُ فيهم، ثُمَّ يُنَفِّذُ مَا قَضَىٰ به من جزاء، كالَّذِي أنْذَرَهُمْ به الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَقَالُوا أيضاً:

﴿... إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: ما هذا النبأ الذي جاء به محمَّد بشأن البعث إلى الحياة الأخرىٰ، والحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتحْقِيق الجزْاء، إلَّا منقولٌ من أباطيلِ الأوّلين.

ولمَّا كان هذا الإنكارُ للبعث يُشْعِرُ بإنكارِهم لأصْل الجزاء الرَّبَّانيّ، أمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ، فكُلَّ دَاعٍ إلىٰ اللَّهِ من أمَّتِه بأن يقول لهم: سيروا في

الأرْض فانْظُرُوا كيْفَ عاقَبَ اللَّهُ عزّ وجلّ كُفّارَ الْقُرُونِ الأولى، وكيف أهلَكهم ودمَّر عليهم مُدُنَهم وقُراهم بأحداث عظْمَىٰ خارقة لِعَادة الكوارث الّتي قَدْ تَأتي بها الرّياح أو الفيضانات، أو الزلازل أو النيران، فقال تعالى:

• ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

**المجْرِم**: هو في اللّغَة المعتدي بذنْب كبير، وجاء وصف المجرمين في القرآن المجيد عنواناً مقابلاً لوصف المسلمين. وجاء وصفاً للكافرين الّذِين أهلكهم الله في الدنيا، ووصفاً للخالدين في عذاب النار يوم الدّين.

هذا النصّ الثاني الذي جاء في سورة (النمل) أضاف إلى ما جاء في النّصّ الأول، فكرةَ أنَّ مشركي العرب كانوا يَعْلَمُونَ من المواريثِ الدّينيَّة، عقيدةَ البَعْث للحساب والجزاء، ويَعْلَمُونَ أنَّ الله قد يُجَازي عباده على جرائمهم في الحياة الدُّنيا، إلَّا أنَّهم كانوا يَجْحدون ذلك، ويَذْكُرون أنّ مقولَةَ الجزاء الرَّبَّاني هي من أساطير الأولين، أي: من أباطيلهم الّتي كانوا يتحدَّثون بها، دون أن يكونَ لَهَا حقيقَةٌ في واقع الأمر.



## النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن

تَصۡدِيقَ ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَىۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

بمناسَبَةِ اعتراض المشركين علىٰ بشَرِيَّةِ الرَّسُول محمّد ﷺ، وادّعائهم أنّ الرَّسُول يَنْبَغِي أن يكون مَلَكاً، أَوْ لا يأكُلُ الطَّعَام ولَا يَتَزَوَّجُ النِّسَاء ولا يَمْشِي في الأسْواقِ لكَسْبِ رِزْقه، كانَ الرَّدُّ الرَّبَّانِيُّ عليهم بأنَّ كُلَّ الرَّسُلِ السَّابِقين، الَّذِين يعْتَقِدُ المشركون أنَّهم كانوا رُسُلاً، مثل إسماعيل وإبراهيم وموسى وعيسَىٰ عليهم السلام، قَدْ كانُوا رِجالاً مِثْلَ سَائِرِ الرّجال من الناس، إلّا أنَّ اللَّهَ بِحِكْمَتِه اصْطَفَاهُمْ بِالْوَحْي إليهم، فَلَمّا كَذَّبَتْهُمْ أَقْوامُهُمْ نَصَرَ اللَّهُ رُسُلَه والَّذِين آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم، وأنْزَلَ بَأْسَهُ العقابيَّ بالمكذِّبينَ المجرمين.

واقتضىٰ البيان هُنا توجيه اللَّوْم الشديد للمشركين بأسْلُوب الاستفهام التوبيخي، الّذي لم يُواجِهْهُم الله عزّ وجلّ به، بلْ تَحَدَّثَ عَنْهُمْ فيه بضمير الغائبين، فقال تعالى:

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ . . .﴾.

أي: ألَيْسَ لَدَيْهم عِلْم بِأَنَّ الرُّسُل السَّابِقين، الَّذِينَ أَهْلَكَ اللَّهُ أقوامَهُمُ الَّذين كَذَّبُوهم وكَذَّبُوا بما جاءُوهم به عن رَبّهم، أَنَّهم كانُوا رِجالاً كَسائِرِ رجال الناس، أفَلَمْ يَسِيرُوا في الأرض فينْظُرُوا في آثار الأولّين، ويُشَاهِدُوا كيْفَ كانَتْ عاقِبَةُ مَكَذِّبي رُسُل رَبّهم من قبلهم من أهل القرون السَّابقة، مع أنهم كانوا رُسُلاً رجالاً كسائر الرّجال من الناس؟!. الواقع أنهم كانوا يعلمون ذلك ويَجْحَدونه.

وبَعْدَ هٰذا التوبيخ بأسلوب الاسْتفهام أبان الله عزّ وجلَّ أن الدَّار الآخرة خَيْرٌ للّذين اتَّقَوْا في الحياة الدُّنيا عقابَ اللَّهِ وعذابه، فآمَنُوا وأسْلَمُوا واتَّبَعُوا ما أنزل الله إليهم.

وفي هٰذا البيان إشارة إلى أن سَبَبَ تَكْذِيب المكذبين فِتْنَتُهُمْ بالحياة الدّنيا وزينتها، واستبعادُ الدّار الآخرة وجَنَّةِ النعيم فيها عَنْ أذهانهم، فقال تعالى:

﴿... وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

هُنَا الْتَفَتَ الله عزّ وجلّ إليهم في البيان فقال لهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟!. أي: أَلَيْسَ لديكم عَقْلٌ عِلْمِيٌّ ولَا عَقْلٌ إرَادِي يجعلكُم تَضْبِطُونَ نفوسَكُمْ عن اتِّباع الأهواء والشهواتِ وسائرِ زينات الحياة الدّنيا، ناظِرِين إلى الآخرة، وما فيها من نعيم مُقِيمٍ في جنَّاتِ النعيم، وما فيها من عذابٍ أليم خالدٍ في دار العذاب النار.

وبَعْدَ هٰذا أبَان الله عزّ وجلّ، أنَّ نَصْرَ رُسُلِهِ وعِقَابَ مُكَذِّبِيهم لم يَتَحَقَّقْ في سُنَّةِ الله إلَّا بَعْدَ إمهالٍ طَوِيلٍ للكافرين الَّذِين كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهم، وأعْلَنُوا عِدَاءَهُمْ لَهُمْ ولِدَعْوَتهم.

وهذا الإمْهَالُ الطويلُ جعَلَ الرُّسُلَ يَسْتَيْئِسُون، أي: يَيْأَسُونَ يَأساً شَدِيداً من نَصْرِ الله لهم في الدّنيا، وإنزال العقاب في المجرمين من أقوامهم.

فلمَّا وَصَلُوا بحَسَب طبائعهم البشريَّةِ إلى هذا اليأس الشديد، ظَنُّوا ظنًّا تَوَهُّمِيًّا ضعيفاً أنَّ أخبار الإنذار بالعقاب المعجّل أخبارٌ تَهْدِيدِيَّة، ولَيْسَتْ وَعداً لَا بُدَّ من تَحْقِيقِه، جاءهم نَصْرُ الله، فأهْلَكَ اللَّهُ بحكْمتِهِ المجْرمين من أقوامهم، ونَجّىٰ مَنْ شَاءَ أن يُنْجِيَهُ من أقوامهم، وهم المؤمِنُون، والَّذِينَ لم يَصِلُوا إلَىٰ دَرَكَةِ اليأْسِ من إيمانِهم وقَبُولهم دَعْوة الحقّ، فقال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾: الظنُّ هُنَا هو من قبيل الظَّنّ التوهُّمِّي الضعيف الذي يَمُرُّ على شَكْل خاطراتٍ لا يُسْتطاعُ دَفْعُها، ثُمَّ يَصْرِف هذا الظَّنَّ التوهُّمِيَّ العارضَ صِدْقُ اليقين بالله ـ جلّ جلالُه وعظم سلطانه ـ والثقةُ بحكمتِه العظيمة.

وفي هذا البيان إشارةٌ إلى أنّ اللَّهَ جلَّتْ حكْمَتُهُ أَمْهَلَ الكَفَرَة المكذبين إِمْهالاً بَلَغَ أقصىٰ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُتَصَوَّرَ من إمْهَالٍ، والدّليلُ عليه أنَّ الرُّسُلَ بدَأَتْ تَتوارَدُ عليهم الخواطِرُ بأَنَّ الإنْذَارَ بالعذاب المعجل قَدْ كان الغرض منه التَّهْدِيد لا التنفيذ في الواقع، وهٰذِه الخواطر لم تَعْدُ أن تكونَ ظنُوناً توهميّةً ضعيفة.

ومثل هٰذِهِ الظنُونِ التوهميَّة الْعَارِضَة على شكل خواطر لا يَمْلِكُ إنسان ما مَنْعَ توارُدِها، لكِنَّهُ يَمْلِكُ صَرْفَهَا باليقين الثابت، وبَعْدَ صَرْفِها يعْتَصِمُ بالصَّبْر وبالثقة بوعد الله الحقّ.

ومثل هٰذِهِ الخواطر لا تَخْدِشُ عِصْمَةَ الرُّسل عليهم السلام، لأنّ حَالَهُمْ بَعْدَهَا كان حَالَ ذي يقين راسِخٍ بوَعْدِ الله، وثِقَةٍ تَامَّةٍ بحكْمَتِه في تصاريفه في كونه.

وخَتَمَ اللَّهُ عزَّ وجل النصّ ببيان الحكْمَة من ذِكْرِ قِصَصِ الأوَّلين، وهي أنّ فيها عِبْرَةً لِأُولي الألباب، يَعْتَبِرُون بها، إِذْ يَقِيسُونَ أحْدَاث المستقبل على أحداث الماضي، ثقةً مِنْهُمْ بأنَّ سُنَّةَ اللَّهِ في عباده واحدة، فما جرى لِلْأَوَّلِين لَا بُدَّ أنْ يَجْرِي نظيرُه للآخرين، إذَا وَصَلُوا إلى الدَّرَكَةِ الَّتي وَصَلَ إليها الأوّلُون، واقتضت أحوالهم إهلاكهم، فقال الله تعالى:

- ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ . . .﴾.

**الْعِبْرَةُ**: الاتّعَاظُ والاعْتِبَارُ بما مضىٰ، وأصْلُها الانتقالُ عُبُوراً من حادثة جَرَت إلى حادثةٍ لم تَجْرِ بَعْدُ، بقياسِهَا عليها، والحكْمِ عَلَيْها بأَنّها سَتَحْدُث مِثْلَ الماضِيَة، إذا تَمَاثَلَتِ الصِّفَاتُ والأسباب.

ومَرْجِعُ هذا القياس ثَباتُ سُنَن الله في كونه.

**أولُوا الألباب**: هم أصحابُ العقول السليمةِ من الْخَلل، والسديدةِ في فهم حقائق الأمور.

**اللُّبّ**: هو العقل الخالص من الشوائب.

وختم الله عزّ وجل سورة (يوسف) بقوله عن القرآن:

﴿... مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾: أي: مَا كان القرآنُ حديثاً قابلاً بصِفَاتِهِ الإعْجَازيَّة لِأنْ يُفترىٰ، فَيُصْنَعَ كذباً على الله، بل هو تنزيل من حكيم حميد.

ولو كان قابلاً لأنْ يُفْتَرىٰ لما تَحَدَّىٰ الله عزّ وجلّ الإنْسَ والجنّ بأنْ يأتُوا بمِثْلِهِ أو بمثل عشر سور منه أو بمثل سورة منه، ولو كان بعْضُهم لِبَعْضٍ ظهيراً.

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أي: ولكِنْ أنْزَلَهُ اللّهُ حالَة كَوْنِهِ تَصْدِيقَ الّذي بَيْنَ يَدَيْه، وهي الكتُب الرَّبَّانيَّة الّتِي أنْزَلَهَا اللّهُ قَبْله.

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾: أي: ولكِنْ أنْزَلَهُ اللّه أيْضاً حالَة كَوْنه تَفصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ، مِمَّا هُوَ مَقْصُودٌ بيانُه من أمُور الدّين الذي اصْطَفاه اللّهُ لعباده.

﴿وَهُدًى﴾: أي: وَلَكِنْ أنزلَهُ الله أيضاً حالَةَ كوْنِهِ هُدىً، أي: يهدي من يَتَّبِعُ أوامره، ونواهيه، ونصائِحهُ، ووصاياه، وبياناته، إلى كلّ خير.

وبما أنَّه يَهْدِي لكُلّ خَيْرٍ على صراط اللّهِ المستقيم، فَهُوَ حَرِيٌّ بأنْ يُطْلَقَ عليه أنَّهُ «هُدىً» أي: عَيْنُ الْهُدىٰ.

﴿وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: أي: ولكِنْ أنْزَلَه الله أيضاً رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُتَابِعُونَ آيَاتِهِ الَّتِي تَنْزِلُ بإيمان مُتَجَدِّد.

إنّ القرآن مظْهَرٌ من مظاهر رَحْمَةِ الله بعباده، وأُطْلِقَ عليه أنه: «رَحْمَةَ» من باب إطلاق اسم السَّبَب على المسَبَّبِ، وهذا من المجاز المرسل، والْغَرَضَ الإشعار بأنَّهُ هو بذاتِه رحْمَةٌ لقَوْم يتابِعُونَ آياته بإيمان متجدّد وعمل بما جاء فيها.

ويَظهر للمتدبّر أنّه قد جاء في هذا النصّ إضافاتٌ على ما جاءَ في النَّصَّيْنِ السَّابقَيْن.

❀ ❀ ❀

## النّصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

بمناسبة الحديث عن اسْتِهْزَاء قادة مُشْرِكي مَكّة وزُعمائهم بالرَّسُولُ مُحَمَّد ﷺ في أواسط العهد المكيّ من سيرته الدعوية، واستهزائهم بما أنبَأَهُمْ من إنذاراتٍ مُعَجَّلَةٍ وَمُؤَجَّلَةٍ إذا لَمْ يُؤْمِنُوا به رسُولاً وبما جاءهم به عن رَبّه، إذْ أَمْهَلَهُمُ اللّهُ فلم يُنْزِلْ بهم عِقَابَهُ المعجّل، قال الله عزّ وجلّ لرسوله مُهَوّناً عليه أَمْرَ تَكْذِيبهم له، ومُبّيناً له أنّ حالَهُ مع قومه مثلُ حَالِ الرُّسُل مِنْ قَبْلِه مع أقوامهم، ومُطْمِئناً لَهُ ولِلّذِين آمنوا به واتَّبعُوه، بأنّ الله سيَنْصُرُه كما نَصَر الرُّسل السَّابقين والذين آمَنُوا بهم واتَّبَعُوهم، على المكَذِّبين المستهزئين من أقوامهم بما كانُوا يَتَوَعَّدُونَهُمْ به بلاغاً عن رَبّهم.

جاء تأكيد الخبر في الآية (١٠) بعبارة ﴿لَقَدْ﴾ لطَمْأنَةِ قُلُوب المؤمنين.

ودلَّ على أنّ قادة مُشْرِكي مكة حينئذٍ، كانُوا يَسْتَهْزِئُون بإنْذَارَات الرَّسول محمَّدٍ لهم بعقاب الله المعجل قول الله تعالى:

• ﴿... فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾:

أي: فأصَابَ الَّذِينَ اسْتَهْزَؤُوا بالرُّسُلِ وأحاط بهم العقابُ الرَّباني المعجَّل الذي كانوا به يَسْتَهْزِئون.

وفي هذا بيانٌ ضِمْنِيٌّ للمشركين، بأَنَّهُمْ يُعَرّضون أنْفُسَهم باستهزائهم، لأنْ يُنْزِل اللَّهُ بهم ما هُمْ به يَسْتَهْزِئون، كما أنْزَل بالمكَذّبين برُسُل رَبّهم من أهل القرون الأولى.

وبَعْدَ هذا أمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ، فكُلَّ داعٍ إلى الله من أمَّتِه بأَنْ يُطالِبَ المشركين بالسَّيْر في الأرض، بحْثاً وَتَنْقِيباً في آثار الأولين، فإنَّهُمْ بالبحث والتنقيب يتوصَّلُونَ إلى أنَّ كثيرينَ من أهْل الْقُرى والـمُدنِ السَّابقة قَدْ أُهْلِكُوا بعقابٍ رَبَّانِيٍّ عامّ شامل.

دلَّ على هذا العطف بحرف العطف «ثُمَّ» الذي يَدُلُّ على التراخي الزّمَنِي المشير إلى البحْثِ والتنقيب في قوله تعالى:

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

فأضاف هذا النّصّ أنّ من الأُمَم السَّابقَةِ الّتِي أَهْلَكَها اللَّهُ بِتَدْمِيرٍ شامل قَدْ طُمِرَتْ في الأَرْضِ كُلُّ آثارها، فَلَا يَكْشِفُها إلَّا البحثُ والتَّنْقِيبُ وأعْمَالُ الحفريّات.

وبهذا نَحمِلُ النُّصُوصَ الّتي جاء فيها العطف بالفاء، على الأُمَمِ المهْلَكَةِ الّتي لها آثارٌ ظاهرة على سطح الأرض، أو في الجبال، كَمَدَاينِ صالح، وأهرامات الفراعِنَة.

لكن تُوجَدُ مُدُنٌ وقُرَىٰ مُدْفُونَةٌ في الأرض لأُمَم سالِفَةٍ مُهْلَكَة، وهٰذِه لَا تَكْتَشَفُ إلَّا بمُتَابَعَةِ التَّنْقِيب والحفريات.

وقد صارت ظاهر التنقيب والحفريات إحدى الأعمال الكبرى الَّتِي يقوم بها عُلَماءُ الآثار في عُصُورنا.

❁ ❁ ❁

## النصوص الخامِسُ والسَّادِس والسَّابع:

هي نصوص ثلاثة جاءت في سورة (غافر/٤٠ مصحف/٦٠ نزول):

**الأول:** قول الله عزّ وجلّ في أوائل السّورة:

﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾.

• ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾: أي: فَلَا تَنْخَدِعَنَّ بتَمْكِينِ الله لَهُمْ من التّقَلُّبِ في البلاد، تَقَلُّباً يُحقِّقُونَ به مطالِبَهُمْ ورَغَبَاتِهم من الحياة، فهُمْ ما زالُوا في مُدَّةِ الامتحان، والله ـ جلّ جَلالُهُ وعظُمَتْ حِكْمَتُهُ ـ يُمْلِي لهم، ليُعْطِيَهُمْ غايَةَ الْفُرَصِ الَّتي تَقْطَعُ كلَّ أعْذَارِهم يَوْمَ الحساب وفَصْل القضاء، وتَقْطَعُ كُلَّ أعْذَارِهِمْ إذا قَضَىٰ اللَّهُ بأَنْ يُنْزِلَ بِهِمُ الْعِقَاب الْمُهْلِكَ في الحياة الدنيا.

• ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: المرادُ بكلمة «الأحزاب» الأُمَمُ المهْلَكَة بسبب كُفْرِها، وتكْذِيب رُسُلِ ربّها، وطغيانها وإفسادها في الأرض، وقد جاء في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) التصريح بالمراد بالأحزاب، في قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ

وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾.

**الثاني**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر) أيضاً بشأن المشركين الذين كذَّبُوا رسُول الله محمّداً ﷺ:

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

هذا النّصّ جاء فيه بَعْضُ تغيير في العبارة، وجاء فيه إضافة أن المهلَكينَ من قَبْلِ مشركي مكَّة كانُوا أعْظَمَ منهم آثاراً في الأرض، فآثارُ فِرْعُونَ مثلاً أعظَمُ من آثار مُشْرِكي قريشٍ ومُشْرِكي سائر العرب.

وجَاءَ فيه إضَافةُ بيانِ أنَّ الْمُهْلَكِينَ السَّابقين مَا كَانَ لهم مِنْ واقٍ يَقِيهم من عذاب الله، مع أنَّهُمْ كانُوا أشَدَّ من مُشْرِكي كُلِّ الْعَرَبِ وكُفَّارِهم قُوَّةً وآثاراً في الْأَرْض، فَلَمْ يَقِهِمْ ذَلِكَ من عذاب الله، إذْ أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنوبهم، وقَدْ كان أخْذُ اللَّهِ لهم أخْذَ تَعْذِيبٍ وإهلاك.

وجاء فيه أيضاً بَيَانُ أنّ مِنْ أسباب إهلاك الله لهم، أنَّهُمْ كانت رُسُلُ اللَّهِ لهم تأتيهم بالبيّنَاتِ: (أي: بالآيَاتِ الواضحات الدَّلَالَات) من خوارِق العادات، ومن الآيات المنزّلَات على الرُّسُل، المبيِّنَاتِ لأصول الدّين وأحكام الشريعة، ومطلوبات اللَّهِ من عباده في رِحْلَةِ امتحانهم، فكفَرُوا بها، وكذَّبُوا رُسُلَ رَبّهم، فأخَذَهُمُ اللَّهُ أخْذَ إهلاكٍ شاملٍ مقْرُونٍ بعذاب شديدٍ، دَلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ في آخِرِ النّصّ: ﴿إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

**الثالث**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر) أيضاً بشأن مشركي العرب، وفي مقدمتهم كفار قريش، وبه ختم الله السورة:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

فأضاف هذا النّصّ أنَّ المهلَكينَ السَّابقين من مُكَذِّبي رُسُل الله، المستهزئين بما كَانُوا يُنْذِرُونَهُمْ به مِنْ عذاب اللَّهِ المعجَّل، كانوا أكثر عدداً من الَّذين كَذَّبوا رَسُول الله محمداً ﷺ من مُشْركي العَرب إبَّانَ نزول السورة، مع أنّهم كانوا أشدّ منهم قوة، وأشَدَّ مِنْهُمْ آثاراً باقيَةً في الأرض.

وعلى الرُّغم من كلّ ذلك فما أغْنَىٰ عنهم شيئاً ما كانوا يكْسِبُون من وسائل قُوَّةٍ وتَمكُّنٍ في الأرض.

وأضاف هذا النَّصُّ أيضاً، أنَّ هؤلاء المكَذِّبين السَّابقين لمَّا جاءتهم رسُلُ رَبِّهِمْ إلَيْهم بالْبَيِّنَاتِ، من آيات الله الإعجازية، وآيات اللَّهِ البيانيَّة، لَمْ يَعْبَؤوا بها، بلْ فرحوا بما عندهم من عِلْمٍ يُكْسِبُهُم تفوُّقاً في الْقُوىٰ والصِّناعاتِ والعمران، وجَعَلُوا ذلك من أسباب تفاخُرِهِمْ على الرُّسُل وعلَى الَّذين آمَنُوا بهم وبما أنزل الله عليهم وجعلوا ذلك أيضاً من أسباب استهزائِهم بحالَةِ الضعف الذي كان عليه الرُّسُلُ وأتباعُهم من المؤمنين.

ثمّ كانت العاقبة أن حَاقَ بالكَفَرَةِ المكذِّبين مَا كَانُوا بِهِ يسْتَهزِئُونَ من إنذاراتِ رُسُل ربهم لهم.

وأضاف هذا النص أنّ هؤلَاءِ الْمُهلَكِينَ لمَّا رَأَوْا بِدَايَاتِ مَا أَنْذَرَهُمْ به رُسُلُ رَبّهم تقتربُ منهم، ويَنْزِلُ بعضُها عَلَيْهم عذاباً من ربّهم، قَالُوا: آمَنَّا باللَّهِ وَحْدَه، وكَفَرْنَا بما كُنَّا به مُشْركين.

لَكِنَّ الإيمانَ بعد القضاء بالإهلاك، وبَعْدَ رُؤيَةِ مُقَدِّماته، لا يَنْفع الّذين كانوا كافرين مُكذِّبين، لأنَّهُ إيمانٌ بَعْدَ الشُّهُودِ الحسِّيِّ، إذ الإيمان

الذي يَنْفَعُ المؤمنين عند ربّهم هو الإيمان بالغيب، الْقَائم على أَدِلّة الْعَقْلِ وبراهينه، فالعقْلُ ومداركُ الفكر وأدوات الفهم الذهنيّ، هي التي ميّزَ اللَّهُ بها الإنسان، وجعلَه مسْؤُولاً في الحياة الدّنيا عما تَهْدِي إليه، كما قال عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْفُ﴾: أي: وَلَا تَتبعْ، يقال لغة: قَفَاهُ يَقْفُوه، أي: تَبِعَه. فأبانت هذه الآية أنَّ الإنسانَ مسؤولٌ عنْدَ اللَّهِ وعند أهل الحقّ والعدل من عباده، عن العلْم الّذي يأتي عن طريق السَّمْع، أو عن طريق الْبَصَر، أو عن طريق الفؤاد، وما يأتي عن طريق الفؤاد هو ما تُدْركُه العقُولُ من غَيْبيَّاتٍ بالأدلَّة العقلية، واللَّوازم الفكريَّةِ البرهانيَّة.

وقد جعل اللَّهُ عزّ وجلّ من أوّل أركان الإيمان في رحلة امتحان الإنسانِ في الحياة الدُّنيا الإيمانَ بالغيبِ الَّذِي يَتعلَّقُ بذات الله وصفاته، ثمّ بالغيب الّذي صحَّتْ به الأخبار عنْه بلاغاً عن الله من قِبَلِ رُسُلِه المؤيّدين من لدُنْهُ بالمعجزاتِ الباهرات، والآيات البينات، أو عمَّن بلَّغ عنهم بلاغاتٍ صادقاتٍ يشْهَدُ العقْلُ بصِدْقها.

وأضاف هذا النّصّ أنّ المكُذِّبينَ السَّابقين المهْلَكِينَ، لمَّا رَأَوْا مُقدِّمَاتِ بأسِ اللَّهِ الوافِدِ عليهم بالعذاب والإهلاك الشامل، ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ ولَكِنْ لَمْ يكن يَنْفَعُهُمْ إيمانُهم حينئذٍ، لأنَّهُ إيمان بَعْدَ شهُودِ مُقدّماتِ عذاب اللَّهِ لهم، ومَا كانوا قد أُنْذِرُوا به من قبل.

وأضاف أنَّ عدَم قبول إيمانهم حينئذٍ هو سُنَّةٌ من سُنَنِ اللَّهِ، الثابتَةِ بقضائه وقَدَرِه، وهذه السُّنَّةُ الرَّبَّانيَّةُ قَدْ جَرَتْ تَطْبيقاتٌ لها في الأمم السَّالفة

لَهُم: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾ أي: قَدْ مَضَتْ تَطْبيقاتٌ لها في عباده السابقين.

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ في الأمْكِنَةِ الَّتي جرَتْ فيها سُنَّةُ الله التَّعْذِيبيَّة والإهلاكيَّة ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بالله وبما جاء من عند الله، على ألسنة رُسُلِه الصادقين.



## النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

فأبان هذا النّص أنَّ كُلَّ أمَّةٍ سالفةٍ قَدْ بَعَثَ اللَّهُ فيها رسُولاً، فأمَرَهم بأنْ يعْبُدوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَبِأَنْ يَجْتَنِبُوا الطَّاغوت.

**اجتنابُ الشَّيْء**: الابتعادُ عَنْه وعَدَم الاقتراب منه، يقال لغة: اجتنَبَ الشَّيْءَ، أي: ابْتَعَدَ عنه. والأمْرُ باجتنابِ عَمَلٍ مَا، أشدّ من النَّهْي عن فِعْله، لأنَّ الاجتنابَ يَسْتَدْعي وُجُودَ فاصِلٍ بَيْنَ الإنسان وبَيْنَ المنهيّ عنه، بخلاف النهْي عن العمل فإنَّه لا يَسْتَدْعي وجودَ فاصل ما، إذْ قد يكونُ المنهيُّ قريباً جدًّا من المنهيّ عَنْهُ وَلَا يَعْمَلُه، فيكون بذلك ممتثلاً مطيعاً.

**الطاغوت**: هو كثير الطغيان، وكلُّ رأسٍ في الضلال، ويُطْلَقُ على الشيطان، وعلى كُلّ ما عُبِدَ من دون الله (يستوي فيه الواحد وغيره والمذكّر والمؤنث).

﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾: أي: فمنهم من استجاب لدعوة الحقّ، فآمن بالله وبرسوله، وبما أنزل اللَّهُ على رسوله، وعبد الله وحده لم يُشْرِكْ به أحداً، وابْتَعَدَ بُعْداً كافياً لتحقيق الأمن ممّا يقذف به الطاغوت، من شرَرٍ وشَرٍّ، وإغراءٍ وإغْوَاءٍ بالشّهوات والأهواء، فَكَانَ بذلك مُهْتدياً إلى الحقّ وسُلُوك صراط الله المستقيم، بإيمانه وعمله، فَهَداه الله، أيْ: فحكَمَ لَهُ بالهداية.

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾: أي: ومنهم من لم يسْتَجِبْ لدَعْوَةِ الحقِّ، فلَمْ يُؤْمن بالله ولا برسوله، ولا بما أنزل اللَّهُ على رسُوله، بل اسْتَمرَّ على ما كان عليه من شرك وكُفْرٍ واتباعٍ للطاغوت، فحَكَمَ اللَّه عليه بالضَّلالَة، فَحقَّتْ عليه (أي: ثبَتَتْ عليه) عقُوبَةُ ضلالته، فكان مع المهْلَكِينَ المكذبين رسول رَبّهم لهم، إهلاكاً عامًّا شاملاً مقترناً بعذاب.

وبعد هذا البيان توجّه الله عزّ وجلّ في النّصّ بالخطاب المباشر للمشركين المكذّبين رَسُولَ الله محمّداً ﷺ، فقال لهم:

﴿... فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: فانظروا بأعينِكُمْ آثار ديارهم وبلادهم، وانْظُرُوا بأفكاركم وعُقُولِكُمْ كيف كانت عقوبة الله لهم، فاعْتَبِرُوا بها، وقيسوا أحوالكم على أحوالهم الّتي استدعَتْ إهلاك الله لهم إهلاكاً عامًّا شاملاً مقترناً بعذاب.

﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾: هي الإهلاك والتدمير الشّامل لأقوام تواطَؤُوا على التكذيب والكفر، واتّباع الطاغوت.

وتشْمُلُ هذه العبارة مَنْ عاقَبَهُ الله عِقاباً خاصًّابه، إذْ كان معانداً طاغيةً جباراً في الأرض، مثل: «قارون» إذ خَسَفَ الله بِه وَبِدَارِه الأرض.

**النَّصان التاسع والعاشر:**

جاء هٰذان النَّصّان في سورة (الرُّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

الأول: قول الله عزَّ وجلّ في أول السّورة:

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٠﴾.

• جاء في هذا النَّصّ ذِكْرُ انتصار الفُرْس على الرُّوم في حرْبٍ قامَتْ بَيْنَ هاتَيْنِ الأمَّتين العظيمتَيْن حينئذٍ، وأتْبع الله ذلِكَ بخَبَرٍ مُسْتَقْبَلِيٍّ كَانَ آيَةً من آياتِ اللَّهِ الإعجازيَّةِ في القرآن المجيد، وقد تضمَّنَ هذا الخبَرُ أنَّ الرُّوم سَتَغْلِبُ فارسَ في بِضْعِ سنين، أي: في مُدَّةٍ أدْناهَا ثلاث سنين، وأقْصاها تِسْعُ سنين.

وقد تحقَّق في الواقع هذا الخبَرُ المستقبَليُّ كما أنزل الله عزّ وجلّ في القرآن.

وقَدْ رُوِيَ أنّ انْتِصَارَ الرُّوم على فَارِسَ كَانَ يومَ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ بَيْنَ المسلمين ومشركي مَكَّة، فإنْ صحّتْ هذه الرِّوايَة فَقَدْ أبان الله عزّ وجلّ أنَّ الزَّمَنَ الّذِي ينْتَصِرُ فيه الرُّوم على فارس، يكونُ فيه أيضاً نَصْرٌ للرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبعُوهُ على مُشْرِكي مكة، فيكُونُ النَّصُّ قد

اشتَمَل علىٰ نبأَيْنِ مِنْ أنْباءِ الْغَيْبِ المسْتَقْبَلِيّ: نَبأ انْتِصَارِ الرَّسولِ وأصحابه على مُشْرِكي مكة، ونبأ انْتصار الرُّوم على فارس.

والمتدبّر لقول الله عزّ وجلّ في النّصّ: ﴿... وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ يلْمَحُ دَلالَةً قويَّةً على أنّ فرح المؤمنين قَدْ كان بانتصارهم على مشركي مكة، أكثر من فرحهم بانتصار الرُّوم أهل الكتاب على فارس عُبَّادِ النّار بما لا يُقاس، وهذا البيان يتضمَّنُ بشارةً للرَّسول وللمؤمنين به بانتصارهم على المشركين، وبهذا الانتصار يفْرَحُونَ بتَحْقِيق وعْدِ الله لهم، وتنزيل سورة (الروم) كان في أواخر العهد المكيّ من مسيرة الرسول الدعوية.

وظاهِرُ النصّ يُشْعرُ بأنّ المؤمنين يفْرَحُون بانتصار الرُّوم على الْفُرس وهذا الظاهر هو الذي جعل المفسّرين يَقْصُرُون تفسيرهم للنصّ عليه.

وقول الله عزّ وجلّ: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يَصْلُحُ للنبأين، إلَّا أنَّ خَتْمَ الآية باسم الله «الرَّحيم» أكثر مُلاءَمةً لانتصار الرَّسُول والمؤمنين المستضْعَفِين على مشركي مكَّة الّذين كانُوا يضطهدونهم، فانتصار دوْلَةِ الرُّوم على دولة الفرس يومئذٍ يُلائِمَه من أسماء اللَّهِ الحسْنَىٰ اسم الله «الحكيم» أمّا اسم الله «الرحيم» فهو يلائم أحوال المؤمنين المضطهدين المستضعفين، والله أعلم.

● وبعد هذا أبان الله عزّ وجلّ أنّه لا يُخْلفُ الميعاد، فكَمَا سيتحقَّقُ النَّصْر الذي وعَدَ به، وسيُشَاهدونه في بِضْع سنين لَا محالة، فلَا بُدَّ أَنْ يتحقَّقَ وَعْدُ الآخِرَة، ولا بُدَّ أن يتحقّقَ الْبَعْثُ إلى يوم الدّين.

وكان المناسِبُ هُنَا أَنْ يَتحدَّثَ النَّصُّ عن الناس عامَّة، لَا عن مشركي مكَّة يومئذٍ خاصَّة، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

• وإذْ جاء الحديث عن النّاس عامَّةً كان من الحكمة في موضوع قانون الجزاء الرّبّانيِّ المؤجَّلِ إلى يوم الدين، الّذي تَدُلُّ عليه عُقُوباتُ الله المعجَّلَةُ في الدنيا للكافرين، أن يكون الحديثُ عن عُمُوم النَّاس من مختَلِف الشعوب، وفي مقدمتهم أمَّتَا أعظم دولَتَيْنِ يومئذٍ «فارس والرُّوم» فقال الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

في هذا الاستفهام مزيجٌ من التَّلْويم على عدم التفكّر مع الحثِّ عليه، وإشعارٌ لهم بأنَّهُ كان عليهم أنْ يتفكّروا في أنفسهم دون تَنْبيهٍ وَلَا حثٍّ، والشَّيْءُ الذي كان يَنْبَغِي أن يتوصَّلُوا إلَيْه بالتفَكُّر هُوَ أنَّ الخالق البارئ جلَّ جلالُه، مَا خَلَقَ السَّماواتِ والأَرْض إلّا بالْحَق، فَلَمْ يَخْلُقْهُما عبَثاً، فإبْدَاعُهُما، واتْقَانُ صُنْعِهِما، وتَسْخِيرُهُما للنّاس، وجَعْلُ كُلِّ شيءٍ فيهما ذا أجَلٍ تَنْتَهِي عنْدَهُ وظيفَتُه، دليلٌ علىٰ أنَّ السَّمَاواتِ والأرْضَ وما فيهما ومَنْ فيهما مخْلُوقَاتٌ لغاية، والتفكُّرُ في خَلْق النَّاسِ يَدُلُّ على أنَّهُمْ مَخْلُوقونَ للامتحان، والامْتِحانُ يقتضي الجزاء، وبما أنّ الجزاءَ الّذي يُلائم طبيعَةَ الامتحان غَيْرُ متحقِّقٍ فِي ظروف الحياة الدُّنيا، فلا بُدَّ أن يكُونَ في خُطَّة الخالق العليم الحكيم، إيجَادُ ظُرُوفِ حياةٍ أُخْرَىٰ يتحقَّقُ فيها الجزاءُ الأمثل، لكنّ واقع حال الناس كما قال الله عزّ وجلَّ في النصّ: ﴿... وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

• وبَعْدَ هذا نَبَّهَ اللَّهُ عزّ وجلّ على ظاهرة الجزاء المعجّل الدّال عَلَىٰ الجزاء المؤجّل، فقال تعالى في الآيات من سورة (الروم):

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾: أي: وحَرَثُوها للزراعة، ونَقَّبُوا فيها لاسْتِخراجِ مخْزُوناتها ومعادِنِها وكُنُوزها، وأخذ موادّ العمران منها.

وقد جاء في هاتَيْن الآيتَيْن إضافَةُ أنَّ السَّابقين المهلَكِين، قَدْ عَمَرُوا الأرْضَ أكثَرَ ممّا عَمَرَها المشركون المعنيُّونَ بالحديث في النَّصّ، مع تغيير في صياغة بعض العبارات.

**السُّوأىٰ**: مؤنّثُ الأسْوَءِ، فَدَلّتْ على أنّ إساءاتهم قد كانت شديدةً جدّاً تقتضي نظيرها من العقاب.

**الثاني**: قول الله عزّ وجلَّ في سورة (الرُّوم) أيضاً:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

في هٰذه الآية خاطب اللَّهُ عزّ وجلَّ كُلَّ داعٍ إلى الله من أمَّة محمد ﷺ بأسْلُوب الخطاب الإفراديّ، بأنْ يَدْعُو النَّاسَ إلى السَّيْرِ في الأرض، والنظر في عاقبة المشركين من قَبْلِهم.

وأضافت هٰذِهِ الآية بيان أنّ أكثر المهْلَكِينَ السَّابقِين من أهل القرون الماضِيَة كَانُوا مشركين عَبَدَة أَوْثان.



## النَّصُّ الحادي عشر:

قول الله عزّ وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً للمؤمنين ووعْداً ضِمْنيًا لهم بأنّهم سيَنْتَصِرُون وَسَيُهْلِكُ اللَّهُ أعداءهم، مبيّناً لَهُمْ أنَّ هٰذِهِ هي سُنّتُه الّتي أجراها في الأمم الّتي خلَتْ، فعليهم أن يَطْمَئِنُّوا وَيَثِقُوا بِوَعْدِ الله لهم:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾.

هذا النصّ موجَّه للمؤمنين، لتطمينهم وَتَرْبِيَتِهِمْ ودفْعِهم إلى الجهاد في سبيل الله، فقد نزل في المرحلة المدَنيَّة حينماكانت معارك القتال قائمةً بَيْنَهُم وبَيْنَ المشركين، ومنها معركة أُحد.

❁ ❁ ❁

## النصّ الثاني عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (محمد/٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٩ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾.

نزل هذا النَّصُّ المدنيُّ في أجْواءِ قتالٍ قائمٍ بين المؤمنِينَ والكافرين، والحكمةُ البيانيَّةُ التربويَّة تقتضي رَفْعَ الرُّوح المعنويَّة لدىٰ المؤمنين ضِدّ الكافرين، وتقتضِي تَوْهِينَ الكافِرين، وتَثْبيطَهُمْ، وإضْعَافَ قُوَّاتِهِم، وإشعارَهم بأنَّ أعمالَهُمْ قَدْ أَضلَّها الله وجَعَلَها ضائعةً لا تُقدّمُ لهم نَصْراً ولا تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضَرّاً، وقَدْ أحبَطَها فأبْطَلَ تأْثيراتها، فلَمْ تُحقِّقْ أَهْدافَها الَّتي قَصَدُوها منها، فجاء البيان موجّهاً لتحقيق الهدفين معاً.

﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾: أي: فَهلاكاً وخيبَةً لَهُم، يُقال لغة: تَعَس يَتْعَسُ، وتَعِسَ يَتْعَسُ تَعْساً فهو تاعِسٌ، وتَعِسٌ وتَعِيسٌ، أي: هَلَكَ. وهذا أمْرٌ من اللَّهِ بأن يَهْلكوا، فهو أمْرٌ نافذ لا محالة في الأجَل المقدّر له.

﴿وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾: أي: وجَعَلَ أعمالهم الّتي اجْتَهَدُوا في تدبيرها ضِدَّ المؤمنين ضَالَّةً ضائِعة، لَا تَجِدُ الأهداف الّتي دُبِّرَتْ مِنْ أَجْلها لتوغُّلِها في الضَّياع.

وأضاف هذا النصّ فكرة أَنّ الله دَمَّرَ علىٰ الكافرِين الأوّلين مُدَنَهُمْ وقُراهم وحُصُونهم، وهذا يَنْطَبِقُ على كُفَّارِ عَادٍ وثَمُودَ وأمْثَالِهم، لكِنَّ كافِرِينَ آخَرِين أُهْلِكُوا وبقيت قراهم خاوية وباقية على عروشها، وبَقِيتْ لهم قصور مشيدة، كما سيأتي في النصّ الثالث عشر.

وأضاف هذا النصّ أيضاً أنّ لكُلّ الكافِرِين الَّذِين يُصِرُّونَ على كُفْرِهم وطغيانهم بِشَكْلٍ جماعيّ غالِب، والّذين يتتابَعُونَ في التاريخ، أمثال الأحداث التدمِيريَّةِ الَّتِي أنزلَها الله على الكافرين السابقين.

وجاء في آخر النّصّ إضافةُ تعليل نَصْرِ المؤمنين وإهلاك الكافرين بأنّ الله مَوْلَىٰ الّذينَ آمَنُوا، وأَنَّ الكافِرِين لا مَوْلَىٰ لهم، أي: لا نَصِير لهم يَنْصُرُهم بخلاف المؤمنين.

## النصّ الثالث عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٢ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ بشأن الّذين كذَّبُوه من قومه، وهو الخطاب الأخير له في هذا الموضوع:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

- فجاء في هذا النّصّ تفصيل لبَعْضِ الأقوام الْمُهْلَكَة الّتي كذَّبَتْ رُسُلَ رَبّها، وهذا التَّفصيل لم يأت في النصوص السابقة بشأن موضوع هذا الملحق.

• وجاء فيه بيانُ أنَّ الله عزّ وجلّ أمْلَىٰ للكافِرِينَ وأمْهَلَهُم، ثُمَّ أَخَذَهُم بالعذاب والإهلاك العامّ الشامل، وهذا البيان الواضح لم يأتِ في النُّصُوصِ السَّابقة.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾: أُطْلِقَ لفظ ﴿قَرْيَةٍ﴾ والمرادُ أهْلُهَا، وهُوَ مِنْ إطْلاق اسم المحلّ على الحالّ فِيه على سبيل المجاز المرسل.

أي: فَعَدَدٌ كَثِيرٌ من القرىٰ أهلَكَها اللّهُ وهِي ظالِمَةٌ بِكُفرِها وتكْذِيبها رُسُل رَبّها.

والمعنى: أنّه لم يكن إهلاكُها بَعْدَ إمْهَالِهَا الطويل إلّا وهي ظالمة مستمرَّة على ظلمها. والإمهال دلَّ عليه: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ نَكِيرِ: بحذف ياء المتكلم، أي: إنكاري، والمرادُ فكيف كانَ عقابي، ألم يكن عقاباً شديداً مؤلماً مُهْلِكاً إهلاكاً عامًّا شاملاً، إنّ إنكار القادر على العقاب والانتقام يَدُلُّ على عقابه وانتقامه.

**كَأَيِّنْ**: اسم مركَّبٌ من كاف التَّشْبِيهِ و«أيٍّ» المنوّنة، ومعناهُ التكثير، وهو بمعنى «كم».

﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾: أي: فهي فَارِغَةٌ لَا سَاكِنَ فيها.

﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: الْعُرُوش جَمْعُ الْعَرْش، وهو كُلُّ مَا يُسْتَظَلُّ به، ويُطْلَقُ على السَّقْف، وهذه العبارة تَصْلُح لأن تُفَسَّرَ بأنَّ القرىٰ المعنيّة بَاقِيةٌ على عُرُوشِها، وهذا المعنىٰ يتلاءم مع: ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ ومَعَ ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾. وَتَصْلُحُ لأنْ تُفَسَّرَ بأنّها ساقِطَةٌ متهاوية على عُرُوشها، وهذا المعنَىٰ يُلائِمُ وَاقِعَ حَالِ كثيرٍ من القرىٰ الّتي أهْلَكَ اللّهُ أهْلَها، ودَمَّرَ مَا دَمَّر منها، لكنّ فكرة تكامل النصوص القرآنية ترجّحُ حمْلَ هذا النّصّ على القرىٰ التي بقي من آثارها عروش لم تسقط، وقصورٌ مشيدة، وآبارٌ معطّلة.

﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾: أي: وقَصْرٍ مُحْكَمِ البناء مَطْلِيٍّ بالشِّيد. **الشِّيدُ**: كُلُّ مَا يُطْلَىٰ بِهِ البناء من جِصٍّ ونَحْوه.

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾.

في هذه الآية تَلْوِيمٌ للمعنيّين بالبيان ويَنْسَحِبُ على أمثالهم، بسَبَب عَدَم استعمالهم قُلُوبَهُمْ، (أي: مراكز الْفِكْرِ والإدْراك والفهم والعقل لدَيْهِم) فيما خُلِقَتْ له من إدراك حقائق الأمور، وعَدَم اسْتِعْمالِهِمْ آذانهم في سَمَاعِ أخْبار أهل القرون الأولى والاتّعاظ بها، وكذلك عدم استعمال أعينهم في إبصار آيات الله في كونه، دلَّ على هذا ما يلي.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾: أي؛ عن إدراك الحقِّ وصراط الْهُدىٰ، لأنَّ عمَىٰ الأبصار يَحْجُبُ عن أصحابها رُؤيَةَ الأشياء المادّية بحُجُومها وألوانها، ولَا يحْجُبُ عَنْهُمْ إدْرَاكَ الحق، وإدراك صراط الهدىٰ.

﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾: أي: ولكِنَّ مَرَاكِزَ الفكر والْفَهْمِ والْعَقْلِ هي الّتِي تَعْمَىٰ عن إدْراكِ الحقّ، وإدراك صراط الهدى، بانْصِرافها إلى ظاهراتِ من الحياة الدنيا، وبإعراضها وإدْبارها عن التفكير فيما خُلقَتَ له.

وبهذا انتهى الملحق الثاني، والحمْدُ لله على معونته وتوفيقه وفتحه.



## (١٧)

## الملحق الثالث

## توحيد الرّبُوبيّة وتوحيد الإلَهيّة في الدلالات القرآنية

### أوّلاً: مفهومات تأسيسية:

#### ١ ـ حول الإلَهيّة والألُوهيّة

يخطِئُ كثير من المتحدّثين والكاتبين، وقد كنْتُ واحداً من هؤلاء المخطئين، فيُطْلِقُونَ عبارة توحيد الألوهيَّةِ على معْنَىٰ تَفرُّدِ اللَّهِ عزَّ وَجَلَّ

بأنَّهُ الإلَه، الَّذِي لا إلَه (أيْ: لا معْبُودَ بحَقٍّ) سِوَاه، مع أنّ الأُلُوهيَّة في بيانَاتِ عُلَماءِ اللُّغَةِ هِيَ الْعِبادة، ومعْلُومٌ أنَّ العبادَةَ من صِفَاتِ الْعِبَاد، لَا من صفات المعبود، فالعبادةُ شيءٌ، وكونُ المعْبُودِ هو الإلَه المسْتَحِقَّ للعبادة بوصْفِ كوْنِهِ رَبًّا شَيْءٌ آخَرُ.

والمصْدَرُ الصناعِيُّ الّذي يُصَاغُ من كَلِمة: (إلَه) هو لَفْظُ (الإلَهيَّة).

وسَتَأْتي إنْ شَاءَ اللَّهُ الْبَيَانَاتُ اللُّغَوِيَّة الَّتي تُحَرِّرُ هذه المسألة، وتَهْدِي إِلَىٰ ضَبْطِ الْألْفَاظ لتَحْدِيدِ المفهومات المرادات فيها.

إنّ منهج علماء المسلمين في تحديد معاني الألفاظ اللّغويّة والاصطلاحيّة بالتعريفات، هو المنهج الذي حَمَىٰ العلوم الإسلاميّة من المتلاعبين الْمُحَرِّفِينَ، الّذين يَكْسِرُونَ حُدُودَ الألفاظ اللُّغَوِيَّة والاصطلاحيَّةِ، لإِدْخالِ مَا يُرِيدُونَ إِدْخالَهُ من المعاني تزييفاً، ولإخراج ما يُرِيدُونَ إخراجَهُ من المعاني تحريفاً.

❁ ❁ ❁

## ٢ ـ حول عقائد كفَّارِ العرب في جاهليتهم

ويخطئُ الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنّ جميع العرب في جاهليَّتهم كانُوا يؤمنون بتَوْحيد الرُّبوبيَّة لله عزّ وجلّ، إلّا أَنَّهم يعبدون مع الله آلهةً أُخرىٰ فيجعلونها شركاءَ للَّهِ في إلَهيَّته، دون أنْ يَجْعَلُوها شُركاء للَّهِ في ربوبيّته.

● بيْدَ أنّ النُّصوص القرآنيَّة تبيّن أنّ أكْثَرَ الْعَرب كانُوا يَجْعلون مع الله شُركاءَ في بَعْضِ عناصر رُبُوبيّته، لا في كلّ عناصر ربوبيّته وصفاتها، وبسبب هذا كانوا يلْتَمِسُونَ من شركائهم الرَّحْمَةَ والرّزْقَ والنَّصر وكثيراً من مطالبهم في الحياة الدُّنْيا، وهم يُوجّهون عباداتهم لآلهتهم، طمعاً في أن يحقِّقوا لَهُمْ ما يَرْجون بَمعُوناتٍ غَيْبيَّةٍ، هِيَ من خصائص الرَّبّ الخالِقِ الذي بيده مقاليد كلّ شيء، وهُوَ علَىٰ كلّ شيءٍ قَدِير.

ومناظرة هؤلاء تكون بإقْنَاعهم بأنّ كُلَّ عناصِرِ الربُوبيَّةِ وصفاتها هي لله عزّ وجلّ وَحْدَه، ومنها الرّزْقُ والنَّصْر وهِبَةُ الذّرّيّةِ الصالحة، وتحقيق أيّ مطلب من مطالب الحياة الدنيا بقُدْرَةٍ وَمَعُونَةٍ غيبيّة، فآلِهَتُهم الّتي يعبُدونها من دون الله عزّ وجلّ لَا تَمْلِكُ لَهُمْ رزْقاً، ولَا تَسْتَطِيعُ أن تنصُرهم إذا اسْتَنْصَرُوا بها، ولا تكُونُ لهم عِزّاً، ولا تَهَبُهُمْ ذُرّيَّةً يحبُّونها.

واعتقاد أنّها تفعل لهم شيئاً من ذلك هو شِرْكٌ ببعض عناصر الرُّبوبيّة، الّتي ليس شيءٌ منْها لغير الله عزّ وجلّ، وسبحانَهُ وتعالى عمّا يصِفُون.

وسيأتي شرْحُ هذا وتفصيله من خلال دلالات النصوص القرآنيّة إن شاء الله.

• وبعض العرب في جاهليّتهم كانوا يَعْبُدون آلهتهم على عادة آبائهم وأجدادهم، وتَطْغَىٰ على تَوَهّمَاتهم أنَّ هٰذِه العبادة تَنْفَعُهم في أمور دنياهم.

ولدى إقامة الحجَّةِ عليهم بأنّ آلهتهم الّتي جعلُوها شُرَكَاءَ لله جلّ جلاله، لا تَمْلِكُ لَهُمْ جَلْبَ نَفْعٍ وَلَا حَجْبَهُ، ولا دفْعَ ضُرٍّ ولا إنْزَالَهُ بهم، ثم حينما لا يَجِدُونَ جواباً مقنعاً لأولي الألباب، يقولُون: ما نَعْبُدُهم إلّا ليُقَرّبُونا إلى اللَّهِ زُلْفَىٰ، أو ليكونوا شُفَعاءَنا عند الله.

ومُنَاظرةُ هؤلاء تكونُ بمطالَبَتِهِمْ بنَصّ صحيحٍ عن الله عزّ وجلّ صاحِب الحقّ الأَوْحَد في العبادة، يأْذَنُ لهم بأنْ يَعْبُدوا آلِهَتَهُم، ويُبَيّنُ لهم أنَّ عبادتهم لآلهتِهِمْ تُقَرّبُهُمْ إلى الله زلْفَىٰ، أو يكونُون بها شُفَعَاءهم عند الله، حتى يكونَ لديْهِمْ من اللَّهِ برهانٌ يحتَجُّونَ به عند الناس، ويَعْتَذِرُون به عند ربهم.

• وبعض العرب في جاهليَّتهم كانُوا دهريّين، يتَوَهَّمُونَ أنّ الكون أزليٌّ أبَدِيٌّ لا أوّلَ لَهُ ولا آخر، ولا تُوجَدُ حياةٌ أخرى غيْرُ هٰذه الحياة

الدُّنيا، ويَرَوْنَ أنّ التغيُّراتِ في الكون ترجعُ إلى أسباب تتولّد فيه بمرور الزمن، ويَرَوْن أنَّ هلاكَ النّاس (أي: موتهم) يحْدُثُ بمرور الزمن في إحداث التغيُّرات.

وهؤلاء قد اتَّخذُوا آلِهتَهُمْ أهْواءَهم، وأنْكرُوا اللّٰهَ واليوم الآخِر، وأبْعَدُوا عن تصوُّراتهم ضَرُورةَ العدْلِ في الوجود، وضَرُورة الحساب والجزاء، وقد عرض الله عزّ وجلّ عقيدتهم، وذكر مقالَتَهُم الدَّهرية، فقال تعالى في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول):

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

ونظير هؤلاء الدّهريين السابقين في عقائدهم ومفهوماتهم الباطلات، دَهْرِيُّونَ آخَرُون مُعَاصِرُونَ، يُعْرَفُونَ بعنوان: «الملاحدة المادّيّون».

وهؤلاء الملاحدة المادّيون يفترون على الحقائق العلميّة، فيدَّعُون أزليَّةَ المادّة، وأنّ التغيُّرَاتِ في الكون تنتج عن حركة ذرّات المادّة وأجزائها مع مُرُور الزمن، وما يَحْدُثُ فيها من مُصَادَفاتِ تلاقٍ وافتراقٍ بينها.

أمّا الماركسيُّون فيضيفُونَ إلىٰ هٰذه الفكرةِ أكْذُوبَةَ صِرَاعِ الأضْدَاد والمتناقضات في أجزاء المادّة. ويَزْعُمونَ أنَّ هٰذَا الصّراع ينتُجُ عَنْهُ نُشُوءٌ جديدٌ لكائناتٍ لم تَكُنْ فيما مضىٰ، وارتقاءٌ إلىٰ الأحْسَنِ والأكْمَلِ في النَّاشئات الجديدات، ويفترُونَ على الحقائقِ العلميَّة، فيدَّعُونَ أنَّ الحياةَ نَتِيجَةٌ طبيعيَّةٌ لتكوُّنِ أجْزَاء المادَّة بصورة خاصَّةٍ، ومع أنَّ الواقع العلميَّ كذَّبَهُمْ في فِرْيَتِهِمْ هٰذِهِ وفي كلّ الدوائر العلميّة في العالم، إلَّا أَنَّهم ما زالوا يُصِرُّونَ علىٰ الأخْذِ بفكْرَتِهِمْ مبدأً فلْسَفِيًّا، ولو كان الواقع الكونِيُّ علىٰ خلافه.

## ٣ ـ الربوبيّة هي الأسَاسُ العقْلِيُّ الّذِي تُبْنَىٰ عليه الإلَهيّة

من كانت له رُبُوبيَّةٌ مَا، فَمِنْ حَقِّهِ على مَرْبوبيه أن يؤلِّهوهُ، أي: أن يَعْبُدوه على مقدار ماله من ربُوبيّة.

إنَّ حَقَّ الإلَهيَّة يستَنِدُ عقلاً إلى ما للإلَه المعبُود من رُبُوبيَّة، ومَنْ لَيْسَ له رُبوبيَّةٌ ما، فتوجيه العبادة له ظُلْمٌ عظيم لحقِّ من له الرُّبوبيّة.

إذا كان إنسَانٌ ما مَمْلُوكَ الذَّاتِ أَو مَمْلُوكَ الوقْتِ والطّاقاتِ لمالكٍ ما، يُنْفِقُ عليه ويُقَدِّم له كلّ حاجات حياته، فوجَّه هذا المملوكُ طاعَتَه وخَدَماتِه كُلَّها أو بعْضَها لغَيْرِ مَالِكِهِ، دُونَ تكليفٍ أَوْ إذْنٍ من مالكه، أفلا يكونُ ظالماً ظُلْماً عظيماً لحقِّ مالكِهِ عليه.

بأيّ حقٍّ يَتَصَرَّفُ هٰذَا المملوك حينما يبْذُلُ مَا هُو حقٌّ لمالِكِهِ، فيُوجِّهُه لمَنْ جعَلَهُ هو كذِباً وزوراً نِدّاً لمالكه، أو شريكاً له؟!

إنّ أَحدَنا لَيَسْخَطُ سخطاً عظيماً من أجيرٍ عنده، يأخُذُ مِنْهُ الأجْرَ، ثُمَّ يَرَىٰ أنّ أجيره يَبْذُلُ طاقاتِ عَمَلِهِ لغَيْرِه، ويَزْدَادُ سَخَطُنَا إذا جَعَلَ من يَبْذُلُ طَاقات عَمَله له نِدًّا لَنَا أو شريكاً، وهذا النِّدُّ أو الشّريكُ لا ينْفَعُ أجيرَنَا بشيْءٍ، فلَا يَجْلُبُ له نَفْعاً، ولا يَدْفَعُ عَنْهُ ضرًّا، وليس لدَيْه حَوْلٌ ولا قُوَّةٌ حتَّىٰ يَخْشَىٰ ضُرَّهُ أو بأْسَه.

هذا مثال اتّخاذ إلَه أو آلهةٍ من دُون الله، تُعْبَدُ كَعِبَادَةِ الله، على سَبيلِ الانفراد أو على سَبيلِ المشاركة.

إنَّ الرُّبوبيَّةَ الْمُمِدَّة بعطاءاتها دواماً هي لله وحده لا شريكَ له فيها، ومن حقِّ رُبوبيّتِه لَنَا ولسائر الكائناتِ من دُونه، والتفرُّدِ بها، أن نَجْعَلَهُ هو الإلَه المعبود فقط، وأنْ لا نَتَّخِذَ من دونه إلَهاً آخَرَ أَوْ آلِهَةً أُخْرَىٰ، لأنَّهُ هو المالك لَنَا بمقتضى ربوبيّته، وهو الآمر الناهي الملِكُ ذو السُّلْطان الأوحد.

إنّ الله عزّ وجلّ هو مانِحُ الوجود لكل مَوْجودٍ سواه، وهو مانِحُ الحياة لكلّ حيٍّ سواه، وهو الممِدُّ بالبقاء لكلِّ باقٍ في الوجود سواه، وقد جعل لمخلوقاته آجالاً معلومة له ومُسَمّاةً عنده، وهو الرزّاق، وهو المميت، وهو القابض والباسط، وهو المحاسِبُ والمجازي بالفضل أو بالعدل، وهو المتصرّفُ دواماً في كلِّ ذرّة من ذرّات الموجودات كلّها، وفي كلّ جزءٍ زمنيٍّ يمُرُّ بها.

وهو جلّ وعَلَا الّذِي خلَقَنَا لِيَبْلُوَنا في ظروف الحياة الدنيا، وصُوَرُ امتحانه لنا ترجع إلى القواعد التالية:

**القاعدة الأولى**: الإيمان بالله رَبًّا لَا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبيته، إذْ لَا رَبَّ في الوجود غَيْرُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالَهُ، لا على سَبيل الانْفِرَاد، ولا على سبيل المشاركة.

فالإيمانُ بأَنَّ الرَّبَّ في الوجود واحِدٌ هو اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ، اعْتِرافٌ بالحقِّ، وإِذْعَانٌ له.

وإسْنَادُ الرُّبُوبيَّةِ كُلِّها أو جُزْءٍ منها إلى غير اللَّهِ عزّ وجلَّ أَمْرٌ باطل، وهو في الحقيقة كُفْرٌ بالله، ومِنْ هذا الكُفْرِ اعْتِقَادُ تَأْثير الأَسْبَابِ تأثيراً ذَاتِيًّا في مُسَبَّبَاتِها، من دُونِ خَلْقِ اللَّهِ وقضائِهِ وقَدَرِه.

**القاعدة الثانية**: الإيمانُ بأنَّ الله عزَّ وجلَّ هُو وَحْدَهُ الإلَه المسْتَحِقُّ للعبادة، لأَنَّهُ هُو وَحْدَهُ الرَّبُّ المتصرّفُ في الكائناتِ ابتداءً ودَواماً حتَّىٰ غايات آجالها في الوجود.

وهٰذه القاعدة مبنيَّةٌ بناءً عقْلِيًّا مَنْطقِيًّا على القاعدة الأولى، فَهِي تُمثِّل اللّازم الفكْرِيَّ الْأَوّلَ لَكَوْنِ الله جلَّ جَلالُه هُوَ الرَّبَّ الّذي لا رَبَّ في الوجود سواه.

وإذْ لا يُوجَدُ أَحَدٌ في الوجود كُلّه يشارك الله تبارك وتَعالىٰ في كلّ

عناصر رُبُوبيَّتِه أو في بَعْضِها، مهْمَا قلَّتْ وضَؤُلَتْ، فإنّه لَا يُوجَدُ أَحَدٌ سَوَىٰ اللَّهِ عزّ وجَلّ يَسْتَحِقُّ أن يكون إلَهاً يُعْبَدُ، لا على سَبِيلِ الانفراد، ولا عَلَىٰ سبيل المشاركةِ للَّهِ سُبْحَانَهُ في إلَهيَّتِه، لأنّه هو المالك الأوحد لمخلوقاته، وهو الملك ذو الأمر والنهي والسلطان.

هٰذه قضيَّةٌ عقليَّةٌ لَا يُخَالفُ فيها إلَّا جاهِلٌ، أَوْ أَحْمَقُ، أو ضِلِّيلٌ زِنْدِيق.

**القاعدة الثالثة**: إعلانُ الموضُوعِ مَوْضِعَ الامتحان في الحياة الدُّنيا، أَنَّهُ «لَا إِلَهَ إِلَّا الله» وهذا الإعلان هُو التعبير عن الإيمان بما جاء في القاعِدَتَيْنِ الأولَىٰ والثانية، وهو تعبير واجبٌ على من استطاعه، فَمَنِ اسْتَطَاعَهُ ولم يفْعَلْهُ فهو مُسْتنِكفٌ عن الاعْتِرافِ جاحِدٌ، متأثِّرٌ بدافعٍ خبيثٍ من دوافع النَّفْسِ والْهَوَىٰ.

ولا بُدَّ أنْ نُدْرِكَ أنّ عبارة التوحيد «لا إلَه إلَّا الله» تسْتَلْزِمُ عقْلاً سَبْقَ الإيمانِ بأَنَّهُ لا رَبَّ إلّا الله، فعبارة (لا إلَه إلّا الله) تتضمّنُ باللُّزُوم الفكريّ الإعلانَ بأَنَّهُ لَا رَبَّ إلّا الله.

وهذا نظير مَنْ أعلَنَ أنّه ابْنُ فاطِمَةَ بنت رسول اللَّهِ ﷺ، فإنّ كَلَامَهُ هذا يتَضَمَّنُ الإعْلانَ بأَنَّهُ حَفِيدُ رسول الله ﷺ، إنّ هَذَا يُفْهَمُ باللُّزُوم العقْلِيّ حَتْماً، فلا حاجَةَ إلىٰ التصريح به، والتصريح به فُضُولٌ مِنَ القولَ.

**القاعدة الرابعة**: إعْلَانُ الطَّاعة على مقدار الاستطاعة، ومن المعلوم بداهَةً أنّ الطاعَةَ للَّهِ مِنْ أوَّل عَنَاصِرِ عبادته.

**القاعدة الخامسة**: تقديمُ الدّليل العمليّ الدّالّ على صِدْقِ إعلان الطاعة، بأداء من أعلن طاعته عباداتٍ نفسيَّةً وجَسَدِيَّةً خالِصَةً لله وحْدَه لا شَرِيكَ له، فيكون بأدائه هذه العبادات قد كَسَبَ بإيمانه خيراً ما.

بتحقيق هذه القواعد الخمس يتِمُّ النجاح للممتحنين في ظروف الحياة

الدنيا، والخلاص من رذيلَة الكُفْرِ، الّذي يُعْتَبر الإشراكُ بالله في إلَهيَّتِهِ أولَىٰ دركاتِهِ وأخفها جُرْماً، وتنْحَدِرُ مِنْ دُونِها الدَّرَكَاتُ، حتَّىٰ دَرَكَةِ إنكار رُبوبيَّةِ اللَّهِ عزّ وجلَّ إنْكاراً كُلِّيًّا، على اختلاف ذرائع الإنكار، ودوافِعِه في النفس.

ومن أراد أن يَرْقى في الدرجات ليسْتَحق النجاة من عذاب الله، فعلَيْهِ أن يَسْتَكْملَ حقوقَ مرتبة التقوى بأداء الواجبات وترك المحرّمات.

ومن أراد أن يَرْقَى فوق دَرجات مَرْتَبَةِ التقوىٰ، ليستحقّ الرُّقِيَّ في دَرَجات الجنَّةِ الصاعدات، بفِعْلِ القربات والصالحات من غير الواجبات، وبترك المكروهات وغير المستحبّات من غير المحرّمات، فليستكثِرْ من أعمال البرّ، صاعداً في درجات الأبْرار.

ومن أرادَ أن يَرْقَىٰ فَوْقَ دَرَجات البرِّ، ليستَحِقَّ في الجنَّةِ منازِلَ المحسنين، فلْيَعْبُدِ اللَّهَ كأنَّهُ يَراه، وبهٰذه العبادة يَرْتَقِي في دَرَجَات الإحْسان، الَّتِي يَحْتَلُّ قِمَمَهَا المرسَلُونَ والأنْبَياءُ والصالِحُون الْمُحْسِنُون، بحَسَب دَرَجاتِ إحسانهم، في رِحْلَة امتحانِهِمْ في الحياة الدنيا.

هذا ما تَسْتَدْعيه الحكمةُ العظمىٰ، من خَلْقِ الناس ممتحنين في ظروف الحياة الدنيا.

❁ ❁ ❁

### ٤ ـ منهج القرآن في إثبات الربوبيَّة لله عزّ وجل وحْدَه

مُتَتَبّع النُّصُوص القرآنيَّة يُلاحِظُ أنّ منهج القرآن الكريم في إثْباتِ أنّ الله عزّ وجلّ ربُّ السَّماوات والأرض وربُّ كلِّ شيْءٍ في الكائنات الحادثات، خلْقاً وإمْدَاداً وَتَصرُّفاً دواماً، وفي إثبات أنَّه واحدٌ في ربوبيَّته لا يُشَارِكه فيها أحَدٌ، يعْتَمَدُ على توجيه أنظار المتفكّرين للنظر في آياتِ الله

في أنفُسِهم، وفي آياته في سائر الأكْوَان في السماوات وفي الأرض وفيما بَيْنَها، إذْ جعل الله عزّ وجلّ في كلّ شيءٍ خلقَه آياتٍ تدُلُّ علَىٰ أنّ له ربًّا يتَصَرَّفُ فيه بربوبيته دواماً، وتدُلُّ علَىٰ أنَّ هذا الرّبّ للكائنات كُلِّها واحدٌ لا شريك له.

إذْ لو تعدَّدتِ الآلِهَةُ الأرْبابُ في الكَوْنِ لفَسَدَتِ الكائنات في السماوات وفي الأرض وفيما بينها، إذْ هي خاضِعَاتٌ جَمِيعُها لنظام واحدٍ، من أصْغَرِ ذرَّةٍ فيها إلى أكْبَر مجرَّةٍ.

إنَّ تكوين الكائنات في الوجود كلِّه سِوَىٰ اللَّهِ يَدُلُّ على أَنَّ لَهَا خَالقاً ابتدأ إيجادَها، وهو ربُّها الذي يُمِدُّها بالبقاء دواماً، ويتصرَّف فيها دواماً بحكْمَتِه على ما يشاء، ضِمْن صِفَات ربُوبيَّتِه لها، ذوات الآثار المختلفات، إيجاداً أو إعداماً، زيادةً أو نقصاً، عطاءً أوْ منْعاً، بسْطاً أو قبضاً، نفعاً أو ضرًّا، إلىٰ غير ذلك ممّا يجري فيها من أحداثٍ وتغيُّرات.

والنصوص القرآنيَّةُ المشتملة على هذا المنهج إجمالاً وتفصيلاً كثيرة جدًّا، ولعلّها تُعَادِلُ رُبْعَ القرآن الكريم أو أكثر.

❃ ❃ ❃

## ٥ ـ منهج القرآن الكريم للإقناع بتوحيد الإلَهيَّة لله عزَّ وجَلّ

لمَّا كانَت الإلَهيَّةُ هي اللّازم العقليّ المباشِرَ للرُّبُوبيَّة، وكانَتِ الرُّبوبيَّةُ في الوجود كُلِّهِ للَّهِ وحْدَهُ لا شريكَ لَهُ فيها، وجَبَ عقْلاً وُجوباً حتميًّا أنْ تكُونَ الإلَهيَّةُ خاصَّةً باللَّهِ وحْدَهُ، لا يُشاركُهُ فيها أحدٌ، كما سبَقَ بيانُ هذا.

ومن أجْلِ هٰذِهِ الحقيقَةِ كان منْهَجُ القرآن الكريم، للإقناع بتوحيد الإلَهيَّةِ لله وحْدَهُ لا شريك له، يعْتَمِد على تذكير ذوي الفكر بتوحِيدِ

الرُّبوبيَّة للَّهِ عزّ وجلّ، وأنَّه لَا شريك له في رُبُوبيّته، أو على تَنْبيهِهم على هذه الحقيقة، ويَعْتَمِدُ في بَعْضِ النُّصوصِ على اسْتِئْنافِ عَرْضِ أَدِلَّةٍ تُثْبِتُ أنَّ الرُّبوبيَّةَ في الوجود كُلِّه للَّهِ وَحْدَهُ لا شريك له، وَتُرَاعَىٰ في هٰذَا التَّنْويع مُقْتَضيَاتُ أحوالِ المخاطبين إبَّانَ نُزُولِ النَّصّ.

- فَقِسْمٌ من المخاطَبين يكْفِي بالنِّسْبَةِ إليهم التذكير.
- وقِسْمٌ آخَرُ يحْتَاجُ إلىٰ تَنْبيهٍ لأنّه مستغرقٌ في غَفْلَتِه.
- وقِسْمٌ ثالِثٌ يحْتَاجُ إلى اسْتِئْنَافِ عرض طائفةٍ من الأدلة عليه، ومناظرته مُنَاظَرَةً عقليَّةً علميَّةً مُقْنِعةً، أَوْ مُلْزِمَةً، أو مُفْحِمَة.

وسيأتي إن شاء الله لدى استعراض وَتَدَبُّر النُّصُوصِ القرآنيَّةِ، المبيِّنَةِ لهذا المنهج القرآنيّ، ما يكشف حِكْمَة هٰذَا المنْهَج، ويكْشِفُ وجُوهَهُ التذكيريَّة والتَّنْبيهيَّة والإقناعيَّة لأهْل التفكّر والتدبُّر.

ولا يطْمَعَنَ مُمَاحِكٌ مُجَادِلٌ بالسَّفْسَطَاتِ، في أَنْ يَجِدَ دليلاً واحداً عَلَىٰ توحِيدِ الإلَهيَّة للَّهِ عَزَّ وجلَّ، غَيْرَ دَلِيلِ إثْباتِ توحِيدِ الرُّبوبيَّةِ له، ثُمَّ يَنْتَقِلُ مُبَاشَرَةً إلَىٰ بيان أنّ اللّازِمَ العقْلِيَّ الحتْمِيَّ لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبيَّةِ، هو توحيدُ الإلَهيَّة لِمَنْ هُوَ الرَّبُّ الّذي لَا شريكَ لَهُ في رُبوبيَّته.

إنّ المشركين قد اتَّخذُوا آلِهةً يَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ الله، فهٰذِهِ الآلِهَةُ المعبودة مَوْجودَةٌ في الواقع، ومُمَثَّلَةٌ عِنْدَ المشركين بتماثيل، ولا يُسْتَطَاعُ نَفْيُ وُجودِها، لكنَّها ليْسَتْ في الواقع أرْبَاباً، ولَا شُرَكَاءَ لِلَّهِ في رُبُوبيَّتِه، ولَا أذِنَ اللَّهُ بعِبَادَتِهَا تَقَرُّباً إلَيْهِ، بَلْ نَهَىٰ عَنْ عبادَتِهَا نَهْياً يُوقِعُ مخالِفَهُ في الشِّرْكِ، الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ، وقد بَعَثَ اللَّهِ بِهِ كُلَّ الرُّسُلِ، وأَبَانَهُ في كُلِّ ما أنْزَلَ مِنْ كِتَاب.

❀ ❀ ❀

## ثانياً: معنى الربوبيّة:

**الرُّبوبيّة**: اسم مصوغ للدّلالة على الصفات التي يتَّصِفُ بها الرب الخالق جلّ جلاله، أي: الصفات التي تُفهَمُ من معنى كَونِه رَبّاً كما سيأتي في معنى كلمة «الرّبّ».

**الرَّب**: كلمة هي في الأصل مصدَرُ فعل «رَبَّ». يُقال لغةً: ربَّ فلانٌ الولَدَ أو الصبِيَّ أو المُهرَ مثلاً يَرُبُّهُ رَبّاً. كما يقال: رَبَّاه يُربيّهِ تربيةً. وكما يُقالُ: ربَّبهُ يُرَبّبُهُ تربيباً.

فكلمات: «الرَّبّ ـ والتربية ـ والتَّرْبِيب» مصادر لأفعالٍ مختلفة في صِيَغِها ومعناها واحد، وهو الإنشاء المتدرّج للشيء حيّاً كان أم غير ذي حياة، وتَعَهُّدُ الشيءِ حالاً فحالاً، وطوراً فطوراً، بحسب فطرته واستعداداته، فيشمل هذا التعهُّد بعموم معناه التغذيَةَ، والتنمية، والإرشاد، والإصلاح، والتقويم، والحفظ، والرعاية، والتأديب، والتهذيب، والتعليم إذا كان المُربَّى يحتاج تأديباً أو تهذيباً أو تعليماً، ويشمَلُ الإمداد المستمرّ بما يحتاج إليه لبقائه وسلامته، إلى غير ذلك من مفاهيم يدركها الباحثون في مجالات التربية والتعليم.

وهذه التربية تتناول الأحياء والنباتات والأشياء غير ذات الحياة، من كلّ ما يحتاج لبقائه أو سلامته تعهُّداً وإمداداً، أو رعاية وحفظاً.

ثم استعيرت كلمة «الرّبّ» من المصدريّة إلى اسم الفاعل، فصارت تطلَق كلمة «الرب» بمعنى «المُربّي».

ونظراً إلى معنى التربية ولوازمها أطلقت كلمة «الرّب» في لسان العرب على معانٍ كثيرة، منها: «المَلِك ـ الأمير ـ السيّد المطاع ـ مالِكُ الشيء أو مستحقه (فَربُّ كل شيء مالكه أو مستحقه) ـ المدبّر ـ القيّم ـ المُنعِم ـ المُصلِح للشيء ـ المنمّي للشيء» إلى غير هذه المعاني ممّايشبهها وتدخُلُ ضمن المفهوم العامّ للتربية.

ولمّا كانت التّربية الحقيقية لكل شيءٍ في الوجود سوى الله عزّ وجلّ، سواء بخلقه ابتداءً أم بمتابعة بقائه وإمداده ورعايته وتنميته دواماً صفةً من صفات الله عزّ وجلّ كان سبحانه هو رَبّ العالمين، ورَبّ كل شيءٍ.

ولهذا جاء وصفُهُ في القرآن المجيد بأنه: «رَبُّ العالمين - ورَبُّ كُل شيءٍ - وربُّ السماوات والأرض - ورَبُّ السماوات السَّبع وربُّ العرشِ العظيم - ورب الشِّعْرَى (نجم كان يُعبَدُ في الجاهلية) - ورب المشرق والمغرب - ورب المشرقين والمغربين - ورب المشارق والمغارب - وربُّ الفَلَق - وربُّ الناس - وربُّ البيت (أي: الكعبة المشرفة)».

فالرّبوبية هي الوصف الجامع لكلِّ صفات الله ذات العلاقة والأثر في مخلوقاته، واسم «الرَّبّ» هو الاسم الدّالّ على كل هذه الصفات.

وهنا نلاحظ أن الله جل جلاله قد اختار بعلمه وحكمته لعمليات خلقه وإبداعه لمخلوقاته، وهيمنته على كل ما خَلَق بدءاً ودَواماً أن يكون على نظام التربية التي سبق شرح معانيها، لا على نظام الخلق دفعة واحدة، ثُمَّ ترْكِ المخلوقِ يسير وفق البرنامج الموضوع له، دون إمداد ورعاية وحفظ وتعهُّدٍ من خالقه، بل خلَقَ الخلْقَ وفق نظام لا يستغني فيه المخلوق عن خالقه طرفةَ عين، ولا أقلّ من ذلك، في كلّ صغير وكبير من ذاته ومن صفاته، فلو رفع إمداده عن كونه وإمساكَهُ له في الوجود خلال أقصر زمنٍ لَعادَت الموجوداتُ إلى أصلِها وهو العدم، هذا النظام هو نظام التربية، فلِلَّهِ عزّ وجلّ الرّبُوبية المستمرة التي لا تنقطع، والمؤثرة بكل شيءٍ في الكون من غيبيّ ومشهود، مادّيّ ومعنوي.

دلّ على هذه الحقيقة قول الله عزّ وجلّ في سورة [فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول]:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾﴾.

فالله عزّ وجلّ في رُبُوبيّته لكَوْنِه المستمرّة بلا انقطاع لا تأخُذه سِنَةٌ ولا نومٌ، فلا يخرج عن علمه وهيمنته وسلطانه وكل عناصر ربوبيته صغير في الوجود مهما صَغُر، وكبير مهما كبُر وعظم.

ولهذا فالله وحده هو ربُّ العالمين، وربُّ كُلِّ شيء، وهو المالِكُ والمَلِكُ، والسيّد الذي يجب أن يُطاع، والإله المستَحِقُّ أن يُعبَد دُونَ سواه.

فإذا أُطْلقت كلمةُ «الرّبّ» لم يجز أن يُراد بها غير الله عزّ وجلّ.

ولملاحظة معنى الخلق والتربية المستمرة في كلمة «الرّبّ» جاء معنى كون الله مَلِكاً للناس، ومعنى كونه إلَهاً للناس بحُكمِ المُرَتبين على معنى كلمة «الرّبّ» في سورة [الناس/ ١١٤ مصحف/ ٢١ نزول] فقال تعالى فيها:

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾.

فمن كان هو الرب كان هو المَلِكَ وكان هو الإلّه حتماً.

**أسماء الله الحسنى التي تدلُّ على عناصر ربوبيّة الرب جلّ جلاله.**

إن صفات رُبُوبيّة الرّبّ جلّ وعلا تدلُّ عليها أسماء الله الحسنى ذوات التعلّق بشيء من الكون ضمن مفهومٍ ما من مفاهيم التربية، كالأسماء التالية:

«الخالق، الرازق، الرحمن، الرحيم، الملك، المهيمن، العزيز، الجبار، البارئ، المصور، العفو، الغفار، الغفور، القهار، الوهاب، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض الرافع، المعزّ المذلّ، السميع البصير، الحكَم العدل، اللطيف الخبير، الحليم الصبور، الحميد الشكور،

الحفيظ، المغيث، الرقيب، الحسيب، المُجيب، الحكيم، الودود، الباعث، الشهيد، الوكيل، الوليّ، المحصي، المبدئ المعيد، المحيي المميت، القادر المقتدر، المقدّم المؤخر، البَرُّ، التوّاب، المنتقم، الرؤوف، مالك الملك، المقسط، الجامع، المانع، المغني، الضارّ النافع، الهادي البديع».

هذه الأسماء وأشباهها تدخل تحت مفهوم كلمة «الرَّبّ» لأنّ الله عزّ وجلّ يتصرّف بمخلوقاته ويعامِلُها من خلال اتصافه بما تدلُّ عليه هذه الأسماء الحسنى، فربُوبيّتُه لها تشتمل على كلِّ معانيها.

فبكَوْنه جلّ وعلا رَبّاً خالقاً يَخْلُق وفق نظام التربية الذي اختاره لعمليّات خلقه، وبكوّنِه رباً رَازقاً يُمِدّ مخلوقاته بأرزاقها، وبكونه رَبّاً رحماناً رَحيماً يعامل مَرْبوبيه برحمته، وهو بسلطانه على مربوبيه مالِكُهُمْ ومَلِكُهُمْ والمهيمن عليهم، وهو بكونه رَبّاً خالقاً لا بد أن يكون قادراً مقتدراً عزيزاً يفعل ما يشاء ويختار، وهو بكونه رَبّاً يغفر ويعفو عن المذنبين، ويراقب ويحاسب، ويحكُمُ بالعدل وينتقم، ويجيب سؤال السائلين، ويحيي ويميت، ويبعث ليوم الحساب... وهكذا إلى سائر الأسماء التي تقتضيها مفاهيم رُبوبيّته لخلقه جميعاً.

وبهذا ظهر لنا أنّ الرُّبوبيّة التي تَدُلُّ عليها لفظة «الرَّب» إحدى أسماء الله الكلية العامة، التي تنضوي تحتها أسماءٌ حُسنى كثيرة، هي الصفة التي تجعل من تتعلّقُ به عَبْداً.

فالإنس والجنّ والملائكة وكلُّ كائنٍ حيٍّ مُدْرِكٍ جميعُهُمْ عِبادُ الله، مملوكونَ له، مُحاطُونَ إحاطةً شامِلَةً برُبوبيَّته جلّ وعلا.

❀ ❀ ❀

## ثالثاً: معنى العبودية:

**العبد:** في اللغة هو الرقيق المملوك، ومن المعلوم بداهةً أنّ من حقّ المالك على العبد الرقيق المملوك أن يقوم بخدمته، وأن يطيع أوامره ونواهيه.

فالعبودية في مفاهيم الناس تقتضي حقّ المالك على مملوكه بأن يقوم بخدمته على مراده، ويُطيعَه في أوامره ونواهيه وكلّ مطالبه منه، مما يستطيعه.

ولمّا كان الناسُ جميعاً مخلوقين لله، ومربوبين له دواماً، كانوا جميعاً مملوكين له، فيجب عليهم بداهةً طاعتُهُ في أوامره ونواهيه، والتقرُّب إليه بمحابّه ومراضيه، لحقّ الْمِلْكِ، وحَقِّ الإمداد بالنّعم الكثيرة الظاهرة والباطنة التي لا تنقطع ما داموا في الحياة، وفي الوجود ولو بعد انفصال الروح عن النفس والجسد.

هذه مفاهيم أوّليَّة عامَّة لمعنى العبودية، فإذا دقَّقْنا النظر وجدنا أن من البَدَهيِّ أن يكونَ المخلوقُ عبداً مملوكاً لخالقه، فيكون به إذا كان لا بقاء لذاته ولا لصفاته إلّا بإبقاء الخالق الربّ له في الوجود، ولا قُدرةَ له ولا حول إلّا به، ولا رزق ولا صحة ولا حياة ولا أمنَ إلّا بإمدادٍ منه، ولا عِلمَ ولا فَهمَ له إلّا بعطاءات الله له ومعونته، وهكذا إلى كلِّ خليّة من خلاياه، وكلّ حركة ظاهرة أو باطنة من حركاته، وكل خاطرة من خواطره، وعاطفة من عواطفه ولذّة من لذّاته.

إنّ رُبُوبيّة الله لنا لم تَدَع فينا ذرّةً من الذّرات المادّيّة والمعنوية ولا أصغر خارجةً عن سُلطانِها ومَدَدِها وعطاءاتها وسائر وجوه تربيتها، في كلِّ لحظة من لحظات وجودها.

وعلاقة الأكوان كلّها بالله عزّ وجلّ هي علاقة مَرْبُوبٍ برَبٍّ، ولكلّ

مَرْبُوبٍ من هذه الأكوان علائقُ عبودية جبْريَّة موصولةٍ بأسماء الله الحسنى ذوات التأثير فيه من عموم الأسماء التي تدخل تحت مفهوم الرَّبّ.

❋ ❋ ❋

## العبودية الجبرية والعبودية الاختيارية

من أصول المفاهيم الاعتقادية في ركن القضاء والقدر، أحَدِ أركان الإيمان، أنّ الناس في حياتهم واقعون ضمن نوعين من خطوط حركة الوجود والحياة:

**النوع الأول**: ما هم فيه مجبورون لا سلطان لإراداتهم عليه مطلقاً، وهو خارجٌ عن حدود مسؤوليّاتهم التكليفيَّة والجزائية، مثل: «أصل وجودهم، نموّ أجسادهم، حركة خلاياهم، القبض والبسط في قلوبهم، الأعمال العجيبة المدهشة التي تقوم بها أجهزة الكبد والطحال والرئة والكلى والأَمعاء والأعصاب، وغير ذلك».

فكلُّ ما يجري للناس أو على الناس مما يحبّون أو ممّا يكرهون ضمن خطوط هذا النوع يتمّ دون توسُّط إراداتهم فيه، وهو يخضع لسلطان قضاء الله وقدَرِه بصورة مباشرة، ولو كان بعضه استجابة من الله عزّ وجلّ لدعاء عباده، أو تربيةً وتأديباً، أو ابتلاءً لهم، أو جزاءً بثوابٍ أو عقاب، إذْ إرادة العباد لا تملك منه شيئاً، بل هو يَتِمّ بتقدير الله وتدبيره وقضائه وخلقه.

والناس في هذا النوع عبيدٌ لله الرَّبّ جلّ جلالُهُ عُبوديةً جبريةً، كسائر الكائنات المجبورة في الكون التي لا تملك في مسيرتها في الوجود إرادةً ما.

النجوم والكواكب والمجرّات تسير مسيراً جبرياً، والذرّاتُ في

حركاتها تسير مسيراً جبرياً، والخلايا في الأجساد تسير مسيراً جبريّاً، والنباتات على اختلافها نماءً وذُبولاً ونهايةً تسير مَسيراً جبرياً، والأحياء غير المريدة تسير ضمن غرائزها مَسيراً جبرياً، وقوانينُ الطبيعة في كل عناصرها تسير مسيراً جبريّاً.

وليس شيءٌ في الوجود يسير في حركاته مَسيراً جبرياً هو مسؤولٌ عما هو مجبورٌ فيه، لا عند خالقه، ولا في مفاهيم أيّ ذي فكر يُدرِكُ حقائق الأمور، ويفهَمُ حدودَ المسؤوليات.

ولا يستطيع الكائن المجبورُ التحرُّرَ من عبوديته الجبرية بِوجْهٍ من الوجوه.

**النوع الثاني**: ما يكون الناس فيه ذوي إراداتٍ حُرَّة، ويكون لإراداتهم سلطانٌ عليه بتقدير الله، كالأعمال والحركات الظاهرة والباطنة التي إذا أرادوا عَمِلُوها وإذا لم يُريدُوا لم يعمَلُوها.

مثل حركات الأيدي والأرجل في أفعالها الإرادية، وفتح الأجفان وغَمْضِها بالإرادة، وشُرْب الشراب وأكل الطعام ونُطْقِ الكلام بتوجيه الإرادة، ومثل توجيه التفكير لبحث موضوعٍ ما، وتوجيهِ النفس إراديّاً لمحبَّةِ شيءٍ ما، أو كراهيةِ شيءٍ ما، وعَقْدِ نيّةٍ وتحديد قَصدٍ من عمَلٍ ما بحركةٍ إراديّة داخلية، إلى غير هذه الأشياء مما يخضع لسلطان الإرادة التي مَنَحها الخالق بتقديره وقضائه حُرّيَّة اتخاذِ مُرادٍ ما من احتمالين فأكثر يستطيع الإنسان أن يختاره ويُحدِّده ويعمل لتحقيقه.

وبعد تحديد المُراد يجدُ الإنسانُ وسائل مسخَّرةً مختلفة في ذاته وفي الكون من حوله، قد سخّرها الرَّبُّ بتقديره الحكيم وقضائه النافذ لذوي الإرادات الحرَّة، حتى يتَّخِذُوا منها ما يُحققون به مراداتهم.

هذه المسخّرات في ذات المخلوق الحي المريد، وفي الكون من

حوله قد سخّرها له العليم الحكيم القدير الربُّ جلّ وعلا بقضائه وقدره، ليمتحنه في ظروف الحياة الدنيا، فهي تُطيعُه بخلق الله وتقديره ضِمْنَ قوانينها وأنظمتها، إذا أحْسَنَ اسْتخدامَ مَفاتيحِها التي جعلها الله لها، وأحسنَ جمع العناصر التي تحتاج جمعاً وتأليفاً لتحقيق الغاية منها، وأحسنَ تفريق العناصر التي يتطلّبُ تحقيقُ الغاية منها تفريقاً.

**مثلاً**: من أحسَنَ استخراج النِّفْط وتصفيته وتمييز بعضه من بعض، وأحسن صنع المكنات الحديدية الآلية، وأحسن استخدامها، وأحسن استخدام كثير من الموادّ المختلفة في الكون لصناعة طائرة، وأحسَنَ قيادتها، طارت به في الجو بقضاء الله وقَدَرِه إلى حيثُ يُريد.

فمِنْحَةُ الإِرَادةِ الحرَّة، وتسخيرُ المسخّراتِ، قد كانا ـ بمقتضى حكمة الرب العليم القدير الحكيم ـ لغاية امتحان الإنس، وكذلك الجنُّ في ظروف هذه الحياة الدنيا، وبعد الامتحان يكونُ الحسابُ وفَصْلُ القضاء، ثم الجزاء بالعدل أو بالفضل، في ظروف حياةٍ خالدةٍ لا نهاية لها ولا فَنَاءَ فيها.

**وهنا نتساءل**: ما هو المطلوبُ من الممتحَنِ في رِحْلةِ امتحانه خلال المدَّة المقدَّرة لبقائِه في الامتحان، وهي الزمن المقرَّر لتكليفه من عُمْره المقدَّر له في الحياة الدُّنْيَا؟

**والجواب**: أن يحقق عبوديّته الاختيارية لربِّهِ فيما مَنحَ إرادتَهُ الحُرّةَ من سُلطةٍ على المسخَّراتِ له في ذاته، وفي الكون من حوله.

وهذه «العبودية الاختيارية» هي التي دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في سورة [الذّارِيات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول]:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

فبالعُبُوديّة الاختيارية يحقِّقُ العبدُ الممتحَنُ بإرادتِهِ أنه أهلٌ لما

منحهُ الله من إرادةٍ حُرَّة، وما سخَّرَ له بتقديره وقضائه وخلقه من مُسخَّراتٍ تُطيعه في الكون، إذا التزم بقوانينها وأنظمتها الجبريّة، وأحسن استخدامَ مفاتيحها.

أما مَن رفضَ هذه «العبوديةَ الاختيارية» فإنه يكشف بما اختار لنفسه في رحلة امتحانه عن تمرّدِه واستكبارِه على ربه، بارئِه ومُمدِّه بعطاءات ربُوبيته، ويَدُلُّ بما اختار لنفسه من سلوك على أنه ظلومٌ جَهولٌ، ليس أهلاً للمِنْحةِ العظيمة التي منحه الله إيّاها، وهي مِنحةُ الإرادة الحرة، ومِنْحةُ التسلُّط على المسخّرات في ذاته وفي الكون من حوله، فحَسْبُه جهنَّمُ يُساقُ إليها يوم الدّين، مجبوراً مضطراً، لا قدرة له على دفعٍ أو رفْعٍ أو نجاةٍ، ولا يملِكُ صَرْفاً ولا عَدلاً، إذا لا قُدرة له على شيءٍ يصرف به عن نفسه العذاب، ولا على شيءٍ يَبذُلُ منه ما يُعادِلُ ما استحقَّ بظُلمِه من عذاب أليم خالد.

بهذا ظهر لنا الفرق بين العبودية الجبريّة للرب عزّ وجلّ وبين العبودية الاختيارية.

وللعبودية الاخيارية مراتبُ ودرجاتٌ لكل مرتبة، وكمال العبودية الاختيارية يتحقق حينما يكون العابد في المجالات التي هو فيها ذو إرادةٍ حُرّةٍ ذا أحوالٍ اختياريّة مشابهةٍ لأحوال المجالات التي هو فيها خاضعٌ للعُبوديّة الجبرية، حتى يظفر بأسمى درجات القُرْبِ من الرَّبِّ الجليل.

وتكون هذه العبودية بأن يُحقِّق العبد بإرادته الحرَّة معاني افتقاره لربوبية الربّ له، وخضوعِه لمالكيته، وذُلِّهِ لسلطانه، وطاعتِه لأوامره ونواهيه، وتقرُّبِهِ إليه بمحابّه ومراضيه على ما شرَعَ وأنزل على رسوله من تعاليم دينه الذي اصطفاه لعبادِه، ومُقابلةِ كلِّ صِفةٍ تتعلقُ به من صفات الربوبية بما يلائمها من صفات العبودية.

إن الرب الجليل الذي له كُلُّ كمالات الرُّبوبية دواماً يُدْني عبدَهُ إلى ممنازل القرب منه بمقدار ما يحقِّقُ العَبْدُ ضِمنَ مستطاعه من عُبوديةٍ اختيارية.

بهذا التحليل نُدرِك أن مُمارسةَ السلوك الإرادي في الأعمال الجسدية الظاهرة، والأعمال النفسية الباطنة، مما يُحقِّق معاني العبوديّة الاختيارية أو شيئاً منها هو ما يُسمى «عبادَةَ العبد لربّه».

**خلاصة تعريف العبوديّة الجبريّة والعبوديّة الاختياريّة:**

بعد البيان التحليليّ السابق نستطيع أن نُلخْص تعريفاً لكلٍّ من العبوديّتين:

**العبودية الجبريَّة:** كون الكائن الحي عبداً مملوكاً مَربُوباً لربّه، خاضعاً لتصاريف قضائه وقدره بالجبر، في كلّ ما يجري فيه مما يحبّ ومما يكره، من كلّ ما لا يتصرّف فيه العبدُ المملوكُ بإراداته الحرّة.

وهذه العبودية الجبرية لا مسؤولية على العبد في شيءٍ مما يحصُل بها وجوداً أو عدماً.

**العبوديّة الاختيارية:** هي السلوكُ الإراديُّ المحقِّقُ لمطلوب الربِّ من عبدِه ولما يُرضيه منه على ما شَرَعَ مع قصْدِ عِبادتِهِ له وحده.

وترتبط مسؤولية العبد المكلّف بكل ما هو خاضع لإرادته الحرّة من سلوكٍ ظاهرٍ وباطن، إذ عليه في كل ذلك أن يحقِّقَ عُبوديَّتَهُ الاختيارية باتّباع ما شرع الرب له من سُلوك، ضمن حدود الإلزام أو الترغيب أو الإباحة.

وأوّل هذه العبودية الاختياريّة إيمانُ العبدِ بربِّهِ وبكمالِ صفاته، وبما أوجب على عباده أنْ يؤمنوا به من حقائق، وبكلِّ ما أنزَلَ من بياناتٍ وشرائع ثبت لديهم صِحّة نِسبتها إلى الرسُول ﷺ، وهو مبلغ عن الوحي، أو مأذون من رَبّه فيما أبان.

وبعد الإيمان الكامل الصحيح يكونُ العبد مُطالباً في سلوكه الإراديّ الظاهر والباطن بالإسلام، أي: بإعلان طاعته لربّه المالك، ومبايعته على الالتزام بالطاعة على مقدار الاستطاعة، وتتمُّ هذه المبايعةُ بإعلان الشهادتين، إذ العبوديةُ من أوائل صفاتها إعلانُ العبدِ طاعتَهُ لِسَيِّدهِ المالك، وبعد هذا يأتي تطبيقُ هذا الإعلان بالسلوك العملي، وكان الرسول ﷺ يُبايع أصحابَهُ على السَّمع والطاعة في العُسرِ واليُسر، والمَنْشَطِ والمكرَهِ ضمن حدود الاستطاعة.

ومن أحقُّ بهذه الطاعة من الرب الذي لا تنقطع عن عباده عطاءات ربوبيته؟!.

والطاعة تكون بفعل ما أمر الله به أمراً إلزامياً ورتَّبَ على تركه العقوبة، وبترك ما نهى الله عنه نهياً إلزامياً ورتّب على فِعلِه العقوبة.

ثم يأتي فوق الطاعة أفعالٌ صالحة لم يُلزِم الله بفعلها، ولكنْ يُحِبُّ من عباده أن يفعلوها، ويثيبهم إذا فعلوها من أجله، ولا يعاقبُهم على تركها إلا بالحرمان من ثواب الفعل، وأفعالٌ مكروهة لم يُلزِم الله بتركها، ولكن يُحِبُّ من عباده أن يتركُوها، ويُثيبُهم إذا تركوها من أجله، ولا يُعاقبهم على فِعلِها، إلا بالحرمان من ثواب الترك.

وهنا يظهر تسابق المتسابقين في مراضي الله للظفر بالقرب منه، والظفر بشَرَفِ ونعمةِ محبَّةِ الله على مِقدار السَّبْق.

وكمالُ العبودية الاختيارية في العبد أن يكون عبداً لربِّهِ على مقدار رُبوبيةِ الله له. إلا أنَّ بُلُوغَ هذا الكمال أمرٌ عسيرٌ، ما دامَ في نفوس الناس عقباتُ أهواء وشهوات وآلامٍ ولَذَّاتٍ، فأقربُ المتسابقين إلى الله أكثرُهُمْ تحقُّقاً بعبوديتِه لله المسايِرَةِ لعناصِرِ رُبُوبيةِ الله له. وتَتَناقصُ الدرجاتُ بمقدار التقصير في تطبيقِ عناصر العبودية لله عزّ وجلّ، إلا أن

غُفرانَ الله وعفوَه وصفحَةَ أُمورٌ مساعدة لبعض عباد الله الصالحين، حتى ينالوا كمالَ العبودية بفضل الله.

❀ ❀ ❀

## رابعاً: معنىٰ الألُوهِيَّة ومعنى الإلَهيَّة:

قال ابن سِيده من أئمة اللّغة: «الألُوهية» هي العبادة، ويُقال فيها: «أُلُوهةٌ» و«إلَهَةٌ».

وقال أهل اللغة: «التألُّهُ» هو التعبُّد والتنسُّك. و«التأليهُ» هو التعبيد.

وقالوا: «إلَه» على وزن «فِعَال» هو بمعنى «مفعول» أي: «مَألوه» بمعنى معبود، سواءٌ أكان معبوداً بحقٍّ أو بباطل، فالإلَهُ هو المعبود (انظر لسان العرب).

**أقول**: فإذا أردنا أن نصوغ مصدراً صناعياً من كلمةِ «إلَه» بمعنى معبود قُلنا «إلَهيَّة» لا «أُلُوهية» إذْ جاءت هذه الكلمة لغة بمعنى العبادة.

وكثيرٌ من الناس يُطلقون كلمة «الإلَه» بمعنى «الرَّبِّ» وهذا غلطٌ ينشأ عنه عدة أغاليط لدى تفسير النصوص، فمعنى «لا إله إلا الله» لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، أو لا معبود يستحقُّ أن يُعبَد إلا الله، أمَّا الرَّبّ فهو المتصف بصفات الربوبية التي سبق بيانها.

فالَّذين يعبُدون إلَهاً أو آلهةً من دون الله همْ على أصناف ثلاثة:

**الصنف الأول**: الذين يُؤمنونَ بالله الرب العليّ الأعلى، ولا يعتقدون فيما يعبدون أو مَنْ يعبدونَ من دون الله مُشاركةً لله في ربوبيّته، لا من مستوى الخلقِ ولا من مستويات دنيا، كبعضِ تَصَرُّفٍ في أحوال أهلِ الأرض، من رِزقٍ وصحَّةٍ وحَبَلٍ ووِلادَةٍ وكونِ الجنين ذكراً أو سليماً ونحو ذلك، فهم غير مشركين في ربوبيّة الله عز وجل بحسب ما يذكرون.

وأهل هذا الصّنْف مشركون شِرْكَ ألوهيَّة فقط (أي: شرك عبادة) إذا كانوا صادقين في دعواهم.

وكُفرُ هؤلاء هو كُفرٌ جُزْئيٌّ بِبَعْض عناصر إلَهيَّة الله عزّ وجلّ، إذ لا يوجدُ أحدٌ في الوجود يستحقُّ أن يكون معبوداً سوى الله سبحانه وتعالى عن الشركاء، فالمعبودية (أي: الإلَهية) من خصائص الربِّ الواحد الأحد، وعِبادةُ غيرِ الله مع عبادة الله إشراك في إلَهيته الواحدة التي لا مُشارك له فيها.

وكان بعض مشركي الجاهلية من هذا الصنف، وتحدّث الله عنهم بقوله في سورة [الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول]:

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾.

لكِنَّنا إذا دقَّقنا النَّظرَ وجَدْنا أنّ بعض مفاهيم الشرك في ربوبيةِ الله داخلة على أهل هذا الصنف بدليل قول الله تعالى في آخر الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: هم كاذبون في ادّعاء أنّ عبادة الملائكة أو غيرهم تقرّب إلى الله زُلفى.

**الصنف الثاني**: الذي يعتقدون أن من يعبدونهم من دون الله يشاركون الله في ربوبيته، ولو بالتصرّف في بعض أحوال العباد، دون بيان من الله أو إذن بكتاب منزّل من لدنه، أو ببيانٍ من رسول صادق مؤيّد بالمعجزات.

وأهل هذا الصنف مشركون في ربوبية الله عزّ وجل، وشركهم أشدّ وأقبحُ من شرك أهل الصنف الأول، ويلزم عن هذا الشرك شركٌ في الألوهية أيضاً وفي الإلَهية.

وكفرُ هؤلاء هو كُفْرٌ جزئيٌّ ببعض عناصر ربوبية الرب الخالق سبحانه وتعالى عمّا يشركون، وشرك في إلَهية الله، مع أنّ الله عزّ وجلّ واحدٌ لا شريك له في ربوبيته ولا في إلَهيّته.

وهنا نلاحظ أنّ معظم المشركين يعتقدون في شركائهم أنَّهُمْ ينفعونهم، ويدفعون الضّرَر عنهم، أو يُنْزلون الضرر بخصومهم، فهم من أهل هذا الصنف مشركون شِرْكاً في الربوبية وفي الإلَهيَّة معاً.

**الصنف الثالث**: الذين يعتقدون فيمن يعبدونهم أنهم هم الأرباب، وأنه لا خالق للسماوات والأرض ولا متصرّف فيهما إلا أربابُهُمْ التي يعبدونها، فمنهم أهل التثنية ومنهم أهل التثليث، ومنهم من يُعَدِّدُون الأرباب فوق ذلك.

وأهل هذا الصنف لهم أربابٌ يجعلونها مشتركةً فيما بينها في الرُّبوبية وتصاريفها في الكون، وقد يجسّدونَها في أجسادٍ مادّية، أو يعتقدون أنها قد تحلُّ في أجسادٍ مادّيّة، أو تظهر بصُوَرٍ بشريَّة.

وكُفْر هؤلاء كُفْر بكُلّ عناصر الرُّبوبيَّة الَّتي يختصّ بها الله عزّ وجلّ، إذْ يتَّخِذُون أرْبَاباً باطلةً غير الله عزّ وجلّ، ويكفُرُون بالله الحقِّ كُفْراً من الدَّرجة القُصوى، وكُفرُ هؤلاءِ يساوي كُفر الملاحدة المادّيين الذي يجحدون وجود أيِّ رَبٍّ لهذا الكون، إنهم يجعلون المربوبين أرباباً.

وعبادةُ هؤلاءِ كُلُّها تكونُ لغير الله الذي لا رَبَّ غيره، ولا إلَه إلا هو، لأنّ الله عزّ وجلّ لا يقبل في عبادته شركاً.

وقد سار الإقناع الفكريُّ في القرآن المجيد لكلّ أصناف المشركين على أساس إقامة البراهين الدّالّة على أنّ الله عزّ وجلّ هو واحدٌ في ربُوبيته، مع بيان أنّ العبادة لا تكون إلا للرَّبِّ، وذلك بمقتضى بديهة العقل، واللزومِ الفكري، فالعبادة حقُّ الرَّبِّ وحدَه، وبما أنّ الربَّ واحد

لا شريك له فهو الذي يجب أن يكون وحده هو الإلّه (أي: المعبود بلا شريك).

ولدفع احتمال ادّعاء من يدّعي أنّ الله أمَرَ أو أذِن بعبادة غَيْرِه جعلَ من أوائل عناصر رسالاته المنزلة على رُسُلِه نَهْيَهُ المشدَّد عن عبادة غيره، وجعْلَه عبادَةَ غيره شركاً به وكُفراً، ولو كانت هذه العبادة على سبيل الاحترام، أو إرادة التقرّب إلى الله بعبادة من يُحِبُّهم الله، وذلك لئلا تدخل مفاهيم الشرك بربوبيَّةِ الله إلى أفكار الناس من مُنْزَلَق عِبادَةِ غيره.

❀ ❀ ❀

## خامساً: أمثلة من الأدلة القرآنية على توحيد الربوبيّة لله عزَّ وجلَّ:

سبَقَ أنْ عرفنا أن منهج القرآن في تقديم الأدلّة على توحيد الربوبيّة لله عزّ وجلّ، يعْتَمِدُ على توجيه أنظار المتفكّرينَ للنظر في آيات الله عزّ وجلّ، في أنفسهم وفي سائر الأكوان في السّماوات والأرض وما بينهما.

وسبَقَ أن عرفنا أنّ النُّصوص القرآنيّة المشتملة على هذه الأدلة تحتلُّ مساحةً واسعة جداً من القرآن الكريم، منْها الْمُجْملُ ومنها المفصَّل.

وفي هذا الفصل أقدّم بعَوْن الله وتوفيقه طائفة من هذه الأمثلة:

### المثال الأول:

قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ

بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

جاء في هٰذا النصّ مخاطبةُ النّاس بأنّ ربَّهُمُ الَّذِي يُهَيْمِنُ عَلَيْهِمْ بصِفَاتِ رُبُوبيَّتِهِ، فيرحَمُهُمْ، ويُمِدُّهم بعَطَاءات رُبُوبيته لهم، ويَسْتَجيبُ دُعَاءهُمْ هو اللَّهُ.

وعرض هذا النصّ من آثار ومظاهر رُبُوبيّته للكَوْنِ ثَماني ظواهر، كُلُّ واحدةٍ منْها تَدُلُّ على أنَّها لَمْ تَحْدُثْ إلَّا مِنْ قِبَلِ رَبٍّ يَفْعَلُ ما يَشَاءُ ويَخْتَارُ، وهذا الرَّبُّ واحدٌ لَا شَريكَ له في رُبوبِيَّتِهِ، في الكون كُلّه، وفي كلّ جُزْءٍ مِنْ أجزائه مهما صغُر ودقَّ.

أمّا اسْمُ هذا الرَّبِّ الّذي تَدُلُّ عليه وعلى طائفةٍ من صفاته الجليلة ظواهر الكون، في اللّسان العربيّ فكلمة (الله).

قال الله عزّ وجلّ في أوّل هذا النص:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾.

• الظاهرة الأولى: من ظواهر رُبوبيته الواردة في هذا النصّ، خَلْقُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ في سِتَّةِ أيَّام.

قال الله عزّ وجلّ فيه:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾:

إنَّ صِفَاتِ أجرام السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ وكُلِّ شيءٍ فيهما صفاتٌ تَدُلُّ على حُدُوثِها، وأنّها ذَوَاتُ بداياتٍ، فهي غَيْرُ أزليَّة، والفكر السّليم يُدْرك هٰذه الحقيقة من ملاحظة تغيُّرات كلّ شيءٍ فيهما، وقد سبق أنْ أدرك هذه الحقيقة المتفكّرون والفلاسِفَةُ، وأدْرَكَ أجزاءَ منها النَّاسُ العاديُّون.

ثمّ جاءت العلومُ المعاصرة فأثْبَتَتْها بالأدلة والشواهد العلميَّة.

وحُدُوثُها يَجْعَلُ العقل السليم يَجْزِمُ بأنّ لها خالقاً خَلَقَها، دون أن يكون لدَيْه شَكٌّ أو رَيْبٌ في هذا الأمْر، إذ المعدوم لا يُمْكن أن يتحوَّل إلى موجود بنفسه، فلا بُدَّ له من موجد قَدْ أوجده، وبما أنّ بقاءه في الوجود يحتاج إلى إمدادٍ له بالبقاء، وبما أنَّ التغييرات الّتي تَحدُثُ فيه لا بُدَّ لها من فاعلٍ متصرّف، فالخالِقُ لها لا بُدَّ أنْ يكون مِهَيْمِناً عَلْيها بصِفَاتِ رُبُوبيته لها.

والأدلّة العلميَّة الّتي لا بُدَّ أن يتوصَّلَ إلَيْها العلماءُ البحَّاثُون مَهْما طال الزمن، تَدُلُّ على أنّ خلْقَ السماوات والأرض قد مَرَّ في سِتَّةِ أطوارٍ ضمن سِتِّ أحقاب زَمَنِيَّة، جاءَ التّعْبِيرُ عنها في القرآن بعبارة: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

ودفْعاً لتَوَهُّم أنّ الخالِقَ الرَّبَّ حَالٌّ في أجرام السَّماواتِ والأرضِ، حُلُول مقارنَةٍ أوْ حُلُولَ اتّحاد، أبان النَّصُّ أنَّ اللّهَ الرَّبَّ جلَّ جلالُهُ قَائِمٌ بِذَاتِهِ، مباينٌ لِمَا خَلَقَ، فجاءَتْ فيه عبارة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إذ العرشُ أعظم ما خلَقَ اللّهُ في الكون، وهو في السَّماء أعْلَىٰ ما خلَقَ، فهو سُبْحَانَهُ مُسْتَوٍ من فَوْق العرش، وهو العليُّ الأعلى، وهو مباينٌ لكلّ ما خلق.

• (الظاهرة الثانية): من ظواهر ربُوبيّة الله جلّ جلاله الواردة في هذا النصّ: أنّهُ يُغْشِي اللّيْلَ النّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً.

قال الله عزَّ وجلَّ فيه:

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾.

أي: جَعَل الله الرَّبُّ بتسخيره بَعْضَ ما خَلَقَ في كونه النَّهارَ يَغْشَىٰ بضوئه المنْبَعِث من الشمس سَوادَ اللّيل فيَسْتُرُهُ ويُغَطّيه، وجعَلَ نِظَامَ حركةِ

الأرض في دورانها حول نَفْسِها ضِمْنَ نِظَام مُحَدَّدٍ يُؤَدِّي إلى أَنْ يُتَابعَ ضَوْءُ الشَّمْسِ أوَاخِرَ اللَّيلِ في كلِّ جزءٍ من الأرض، في حَرَكَةٍ دائِرِيَّةٍ، فَيسْتُرَهُ شيئاً فَشَيْئاً، حتَّىٰ كأَنَّهُ يَطْلُبُهُ ليقْبِض عليه طَلَباً حَثِيثاً، أي: جاداً دائباً بتَتَابُعٍ في طلبه.

وبسَتْرِ ضوءِ الشَّمْس ما يسْتُر من اللَّيْل يَظْهَر النَّهارُ على الْقِسْمِ الذي امتدَّ عَلَيْه الضَّوْء.

ولا يتمّ كلُّ ذَلِكَ إلَّا من قِبَل رَبٍّ عليم حكيم قَدِير يَفْعَلُ ما يشاءُ ويختار.

• (الظاهرة الثالثة): من ظواهر رُبُوبيَّةِ الله جلَّ جلالُه الواردة في النّصّ: أنّه تبارك وتَعالَىٰ خلَقَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بأَمْرِهِ.

لقَدْ خلَقَ الله الشَّمْسَ مُسَخَّرَةً بأمْرِهِ للقيام بوظائِفها في الكون.

وخلَقَ القمر مسخَّراً بأمْرِهِ للقيام بوظائفه في الكون.

وخَلَقَ النُّجوم مسخَّراتٍ بأمره للقيام بوظائفها في الكون.

قال الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ...﴾.

وإذْ أبان الله عزّ وجلّ أنَّ خَلْقَ هٰذه الأجرام العظيمة وتَسْخِيرَها للقِيَام بوظائفها في الكون قد كان بأمْرِهِ في كلٍّ مِنَ الْخَلْقِ والتَّسْخير، فهِيَ تَقُومُ بوظائفها بصِفَةٍ جَبْرِيَّةٍ، كَانَ من المناسِبِ أَنْ يُبَيِّنِ للمخيَّرينَ الموضوعَين موضِعَ الامْتِحانِ في ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، أنَّ مَنْ لَهُ الْخَلْقُ فَلَهُ الْأَمْرُ حَتْماً، لأَنَّهُ مَالِكٌ لِمَنْ خَلَقَ ومَلِكٌ عَلَيْهم، والواجبُ المفْرُوضُ عليْهم أنْ يُطِيعُوا باختيارهم أمْرَهُ التكليفيَّ كما أطاعُوا في وجودهم وفي تَسْخِيرِ المسخَّراتِ فيهم أمْرَهُ التكوينيَّ الجبْرِيّ.

فقال الله عزّ وجلَّ في النَّصّ مبيّناً هذه الحقيقة ومُنَبّهاً عليها:

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ . . .﴾.

وتأكيداً على أنّه جلّ وعلا هو ربّهم، إذْ هو رَبُّ كُلِّ العالَمين، قال الله عزَّ وجلَّ في النّصّ:

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

• (الظاهرة الرابعة): من ظواهر ربوبيَّة الله جلَّ جلالُهُ الواردة في النّصّ: استجابتُهُ دُعَاءَ الدَّاعينَ المتَضرِّعين له في خُفْيَةٍ، ودُون عُدْوانٍ في دُعائِهِمْ على أحَدٍ، ودُونَ رَغْبَةٍ في الإفْسَادِ في الأرض بَعْدَ إصلاحها، في حَالَتِي الخوف والطَّمع.

قال الله عزّ وجلَّ مُشِيراً إلىٰ هٰذِه الظَّاهِرَةِ في النَّصّ:

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

فأبانَ الله عزّ وجلّ شُروط استجابة ربِّهِم لدُعائهم، بأسْلُوبٍ عجيب، هو أسلوبُ الْأَوامر الموجَّهَةِ المصُوغةِ بعباراتٍ كُلِّيَّةٍ عامّة.

وتتلخَّص شروط الدُّعاء المستجاب من قِبَل الرَّبّ جلَّ جلاله بما يلي:

(١) التَّضَرُّع، وهو التَّذَلُّلُ والخُضوع، مَعَ خَفْضِ الرأسِ والجَسَد.

(٢) أن يَكُونَ الدُّعاءُ فِي خُفْيَةٍ، ليكون أكثر إخلاصاً وصِدْقاً.

(٣) أنْ لا يكون في الدُّعاء عُدْوان على أحَدٍ من خَلْقِ الله، وأنْ لا يقترِنَ به عُدْوانٌ على أحَدٍ من خَلْق الله، وأنِ لَا يَقْتَرِنَ بِعُدْوانٍ على حُدودِ اللَّهِ، فَمَنْ كانَ يَدْعُو رَبَّهُ ومَطْعَمُهُ حَرام، ومَلْبَسُهُ حرام، وغُذِي بالحرام، فكيْفَ يَسْتَجِيب اللَّهُ دُعاءَهُ؟!

(٤) أنْ لَا يَكون الدُّعاءُ في الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، وأن لا يقترن بالإفساد في الأرض من قِبَلِ مُوجِّه الدُّعَاء.

(٥) أن يكون الدُّعَاء إمّا في حالة الخوف، وإمَّا في حالة الطَّمَع.

(٦) أنْ يكون الدُّعَاءُ خالصاً لِلَّهِ وَحْدَهُ، وواصلاً الإخلاص فيه إلى مرتبةِ الإحسان، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: إنَّ رحْمَةَ اللَّهِ الّتي تُسْتَدَرُّ بالدُّعَاء الخالص لله وحده، الذي يكون الداعي به ملتزماً بشروط استجابة الدُّعاء وآدابه، قَريبَةٌ من الذين يكونون في دُعائهم محسنين، من أهل مرتبة الإحْسَانِ في الدُّعاء.

• (الظاهرة الخامسة): من ظواهر ربُوبيَّة الله جلَّ جلالُه الواردة في النّصّ: إرسالُه الرّيَاحَ المبَشّرات بإنْزال الأمطار الّتي هي من أسباب إنبات الزروع، وإخْراج الثمرات، رحمةً بالعباد، إذْ هي مقْرُونةٌ بالحكمة الدّالة على بعض صفات الرُّبوبيَّة لله تبارك وتعالىٰ.

قال الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ . . .﴾.

أي: ورَبُّكُمُ اللَّهُ هو الذي يُرْسل الرّياح الّتي تَسوقُ السُّحُبَ، وهٰذِهِ الرِّياحُ تَكُون مُبَشِّرَاتٍ للناسِ بَيْنَ يَدَيْ إنْزَالِ الْأَمْطَارِ النَّافِعَات اللَّائي هي من آثار رحْمَته تَبارَكَ وتَعَالَىٰ.

• (الظاهرة السادسة): من ظواهر رُبُوبيَّةِ الله جلَّ جلالُهُ الواردة في النّصّ: سَوْقُ السُّحُبِ الثّقال بِحَمْلِ مِيَاهِ الأمْطارِ، لِبَلَدٍ ظامِئٍ، لا نَبَاتَ فِيهِ ولا زَرْعَ، فَهُوَ كَالْجَسَدِ الميّتِ، وإنْزَالُ الْأَمْطَارِ بِهِ، الّتي تكونَ من الأسْبَاب في حياتِهِ.

قال الله عزّ وجلّ في النّصّ متابعةً للحديث عن ظاهرة الرّياح: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ . . .﴾.

أي: فَكَانَ الماءُ سَبَباً من أسْبَابِ حياة البلد الميِّت، بإنْبات الزُّروع فيه، وإخراج الثمرات منْها، لتكون متاعاً للناسِ والأنْعام.

• (الظاهرة السابعة): من ظواهر رُبُوبيَّةِ اللَّهِ جلَّ جلالُهُ الواردة في النّصّ: إخراج الله بالماء الذي يختلط به تراب الأرض من كلّ الثمرات التي تأْكُلُ مِنْها ومن نواتجها النّاس، وسائر الكائنات الحيَّةِ في الأرض.

قال الله عزَّ وجلّ في النصّ متابعةً للحديث عن مَاءِ الأمْطَار:

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ . . .﴾.

أي: فأَخْرجنا بالماء من كلِّ الثمَراتِ المَوْجُودَةِ في الأرض، على اختلاف أشكالها وألوانها وطُعُومِها ومنافِعِها والغاية المقصودة منها.

ولمّا كان بعْثُ الموتىٰ وإحياؤهم وإخراجهم من الأرض، بَعْدَ فناء أجْسَادِهِمْ، مماثلاً لإحياء الأرض بالنَّبَاتِ، كَانَ من المناسب إعلامُ الشَّاكِّين بالبعْثِ إلى الحياة الأخرى، بأنَّ إحياء الموتىٰ من نُقْطَةٍ صغيرة باقيةٍ في الأرض من أجْسَادِهم، يُشْبِهُ إحْيَاءَ نبات الأرْض من الْبُزُور المدفونَةِ فِيها، رَغْبَةً في أنْ يضَعُوا هذه الحقيقة في ذَاكِرَتِهِمْ، وفي أن يَتَذَكَّرُوها، ويَخَافُوا من حساب الله وعذابه يوم الدين، ويطمعوا بثوابه العظيم إذا آمنوا به وبما بعَثَ به رسُوله.

قال الله عزَّ وجلَّ في التعقيب على هذه الظاهرة السابقة:

﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

• (الظاهرة الثامنة): من ظواهر ربوبيّة الله جلّ جلالُهُ الواردة في النص: أنّه تبارك وتعالىٰ جعل بحكْمَتِهِ طائفةً من الأرض طيّبَةً منْبِتَة، يخْرُجُ نباتُها بإذن ربها، وجعل طائفة أخرى خبيثَةً لَا يخْرُجُ نباتُها إلَّا نَكِداً عسيراً، لِيَدُلَّ عباده على سلطانه في خَلْقِهِ، وحكمته في العطاء والمنع، والبَسْط والقبض، والإمداد والإمْسَاكِ، وليدُلَّهُمْ على قُدْرَتِهِ على تنويع الآيات الدالَّات عليه في كونه.

قال الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾.

**نَكِداً**: أي: عَسِيراً شَحِيحاً قليلَ النَّفْع.

وتَعْقيباً على هذه الظواهر الثماني قال الله عزّ وجلّ في آخر النّصّ:

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

أي: مثل ذَلِكَ التنويع في الآيات الّتي جاء بيانُها في هذا النّصّ، يَجْرِي تنويعُ الآيات في كلّ الظاهرات من ظواهر رُبوبية اللَّهِ في كونه. والمستفيدون من الظواهر الكونيَّة الدَّالَّة على ربوبيَّة اللَّهِ الخالِقِ الحكيم، هم المسْتَعِدُّون لأن يكُونوا لرَبِّهِم المنْعِمِ عليهم بنِعَمِه الجليلَةِ الكثيرة شاكرين.

**الشاكِرُونَ**: هُمُ الذين يُقَابِلُون نِعَمَ الله عَلَيْهِمْ بالطاعات، والقيام بأنواع العبادات النفسيَّة والجسديَّة.

ولا يكونون شاكِرِينَ إلَّا إذا كانوا حامِدِينَ، لأن الشكْر أشَقُّ على النفوس من الحمد، فالحمد ثناء باللّسان والقلب، والشُّكْرُ مجاهدة عَمَلِيَّةٌ في مخالفة الشهوات والأهواء، وتحمل المشقات.

❁ ❁ ❁

**المثال الثاني:**

قول الله عزّ وجل في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/ ٥٠ نزول): خطاباً للناس:

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ

عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

في هذا النَّصّ يُبيّن الله عزّ وجلّ مِنْ ظواهر رُبُوبيَّتِهِ للنَّاسِ، أنَّهُ كَرَّمَهُمْ وفَضَّلَهُمْ على كثيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً عظِيماً.

ومن مظاهر مِنَّتِهِ عَلَيْهِم أَنَّهُ حَمَلَهُمْ في البرّ والْبَحْر، ويُلْحَقُ بِهِمَا الجوُّ، لأنَّ حَمْلَهُمْ في الجوّ على الرِّياح يُشْبِهُ حَمْلَهُمْ في الْبَحْرِ على الماء.

ومن مظاهر مِنَّتِهِ علَيْهِم ورَحْمَتِهِ بهم، أنَّه رزقهم من الطيبات.

أمَّا حَمْلُهُمْ في الْبَحْرِ فَقَدْ كَانَ بِتَسْخِيرِ الْفُلْكِ لَهُمْ، إِذْ وَضَعَ في قوانين كوْنِهِ قانُونَ الطَّفْوِ على الماء السائل القابل لانتقال الجامدات الطافِياتِ على سَطْحِهِ، وَجَعَلَ انتقالَها يَتِمُّ بإزجائها، أي: بسَوْقِها، أو بِدَفْعِها بِرِفْقٍ ويُسْرٍ واسْتِقَامَة.

لكِنَّ معظم الناس يتَقَلَّبُونَ في نِعَمِ رَبِّهِم عَلَيْهِمْ، ولَا يشْكُرُونه عليها.

وإذا ابتلاهُمْ وهُمْ في الْبَحْرِ برياحٍ عاصفَةٍ، وهيجان بَحْرِيّ مُنْذِرٍ لَهُمْ ولمراكِبِهم البحريَّةِ بالغرق، لم يَجِدُوا من يُسْعِفُهُمْ فَيُنْجِيهم من الهلاكِ إلَّا اللَّهَ رَبَّهُمْ، إذا دَعَوْه صادِقِين مُخْلصين.

وحين يَسْتَيْقِظُ إيمانُهم بربّهم في ساعات الْخَوْفِ الشديد، فَيَدْعُونَهُ لِيُنْجِيَهُمْ، فَقَدْ يَسْتَجِيبُ ربُّهُمْ دُعاءَهم، فَيَجْعَلُ لَهُمُ الْبَحْرَ هَادِئاً سَاكِناً، ويَجْعَلُ لهم الرِّيح رُخاءً، فَيُنْجِيهم.

لَكِنَّهُمْ مَتَىٰ وَجَدُوا أنفُسَهُمْ عَلَىٰ اليابِسَةِ في البرّ الآمِنِ أعْرَضوا عَنْ ربّهم كُفْراً بنِعْمَتِهِ عليهم، وجُحُوداً لمَا تفضَّلَ بهِ عليهم.

ما أشدّ خِسَّةَ وجَهْلَ أهْلِ الكُفْرِ والجحودِ من الناس!!

أَلَيْسَ رَبُّهُمْ بقادِرٍ على أنْ يَخْسِفَ بِهِمْ جَانِبَ الْبَرّ، فَيَدْفِنَهُمْ في باطِنِ الأرض، ويُهلِكَهُمْ بِرُكَام عناصرها.

أليس رَبُّهُمْ بقادِرٍ على أن يُرْسِلَ عليهم حجارَةً من السَّماء تَحْصِبُهُمْ فَتُهْلِكَهُمْ رَجْماً؟!!

أليس ربُّهُمْ بقادر على أن يُعِيدَهم إلى ركوب الْبَحْرِ طمَعاً في تجارة رابحة، أو سياحة ممتعة، أو غير ذلك، ثُمَّ يَجْعَلَهُمْ في وسْطِ المخاوف المماثلة لما كانوا فيه سابقاً، ثُمَّ يُهْلِكَهُمْ بقاصِفٍ منَ الرِّيحِ، غير مستجيب لدُعائهم إذا دَعَوْهُ؟!!

❀ ❀ ❀

**المثال الثالث:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

**خَضِراً:** أي: زَرْعاً غضاً أخْضَرَ.

**مُتَراكِباً:** أي: يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضاً.

**من طَلْعِها:** الطَّلْعُ: غِلافٌ يشبه الكوز، يَنْفَتِحُ عن حبٍّ منْضُودٍ فيه مادَّة إخصاب النخلة.

**قِنْوان:** جمع «قِنْو» وهو العِذْق الذي يكون ثَمَرُ النَّخْلِ نابِتاً منه ومتعلقاً به.

**ويَنْعِهِ:** الْيَنْعُ مَصْدَرُ يَنعَ، يُقَالُ: يَنَعَ الثَّمَرُ يَنْعاً، إذا أدْرَكَ وَطَابَ وحانَ قِطافُهُ.

**خَرَقُوا:** أي اختلقوا وافتروا.

**بديع:** أي: خَالِقٌ إبْداعاً على غَيْرِ مثالٍ سبَق.

عرض الله عزّ وجلّ في هذا النّص طائفةً من آياتِ رُبُوبيّته في كونه، وقال تعالى بَعْدَ عَرْضها خطاباً للناس:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ...﴾.

وبَنَىٰ عَلَىٰ أنَّهُ هُوَ رَبُّهُمْ الّذِي لا رَبَّ لهُم سِوَاهُ، بَيَانُ أَنَّهُ هو إلٰهُهُمْ الواحد الذي لا إله إلا هو، فقال تعالى:

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ...﴾.

أما آيَاتُ رُبُوبيّتِهِ الّتي جاء عرضُها في هذا النّصّ، فهي:

(١) فَلْقُ الحبِّ والنَّوىٰ في تُراب الأرض، وإخراجُ الزّرْع والشّجر منه.

(٢) إخراجُ الحيّ من الميّتِ، كإخْراج الفرخ من البيضة.

(٣) إخراج الميّت من الحيّ، كإخراج البَيْضِ من الطيور وغيرها.

(٤) فلْقُ الصُّبْحِ ضِمْنَ نِظَام دَورانِ الأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا باتجاه الشمس.

(٥) جَعْلُ اللَّيل سَكَناً، أي: للْهُدُوءِ والراحة والسكون، ضِمْنَ نظامٍ بديع تتلاءَمُ فيه أوضاع راحةِ الأحياء وسكونها، مع اللَّيْلِ وخصائصه.

(٦) جَعْلُ حركَةِ كُلٍّ مِنَ الشَّمْسِ والْقَمَرِ مُقَدَّرَةً بِحِسَابٍ دَقِيق، ملائمٍ لِوَظَائِفِهما النافعة للنَّاسِ على الأرض، وإجراءُ أمْرِهِمَا ضِمْنَ هذا الْحِسَابِ الدَّقِيقِ، وهذا التقديرُ الحكيم لَا يَكُونُ إلَّا من عَزِيزٍ ذِي قُوَّةٍ غَالِبَةٍ، عَلِيمٍ مُحِيطٍ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً.

(٧) إنْشَاؤُهُ النَّاس من نَفْسٍ واحِدَةٍ هي نَفْسُ آدَمَ أبِي الْبَشَرَ، واشْتِقَاقُ زَوْجَتِهِ مِنْهُ، وَبَثُّ سُلالتِهِما من بَعْدِهما وفْقَ نِظَامٍ خَاضِعٍ لِمُسْتَقَرٍّ هُوَ ظُهُورُ الرّجال، ومُسْتَوْدَعٍ هُوَ أرْحَامُ النِّسَاء.

(٨) إنْزَالُهُ الماءَ من السماء (أي: من السَّحَاب) على الأرض حتَّىٰ يخْتَلِطُ بتُرابِها، ثُمَّ إخراجُ نَباتِ كُلِّ شَيْءٍ بِفَلْقِ الحبّ والنَّوى، وإخْرَاج الْخَضِرِ مُنْهُ، ثُمَّ إخراج الحبّ المتراكب من الخضر.

(٩) إخراج أشجار النخيل، الّتي يُخْرِجُ اللَّهُ مِنْهَا أصْنَافَ الْبَلَحِ والتَّمْرِ المعلقة بالقِنْوانِ.

(١٠) إخراج جنَّاتِ أشجار الْعِنَبِ وأشجار الزيتون، وأشجار الرُّمَّان، المشتبه وغير المتشابه، في الشكل والطعم والنفع.

(١١) بيانُ كونِهِ جلَّ جلالُهُ مُبْدِعَ كلِّ شيءٍ في السَّمَاوَاتِ والأَرْض، وكونه خالِقَ كلِّ شيءٍ، وكونه بكلِّ شيءٍ عَلِيم.

وبعد عَرْض هذه الآيات الكونيَّة من آيات رُبُوبيَّتِه قال تعالى في النَّصّ كما جاء بيانُه آنفاً:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ...﴾.

ولمّا كانتِ الإلٰهيَّةُ الصِّفَةَ الأولَىٰ واللّازِمَ المباشِرَ لصفاتِ الرُّبُوبيَّة، قال الله تعالى عقب بيانُ ربُوبيَّتِهِ لكل شيءٍ في الكون: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

ولمّا كانَتْ مَعْرِفَةُ وُجودِ اللَّهِ وَمَعْرِفَةُ صِفَاتِهِ مُسْتَنِدَةً إلى إدْرَاكِ آيَاتِهِ في كونِه.

ولمّا كان إدْراكُ ذاتِهِ أمْراً غَيْرَ مَطْمُوعٍ فيه ضِمْنَ ظُروفِ الحياة الدُّنيا، قال تعالىٰ عَقِبَ ذَٰلِكَ:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

❀ ❀ ❀

**المثال الرابع:**

قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

في هٰذا النَّصِّ توجيهٌ للنَّظَر في آيات رُبُوبيَّةِ اللَّهِ في الأَرضِ، وآيات رُبُوبيَّتِهِ في الأَنْفُسِ، بصُورَةٍ مُجمَلَةٍ غَيْرِ مُفَصَّلة.

وإعْلامٌ للنَّاسِ بأنَّ أوامِرَ رِزْقِهِم ومَقَاديره تَنْزِلُ من السَّماءِ مِنْ لَدُن الرَّبّ الرحيم الرَّزَّاق، وبأنّ أوامر ما يُوعَدُونَ فِي الدنيا والآخرة تَنْزِلُ من السّماء أيضاً.

وجاء فيه قَسَمٌ بِرَبّ السّماءِ والأَرْضِ على أن رزْقَهُمْ، وأَنَّ ما

يُوعَدُونَ حقٌّ لَا شَكَّ فيه، وهذا الحقُّ مُمَاثِلٌ لِنُطْقِهِمُ الّذِي يُؤْمِنُونَ بأنَّهُ مِنْ صِفَاتِهِمْ.

ومن هٰذه النصوص وأشبَاهِهَا في القرآنِ نستخلصُ أنّ علاقة العباد بالله جلَّ جلالُهُ عَلَاقَةُ مَرْبُوبين بِرَبّ، إذْ كُلُّ مَا فِي ذَوَاتِهِم، وكُلُّ ما يَجْرِي لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ مِنْ تَصَارِيف يَتَعَرَّضُونَ لَهَا دَوَاماً، إنّما هِيَ آثَارٌ من آثار رُبوبيَّة الله عزَّ وجلَّ لهم، الّتي لا تَنْقَطِعُ عنهم طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلَا أَقَلَّ من ذَلِكَ.

❁ ❁ ❁

## سادساً: أمثلة من الأَدِلَّةِ القُرآنيَّة عَلَىٰ تَوْحِيدِ الإلٰهِيَّةِ للَّهِ عزَّ وجلَّ:

سبقَ أن عَرَفْنَا أنّ مَنْهَجَ القرآن الكريم للإقناع أو الإلتزام أو الإفحام بتوحيد الإلٰهيَّة للَّهِ عزَّ وجلَّ، يَعْتَمِدُ عَلَىٰ بَيَانِ أَنَّ اللَّازِمَ العقليَّ المباشِرَ لتَوْحِيدِ الرُّبُوبيَّةِ لِلَّهِ عزَّ وجلَّ، هو تَوْحِيدُ الإلٰهيَّةِ لَهُ جَلَّ جَلاَلُهُ، فَمَنْ كَانَ هُوَ الرَّبَّ الَّذِي لا رَبَّ في الوجود سِواه، لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُوَ الإلٰهُ الذي لا إلٰهَ يَسْتَحِقُّ أن يُعْبَدَ إلاَّ هُوَ، وكلُّ عبادةٍ لِغَيْرِهِ جُحُودٌ لِرُبُوبِيَّتِهِ جحوداً كلّياً أو جُحُوداً جُزْئياً، أو جُحُود لحقِّ رُبوبيَّته بأنْ يكونَ هُوَ وحْدَهُ الإلٰه المعْبُود الّذِي لا إلٰه غَيْرُهُ.

والشواهد القرآنيَّةُ الدَّالَّة على هذا المنْهج القرآنيّ في الاسْتِدْلَالِ كثيرةٌ، وأعْرض في الاسْتِعْرَاضِ التالي طائفةً من الأمثلة:

**المثال الأول:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المزمَّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾.

فجاء في هذا النَّصّ تَوْحيدُ الإلٰهيَّةِ للَّهِ عزّ وجلَّ مُرَتّباً علىٰ كَوْنِهِ جلَّ جلالُهُ رَبَّ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ، أيْ: على كَوْنِ اللَّهِ عزّ وجلَّ المهيْمِنَ بقضائه وقَدَرِهِ وخَلْقِهِ دَواماً علىٰ ظاهِرَتي الشُّرُوقِ والْغُرُوبِ، وعَلَى كُلِّ مَكانٍ يَحْدُثُ عَلَيْهِ شُرُوقٌ، وكلّ مَكَانٍ يُحْدُثُ عَلَيْهِ غُرُوب، وهٰذا يَشْمَلُ الشَّمْسَ وكلّ ما تُشْرِقُ عليه الشَّمْسُ وكلَّ ما تَغْرُبُ عنْهُ الشَّمْسُ.

**المثال الثاني:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الناس/ ١١٤ مصحف/ ٢١ نزول):

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ . . .﴾.

جاءَ الْبَيَانُ في هٰذِهِ السُّورَة مُرَتَّباً تَرْتِيباً عَقْلِياً مَنْطَقِياً، فإثْبَاتُ رُبُوبيَّةِ اللَّهِ للنَّاسِ يَلْزَمُ عَنْهُ لزوماً عَقْلِياً منْطِقِياً إثْبَاتُ كَوْنِهِ مالِكاً لَهُمْ فَهُمْ عَبِيدُهُ، وكونه مَلِكاً عَلَيْهم، ويَلْزَمُ عَنْهُما لزُوماً عَقْلياً منطقياً إثباتُ إلٰهيَّتِهِ لهم، وبما أنهم لا رَبَّ لهم غَيْرُه فلا إلٰه لهم إلَّا هو.

❋ ❋ ❋

**المثال الثالث:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٦٦﴾﴾.

جاء في هذا النَّصّ إثْباتُ تَوْحيد الإلٰهيَّةِ لله عزّ وجلّ، وجاء بَعْدَهُ بيانُ أنَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْض وما بَيْنَهما، فكان هذا البيانُ المقتَرِنُ بالبيان السَّابق له بمثابة الدَّلِيل على توحيد الإلٰهية له، فمن كان هو وحده ربَّ السَّماوات والأرض وما بينهما، فلا بُدَّ أنْ يكون هو وحده الإلٰه المعبود الذي لا إلٰه إلَّا هو.

❋ ❋ ❋

**المثال الرابع:**

قول الله عزّ وجل في سُورة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول) في مَعْرِض ذكر قصّة أصحاب القرية، الّتي جاءها المرسَلُون الثلاثة، وقِصّة الرجل الذي جاء من أقصا المدينة ينصرهم، وما احتجَّ به على قَوْمه، إذْ قال لهم:

﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

فأبَانَ هذا الرجُلُ المؤمِنُ في حُجَّتِهِ أنَّ آلهَةَ قَوْمِهِ الَّتي يَعْبُدُونَها من دُون اللّهِ، لَا تَمْلِكُ شَيْئاً مِنَ الرُّبوبيَّةِ حَتَّىٰ تَسْتَحِقُّ بها أن تُعْبَدَ، وَلَا تَمْلِكُ شَفَاعَةً تَنْفَعُهُ عند الله شيئاً، وأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ إذا اتَّخَذَ من دون الله آلِهَةً كَانَ إذاً في ضَلَالٍ مُبين.

ثُمَّ رَفَعَ عَقِيرَتِهِ وأعلنَ مُنادِياً بأعْلَى صَوْتِهِ في جماهير قومه: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

فقتلوه فكان شهيداً مجاهداً، بدفاعه عن دين الله، ونُصْرَتِهِ للرُّسُلِ الثلاثة.

❋ ❋ ❋

**المثال الخامس:**

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بشأن المشركين:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾.

فإبان هذا النَّصّ أنَّ شِرْكَ المشركين باتّخاذهم آلِهَةٍ من دون الله عزَّ وجلَّ أمْرٌ باطِلٌ وَعَمَلٌ سَاقِطٌ، إذْ لَيْسَ لَهُ أيُّ سَنَدٍ عَقْلِيٍّ، ولَا وَاقِعيٍّ، فآلهتُهُمْ الّذين يَعْبُدُونَهم من دون الله ليس لهم شيءٌ من الرُّبُوبِيَّة، وهم لا يَمْلِكُونَ لأنْفُسِهِمْ جَلْبَ نَفْعٍ وَلَا دَفْعَ ضُرّ، فضلاً عن أنْ يملكوا شيئاً من ذلِكَ لعابديهم.

❁ ❁ ❁

**المثال السادس:**

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾.

فجاء في هذا النَّصّ مخاطبَةُ النَّاسِ بتكليفهم أنْ يَذْكُروا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ لهم، الَّتِي لا يَخْلُقُ شَيْئاً مِنْهَا غير اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

ووجَّهَ بَعْدَ هٰذا استفهاماً فقال لهم: هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزِقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأرض؟!

وهو استفهامٌ يَتَضَمَّنُ إنْكَارَ أَنْ يكون لهم خالقٌ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقهم، فهو بذلك يَسْتَحِقُّ أَنْ يَعْبُدُوهُ من دون الله.

وبَنَىٰ على ذَلِكَ إثْبَاتَ تَوْحِيدِ الإلٰهِيَّةِ للَّهِ عزّ وجلّ، فقالَ تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنَّ توحيدَ الرُّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ جَلَّ جَلالُهُ، يَلْزَمُ عَنْهُ عَقْلاً تَوْحِيدُ الإلٰهية له.

ثُمَّ خَاطَبَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ المشركين بقولِهِ لهم مِنْكِراً عَلَيهِم انصرافهم عن توحيد الإلٰهية لَه: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عن الحق، وتُؤْمِنُونَ بالباطل، فتَعْبُدون آلهة لا يخلُقُونَ ولا يَرْزُقُونَ.

❁ ❁ ❁

### المثال السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/٤٣ نزول) أيضاً، يُعَلِّمُ الرَّسُول وكلّ داعٍ إلى الله من أمَّتِه أسلوباً من أساليب محاجَّةِ المشركين:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

في هذا النَّصّ تَعْلِيمٌ لأُسلُوبٍ مِنْ أسَالِيب مُنَاظَرَةِ المشركينَ، حول آلهتهم الَّذِين يَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونِ الله.

هٰذِهِ المناظَرَةُ تَبْدَأُ بِسُؤال المشركين عنْ آثار رُبُوبيَّة شُرَكائهم، بأن يقول لهم المناظر:

أرُوني مَاذَا خَلَقَ شُرَكَاؤُكُمْ مِنَ الأرْضِ؟!

وهنا لا يسْتَطِيعُ المشركون أن يُثْبِتُوا بدليلٍ صَحِيحٍ تَقْبَلُهُ الْعُقُولُ، أنَّ شركاءهم قد خَلَقُوا شيئاً من الأرض.

وعندئذٍ يَنْتَقِلُ المناظر إلى سؤالهم سؤالاً ثانياً، فيقول لهم:

هل خلَقَ شركاؤكُمْ شيئاً في السَّماواتِ فكانُوا بذلك شُركاءَ لله في رُبُوبيته؟!

وهنا لا يستطيع المشركون أن يُثبتوا بدليلٍ صَحِيحٍ تقبَلُهُ العقول، أنَّ شُرَكَاءهم قد خَلَقُوا شيئاً في السَّمَاوَاتِ.

وعندئذٍ يَنْتَقِلُ المناظر إلى سؤالهم سؤالاً ثالثاً، فيقول لهم: هل لديكم بيانٌ من عند ربِّكم في كتاب صحيح قد تَضَمَّنَ أمراً من عند الرَّبّ الخالق يأمُرُكُمْ بعبادة آلِهَتِكُمْ، أو إذْناً من عِنْدِه يأذن لكم بعبادتهم؟!!

لكنَّهُمْ لا يملكُونَ مِثْلَ هذا البيان، وعنْدئذٍ تسقط كُلُّ ذَرَائِعِهم، ولا تبقى لهم إلاَّ ادّعاءات باطلاتٌ، يخْدَعُهُمْ بها سدنة آلهتهم، أو كهنتهم أو أحبارُهم ورهبانهم وقسّيسُوهم.

❁ ❁ ❁

**المثال الثامن:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) يُعَلِّمُ الرَّسول ﷺ وكلّ داعٍ إلى توحيد الإلٰهيَّةِ لِلَّهِ من أمَّتِهِ، كيْفَ يَدْعُو، وكَيْفَ يَحْتجُّ على المشركين، لإثباتِ توْحيدِ الإلٰهِيَّة لله عزَّ وجلَّ، مِنْ خِلَالِ إثباتِ تَوْحِيدِ الرّبُوبيَّةِ له، الَّتِي يَلْزَمُ عَنْهَا عقلاً تَوْحِيدُ الإلٰهِية له:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦٤﴾.

في هذا النصّ البديع تفصيلٌ لطائفةٍ من ظواهر ربُوبيَّةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ في كونه، الّتي لا يُشارِكه في رُبوبيته لها أَحَدٌ من دونه، ولمّا كانت وَحْدَتُه في ربوبيته تَسْتلزم عقْلاً وحْدَتَهُ في إلٰهيَّتِه، جاء في النصّ بعد ذِكْر كُلّ ظاهرَةٍ منها استفهامٌ تَعْجِيبيّ من شِرْك الْمُشْرِكِينَ في إلٰهيته بعبارة ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟!!.

وجاء في التَّعْقِيبُ على هذا الاستفهام التَّعْجِيبيّ، بعباراتٍ تَنْدِيديَّةٍ، تُنَدِّدُ بالْمُشْركين ومَذْهَبِهم الشَّركيّ.

(١) فجاء التعقيب الأوّل بعبارة، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يعدلون عن الحق إلى الباطل.

(٢) وجاء التعقيب الثاني بعبارة: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يَرْغَبُون في أن يَعْلَمُوا الحقَّ، وأدِلَّة الحقّ، ولا يَسْتَعْمِلون ما وهبهم الله من أدواتٍ يَعْلَمُونَ بها الحقّ والباطلَ، والخَيْرَ والشَّرَّ، فيما خُلِقَتْ من أجْله.

(٣) وجَاء التعقيبُ الثالث خطاباً للمشركين بعبارة: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قليلاً ما تَضَعُونَ في ذاكرتكم مَا تجري به الأحداثُ الكونيَّة الّتي لا يجريها إلَّا الرّبُّ الخالق، حتَّىٰ تستفيدوا منها ما يهديكم إلى نبذ الشرك الذي أنتم فيه.

(٤) وَجاء التعقيب الرابع بعبارة: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(٥) وجاء التعقيب الخامس الأخير بعبارة موجَّهةٍ للرَّسول ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى الله من أمَّته: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: طالبهم بتقديم برهانهم على أنَّ آلهتكم شَريكَةٌ لِلَّهِ في رُبُوبيَّته، فهي بذلك تَسْتَحِقُّ أَنْ تَكُونَ شريكَةً للَّهِ في إلٰهيَّتِه، ولَنْ يَسْتَطِيعوا أَنْ يُقَدِّمُوا أيَّ دليلٍ مقبولٍ، فضلاً عن أنْ يكونَ دليلاً بُرْهانياً غَيْرَ قابلٍ للنقض.

وعلى هذا النَّسَق تَسِيرُ سائر الأدلّة القرآنيَّة، للإقناع أو الإلزام أو الإفحام بتوحيد الإلٰهية للَّهِ عزَّ وجلَّ، وهي تتضمَّنُ إثبات توحيد الربوبيّة الَّذي يلزَم عنه عقلاً توحيدُ الإلٰهية.

❁ ❁ ❁

## سابعاً: عقائد المشركين في جاهليّاتهم أخذاً من الدلالات القرآنية:

أخذاً من دَلَالات النّصوص القرآنيّة، يُلاحظُ المتتبّع باستقراء تامّ، أنّ عقائد المشركين في جاهليّاتهم تدورُ حول واحدٍ من المفاهيم الباطلة التالية:

**المفهوم الأول**: أنّ الآلهةَ الّتي اتخذوها من دون الله، وصَنَعُوا لها رُمُوزاً من الأوثان، لها بَعْضُ مُشاركةٍ لله في رُبُوبيَّته، فَلَهَا بِهٰذِهِ المشاركة لله في رُبُوبيَّته مُشاركةٌ له في إلٰهيَّتِهِ، فَهُمْ يَعْبُدونَها رَجاءَ أن تَرْحَمَهُمْ فَتَجْلِبَ لَهُم نَفْعاً، أو تَدْفَعَ عنهم ضُرّاً، أو رجاء أن تَحْجُبَ عن أعدائهم نفعاً، أَوْ تُنْزِلَ بأعدائهم ضُراً.

**المفهوم الثاني**: أنَّ الآلِهَةَ الَّتي اتَّخَذُوهَا من دُونِ الله، تُقَرّبُهُمْ إلى الله زُلْفَىٰ.

**المفهوم الثالث**: أنّ الآلهةَ الّتي اتَّخَذُوها من دون الله تَشْفَعُ لَهُمْ عند الله، فَيَرْفَعُ اللّٰهُ عَنْهُم الْعَذَابَ بشفاعَتِها لهم.

**المفهوم الرابع**: أنَّ آلِهَتَهُم الَّتِي اتَّخَذُوا لها أوثاناً يَعْبُدُونها ويُقَدّسونها قد كانت بمثابة رُمُوز رباطِ وحْدَةٍ قوميَّةٍ، تَجْمَعُ أفرادهم على مَوَدَّةٍ توجِبُ عليهم التعاوُنَ والتناصُرَ وكُلَّ ما تقتضيه الأُخُوَّةُ بَيْنَ جماعَةٍ ذَاتِ كَيَانٍ واحدٍ.

وهذا ما كشفه إبراهيمُ عليه السلام لقومه.

قال الله عزَّ وجَلَّ في مَعْرضِ ذِكْرِ لَقَطاتٍ من قِصَّةِ إبراهيم وقومه في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا

مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

أي: جَعَلُوا الأوثانَ الّتي يَعْبُدُونَهَا من دُون الله، رُمُوزَ رابطَةِ مَوَدَّةٍ بَيْنَهُمْ، نَظِيرَ الشِّعَارَاتِ والأَعْلَام الَّتِي تَتَّخِذُها الشُّعُوبُ رُمُوزاً لِوِحْدَتِهِمْ القوميَّة، أو وِحْدَتِهِمْ الوطنيَّة، إلَّا أَنَّهُم أَضَافُوا إلىٰ هٰذِهِ الرَّمْزِيَّةِ تَقْدِيسها وعبادتها من دون الله.

فكشَفَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ بمقالته لقَوْمِهِ الدَّوَافع الأولَىٰ لاتّخاذهم أوْثانهم، ورُبَّما تكُونُ عامَّةُ جماهيرهم جَاهِلَةً بهٰذه الدوافع الأولى، وتعبُدُ الأوثان بالتقليد الأعْمَىٰ، وتَحْسَبُ أنها تنتفع في دنياها بهٰذِهِ العبادة.

## من الأدلَّة القرآنية على المفهوم الأوّل:

وهو اعتقاد المشركين أنّ شُركاءهم الذين يَعْبُدُونهم من دون الله، لهم مشاركة للَّهِ في بَعْضِ خصائص رُبُوبيَّته.

(١) قال الله عزّ وجلّ بشأن المشركين في سورة (يس/٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: لعَلَّ آلِهَتَهُمْ تَنْصُرُهم على أعدائِهم في الحروب الساخنة والباردة بمعوناتٍ غَيْبيَّةٍ، بِسَبَبِ عبادتهم لهم، فالمشركون يطمعون بأن تنصُرَهُمْ آلهتُهم في المواطن الّتي يحتاجون فيها النَّصْر بوَسَائل غيبيّة.

إنّ النَّصْرَ بأعْمَالٍ غَيْبِيَّةٍ تَجْلُبُها عِبَادَةُ طالِبِ النَّصْر، هُو مِنْ خصائص رُبُوبيَّةِ الرَّبِّ جَلَّ جلالُهُ، فَمَنْ عَبَدَ من دون اللَّهِ آلِهةً رَجاءَ أنْ تَنْصُرَهُ آلِهَتُه، فَقَدْ جَعَلَها شريكةً لله في بعض خصائص رُبُوبِيَّته، فجرَّهُ هذا الاعتقاد إلى

جَعْلِها شريكَةً لله عزَّ وجلَّ في إلٰهيته، تعالىٰ الله عن كُلّ ذَلِكَ عُلُوًّا كبيراً.

فآلِهَتُهُمْ من دون الله لا يستطيعون نَصْرَهُمْ، لأنَّهم لا يَملكون شيئاً من الرُّبُوبيَّةِ عَلىٰ أيّ شيءٍ في الكون.

﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾؛ أي: والْمُشْرِكُون يوم القيامةِ يكونُون في مَوْقف الحساب وفَصْل القضاء مُحْضَرِينَ مَعَ آلِهَتِهِمْ عَلَى أَنَّهُمْ جُنْدٌ مِنْ جُنُودهم، وتابعون لهم.

فإذا كانت آلهتُهم عالمين بالأمْرِ وراضين به، أُحْضِرُوا جميعاً في جهنَّم، وإذا كانوا جاهلين أو غير راضين، تبرأ آلهتهم منهم، وأبانوا لبارئهم عُذْرَهُمْ، وأُحْضِرَ عَابِدُوهُم في نار جَهَنَّم لينالوا عذابَ شركهم، خالدين فيه، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ به.

❁ ❁ ❁

(٢) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بشأن مشركي مكّة إبّان التنزيل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

لقد رفض مشركو مكة أن يسْجُدُوا للرَّحْمٰن قائلين: وما الرَّحْمٰن؟ أي: لا نسْجُدُ للرحمٰن، وما الرَّحْمٰن؟! على طريقة الاستفهام الإنكاريّ، دلَّ على هذا الكلام المحذوف حرف العطف (الواو) في صدر جملة: وما الرَّحمٰن؟! ولولا ذلك لكان ينبغي أن يكون تعبيرهم: ما الرحمٰن؟! بدون حرف عطف.

إنّ مشركي مكة كانوا ينكرون صفة الرحمة لله عزَّ وجلَّ، فلا يُطْلِقُون

على الله اسْمَ الرَّحْمٰنِ من أسمائه الحسنى، ويعتقدون أنّ الرحمة من صفات من اتَّخذوهم آلهة من دون الله، فهم يعبدون هذه الآلِهَةَ لترحمهم فتستجيب لمطالبهم.

ومعلوم أنّ الإيمان برُبوبيَّة اللَّهِ جلّ جلالُه لا يكُون تامًّا حتَّى يكون شاملاً لكلّ عناصر ربُوبيته الّتي تَدُلُّ عليها صفاتُه وأسماؤه الْحُسْنىٰ، ومنها اسم الله الرحمٰن الدالُّ على رحمته الّتي وسِعَتْ كُلَّ شيء.

ولمّا كان كُفَّارُ مكَّة غيْرَ مؤمنين بهذا العنصر من عناصر رُبوبيَّة الله تبارك وتعالى أنكروا اسم الله الرَّحمٰن.

إنّهم لاَ يجهلون المعنى الذي يدُلُّ عليه لفظ (الرحمٰن) المشتقّ من الرحمة، ولا يجهلون أنّ من يتصف بالرحمة العظيمة الواسعة يطْلَقُ عليه اسم الرحمٰن، واسم الرحيم.

لكنَّهم غير مؤمنين بأنّ الله الخالق للسماوات والأرض يتّصفُ بالرحمة العظيمة الواسعة التي يَرْحَمُ بها عبادَه، فيفيض عليهم بعطاءات ربوبيَّته، ومنها الرزق، والعافيةُ، والتوفيق، والمعونة، والنصر.

فقولهم الذي ذكره النّصُّ: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؟! باستعمال اسم الاستفهام «ما» يدلُّ على أنهم يستفهمون عن الظواهر الّتي تدلُّ على أنّ الخالق للسماوات والأرض متَّصفٌ حقيقة بالرحمة.

لهذا جاء في النّصّ بيانُ بعض ظواهر رحمته جلّ جلاله، وبيان بعض آياته في كونه الدَّالة على أنَّه الرحمٰن الرحيم.

فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بعباده أنَّه جعل في السَّماء بروجاً، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً، وجعل اللَّيْلَ والنهار يتعاقبان بنظامٍ دقيق، وفي كلُّ ذلك منافع كثيرة للناس، وهذه المنافع من عناية الله ورحمته بعباده.

وسبب نفور المشركين من سُجودهم لله الرّبّ الرحمٰن، أنّهم كانوا يعتقدون أنّ آلهتهم الّتي يَعْبُدُونها من دون الله هي الّتي تجلُبُ لهم المنافع، وتدفع عنهم المضار، وتحقّق لهم النصر، وتُحقِّقُ لهم العزّة والقوة الغالبة، وهذا في الحقيقة اعتقادٌ منهم بأنّ آلِهَتَهُمْ تشاركُ اللَّهَ عزَّ وجلّ في بعض عناصر الرُّبوبيَّة، الّتي لَيْسَ شيءٌ منها لغير الله تبارك وتعالى.

❁ ❁ ❁

(٣) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (مريم/١٩ مصحف/٤٤ نزول) بشأن المشركين:

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾.

**عِزًّا**: العِزُّ والعِزَّةُ الْقُوَّةُ الغالبة، يقال لغة: عَزّ يَعِزُّ عِزًّا وعِزَّةً، إذا قويَ واشتدَّ، وصار ذا قُوَّةٍ غالبة.

أي: واتَّخَذَ المشركون من دون الله آلهةً يعبُدونَهُمْ، ليجازوهم على عبادتهم لهم بأنْ يكونُوا لهم بتأثيراتهم الغَيبيَّة قُوَّةً غالِبَةً، تنصُرُهم على أعدائهم.

وقد زجرهم الله عزّ وجل بكلمة: [كلَّا] أي: لن تكون آلهتهم لهم عزّاً، إذ العزّةُ لله ولرسوله وللمؤمنين.

وحين يَنْصُر الله أولياءَهُ المؤمنين به وبرسوله، ويَمْنَحُهم العِزَّةَ، ويُذِلُّ أعداءَهم المشركين، سَيَكْفُرُ المشكرون بعبادةِ آلِهَتِهم، إذْ يرَوْن أنّها عملٌ باطل، واعتقادٌ فاسِدٌ، وسيكونُون عليهم ضِداً، فيحطّمون الأوثان الّتي كانوا يعبُدونها، ويُشاركون المؤمنين في تكْسِيرها وتحطيمها ومعاداتها، ويسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَةِ الرَّسُول ﷺ إلى توحِيد الرُّبُوبيّة والإلٰهيّة للّهِ عزّ وجلّ.

وقد دلّ على أن هذا سيكون في الحياة الدنيا استعمال (السين) دون (سوف) في عبارة: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ وقد حصل هذا بعد الانتصارات الإسلاميَّة في الغزوات، ولا سيما فتح مكّة.

❋ ❋ ❋

## من الأدلة القرآنية على المفهوم الثاني:

وهو أنَّ الآلِهَةَ التي اتَّخذَها بَعْضُ المشركين من دون الله، ما اتَّخَذُوها ولا عَبَدُوها إلَّا لِتُقرِّبَهُمْ إلى الله زُلْفَىٰ.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول):

﴿... فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾.

**زُلْفَىٰ:** الزُّلْفَىٰ والزُّلْفَةُ الْقُرْبَةُ والمنزلة. يقال لغةً: زَلَفَ إليه يَزْلُفُ زَلْفاً وَزَلِيفاً، أي: دنا إليه وقَرُبَ منه.

ويقال أيضاً: زَلَفَ فُلانٌ الشيْءَ إذا قَرَّبَه وأدناه، ويُقَالُ: أزْلَفه.

ولفظ ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ في النّصّ هنا اسمٌ أقيم مقامَ المصدر، أي: ما نعبُدهم إلَّا ليُقرِّبُونا إلى الله مَنْزِلَة.

لمَّا وضَحَ لبعضِ المشركين أنَّ آلهتهم لا تَمْلِكُ نَفعاً ولا تَمْلِكُ ضُرّاً، لا جلباً ولا دفعاً ولا رفعاً، بَعْدَ أن أقيمَتْ عليهم الحُجَجُ البرهانيَّة، لجَؤوا إلى انْتِحال مَعَاذيرَ لمَا وَرِثُوهُ عن آبائهم وأجدادِهم من عبادتها، فبَدَا لهم أنْ يُعَلِّلُوا عبادَتَهُمْ لَهَا بأنّ الْغَرَضَ منْهُ أنْ تُقرِّبَهُمْ إلىٰ اللَّهِ مَنْزِلَةً، وهذا يَتَضَمَّنُ أنّ الله أذِنَ بعبادتها لتحقيق هذه الغاية.

فأبانَ اللَّهُ عزّ وجلّ أنَّهُمْ كاذِبُون في مقالتهم مُبالِغُون في الكُفْرِ بالله عزّ وجلّ، فقال تعالى في النّصّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

أي: إنّ تَعِلَّتَهُمُ الّتِي قَدَّمُوها لا تَجْعَلُهم عنْد الله مَعْذورِين، فلا يَحْكُمُ اللَّهُ لهم بالهداية والنجاة من عذاب المشركين، لأنَّ الله لَا يَهْدِي (أي: لا يَحْكُمُ بِهِدَايَةِ) مَنْ هُو كاذِبٌ كَفَّار.

إنّ عبادَةَ أولياء من دون الله لتُقَرّبهم منزلةً عند الله لاَ تَكُونُ إلّا بأمْرٍ من الله أوْ إذْن، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يأذن بعبادة غيره كائناً ما كان، واعتبرها من الشِّرْك الّذي لا يغْفِرُهُ، في كلّ ما أنزَلَ من بيانات، وفي كلّ ما أرْسَل من رسالات.

فادّعاءُ أنَّ عِبادَتَهُمْ لأوليائهم تُقَرِّبهم إلى الله زُلْفَىٰ ادّعاءٌ كذِبٌ على الله، لا دليلَ عليه من العقل، ولا دليل عليه من بيان صحيحٍ في نصٍّ من كتُب الله، أو قولٍ عن رسول من رُسله.

وتقديمهم هذا الْعُذْرَ تَزْيينٌ لما هم فيه من كُفْرٍ، ومبالغَةٌ في الإصرار عليه.

ولمّا كان للمشركين مذاهِبُ في الشّرك مختلفة، وكانَتْ محكمة العدل الرَّبّانية مؤجَّلة إلى يَوْم الدين، قال الله عزَّ وجلَّ في النصّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ...﴾.

والله عزّ وجلّ لا يظلم في أحكامه أحدًا من عباده مثقال ذرّة.

❁ ❁ ❁

### من الأدلة القرآنية على المفهوم الثالث:

وهو أنّ الآلهة التي اتّخذها بَعْضُ المشركين من دون الله، إنّما عَبَدُوها لتشفَعَ لهم عند الله، فيرفَعَ اللَّهُ عنهم العذابَ بشفاعتها لهم.

(٢) قال الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) بشأن المشركين:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾.

أبان هذا النَّصُّ أَنَّ فريقاً من المشركين يَعْبُدونَ آلهةً مِنْ دُون الله يَعْتَقِدُون أَنّها لَا تَضرُّهم، فهم يَعْبُدونها لا لتَكُفّ ضررها عنهم، وأَنَّها لَا تَنْفَعُهم فهم يعْبُدونَها لا لِتَنْفَعَهُم في أمور دُنياهم، بلْ يَعْبُدونها لتكون شفعاءهم عند الله. [وَيَقُولُونَ: هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤنَا عِنْدَ اللَّهِ].

لكنّ مقولتهم هذه مقولَةٌ كاذبة لا دليل عليها من عَقْلٍ صحيح، ولا دليلَ عليها من بيانٍ ثابتٍ عن الله أو عن رسولٍ من رسُله.

بل تُثْبت الأدلة العقليّة أنّ العبادة لا تكونُ إلَّا لِلَّهِ الرَّبِّ وحده لا شريك له، وتثبت البيانات الدينيَّةُ أَنَّ عبادةَ غيْرِ الله كُفْرٌ باللَّهِ صاحبِ الحقّ في العبادة، فإذا كانت مع عبادة اللَّهِ فَهِيَ شِرْكٌ.

وإثباتُ الشفاعة لمعبوداتهم، واعتقادُ أنَّها تَشْفَعُ لَهُمْ عند الله، هو من الافتراء على الله، إذْ لم يثبُتْ عن اللَّهِ عزّ وجلّ شيءٌ من ذلك.

وقد جاء بَيَانُ كَذِبهم وافترائِهم على الله في ادّعاء أنّ آلهتهم تَشْفَعُ لهم عند الله، بأسْلُوب من البيان بديع، فقال الله عزّ وجلّ معلّماً رسَولَهُ فكُلَّ داعٍ إلى دين الله من أُمّته:

﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾.

أي: شفَاعَةُ الشفعاء عند الله قَضِيَّة لا تُعرَفُ إلَّا بِبَيَان مُنَزَّلٍ عن الله جلّ جلالَهُ، ولا تتحقّقُ الشفاعة لأحد عند الله إلّا بقضاءٍ من الله يصْدُر به أَمْرٌ أو إذْن.

لكنّ وجُودَ آلهة من دون الله يُقْصَدُ بِعِبَادَتِها أن تشفع لعابديها عند الله قَضِيَّةٌ لَا يَعْلَمُها اللَّهُ، كما أبَانَ الله عزّ وجلّ في الآية، وهُوَ العليم بكلّ شيءٍ، بَلْ يَعْلَمُ نقيضها، وهو أنَّه لا وُجُود لآلهة من هذا القبيل.

فالباطل يعْلَمُ اللَّهُ أنه باطل، ولا يَعْلَمُ أَنَّه حقٌّ، والمعدومُ يعْلَمُ اللَّهُ أنَّهُ مَعْدُومٌ، ولا يَعْلَمُ أَنَّهُ موجود فعدم علم الله بشيءٍ هو علم بنقيضه.

وإذا كان شيءٌ لا يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ حقٌّ، فهو يَعْلَمُ حتماً أَنَّهُ غَيْرُ حَقٍّ.

والذينَ يُثْبِتُون آلِهَةً تشفع لهم عند الله يُنَبِّئُونَ اللَّهَ بما لَا يَعْلَمُ في السَّمَاوات ولا في الأرض، فهم كاذبون مَفْتَرون على الله جلّ جلاله، وهم مُشْرِكون.

❀ ❀ ❀

(٢) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر/٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) بشأن المشركين:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: بل اتَّخَذَ المشركون من دون الله آلهةً بقصد أن تكون شُفَعَاءَ لهم عند الله؟!

قل لهم أيها الداعي إلى التوحيد ونَبْذِ الشرك: أتتخذون آلهة لَتَشْفَعَ لكم عند الله ولو كانوا لَا يَمْلِكُونَ من أمْرِ اللَّهِ شيئاً شفاعةً فما فوقها، ولَوْ كانوا أصناماً لا تفهم شيئاً، أَوْ أحياءً ذَوَاتَ أهواء لَا تَعْقِل أهواءها عن الوقوع في المهالك وفي عذاب الله؟!!

قل لهم: لله الشفاعة جميعاً، فما من شافِعٍ يَشْفَعُ عنده إلّا بإذنه. له

مُلك السماوات والأرض، وإليه تُرجعون للحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء.

❁ ❁ ❁

وأمّا المفهوم الرابع فقد سبق بيان الدليل عليه عند ذكره، والحمد لله على فتحه وتوفيقه.

**ثامناً:**

**خطأ الرأي القائل إنَّ العربَ في جاهليتهم كانوا يؤمنون بتوحيد الربوبيَّة.**

لدىٰ تتبع النصوص القرآنيّة الّتي تتحدَّث عن شِرْكِ مشركي العرب قبل تنزيل القرآن وإبَّانَ تنزيله ظهر لي:

(١) أنّ معظمهم كانوا يُؤمنون بأنّ الذي خلَقَ السماوات والأرض هو الله العزيز العليم.

(٢) لكِنَّ هؤلاء كانوا يَرْبطون رزقهم وحياتهم وتدبير أمورهم، وما يُصيبهم من منافع تَسُرُّهم، ومضارّ تسؤوهم، بآلهتهم الَّتي اتّخذوها من دون الله، ويعتقدون أنّها هي الّتي تنفعُ وتَضُرُّ.

أمّا الله الرَّبّ الخالِقُ فَرُبُوبِيَّتُه ربوبيَّةُ التكوين، لا ربوبيَّةُ التَّدْبير والعناية بما خلق، ولا رُبوبيَّةُ الرَّحْمٰنِ الذي يرْحَمُ عباده، فيُمِدُّهُمْ بعطاءاته ويدفَعُ عنْهُم الضُّرَّ، ويَكْشِفُ عنْهُمُ السُّوءَ، ولا رُبُوبيَّةُ المهيْمِنِ على كلّ شيءٍ، الّذي يراقب أعمال العباد ليجازيهم بحَسَبِها، إنْ خيراً فخيرٌ، وإن شرًّا فَشَرٌّ.

وفيما يلي استعراض طائفة من النصوص القرآنيّة حول هذا الموضوع، مقرونةٍ بنظراتٍ تدبُّرِيَّة.

## النصّ الأول:

قَوْل الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) يُعَلِّم رسُوله فكُلَّ داعٍ إلى الله من أمّته، أسْلُوبَ محاجَّةِ المشركين عن طريق طرح الأسئلة:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤)﴾.

هذا النّص النازِلُ في أواسط المرحلة المكيّة لم يَأْت التَّعبير فيه عمَّا يُجِيبُ به المشركون: «لَيَقُولُنّ: الله» إنما جاء التعبير فيه: [فَسَيَقُولُونَ: الله].

أي: فسَيَقُولونَ لمُناظِرهم بعد إقامَةِ الْحُجَجِ والبراهين عليهم: [الله] بدليل وجود حرف الاستقبال الذي هو «السّين» إذْ هو يَدُلُّ على أنَّ الجوابَ غيْرُ حاضرٍ في أذهانِهِمْ، وفي الجاهزٌ من عقائدهم، حتَّىٰ يقولوه، فالأسئلة في النّصّ موجَّهَةٌ لمعرفة عقائدهم بشأن مَنْ يرْزُق، ومَنْ يَمْلِكُ السمع والأبصار، ومن يحيي ويميت، ومن يُدَبّر الأمر في الكون كلّه، وهم يعتقدون أنّ هذه الأمور من خصائص الآلهة الّتي يعبدونها من دون الله، فهم بهذا يَجْعَلُونَ لله شركاء فيما هو من خصائص ربوبيته.

فاقتضى واقع حالهم تصحيح عقيدتهم حول توحيد كلّ عناصر الرُّبوبيّة لله عزّ وجلّ، حتَّىٰ يقتنعوا بضرورة توحيد الإلَهيَّة له، فلا يُشْرِكوا بعبادته أحداً.

وهذا التصحيح يكون بالمناظرة المنطقيّة العقليّة، وإقامة الحجج والأدلة البرهانية.

## النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول) بشأن المشركين:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾.

تَضَمَّنَ هذا النّصّ أنّ إيمانَهم بأنّ الله عزّ وجَلَّ هُو الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْض، إيمانٌ حَاضِرٌ في أذهانهم، وثابتٌ في عقيدتهم، لَا يحْتَاجُ محاجَّةٌ ولَا مُنَاظَرة، فجوابُ السؤال عنه جاهزٌ لديهم، وجاء التعبير الذي يعبّرون به بصيغة: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

لكنّ خلق السَّماوات والأرض لا يشْمَل كُلّ عناصر رُبوبيّة الرّبّ جلّ وعلا، فهم يؤمنون بهذا العنصر، لكنَّهُمْ لا يؤمنون بأنّ الله هو الذي يرزقهم، ويمدّهم بعطاءات ربوبيته، ويُدَبّر الأمْرَ كُلَّهُ في كلّ شيءٍ من الكون ومن العباد، إنَّهم يَجْعَلُونَ هذه الأمُور من أعمال آلِهتهم، وهذا شِرْكُ بربوبيَّة الله عزّ وجلّ، وهذا الشّركُ جرّهم إلى أن يعبدوا آلِهَتَهُمْ لِتُحقِّق لهم مطالبهم من دُنياهم.



## النصّ الثالث:

قَوْل الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

في هذا النصّ تعليم جدليّ يبدأ مِنْ أرضيَّةٍ مُشْتَرَكة بين الداعي إلى توحيد اللَّهِ في الرُّبوبيَّةِ وفي الإلَهيَّةِ، وبين المشركين.

أمّا الأرضيَّةُ المشتركة، فهي إيمانهم بأنَّ اللَّهَ هو الذي خلَقَ السَّمَاواتَ والأَرض، وهم يعترفون بهذه الحقيقة بتلقائيَّة، لذلك فهم يقولون في جواب السؤال عمَّنْ خلَقَ السَّماوات والأرض دون تريُّثٍ: [الله] وجاء التعبير القرآني: [لَيقُولُنَّ اللَّهُ].

عندئذ يَنْقُلُهم الداعي إلى عناصر أُخرَىٰ من عناصر رُبوبيَّةِ الله، وهي من الأمور الّتي يجعلونها لشركائِهم، فجرَّهُمْ اعتقادُهُم الباطل إلى عبادتها، ويُقيمُ لهم البراهين على أنّ آلهتهم لا تَمْلِكُ شيئاً منها.



**النصّ الرابع:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) يعلّم الله رسُوله ﷺ فكُلَّ دَاعٍ إلى دين الله من أُمته أسلوباً من أساليب مجادلة المشركين:

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

موضوعاتُ الأسئلة الموجهة في هذا النّص للمشركين، تَتَعلَّقُ بعناصر من عناصر رُبوبيَّة الله لكونه، وهي عناصر لا يؤمِنُ المشركون بأنّ للَّهِ عزَّ وجَلَّ رُبُوبيَّةً عليها، بل يَجْعَلُونَ الرُّبوبيَّة عليها لشركائِهم التي يعبدونها من دون الله.

لكن بَعْدَ أنْ يَقَدِّم الدّاعي إلى اللَّهِ حُجَجه وبراهينه، سيقول من لديه استعداد للإيمان بالحقّ منهم: إنّ الرُّبوبيَّة حقًّا هي لله عزّ وجل، في الموضوع الذي جرى حوله سؤال الداعي.

وقد اشتمل النصّ على أسئلة ثلاثة، وجاء عقب كلّ سؤال منها بيان أنّ المشركين [سَيَقُولُونَ لله] فجاء في العبارة حرف الاستقبال الذي هو «السين» للدّلَالَة على أنّ المشركين ليسَتْ لديهم عقيدة حاضرة بأنّ الربوبيَّة في موضوعات الأسئلة الثلاثة هي لله، بل هي لشركائهم.

لكنَّ الحجَجَ والبراهين تُلْزِمُهُمْ مُسْتَقْبلاً بأنْ يَعْتَرِفُوا بالحقّ، ما لم يكونوا من المعاندين المكابرين المصرِّين على الباطل الذي ليس لهم دليلٌ عليه.



**خاتمة:**

إن الذين قالوا: إنّ مُشْرِكي العرب كانوا يؤمنون بتوحيد الرُّبوبية لله عزّ وجلّ، إلّا أنهم لم يكونوا يؤمنُون بتوحيد الإلهيَّة له، لم يَتَنَبَّهوا إلى الفرق الكبير بين العبارة القرآنية [لَيَقُولُنَّ الله] والعبارة الأخرى [فسيقولونَ الله] أو [سيقولُون لله]. ولا إلى الفرق الكبير بين المسؤول عنْهُ في المناظرة، هل هو خَلْقُ السَّماوَات والأرض، الذي هو بعض عناصر الرّبوبيّة، أو هو قضايا الرزقِ، والرحمة، والنصر، والعناية بالعباد، والإحياء والإماتة، وتَدْبيرِ كلِّ شيء في الكون في الأرض وفي السماء، وهذه القضايا واقعة تحت سلطان ربوبيَّةِ الله، وقد جعل المشركون الرُّبوبيَّة عليها لآلهتهم التي يَعْبُدونها من دون الله.

وسبب الخطأ التعجُّل في الفهم، وإغفالُ استقراء النصوص، وعَدَمُ تَدَبُّر معانيها بسَبْرٍ عميق.

❁ ❁ ❁

## تاسعاً: القبوريُّون من المسلمين:

تبدَأُ الانحرافاتُ إلى الشرك على اختلاف دركاته من الغُلوّ في تعظيم الصالحين، الّذين قَدْ يُجْرِي الله عزَّ وجلّ لهُمْ بعض الكرامات المادّيّة أو المعنويّة.

ويتعلَّقُ عَوامُّ المسلمين بقبورهم بعْدَ موتهم، وتعظُم شجرة الاعتقاد بولاياتهم، وبأنَّهم أهل الله وخاصّته.

ثمّ يتدرَّج المعظِّمون لهم إلى التوسُّل بهم إلى ربّهم، رَجَاء أن يُحَقِّق الله لهم مطالبهم، إكراماً لهم باعتبارهم من أوليائه الصالحين.

ثُمَّ يقوم في ظنّ هؤلاءِ المعظِّمين للموتى من الصالحين أن يُرضوهم ببذل شيءٍ لأرواحهم، كذبائح يذبحونها لهم، وقربانات يتقربون بها إليهم، وهي من نوع عبادات المشركين لأوثانهم، وكأموال يبذلُونها لأضرحتهم، وهذه الأموال يَسْتَحْوذُ عليها سدنة الأضرحة، والقائمون عليها.

ويتفاقم الأمر حتى يقوم معظِّمو هذه الأضرحة بأعمالٍ تشبه الركوع والسجود والطواف، وهي من العبادات الّتي لا تكون إلّا لله عزّ وجلّ، ويرافق هذه الأعمال نداءُ الموتَىٰ وسؤالُهم أن يحققوا لهم مطالبهم في حياتهم، ولو بالتوسل لهم، والشفاعة لدى بارئهم، وهذه المطالب تتعلّق بالرزق، أو التوفيق في الأعمال، أو الزواج، أو الحمل والولادة، إلى غير ذلك من مطالب الناس في حياتهم.

وعندئذٍ تضاهي أحوال هؤلاء أحوال المشركين من أهل الجاهليّة، ويدخلون تحت قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

فالواجب سدُّ الذريعة مُنْذُ بوادرها الأولَىٰ، واقتلاع نبتاتها منذ بداياتها مهما كانت خفيفة، حتَّىٰ لا تتفاقَمَ في نفوس الجاهلين، فالنفوسُ البشريّة سَريعةُ الإنْسِيَاق وراء الأوهام إلى أوديةِ الشّرْكِ الخفيّ، فالشّرْكِ الجليّ.

نعوذ بالله من كلّ شرك، ونسأله العصمة والحفظ والحماية، وسلامة الاعتقاد وسلامة العمل، إنّه سميعٌ مجيب.

إنّ الذين يُنادُون أهل القبور دُعاءً وتوسُّلاً يدخلون في عموم قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿... ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

**من قِطْمير**: القِطْمِيرُ القشرة البيضاء الرقيقة التي تكون حول النواة، تفصل بين التمرة ونواتها.

فالواجب على المؤمن أن يسألُ الله عزّ وجلّ مباشرة في كلّ أمْرٍ من أمور آخرته أو دنياه، ولو رأىٰ نفسه كثير المعاصي والمخالفات، فالدُّعاءُ من أجلّ العبادات وأوصلها إلى الله متَىٰ كان خالصاً لله من الشرك وشوائبه.

❁ ❁ ❁

## عاشراً: الدهريّون والملْحِدُون الماديّون:

### الدهريّون من أهل الجاهليات الأولى:

قَصُرَتْ نظراتُ عُبَّادِ أهوائهم وشهواتهم مَنْذُ الجاهليات الأولىٰ، فرأَوْا أنّ التَّغيُّراتِ الكونيَّة، والأحداثَ المتنوّعة الّتِي تَجْرِي في الأرض

وفي السماء، تأتي ضِمْنَ مُرورِ الأزمان من نَهْرِ الزّمَنِ الْكُلّيّ الجاري الّذي يُطْلِقُونَ عليه لفظ «الدهر» فتوهَّموا أنَّ الدّهر هو المؤثر في أحداث الكون، من بناءٍ وهدم، واجتماعٍ وافتراق، وليلٍ ونهار، وفصولٍ سُنَوِيَّةٍ دائرةٍ، وحياةٍ وموت، وإنشاءٍ وَإفناءٍ، وأنكَرُوا وجود رَبٍّ خالقٍ مُهَيْمنٍ علىٰ الكون، ومُتَصرّفٍ فيه بعلمه وحكمته وقدرته، ضِمْنَ قضائه وقَدَرِهِ الحكيمَيْن، وقالوا: مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ ونَحْيا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهر.

وانْطَلَقُوا خاضعينَ ذَلِيلينَ مُطِيعن لأهوائِهم وشهواتِهم، مَهْما حَمَّلَتْهُمْ من أعْبَاءٍ ومَشَقَّاتٍ، حتّى دَرَكَةِ التضحيةِ بالحياة كلّها.

فَمَا كانَ يَجِبُ أنْ يكونَ لله عزّ وجلّ من عبادَةٍ بالطَّاعَةِ والخضوعِ والذُّلّ، جَعَلُوهُ لِأَهْوَائهم، وشَهَوَاتِهِمْ، ومَطَالِبِ نُفُوسِهِمْ.

### الملحدون المادّيُّون المعاصرون:

ورأىٰ المِلحِدُونَ المادِّيُّونَ المعاصِرُون عُبّادُ أهوائهم وشهواتهم، أنّ ذرَّاتِ الكَوْن تتحرَّك باسْتمرار، فأضافُوا إلى فِكْرَةِ الدهريّين القدماء عاملاً آخَر مع عامل مرور أجزاء الزّمن من الدهر الجاري باستمرار، وهو عامل حركَةِ أجزاء الكَوْن، فَتوهَّمُوا أنّ تغيّراتِ الكون وأحداثه تتحقّق بمؤثِّرين:

**المؤثر الأول:** حركَةُ أجْزَاء الكَوْنِ المستمرّة الّتي يَحْصَل بها اجتماعٌ وافتراق وتفاعل.

**المؤثر الثاني:** مُرور الزّمن.

وانتهوا إلى النهاية الّتي انْتَهىٰ إليها الدهريون القدماء، فأنْكَرُوا وجُودَ رَبٍّ خالقٍ مُهَيْمِن على الكون ومتصرِّف فيه، وانْطَلَقُوا خاضعين ذَلِيلين مطيعين لأهوائهم وشهواتهم، مهْمَا حَمَّلَتْهُمْ من أعْباءٍ ومشقّاتٍ، حتّىٰ دَرَكَةِ التضحية بالحياة كُلّها.

ونستطيع أن نطلق على هؤلاء عنوان «الدهريون المادّيون» وهم أشباه الدهريّين من أهل الجاهليات الأولى.

وكُلُّ واحدٍ من الفريقين قد اتخذ إلَـهه هواه، وينطبق عليهم جميعاً قولُ الله عزّ وجلَّ في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول):

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾: أي: جَعَلَ مَعْبُودَهُ في حياته هَوَاهُ، فَهُو يُطِيعُه في كلّ مطالبه، ويخضَعُ له ويَذِلُّ، ولَوْ جَرَّهُ إلى أوديَةِ العذابِ، وألقاه في المهالك.

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: أي: وحَكَمَ اللَّهُ عليه بالضَّلالِ استناداً إلى واقع حالِه الضَّالِّ عن صراط الحقِّ والهدَىٰ، وهذا الواقع مشمولٌ بعِلْم الله الذي لا يَعْزُبُ عن علْمِهِ مثقالُ ذَرَّةٍ في الأَرْضِ ولا في السَّمَاواتِ ولا في الوجود كلّه.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً﴾: أي: وكَانَ من أثَرِ ضَلَالِهِ الْبَعِيد عن صِرَاطِ الحقِّ والهدى، أن تَتَحقَّقَ فيه سُنَّةٌ من سُنَنِ اللَّهِ في عبادِه، الَّتِي تَجْرِي بِهَا مَقَادِيرُهُ الْعَامَّةِ، وهي الْخَتْمُ علىٰ سَمْعِهِ، فَهُوَ لَا يَسْمَعُ دَعْوَةً إلىٰ الْحَقِّ والْهُدَى، والْخَتْمُ عَلَىٰ قَلْبِهِ، فَهُوَ لا يُفَكِّرُ في أَدِلَّةٍ تَهْدِيهِ إلى الحقّ، والْغِشَاوَةُ على بَصَرِهِ، فَهُوَ لَا يَرىٰ آياتِ اللَّهِ في كونه.

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ﴾: أي: فَمَنْ يَحْكُمُ لَهُ بالْهِدَايَةِ بَعْدَ أَنْ حكم الله عليه بالضلال حكماً مبْنِيًّا عَلَى علْمٍ بحاله الضّال.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾: أي: أفَلَا تَضعُونَ هٰذه الحقائق في ذاكراتِكُمْ لتميّزُوا بَيْنَ أهل الضلالَةِ وأهل الْهُدَىٰ.

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾:

لمّا اتّخذ هؤلاء الْجَاحِدُونَ لِرَبّهم، آلِهَتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ، وانْطَلَقُوا يمارسون القبائِح والمنكرات وَيُفْسِدُون في الأرض، أخَذُوا يدافِعُون عن جرائِمِهم بأنَّهُمْ لا يخشَوْنَ من عِقَابِ أحدٍ، إذْ لا رَبَّ في الوجود يجازي النَّاسَ بالعدل على أعمالهم، وهم يَغْتَنِمُون ما يَلذُّ لهم في حياتهم، الّتي ليس لهم حياة بعدها، وقالوا: ما هِي إلّا حَيَاتُنَا الدُّنيا، أمْوَاتٌ يموتون، وأحياءٌ يَحْيَوْنَ، وما يُهْلِكُنَا بالموتِ إلّا مُرُور الزمن من نهر الدهر الذي لا نهاية له.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾: أي: ومَا لَهُمْ بذلك الذي قَالُوهُ مِنْ عِلْمٍ اعتَمَدُوا عليه، بلْ هم يتّبِعُونَ ظنًّا ضعيفاً لَا تَقُومُ بِهِ حُجَّةٌ صَحيحةٌ مقبولَة، ومعلومٌ أنّ الظنَّ لَا يغني من الحق شيئاً.

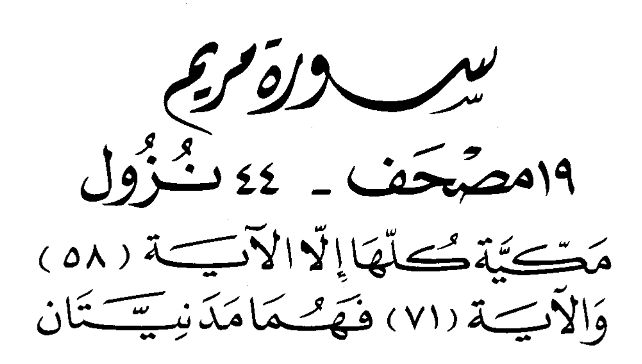
وحين تُقَدَّمُ لهم آياتُ الله البيّنات المثبتَاتُ لرُبوبيّة اللّهِ وإلهيَّتِه وَعَدْله، وَمَا أنبأ به من الحساب وفصل القضاء والجزاء يوْم الدّين، يَوْم يَبْعَثُ اللّهُ الموتَىٰ لإقامة عدله وفضله في عباده، لا يجدون حجّةً يَحْتَجُّونَ بها إلَّا أنْ يقولُوا: ائْتُوا بآبائِنَا إنْ كنْتُمْ صَادِقين بخبر البعثِ إلى الحياة مرَّةً أخْرَىٰ.

إنّهم سيَنْدَمُون يوم يُبْعثون، يَوْمَ لا ينفعهم النَّدم شيئاً، وسيخلُدُون في عذابِ السعير، في جهنَّمَ وبئْسَ المصير.

وبهذا انتهىٰ الملحق الثالث والحمد لله على معونته وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁





# سورة مريم

## ١٩ مصحف ـ ٤٤ نزول

مَكِّيَّة كُلُّهَا إلَّا الآيَة (٥٨)
وَالآيَة (٧١) فهُمَا مَدَنِيَّتَان

## (١)

# نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ

١ ـ سكت أبو جعفر على كُلّ حَرْف سكتة لطيفة بدون تنفس من [كهيعص]، وباقي القراء العشرة ليس لديهم هذا السكت.

٢ ـ مع ٣ ـ قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [زَكَرِيَّا إِذْ] دون إثبات همزة: زكرياء. وقرأ باقي القراء العشرة: [زَكَرِيَّاءَ إِذْ] بإثبات همزة: زكرياء إذ».
وسهّل الهمزة الثانية: نافع، وابن كثير، وأبو جعفر، وأبو عمرو، ورُوَيس.

٥ ـ قرأ ابن كثير: [من وَرَائِي] بفتح ياء المتكلّم. وقرأ باقي القرّاء العشرة بإسكان ياء المتكلم هذه، وهما وجهان عربيان.

٦ ـ قرأ أبو عمرو، والكسائي: [يَرِثْنِي وَيَرِثْ] بجزم الفعلين على أنهما جواب الطلب في: [فَهَبْ] وقرأ باقي القرّاء العشرة: [يَرِثُنِي وَيَرِثُ] برفْع الفعلين، على اعتبار أنَّ جملة [يَرِثُنِي] صفة لـ [وَلِياً] أي: ولياً وارثاً لي.

٧ ـ قرأ حفص، وحمزة والكسائي، وخلف: [يَا زَكَرِيَّا إِنَّا] بحذف الهمزة من «زَكَرِيَّا» وقرأ باقي القراء العشرة: [يَا زَكَرِيَّاءُ إِنَّا] بإثبات همزة «زَكَرِيَّاء».
وسهَّل الهمزة الثانية وأبدلها واواً خالصة: نافع، وابن كثير، وابو عمر، وأبو جعفر: ورُوَيس.

=

يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ

٧ - قرأ حمزة: [نَبْشُرُكَ] من فعل «بَشَرَه» وقرأ الباقون: [نُبَشِّرُكَ] من فعل «بَشَّرَه» وهم لغتان.

٨ - قرأ حفص، وحمزة، والكسائي: [عِتِيًّا] بكسر العين. وقرأ الباقون: [عُتِيًّا] بضم العين، وهما لغتان.

٩ - قرأ حمزة والكسائي: [وَلَقَدْ خَلَقْنَاكَ] وقرأ الباقون: [وَلَقَدْ خَلَقْتُكَ] القراءتان تدلان على بيانين لزكريًا.

١٠ - قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [لِيَ آيَة] بفتح ياء المتكلم، وقرأ الباقون بإسكانها، وهما وجهان عربيان.

١٨ - قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [إِنِّيَ أَعُوذُ] بفتح ياء المتكلم. وقرأ باقي القراء العشرة بإسكانها.

بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا

---

١٩ ـ قرأ قالون بخُلْف عنه، وورش، وأبو عمرو، ويعقوب: [لِيَهَبَ لَكِ] أي: رَبُّكَ. وقرأ باقي القراء العشرة: [لِأَهَبَ لَكِ] أي: لأكون سبباً في إيصال هِبَةِ رَبّك لك. ودلت القراءتان على أنّ جبريل عليه السلام أبلغ مريم البيانين كليهما. فأبان لها الواهب وأبان لها السَّبب.

٢٣ ـ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب: [مُتُّ] بضم الميم. وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مِتُّ]بكسْر الميم. وهما وجهان عَربيان.

٢٣ ـ قرأ حفص، وحمزة: [نَسْيًا] بفتح النون. وقرأ باقي القراء العشرة: [نِسْيًا] بِكَسْرِ النون. وهما وجهان عَربيان.

٢٤ ـ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وشعبة، ورُويس: [مَنْ تَحْتَهَا] أي: الّذي هو تحتها، على أن «مَنْ» اسم موصول.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مِنْ تَحْتِهَا] على أنّ «مِنْ» حَرْفُ جَرٍّ.

والقراءتان هُما من قبيل التَفنُّنِ الجميل في التعبير، مع إفادة «مَنْ» الموصوليّة أنَّ المنادي حيٌّ ذو عِلْم.

٢٥ ـ قرأ حَفصٌ: [تُسَاقِطْ] وقَرأ حمزة [تَسَاقَطْ] أي: تَتَساقَطْ.

وقرأ يعقوب: [يَسَّاقَطْ] أي: يَتَسَاقَطُ، وقرأ باقي القراء العشرة: [تَسَّاقَطْ] أي: تَتَسَاقط، وهذه القراءات من التفنّن البديع في التعبير، والمؤدّى واحد.

تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا

٣٠ - قرأ حمزة [آتانيْ الكِتَابَ] بإسكان ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بفتحها وهما وجهان عربيان.

٣٤ - قرأ ابن عامر، وعاصم، ويعقوب: [قَوْلَ الْحَقِّ] بنَصْبِ «قَوْلَ» وقرأها باقي القراء العشرة: [قَوْلُ الْحَقِّ] برفع «قول». وهما وجهان إعرابيان جائزان.

٣٥ - قرأ ابن عامر: [كُنْ فَيَكُونَ] بنَصْب «فَيَكُونَ» على أن الفاء سببيَّة والفعل بعدها منصوب بأن مضمَرة وجوباً. وقرأ باقي القراء العشرة: [كُنْ فَيَكُونُ] برفع «فَيَكُونُ» على أنّ الفاء حرف عطف، أيْ: كُنْ فهو يكون فوراً.

٣٦ - قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي] بفتح همزة «أَنَّ» على أنّ الجملة معطوفة بالرفع على [والسَّلَامُ عليَّ]. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي] بكسر همزة «إِنَّ» على أنَّها واقعة في ابتداء الكلام والواو استئنافية، والقراءتان متكاملتان.

صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟
مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ
ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ
ٱلْأَمْرُ ۖ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ
عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا
نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا
يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ
فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ
ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ
عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ

٣٦ ـ قرأ قُنْبُل، ورُوَيس [سِرَاطٌ] بالسين، وأشَمَّ الصاد زاياً خَلَفٌ عن حمزة. وقرأها باقي القراء العشرة: [صِراطٌ] بالصاد. وهي وجوه عربية في نطق الكلمة.

٤٠ ـ قرأ يعقوب: [يَرْجِعُونَ] بالمبني للمعلوم، وقرأ باقي القراء العشرة [يُرْجَعُونَ] بالمبني لما لم يُسَمَّ فاعله. والقراءتان متكاملتان، أي: يُرْجَعُونَ بأمر الله، فيَرْجعون مطاوعين.

٤١ ـ قرأ هشام: [إِبْرَاهَامَ]. وقرأ الباقون: [إِبْرَاهِيمَ]. وهما وجهان لنطق اسمه في العربية.

٤٢ ـ قرأ ابن عامر، وأبو جعفر: [يَا أَبَتَ] بفتح التاء في هذه وفي المواضع الثلاثة الأخرى (٤٣) و(٤٤) و(٤٥). وقرأها الباقون: [يا أبتِ]، وهما وجهان عربيّان جائزان.

٤٣ ـ في كلمة [صِراط] القراءات التي سبقت في الآية (٣٦).

٤٥ ـ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [إِنِّيَ أَخَافُ] بفتح ياء المتكلم. وقرأ الباقون بإسكانها.

ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ

---

٤٦ ـ في [يا إبْراهيمُ] القراءات التي سبقت في الآية (٤١).

٤٧ ـ قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [رَبِّيَ إِنَّهُ] بفتح ياء المتكلم، وقرأ الباقون بإسكانها.

٥١ ـ قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخَلَف: [مُخْلَصاً] بفتح اللّام. وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مُخْلِصاً] بكسر اللام. والقراءتان متكامِلَتان في أداء المعنى المراد، أي: هو مخلِصٌ لله، وقد جعله الله مُخْلَصاً.

٥١ ـ قرأ نافع: [نَبِيئاً] بياء مدّية وهمزة بعدها. وقرأها باقي القراء العشرة: [نبيّاً] بياء مشدّدة. وهما وجهان لنطق الكلمة في العربية.

٥٣ ـ في كلمة [نَبيّاً] القراءات التي سبقت في الآية (٥١) وكذلك في الموضعين الآخرين في الآية (٥٤) وفي الآية (٥٦).

عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا

٥٨ ـ وقرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيهُمْ] بضم الهاء. وقرأ الباقون [عَلَيهِمْ] بِكَسْرِ الهاء. والقراءتان وجهان عربيَّان في النطق.

٥٨ ـ قرأ نافع: [من النَّبيئينَ]، وقرأها الباقون: [مِنَ النَّبِيِّين]. والقراءتان وجهان عربيان في النطق.

٥٨ ـ قرأ أبو جعفر: [وإِسْرَايِيلَ] بالتسهيل مع المدّ والقصر. وقرأها الباقون: [وإسْرَائِيلَ] بالتحقيق. والقراءتان من وجوه النطق الجائزة في العربية.

٥٨ ـ قرأ حمزة، والكسائي: [وَبِكِيّاً] بكسر الباء. وقرأها الباقون: [وَبُكيّاً] بضم الباء. وهما وجهان عربيان.

٦٠ ـ قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرُو، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب: [يُدْخَلُونَ الجنَّة] بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله. وقرأ باقي القراء العشرة: [يَدْخُلُونَ الجنَّةَ] بالبناء للمعلوم.

والقراءتان متكاملتان في تأدية المعنى المراد، أي: يُدْخلهم الله فيدخلونها حامدين.

٦٣ ـ قرأ رُوَيس: [نُوَرِّثُ] بتشديد الراء من فعل: «وَرَّثَ» المضعف، وقرأها باقي القراء العشرة: [نُورِثُ] من فعل «أَوْرَثَ» المهموز. والقراءتان متكافئتان، إذ الهمز أخو التضعيف.

خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا

٦٦ ـ قرأ ابن ذكوانٍ بخُلفٍ عنه: [إذا] بحذف همزة الاستفهام. وقرأ الباقون: [أءِذَا] بإثبات همزة الاستفهام، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

٦٦ ـ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب: [مُتُّ] بضم الميم. وقرأ الباقون: [مِتُّ] بِكَسْرِ الميم. وهما وجهان عربيان.

٦٧ ـ قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم: [أَوَ لاَ يَذْكُرُ] من فعل «ذَكَرَ» وقرأ الباقون [أَوَ لا يَذَّكَّرُ] أي: أولا يَتَذَكَّر، من فعل «تَذكر»، وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد: إذ بعض أفراد نوع الإنسان تلائمه قراءة «يَذْكُرُ» وآخرون يلائمهم قراءة «يَذَّكَّرُ» حثاً لهم على أن يتذكَّرُوا.

٦٨ ـ قرأ حفص، وحمزة، والكسائي: [جِثِياً] بكسر الجيم. وقرأ الباقون: [جُثِياً] بضم الجيم، وكذلك في الآية (٧٢). وهما لغتان عربيتان. ونظير هاتين القراءتين في كلمتَيْ: [عِتِيًا] و[عُتِياً] وفي [صِلِيًا] و[صُلِيًا] في الآيتين (٦٩) و(٧٠).

٧٢ ـ قرأ الكسائي، ويعقوب: [نُنْجِي] من فعل: «أَنْجَىٰ» المهموز. وقرأ الباقون: [نُنَجِّي] من فِعل: «نَجَّىٰ» المضعف. والقراءتان متكافئتان، لأن الهمز أخو التضعيف.

٧٣ ـ قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُم] بضم الهاء، وقرأ الباقون: [عَلَيْهِمْ] بكسر الهاء. وهو نطقان عربيان.

بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٧٨﴾ كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمۡ تَرَ

٧٣ ـ قرأ ابن كثير: [مُقاماً] بضم الميم، من فعل «أَقَامَ» يقال: أقامه مُقامه. وقرأ الباقون: [مَقاماً] بفتح الميم، من فعل: «قَامَ» الثلاثي. والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، أي: يُهَيَّأُ لهم «مُقَامٌ» فيتَّخِذُونَهُ «مَقاماً».

٧٤ ـ قرأ قالون وابن ذكوان، وأبو جعفر: [وَرِيّاً] الرّيُّ: امتلاء البَدَنِ امتلاءً يعطي نضارة. وقرأ الباقون: [وَرِئْياً]. الرِّئْيُ: حُسْنُ المنظر والبهاء والجمال، والمؤدّى في القراءتين واحد.

٧٧ ـ [أَفَرَأَيْتَ] قرأ نافع، وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية، ولِوَرْشٍ إبْدَالُها ألفاً مع المدّ المشْبَعِ وصلاً فقط. وقرأ الكسائي: [أَفَرَيْتَ] وقرأ باقي القراء العشرة بتحقيق الهمزة، ووقف حمزة بالتسهيل.

٧٧ ـ قرأ حمزة، والكسائي، [وَوُلْداً] بضم واو «وُلْد» وإسكان اللام. وقرأ باقي القراء العشرة: [وَوَلَداً] بفتح واو «ولد» وفتح لامها. **الوَلَدُ والوُلْدُ**: كلُّ ما وُلِد (يطلق على الذكر والأنثى والمثنى والجمع). فالقراءتان وجهان عربيان لنطق الكلمة، والمعنى فيهما واحد.

أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَنفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾.

٨٤ ـ قرأ حمزة، ويعقوب [عَلَيْهُمْ] بضم الهاء. وقرأ الباقون: [عَلَيْهِمْ] بِكَسْرِ الهاءِ وهما نطقان عربيّان.

٩٠ ـ قرأ نافع، والكسائي: [يَكَادُ]. وقرأ الباقون: [تَكَادُ]. والقراءتان وجهان عربيان جائزان.

٩٠ ـ قرأ نافع، وابن كثير، وحفص، والكسائيّ، وأبو جَعْفَر: [يَتَفَطَّرْنَ] من فعل: «تَفَطَّرَ» وقرأ باقي القراءِ العشرة: [يَنْفَطِرْنَ] من فعل: «انْفَطَرَ». والقراءتان لُغتان عربيتان متكافئتان.

٩٧ ـ قرأ حمزة: [لِتَبْشُرَ] من فعل: «بَشَرَهُ يَبْشُره» الثلاثي. وقرأ باقي القراء العشرة: [لِتُبَشِّرَ] من فعل «بَشَّرَ» المضعف والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، إذ بَعْضُ المتقين تكفيهم البشارة العادية، وبعض المتقين يحتاجون إلى تشديد وتأكيد.

## (٢)
# موضوع سورة مريم

يدرك المتدبّر بأناةٍ وتعمّقٍ فكري، أنَّ الموضوع الأساس لسورة (مريم) متابعةُ معالجة كفّار مكّة ومن حولهم من المشركين في قضايا فكريَّةٍ اعتقاديَّة، لتصحيح اعتقادَاتِم بشأنها، أو إقامة الحجَّةِ عَلَيهم، وقَطْعِ أعذارهم، إذا أصَرُّوا على كفرهم معاندين، ولتَرُدَّ على طائفة من مقولاتهم، الّتي يَتَّخِذُونَها ذَرائع لتَحْسِين موقِعهم المعاند للحقّ.

والموضوع الذي تدور في فلكه هذه القضايا الفكريّة الاعتقاديّة، يتعلَّقُ بمتابعة معالجة منْكري البعث ليوم الدين، ويتضمَّن الرَّدَّ على بعض أقوالهم الّتي قالوها، متذرّعين بها لتحْسِين إصرارهم على مواقِفِهم العنادية، وبيانَ الدافع الّذي يدفَعُ المشركين لاتَّخاذ آلهَةٍ من دُونِ الله عزَّ وجلَّ، وهو اعتقادُهُم أنّ آلهتَهم تكُونُ لهُم عزًّا، وبَيَانَ أنّ الكافرين تَؤُزُّهم شياطينُهُم أزّاً، أي تُغْريهم وتُهَيّجُهمْ وتَهُزُّهم وتُحَرِّكُهُم تَحْريكاً شَديداً، من مغامِزِ شهواتِهم ومصالِحهم، ومثيراتِ غَضَبِهم.

ولكن اقتضىٰ الإبداع التربويُّ الحكيم، أنْ يبدأ الله عزّ وجلّ السورة بالتَّمهيد لهٰذه المعالجة الممثّلة لموضوعها، والذي هو الموضوع الأساس فيها، بعَرْض لقطاتٍ من قِصَصِ الأنْبِياء السَّابقين، الذين جاهدوا في سبيل الله مُجَاهَداتٍ دعويّة مُضْنِية، وقد كان لمجاهداتِهم آثارٌ نافعة في الأمَمِ السالفة، إذْ كانَ لَهُمْ أتْباعٌ مؤمنون متَّقون على اختلاف درجاتهم في التقوىٰ والعمل الصالح، ثم خَلَفَ من بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أضاعوا الصلاة، واتَّبَعُوا الشهوات، ولم يَصُونُوا نُصُوصَ الكُتب الرَّبَّانيَّة المنزلَةِ على رُسُلهم، فجاءَتِ الدَّعْوةُ الإسلاميَّةُ المحمَّدِيَّةُ الخاتمة، حاملةً رسالةَ الله للناس أجْمَعين، انْطِلاقاً من بيئَةِ العرب الوثنيّين، ومن كان يُساكِنُهمْ في أرْضِهِمْ من اليَهُودِ والنصارىٰ، ومَنْ كان قد تَنصَّرَ أو تَهَوَّد من العَرَب.

وقد أخَذ عرضُ هذه القِصَصِ التَّمهيديَّة (٦٣ آية) من السورة، وجاءت بعدها الآية (٦٤) تُفَاجِئُ بانتقالٍ من عرض القِصَص، إلى حكاية بيان ذكَرَهُ جبريلُ عليه السلام للرسول ﷺ، أبان له فيه أنَّهُ وسائِرَ الرُّسُلِ من الملائكة لا يَتنزَّلُون من مواقعهم في السَّمَاءِ، إلَّا بأمْرٍ من الرَّبّ جلّ جلالُه، وأنَّ لَهُ الأمْرَ كُلَّه فيما سَبَقَ وفي الحاضر، وفيما سيأتي.

فقال الله عزّ وجلّ في هذه الآية المفاجئة، حكايَةً لمقالَةِ جبريل للرَّسُول محمّد، الّتي أمَرَهُ الله بأن يقولَها له:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾.

بدأتْ هذه الآية بالعطف بحرف العطف «الواو» لكنّنا لا نَجِدُ في سوابقِ هذه الآيةِ ما يُلائم الْعَطْفَ عليه، بحَسَب الدواعي البلاغيّة.

والّذي يَظْهَرُ لي أنّ العطف هذا يُنْبِئُ عن معطوف عليه محذوف، جاء بيانُه فيما رَوىٰ البخاريّ والترمذيّ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، أنَّ النبيَّ ﷺ قال لجبريل عليه السَّلامُ:

«مَا يَمْنَعُكَ أنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا»؟

فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ . . .﴾ الآية.

أي: نعم، تأخَّرْتُ بأمْرِ رَبك، ونَحْنُ رُسُل رَبّك من الملائكة ما نَتَنَزَّلُ على أحَدٍ من الناس، وما نَتَنَزَّلُ لأمْرٍ من الأمور إلَّا بأمْرِ رَبّك.

فأنزل الله عزّ وجلّ في السورة بيان جواب جبريل الأخير، وبدأهُ بحرف العطف «الواو» إشعاراً بأنّه القِسْمُ الّذي تقتضي الحكمة إثباتَهُ قرآناً يُتْلَىٰ من الحوار.

وبعد هذه الآية الفاصِلَة تتابَعَتْ الآياتُ حول مَوْضوع السورة الأساس.

ولا يَخْفَىٰ علَيْنا أنَّ مَنْ أراد أن يتحدَّث حول موضوع توجيهيّ، أو جدلي، أو ترغيبيّ، أو ترهيبيّ، أو تَعْلِيميٍّ، فقد يَرىٰ أنَّ من الحكمة ومن البلاغةِ في الموقف الذي يريد معالجة المخاطبين فيه، حول الموضوع الذي يريد معالجتهم بشأنه، أنْ لا يَبْدَأَهُمْ بعَنَاصِرِ موضوعه الأساس، ولكِنْ قَدْ يَبْدَأُ بعَرْضِ حكاياتٍ وقِصَصٍ تاريخيَّةٍ، تَتَضَمَّن بَعْضَ ما يُريد معالجَتَهُ مع المقصودين بالخطاب، ثم يَشْتَقُّ منْها مُناسبَةً للموضوع الَّذِي يريد طرحه، ومعالجَةَ عناصره، أو يَنْتَقِلُ بطريقةٍ ما إلَيْهِ، شاداً انْتِبَاهَ المتلَقِّينَ ولو بالمفاجأة.

وكذلك قد يَفْعَلُ المدَرّس البارع، الذي يُريد اجْتِذَابَ أذْهَانِ تلاميذِهِ بما يُحِبُّونَ من مُقدّماتٍ وتمْهيداتٍ، حتَّىٰ إذا اجْتَذَبَ انْتباهَهُمْ إليه وانْفَتَحَتْ أذْهَانُهم لحديثِه، انْتَقَلَ إلى الحديث عن موضوعه الأساس اشْتِقاقاً من مُقدَّماتِه أو مفاجأةً إلى موضوع درسه وقضاياه.

وقد تكونُ المقدماتُ والتمهيداتُ طويلَةً جدّاً، وقَدْ يَكُونُ الموضوع المقْصُودُ الأوّل بالبيان والشَّرح قَصيراً.

وفي هذا يُعَلِّمنا الله عزّ وجلَّ أسلوباً من أساليب البيان البليغ، الذي يكون تأثيرُهُ في المقْصُودين بالخطاب أرْجَىٰ.

ويُمْكِن تقسيم سورة (مريم) إلى قسمَيْن:

**القسم الأول**: هو من الآية الأولى في السّورة، وحتى غاية الآية (٦٣) منها.

وبَعْدَه جاء الفاصل الاعتراضي الذي سبق بيانه، وهو الآية (٦٤) ويلْحَقُ به الآية (٦٥).

**القسم الثاني**: هو من الآية (٦٦) من السورة، وحتى غاية الآية (٩٨) آخر السورة.

وهذا القسم هو المقصود الأول في موضوع السّورة.

## (٣)
## دروس سورة (مريم)

تشتمل سورة (مريم) على (١٨) درساً:

**الدرس الأول:**

فيه بيانُ لقطاتٍ من قِصَّةِ زَكَرِيَّا وولَدِهِ يَحْيَىٰ عليهما السلام، وهو الآيات من أوّلها وحتى غاية الآية (١٥) منها.

**الدرس الثاني:**

فيه بيان لقطاتٍ من قصَّة مَرْيم وابنْها عيسى عليهما السلام، وهو من الآية (١٦) وحتى غاية الآية (٤٠) من السورة.

**الدرس الثالث:**

فيه بيان لقطات من قِصَّةِ إبراهيم عليه السلام، وهو من الآية (٤١) وحتى غاية الآية (٥٠) من السورة.

**الدرس الرابع:**

فيه بيان لقطة من قصة موسىٰ وهارون عليهما السلام، وهو من الآية (٥١) وحتى غاية الآية (٥٣) من السورة.

**الدرس الخامس:**

فيه بيان لقطةٍ من قصة إسماعيل عليه السلام، وهو من الآية (٥٤) وحتّىٰ غاية الآية (٥٥) من السورة.

**الدرس السادس:**

فيه بيان لقطة من قصة إدريس عليه السلام، وهو من الآية (٥٦) وحتى غاية الآية (٥٧) من السورة.

**الدرس السابع:**

فيه ثناء على النبيّين المذكورين في السورة، ويُلْحَقُ بهم غيرهم، وقد يُلْحَقُ بهم الّذين آمنوا بهم واتَّبَعوهم بإحسان.

وهو الآية (٥٨) من السورة.

**الدّرس الثامن:**

فيه بيان يتعلَّقُ بالْخَلْفِ الّذين جاءوا من بَعْدِ الرُّسُلِ وأتباعهم المؤمنين الصادقين المسلمين، وهم الذين أضاعوا الصّلاة واتَّبَعوا الشهوات، إلَّا من تاب وآمن وعمل صالحاً، وهم قلَّة.

وهو الآيات من (٥٩ ـ ٦٣).

**الدرس التاسع:**

هو الدرس الفاصل بين قِسْمَي السُّورة، القِسْم التمهيدي، والقسم الذي هو المقصود الأول، والموضوع الأساس في السورة.

وقد جاء هذا الفاصل معترضاً، لبيان حدثٍ جرى بين الرَّسولِ محمّد ﷺ وبين أمين الوحي جبريل عليه السلام، ويظهر أنَّه كان أثْنَاء تنزيل السورة، إذْ قال سيدنا محمد ﷺ لجبريل:

«مَا يَمْنَعُكَ أنْ تَزُورَنَا أكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنا»؟

فأجابه جبريل بأنَّنا ما نتنزَّل لأمْرٍ من الأمور إلَّا بأمْرِ الله.

فأنزل الله عزّ وجل هذا الدرس من دروس السورة، وهو الآيتان (٦٤) و(٦٥) من السورة.

**الدرس العاشر:**

فيه مُعَالجة منكري البعث بالحجَّة البرهانية، وبالإنْذَار ببيان بعض أحداثِ يوم الدين.

وهو من الآية (٦٦) وحتى غاية الآية (٧٢) من السورة.

**الدرس الحادي عشر:**

فيه متابعة معالجة الذين كفروا بشأن بعض مواقفهم الكفريّة العناديّة، وأقوالهم الّتي يُزَيِّنُون بها مواقفهم، ومعتقداتِهم الباطلات.

وهو من الآية (٧٣) وحتى غاية الآية (٧٦) من السورة.

**الدرس الثاني عشر:**

فيه متابعة معالجة الذين كفروا بشأن مواقف كُفْرِيَّةٍ أخرىٰ، وأقوالٍ يتَّخذونها ذرائع لتَحْسِين مواقفهم في حضيض الكفر والعناد، ورفض الاستجابة لدعوة الحقِّ.

وهو من الآية (٧٧) وحتى غاية الآية (٨٠) من السورة.

**الدرس الثالث عشر:**

فيه متابعة معالجة المشركين الّذين اتَّخَذُوا آلهة من دون الله ليكونوا لهم عزّاً.

وهو الآيتان (٨١) و(٨٢) من السورة.

**الدرس الرابع عشر:**

يتضمن متابعة بيان أحوال الّذين كفَرُوا، مع توجيه العلاج الدعويِّ التربويِّ المناسب للمدعوّين.

وهو الآيتان (٨٣) و(٨٤) من السُّورة.

**الدرس الخامس عشر:**

درسٌ يشتمل على بشارة للمتقين، وإنذار للمجرمين، أخذاً بأسْلوب الموعظة الحسنة، القائمة على الترغيب والترهيب، بعد عرض طائفةٍ من مواقف الذين كفروا ومعالجتها بما تقتضيه الحكمة إبَّان نزول سورة (مريم).

وهو الآيات من (٨٥) وحتى غاية الآية (٨٧) من السورة.

**الدرس السادس عشر:**

درس يتناول الرّدّ على الَّذين قالوا: اتّخذَ الرَّحْمٰنُ ولَداً، ومعالجتهم بالإقناع، والترهيب من عذاب الله يوْمَ الدِّين.

وهو الآيات من (٨٨) وحتى غاية الآية (٩٥) من السورة.

**الدرس السابع عشر:**

درس يبشِّر الله به أصحاب الرَّسُول ﷺ، الواقعين تحت الاضطهاد والإذْلال وأنواع الأذى في العهد المكيّ، من تاريخ دعوة الرسول ﷺ، مع ما يُوَجِّهُه لهم كُبَرَاءُ المشركين وأتباعُهم من نَبْذٍ وكراهية وعداء، بأنّ أحوالهم ستتبدّل في المستقبل القريب إلى ضدّ ذلك، فيجعل الله لهم وُداً في القلوب، وهذا الودّ سيجرٌّ لهم عزّاً، وقوةً ومجداً، وخيراً كثيراً، بمقتضىٰ سُنَّةِ الله فِي عباده.

وهو الآية (٩٦) من السورة.

**الدرس الثامن عشر:**

دَرْسٌ يخاطبُ الله فيه رسُوله محمّداً ﷺ، بشأن وظيفة من وظائف القرآن، وهي أن يُبشّر به المؤمنين المتقين، ويُنْذِرَ بما جاء فيه قوماً لُدّاً، أي ذوي خصام شديد، ومكابرة وعناد.

وهو الآيتان الأخيرتان من آيات السورة (٩٧) و(٩٨).

❁ ❁ ❁

## (٤)
## التدبّر التحليليّ للدرس الأوّل من دروس السورة
## وهو الآيات من (١ ـ ١٥)

قال الله عز وجل:



﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا

فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

**تمهيد:**

بلغ الّذين عرفُوا باسْم زكريّا عنْدَ أهْل الكتاب اثنين وثلاثين رجلاً، وأجلُّهُمْ سِتَّةُ أشخاص، لكنَّ الّذي جاءَتْ قصَّتُه في القرآن، هُو زَكَريَّا والِدُ يَحْيَىٰ عَلَيْهِما السَّلام، وكان زَكَرِيَّا هذا من كِبارِ الرَّبَّانِيين الّذين لهم شَرِكَةٌ في خِدْمَةِ الْهَيْكل قُبَيْل ميلاد المسيح عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام.

وذُكِرَ في القرآن الكريم ضِمْنَ الرُّسل عليهم السلام، فَهُوَ وابْنُهُ يَحْيَىٰ رَسُولان.

أمَّا زَوْجَةُ زكريا «إيشَاع = أَلِيصَابَات» فقد كانت عاقراً لا تلد مُنْذُ كانَتْ شابَّةً.

وكذلك كانت أخْتُها «حَنَّة» الّتي كانت زَوْجَة «عِمْرانَ» رئيسِ الرَّبَّانيين، وكاهِنِهِم الأكبر، وقد لبثَتْ «حَنَّة» ثلاثين سَنَةً لَا تَحْمل، فسألا ربّهما الولَد، فاستجاب لهما فرزقهما بـ«مَرْيَم» عليها السّلام، ثم وَلَدَت «مَرْيَم» عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام بمعجزةٍ خارقةٍ للعادة.

فعيسَىٰ عليه السلام ابْنُ ابْنَةِ خالَةِ يَحْيَىٰ عليه السلام، ويحيَىٰ عليه

السلام ابْنُ خالَة «مَرْيَمَ» أُمّ عيسَىٰ عليهما السلام، فَهُما ابْنا خَالَةٍ بوجْهٍ عامّ.

وزَكَرِيَّا معاصرٌ لهذه الحقبة من الزمان، وقد نَشَأَ قَبْلَ أكْثَرَ من نحو سبعين سنة من ميلاد عيسَىٰ عليهما السلام.

وهو غير زكَرِيَّا الّذي له سِفْرٌ من أسفار العهد القديم عنْدَ أهل الكتاب، فقد كانَ هذا قَبْلَ نَحْوَ خَمْسَةِ قُرون من ميلاد المسيح عيسَىٰ عليه السلام.

وقد جاء ذكْر «زَكَرِيَّا» والِدِ يحيَىٰ في القرآن الكريم فيما يلي:

(١) في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول).

(٢) ثم في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول).

(٣) ثم في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول).

(٤) ثمّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول).

والدّراسة التدبّرِيَّة التكامليَّة للنصوص القرآنيّة حول موضوعٍ واحِدٍ، تتطلَّبُ تدبُّرَ هٰذِهِ النصوص القرآنية الواردة في هذه السّور معاً، لاكتشاف ما اشتملت عليه من تكامل في المعاني والدلالات والأفكار والأساليب البيانية.

وسأجتهد في دراستها تباعاً وفْقَ ترتيب نزول سُورِها إنْ شاء الله تعالى وأعان وفتح.

**التدبّر:**

قول الله عزّ وجل:

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ

بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾.

## القراءات:

سبَقَ بيانُ القراءات في حاشية نَصّ السورة، وسبَقَ تخريج القراءات عربياً، وبَيَان أنّ قراءة جمهور القرّاء العشرة: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ بِرَفْعِ الْفعْلين على أنّ الجملةَ وصْفٌ للفظ: ﴿وَلِيًّا﴾ هو إعرابٌ صالحٌ عنْدَ النحاة. وأنَّ قراءة أبي عَمْرٍو والكسائي: [يَرِثْنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ]﴾ بجزم الفِعْلَيْن على أنّ [يَرِثْنِي] مجزومٌ إذْ هو واقِعٌ في جواب فِعْل ﴿هَبْ﴾ الطَّلَبيّ، وهو إعرابٌ صالح عند النحاة أيضاً، وهو على تقدير: إنْ تَهَبْ لي وَلِياً يَرِثْني وَيَرِثْ من آل يَعْقُوب.

لكِنَّ الّذي تحْسُنُ إضافَتُهُ هنا هو أنّ القراءتَيْنِ مُتَكاملَتَان في أدَاء المعنى المراد.

والمعنى: فَهَبْ لي منْ لَدُنْكَ وَلِياً وارثاً، فإنْ وهَبْتَه لي وَرِثَنِي وَوَرِث من آل يَعْقُوب.

مَعَ أنّ كُلَّ قراءة مِنْهُما تَدُلّ على معنى القراءة الأخرى عَنْ طريق اللُّزُوم الفكري، فتأتي القراءةُ الأُخرى مُصَرِّحَةً به.

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ سبق الكلام على الحروف المقطّعة لدى تدبّر أوّل سورة (القلم/ ٨٨ مصحف/ ٤ نزول).

ومع كلّ الآراء الواردة حوْلَها أقول: الله أعلم بمراده منها.

قول الله تعالى:

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾﴾.

هذه الآية هي بمثابة عنوان لِقِصَّةِ زَكَرِيّا وَوَلَدِهِ يَحْيَىٰ عليهما السلام، والّتي جاء في هذا الدَّرْس لقطاتٌ منها مَقْصُوداتٌ بالبيان فيه.

كلمة: ﴿ذِكْرُ﴾ هي خبَرُ مُبْتَدأ مَحْذُوف، تقديره: هٰذا ذكْر، وأضيفَتْ كلمة ﴿ذِكْرُ﴾ إلى عبارة: ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ للإشعار ضِمْنَ العنوان بأنّ الرَّبَّ الرَّحْمٰنَ الرَّحِيمَ جَلَّ جلالُهُ، قَدْ رَحِمَ عَبْدَهُ زَكَرِيًّا فَحَقَّقَ لَهُ مَطْلَباً مُهِماً من مطالبِهِ المفيدة ذات الغرض الدِّينيّ.

**الرَّحْمَة**: صفة من صفات الله الجليلَة، وهي صفَةٌ نَفْسِيَّةٌ نُثْبِتُها لله عزَّ وجلَّ على ما يَليق بجلالِه، ومِنْ آثارِها العطاءُ، والتوفيق، والمعونة، واستجابةُ الدُّعاء، وإزالةُ البؤس، والإمداد بما يَسُرّ، ويُسَكّنُ النَّفْس، ويُورِثُ الْقَلْبَ الطُّمَأْنِينة، ويمْتِعُ ذا الحياة بما يَطِيبُ لديه، ويُبَيّنُ لذَوي الإرادات الحرَّة ما فيه خيرُهم وسعادتُهم في عاجل حياتهم وآجِلِه.

وأعظم آثار هذه الرَّحْمَةِ، ما يكون للمؤمنين المتقين يوم الدِّين من نجاة من الجحيم، وظفر بجنَّاتِ النعيم وما فيها من أنواع سعادات.

ولمّا كانت رحمة الله لزكريَّا عليه السلام باستجابة دعائه أجلَّ ما في قصّته، كانت جديرةً بأنْ تكون فاتحة عنوانها.

﴿رَبِّكَ﴾: الخطابُ للرَّسُول أوّلاً، ثُمَّ لكُلّ صالح للخطاب، والغرضُ من الخطاب الإفرادي لكُلّ صالح للخطاب إشعارُهُ بأنّ الله عزّ وجلّ يُحَدِّثُه بصُورَةٍ إفرادية.

**الرّبّ**: هو الخالق المتصرّف دواماً في الكائنات كِلِّها، إنشاءً وإنْماءً وتغييراً، وتَجْديداً، وإمْدَاداً، وعَطاءً، ومَنْعاً، وتَنْكِيساً، وإفناءً، وإعداماً، إلى سائر ما يجري في الكائنات.

﴿عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾: بهذه العبارة أعْطَىٰ الله عزّ وجلّ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا شَرَفَ العبوديَّةِ له، لأنَّه كان في إيمانه وعَمَلِه الْبَاطِنِ والظاهر متحقّقاً بها،

وهٰذه العبوديَّة الصادقة المصْحُوبة بتَشْريفٍ رَبَّانيٍّ، جَعَلَتْهُ مؤَهَّلاً لأن يَرْحَمَهُ رَبُّهُ بإجابَةِ دُعائه، وتَلْبِيَةِ طَلَبِهِ، وجَعْلِ امرأتِهِ العاقر تَلِدُ لَهُ ولَداً رَضِياً، ونبياً رَسُولاً.

قول الله تعالى:

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾:

أَصْلُ النداء في اللُّغة الدُّعاءُ بأرْفَع صَوْتٍ، لكِنَّ الله عزّ وجلَّ سَمِيعٌ عَلِيمٌ قريب، لا يخْفَىٰ عليه صَوْتٌ مَهْمَا كَانَ ضَعِيفاً خَفِياً.

فَكيْفَ نَفْهَمُ التعبير بالنّداء في دعاء زكريّا رَبَّه، وهو نبيٌّ رَسُولٌ، عَلِيمٌ بأدَبِ الدُّعاءِ لله عزّ وجلّ، وهو أن يكون خُفيَةً بصَوْتٍ ضعيف؟

**أقول**: إنّ قول الله عزّ وجَلّ: ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾ يُشْعِرُ بالمراد، وهو أنَّهُ كان مع جَعْلِهِ خَفِيّاً من جهة الصَّوْت، إلَّا أنه كانَ شَدِيدَ التَّوجُّهِ القلْبِيّ والنَّفْسِيّ، فكأنَّهُ نِداءٌ برَفْع الصَّوْتِ، ومَعْلُومٌ أنّ شِدَّةَ التَّوجُّهِ والطَّلَبِ الداخِليّ في النَفْس والقلب، قد تُوجَدُ ولو كان الدُّعاءُ أو الذّكْر بأخْفَتِ صَوْتٍ وأَخْفاه.

ولهذا لم يأت في القرآن المجيد في دُعاءِ الرَّبّ استعمالُ أداةٍ مَا، مِنْ أدواتِ النداء، إلَّا في نَصَّيْن من أصل (٦٧) نصّاً، دَعَاهُما الرسول محمَّد ﷺ، في موضوع يَتَعَلَّقُ برِسَالَتِهِ في قومه، لا بشيءٍ هو من مطالبه الخاصَّة، وُوُجُود أداة النّداء «يا» فيهما مَحْمُولٌ على شدّة توجُّه قَلْب الرَّسُول لدُعاء رَبّه في شكْواه من قومه الّذِين اتَّخذُوا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً، والَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ مهما اتَّخَذَ مِنْ وسائل للتأثير عليهم رَجاءَ إيمانهم.

**النص الأول**: قول الله عز وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾.

**النص الثاني**: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّخرف/٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

قد علَّمنا اللّهُ عزّ وجلّ أَدبَ الدُّعَاءِ والذّكر، فَأَبَانَ لَنا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَا بتضَرُّعٍ وخفاء في النفس، وإخلاصِ لله وَحْدَهُ، وأنْ يكونَ الدُّعاء بأسماء الله الحسنى.

**التُّضَرُّع**: هو التَّذلُّلِ والْخُضُوعُ، مَأْخُوذٌ من خُضوع ولَدِ البهيمة ليَمْتَصَّ حَلِيبَ أمّه من ضَرْعها. الضَّرْعُ: الثَّدْي، وهو مَدَرُّ اللَّبَن.

• فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿... وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ... ﴿٢٩﴾﴾.

فأمَرَ الله عزّ وجل بالإخلاص له في الدّعاء، لأنّ الدّعاء من الدّين، وهو مُخُّ العبادة الّتي هيَ لُبُّ الدّين، ولا يَقْبَلُ الله من ذلك إلَّا ما كان خالصاً له من الشّرْك والرّياء.

• وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً:

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ... ﴿٥٥﴾﴾:

**الْخُفْيَة**: مصدَرٌ من مصادر خَفِي، يقال لغةً: خَفِيَ الشيْءُ يَخْفَىٰ خفاءً، وخُفْيَةً، وَخِفْيَةً، فهو خافٍ وَخَفِيّ، أي: اسْتَتَرَ ولَم يَظْهر، ويُقالُ: أَخْفَىٰ الشيءَ، أي: أَسَرَّه ولم يُظْهِرْهُ.

• وقال الله عزّ وجلَّ في سورة (الأعراف) أيضاً بشأن ذكر الله:

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

﴿وَخِيفَةً﴾: أي: وخوْفاً من عذاب اللّهِ وعقابه.

• وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً بشأن دُعائه بأسمائه الحسْنَىٰ:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

وعلّمنا الرّسُولُ محمّد ﷺ أَدَبَ الذّكر، بأن يكُونَ دُونَ الْجَهْرِ من القول.

روى البخاريّ عن أبي موسَىٰ أنَّ النبيَّ ﷺ وهُو راجِعٌ بجَيْشِهِ من غَزْوَة خيبر، وقد أشرف الناسُ على وادٍ، فرفَعُوا أصْواتَهُمْ بالتكبير: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، لَا إلٰه إلا الله، فقال رسولُ الله ﷺ:

«ارْبَعُوا عَلَىٰ أنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أصَمَّ وَلَا غَائِباً، إِنَّكُم تَدْعُونَ سَمِيعاً قَرِيباً وهُوَ مَعَكُمْ».

**ارْبَعُوا عَلَىٰ أنْفُسِكُمْ**: أي: هَوِّنُوا على أنفسكم، وَتَرَفَّقُوا بها، ولا تُجْهِدُوا أَصْوَاتكم.

وقد الْتَزَمَ أصحاب رسُولِ الله ﷺ والتابعُونَ لهم بإحْسَانٍ بأدَبِ الذّكْرِ والدُّعاء.

أخرَجَ ابْنُ المبارك، وابْنُ جَرير، وأبو الشيخ، عن الحسن، قال: لقد كان المسلمون يجتهدون في الدُّعاء، وما يُسْمَعُ لهم صوتٌ، إنْ كانَ إلَّا هَمْساً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهم وذلك أنّ الله يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

من كلّ هذا نفهم أنَّ زكريّا عليه السّلام كان مُلْتَزِماً بأدب الذِّكْرِ والدُّعاء، فنادى رَبَّهُ في دعائه نداءً خَفِيًّا.

وتُحْمَلُ عبارة النداء على شِدَّة التوجّهِ النفْسِيّ والقلبيّ، لا على رفْعِ الصَّوْت، وقد غفل عن هذا المعنى بعض المفسّرين.

﴿إِذْ﴾ من قول الله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ ظرف زمانٍ، والعامل فيه محذوفٌ تقديره: «اذْكُرْ» أي: ضَعْ في ذاكِرَتِكَ أيُّها الصالح للخطاب، قصّة زكريّا، بَعْدَ أن تتلقّاها وتتفهَّمَ مَا جاءَ فيها، ولا سيما رَحْمَةُ ربّك له باستجابته لدعائه.

وقد آثرتُ هذا الإعرابَ على أن يكون ﴿إِذْ﴾ معمولاً لـ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ ليَتَّسِقَ الكلامُ على ما جاء معطوفاً عليه في السورة، وهو مَا جاء في الآية (١٦):

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦﴾.

وجاء في الآية (٤١):

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١﴾.

وما جاء في الآية (٥١):

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١﴾.

ونظيرها في الآيتين (٥٤) و(٥٦).

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾.

أي: قال زكريّا عليه السلام في ندائه لربّه نداءً خفيًّا: ﴿رَبِّ﴾ فلم يَسْتَعْمِلْ في دُعائه أداة النداء: «يا» ولا غيرها، ليقينه الكامل بأنّ رَبَّه اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ قريب، وأنَّهُ أقرب إليه بعِلْمِهِ وشهوده من نِياط قلبه، وهو حَبْلُ الوريد، فدلّ هذا على أنَّ عبارة: ﴿نَادَىٰ﴾ قَدْ كانَتْ تعبيراً عن شِدَّة تَوَجُّهِهِ بقلبه وكلّ نفسه لربّه في دعائه، ولم يكُنْ بصوتٍ عالٍ، بَلْ كان سِرّاً وخفيّاً، كما هو أدَبُ الدُّعَاءِ والذّكر.

• ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾: جاءت هذه الجملة مؤكَّدةً بمُؤكّدين: «إنَّ ـ والجملة الاسمية» للدَّلالة على اعترافه المؤكّد ببُلُوغه سِنَّ الشيخوخة، ومعلومٌ أنَّ مثل هذا الاعتراف يتهرّبُ مِنْهُ أكْثَرُ الشُّيُوخ عادةً، ولتأكيد استرحامه ربَّهُ بأنَّهُ انْتَظَرَ طويلاً أنْ يَرْزُقَهُ الله بولَدٍ صالحٍ حتَّىٰ شاخَ، وكاد اليأسُ يَدِبُّ إلى قلبه.

فالله عزّ وجلّ عليمٌ به أكثر من عِلْمِهِ بنَفْسِهِ، فهو لا يحتاجُ سبحانه لتأكيد الجمْلَةِ الخبريَّة الّتي ذكرها زكريَّا عليه السَّلام، ولا لِذِكْر كلِّ مقدّمات دعائه.

ولازم الإخبار هُنا هو الاسترحامُ والاستعطاف لإجابة الدُّعاء.

﴿وَهَنَ﴾: أي: ضَعُفَ، تقول لغة: وَهَنَ يَهِنُ وَهْناً، إذا ضَعُفَ.

وذكر زكريّا عليه السَّلام وهْنَ عظمه، لأنَّ الهَيكَلَ العظْمِيَّ عَمادُ بناء جِسْمِ الإنسان الأكبر. فإذا ضَعُفَ عظمه كانَ ذَلِكَ دليلاً على ضَعْفِ جسمه كُلّه لزوماً، فأغْنَىٰ هذا البيان عن التصريح بضَعْفِ سَائِرِ جسْمه.

واختار أن يقول: ﴿ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ دون عبارة. «عظمي» مثلاً، لأن دلالة «أل» على استغراق كُلّ العظم أقوى من دلالة الإضافة إلى ياء المتكلّم، فالمعنى: وهَنَ كُلُّ العظم مِنّي، أي: من جَسَدي.

• ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

يقول النحويُّون: إنَّ أصلَ هٰذِهِ العبارة: واشْتَعَل شَيْبُ الرَّأس، ويَرَوْنَ أنّ كَلِمة ﴿شَيْبًا﴾ تمييزٌ مُحوَّلُ عَنْ فَاعِلِ فعل: ﴿وَٱشْتَعَلَ﴾ والتمييز يُؤْتَىٰ به لرَفْع الإبهام عن ذاتٍ مُبْهَمةٍ، أو عن نِسْبَةٍ مُبْهمة، ضمن شُروطٍ ذَكَرُوها.

ويرىٰ البيانيُّون أنّ في هٰذه العبارة استعارةً أصْلُها تشبيه انتشار الشَّيْب

في شَعَر الرأس باشتعال النار على الرأس، وقد اسْتُعير فعلُ: «اشْتَعَلَ» للدلالَة على معنىٰ فعل «انْتَشَرَ» مع إضافة صُورَةٍ مُتَخَيَّلَةٍ مَأْخُوذَةٍ مِنْ لِهَبِ النَّارِ.

ويُتَابِعُ البيانيُّونَ النُّحاة بأنَّ كَلِمَةَ: ﴿شَيْبًا﴾ تمييزٌ مُحوَّلٌ عن فَاعِلِ فعل: ﴿وَٱشْتَعَلَ﴾ أي: اشْتَعَلَ شَيْبُ الرأس.

لكِنِّي أرى أنّ مثل هذا التحليل الّذي ذَكَرَهُ النُّحَاةُ، وتبعَهُمْ فيه البيانيُّونَ يُضْعِفُ من قيمَةِ الصُّورَةِ البيانيَّة البديعة، الَّتي تُقَدِّمُها عبارة: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ ونظيرها قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾.

والأكثر مُلاءَمَةً فيما أرىٰ لتَحْلِيلِ هذا التعبير الْفَنّيّ البديع، أَنْ تَكُونَ استعارة فعل «اشْتَعَلَ» وفاعلُهُ «الرَّأْسُ» تَصْوِيراً لصُورَةٍ يتخيَّلُهَا النَّاظِرُ إلى الرأسِ، الّذِي أخذَ الشَّيْبُ يَنْتَشِرُ فيه بسُرْعَةٍ، كما يَنْتَشِرُ لَهَبُ النَّار في الهشيم، حتَّىٰ اسْتَوْعَبَ كُلَّ أجزائه.

وكان من المنتظَر أنْ يُتِمَّ صَاحِبُ العبارة الصُّورَةَ المتخيَّلَة بقوله: «لَهَباً» فتكون العبارة: واشتعلَ الرأْسُ لهباً.

عندئذٍ تكون كلمة «لَهَباً» منْصُوبَةً على أَنّها نائبةٌ عن مفعولٍ مطلق، وأصْلُ العبارَة: اشتعالاً لَهَباً، والغرض بيانُ نوع الاشتعال.

لكن المتحدّث استَدْرَكَ فأشْعَر بأنّ الاشتعال لم يكن من نوع النار، بلْ كان من نوْع الشيْب، فقال: «شيباً» وتكون الكلمة نائبة عن مفْعُولٍ مُطْلق، أي: واشتعلَ الرأسُ اشتعالاً من نوع الشيب، وجاء فيها ذكر الشيب قرينَة تُلائم المستعار له، وهو انتشار الشَّيْب في الرأس، وبهذا تكون الاستعارةُ من قسم الاستعارة المجرَّدة.

وعلى مثل هذا نقول في عبارة: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾.

• ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾:

يُمْكن فَهْمُ هذه العبارة بأحَدِ وَجْهَيْنِ قَصْدَهُ زكريّا عليه السلام:

**الأوّل**: أن يكونَ مُرَاده: ولَمْ أكنْ في ماضي حياتي حتَّىٰ بُلُوغي سِنَّ الشيخوخَةِ شقِياً، بسبب دعائي لك ـ والتجائي إليك ـ إذْ كانت حياتي كلُّها هَنِيَّةً رَضِيَّة فلَمْ أكن فيها شقيّاً.

وهذا الْوجْهُ هو الأجْدَرُ بأن يكون هو المراد، ويكون في العبارة توجيهٌ غَيْرُ مباشِر، لتأثير التزام الدُّعاء دواماً في الظَّفَر بحياةٍ رضيَّةٍ لَا شَقاء فيها.

**الثاني**: أن يكُونَ مُرادُه عليه السّلام: ولَمْ أكُنْ بدُعائِي لَكَ فيما سَلَفَ من عُمْرِي شَقياً بِعَدَمِ استجابتك لدُعائي، أي: شاعراً بالتَّعب النفسيّ، لأنَّكَ لَمْ تَسْتَجِبْ لدُعَائِي، وهذا نوعٌ من شقاء النفس، بَلْ كُنْتَ رَبِّ تَسْتَجِيبُ لي في كلّ ما أدْعُوكَ لتحقيقه.

وهذا المعنى الذي ذكرَهُ المفسّرون لا أراه يليق بمقام نبيٍّ رسول، لأنّ المفْرُوضَ في المؤمِنِ أنْ يَرْضَىٰ بما يرضَىٰ الله له به، سواء أجابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ أم لَمْ يُجِبْهُ، لا أن يكون شقياً إذا لم يسْتَجِبْ له.

إنّ المؤمن يَعْلَمُ أنَّهُ إذا دَعَا رَبَّهُ، فَلَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ، وَلَمْ يُحَقِّق له مطلوبَه، فإنَّ الله سيُعْطِيه خيراً ممّا طلَبَهُ من رَبّه، أو يَدَّخرُ لَهُ أجْراً عظيماً وثواباً جزيلاً خيراً لَهُ من مطالِبِه الدّنيوية، وسَوْفَ يَمْنَحُهُ ذلِكَ يوم الدّين في جنَّاتِ النعيم.

﴿بِدُعَآئِكَ﴾: أي: بسَبَبِ دُعَائي إيَّاك، أو في دُعائي إيَّاك على الوجه الثاني. وهذه العبارة هي من نوع المصْدَر المضاف إلى ما هو مفعولٌ به في المعنى.

﴿رَبِّ﴾ دُعَاءٌ خَفِيٌّ جاء غيْرَ مقترنٍ بأداة من أدَوَات النّداء، التزاماً بأَدَب الذّكْرِ والدُّعَاء لله عزّ وجلّ.

﴿شَقِيًّا﴾: مادّة «الشقاء» مادّةٌ عامَّةٌ تُطْلَقُ على كُلّ ما لا يَسُرُّ الإنسان من أمُور، وعلىٰ كلّ ما يخالِفُ رَغْبَتَهُ ومطْلوبَه في عاجِل أمْرِه، أوْ آجِله، من أدْنَىٰ ما يُحَمِّلُه عناءً ما، أو يُتْعِبُ جسَدَهُ أو نفسه، أوْ يسْتَثِيرُ كراهيتَهُ، حتَّىٰ أقْصَىٰ ما يُؤْلِمُهُ ويُنْزِلُ به المصائب الكِبَارَ، والآلامَ الجِسَام.

فيقالُ لمن يَكدُّ ويَتْعَبُ في عَمَلِهِ: قَدْ شَقِيَ بذلك. ويُقالُ لمن طَلَبَ مَرْغُوباً له فَلَمْ يُسْتَجَبْ لطَلَبِهِ: قد شَقِيَ بِرَفْضِ طَلَبِهِ فَهُوَ شَقِيٌّ.

ويُقَالُ لمن يُعَذَّبُ في نار جهنَّم: هو شقِيٌّ في الدّركات منها، ويقال لمن هو في الدَّرْك الأسفل من النار هُوَ في أقصىٰ دَرَكَات الشقاء.

قول الله تعالى حكاية لقول زكَرِيَّا:

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾.

﴿ٱلْمَوَٰلِيَ﴾: جمع «المولَىٰ» وهو القريبُ من العصَبَة.

﴿مِن وَرَآءِى﴾: أي: من بَعْدِ موتي، فالوراء الزَّمَنيُّ بالنسبة إلَىٰ العباد الَّذين يَجْهَلُونَ أحداثَ المسْتَقْبَلِ، هو المستقبل، لأنَّ جهْلَهُمْ بأحداثه يجعله بمثابة الشّيْء الّذي هو وراء ظُهُورِهِم لا يَرَوْنه.

وخوف زكريا عليه السّلام من مواليه، هو خوفُه من أنْ يَرِثُوا مراكز السُّلْطَةِ الدّينِيَّة فَيُفْسِدُوا فيها، ويظْهَرُ أنَّهُ لم يَجِدْ فيهم رجلاً صالحاً، مؤهَّلاً لأن يكون وارثاً مُحافظاً عَلَىٰ شرائع الدّين وشعائره وتعليماته، فسَأَلَ رَبَّهُ أن يَهَبَهُ ولداً صالحاً تقيّاً نقِيّاً رَضِيّاً، مؤهّلاً لأنْ يكون وارثاً مُحْسِناً مستقيماً.

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾: أي: وكانت امرأتي فيما مضىٰ من عمرها عاقراً لا تَلِد، وهذا التعبير يُشعِرُ بأنَّ مُسْتَقْبَلَ أَمْرِها هُوَ بِيَدِ الله، فإنْ شاءَ أصلحها فحَمَلَتْ، كما حَمَلَتْ أخْتُها «حَنَّة» الّتي كانت عاقراً بمَرْيَم ابنَةِ عمران.

**العاقر**: المرأة الّتي لا تَلِد، فهذا الوصف خاصٌّ بالنساء، ولهذا لم يحْتَجْ هذا اللّفظ إلى أداة التّأنيث.

﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾:

﴿فَهَبْ لِى﴾: **الهبَةُ**: العطيَّةُ الخاليةُ منَ الأعْوَاض والأغْراض.

يقال لغة: وهبَ له الشَّيءَ يَهَبُهُ وَهْباً، ووَهَباً، وهِبَةً.

فزكَرِيًّا عليه السَّلامُ طلَبَ من ربّه في دعَائه أن يهبَهُ وليّاً من ذُرِّيَّتِه وارثاً.

﴿مِن لَّدُنكَ﴾: **لَدُن**: ظرفُ زمانيٌّ ومكانيٌّ غَيْرُ مُتمكّن، بمنزلة: «عِنْد» إلّا أنَّهُ أقْرَبُ من «عِنْد» وأخصُّ منه.

و«**لَدُن**» ملازمة للإضافة، فهِيَ تَجرُّ مَا بَعْدَهَا بالإضافة.

﴿وَلِيًّا﴾: أي: وارِثاً من ذُرّيَّتي، يَرِث أُمور الدّين الّتي أتَولّاها، فيكون هو ولياً عَلَيْها من بَعْدي.

﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ برفع الفعلين، وفي القراءة الأخرى: [**يَرِثْنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ**] بجَزْم الفعلين، وقد سبق بيان التكامل بينهما.

المرادُ مِيراثُ العِلْم الدّينيّ، والقيامُ بأُمُورِ الدّين من بَعْدِهِ، فقد كان زكَرِيًّا عليه السّلام من كبار الرَّبَّانِيِّين الّذين لهم شَرِكَةٌ في خِدْمَةِ الهيْكل، كما سبقَ بيانه.

﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾: أي: وَيَرِثُ العِلْم الدِّينيَّ الباقِي من بَعْض آل يَعْقوب.

ذهَبَ أكْثر المفسّرين إلى أنّ المراد بيعقوب هُنا، يعْقُوبُ بْنُ إسْحاق بْنِ إبراهيم عليه السلام، ويَدْخل في آل يَعْقُوب أنبياءُ بني إسرائيل ورُسُلُهم، ومنهم يُوسُفُ، ومُوسىٰ، وهارونُ، ودَاوُد، وسُلَيْمَانُ، وغيرهُمْ عليهم السَّلام.

﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾: رضيّ: على وزْن «فَعِيل» وهٰذه الصيغَةُ تأتي بمعنى «اسْم الفاعل» مع المبالغة، أي: كثير الرّضا عن الله فيما تجري به مقاديره، لا يتذَمَّر ولا يتسخَّط. وتأتي بمعنى «اسم المفعول» أي: مَرْضِياً عنه، من رَبِّه في إيمانِه، وأخْلاقِهِ وَأَعْمالِه، وسائر مُفْرَداتِ سُلُوكِه الإراديّ.

ولا مانع من حَمْل اللَّفظ على المعنيين معاً، إذْ لا تعارض بينهما.

فالمعنَىٰ: واجْعَلْهُ رَبِّ إذا وهبتني إيَّاه بتوفيقك، ومعونَتِك، وعنايَتِك، ورِعَايَتِكَ، عبْداً راضياً كثير الرّضا عَنْكَ فيما تجري بِه مقادِيرُكَ، وَمَرْضِياً مِنْك، إذْ تَجْعَلُهُ مِنْ عِبَادِك الصالحين في صفاته، وفي أفعاله الإراديَّة الظاهرة والباطنة.

قول الله تعالى:

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾.

من بدائع القرآن البيانيّة الّتي لم يكن يَعْرِفُها الْبُلَغاء من قَبْل القرآن، تقديم النصّ اقتطاعاً من الحَدَث الماضي، أو من الحدَثِ الذي سَيَحْدُثُ في المستقبل، لإحضار الصورة نَفْسِها، كأنَّ الحَدَث يَجْرِي مَعَ الخطاب البيانيّ.

وهذا شبيهٌ بتَقْدِيم صُورَةِ المشْهَدِ المصَوَّرَةِ بدِقَّةٍ تامَّةٍ، دُونَ حكايَةٍ لفظيَّةٍ لها.

فَخَاطب الله عزّ وجلّ زكريا عليه السَّلام بأداة النّداء «يا» لإثارَةِ انْتِبَاهِهِ إلى أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ نَظَرَ إلى دُعَائِهِ نظَرَ عناية، ولَمْ يُعْرِضْ عن سؤاله.

وبَعْدَ نِدَائِهِ باسْمِهِ: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ بَشَّره باستجابة سُؤْلِه، فقال له: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾: فخاطبَهُ بضَمِيرِ المتكلّم العظيم الّذي يَفْعَل ما يشاء، لإشعاره بأنَّ الْعَطَاءَ عطاءُ تَفَضُّلٍ من الرَّبّ الجليل القدير الّذي يخْلُقُ بأمْرِ التكوين، وإذا شَاءَ خَرَقَ نظام الأسبابِ، فَمَنَحَ الشَّيْخَ الْهَرِمَ من امْرَأَتِهِ العاقِرِ غُلاماً لم يَجْعَلْ له من قَبْلُ مثيلاً في سِمَاتِهِ وصِفَاتِه.

وأكَّدَ لَهُ خَبَرَ البِشَارَة بأداة التوكيد: «إنَّ» و«بالجملَةِ الاسميَّة» على ما يقول البلاغيّون، لأنَّ موضوع البشارة خبَرٌ مستغربٌ بحسَب العادة.

﴿نُبَشِّرُكَ﴾: أي: نُخْبِرُكَ بما يَسُرُّك، وهذا هو الأصل في البشارة، وقَدْ تُسْتَعْمَلُ البشارة في الإخبار بما يَسُوءُ للتَّهَكُّمْ.

﴿بِغُلَٰمٍ﴾: **الْغُلام**: الصَّبِيُّ مِنْ حين يولَد إلى أنْ يَشبَّ.

﴿ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾: سمَّاهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ «يَحْيَىٰ» قَبْلَ وِلادَتِهِ.

﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾: أي: لم نَجْعَلْ من قَبْله نظيراً ولا مثيلاً لَهُ في صِفَاتِهِ وخصائصه في المخْلُوقات الإنسانية.

ولا يقتضي هذا أفضليَّتَهُ في التكوين علىٰ مَنْ سَبَقَهُ من الأنبياء والمرسَلِين، فالتميزُ بِبَعْضِ الخصائص الذاتيَّة لا يقتضي الأَفضليَّة الكليّة.

ومن جُمْلَة الخصائص الّتي تميَّز بها، أنَّهُ حَصُورٌ، يَعِفُّ عِفَّةً تامَّةً عن

النّساء، فلا يَشْتَهِيهِنَّ بإرادةٍ قويَّةٍ حازِمَةٍ منه، وقيل: هو حَصُورٌ بالتكوينِ الفِطْري، ولكنَّ هذا مسبوقٌ بالنظائر.

وقد يسأل سائلٌ قائلاً: هَلْ خَاطَبَ الله زكريَّا عليه السلام خطاباً مباشراً؟

أقول: إنَّ المعتاد أنَّ الله عزّ وجلَّ يُخَاطِبُ أنبياءَهُ ورُسُلَهُ من البشر، عن طريق رُسُلِهِ من الملائكة، وأمينُ الوحْي في الغالب هو جبريل عليه السلام.

وجاء في سورة (آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول) بيان أنّ الملائكة هم الَّذين نادَوهُ مُبَشِّرين لَهُ بِيَحْيَىٰ، فقال الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾.

قول الله عزّ وجل:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾.

[عِتِياً] و[عُتِيًا] كما في القراءة الأخرى، أي: كِبَراً صِرْتُ فيه هَرِماً تَمكَّنَ مِنّي فيه الضَّعْفُ، والمعنى: بلَغْتُ من كِبَرِ السِّنِّ مَبْلَغاً مُسْقِطاً للقوى.

يُقال لُغةً: عَتَا الشَّيْخُ يَعْتُو عُتِياً وَعِتِياً، بضم العين وكَسْرِها، أي: كَبِرَ وَوَلَّىٰ، وتَمكَّنَ مِنْهُ الضعف، وعلى هذا تكون «عُتِيا» مفعولاً به لفعل: «بَلَغْتُ».

يُقال: كان عُمْرُ زَكَرِيَّا عليه السّلام، حين دَعَا دُعَاءَهُ بأن يَهَبَ الله له ولياً، قرابَةَ خمْسٍ وتسعين سنة.

نظر زكريّا عليه السّلامُ إلى سُنَن الله السَّبَبِيَّة، فرَأَىٰ أَنَّ العادة جاريَةٌ على أنَّ العاقِرَ لَا تَلِد، ورأىٰ أنَّ شَيْخُوخَته بلَغَتْ من الضعف مَبْلغاً يعْجِز فيه عن إتيان النساء فقال مقالته:

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾؟ أي: كَيْفَ يكُونُ لي غلام؟. أو مِنْ أَيْنَ يَكُونُ لِي غُلَام؟. أَنَّى: تأتي بمعنى: «كَيْفَ» وتأتي بمعنى: «مِنْ أَيْنَ»؟

وأبان سَبَبَيْنِ يَمْنَعَانِ بحَسَبِ العادَة من إنْجاب الأولاد:

**السّبب الأول**: أنَّ امْرَأَته كانت عاقراً، في شبابها وفي السّنّ الّتي تُنْجِب فيه النساء عادة، فكَيْفَ بها وقد بَلَغَتْ سِنَّ اليَّأس؟!

**السَّبَبُ الثاني**: أنّ شيخوخته قد وصل فيها إلى طَوْرٍ يَعْجِزُ فيه عن معاشرة النساء معاشرةً زَوْجِيَّة.

فقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.

فخاطبه الرَّسول من الملائكة ولعلّه جبريلُ عليه السلام: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾: أي: أنت وزَوْجُك كما ذَكَرْتَ، هي كانت عاقراً لا تَلِدُ، وأنت قد بَلَغْتَ من الكِبَرِ عِتِياً، وجواباً على استِفْهَامِكَ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ﴾؟ سواءٌ أَكُنْتَ طالباً الْفَهَم أم مُتعجِّباً، اسمع يا زكريَّا: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾: أي: لَيْسَ صَعْباً عليَّ أنْ أُصْلِحَ امْرَأتَكَ، فأجْعَلَها صَالِحَةً لأنْ تَحْمِلَ، ولَيس صَعْباً عليَّ أنْ أَمْنَحَكَ الْقُوَّة، فتكون قادراً على مباشرة أمرأتك كما كُنْتَ أيَّام قُدْرَتك، وأنْ تكُونَ مُخصباً: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ أي: فانْظُرْ وقِسْ، أَلَيْسَ ما بَشَّرْتُكَ بِهِ أهْوَنَ مِنْ خَلْقِكَ، إذْ خَلَقْتُكَ ولم تَكُنْ قَبْلَ خَلْقِي لكَ شيئاً، فلا تَسْأَلْ وَلَا تَعْجِبْ، إنَّ رَبَّكَ على ما يشاءُ قدير.

وقراءة حمزة والكسائي: [وقد خلقناك] بضمير المتكلّم العظيم تُناسِبُ عظَمَةَ الْخَلْقِ على خِلَافِ الأَنْظِمَةِ السَّببيَّة.

أمّا قراءة جمهور القراء العشرة: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ﴾ بضمير المتكلّم المفرد فهي تُناسِبُ أنّه جلَّ جلالُهُ واحِدٌ في رُبوبيَّته.

فتكاملت القراءتان في الدلالة على المراد بيانه من المعاني.

قوله الله عزّ وجل:

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

لمّا عَلِمَ زَكَرِيّا عليه السّلام أنَّ الْغُلامَ الّذي بَشَّرَه بِهِ رَبُّهُ، سَيَهَبُهُ اللَّهُ له ولداً مِنْهُ ومن امْرَأَتِهِ العاقر، بعد إصلاحهما وجَعْلِهما مُخْصِبَيْنِ مُنْتَجَيْنِ للذُّرِّيَّة.

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾:

أي: اجْعَلْ لي علامَةً أعْرِفُ بها أنّ الْبُشْرَى قَدْ دَخَلَتْ مَرْحَلَةَ التنفيذِ والتحقيقِ في الواقع.

- ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾:

أي: علامَتُكَ الّتي نَجْعَلُها دالّةً لَكَ علىٰ دُخولِ الْبُشْرَىٰ مَرْحَلَةَ التنفيذِ والتَّحْقِيقِ في الواقع، أنْ نَحْبِسَ لِسَانَكَ عَنْ مُكَالَمَةِ النَّاسِ حَبْساً مُؤَقَّتاً أَجَلُهُ ثَلَاثُ ليالٍ، حالة كوْنِكَ سَوِيّاً لَمْ تُصَبْ بِعَاهَةٍ فِي نُطْقِكَ.

وأفَادَتْ كَلِمَةِ «سَوِيّاً» فيما أَرَىٰ أنّ لسانَهُ لَمْ يُحْبَسْ عن الكلام حبساً

كُلّياً، بلْ كان لسَانُه يُحْبَسُ إذا أراد أن يُكَلّم الناسَ فقط، أمّا كَلامُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ كالتلاوة والذكر والدُّعاء، وكلامُهُ في مُخَاطَبَةِ الملك إذا نَزَلَ عليه، فهو سَوِيٌّ فيه تماماً، ويَدُلُّ على هذا ما جاء في النّصّ الذي في سورة (آلِ عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) وهو قول الله عزّ وجل:

﴿... قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾.

ونُلاحظُ في نَصَّيْ «مريم» و«آل عمران» ما يلي:

١ ـ أَنَّ نَصَّ سورة (مريم) جاء فيه: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾.

٢ ـ وأنّ نصَّ سورة (آل عمران) جاء فيه: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾.

فدَلّ النَّصّان على أنّ المرادَ ثَلاثَة أيامٍ بلياليها، وأنّ الْيَوْمَ هو من طُلوع الْفَجْرِ إلىٰ غُرُوبِ الشَّمْسِ.

وبهذا تكونُ الحُبْسَة قد بَدَأَتْ باللَّيْلِ، وانتَهت عند غُرُوبِ شَمْسِ اليوم الثالث، أو بدأت مع طلوع فجر اليوم الأوّل، وانْتَهَتْ في آخِرِ اللَّيْلَةِ الثالِثَة.

وتقديمُ إنزالِ ما جاء في سورة (مريم) يُشْعِرُ برُجْحَان الاحتمال الأول، وأن الْحُبْسَة بدأت باللَّيْل، والله أعلم.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾.

﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾: وجمْعُهُ «المحاريب» هو صَدْرُ البيت، وأكْرَمُ موضع فيه، والْغُرْفَةُ، وأرْفَعُ بيْتٍ في الدار، وأرفع مكانٍ في المسجد، والقصر، وموقف الإمام في المسجد.

وكلمة «مِحْراب» عند بني إسرائيل تَعْنِي مؤخّر الهيكل، أو ما يُسَمُّونه: «قُدْسَ الأَقْداس» في الهيكل، وقد أطلق اليهود اسمَ «هيكل» على مكانٍ واحدٍ كبير في القُدس، وهو الذي بناه «سليمان» عليه السلام لعبادة الرّب.

وكان «داود» عليه السلام هو صاحب فكرة بناء هيْكَلٍ ثابتٍ للرّب. بدَل خَيْمَةِ الشهادة المتنقلة.

و«قُدْسُ الأقداس» غُرْفَةٌ مظلمةٌ في مؤخّر الهيكل، وفيها تابوتُ العهد على صخرة.

وكلمة «هَيْكل» في معناها العام، مكان عبادة الله، كالكنيسة عند النصارى، والمسجد عند المسلمين، وقد جعل اليهود كلمة «هيكل» خاصَّةً بما بناه سليمان عليه السلام في القدس[1]، وهو المعروف ببيت المقدس.

ويظهر أنّ زكريّا عليه السّلام خرج من «قُدْس الأقداس» هذا الَّذِي كان لا يَدْخُلُه إلَّا من كان رئيساً أو كان من كبار الرَّبَّانِيِّين، الذين لهم شركة في خدمة الهيكل.

• ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾:

أي: فأشار إليهم إشارات رَمْزِيَّةً تَدُلُّ على أنَّه يأمُرهم بأنْ يُسَبِّحُوا اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيّاً. **الوحي**: يُطْلَقُ على عدَّة معانٍ، منها الإشارة السَّريعة.

**الْبُكْرَة**: هي من أوّل النهار عند الفجر إلى طُلوع الشمس.

**الْعَشِيّ**: هو نصف النهار الثاني حتَّىٰ غروب الشمس.

وقد دلّت هذه العبارة أنّ الْحُبْسَةَ اللِّسانِيَّةَ عن مُكالَمَةِ النَّاس قَدْ حلَّتْ

(١) أخذاً من «قاموس الكتاب المقدس».

به، علامةً على أنَّ البشارة قَدْ وُضِعَتْ مَوْضع التنفيذ، وتحقَّقَتِ العلامَةُ الَّتي طَلَبَها.

ولهذا صَارَ يخاطب قومه وتلاميذه بالإشارة، ولا يستطيع أنْ يُكَلِّمَهم، للحُبْسَة الّتي أصابَتْهُ بِلِسانِه عن مكالمة الناس.

وقد سمَّى اللَّهُ عزّ وجلَّ الوسيلةَ الّتي كان زكريّا عليه السلام يُبَلِّغُ بها قومه ما يريد إعلامهم به «وَحْياً» وقد كانت إشاراتٍ حركيَّة باليدين وبغيرهما من أَعْضاء الجسم.

وسمّاها «رَمْزاً» في الآية (٤١) من سورة (آل عمران) وأمَرَهُ فيها بالذّكر والتسبيح بالعشيّ والإبكار، كما سبقَ بيانُهُ آنفاً.

ونَفْهَمُ من تعبيره عن طريق الوحْي، والرَّمْز لقومه بأنْ يَسَبْحوا بُكْرَةً وعشياً، أنَّهُ يُبَشّرُهم بأمْرٍ عظيم، يقتضي منهم أن يشكُرُوا الله عليه بالتسبيح، وذلك لأنّ منَّةَ الله علَيْه بوارثِ نُبُوَّةٍ وعِلْمٍ من ذُرّيَّتِهِ، هي مِنَّةٌ على أصْحَابهِ، ومَواليه، ومُنَاصِريه، وتلامِذَتِهِ، من قومه.

**تَسْبِيحُ الله**: هو تَنْزِيهُهُ عمّا لا يَلِيقُ بجلاله، وهذا يَسْتَلْزِمُ عقلاً تمجِيدَهُ بكمالاته.

وأفضل عبارات التَّسْبِيح المأثورة: سُبْحانَ الله وبِحَمْدِهِ.

فَدَلَّ القرآن على أنّ ذِكْرَ الله بالتَّسْبِيحِ قد كان معروفاً عند أهل الكتاب، من اليهود فالنصارى.

وتنتهي حُبْسَةُ زكريا عليه السلام اللّسانيّة، ويُعْلِمُ قومه بسبَبِها، وأنَّ اللَّه بَشَّره بغلامٍ اسْمُه «يَحْيَىٰ» يكونُ وارثَ النُبُوَّةِ والعِلْمِ.

وتَمرُّ الأيّامُ واللَّيالي، ويُولَدُ الغُلامُ «يحيَىٰ» وتأتي المفاجأةُ القرآنيّة بنداء «يَحْيَىٰ» الّذي آتاه الله الْحُكْمَ صَبيّاً.

فقال الله تعالى:

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

في هذه الآيات بيانٌ عن «يَحْيَىٰ» ووالِدِه «زَكَرِيّا» عليهما السّلام، وهو يشتمل على ثماني قضايا:

**القضية الأولى**: جاءت في: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾:

أقول في هذه المفَاجأة القرآنية نظير الذي سبَق أن ذكرته في نداءِ الله «زَكَرِيَّا» عليه السلام، وأنّها من بدائع القرآن البيانية، الّتي يَجْرِي فيها تقديم النّصّ اقتطاعاً من الحدث الماضي، أو من الحَدَثِ الذي سيَحْدُثُ في المستقبل، لإحضار الصُّورةِ نَفْسِها، كَأَنَّ الحَدَثَ يَجْرِي مع الخطاب البياني.

لقد انتقل البيان من موضوع بشارة الله «زَكريَّا» عليه السَّلام، بِغُلامٍ اسْمُهُ «يَحْيَى» وما رافق هذه البشارة من فقراتٍ ذَوَاتِ شأن جرَتْ في الحدث، إلى نداء اللَّهِ «لِيَحْيَىٰ» بأنْ يأخُذَ الكتاب بقوَّة.

أي: وُلِدَ «يَحْيَىٰ» المبشَّرُ به، وصَارَ مؤهّلاً لأنْ يُنَادىٰ بأنْ يَأْخُذَ الكِتَابَ بقُوَّة، ولكن لَيْسَ في النصّ ما يَدُلُّ على الْعُمْر الذي خُوطِبَ فيهِ بهذا الخطاب.

إنّ الله عزَّ وجلَّ أَمَرَهُ بأنْ يأخُذَ كتاب التَّوْرَاةِ بقُوَّة، وقدْ يُلْحَقُ بالتوراة سائر الكُتُب المنزَّلَة من عند الله على رُسُلِ بَني إسرائيل من بَعْدِ موسَىٰ إلى زَمَنِ يَحْيَىٰ، عَلَيْهِمُ السَّلام.

وإنّ أخذَ الكتاب الرَّبَّانيّ بقُوّةٍ يتضمّنُ حُسْنَ حِفْظِهِ وضَبْطِهِ، وحُسْنَ

فَهْمِه، وتَدَبُّرِهِ، وحُسْنَ الْعَمَلِ بشرائِعه وأحكامه، وحُسْنَ تَعْلِيمِهِ وَنَشْرِهِ، ويتضمَّن الجهاد في توجِيهِ الْأَمْرِ الحكِيم بالعمل بما جاء فيه من أوامر، وفي توجيه النهْي الحكيم عن مَعْصِيَةِ ما جاء فيه من نواهي. ويَتَضَمَّنُ الجهادَ في تَبْلِيغِ ما جاءَ فيه من وصايا وإرْشَادَاتٍ وبياناتٍ بِحَسَبِ وَظَائِفِ الأنبياءِ والمرسَلين في أقوامهم.

وقد أعان الله عزّ وجلّ «يحيَىٰ» عليه السَّلام، فَأَخَذَ الكتابَ بِقُوَّةٍ حقاً، فكان يقول الحقّ ولا يخْشَىٰ لَومَةَ لائم، ولا سطوات الجبَابِرَةِ من ذوي الحكم والسّلطان، وانتهىٰ أَخْذُهُ الكتابَ بقوَّةٍ إلى قَتْلِه، عَلَيْهِ السَّلام.

**القضيّة الثانية:** جاءت في ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾:

يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا هنا بضمير المتكلّم العظيم، للإشعار بعظمة رُبُوبيَّتِه القادرة على أنْ تَجْعَلَ الصَّبِيَّ الّذي ما زَالَ أمْثَالُهُ دُونَ التمييز حكيماً راشداً.

والمرادُ بالْحُكْمِ سدَادُ الرأْي، وحُسْنُ فَهْم النُّصُوصِ الرَّبَّانِيَّة، والبصيرَةُ في الْأُمُور على اخْتلافِها وكَثْرَةِ المشتَبِهَات فيها، وحُسْنُ الْعَمَلِ الحكيم في الدَّعْوَةِ إلى دين الله الحقّ، والنُّصْحِ والإرْشادِ، والْأَمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المنْكر، وحُسْنُ الْفَصْلِ بَيْنَ الأقْضِيَةِ والْخُصُومات، وحُسْنُ تَصْرِيفِ الأمور بِوَضْعِ الأشياء في مواضِعها الملائمة لها، وحُسْنُ الإدَارَة بِعَقْلٍ ورُشْد. أفادت كلّ هذه المعاني (ال) الاستغراقية في لفظ (الْحُكم).

**القضيّة الثالثة:** جاءت في ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾:

يَتَحَدَّثُ الرَّبُّ بضمير المتكلّم العظيم أيضاً فيبيّن أنه آتَىٰ «يحيىٰ» عليه السَّلام خُلُقَ الرَّحْمَةِ والشفقة ورِقَّةِ القلْبِ، وأنَّه أفاض بها عَلَيْهِ من لَدُنْهُ، أي: من أقْرَبِ الْقُرْب إلَيْهِ جَلَّ جلاله، الموصول برحْمَتِهِ.

وفي هذا دَلالَةٌ علىٰ تَخْصِيصِهِ بعِنَايَةٍ خاصَّةٍ في هٰذه العطيَّةِ العظمية الجليلة.

**الحنَانُ**: هو في اللُّغة، الرَّحْمَةُ، والشَّفَقَةُ، ورِقَّةُ الْقَلْبِ.

**القضيَّة الرابعة**: جاءت في ﴿وَزَكَوٰةً﴾:

أي: وآتيناه من لَدُنَّا «زكاةً» أي: طهارةً قلبيَّةً ونفسيَّةً، وسُلُوكيَّةً، وتنامِياً في المراتب الحميدة.

فهو بالطهارة الّتي آتاه الله إياها من لَدُنْه يجْتَنِبُ كُلَّ مَا يُدَنّس، من فِكْرَةٍ، وخاطِرَةٍ، وخُلُقٍ، وَحَرَكَةٍ نَفْسِيَّةٍ إرادِيَّةٍ، وَعَمَلٍ جَسَدِيٍّ.

وهو بما لَدَيه من قوة نماء، يَعْمَلُ دواماً على الارْتقاء والصُّعُود في درجات الفضائل والخيرات، دون انقطاع.

**الزكاة**: هي في اللّغة، الطّهارة، والنّماء.

**القضية الخامسة**: جاءت في: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾:

أي: وكان عليه السلام في كلّ حياته كثيرَ التقوىٰ، في سلوكه النَّفْسِيّ والْجَسَدِيّ، قائماً بكُلّ الواجبات، ومجتنباً كلَّ المحرّمات.

**القضية السادسة**: جاءتْ في: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾

أي: وكان عليه السَّلامُ في حياته برّاً بأُمّه وأبيه، طاعةً، وخِدْمةً، وإحساناً، وإكراماً، وتَذَلُّلاً، بِخَفْضِ جَناحِه لهما من الرَّحْمَة.

**القضيَّة السابعة**: جاءتْ في: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾:

أي: إنَّه عَلَيْهِ السَّلام لَمْ يكن جبّاراً، مع شِدَّةِ جُرْأَتِهِ وشجاعَتِهِ في الحقِّ ثِقَةً بالله وطلَباً لمراضيه.

**الْجَبَّارُ**: الْقَاهِرُ الْعَاتِي المتسلّط، الّذي لا يقبلُ الموعَظَة، وليْس في قلبه رَحمة.

وإنّه عليه السّلامُ لم يَكُنْ عَصِياً للأوامر، فيما لَيْسَ فيه مَعْصِيَةٌ لله عزّ

وجل، بل كانَ هيّناً ليّناً مُطِيعاً مُسَالماً، سَهْلَ الانقياد فيما لا مَعْصِيَةَ لله فيه، رُبَّما يَنْقَادُ لغُلامٍ أو جارِيَةٍ رفقاً بهما.

أمّا الْعَصِيُّ بطَبْعِهِ فإنَّه يَنْفِرُ من الانقياد لِغَيْرِهِ، ولو كَانَ في الأمر الذي يُقَادُ له خَيْرٌ عظيم له، أَوْ خيرٌ عامٌ يَأْجُرُ اللَّهُ عليه أجراً عظيماً.

ويُلاحظ في طبائع النّاسِ أنَّ كُلَّ جبارٍ هو عَصِيٌّ عنيد لا يُطاوع، وإذا قِيدَ ولو إلَىٰ فِعْلِ خَيْرٍ فَإنَّهُ لَا يَنْقَاد.

**القضيَّةُ الثامنة:** جاءت في: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾.

في هذه القضيّة يُوجّه الله عزّ وجل التحيَّة بالسَّلام، ليَحْيَىٰ عليه السّلام، وهو الأمْنُ والسَّلامَةُ.

وهٰذه التحيَّةُ الرَّبَّانيَّة، تَتَضَمَّنُ قضاءً من الله له بالأمن والسّلامة، وتوجيهاً للملائكة وللصالحين من عباد الله بأنْ يُحَيُّوهُ ويَدْعُوا له بالسّلام، يومَ ميلاده، ويَوْمَ مَوْته، ويَوْمَ بَعْثه.

والسّلام عليه في هذه المراحل يَسْتَمِرُّ مع كلّ مَرْحَلَةٍ مِنْها حتَّىٰ غايتها، أي: والسّلام عليه دواماً مُنْذُ نَشْأَتِهِ حتَّىٰ بُلُوغِهِ الْفِرْدَوسَ الأعلىٰ في جَنَّات النعيم.

❁ ❁ ❁

**استكمال تدبّر ما جاء في سائر سُوَر القرآن بشأن زكريا ويحيى عليهما السلام:**

إنّ التدبُّر التكامليَّ يَدْعونا إلى أن نَتَدَبَّرَ سَائِرَ النُّصُوصِ الّتي جاءت في مختَلِف سُورِ القرآن، بشَأْن زكريَّا وَوَلَدِهِ يَحْيَىٰ عليهما السلام.

القرآن في مختلف السُّور اشتمل على أربعة نصوصٍ، تَتَناوَل بيان قضايا من قِصَّتِي زَكَرِيا وولَدِه يَحْيَىٰ عليهما السلام.

**النص الأول:** جاء في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُه.

**النص الثاني:** جاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول).

**النصُّ الثالث:** جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول).

**النص الرابع:** جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول).

وفيما يلي اسْتِكْمَالُ التدبُّر التّكامُلِيّ المنشود.

**أولاً:** ما جاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) وهُو قول الله عزّ وجلّ فيها ضمن نصٍّ ذكَرَ فيه (١٨) رسولاً مصرّحاً بأسمائهم:

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥)﴾.

فأثبت الله عزَّ وجل في هذا النَّصّ أنّ زَكَرِيّا ويَحْيَىٰ مِنَ الصالحين.

وجاء في سياق هذا النّص قول الله تعالى: ﴿... وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦)﴾ وجاء فيه أيضاً: ﴿... وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧)﴾ وجاء فيه أيضاً وصْفاً لكلّ الرُّسُلِ المذكورين في الآيات بدءاً من الآية (٨٣) قول الله تَعالَىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ... (٨٩)﴾ وجاء فيه أيضاً خطاباً للرَّسُول محمد ﷺ:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ (٩٠)﴾.

فعبارات الثناء الّتي جاءت في هذه الفقرات، تَعُمُّ كُلَّ الرُّسُلِ (١٨) المذكورين في هذا النصّ، ومنهم زَكَرِيّا ووَلَدُهُ يحْيَىٰ عليهما السلام.

❀ ❀ ❀

**ثانياً**: ما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بشأن زكريّا وولَدِه يحيَىٰ عليهما السلام، وهو قول الله عزّ وجلّ فيها، عَطْفاً على ذكر طائفة من المرسلين:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

• ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾: سبق في تدبّر نصّ سورة (مريم) بيان المراد بالنداء، وأنَّهُ عبارةٌ عن شِدَّةِ التوجُّهِ الْقَلْبِيِّ إلى اللَّهِ في الدّعاء، وليْسَ المرادُ به رفْعَ الصَّوتِ به على خلاف أدب الدُّعاء.

وجاء في هذا النّصّ عطف ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ على: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ وقد كان المتبادر أن تَكُونَ العبارة: وأصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ، ويُجِيبُ النحاةُ على هذا بأنّ الواو العاطفة لا تقتضي تَرْتيباً وَلَا تَعْقيباً، بلْ هي لمُطْلَقِ الْجَمْعِ.

**أقول**: هذا بيانٌ لجواز عَطْفِ المتقدّم على المتأخِّرِ بالواو بحسب قواعد اللّسان العربي.

لكِنَّ الداعيَ البلاغيَّ هُنَا في هذا الإجراء هو أنَّ هبَةَ الْوَلَدِ هي المقصودُ بالدُّعاء، وإصلاحُ زوجَةِ زَكَرِيَّا إحدى وسائل تحقيق المطلوب، فكان ذكْر هِبَةِ يَحْيَىٰ له أولَىٰ بالتقديم في الذكر، من بيان إصْلاح الزَّوجة.

يضاف إلى هذا أنّ القضاءَ بِهِبَةِ الولَدِ يَحْيَىٰ لَهُ، قَدْ تَمَّ بَعْدَ استجابَةِ الدُّعاءِ، وَبَعْدَهُما جاءَ إصلاح زَوْجَتِه، وَسِيلَةً منْ وسائل تحقيقِ القضاء.

وجاء عبارة: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دالَّةً على أنّ الاستجابة جاءت عَقِبَ الدُّعَاء، بدليل حرف العطف «الفاء» وهذه الاستجابة تتعلَّقُ بهبَتِهِ يَحْيَىٰ، لا بإصلاح زوجه، فالتعبير القرآني مُنْسَجِمٌ مع الترتيب الواقعيّ، ثم جاء التنفيذ بإصلاح الزَّوّجَةِ وعُلُوقِ الجنين الَّذِي كان قد تمَّ القضاء به.

وقد أضاف هذا النصّ من سورة (الأنبياء) أرْبَعَ قضايا:

**القضية الأولى**: أنَّ زَكَرِيًا عليه السّلام قال في دُعائِهِ لربِّهِ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ﴾.

أي: رَبّ لا تَتْرُكْنِي فَرْداً مَقْطُوعاً من الذُّرِّيَّةِ الوارثَةِ لِي، الَّتي تَرِثُ النُّبُوَّةَ والْعِلْمَ الدّينيَّ، ومَرْكَزَ الرَّبَّانِيَّة الّذِي جَعَلْتَهُ لي في خِدْمَةِ الهَيْكل.

ولِيَدُلَّ على أنَّ رغْبَتَهُ هٰذه لا تَحْمِلُ معنى الاستدراك على حكْمَةِ الله، فيما لو شاء اللَّهُ أن يَحْرِمَهُ من الذّرِّيَّة، أَثْنَىٰ على رَبّه بقوله في دعائه له: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ﴾: أي: وأنْتَ خَيْرُ باقٍ بَعْدَ كُلّ من يَمُوتُ، فإنّي لا أسْتَدْرِكُ على حكْمَتِكَ، ليقيني بأنّ حكمَتَكَ أَجَلُّ وأَعْظَم، فإذا شئتَ اخْتَرْتَ مِنْ عبادِكَ مَنْ يقومُ بأمْرِ الدّين من بَعْدي، ولا يتوقَّفُ الأمْرُ على أنْ تَهبني من لدُنْكَ وَلِياً يَرِثُنِي وَيَرِثُ من آلِ يعقوبَ، ويكونُ بقضائك وقَدَرِكَ وتَوْفِيقَكَ رَضياً.

**القضيَّةُ الثانية**: وأضاف هذا النصّ أيضاً التَّصْريحَ بأنَّ الله عزَّ وجلَّ استجابَ دُعَاءَ زَكَرِيا فوهَبَ لَهُ يَحْيَىٰ وَلَداً ذكراً، فقال تعالى فِيه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾: وجاء التعبير هما مسْتَعمَلاً فيه ضمير المتكلّم العظيم، للدَّلَالَةِ على عظمة الرُّبُوبيَّة.

وهذا الذي جاء مُصَرَّحاً به في هذا النصّ، قَدْ فُهِمَ باللُّزُومِ العقليّ من النصّ الذي جاء في سورة (مريم).

إنّ فنّيَّةَ الأداء البيانيّ الْبَدِيعِ اقتضَتْ في سورة (مريم) طَيَّ فِكْرَة استجابة دُعائه، والاكتفاء في النصّ باقتطاع عبارة بشارَته مِنَ الحدَثِ الماضي، وتقديمَها كأنَّ مَشْهَدَ القِصَّةِ واقِعٌ الآن، فقال تعالى فيها:

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾.

إنّ هٰذه البشارة يُفْهَمُ مِنْهَا باللُّزُوم الْعَقْلِيّ أنّ الله عزّ وجلّ قد استجاب دُعاءه، فلم يأت في نصّها التصريح باستجابة دعائه.

وبالتَّصريح بهذا المطوي هنا، فيما جاء في سورة (الأنبياء) يظْهَرُ عنْصُرٌ من عناصر التكامُلِ بَيْنَ النَّصَّيْنِ، ويتضمَّن أيضاً غَرَضَ تدريب المتدبّرين لِكِتَابِ الله على اسْتِخْرَاجِ اللَّوازِم الفِكْرِيَّة من النّصُوصِ القرآنيّة، واعتبارها ممّا دلَّتْ عليه النُّصُوص، ولو لم يُصَرَّحْ بها في الألفاظ، فالنُّصُوص القرآنِيَّةُ تَحْمِلُ معَاني كثيرةً تُفْهَمُ باللُّزوم الفكريّ، دون التَّصْريح بها في ألفاظ خاصَّةٍ تَدُلُّ عليها.

**القضية الثالثة**: وأضاف هذا النصُّ أيضاً التصريحَ بأنّ اللَّهَ عزَّ وجلّ قد أصلح لزكَريَّا عليه السّلام زوجه العاقر، فجعلها صالحةً لأَنْ تَحْمِلَ وتَلِد، فقال تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾.

دلّت عبارة: ﴿وَأَصْلَحْنَا﴾ على أنّ الْعُقْمَ كان ناتِجاً عن خَلَلٍ ما في الجهاز الكُلِّيّ المخلوق في النساء لِلْحَمْلِ والولادة، فإذا أُصْلِحَ هذا الْخَلَلُ، صار الجهازُ صَالحاً لِلْحَمْلِ والْوِلادة، وفي هذا إشعارٌ للأطباء يدفعهم لمتابعة البحوث العلميّة، لمعرفة الخلَلِ المسبِّب للعُقْم، وإصلاحه إذا كانَ إصلاحُهُ مُمْكناً.

﴿زَوْجَهُۥٓ﴾: أي: امْرَأته، يُطْلَقُ في اللُّغَةِ علىٰ كُلٍّ من الزَّوْجَيْنِ الذّكَرِ والأُنْثَىٰ كلمة «زوج» والقرائن السابقة أو اللاحقة، تَدُلُّ علىٰ المراد.

وهذا الذي جاء التصريح به في سورة (الأنبياء) يُفْهَمُ أيضاً باللُّزُوم العقلِي من النصّ الذي جاء في سورة (مريم) إذ جاء فيها بيان قول زَكَرِيّا عليه السلام: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾.

فإذا جمَعْنَا هذا مع نداء الله له فيها: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ فهِمْنا حَتْماً باللُّزوم العقْلِيّ أنّ الله قَدْ أصلح له زوجه.

**القضية الرابعة:** وأضاف هذا النصُّ أيضاً بيانَ حِكْمةِ الله في استجابتِه لدُعاء زَكريّا وزوجته، في أمْرٍ هو من الرَّغَبات الإنسانية، والحاجاتِ النفسية، وليس من الضَّرُوراتِ الحياتيَّة المشمولة بقول الله عزّ وجل في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ... ﴿٦٢﴾﴾.

هذه الحكمة هي أنّ زَكَرِيّا عليْهِ السَّلام وزَوْجَهُ كَانُوا أهْلَ بَيْتٍ يُسَارِعُونَ فِي فِعْلِ الخيرات، علىٰ اختلاف أنواعِهَا، وكانوا يَدْعُونَ رَبّهم دَواماً، في أحْوَالِ الرَّغَبِ والرَّهب، وَكَانُوا خاشعين، أي: خاضِعين لربّهم، مُتَذَلِّلين له، ساكِنِينَ سُكُونَ طُمَأْنِينَةٍ ورِضاً عن الله فيما تجري به مقاديره، فاقتضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ العليّة أن يُكَافِئَهُمْ، ويَسْتَجِيبَ دُعَاءَهم، ويُرْضِيَهُمْ بتحقيقِ ما هم راغِبُونَ فيه، ولو اقتضىٰ ذلك خَرْقَ السُّنَّةِ المعتادة، بإصْلاح العاقر، ومَدِّ الشيخ العجوز الفاني بالقُدْرَةِ على إتْيانِ زوجته، بعد أنْ كانت هذه القُدْرَة ساقِطةً بالشيخوخَةِ المتقدِّمة.

فقال الله عزّ وجل:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: أي: يُسَارِعُون السَّيْرَ في طَرِيق فِعْلِ الخيرات على اختلافَ أنواعها، فِعْل «سَارَعَ يُسَارِعُ» مثل فعل «أسْرع يُسْرِع» مع زيادةٍ في معنى الاجتهاد في العمل، إذ الصّيغة صيغةُ مُشَارِكةٍ فيها معنى بَذْلِ جَهْدٍ أكثر لبلوغ السَّبْق، فإذا لم يُوجَدِ المشارك كانت دالَّة على المبالغة في بَذْلِ غايَةِ الوُسْع.

﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: جمع «الخَيْرَة» وهي الفاضلة مِنْ كُلّ شيء.

﴿رَغَبًا﴾: مصْدَرُ «رَغِبَ» يقال لغة: رَغِبَ في الشيء يَرْغَبُ رَغَباً، وَرَغْبَةً، ورُغْبَةً، أي: طَمِعَ فيه وحَرِصَ عَلَيْه.

﴿وَرَهَبًا﴾: مصْدَرُ «رَهِبَ». يُقَالُ لغة: رَهِبَهُ، يَرْهَبُهُ رَهَباً، ورَهْبَةً، وَرُهْباً، أي: خافه.

أي: وَيَدْعُونَنا في كلِّ أحوال الرَّغَب الّتي يَرْغبونَ بها فيما يحبون، وفي كلّ أحوال الرَّهب الّتي يَرْهبون بها حُلُول ما يكرهون.

وبهذا التحليل ظهر لنا التكامل بين النصّ الذي جاء في سورة (مريم) والنصّ الذي جاء في سورة (الأنبياء) بشأن قصة زكريّا ووَلَدِه يحيَىٰ عليهما السّلام.

ولدى التدبّر الّذي تمت به مُقَارَنَةُ فِقَراتِ النَّصَّيْنِ، وجَدْنا أَنَّهُ لَا تُوجَدُ مُكرَّرات فيهما، بل توجد مَعْلُومَاتٌ مُضَافَاتٌ، أو تَصْرِيحٌ بمعانٍ تُفْهَمُ باللُّزُومِ الفكريّ من دَلالاتِ النّصّ الآخر، وهذا مِنْ عجائب القرآن المجيد.

## مع تدبُّر سريع لفقرات نصّ سورة (الأنبياء):

قول الله تعالى:

- ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾:

أي: وَضَعْ في ذاكِرَتِكَ أيُّها المهتَّمُّ بما أنْزَلَ الله في كتابه، قِصَّةَ زَكَرِيّا حين نَادَىٰ رَبَّهُ، لتَسْتَفِيد منْها العِبْرَةَ والعظَةَ وحكمة اللَّهِ فِي تَلْبِيَةِ مطالِب عباده الصالحين.

قول الله تعالى حكاية لدعاء زكريّا عليه السلام:

- ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾:

أي: رَبّ لَا تَتْرُكْني وحِيداً لا ذُرِّيَّة لَهُ في شجرة نَسَبِي، كَفَرْعٍ انْتَهَىٰ الامْتِدَاد من جهته عنده، فصارَ وحيداً فريداً منقطعاً، بَيْنَما تَمتَدُّ الفروع الأخرى من شَجَرة النسَب بالذّراري من كُلّ جوانب الشجرة.

قول الله تعالى في مُتَابَعةِ حكاية دعاء زكريّا عليه السلام:

• ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

في هذه العبارة ثناءٌ على الله بأنَّه خَيْرُ مَنْ تَرْجِعُ كُلُّ الأشياء والأحياء إلى مَحْضِ مِلْكِهِ جلَّ جلاله.

من أسماء الله الحسنىٰ أنَّه «الْوارِثُ» أي: الَّذِي يَرْجع إلى مَحْضِ مِلْكِهِ كلَّ شيءٍ جَعَلَ هو لبَعْضِ عِباده تملُّكاً صوريًّا له، والّذي تَعُودُ إلَيْه الأشياء المملُوكَةُ هِيَ وَمَالِكُوهَا، مع أنّ الحقيقة أنّ مِلْكَ الله للأشياء كُلّها مُسْتَمِرٌ لَا يَنْقَطع.

وبما أنَّ الله عزّ وجلّ هو الأزَليُّ الأبَدِيّ الباقِيّ، فهو الّذِي يَرْجِعُ إلى مَحْضِ مِلْكِهِ وَتَصَرُّفِهِ كُلُّ شيءٍ.

قول الله تعالى:

• ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾:

أي: فاستجبنا له دُعَاءَهُ، وأجْرَيْنا المقادير الّتي تَحَقَّقُ بها أَنْ وَهَبْنَا لَهُ ولداً ذكراً سَمَّيْناهُ يَحْيَىٰ.

قول الله تعالى:

• ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾:

دلّت هذه العبارة على أنَّه كان في زوجته مَانِع أو أكثر من الحَمْلِ والولادة: فأزال الله عزّ وجلّ بعظَمَةِ رُبُوبيته ذلك، وأصلح أجْهِزَةَ حَمْلِها وولادتها، فصارتْ صالحَةً لهما.

ولا يخفى علينا في هذه العبارة والّتي قبلها استعمالُ ضمير المتكلّم العظيم، لأنّ المضمون يقتضي الإشارة إلى عظمة رُبوبية الرَّبّ، جلّ جلالُه وعظم سلطانه.

قول الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

سَبَقَ بيانٌ كافٍ حول هذه العبارة، وأضيف هنا أنّ نَصْبَ رَغَباً وَرَهَباً هو على أنهما حال في أوْجَه الأقوال، أي: راغبين وراهبين.

﴿خَـٰشِعِينَ﴾: الخشوعُ، هو في اللّغة الخضوع، والذُّلُّ، والسُّكُونُ رضاً عن الله.

❁ ❁ ❁

**ثالثاً:** مَا جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) بشأْن زَكريَّا وولَدِه يَحْيىٰ عليهما السّلام: وهو قول الله عزّ وجل فيها عقب بيان لقطاتٍ من قِصَّةِ امرأةِ عمران، ونَذْرِها ما في بَطْنِها مُحَرَّراً للهيكل، وولادتها مريمَ عليها السَّلام، وكفالَةِ زَكَرِيَّا لها:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٤١﴾﴾.

- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾:

كان زَكَرِيَّا عليه السَّلام، هو الّذي وَقَعَتْ عليه كفالَةُ «مريم» عليها السلام في الهيْكل، وهو زوّج خالَتها «إيشاع = أَلِيصَابَات» وقد وُضِعَتْ في غُرْفَةِ «قُدْسِ الأقْدَاسِ» في الْهَيْكل الّذي يُطْلِقُ عليه اليهود اسْمَ «المحْرَابِ» كما سَبَقَ بيانه.

وكان كُلّما دَخَلَ عليها المحرابَ وَجَدَ عنْدَها رِزْقاً، فقال لها:

﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾.

﴿هُنَالِكَ﴾: أي: في ذلِكَ المكان الذّي جَرَىٰ فيه هذا الحَدَث الخارق للعادة، والّذي يُكْرِم به مَرْيَمَ الّتي جاءت هِبَةً من الله على خلاف نظام الأسباب المعتادة، إذْ كانت أُمُّها «حَنَّة» عاقراً، وكان أَبُوها «عِمْران» رئيسُ الرَّبّانِيّين، وكاهِنُهُمُ الأكْبَرُ شَيْخاً كبيراً مِثْلَه.

هنالك تَحَرَّكَتْ في قَلْبِ زَكَرِيَّا الرَّغْبَةُ الشَّديدة في أن يَهَبَهُ اللَّهُ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً، كما وَهَبَ «عِمْران» ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً هي «مريم» الّتي يُكْرِمُهَا الله برِزْقٍ من عنده، على خلاف نظام الأسباب المعتادة. فَدَعا رَبَّهُ:

• ﴿قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾.

﴿هَبۡ لِي﴾: **الْهِبَةُ**: هي العَطِيَّةُ الخاليَةُ من الأعواض والأغراض، يقال لُغةً: وَهَبَ لَهُ الشيءَ يهَبُه وَهْباً، وَوَهَباً، وهِبَةً، فهو واهب وَوَهَّاب.

﴿مِن لَّدُنكَ﴾: **لَدُن**: ظَرْفٌ زَمَانيٌ ومَكَانِيٌّ، بمنزلَةِ «عِنْد» إلّا أنَّه أقْرَبُ من «عنْد» وأخَصُّ منه. وهي ملازمة للإضافة.

﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ﴾: **الذُّرِّيَة**: النَّسْلُ من الذكور والإناث، فلم يُعَيّن عليه السّلام في دعائه أن يكون ذكراً. (وأصلها ذُرّيئَةً فسهلت الهمزة وأدغمت بالياء قبلها) وتجمع على «ذَراري».

﴿طَيِّبَةًۖ﴾: **الطيّبُ** ضدُّ الخبيث، ويطلقُ على الطاهر، ومُرادُه أن يَهَبَ له الله ذرّية طاهرةً من أرجاس الكفر والشّرك والمعاصي والأخلاق الرديئةِ القذرة.

وأثنىٰ على رَبّه بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: أي: إنّك ربّ لا يخفى

عليك دعاءٌ ما، مهما كان خفياً، لأنّه عليه السّلام قد نادى ربَّهُ نداءً خفياً.

﴿إِلَّا رَمْزًا﴾: **الرَّمْزُ**: الإشارة بحَركة عُضْوٍ من الأعضاء، كحَرَكَةٍ بالشَّفَة، أو الْعَين، أو الحاجب، أو الأصابع، أو نحو ذلك.

﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾: هو وقت الْبُكْرَة.

وقد سبق تدبّر سائرِ فَقَراتِ هٰذا النّص، أو تدبُّر نظائرها.

## إضافات هذا النص على النصوص السابقة:

أضاف هذا النّص من سورة (آل عمران) إلى النصوص الثلاثة التي سبق تدبرها من سُور «مريم» و«الأنعام» و«الأنبياء» ستّ قضايا:

**القضيّة الأولى**: الإشارةُ إلى أنَّ الّذي حرَّكَ قَلْبَ زَكَرِيًّا عليه السَّلام، لطَلَب الذُّرّيّةِ مع شيخوخَتِه الفانية الّتي أنْزلَتْ به الضعف الشديد، ومع كَوْن زوجته عاقراً لَا تَلِد، ما شَاهَدَ من نجابَة مَرْيم عليها السّلام، وتَمَيُّزِها بالنَّقَاء والطهارة، وأعمال البرّ والإحسان عبادةً لله عزّ وجلّ، وما شاهد من إكرام الله لها بالأرْزَاق على خلاف مجْرَىٰ العادات.

وقد سبق آنفاً شرح العبارة الّتي دَلّت على هذه القضيَّة.

**القضيّة الثانية**: بيان أنّ زَكَرِيًّا عليه السّلام لم يُحَدِّدْ علَىٰ رَبّه في بعض دُعائه أنْ يكون الوارث له ذكراً، بل سألَ الله ذُرِّيَّةً طَيِّبَة، وأثنى على ربّه بأنّهُ سَمِيعُ الدُّعاء.

وإذا جَمَعْنَا أَدْعِيَتَهُ الّتِي جَاءت في النصوص بهذا الأمر، وجَدْنَاها متكاملة غيْر مكرّرة.

- ففي نص سورة (آل عمران):

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾.

- وفي نصّ سورة (الأنبياء) قال:

﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

- وفي نص سورة (مريم: قال:

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾.

هٰذه الأدعية الثلاثة متكاملةٌ فيما بَيْنَها، ولا تكرار فيها.

**القضية الثالثة**: بَيَانُ أنّ الملائكة هِيَ الَّتي بَشَّرَتْهُ بيَحْيَىٰ وهو قائم يُصَلّي في المحراب، فقال الله عزّ وجلّ في نصّ سورة (آل عمران):

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

فَدَلَّ هذا النصّ على أنّ البيان الذي جاء بقول الله عزّ وجل في سورة (مريم):

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾.

قَدْ بَلَّغَتْهُ الملائكة، ولم يكن الخطاب مُباشراً من الله عزّ وجل لزكريّا عليه السلام.

وفي هٰذا دَلَالَةٌ عَلَىٰ أنَّ ما يَنْسُبُهُ الله إلىٰ نَفْسِهِ من خطاب خاطَبَ الله به رَسُولَه أو عبداً من عباده الصالحين، فالغالبُ أنَّه يكون عن طريق الْوَحْي، أو عند طريق ملائكته.

وفيه إضافة أنّ تبشير الملائكة له قد كان وهو قائم يُصَلّي في المحراب.

وفيه إضافة بيان عدّة صفاتٍ ليَحْيَى المبَشَّرِ به:

(١) **فهو مُصَدِّقٌ بِكَلِمَةٍ من الله**: أي: مُصَدِّقٌ بعيسَىٰ عليه السلام وبرسالته، فعيسىٰ عليه السّلام هو الموصوف في القرآن بأنَّهُ كلمةُ الله، لأنَّ الله تعالى خَلَقَهُ على خِلافِ نظام الأسباب المعتادة، إذْ خَلَقَهُ بِكَلِمَةِ التكوين.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿... إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ... ﴿١٧١﴾﴾.

(٢) **وهو أيضاً سَيِّد**: أي: ذو سيادة بِصِفَاتِهِ الكماليَّة النفسيَّةِ والسُّلُوكيَّة.

(٣) **وهو حَصُور**: أي: لا يَمِيلُ إلى الشهواتِ من النساء ومُعَاشَرَتِهِنَّ تَرَفُّعاً عن الشهوات، وضَبْطاً لغرائِزِهِ بإرادةٍ حَازِمَةٍ، وهٰذه خصوصيَّة لا تقتضي الأفضليَّة على سائر النَّبِيّين كما سبق بيانه.

(٤) **وهو نَبِيٌّ من الصَّالِحِينَ**: أي: وهو مصطفى بالنُّبُوَّةِ، وهو من جُمْلَةِ الصالحين من عباد الله، والصالحون في البيانات القرآنية هم أهل الكمال، الخالون من أيّ خَلَلٍ وفَساد، وقد جاء لفظ الصالحين وصفاً للأنبياء والمرسَلِين، ومن كان على مِثْلِ صِفاتهم من فضلاء عباد الله المؤمنين المسلمين.

**القضية الرابعة**: التنويع الأدبيّ في التعبير عن شيخوخته، إذْ نُلاحظ أنّ ما جاء في سورة (مريم): ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ... ﴿٤﴾﴾. وجاء فيها: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾.

أما ما جاء في سورة (آل عمران) فهو: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ ... ﴿٤٠﴾﴾: أي: إنّ الكِبَرَ المُنْذِرِ لِي باقْتِرَاب أَجَلِ مَوْتي، الّذي يُلاحِقُني في سنواتِ عُمْرِي، قَدْ بَلَغَنِي وَوَصَلَ إلَيَّ وأدْرَكَني، ووضَعَ على كاهلي ثِقَلَ إنذارِهِ لي بالموت.

وفي هٰذه العبارة من الاستعطاف بأن يتداركَهُ رَبُّهُ باستجابَةِ دُعَائه أنفاسٌ حارَّةٌ مُتوَقِّدَة.

وقد يكون الفرق بين: ﴿وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌۖ﴾ وبَيْنَ: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ كما جاء في نصّ سورة «مريم» أنَّه بَعْدَ أَنْ دَعا رَبَّهُ بعبارة ﴿وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌۖ﴾ مَرَّ في خاطِرِهِ أنَّ أخْتَها «حَنَّة» زَوْجَةَ «عِمْران» قد كانت كذلك، وأنَّ الله أصْلَحَها فَحملت، وجاءت بالسّيدة «مريم» فعدَّلَ عبارته فقال: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ للإيماء بأنّ الله إذا شاءَ أصْلَحها، فصارت تَحْمِل وتلد.

وهذا يَدُلُّ على أنَّهُ قد كرَّرَ دُعَاءَهُ مرَّاتٍ متعدّدات، اشتملت على صِيَغٍ مختلفات، وأنَّه قالها في أحوال نفسيَّةٍ مختلفة أيضاً.

**القضيَّة الخامسة**: التعبير الذي جاء في سورة (آل عمران) عن الآية التي جعلها الله لزكريا عليه السلام، دَالَّةً على تنفيذ ما بَشَّرَهُ الله عزَّ وجل به، هو ألَّا يُكلّم الناس ثلاثَة أيامٍ إلا رمْزاً.

أمّا التعبير الذي جاء في سورة (مريم) فهو ألَّا يُكَلِّمَ النَّاس ثلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا.

والتكامل بين التعبيرين تكامل واضح، ويُمْكن أن نجمع من التعبيرَيْنِ معاً عبارةً نقول فيها: أَلَّا تَكَلِّمُ الناس ثلاثَة أيامٍ مع ثلاثِ ليالٍ إلَّا رَمْزاً، وأنت سَوِيٌّ سليم، لم تُصَبْ بِعِلَّةٍ، وإنَّما يُحْبَسُ لسانُكَ عن مكالمة الناس حبساً مؤقّتاً.

**القضية السادسة**: جاء في النصّ الذي هو من سورة (آل عمران) إضَافَةُ أَمْرِ اللَّهِ لِزَكَرِيَّا بأنْ يَذْكُرَ رَبَّهُ كثيراً، ويُسَبِّح بالعشِيّ والإبْكار.

وهٰذه الإضافة قد انفرد بها كُلِّها هذا النصّ.

وبهذا التَّتبُّع التحليلي مع المقارنة بيْنَ النصوص ظهر لنا التكامُل فيما بينها، وظهر لنا أنَّه ليْسَ فيها تكرارٌ تطابُقي، وهذا من عجائب القرآن المجيد، وهو من مناهج القرآن الّتي انفرد بها في عرض موضوعاته.

والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته.



## (٥)
## التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دُرُوس السورة وهو الآيات من (١٦ ـ ٤٠)

قال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي

وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

**تمهيد:**

اشتمل هذا الدّرْس الثاني من دُروسِ سُورة (مريم) على لقَطاتٍ مِنْ قِصَّةِ (مريم) عليها السَّلام، وحَمْلِها بَعِيسَىٰ عليه السلام بخارِقٍ للعادة.

وجاءت لقطات أخرَىٰ من هذه القصة في عدّة سُور، في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) في الآية (٩١) وفي سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) في الآية (٥٠) وفي سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) في الآيات من (٣٣ ـ ٣٧) وفي الآيات من (٤٢ ـ ٦٠).

وفي سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٤ نزول) في الآية (١٥٦) وفي سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول) في الآية (١٢).

وقبل تدبُّر هذه النصوص تدبُّراً تكاملياً أعرِضُ قصَّة (مريم) بإيجاز أخذاً ممّا عند المؤرخين الّذين نقلُوا بَعْضَ ما ذَكَرَ مُؤَرّخو أهل الكتاب، مع الاعتماد على ما جاء في القرآن المجيد من لقطات.

**قصة مَرْيم جمعاً ممّا عند المؤرخين وبعض الدّلالات القرآنية:**

كان «عِمْرانُ» والدُ مريم إمَامَ الرَّبَّانِيّين الّذين لهم شَرِكة في خِدْمة (الْهَيْكَل = بَيْت المقدس) وكان رئيسَهُمْ، والكاهِنَ الأَكْبَرَ فيهم، وكان

زكريّا عليه السّلام من كبار هؤلاء الرَّبَّانِيِّين، وهو زوج أختِ زَوْجَةِ «عِمران».

قالوا: ويتصل نسَبُ «عِمْرانَ» والِدِ «مريم» عليها السلام بداوُد عليه السّلام، فهو من سبط «يَهُوذا» والله أعلم.

قالوا: و«حَنَّةُ» زوجَةُ «عمران» كانت من العابدات، وكانت عاقراً لا تَحْمِلُ، وكذلك كانت أُخْتُها: «إيشاع» الّتي تسَمَّىٰ عند أَهْلِ الكتاب: «أليصابات» زَوْجَةُ زَكَرِيَّا عليه السلام.

فدعا «عِمْرانُ» وزَوْجَتُهُ «حَنَّة» رَبّهما أنَّ يَهَبَهُما ولداً، بَعْدَ أن لبِثَتْ ثلاثين سَنَةً مع زَوْجِها لَا يُولَدُ لها، فاستجاب الله دُعاءهما فَحَمَلتْ، فنَذَرَتْ أَنْ تَهَبَ وَلَدَها لخدمَةِ «الْهَيْكَل = بَيْتِ المقدس» بمقتضىٰ أحكام النَّذْرِ المشروع في الدّيانةِ اليهودية، وكانت تَرْجُو أن يكون ولداً ذكراً.

فلمّا وَضَعَتْ حمْلَها وَجَدَتْهُ أُنْثَىٰ، فقالت: رَبّ إنّي وضَعْتُها أنْثىٰ، ولَيْسَ الذّكَر الذي رَجَوْتُه وَنَذَرْتُهُ لخدمة «بيت المقدس» كالأُنْثَىٰ الّتي وَهَبْتَها لي، بسَبَب نَقْصِ صلاحيَّتِها للْمُهمَّةِ الّتي نَذَرْتُ ما في بَطْني للقيام بها، وقالت: رَبِّ إنّي سَمّيْتُها مَرْيَم وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِن الشيطان الرَّجيم.

فتقَبَّلَهَا رَبُّها بقَبُولٍ حَسَنٍ، وأَنْبَتَهَا نَباتاً حَسَناً، وحَمَلَتْ «حَنَّةُ» ابْنَتَها «مَرْيم» وقَدَّمَتْها إلى «بيت المقدس = الْهَيْكل» وفاءً بنَذْرِها، ودَفَعَتْهَا إلى الْعُبَّادِ والرَّبَّانِيِّين فيه.

فَتَنافَسُوا في كَفَالَتِها لأَنّها ابْنَةُ رَئِيسِهِمْ وَكَاهِنِهِمُ الْأَكْبَر، ويظهر أن أباها «عِمْران» كان قَدْ تُوفّي في هٰذه الأثناء.

وأَصَرَّ «زكريَّا» عليه السلام زوج خالتها «إيشاع = أليصابات» على أن يكون هو الذّي يكفُلُها.

واختصم الرَّبَّانِيُّون أيُّهُمْ يَكْفُلُ «مريم» ثم لَجَؤُوا إلى الْقُرْعة، فكانت كفالَتُها من حظّ «زكريًا» عليه السّلام بالْقُرْعة.

ونَشأت الفتاة «مريم» نشأة بِرٍّ وعِفَّةٍ نقيَّةً تقيَّةً عابدة، في الْحُجْرَةِ الواقعة في مؤخِّرَةِ «الْهَيْكل = بيت المقدس» والتي يَخُصُّهَا اليهودُ باسم «المحراب» والتي يوجد فيها تابوت الْعهْد على صَخْرَةٍ، ويُسَمِي الْيَهُودُ هذه الْحُجْرَةِ «قُدْسَ الْأَقْدَاس».

وكان كافِلُها «زكَرِيًّا» عَلَيْهِ السَّلام يتَعَهَّدُهَا آناً فآناً، فكان كُلَّما دَخَلَ عليها «المحراب» وجَدَ عِنْدَها رِزقاً، فسألَها: أَنَّىٰ لَكِ هذا؟ أي: من أيْنَ لَكِ هذا؟ وكيْفَ يَأْتيك هذا الرِّزْق؟ قالت: هو من عِنْدِ الله، إنَّ الله يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَاب.

قَالُوا: وكان «زكريًا» عليه السَّلامُ يَجِدُ عِنْدَها رِزْقاً لا وُجُود لنَوْعه أو صِنْفِه عند الناس يَوْمَئِذٍ فِي القدس، ومنها وُجُودُ فاكهة الصّيف في الشتاء، ووجودُ ثمرات الشتاء في الصّيف.

وكانت الملائكةُ تأتي إلى «مَرْيَمَ» عليها السلام، وتُخْبِرُها بأنَّ الله اصطفاها وطهَّرَهَا مِنَ المَعَاصِي والآثام، واصطفاها وفضَّلها على نساء العالمين من أهْلِ زَمَانها.

وهكذا نَشَأَتْ «مريمُ» عليها السلام نشأة طُهْرٍ، وعفافٍ، وعبادة لله تعالى، مَحْرُوسَةً بعنَايَةِ اللَّهِ تعالَىٰ وحِفْظِهِ، حتَّىٰ بلَغَتْ مبلَغَ النّساء، طاهرةً نقيَّةً تَقِيَّةً بَارَّةً، مُجْتَهِدَة في التَّرَقِّي على دَرَجَاتِ الإحسان، وتركت حُجْرة «المحراب» واختارت في الهيكل مكاناً منعزلاً شرقياً بعيداً عن دخول أحد عليها.

وَبَيْنَمَا هِيَ في خلوتها في المكان الذي اعتزلت فيه، تمثَّل لها الملَكُ جبريلُ عليه السَّلام بشراً سَوِياً، فَذُعِرَت منه، ووضَعَتْ في تَصوُّرِها احْتِمَالَ

أنْ يكون هٰذا البشر السّويُّ رَجلاً تقيًّا، لكنَّها خافَتْ من الفضيحة، وأن يُشَيِّعَ عنْها النّاس إشاعاتٍ تَمَسُّ طَهارَتَها وعِفَّتَها وشَرَفَها، فقالت مخاطبة له:

﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾.

أي: أمّا إنّ كُنْتَ فاجراً شَقِياً فإنّي أعُوذُ بالْجَبّارِ الْقَهّارِ المنتَقِمِ مِنْك، ليَقْصِمَ ظَهْرَكَ.

فقال لها جِبْرِيلُ عليه السّلام:

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾.

أي: غلاماً طاهراً مُطَهَّراً، نامياً بالخيرات والصالحات.

عندئذٍ اطمأنَّتْ وَهَدَأَ رَوْعها وقالت:

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾.

أي: لم يَمْسَسْنِي بَشَرٌ هُو زَوْجٌ لي، ولم أَكُ بَغِياً أَرْتَكِبُ فاحِشَةَ الزّنا، حتّىٰ أحْمِلَ جنيناً.

قال لها جبريل عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكِ﴾: أي: نَعَمْ، أَنْتِ كذَلِكِ الطُّهرِ الّذي ذكَرْتِ عن نَفْسِك، لم يَمْسَسْكِ بشَرٌ هُوَ زَوْجٌ لَكِ بِمُعَاشَرَةٍ زَوْجيَّة، ولا أَنْتِ بَغِيَّةٌ تَرْتَكِبينَ الفواحِشَ، حتّىٰ تَحْمِلي وَتَلِدي كَما يَلِدُ النّساء في العادة.

وقال لها أيضاً: ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾، أي: فَلا تَعْتَرِضي على أَمْرِ اللّهِ وقضائه.

جاء البيان أوّلاً في حَدِيث اللّهِ عَنْ نَفْسِهِ بضَمِيرِ المتكلّم المفرد: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ وعَقِبَهُ جاء الحديث بضمير المتَكلّم العظيم للدّلالة على عظمة الرُّبُوبيّة في بيانٍ يقتضي ذلك: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾.

وقال لها أيضاً كما جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾.

وأحاط بها عَدَدٌ من الملائكة فقالوا لها كما جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

وقالوا لها كما جاء في سورة (آل عمران) أيضاً:

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾.

ونفخ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ فِي جَيْبِ «مَرْيم» عَلَيْها السلام، فَحَمَلَتْ بأَمْرِ اللَّهِ بِعِيسىٰ عليه السّلام.

ثُمّ شَعَرَتْ بأنّها حامل: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ كما جاء في سورة (مريم) أي: اعتزلت الناحية التي كانت فيها، واختارت مكاناً قصِيّاً.

يقالُ لُغَة: انْتَبَذَ فُلَانٌ، أي: اعْتَزَلَ نَاحِيَةً، منصرفاً إلى نَاحِيَةٍ أخرى، ويُقَال: انْتَبَذَ عَنِ القوم، أي: تَنَحَّىٰ عَنْهُم، واختار مكاناً آخر غير مكانهم، وهُوَ مكان يَعْزِلُهُ عَنهم.

قالوا: وكَانَ حَمْلُ مَرْيَمَ بعيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ، في الوقتِ الّذِي كانت فيه زَوْجَةُ «زَكَرِيَّا» عَلَيْهِ السَّلامُ حاملاً بيَحْيَىٰ، وَوُلِدَ عِيسَىٰ بَعْدَ ميلَادِ «يَحْيَىٰ» بثَلَاثَةِ أشْهُر، وقيل بِسِتَّةِ أشهر، كما يُفْهَمُ من الإِنْجيل المنسُوب إلى «لُوقا».

قَالُوا: وأصْدَرَ «هِيرُودس» الّذِي كانَ مَلِكاً على اليهوديَّة بأمْرِ القَيْصر، أمْراً مُوجّهاً لحُكَّام البلاد والْعُمَّالِ فيها، بأنْ يُسَجّلُوا جَمِيعَ أفرادِ الرَّعيَّة الدَّاخِلينَ في مَمْلَكَتِهِ.

فذهَبَ كُلُّ شَخْصٍ إلى وَطَنِهِ، وقَدَّمُوا أنْفُسَهم بِحَسَبِ أسْباطِهم للاكْتِتَاب.

وَسَافَرَتْ «مَرْيَم» عليها السَّلامُ وهي حُبْلَى من النَاصِرَةِ إحدى مدن الجليل إلى بَيْتِ لَحْم، لأنّها كانت مدينتها، لتكْتَتِبَ عملاً بأمْرِ القيصر.

وَلَمْ تَجِدْ في «بَيْتِ لَحْم» مَأْوَى لها، فنزلَتْ مع من كان مَعَها خارج المدينة، في مكانٍ مُتَّخذٍ مأْوًى للرُّعاة.

وفي هٰذه الأثناء أتَمَّتْ حَمْلَها، فألْجَأَهَا المخاضُ إلى جِذْعِ نَخْلَةٍ، وعظُمَ في نَفْسِهَا ما سَتُلاقيه من اتّهام، فقالت: كما جاء في سورة (مريم):

﴿... يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾:

عنْدئذٍ أدْرَكَها اللّهُ عزَّ وجلَّ بالتَّثْبيتِ، وشَدِّ الْعَزِيمَةِ لِتَحمُّل مَا سَتَلاقي من قومها، فانْطَقَ وَلِيدَها عيسَىٰ من تَحْتِها، أو أمَرَ جِبْرِيلَ الذي يَرْعَىٰ ولادَتِهَا مِنْ تَحتِهَا كما جاء في سورة (مريم):

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿سَرِيًّا﴾: أي: جَدْوَلَ ماءٍ تَشْرَبِينَ مِنْهُ وتَتَطَهَّرِينَ. وجاء في القراءة الأخرى: ﴿فَنَادَاهَا مَنْ تَحْتِهَا﴾: أي الذي هو تحتها. وقال لها أيضاً:

﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾.

وكانَ إجراءُ الْجَدْوَلِ الْمَائِيّ لها، وإسْقَاطُ الرُّطَبِ لها من جِذْعِ النخلَةِ بِمُجرّد أن تَهُزَّهُ، إكراماً لَهَا على خلاف مَجْرَىٰ العادات، إذْ لم

يكن لهذا الجدول المائيّ وجُودٌ في المكان، ولَمْ يَكُنْ للرُّطَب وجُودٌ في جذْعِ النخلَة، وكان كلُّ ذلِكَ تثبيتاً لها حتَّىٰ تُتَابعَ بِقُوَّةٍ وشجاعَةٍ وصَبْر ما كلَّفَها اللَّهُ أنْ تعْملَهُ بشَأْنِ الْوَلِيدِ المعجِزَةِ عِيسَىٰ عليه السلام.

قالُوا: وَوَضَعَتِ الطّفْلَ «عِيسَىٰ» في مُعْتَلَفٍ لِلدَّوابّ، وكانَ ذلِكَ مَهْدَ طُفُولَتِهِ بَعْدَ الوضع.

وحَمَلَتْ وَلِيدَهَا بشجاعةٍ وثباتٍ ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝٢٧﴾:

أي: لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً عجيباً من أحْدَاثِ الدَّهر، أو جِئْتِ بِدْعاً مِنَ الإثْم، وأَخَذَ بَعْضُ الْقَوْمِ يَقُولونَ عن مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظيماً.

يقال لغة: جاءَهُ، وجاء به، أي: أحضره وأتىٰ به.

وقالوا لها أيضاً كما جاء في سورة مريم:

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝٢٨﴾.

فَلَاذَتْ بالصَّمْتِ، وأشْعَرَتْهُمْ بأنَّها قَدْ نَذَرَتْ صَوْماً عَنِ الكَلامِ بِحَسَبِ شَرِيعَتِهِمْ، وأَشَارَتْ إِلَيْهِ أَنْ يُكَلّمُوه، كما قال الله تعالى:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩﴾؟!

وَيظْهَرُ أَنَّهُمْ وَجَّهُوا له الخطابَ بُغْيَةَ إحراجها، إذْ تصوَّرُوا أنَّه لَنْ يُجيبَهُمْ بشيءٍ، فأنْطقَ اللَّهُ الطّفل عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام:

﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣﴾.

قالوا: وابتَعَدَتْ مَرْيم بولَدِها عَنْ قَوْمِها وَسَافَرَتْ، فآواهُما اللَّهُ إلى مكانِ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرارٍ آمِنٍ، وفيها ماءٌ مَعِينٌ طاهِرٌ صافٍ.

قالوا: ولمّا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ رَجَعَا إلى النَّاصِرَة، ولمّا بَلَغَ اثْنَتَيْ عَشْرَة سنة، صَارَ يجادِلُ في الهيْكَلِ عُلَماءَ أهل الكتاب في الدّين.

وتعَجَّبَ النَّاسُ مِنْ عِلْمِهِ، ولمَّا بَلَغَ ثلاثين سنَةً مِنْ عُمْرِهِ، بدَأَ يُبَلِّغُ رِسالَةَ رَبّه، وأَجْرَىٰ اللَّهُ لَهُ المعجزاتِ الباهرات.

## التدبّر التكامليّ للنصوص القرآنية بشأن مريم عليها السلام:

### أولاً:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾.

### القراءات:

(٣٥) • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جَعفر: **[مِنّيَ إِنَّكَ]** بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان: **[مِنّي إِنَّكَ]**.

والقراءتان وجهان عَرَبيّان لنُطْقِ ياء المتكلم.

(٣٦) • قرأ ابْنُ عامر، وشُعْبَة، ويَعْقُوب: **[واللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ]** بضم التاء، على أنّها ضمير المتكلمة، وأنّ الجملة من قول امرأة عمران قالَتْها في نفسها.

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ] بإسكان التاء، على أنّها تاء التأنيث، والفاعل ضمير مستتر تقديره: هي، وعَلىٰ أنّ الجملَة من كلام الله، وهي مُعْتَرِضَة، للإشعار بأنَّ قولَها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ ليْسَ الْغَرَضُ منْهُ الإخبارَ، إنّما الغرض منْهُ التحسُّرُ، إذْ ظَنَّتْ أنَّ نَذْرَهَا لا يَكُونُ محَلَّ قَبُولٍ باعتبار أنّ الْوَلَدَ قد جاء أُنْثَىٰ، ولَمْ يَأْتِ ذكراً قادِراً على أن يقوم بالوظيفة الدينيَّة الّتي نَذَرَتْ ما في بَطْنِها مُحَرّراً لبيت المقدس ليقومَ بها.

إنَّ مِثْلَها لَا يَشُكُّ بأنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بما وَضَعَتْ، فَهوَ الذي استجاب للدُّعاء، وهو الّذي خَلَقَ الجنين، وهو الّذي وَضَعَهُ بمقاديره، وأخرجَهُ من بَطْنِ أُمّه.

وفي هذه العبارة على قراءة جُمْهُور القراء العشرة وأنَّها من كلامِ الله إشعارٌ ضِمْنِيٌّ بأنَّ ما وضَعَتْ سَيَكُونُ لَهَا شأنٌ عظيم.

فَبيْنَ القراءَتَيْن تكامُلٌ ظاهر.

(٣٦) • قرأ نافع، وأبو جَعْفر: [وَإِنِّيَ أُعِيذُهَا] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسْكان.

(٣٧) • قرأ شُعبة: [وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاءَ] بإثبات الهمزة بعد الألف من «زَكَرِيَّاء» وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: [وكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا] بِحَذْفِ هذه الهمزة.

(٣٧) • قرأ حفصٌ، وحمزة، والكسائي، وخَلَف: [زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ] بِحَذْفِ الهمزة من «زَكَرِيا».

وقرأها باقي القرّاء العشرة بإثبات هذه الهمزة: [زَكَرِيَّاءُ الْمِحْرَابَ]. إثبات الهمزة وحذفُها من اسْمِ «زكريا» وجْهان عَرَبيَّان.

**تمهيد:**

طوىٰ النصّ القرآنيُّ كَوْنَ «عمرانَ» وَزَوْجِه «حَنَّة» دَعَوَا رَبَّهما أن يَهَبَ لَهُما ولَداً، بَعْدَ أَنْ لبثَتْ «حَنَّةُ» ثلاثين سنةً لا تَحْمِلُ وَلَا يُولَدُ لهما ولَد، وأنَّ الله عزّ وجلّ قد استجابَ لَهُما فَحَمَلَتْ، وظَهَرَ بَعْدَ الوِلَادَةِ كَوْنُ المولود أنثىٰ، وهي مريم عليها السلام، وبَدأَ الحديث في النّص عن أنَّ امرأة «عِمران» قد نذَرَتْ ما فِي بَطْنِها لله عزَّ وجلّ، على أن يكون محرَّراً لخدمة «الهيكل = بيت المقدس» شكراً لِلَّه على أن وهبَ لَها الذُّرِّيَّة، بَعْدَ أن كادَتْ تيأَسُ منها، وكانَ مِثْلُ هٰذا النَّذر مشروعاً في اليهوديّة.

وقام في ذِهْنِها أَنْ يكونَ ما تَحْمِلُه فِي بَطْنِهَا وَلَداً ذَكَراً مؤهّلاً لأنْ يكونَ من خُدَّامِ الْهَيْكل ومن العلماء الرَّبَّانِيِّين.

**التدبّر:**

قول الله تعالى في مَعْرِضِ ذِكْرِ أنّه اصطفىٰ آدَمَ ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين:

• ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾: أي: ضَعْ في ذاكرتِكَ أيّها التالي أو المسْتَمِعُ للقرآن قِصَّة هذا الحَدث، لأنَّه ذو شأنٍ في المفهومات الدّينيَّة، لتَتَّخِذَ مِنْ تَذْكُّرِهِ عظَةً وعِبْرَةً في التعرُّف على بَعْضِ حِكم الله في الحرمان من الذُّرِّيَة، وفي مَنْحِها، وفي استجابَةِ الدُّعاء بِطَلَبِها، إلى غَيْرِ ذلك من حِكَمٍ رَبّانيَّة.

• ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾:

كان مثل هذا النَّذْر عملاً مشروعاً مَبْرُوراً في شريعة بَنِي إسرائيل المعمول بها حينئذٍ.

• ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ عبارة عامَّة، تَنْطَبِقُ على ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى، واحدٍ أو

أكثر، والوفاء بالنذر إنَّما يَتَحقَّقُ بِتَنْفِيذِ المنْذُور، وهُو ما في بطنها من حَمْلٍ أيًّا كان.

﴿مُحَرَّرًا﴾: أي: حالة كوْن من نذرْتُ لَكَ مُحَرَّراً من تكاليف الأعمال الدُّنيويَّة، وأعْبَاءِ الحياة، وخالصاً لَكَ رَبّ، رَجاءَ أن يتفرَّغ تَفَرُّغاً تاماً لوظائفِ الإمامة الدّينيَّةِ في الهيكل، عِلْماً وعملاً، وقُدْوةً حَسَنةً، وأمراً بالمعْرُوف ونَهْياً عن المنكر، ونصحاً وَإرْشاداً، ودَعْوةً إلى دين الله.

قول الله تعالى:

• ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾: جاء الضمير مؤنثاً في عبارة: ﴿وَضَعَتْهَا﴾ مع أنّ الظاهر أن يقال: فلمَّا وضعَتْهُ، إذ الضمير عائد على لفظ «ما» في عبارة: ﴿مَا فِى بَطْنِى﴾.

وقد ذكر المفسّرون عِدَّة تَخْرِيجات متكلّفاتٍ، لكِنّي أرَى أنّ هذا الضمير لا إشكالَ في عوده على «ما» إذْ هذا اللّفظ اسم موصولٍ عامّ، قد يرادُ به المذكّر، وقَدْ يراد به المؤنث، وقد يراد به المفرد وقد يراد به أكثر من مفرد، وبِحَسَبِ واقعِ الحالِ يُعادُ الضمير عليه، ولمَّا كان مَا فِي بَطْنِها من حَمْلٍ أنْثَىٰ، كان المناسِبُ في التعبير أن يقال: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ ولا حاجة لانتحال التأويلات التخريجية.

وهذا نظير أن تقول: مَنْ في الدّار أعطيْتُ كلَّ واحدة مِنْهُنَّ قطعة قُمَاش، ومَنْ في غرفةِ الاستقبال أعطيْتُ كلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ دِيناراً.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾: لَيْسَ المراد بالخبر هُنَا أَنْ تُعْلِمَ رَبَّها بما وَضَعتْ، فالله أَعْلَمُ بما وضَعَتْ، ولكن يرادُ به هُنا التحسُّرُ، إو الإشْعارُ بالحزْن.

إنّ امرأة «عمران» قَدْ وَقع في تقديرها أَنّ الله استجاب دُعاءَهُما بحَمْلِ ذَكر، فنذَرت ما في بطْنِها مُحرّراً لبيْتِ المقدس، فلمَّا وضَعَتْهَا أنْثىٰ حَزِنَتْ وتَحسَّرَتْ، وعبَّرتْ عن مشاعرها بقولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ ولعلَّ الأنْثىٰ لَا تُقْبَلُ في مثْلِ نَذْرِها، إلَّا بِشُرُوطٍ خاصَّةٍ تُشْعِرُ بأنَّ الله قَد تَقَبَّلَها.

• ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾: سبق بيان القراءتين في «وَضعَتْ» وسبَقَ بيان تَكَامُلِهِمَا.

• ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾: أي: ولَيْسَ الذكر الذي كُنْتُ أتوقَّعُهُ، كالْأُنْثَى الّتي وَهَبْتَهَا لي، وهي لَيْسَ من وظائِفها أنْ تكونَ إمَامةً مثل أبيها، من الأئمة الرَّبَّانِيِّين، ومن علماء الدّين في الهيكل.

• ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾: هذا الاسم معروف قديماً عند بني إسْرائيل، ومن المسمَّيَاتِ به في كُتُب أَهْلِ الكتابِ «مَرْيَمُ» أُخْتُ موسَىٰ وهارون عليهما السلام، وأبوهم «عمران» وهو عندَ أهل الكتاب «عَمْرَام» واسم امرأة أخرى من نَسْلِ «يَهُوذا» وغيرهما، وهُنَّ في كتُب أهل الكتاب ثمان.

• ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: وإنّي أحصِّنُهَا وأَحْمِيها بِكَ رَبِّ، وأحصِّنُ ذُرّيّتَها وأَحْمِيهِمْ بِكَ من الشيطان الرَّجيم.

**أعاذَه**: أي: حَصَّنَهُ وحَمَاه.

**الشيطان**: اسم جِنْسٍ يَقَعُ علىٰ كُلِّ مُغْوٍ، مُضِلٍّ، مُتَمَرِّدٍ، من الجنّ والإنس.

وإبليس لَعَنَهُ الله إمَام الشَّياطين ورَئيسهم.

**الرجيم**: أي المرجومُ المطرودُ مِنْ رَحْمَةِ الله، وأَصْلُ الرَّجْمِ الضَّرْبُ

بالحجارة حتَّىٰ الإهلاك، واستُعْمِلَ للدَّلالَة على الطَّرْدِ من رَحْمَةِ الله عزّ وجلَّ.

• ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾:

أي: فأجْرَىٰ رَبُّها الأسْبَابَ المعروفَةَ عنْد بني إسرائيل لقَبُول غير الذكور في الْخِدْمَةِ الدِّينيَّة الّتي نُذِرَتْ لها، وتَمَّتْ هذه الإجراءت بصُورَةٍ حَسَنَةٍ أقْنَعَتِ الرَّبَّانِيِّينَ بَصَلَاحِيَّتِها لِخِدْمَة الهيكل وقبول الله لها، وتقبَّلَها اللَّهُ عنْدَهُ بِقَبُولٍ حَسَنٍ أيضاً.

• ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾:

أي: وأنْبَتَهَا رَبُّهَا إنْباتاً حَسَناً، فَنَبَتَتْ نَباتاً حَسَناً، جَاءَ التعبيرُ عن إنشائها إنْشاءً صَالحاً في جَسَدِها ونَفْسِها وقَلْبِها وكلّ أركانِها الدَّاخِلِيَّةِ والخارِجيَّةِ، المادّيَّةِ والمعنويَّةِ بالإنبات، الّذي يكونُ للأشجار والزّرُوعِ وسائر النَّباتاتِ، لأنَّ المعنىٰ العام لتَنْمِيَةِ الكائنات النباتيّة والحيوانيَّة معنىً مُشْرَكٌ بينها.

وجاء وصف النباتِ بالْحُسْنِ، للإشعار بأن «مريم» عَلَيْها السّلام لم تَتَعَرَّضْ في كلّ نَشْأَتِها لشَيْءٍ يُخِلُّ بالْحُسْن، في المادّيَاتِ والمعنويَّاتِ، ولا سيما أخْلَاقُها وسُلُوكها، وأعمالُها في التَّقْوىٰ، والبرّ، والإحسان.

• ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾:

أي: وأجرى الله عزّ وجلَّ الأسْبابَ الّتي حَقَّقَ بِهَا أنْ يكونَ الكافل لهَا، والمشرف على رِعَايَتِهَا وَحِمَايَتِهَا في «بيت المقدس = الهيكل» زكريَّا عليه السّلام.

وجاء في الآية (٤٤) من هذه السورة بيانُ أنَّ كهَنَة «بيت المقدس» والرَّبَّانيِّين فيه تَنافَسُوا بَيْنَهم علَىٰ كفَالَةِ «مريم» لأنَّها ابنَةُ كاهِنِهِمْ الأكبر

ورَئيسِهم «عِمْران» الّذي كان على ما يظهر قد توفّاه الله، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: يُلْقُونَ أقلامَهُمْ مُقْتَرِعين لتوجيه كفالة «مَرْيم» لمن تكون كَفالَتُها بالقُرْعَةِ من نَصِيبِهِ. **الأقلام**: هُنا قداحُ القُرْعَة.

ودَلَّتْ عِبارَة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ على التنافُس الشديد بينهم على كفالتها.

وتَمَّ حَلُّ التُّنافس الّذي وصَلَ إلى الخِصَام بإجراء القُرْعَةِ فيما بيْنَهم، فقضىٰ الله جلَّ جلالُهُ بالقُرْعَةِ أن تكون كَفالَتُها من نَصِيبِ «زَكَرِيَّا» عليه السَّلام، زوج خالَتِها «إيشاع = أَلِيصابَات».

• ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

سبَقَ بيانُ المرادِ بالمحراب، ودلَّ هٰذا البيانُ علىٰ أنَّ زَكَرِيَّا عليه السّلام كانَ كُلَّما دَخلَ عَلَيْهَا لِرِعَايَتِهَا وَتَعَهُّدِ شُؤُونها، في تَرْبِيَتِها وَتَنْشِئَتِها، وجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً لم يأتها هو به، ورُبما كان من الثمرات الّتي لا وُجُود لَهَا في القُدْس حينئذ.

ويظهر أنّه كان لا يَسْأَلُها لِعِلْمِهِ بأنَّ اللّهَ عزّ وجلَّ يُكرِمُهَا بهذا الرِّزْقِ تَفضُّلاً ومِنَّةً، وأراد في إحْدَىٰ المرَّاتِ أن يَخْتَبِرَها فَسأَلَهَا: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا﴾؟ أي: منْ أَيْنَ لَكِ هذا؟ أو كَيْفَ لَكِ هذا؟ فأجابَتْهُ بأنَّهُ من عِنْدِ الله، أي: لَيْسَ من عِنْدِ أَحَدٍ من البشر، وبأنَّ اللّهَ يَرْزِقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَاب، أي: بِغَيْرِ مقدارٍ مَعْدُود، وهٰذِه العبارة كِنايَةٌ عن الكَثْرَةِ كَماً وَكَيْفاً.

**ثانياً:**

ومّما جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أيضاً بَعْدَ أَرْبَعَ آياتٍ تَتَعَلَّقُ بزكريا ويَحْيَىٰ عليهما السلام، بيانٌ قرآنيٌّ آخَرُ يَتَعَلَّقُ بمريم عليها السلام، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ فيها:

• ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

يظهر أنّ عدداً من الملائكة كانوا يتوافدون عليها، ومنهم جبريل عليه السلام، فيبشرونها، ويُثبِّتُونَها، ويُشْرِفُون على تربيتها التربيّة اللائقة باصطفائها.

أي: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المتلَقِّي لآيات كتاب رَبّك، قصَّة هذا الحدَثِ الَّذي أجراه الله جلَّ جلالُه لمريم عليها السلام، وهُوَ يُنَشِّئُها تَنْشِئَةً تَقيَّةً بارَّةً مُحْسنة في بيت المقدس، ويُحِيطُها بالعنايَةِ والرِّعَايَةِ والحِفْظِ والْعِصْمَةِ.

فاعْلَمْ أنّ رُسُلاً من عند رَبِّها من الملائِكَةِ، ورُبما كان جبريلُ عليه السَّلامُ من أوائِلِهِمْ، قالوا لها: إنّ اللَّهَ اصطفاكِ وطَهَّرَكِ، واصطفاكِ على نساءِ العالَمين، تثبيتاً لها، ودَفْعاً لكُلّ قُواها وَمَشَاعِرِها الوجدانيَّة، أنْ تَبْذُلَ غايَة جَهْدِها واجْتِهادِها في عبادتها لربِّها، وفي تحقيق المطلوب الرَّبَّانيِّ منها، حتَّى تَكُونَ مُؤَهَّلَةً للاصطفاء الَّذي اصْطَفَاهُ الله له، إذْ قَدَّر أنْ تَحمِلَ دُونَ مُعَاشَرَةِ زَوْجٍ، وإنَّما بِنَفْخَةٍ من الملكِ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلام، مصحوبَةٍ بكَلِمَةِ التكوين الرَّبَّانيَّة، نَبِيّاً رسولاً يُجْرِي اللَّهُ له معجزات باهراتٍ، منها إبراءُ الأكْمَهِ (=الأعمى) والأبْرَصِ، وإحياء الموتَىٰ بِإِذْنِ الله، ومنها أنْ يَصْنَعَ مِن الطين جسداً كِهَيْئَةِ الطَّيْرِ، فَيَنْفُخُ فِيهِ، فَيكُونُ طَيراً حَيّاً يَطِيرُ كَسَائِرِ الطّيْرِ بِإِذْنِ الله.

﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾: أي: فَضَّلَكِ واخْتَارَكِ. **الاصطفاء**: التفضيلُ، والاختيارُ، والانتقاء، وجَعْلُ المصطفى من صفوة العباد الَّذِينَ صَفَوْا مِنَ الأكْدَار، ومِنْ كُلِّ مَا لاَ يَلِيقُ بالطَّاهِرِينَ من الأخيار، والمتقين الأبْرار، والمرادُ بهذا الاصطفاء اختيارُها لأنْ تكُونَ أُمَّ عيسَىٰ عليه السَّلامُ بمُعْجِزَة.

﴿وَطَهَّرَكِ﴾: أي: ولَزِمَ عن اصطفائه لكِ أن يُطَهِّرَكِ بحِمَايَتِهِ وحِفْظِه من كلّ رجْسٍ فكريٍّ في العقيدة، أو نَفْسِيٍّ في الأخلاق والطباع والإرادات، أو سُلُوكيّ في الأعمال الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ.

ودلّ هذا التَّطْهِيرُ على عِصْمَتِهَا من أرْجاسِ المعاصي والذنوب.

﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: وَفَضَّلَكِ باصطفائِهِ لَكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مِنْ أَهْلِ عَصْرِك.

ضُمِّنَ فعل «اصْطَفَىٰ» هُنَا معْنَىٰ فِعْلِ «فَضَّلَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بحرْف الجرّ «على».

جاء في بيان الرَّسُولِ ﷺ، ما أخرجَهُ الحاكم وصحَّحهُ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أفْضَلُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ خديجةُ، وفَاطِمَةُ، وَمَرْيَمُ، وآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْن».

وجاء عِنْدَ البخاريّ ومُسْلِمٍ وغَيْرِهما، عن عليٍّ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول:

«خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرانَ، وخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ».

وجاء عند البخاري ومسلم وغَيْرِهما من حديثِ أبي مُوسَىٰ قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

«كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، ولَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْن، وفَضْلُ عَائِشَةَ على سَائِرِ النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَام».

فَمِنْ هٰذِهِ الأحاديث ومِنْ غَيْرِها من الأدِلَّة نفهم أنّ المرادَ بعبارة: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَفْضيلُها على نِسَاءِ العالَمِينَ في زمانها، أو تفضيلُها على كلّ نِسَاءِ العالمين ليكونَ بَطْنُها هو المختارَ لِيَحْمِلَ ويُمِدَّ بالغذاء نبيَّ الله ورَسُولَهُ عيسَىٰ عليه السلام بِنَفْخِ جبريلَ عليه السَّلام نفخةً وَاصِلَةً إلى انعقاد الجنينِ في بَطْنِهَا، ويُقَوّي هذا المعنَىٰ عطف جملة: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على جُمْلَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾ فَدَلَّ العطفُ على التَّغَايُرِ بَيْنَ الاصْطِفاءَيْن.

• ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

هذا النداء من توابع قول الملائكة لها، والغرضُ مِنْهُ مُتَابَعَةُ تَرْبِيَتِها علىٰ القيام بأنواع العبادات لِرَبّها.

﴿ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾: أي: أطِيعِي رَبَّك واخْضَعِي له. **الْقُنُوتُ**: هُو في اللُّغة الطَّاعَةُ والخضوع ولوازمها، يقال لُغةً: قَنَتَ اللَّهَ، وقَنَتَ له، أي: أطَاعَهُ، وخَضَعَ، وذَلَّ له.

والمعنى: أقْنُتِي لِمَنْ يَتَعَهَّدُكِ دَواماً برُبُوبِيَّتِه، ولهَذا اختير هنا من أسماء الله اسْم الرّبّ، الدّالُّ على صفاتِ الرُّبُوبِيَّة.

والقنوتُ يَشْمَلُ كلَّ الطاعاتِ والعباداتِ والقُرُباتِ وأعمالِ البرّ والإحسان.

ولمّا كانت الصَّلاة الشَّرْعيَّة المشْتَمِلَةُ على الرُّكوعِ والسُّجودِ يَجِبُ أن تَحْظَىٰ من العابِدِ لِرَبّهِ بعنايةٍ خاصَّةٍ، قالَتِ الملائِكَةُ لها.

﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾:

قُدِّمَ في هٰذه العبارة السُّجود، لأنّ الْعَبْدَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنْ رَبِّهِ وهو ساجد.

ولمَّا كان الْعُبَّادُ في «الْهَيْكَل» المنقطعُون للعبادة والْعِلْم حتَّىٰ يكونُوا مِنَ الأئِمَّةِ في الدِّينِ للمتَّقِين، ومن الرَّبّانيّين، هم من الرّجال، ولم يَكُنْ من النِّساءِ فيهم إلَّا مَرْيَمُ عليها السلام، قالت الملائكة لها: ﴿وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ولو يقولوا: وارْكَعِي مَع الرَّاكعات.

وفي العبارة مَحْذُوفٌ دَلَّ عليه مَذْكُورٌ فيها: والتقدير: واسْجُدِي مع السَّاجِدِينَ وارْكَعِي مَع الرَّاكِعِينَ.

❁ ❁ ❁

**ثالثاً:**

وممَّا جاء في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) الذي سبق ذِكْره، في أوّل هذا الدَّرْس الثاني:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾:

**القراءات:**

(١٨) • قرأ نافع، وابْنُ كَثيرٍ، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفَر: ﴿إِنِّيَ أَعُوذُ﴾ بفَتْحِ ياء المتكلم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ﴾ بإسْكان ياء المتكلم. وهما وجهان عربيان لنطق ياء المتكّلم.

(١٩) • قرأ قَالُونَ في إحدى الطريقين عنه، ووَرْش، وأبو عَمْرو: [لِيَهَبَ لَكِ] أي: لِيَهَبَ لَكِ رَبُّكِ غلاماً زَكياً.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ على أن الواهب جبريل عليه السلام، وهذه هي الطريق الثانية عن قالُون.

وبين القراءَتَيْن تكاملٌ في أداء المعنىٰ المراد، إذ الواهِبُ الحقيقيُّ بأمْرِ التكوين هو الله عزّ وجلّ، والواهبُ السَّبَبِيُّ بِوَسِيلَةِ النَّفْخ هُوَ جِبْرِيل عليه السّلام.

وعند هذا المقطع من سورة (مريم) المكيَّة، نجدُ لقطعة تَكْمِيليَّةً جاءتْ في سُورَةِ (التحريم/٦٦ مصحف/١٠٧ نزول) النازلة في الثُّلْث الأخير من المرحلة المدنيَّة من تاريخ سِيرَة الرَّسُول ﷺ بَعْدَ بِعْثَتِه، وهي قولُ الله عزّ وجلّ في آخِرِ آيةٍ منها:

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

- قرأ حفْصٌ، وأبُو عَمْرو، وَيَعْقُوب: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ بالْجَمْع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَكِتَابِهِ] بالإفراد.

والقراءَتان متكافئتان في المعنى، لأن المفردَ المضَافَ إلى الضمير يَعُمُّ كُلَّ ما يُنْسَبُ إلىٰ الضّمير من أفراد المضاف، وليكون دَليلاً على أنَّ مِثْلَ هٰذِهِ الإضافة ممّا يَدُلُّ على العموم إلاَّ بدليلٍ صارف عنه، كَقَرينَةٍ لَفْظِيَّةٍ أو مَعْنَوِية.

**التّدبُّر:**

قول الله تعالى:

- ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾:

أي: واذْكُر خَبَراً مُنَزّلاً في الكتاب وهو القرآن، مَرْيَمَ إذا انْتَبَذَتْ، أي: قِصَّةَ مَرْيم إذ انْتَبَذَتْ إلى آخر القصّة الواردة في القرآن.

وجاءتْ عبارة: ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ للإعْلام بصِدْقِ الخبر، لأنّ كُلّ ما أنْزَلَهُ اللَّهُ في القرآن حقٌّ، ولِتَوْجيه المتلقِّين للعناية بمضمونه، لما فيه من بيانٍ يتعَلّقُ بخارقٍ من خَوارق الرَّبّ جلّ جلالُه، لسُنَنٍ في كونه، هو الذي وضْعَها، وهو وَحْدَهُ الذي يخْرِقُها متى شاء لحكمةٍ مِنْ حِكَمِهِ الجليلَة، ولما فيه من بيانٍ يتعلَّقُ بطهارَة مَرْيَمَ عليْهَا السّلام، وقَدْ أشاع الْيَهُودُ عَنْها ما أشاعوا من فرية، إذ اتَّهَمُوها بالفاحشة، مع أنّها حمَلَتْ بعيسىٰ عليه السّلام بَنَفْخِ جبْريل في جيبها امتثالاً لأمْر الله، مصحوباً بأمْرِ الله التكويني.

والمقصود بفعل ﴿وَٱذْكُرْ﴾: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المتلَقِّي هذه القصّة الصادقة، للاهتداء إلى الحقّ، بما تَدُلُّ عَلَيْهِ مِن قُدْرَة الله وعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ.

والخطابُ مُوَجَّهٌ لكُل مُتَلَقٍّ صَالِحٍ للخطاب.

﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾: مُتَعَلِّقٌ بمحذوف هو مفعول به لفعل: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ أي: واذْكُرْ خبراً مُنَزَّلاً في الكتاب.

﴿مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾: **مريم**: بدَل من مَعْمُول «واذْكر» والمرادُ قِصَّةُ مَرْيم الّتي سيأتي في النصّ بيانُها.

﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾: أي: حين اعْتَزَلَتْ. يُقَالُ لُغَةً: انْتَبَذَ فُلانٌ، أي: اعْتَزَلَ نَاحِيَةً، مُنْصَرِفاً إلى ناحِيَةٍ أُخْرَىٰ، ويقال انْتَبَذَ عَنِ الْقَوْم: أي: تَنَحَّىٰ عَنْهُمْ إلى نَاحِيَةٍ بَعِيدَةٍ تَعْزِلُهُ عَنْهُمْ.

قول الله تعالى:

• ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾:

﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾: أي: من أمكنَةِ أَهْلِها.

﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾: أي: حالَّةً مكاناً يَقَعُ إلى جِهَةِ الشَّرق، ضُمِّنَ فعل

«انْتَبَذَت» معنى فِعْل «حَلَّتْ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتِهِ، فَنَصَبَ «مكاناً»، على أنَّهُ مفعولٌ به.

ودَلَّتِ العبارة على أنّ اعتزالَها لم يكن خارجاً عن حُدُودِ مساكن أهْلها، بل كانَ ضِمْنَ حُدُودها ومنها، ودلّت على أنّ المكان الذي اعْتَزَلَتْ فيه يَقَعُ إلى جهة مَشْرِقِ الشمس، بالنسبة إلى سائر أماكن أَهْلِها الّتي ابْتَعَدَتْ عَنْها في عُزْلَتها.

قول الله تعالى:

• ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابًا﴾:

﴿فَٱتَّخَذَتۡ﴾: أي: فَجَعَلَتْ بِتَكَلُّف، وإجراءاتِ عمرانيَّة.

﴿مِن دُونِهِمۡ﴾: أي: من أَمَام نَظَرِ أهْلِها، أوْ من جِهَتِهم حَيْثُ امتداد نظرهم.

﴿حِجَابًا﴾: أي: ما يحجُبُ أنظارهم عن رُؤيَتِها، عِفَّةً وطهارةً في حال تَكَشُّفِها، وبُعْداً عن الرّياء، وحِرْصاً على الإخلاص للَّهِ عزَّ وجلَّ في أحوال عباداتها.

قول الله تعالى:

• ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾:

أي: فأرْسَلْنا عَقِب اعتزالها واتّخاذها الحجاب إليها رُوحَنَا الَّذِي هو جبريل عليه السّلام، رَسُولاً لأداء رِسالَةٍ كلَّفْنَاهُ القيام بها.

وقد جاء وصْفُ جبريل عليه السّلامُ بأنَّهُ رُوحٌ في عِدَّةِ نُصُوصٍ قرآنية.

يتحدَّثُ الرَّبُّ جلَّ جَلَالُهُ في هٰذه العبارة بضمير المتكلّم العظيم، لأنَّ الموضوع يتعلّقُ بعظمَةِ الرُّبُوبيَّة في الخَلق بخارقٍ للعادة مَقْرونٍ بحكْمَةٍ جليلة.

قول الله تعالى:

• ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾:

أي: فظهر لها الرُّوح جبْريلُ عليه السّلام مُتَشكِّلاً بصُورةِ بشَرٍ سَوِيّ، كاملِ الخِلْقة لا نقصَ فيه ولا عيْبَ.

هذا التشكُّل من الخصائص الّتي جعلَها الله للملائكة، وجعَلَ بَعْضَها للجِنّ، مع اختلاف في أصل التكوين.

**التمثُّل**: هو التَّشَكُّلُ بأشْكالِ مُماثِلَةٍ لأشْكالِ كَائِنَاتٍ أُخْرَىٰ، مُخْتَلِفَةٍ في تكوينها وفي صِفَاتِها.

﴿بَشَرًا﴾: لفظ «بَشَر» مثل لفظ «إنْسان» كُلٌّ مِنْهُمَا اسم جِنْسٍ لآدم وذُرِّيّتِهِ، ولفظ «بشر» يسْتَوي فيه «المفرد والمثنىٰ والجمع، والمذكر والمؤنث» وقد يثَنَّىٰ، وقد يجمع على «أبْشار».

﴿سَوِيًّا﴾: أي: مُسْتَوِياً مُعْتَدِلاً تامّ الخلْق، لا نَقْصَ فيه ولا شُذُوذَ، ولا مُخَالفة فيه للشَّكْلِ المعتاد في البشر.

كلُّ هذا بالنسْبَة إلى الشَّكْلِ الذي تَراهُ الأنْظار، أمّا في الحقيقة فهو الملَكُ بصِفَاتِهِ الحقيقيَّة، دون أن يتَحوَّلَ بالتَّشَكُّلِ إلى صفاتٍ بشَرِيَّة بحالٍ من الأحوال.

قول الله تعالى:

• ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾:

لَقَدْ هَالَتْهَا المفاجَأَةُ وَأَذْعَرَتْها، أنْ تَجِدَ مَعَهَا في خَلْوَتِهَا، وفي مكانِ عُزْلَتِها رَجلاً بشراً مُكْتَمِلَ الْخِلْقَةِ سَوِيّاً، فَلَمْ تَجِدْ إلّا أنْ تَسْتَعِيذَ بالرَّحْمٰنِ مِنْه.

وإذْ كان من عَادَتها عليها السّلام أنْ تحادِثَها الملائكةُ دُونَ أن تَظْهَرَ

لَهَا بصُوَرٍ بَشَرِيَّةٍ، كانَ من حُسْنِ الفراسة فيها أَنْ يَخْطُرَ لَها أنَّ هٰذا الَّذِي ظهر لَها في خَلْوَتِها لَا خَوْفَ مِنْهُ على شَرَفِها وطَهارَتِها وعِفَّتِها، فاستعاذَتْ باسْمِ الرَّحْمٰنِ منْهُ إنْ كانَ تَقِياً. ولولا هٰذهِ الفراسَةُ الحسنة لَقَالَتْ: إنّي أعُوذُ بالجبّار المنتقِم منك.

أمّا استعاذتُها بالرَّحْمٰنِ مِنْهُ إنْ كانَ تقِياً، فهي استعاذة من الفضيحة، ومن التُّهَمَة، ومن أنْ تُشَاع عنْها مقالة سوء إذا رآه أحَدٌ في حُجْرتِها.

قول الله تعالى:

• ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾:

أي: ما أنا إلا رَسُولُ رَبّكِ، ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، تفَسَّرُ بـ«ما» و«إلّا».

وسبق بَيَانُ القراءتَين: ﴿لِأَهَبَ﴾ و[وَلِيَهَبَ] وَبيان تكاملهما.

وقد كانَتْ وَظيفةُ «جبريل» أن يَعْمَل عملاً سَبَبِياً هو النفخ لإنْشَاءِ الْجَنِينِ عِيسَىٰ في بَطْنِ أُمّه «مَرْيم» عليهما السلام.

﴿لِأَهَبَ﴾: **الهِبَةُ**: هي العطية الخاليةُ من الأغراض والأعواض.

﴿زَكِيًّا﴾: أي: طاهراً، نامِياً في الكمالات البشريّة.

قول الله تعالى:

• ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾:

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ﴾: أي: من أيْنَ يكونُ لي غُلامٌ؟ وكَيْفَ يَكُونُ لي غُلامٌ؟ الاستِفْهَامُ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ بِمَعْنَى التعجُّب.

﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾: أي: ولم يَمْسَسْنِي زَوْجٌ بَشَرٌ يَحِلُّ لي شَرْعاً أنْ أُعَاشِرَه، وقد دَلَّ على هذا القَيْد العبارة التالية لها.

﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أي: ولَـمْ أَكُنْ من الزَّواني اللّواتي يُعَاشِرْنَ الرّجالَ مُعَاشَرَةً مُحَرَّمَة، عن طريق البغاء، ولم أتعرَّض للزِّنا.

**البغيّ**: هيَ الزانيةُ الفاجِرَةُ الّتي تتَكَسَّبُ بفُجُورِها.

قول الله تعالى:

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾:

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾: أي: قال لها جِبْرِيل عليه السّلام: أنْتِ كذلِكِ الوصْفِ الّذِي وصَفْتِ به نفسك، لم يمْسَسْكِ بشَرٌ بزواجٍ مَشْرُوع، ولم تكُوني بَغِيَّةً زَانِيَةً.

• ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾:

أي: وجواباً على استفهامك التعجُّبيّ، قال رَبُّكِ هو عليَّ هَيِّنٌ، أي: إنّ إنْشَاءَ غُلامٍ في بَطْنِكِ دُونَ مُعَاشَرَةِ رَجُلٍ هو عَلَيَّ خَلْقٌ هيّنٌ، إذْ هو لا يحْتَاج بالنسْبَةِ إلى الرَّبّ جلَّ جلالُهُ إلَّا إلى أمْرِ التكوين، إنَّما أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكون.

• ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾:

أي: وقال رَبُّكِ أيضاً: لِنَجْعَلَ هٰذا الْغُلامَ الَّذِي نَهَبُهُ لَكِ آيَةً للنَّاسِ، أي: علامَةً على عظمة رُبوبيَّتِنَا، وكمالِ قُدْرَتِنا على خَرْقِ السُّنَنِ السَّبَبِيَّة، الّتي وَضعناها نَحْنُ بِحِكْمَتِنا.

ولنَجْعَلَهُ رَحْمَةً مِنَّا لِعبادنا، بما نُحَمِّله من رسالة، وإذْ يُبَيّن لهم ما اخْتَلَفُوا فيه من مسائل الّدين وقضاياه، فيهْتَدِي به المستعدّون لتَقبُّلِ الهداية، فيَكُونُ ببياناته رَحْمَةً لهم.

وكُلّ رَسُولٍ هو رَحْمَةٌ من الله لِمَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَيَتَّبِعُهُ بِصِدْق. استعمل في العبارة ضمير المتكلم العظيم لأنَّ الموضوع يتعَلَّقُ بسُلْطان الرّبُوبيَّة.

• ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾: أي: وَكان حَمْلُك بعِيسَىٰ واصطفاؤك لهٰذا الأمْر، أمْراً مقضِيّاً بقضاء مُبْرَم من الرَّبّ جلَّ جلالُهُ وعظُم سلطانُه. فَلا تَتَذَمَّري من قضاء الله، ولَا تَسْأَلِي اللَّهَ أَنْ يُعْفِيكِ مِنْ هذا الأمْرِ المقضيّ المبْرَم، إذْ لا بُدَّ من تَنْفِيذِه.

❁ ❁ ❁

عند هذا المفْصِل من سورة (مريم) الّتي نزلَتْ في أواسط العهد المكيّ من تاريخ دَعْوَةِ الرَّسُول ﷺ بَعْدَ بِعْثَته، نجد لقطةً تكميليَّةً جاءت في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) النازلَة قُبَيْلَ أواخر الْعهْد المكّيّ: وهي قول الله عزّ وجل فيها بشأن مريم عليها السّلام:

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾:

ولَقْطَةً أخْرَى جاءت في سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول) النّازلة في الثُّلث الأخير من المرحلة المدنية، وهي قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾: أي: صانته وحَفِظَتْه من الفاحشة، ولم تَرْتَكِبْ به مَعْصِيَةً لِربّها.

ونلاحظ أنّ ما جاء في سورة (الأنبياء) جاء بعِبارَة: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ الضمير في هذه العبارة يعود على «مريم» عليها السلام، الّتي أحْصَنَتْ فَرْجَها.

وأنّ ما جاء في سورة (التحريم) جاء بعبارَة: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ الضمير في هذه العبارة يَعُودُ على «فَرْجِها».

والتكامل بَيْنَ العبارَتَيْن يَدُلُّنا علىٰ أنَّ النَّفْخ في ذاتِ «مَرْيَم» عليها السلام، لم يَكُنْ عَنْ طَرِيق فَمِها، أوْ أنفِها، أو مَنْفَذٍ آخَرَ مِن جسمها، غَيْرِ فَرْجها، سواءٌ أكان النفخ في جيب درعها من جهة صَدْرها، أم من طرف ثوبها الأدنى، أم من كُمّها، فالنفخة قد أخذت طريقها فَدَخَلَتْ فِي فَرْجها.

وسبق تدبر ما جاء في سورة (مرْيم) بشأن إرسال الله عزّ وجلّ جبريل إليها، وأنَّهُ تمثَّلَ لها بشراً سَوِياً، وأنّه أخْبَرَهَا بالتَّكْلِيفِ الرَّبَّانيِّ الذي جاء إليها من أجله، ولم يأت في نصّ سورة (مريم) ذكْرٌ للنَّفْخ الذي جاء في سورتي (الأنبياء) و(التحريم) فتكامَلتِ النُّصُوص.

## معترضة حول تَسْمِيةِ جبريل عليه السلام «الرُّوح» في القرآن:

(١) سمّىٰ الله عزّ وجلّ «جبريل» عليه السّلام الرُّوح فقال تعالى في سورة (القدر/ ٩٧ مصحف/ ٢٥ نزول) بشَأن ليلَةِ القدْر:

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤﴾.

(٢) وسمَّاه الرُّوح الأمين، فقال تعالى في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشأن القرآن المجيد، خطاباً لرسوله محمّد ﷺ وإعلاماً لسائر الناس:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥﴾.

(٣) وسمَّاه رُوح الْقُدْس (أي: رُوحَ الطَّهارة من كُلّ رجْسٍ) فقال تعالى: في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً لِرَسُوله بشأن القرآن أيضاً:

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

(٤) وسمّاه الرُّوحَ في سورة (النحل) أيضاً:

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾.

أي: يُنَزّل الملائكة مصحوبةً بالرُّوح الذي هو جبريل عليه السلام، من أَمْرِه على من يشاءُ من عِبَادِه، وهُمُ الّذِينَ اصطفاهم لِرِسَالَتِهِ، ومضمونُ الرّسَالة: أنْ أنْذِرُوا بعذاب الله الكافرين بأنَّهُ لا إله إلّا الله، أي: لا معبود بحقٍ إلا الله، فمَنْ عَبَدَ غير الله، أو أشرك بعبادته أحداً كان من الكافرين، المستحقين للخُلودِ في عذاب النَّار يوم الدين.

(٥) وسمّاه الرُّوح في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول) فقال الله تعالى فيها:

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾.

أي: تَعْرُجُ الملائكَةُ وجبريل، وخُصَّ بالذِّكْر تَعْظيماً لشأْنِه بين الملائكة المقرّبين.

(٦) وسمّاهُ الرُّوحَ أيضاً في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

فقال تعالى في الحديث عن يوم الدِّين:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾.

أي: يوم يقوم جبريلُ مُتَمَيّزاً بارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ رَبّه، والملائِكَةُ مَعَهُ.

هذه النصوص تدُلُّ علىٰ أنّ جِبْرِيلَ عليه السّلام، قد اختصَّهُ الله عزّ وجلّ باسم «الرُّوح» و«رُوح القدس» وأضافه إلى نَفْسِه تكريماً له بقوله في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿... فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾.

**رابعاً:**

قول الله تعالىٰ في آية سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿... وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾:

أي: وجعلْناها في حَمْلِها مِنْ غَيْر أن تعَاشِرَ بشراً معاشرةً زوجيَّة، وجعلْنَا ابْنَها عيسَىٰ الّذي كلَّمَ الناسَ وهو صبيٌّ في المهد، وأَجْرَينا له معجزات باهرات، وخوارقَ عاداتٍ مُدْهشات، آيَةً، أي: علامَةً على وُجود ربّ خالق، يخرق العادات، ويَصْنَعُ المعجزات الكبريات، وهو على ما يشاء قدير، وآيةً على أنّ عيسىٰ عَبْد الله ورسولُه حقّاً.

وقول الله عزّ وجلّ في آية سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول): بشأن مريم عليها السلام:

﴿... وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾:

قد وصَفَ مَرْيم علَيْها السَّلامُ بصِفَتَيْنِ عظيمتَيْن:

- صفة إيمانيَّة.
- وصفة سلوكية.

**أمّا الصفة الإيمانية:** فقد دلّ عليها قول الله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾: أي: وصَدَّقَتْ بكلمات رَبّها الّتي كانت الملائكة تُبَلِّغُها إيّاها، وفي مقدّمتها كلمات جبريل لها تبليغاً عن الله، وصَدَّقَتْ بكُتُبِهِ المنزَّلَةِ على رُسُله ممَّا وصَلَها الْعِلْمُ به.

وتَشْمَلُ كلماتُ الله شرائعه وأحكامَهُ ووصايَاهُ الّتي بَلَّغَها رُسُلُه، ولَوْ لَمْ تكُنْ مِمَّا تَضَمَّنَتْهُ كُتُبُ اللَّهِ المنزلة.

**وأمّا الصِفَةُ السُّلُوكِيَّة:** فقد دَلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾:

**القانت**: هو المطيع الخاضع المتذلِّلُ لِربِّه، القائِمُ بعباداتِه على مايُرْضِي اللَّهَ عزّ وجلّ.

وصفها الله عزّ وجلّ بأنَّها كانت من القانتين، ولم يَقُلْ: من القانتات، لأنَّها بلَغَتْ في قُنُوتِها مبْلَغَ الكاملين من الرّجال، ولم يشاركها في هذه المرتبةِ عابِدَةٌ من عابداتِ النساء في بني إسرائيل.

لَكِنْ كانَ يُوجَدُ في بني إسرائيلَ رِجالٌ قانِتُونَ من دَرَجَةٍ رَفِيعَةٍ، في مرتَبَةٍ عالية، فكانت جَدِيرةً بأنْ تكونَ مَعَهُمْ في المرتبة والدرجة، طاعةً وخضوعاً لله، وعملاً بمراضيه، واجتهاداً في العبادات والقرُبات، والأعمال الصالحات.



**خامساً:**

وممّا جاء في سورة (آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول) منْ بَيانٍ يتعلّقُ بمريم وابْنِها عيسَىٰ عليهما السَّلام، وهذا البيان ينتَقِلُ إلىٰ ما بَعْدَ مَرْحَلَةِ بَدْءِ عُلُوقِ الْجنِينِ عيسَىٰ في بَطْنِ أمّه، هو قول الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . . .﴾.

**القراءات:**

(٤٥) • قرأ حمزة والكِسَائي: [يَبْشُرُكِ] من فِعْل: «بَشَرَه يَبْشُرُه» وقرأ باقي القرّاء العشرة: [يُبَشِّرُكِ] من فعل: «بَشَّرَهُ يُبَشِّرُه» المضعّف، ومعلوم أنَّ زيادة المبنى في العربيّة تَدُلُّ غالباً على زيادة المعنى.

فالظاهر أنّ الملائكة قدَّمَتْ لها البشارة من غير تأكيد فيها، فلمَّا شَعَرُوا باستغرابها شدّدُوا في عبارة البشارة، وبهذا تتكامل القراءتان.

(٤٧) • قرأ ابْن عامر: ﴿كُن فَيَكُونَ﴾ بنَصْب فعل «يَكُونَ» على أنه منصوب بأن مضمرة بعد الفاء السببيَّة.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ برفع فعل «يَكُونُ» أي: فهو يكون بأمر التكوين.

والقراءتان مُتَكافئتان في الدلالة الغائيَّة، إلَّا أنَّ قراءة ابْن عامر أفادت أنّ كلمة «كُنْ» سَبَبٌ في تنفيذِ المقْضِيِّ به في الواقع. أما القراءة الأخرى فدَلّت على تحققه في الواقع.

(٤٨) • قرأ نافع، وعاصم، وأبو جَعْفَر، ويَعْقُوب: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بالياء، وبالضمير المستتر الذي يعودُ على «الله».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [ونُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ] بنُونِ المتكَلِّمِ العظيم.

فَدَلَّت قراءةُ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ على القول الصادر من الملائكة.

ودَلّت قراءة: [ونُعَلِّمُهُ] على القول الصادر عن الله عزّ وجل.

فبين القراءَتيْن تكامُلٌ في الأداء البياني.

**التدبّر:**

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: أي: يا أيُّها المتَلقّي للقرآن المجيد، ضَعْ في ذاكِرَتك من أحداث قصّة مريم وابنها عيسَىٰ، أحداثاً جرَت إذْ خصَّص الله للعناية بها طائفة من الملائكة، وفي مُقدّمتهم جبريلُ أخْذاً من دَلالاتِ نصوص أخرى، وأنّ هؤلاء الملائكة قالوا لها:

﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾:

أي: يا مَرْيَمُ إنَّ الله يُبَشّرُك بكَلِمَةٍ من كلماتِه التكوينيَّة، الّتي يتحقَّقُ بها ما سبَقَ به قَدَرُهُ وقضاؤه.

وهذه الْكَلِمَةُ الخاصَّةُ بِبشَارَتِك يتحقَّقُ بها إِيجادُ وَلِيدٍ لَكِ، اسْمُهُ المسيحُ عيسَىٰ ابْن مَرْيم.

والغرض من إعلان أنَّه ابْنُ مريم، الإشعارُ دواماً بأنّ الله خَلَقَهُ من أُمٍّ فقط.

**المسيح**: عبارة عن المسْحِ المعروف عند اليهود والنصارى، فَقَدْ كان الْمَسْحُ عِنْدَ الإسْرائِيليِّين من الطُّقُوسِ الدّينيَّة، ويُرادُ به صَبُّ الزّيْتِ أو الدُّهْنِ على الشيءِ، لتَكْرِيسِهِ لِخِدْمَةِ الرَّبّ، أي: لتخصيصه بأن يَحْمِل هذه المهمة، وهو اصطلاح عند القائمين بالوظائف الدينيَّة من اليهود والنصارىٰ.

والتكريسُ في العربيَّة يأتي بمعنىٰ التأسيس، يُقال لغة: كَرَّسَ البناء، أي: أسَّسَه.

وقد أوصَتِ الشريعةُ الموسَوِيَّة بمَسْحِ أَشْخاصٍ وأماكِنَ وآنِيَةٍ، وأمَرَتْ بأن يُرَكَّبَ لذَلِكَ دُهْنٌ مُقَدَّسٌ من أفْخَرِ الأطياب.

ثُمَّ صَارُوا يَمْسَحُونَ بهٰذا الدُّهْنِ الكَهَنَةِ، والمُلُوكَ، والأنبياءَ، إشعاراً بتخصيصهم للقيام بمُهَمَّاتِهِم ووظائفهم مخْلِصِينَ لِخِدْمَةِ الله.

قالوا: وقد مَسَحَتْ مَرْيَمُ عليها السلام بالدُّهْنِ المقدّس المركَّبِ من أفخر الأَطياب قَدَمَي وَلَدِها عيسىٰ عليه السلام.

ثمّ صَار يُرَادُ بالْمَسْحِ من الله عزَّ وجلَّ تكْرِيسُ اللَّهِ نَفْسَ مَنْ يَصْطَفِيهِ لِخِدْمَتِهِ[1].

---

(١) أخذاً من «قاموس الكتاب المقدس».

• ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: حالة كونه وَجيهاً في الدُّنيا والآخرة، وهي حالٌ مُقَدَّرَة كما يقول النحويُّون.

**الوجيه**: سيِّد قومه، وذو الوجاهَةِ فيهم، وهي المنزلَةُ الرفيعة، والْقُوَّة، والمنَعَة.

وقد أثبت الواقع سيادته بالنبوّة والرِّسالة والمعجزات الباهرات في الدنيا، أمَّا في الآخرة فلَهُ وَجَاهَةٌ عظيمة، إذْ هُو من أولي الْعَزْمِ من الرُّسل.

﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾: أي: وهو من زُمْرَةِ المقَرَّبينَ إلى الله عزّ وجلّ: وهذه مَنْزِلَةٌ رَفِيعةٌ جدّاً عنْد اللَّهِ جلّ جلالُه، يَحْتَلُّهَا السَّابقون السَّابقون في فعل الخيراتِ، والطَّاعَاتِ، والْقُرُبَاتِ، وأعمال البرّ والإحسان.

قال الله عزَّ وجلَّ بشأن المقرّبين في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

**الثُّلَّة**: الجماعَةُ من الناس.

لكنَّ المقرَّبينَ من الآخِرِينَ قَلِيلُونَ، لا يبْلُغُونَ أنْ يكونُوا ثُلَّة.

• ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: ويُكَلِّمُ الناس في الْمَهْدِ مُبشِّراً بنُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ القادمة، وفي كلامه وهو طفْلٌ في الْمَهْدِ إعْجَازٌ يُثْبتُ براءةَ أُمّه وطَهَارَتِها، وأنَّ اللَّهَ وَهَبَهُ لَهَا بِكَلِمَةِ التكوين: «كُنْ» دُونَ وِسَاطَةِ زَوْج.

**الْمَهْدُ**: السَّرير الّذي يُهَيّأ للطِّفْلِ الصغير، ويُوَطَّأ لِيَنَام.

ويُكَلِّمُ النَّاسَ كَهْلاً، فيقولُ لهم: إني رسولُ الله إِلَيْكُم، مُصدِّقاً لما بيْنَ يَدَيَّ من رُسُلٍ وكتُب، ومبشّراً برسُولٍ يأتي من بَعْدِي اسمه أحمد، إلى أقوالٍ كثيرةٍ أخرىٰ اشتَمَلَتْ عليها رسالته.

**الكَهْلُ**: مَنْ جاوز الثلاثين، ويسْتَمِرُّ كَهْلاً إلى نحو الخمسين سنة من عُمُره.

وقد كانت بِعْثَةُ عيسَىٰ عليه السلام، حينما بلَغَ من الْعُمْرِ ثلاثين سنةً، في أوَّلِ كُهُولته، ورفعه الله إليه بعد ثلاث سنوات.

﴿وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾: **الصالح**: في اللُّغَة هو الْخَالِي من الفساد مَهْما قلّ وكذلك النافِعُ المفيد.

وجاء لفظُ الصالحين في القرآن الكريمِ وصفاً للأنبياء والمرسَلِين، والأخيار الممتازين من المحسنين.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾؟!

هذه مقولَةٌ خاطبَتْ بها مَرْيَمُ عليها السّلام ربّها، في أثناء ظُهُور الملائكة لها، وبشارَتِها بالوليد القادم، خطاباً مباشراً، لا عَنْ طريق أحَدٍ من الملائكة.

ويظهر أنّها لم تَشْعُرْ بعْدُ بآثار الحمْلِ الذي تمّ تكوُّنُ عَلقَتِه، إذْ كانت في بدايات الحمْل.

• ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾: أي: قال لها جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام، إذْ عَلِمَ بخطابها لِربّها، أنت كَذَلِكِ، لم يَمْسَسْكِ بَشَرٌ لا بزواجٍ ولا بغيره.

• ﴿ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: وقالَ لَهَا جِبْرِيلُ مُتابعاً حديثَهُ لها، اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ خَلْقَهُ ضِمْنَ نِظَام الأسباب الّتي وضَعَها هو سُبْحَانَهُ، أو على غير نظام

الأسباب، فهو إذا قَضَىٰ أمْراً، أيْ: أمْضَاهُ بإرادته، بَعْدَ أن حدَّدَ مقادِيرَهُ بتَقْدِيرِهِ، فإنَّما يُوجِدُهُ بأمْرِ التكوين، يقول لَهُ: «كُنْ» فَهُوَ يكُونُ مَوْجُوداً ضِمْنَ الموجودات، ولو كان الأمْرُ إيجاداً من الْعَدَمِ الكلّي.

هٰذه الآية (٤٧) جاءت اعتراضِيَّة ضِمْنَ كلام الملائكة لها، ثم يُتابعُ النَّصُّ بيان أقوال الملائكة لمريم.

• ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾:

هذا البيان معطوفٌ على الْجُمَل السَّابِقَةِ الَّتي قالَتْهَا الملائكَةُ لمَرْيم، أي: حَالَةَ كوْنه وجيهاً، ومن المقربين، ويُكَلّم الناسَ في المهْدِ وكَهْلاً، ومن الصالحين، وحالَةَ كونِهِ يُعَلِّمُهُ رَبُّه الكِتَابَ والحكمةَ والتوراة والإنجيل، ويَبْعَثُهُ رَسُولاً إلى بني إسرائيل.

• ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي: ويُعلّمه الكِتَابَةَ.

ذكر الإنجيليُّونَ أنَّهُ عليه السلام بدأ في حداثته المبَكِّرَةِ، وفي سِنٍّ صَغيرة يَدْرُسُ كُتُبَ الْعَهْدِ القدِيم دِرَاسَةً عميقةً واسعة.

جاء في إنْجيل «لوقا٢: ٥٢»:

«وأمَّا يَسوعُ فكَانَ يتقدَّمُ في الْحِكْمَةِ والْقَامَةِ والنِّعْمَةِ عِنْدَ اللَّهِ والنَّاس».

**يَسُوع**: هو عيسَىٰ عليه السَّلامُ عندهم.

• ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: وَيُعَلِّمُهُ العلوم الْحكْميَّة الّتي يَهْدِي إليها العقل الصحيح، وتهدي إليها التجربات النافعات في دَلَالَاتها. ويُعَلّمهُ ويُؤْتيه الحكمة في السُّلُوك.

**الحكمة**: وضع الأشياء في مواضِعِها سواءٌ أكانت في المعرفة الفكريَّة، أمْ في السُّلُوك الظاهِرِ والباطن.

• ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾: أي: ويُعَلِّمُهُ التَّوراة الّتي أنزلها الله عزّ وجلَّ على موسَىٰ عليه السّلام، ويُنْزِلُ علَيْهِ ويُعَلِّمُهُ الإنْجِيلَ.

• ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: أي: ويُرْسِلُهُ رَسُولاً إلىٰ بني إسْرَائِيلَ، بَعْدَ أَنْ يَجْعَلَهُ نَبِياً.

وإرسَالُهُ إلى بني إسرائيل لا يَقْتَضي عَدَمَ إرسَالِهِ إلى غَيْرِهِمْ من الأمم، إذْ لا حَصْرَ في العبارة.

وقد جاء في آخر إنْجيل «مَرْقُس» أنّ عيسَىٰ قال لحواريّيه: «اذْهَبُوا إلى الْعَالَم أَجْمَعَ واكْرِزُوا بالْإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا» ونجدُ نظير هذا في غيره من الأناجيل المعتمدةِ عند النصارىٰ.

والواقع الّذي نَفَّذَهُ تَلاميذُهُ يَشْهَدُ بأنّ رسالَتَهُ كانَتْ عامَّةً للناس، مؤقَّتَةً في الزّمان، إذْ تنتهي بظهور محمد بن عبد الله ﷺ، وعلى سائر الأنبياء والمرسَلين.

❁ ❁ ❁

**سادساً:**

ويبرُزُ هُنَا من أحداث قِصَّةِ «مَرْيم» وابْنِهَا عيسَىٰ عليهما السلام، ما جاء في سورة (مَرْيم/١٩ مصحف/٤٤ نزول) في الآيات مِن (٢٢ ـ ٤٠).

قول الله عزَّ وجلّ:

﴿۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾﴾.

**القراءات:**

(٢٣) • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عامر، وشُعْبَة، وأبُو جَعْفر، ويعقوب: ﴿يَٰلَيْتَنِي مُتُّ﴾ بِضَمّ الميم.

وقرأ باقي القرّاء الْعَشَرَة: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ﴾ بكسر الميم.

«مُتُّ» و«مِتُّ» وجْهان عَرَبيّان لنُطْقِ الكلمة، وأَصْلُ القاعدة أن يُقَالَ: «مُتُّ» بضَمِّ الميم. لكن جاء في هذا الفِعْلِ قَولُهُم: مِتَّ تَمُوتُ، قال ابْنُ سِيدَه: ولا نَظِيرَ لها في المعْتل، قال سيبويه: اعْتَلَّتْ من فَعِلَ يَفْعَل، ولَمْ تُحَوَّلْ كما يُحَوَّل، قال: ونظيرُها من الصحيح فَضِلَ يَفْضُل، ولم يَجِئْ على ما كَثُرَ واطَّرَدَ في «فَعِلَ». قال كُراع: مَاتَ يَمُوتُ، والأصْلُ فيه مَوِتَ بالكَسْر يَمُوت، ونظيرُه: دُمْتَ تَدُومُ، إنّما هُو دَوِم[1].

(٢٣) • قرأ حفص، وحمزة: [نَسْياً] بفَتح النون.

وقرأ باقي القرّاء العشرة [نِسْياً] بكَسْرِ النون.

والقراءتان وجْهان عَرَبيان «نَسْياً» و«نِسْيا» هو مَا نُسِي، وتُرِكَ، وأُبْعِدَ عن الذّاكرة، ومَا لا يُعْتَدُّ به ولا يُعْبأُ به.

(٢٤) • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرُو، وابْنُ عَامرِ، وشُعْبَة، ورُوَيْس:

﴿فَنَادَىٰهَا مَنْ تَحْتِهَآ﴾ على أنَّ «مَنْ» اسم موصول، أي: فناداها الذي هو تَحْتَها.

وقرأها باقي الْقُرَّاء العَشَرَة: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ على أن «مِنْ» حَرْفُ جَرٍّ، أي: فناداها المشرفُ على وِلادَتِها من الملائكة مِنْ تَحْتِها.

وبين هاتَيْنِ القراءتَيْنِ تكامُلٌ مَع تفنُّنٍ بياني، فَمَنْ تَحْتَها الَّذِي أشْرَفَ

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور.

على تَوْلِيدِها من الملائِكَةِ نَاداها نِداءً صَادِراً من تَحْتِها، وهو يعالج تَوْليدها، ويَتَلَقّى الوليد الخارِجِ من بطنها، والظاهر أنَّهُ جبريل عليه السلام.

(٢٥) • قرأ حفص: [تُسَاقِط] وقرأ حَمْزَةُ: [تَسَاقَطْ] وقرأ يعقُوبُ: [يَسَّاقَطْ] وقرأ باقي القُرّاء العشرة: [تَسَّاقَطْ] وهو صُوَرٌ جائزةٌ عربياً، وفيها تَفَنُّنٌ بياني، ورسْم الكلمة لا يختلف، إلَّا بالنقاط والتشكيل.

**التدبّر:**

قول الله تعالى:

• ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾:

أي: فلمَّا شَعَرَتْ مَرْيَمُ عَلَيْها السَّلام، بأنَّها قَدْ حملَتْ جَنِيناً في بطْنِها، ورُبَّما كان شعُورُها به بِسَبَبِ تَحرُّكِهِ، بَدَا لَهَا أنْ تَبْتَعِدَ عَنْ مَسَاكِن قَوْمِها وكلّ البَلْدَةِ إلى مكانٍ قَصِيّ تكونُ منفردةً فيه، حتَّىٰ لا تَتعرَّض لنظرات الاتهام من قومها.

﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾: أي: فاعْتَزَلَتْ بجنينها الّذي حملَتْه.

يقال: لغة: انتَبَذَ فلان، أي: اعتزل ناحِية، منصرفاً إلى ناحيةٍ أخرى، ويقال: انتبذَ عن القوم، أي تنحّىٰ عنْهم، واختار مكاناً آخر غير مكانهم، وهذا المكان يعزِلُهُ عَنهم.

﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾: أي: حالَّةً مكاناً بعيداً. **الْقَصِيّ**: هو في اللُّغةِ البعيد. يقالُ لغة: قَصَا عَنْهُ قَصْواً، أي: بَعُدَ فَهُوَ قاصٍ. ويقال: قَصِيَ عَنْهُ يَقْصَىٰ قصاً، أي: بَعُدَ فَهُوَ قَصِيٌّ.

وبُعْدُ هذا المكان الذي انتبذَتْ إلَيْهِ هو بُعْدٌ عن مَسَاكِنِ قومِها وبَلَدِهِمْ.

قال المؤرّخون: وسافرتْ مريَمُ وهي حُبْلَىٰ من الناصرة إحْدَىٰ مُدُنِ الجليل، إلى مدينَةِ «بَيْتِ لَحم»، فَلَمْ تجد في بيْتِ لحْم مأوىٰ، لكَثْرَةِ الغرباء فيها، فَنَزَلَتْ خارجَ المدينَةِ في مكانٍ مُتَّخَذٍ مأْوًى للرِّعَاة.

• ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾:

أي: فَأَلْجَأها المخاضُ وهو وجع الطَّلْقِ إلىٰ ساقِ النَّخْلَةِ الموجودة في المكان الّذي أوَتْ إلَيْه.

يقال لغة: أجَاءَ فلاناً إلى كذا، أي: ألْجَأَهُ إلَيْهِ.

**الجِذْع**: ساقُ النخلَةِ ونَحْوِها، ويجمع على أجْذَاعٍ وجُذُوع.

• ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾.

أحسَّتْ مريم عليها السلام بصُعُوبَة الموقف الّذي ستَتَعَرَّضُ له حينما تحْمِلُ وَلَدَها، وتُواجِهُ بِهِ قَوْمَها، فقالت هذا القول.

﴿يَٰلَيْتَنِى﴾: «يا» حرف نداء، والمنادىٰ محذوف، أي: يا رَبّ ليتني، وقال بعض المفسّرين: هو نداءٌ للكلام الدّالّ على التَّمَنِّي، بتَنْزِيلِ الكلمة منزلة العاقل الذي يُطْلَبُ حضوره. وقيل: «يا» حرف تنبيه.

﴿مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾: أي: ليْتَني مِتُّ قبل هذا الحدَث الّذي أنا فيه، وسأواجِهُ بَعْدَهُ اتِّهامَ قومي لي بما أنا بَرِيئَةٌ منه.

[وكُنتُ نَسْياً مَنسِياً] ـ [وَكُنتُ نِسْياً مَنسِياً]: أي: ليتني كُنْتُ شَيْئاً حقيراً يُرْمَىٰ ويُهْمَلُ ولا يُعْبَأُ به، كمتاعٍ بالٍ متروكٍ لحقارته.

**النَّسْيُ والنِّسْيُ**: الشيء الحقير الذي يُرْمَىٰ ويُهْمَلُ ولا يُعْبَأُ به.

**المَنسِيّ**: المتروكُ المرميُّ لحقارَته وقِلَّةِ فائدتِه وقِيمتِهِ.

أي: يَا رَبّ لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا الحَدَثِ الذي أنا فيه، ويا ربّ ليتني كُنْتُ شيئاً غير ذي قيمة، كَمَتَاعٍ بَالٍ، حتَّى أُتْرَكَ ولا يَعْبَأ بي أَحَدٌ.

• ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَنَادَىٰهَا﴾: الرَّاجِحُ من الاحتمالات أنَّهُ الملَكُ الذي يَرْعَىٰ وِلادَتها، وأنَّهُ جبريلُ عليه السلام، لأنَّهُ هو الّذي نَفَخَ فيها عند بَدْءِ حملها.

وجاء التعبير بعبارة ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ مع أنّه قريبٌ منْها، لأنَّ المرأة حينَ ولادَتِها تتوجَّع بآلام شديدة، وقد تئِنُّ وَتَصْرُخ، ونفسُها منصرفةٌ إلى ما هيَ فيه من آلام الوضْع، فلا تَسْمَعُ أُذُناها في الغالب الكلامَ الَّذِي تُكَلَّمُ به ما لم يَكُنْ نداءً.

﴿مِن تَحْتِهَا﴾ وفي القراءة الأخرى: [مَنْ تَحْتَهَا]: إنَّ مَرْيم قالت مقالَتَها والمَلكُ الذي يَرْعَىٰ وِلَادَتَها مَا زَالَ تَحْتَهَا، إذْ هي مُرْتَفِعَةٌ ارتفاعاً ما، على شيء يَسْمَحُ بتَلَقِّي الولِيدِ مِنْ تَحْتِها، فهو الذي يَرْعَىٰ وِلادَتَها تَحْتَها، وهو يُنادِيها من تْحْتِها.

وفي القراءتَيْن تفنُّنٌ في التعبير ظاهر.

﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾: «ألَّا» أصْلُها «أنْ» التفسيرية و«لا» الناهية.

أي: قال لَهَا كلَاماً تفسيرُهُ: [لا تحزني] بسبب آلام الوضْع، وبسَبَبِ ما تتوقَّعين من اتِّهامِ قَوْمِكِ لَكِ بالفاحشة، وأنت تحْمِلينَ وَلَدَكِ إليهم، فَعِنَايَةُ الله مُصَاحِبَةٌ لَكِ في كُلّ أحوالِكِ.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾:

**السَّرِيُّ**: الْجَدْوَلُ الْجَارِي من الماء، والنَّهْرُ الصغير، فَقَد فَجَّرَ الله عزَّ وجلَّ مِنْ تَحْتِهَا عَيْنَ ماءٍ، تَجْرِي جَدْوَلاً صافِياً، وهذا الماءُ لم يَكُنْ في المكان قَبْلَ أَنْ يَأْتِيهَا الطَّلْقُ، إنَّما أجْراه الله كرامةً لِمَرْيم عليها السلام.

• ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾:

**جِذْعُ النَّخلَةِ**: ساقُها، والمعروف أنّ سَاقَ النخْلَةِ لا يَهْتَزُّ، لِأَنَّهُ صُلْبٌ

ثابِت، فَدَلَّ هٰذا القولُ على أنَّ النَّخْلَةَ ما زالَتْ صغيرة لَدْنَةً قابِلَةً لأَنْ تَهْتَزّ، ومِثْلُ هٰذه النخلَةِ الصغيرة لا يَكُونُ فيها ثَمرٌ عادةً.

فَدَلَّ هذا على أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ أكْرَمَهَا، فَأَخْرَجَ لَهَا مِنْ هذه النخلَةِ الصغيرة ثمراً، فَهِيَ بالْهزّ تُسَاقِطُ رُطَباً جَنِياً.

**الرُّطَبُ**: نَضِيجُ الْبُسْر، قَبْلَ أن يَصِيرَ تمراً، وذٰلِكَ إذا لانَ وحَلَا، أو هو ثَمَرُ النَّخْلِ إذَا أدْرَكَ وَنَضِجَ قَبْلَ أنْ يَصِيرَ تَمْراً.

**الْجَنِيُّ**: هو ما جُنِيَ لسَاعَتِهِ من كُلِّ ثَمَرٍ، وهو أجْوَدُ ما يكونُ الثَّمَرُ، إذْ كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ الوقْتُ تَنَاقَصَتْ فيه عناصِرُ من منافِعه.

وقد حقَّقَ عُلماءُ الطّبّ والْغِذَاء أنَّ الرُّطَبَ الْجَنِيَّ أَحْسَنُ ما تتغذَّىٰ به الوالِدَةُ، بَعْدَ أنْ تَضَعَ وَلَدَهَا، وتَفْقِدَ كَثِيراً من دَمِهَا.

وكان تفجير السَّرِيّ لها بخَارِقٍ للعادة، وإخْراجُ الرُّطب الجَنيّ لها مِنْ نَخلَةٍ لَمْ يَكُنْ بها ثَمرٌ، من إكرام الله لها، وعنايَتِهِ بها، ولِتَثْبِيتِها تُجاهَ مَا سَيَجْرِي لها بَعْدَ ذَلِكَ مع قَوْمِها.

- ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾:

إنَّ الوَلَدَ الجميلَ عيسَىٰ الذي تعلَّقَ قَلْبُ أُمِّهِ به، قَدْ كَانَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهَا، فقال لها المَلَكُ المُشْرِفُ على وِلَادَتِهَا: ﴿فَكُلِى﴾: أي: من الرُّطب ﴿وَٱشْرَبِى﴾: أي: من مَاءِ السَّرِيّ ﴿وَقَرِّى عَيْنًا﴾: أي: بوَلِيدكِ العظيم، فكُوني سعيدةً به راضيةً مَسْرُورَة.

يُقال لُغَةً: قَرَّتْ عَيْنُ فُلان: أي: بَرَدَتْ، وقد اسْتعْمِلَ هٰذا التعبيرُ كِنَايَةً عن السُّرُور والرِّضا.

ونفهم من لوازم العبارة السَّابقة واللاحقة أنَّ المَلَكَ قال لها أيضاً: واحْمِلي وَلَدَكِ واذْهَبِي به إلى قومك.

• ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾:

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾: «إمَّا» شَرْطِيَّة، مؤلّفةٌ من «إنْ» الشرطية و«ما» الزائدة، لتأكيد لفظ الشرط. والنُّون في ﴿تَرَيِنَّ﴾ نونُ التوكيد الثقيلة.

والمعنى: فإن شاهَدْتِ أحداً من الْبَشَرِ وسَألَكِ ما هٰذا الولَدُ الذي تَحْمِلينَ، فقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾

أي: إنّي نَذَرْتُ للرَّحْمٰنِ صَوماً عن الطَّعَامِ والشَّرابِ ومكالَمةِ الناس، فَلَنْ أكَلِّمَ الْيَوْمَ إنْسِياً.

ويظهر أنّ الصَّوْمَ عَنْ مُخَاطَبَةِ النَّاسِ مع الصَّوْمِ عن الطَّعَامِ والشراب، قَدْ كانَ من الأمور الّتي تَجِبُ بالنَّذْرِ في أحكام شريعَتِهم.

**أقول**: لماذَا تتكَلَّمُ وتُدافِعُ عَنْ نَفْسِها وَبَراءتِها من الإِثم، فَلَنْ يُصَدّقها قومُها، لَكِنَّ طِفْلَها الرَّضيعَ سَيُنْطِقُهُ الله، وسَيُعْلِنُ براءة أُمّه، وسيُبَيّن لهُم وظيفَتَهُ المستقبليَّة في الناس.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ في سورة (مريم) أيضاً:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾:

## القراءات:

(٣٠) • قرأ حمزة [آتانِي الكِتَابِ] بإسْكَانِ ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالْفَتْحِ.

وسبق عدّة مرّات بيان أن إسكان ياء المتكلم وفتْحها وَجْهان عَرَبيّاً.

## التدبّر:

• ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾:

إنَّ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلام لمَّا انْتَهَتْ من وَضْعِهَا وَلَدَهَا الذي كان آيَةً خارقة، وسَكَنَتْ واطْمَأَنَّتْ، وذَهَبَ عَنْها الْحُزْن، ورأَتْ آيَاتِ رَبّها، إكْراماً لها بِجَدْوَلِ الماء الجاري، وبتَسَاقُطِ الرُّطَبِ عليها بهَزِّ نَخْلَةٍ صَغِيرَةٍ لَمْ يَكُنْ بِهَا ثَمَر، وبخِطَاب الملَكِ لَهَا كَيْفَ تَفْعَلُ إذا خاطَبَها أحَدٌ من النّاس، وعَرَفَتْ أنَّها مُكَلَّفَةٌ مِنْ رَبِّها أنْ تُشْهِرَ آيَاتَهُ بحملها بولَدِها من غير أن يعاشرها أَحَدٌ من الرّجال معاشرةَ الأزواج، وآيَتَهُ بولَدِهَا الّذِي سَيُكَلِّمُ النَّاسَ وهُوَ في المهْدِ صبيّ، وسيَكُونُ نبيًّا ورَسُولاً.

إنَّها لمَّا اطْمَأَنَتْ هٰذهِ الطُّمَأْنِينَة، امْتَلأَت نَفْسُها حتى أعماقِ فُؤادِها جُرْأَةً وشجاعَةً، بأنْ تُواجِهَ المواقفَ الصعْبَة بثباتٍ ورَبَاطَةِ جَأْشٍ، وثِقَةٍ عظيمة بالله عزّ وجلَّ، فَحَمَلَتْ وَلَدَهَا عيسَىٰ عليهما السلام بشجاعةٍ وثباتٍ، وتَحَدٍّ لمخاوفِ اتّهامِهَا بالفاحِشَةِ، ثقةً مِنْهَا بِأَنَّ اللّهَ سَيُبَرِّئُها، وسيَجْعَلُ لَهَا شأناً يُذْكر، وأَتَتْ به قَوْمَها تَحْمِلُه، وقَوْمُها يَعْلَمُونَ أَنّها غَيْرَ ذَاتِ زوج.

• ﴿قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝٢٧﴾:

أي: لمَّا وَصَلَتْ إلىٰ قَوْمِها تَحْمِلُ وَلَدَهَا الآيةَ الرَّبَّانيَّة، عَظُم عِنْدَهُم أَمْرُهَا حَامِلَةً ولَداً لَهَا، وهي غَيْرُ ذاتِ زَوْجٍ، فقالوا لها هذا القول:

﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾: أي: لقَدْ جئتِ شيئاً عجيباً غَيْر مُتَوَقَّع الْحُدُوث.

**الْفَرِيُّ**: هُوَ في اللُّغَة الأمْرُ العجيب المستَغْرَبُ. **جئْتِ شَيْئاً**: أي: عَمِلْتِ وفَعَلْتِ شَيْئاً.

وهذه العبارة تَصْلُح لمعنَيْين:

**المعنىٰ الأول**: استغرابُ الحدَثِ بذاتِه، معَ مُلَاحظَةِ بَراءَتِها وعَدَم اتِّهَامِها بالبغاء، وهٰذا يَكُونُ مِنْ قِبَلِ الَّذِين لم يظُنُّوا بها إثْماً، فقالُوا: لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً عجيباً من أحداث الدهر.

**المعنى الثاني**: التَّعَجُّبُ مِنْ أَمْرِها كيف تَقَعُ في الإثم، وترتَكِبُ الفاحِشَة، وهذا المعنى يكونُ مِنْ قِبَلِ الَّذِينَ وَجَّهُوا لها الاتّهامَ بارْتِكابِ الإثْم، الَّذِي نشأ عَنْهُ انعقادُ الْوَلد، سواءٌ وَجَّهُوهُ لها بِصَرِيحِ أقْوالهم، أم بمعارِضِيهَا، أم تَحَدَّثُوا به في أنفسهم، فقالوا لها: لَقَدْ جِئْتِ شيئاً عجيباً، وأمْراً مستَنْكراً غرِيباً، وذلك لأمْرين:

**الأمر الأول**: أنّ مِثْلَ هذا العمل لا يُعْرَفُ في سلوك القانتين والقانتاتِ، المنقطعين والمنقطعات للتَّبَتُّلِ والعبادة لله عزّ وجلّ، حتّىٰ صَارَ يُشَارُ إليك بالبنان، وتُذْكَرِينَ بأنَّكِ في قُنُوتِك وعباداتك لربِّكِ أُخْتُ (أي: مِثْلُ) هارُونَ المتعَبِّدِ القانِتِ المنقَطِعِ للعبادة، والرّجلِ التَّقِّيِّ البارّ الوَرِعِ الصالح. وقد كان هذا رجلاً مَعْرُوفاً في عَصْرِها بأنَّهُ تَقِيٌّ بَارٌّ مُحْسِن.

**الأمر الثاني**: أنّ مِثْلَ هٰذا الْعَمَل لا يُعْرَفُ من امرأةٍ أَبَوَاهَا عَفِيفَان شَرِيفَان.

ويظهر هٰذان الأمرانِ من قَوْلِهم التالي لها:

- ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ﴾: امْرأَ فِعْلِ ما يقْبُحُ ويَشِينُ صاحِبه.

يقالُ لغة: رَجُلُ سَوْءٍ، أي: يفْعَلُ القَبائِحِ والمنْكَراتِ.

﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾: الْبَغِيّ: المرأة الفاجرةُ الَّتِي تتكَسَّبُ بفُجُورِها.

الذي يظهر لي أنَّ قَوْمَ مريمَ عليها السّلام كانُوا في شأنها فرِيقين:

- فرِيقاً يُبَرِّئُها، ويَتَعجَّبُ من الظاهرة بذاتها.
- وفريقاً يتَّهِمُهَا، ويَتَعَجَّبُ من ارْتكابها الفاحشَة.

فجاء في القرآن الكريم، اسْتِخْدَام العبارة: ﴿لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾ بمعْنَيَيْن، وهٰذا من روائع الإبداع في الإيجاز.

فماذا فَعَلَتْ مَرْيم عليها السّلام، تجاه هذا الموقف الصَّعب؟.

- ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ۝٢٩﴾؟

لمّا واجَهَها قومها بما واجهوها به من قول، أحالت الجواب على ولَدِها بأسلوب الإشارة.

﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾: أي: كلّمُوهُ فإنّه يُجيبُكُمْ، وتعلَمُونَ منْهُ الحقيقة.

﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾: أي: إنَّ طِفلاً حَدِيث الولادة من غَيْرِ الممكن أنْ يفْهَمَ السُّؤَال إذا سَأَلْنَاهُ، ومن غير الممكن أنْ يجيب عليه.

لكِنَّ مَرْيم عَلْيها السَّلام كانت مطمئنَّةً إلَىٰ أنَّ الله عزّ وجلّ سيَخْرِقُ العادَةَ في «عِيَسىٰ» ولَدِها، فيَجْعَلُه يَفْهَمُ سُؤَالَهُمْ ويجيبُهُمْ، ويكونُ بذٰلِكَ بُرْهَانٌ على براءة أُمّه، وأنّ حَمْلَ أُمِّهِ بِهِ قد كان آيةً من آيات الله جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانه.

فوجَّهُوا الكلامَ للطِّفْلِ عيسَىٰ علَيْهِ السّلامُ سائِلِين، فأجابهم:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾.

دَلَّ هذا البيان على أن الطفلَ الرَّضيعَ حديثَ الولادة عِيسَىٰ عليه السَّلام قد أجابَ الْقَوْمَ بثَمَانِي فِقَرَاتٍ، كُلٌّ واحِدَةٍ منْها ذَاتُ دلالَةٍ خاصَّةٍ لا تَصْدُرُ إلّا عن رَاشِدٍ نبيٍّ رسُول.

**الفِقَرَةُ الأُولَىٰ**: دَلَّ عليها: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾: بهٰذِه الجملة أكَّدَ لَهُمْ أنَّهُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّه، وعَبْدٌ من عباده، وَجاء فيها التوكيد بمؤكَدَيْن: «إنَّ ـ والجمْلَة الإسميّة».

والغرضُ من هذا البيان المؤكّد أن لا يَسْبِقَ إلىٰ تَوَهُّمَاتِ صِغَارِ العقُول منْهُم أنَّه ابْنُ اللَّه، كما حدَثَ فيما بَعْدُ، إذْ صارَ هٰذا التوهُّمُ عَقِيدَةً لدَىٰ كَثِيرٍ مِنَ المنْتَمِينَ إلَيْهِ، وتَقْلِيداً سَخِيفاً باطِلاً متَّبَعاً.

**الفِقَرَةُ الثّانية**: دَلَّ علَيْها: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: أي: قضَىٰ بأَنْ يُؤْتِيَنِي الكِتَابَ الَّذِي سَيُنْزِلُهُ عليّ، حِينَما يَبْعَثُنِي رَسُولاً، وظَهَرَ فيما بَعْدُ أَنَّهُ الإنْجِيل.

**الفقرة الثالثة**: دَلَّ عليها: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾: أيْ: وقضَىٰ بأَنْ يَجْعَلَنِي نَبِيًّا منْ جُمْلَةِ الأنْبِيَاء، الَّذِين اخْتَصَّهُمُ اللَّهُ بالوحي إليهم.

**النبيُّ**: هو مَنْ أوحَىٰ اللَّهِ إلَيْهِ بوسيلَةٍ من وَسَائل الْوَحي الْعِلْمِيِّ والكلاميّ، ومنْه أن يُرْسل لَهُ رَسُولاً من الملائكة، فيبَلِّغَهُ عن الله ما أراد الله إعلامَه به، ولا يُشْتَرَطُ في النبيّ أنْ يَبْعَثَهُ الله رَسُولاً لأمَّةٍ ما، ولكِن اصطفاه الله للنُّبوّة.

**الرَّسُول**: هو نبيٌّ كلَّفَهُ اللَّهُ أنْ يَحْمِلَ رِسالةً للنَّاسِ، ويُؤَدِّيَها إليهم كما أمَرَه الله.

**الفِقَرَة الرابعة**: دلَّ عليها: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾:

**البركة**: النَّماءُ والزِّيَادَةُ من كلِّ خَيْرٍ بمَدَدٍ غَيْبِيٍّ.

**والمبارَكُ**: هو الّذي جعَلَ اللَّهُ فيه أو بِسَبِبِهِ النماءَ والزيادَةَ من الخيرات.

**[أينما]**: اسْمُ شَرْطٍ يجزمُ فِعْلَيْن، وهو ظَرْفُ مكان، والمعنى: في أيّ مكانٍ كُنْتُ أكُنْ فِيه مُباركاً بقضاء الله وَقَدَرِه.

وقد كان عيسَىٰ عليه السَّلامُ في حياته مُبارَكاً في كلّ مكانٍ يُوجَدُ فيه، مصحوباً بآياتِ الله ذواتِ الإنْمَاءِ بالخيراتِ الحِسَان.

فقد كان يَمْسَحُ على المرضَىٰ فيشْفِيهم الله، وكانَ يُبارِكُ علَىٰ الطَّعام القليلِ فيأْكُلُ منْه خَلْقٌ كثير ويَزِيدُ الباقي على أصْلِ الطَّعَام الّذي بَارَكَ عَلَيْهِ، ومن عَظِيم نَفْعِه وبَرَكَتِه، أنَّه اهتدى به إلى الله وصراطه المستقيم ضالُّونَ كثيرون.

**الفِقَرَةُ الخامسة**: دلَّ عَلَيْها: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَأَوْصَنِي﴾: أي: وأمَرَني. يقال لُغةً: أوْصَىٰ فُلانٌ فُلاناً بالشيء، أي: أَمَرَهُ به، وفَرَضَهُ عَلَيْه.

﴿بِالصَّلَوٰةِ﴾: أي: وأمَرَني بِعبَادَةِ الصَّلاةِ المشتمِلَةِ على القيام، والرُّكوع، والسُّجودِ، والتلاوات، والأذكار، والدُّعاء.

وهٰذِهِ الصَّلاةُ مَعْرُوفَةٌ في الرِّسَالَات الرَّبَّانيَّةِ السَّابقات، ولا سيما رسالةُ إبراهيم عليه السّلام.

﴿وَالزَّكَوٰةِ﴾: وهي ما يَجِبُ على الإنْسَان المسْلِم لِرَبّه أنْ يَبْذُلَهُ من

ماله للفقراء، وذوي الحاجات والضّرورات، ولمصَالِحِ الدّين ودُنيا الناس.

﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾: أي: مُدَّة دَوامِي في الدُّنْيَا حَيًّا، «ما» مصْدَرِيَّة ظَرْفية، تُؤَوَّلُ مع ما بَعْدَهَا بِمَصْدَرٍ أُضِيفَ إِلَيْهِ الزّمان.

**الفِقْرَة السَّادِسَة**: دَلَّ عليها: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾: أي: وجَعَلَنِي بَرّاً بوالِدَتي، عَاملاً بما يُرْضيها ولو لَمْ تأمُرْني به.

وفي اقتصارِه علَىٰ عبارَة: «وَالِدَتي» إعْلَانٌ منْهُ بأنّ اللّهَ خَلَقَهُ من أُمٍّ فقط، فَهُوَ لَا أَبَ له.

**الفِقْرَة السَّابِعة**: دلَّ عليها: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾:

**الْجَبّارُ**: القاهر العاتي المتسَلِّط القاسي، الّذِي لا يَعْرِف قلبُه الرحمة.

**الشَّقِيّ**: التَّعِسُ الضَّالُّ الّذي يَعْمَلُ الأعمال الَّتي تَجْعَلُهُ يَوْمَ الدّين من المعذَّبينَ في الجحيمِ، الأشقياء بعذابهم.

**الفقرة الثامنة**: دلَّ عليها: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾:

**السَّلامُ من الله**: رَحْمَةٌ من آثارِها السَّلامَةُ والأمْنُ من كُلِّ مَكْرُوه، وتحيَّةٌ مِنْهُ لبَعْضِ عباده.

والسّلامُ من العباد، دُعَاءٌ بالسَّلامَةِ والأمْنِ، وتحيَّةٌ طيّبةٌ.

وقد أوصَىٰ اللّهُ المؤمنين بأنْ يدْعُوا بالسَّلام لعيسَىٰ عليه السلام، وبأن يُحَيُّوهُ بالسَّلام عند ذِكره، وأوصَاهم بأن يُسَلّمُوا سَلَام دُعاءٍ وتحيَّة على سائر المرسلين.

ومعنى الفقرة: والسَّلامُ عليَّ مُوجَّهٌ من الله عزّ وجلّ، ومِن ملائكَتِه، ومن صالِحِي عبادِه، في أوائل وُجوداتي الثلاثة: يَوْمَ ميلادي، ويوم مَوْتي، ويوم بَعْثي.

وهذا السَّلَامُ في أوائل هذه المراحِلِ يومِئُ باستمراره مع كلّ مَرْحَلَةٍ مِنْها حتَّىٰ غايَتِها، أي: والسَّلامُ عَلَيَّ دواماً.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ في سورة (مريم) أيضاً:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾:

هاتان آيَتَان جاءَتَا قولاً مُوجَّهاً من الله عزّ وجلّ للنَّاس، تَعْلِيقاً على واقع حال عيسَىٰ علَيْه السَّلام، ومعترضَتَانِ ضِمْنَ الحديثِ عن اللَّقَطاتِ المختارات من قصة مَرْيم وابْنِها عيسَىٰ عليهما السلام.

**القراءات:**

(٣٤) قرأ ابْنُ عامر، وعاصم، ويعقوب: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ بنَصْبِ لفظ ﴿قَوْلَ﴾ على أنّه حال فيما أرى، والتقدير: ذَلِكَ القَوْلُ الَّذِي نَطَقَ بِهِ عيسَىٰ الطِّفلُ، وهو ما جاءَ في الآيات من (٣٠ ـ ٣٣) هو وَصْفُ عيسَىٰ، حالة كَوْنِهِ قَوْلَ الحق.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [قَوْلُ الْحَقِّ] برَفع لفظ [قَوْلُ] علَىٰ أنَّهُ خَبرٌ ثانٍ لاسم الإشارة: ﴿ذَٰلِكَ﴾. والتقدير: ذلِكَ الوصْفُ الّذِي نَطَقَ بِهِ عِيسَىٰ الطِّفْلُ هو وصْفُ عيسى ابن مريم، وهو قول الحق.

أو هو بَدَلٌ من: ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ الذي هو خبر ﴿ذَٰلِكَ﴾ إذْ هو على تقدير: «ذَلِكَ وَصْفُ عيسَىٰ».

والمعنى: مَا جاء في نُطْقِ عيسَىٰ الطفل هو وصْفُ عيسَىٰ على وجْهِ الحقيقة، لا ما افتراه الذين جَعَلُوهُ ٱبْنَ الله، أو أحَدَ أقَانيم الله الثلاثة.

(٣٥) • قرأ ابْنُ عَامر: [فَيَكُونَ] بالنَّصب على أنّ الفاء سَبَبِيَّة، وأنّ الفِعْلَ منصوبٌ بأن مضمَرَةٍ بَعْدَها.

وقرأ باقي القرّاء العشرَة: ﴿فَيَكُونُ﴾ بالرَّفع، على أنَّ الفاء عاطفةٌ غيْرُ سَببيَّة، أي: فَهُو يكونُ.

وبين القراءتَيْن تكامل في أداء المعْنَىٰ المراد.

**التدبّر:**

• ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾:

المشَارُ إليه باسم الإشارة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ كلامُ عيسَىٰ الَّذِي أَنْطَقَهُ اللَّهُ به، وهو صَبِيٌّ طِفْلٌ في الْمَهْد.

وقد اشتمل هذا الكلام على بَيَانِ أَوْصَافِ عيسَىٰ، كما جاء في الفقراتِ الثمان التي سبَقَ تَدَبُّرُها.

أي: وكلام عيسَىٰ الذي نطقَ به عَنْ نفسه وهو طفل رضيع، هو قَوْلُ الْحَقّ، لَا قَولُ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ ٱبْنُ الله، أو هو جزْءٌ مُنْفَصلٌ مِنْ ذَاتِ الله، أو هو إلَه مع الله، فَكُلُّ هٰذِهِ الأقوالِ بَاطِلَةٌ مفتراةٌ، وأكاذيب مخْتَلَقَات، تَتَبَّعَ فيها مَعْتَقِدُوها الأوهام الّتي ليس لَهَا صِلَةٌ ما بالواقع، بلْ بَيْنَها وَبَيْنَ الحقيقَةِ تَبَايُنُ التناقض.

ويَلْزَمُ من كونه عَبْدَ الله، أَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، فَضَّلَهُ اللَّهُ بِبَعْضِ الصِّفَات، وجَعَلَ تَكوينَهُ ناشئاً من أُمٍّ فقط دُونَ أبٍ، ليَجْعَلَهُ ويَجْعَلَ أُمَّهُ آيَتَيْنِ من آياته.

• ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾: أي: الذي فيه يتجادَلُون مختَلِفين في حقيقَتِه، مع أَنَّهُ في الحقيقة عبْدُ الله ورسُولُه، وكَلِمَتُهُ التكوينيَّةُ أَلْقَاها إلى مَرْيم.

• ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ﴾:

جاءت هذه العبارة في الآيتَيْن المعترضَتَيْن، لبَيَان بُطْلَانِ قول القائلين بشأنِ عيسَىٰ عليه السَّلام، هو ٱبْنُ الله.

وقد جاءت هذه العبارة بصِيغَةٍ كُلّيَّةٍ عامّة، تَشْمَلُ عيسَىٰ وغيرَه، وبصِيغَةِ كَوْنٍ مَنْفِيٍّ، بَعْدَهُ لَامُ الْجُحُود، وأضيفت في العبارة «مِنْ» الزائدة لتأكيد عُمُومِ النفي، والتنْصِيص عليه.

وهذه الصّيغَة تُعْتَبَرُ في اللّسَانِ العربيّ من أبْلَغ صِيغِ النَّفْي وأقْواها.

وَجاءَت عبارة ﴿سُبْحَـٰنَهُۥٓ﴾ بَعْدَ جملَةِ النّفي تُبَيّن وتُؤَكّد تنزيه الله عزّ وجلّ عمّا يفتريه المفترون، من أنَّ لله وَلَداً، انفَصَلَ عَنْ ذاته.

إنّه سبحانه الصَّمَد الذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، ولم يكُنْ له كُفُواً أحد.

ومعنى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥٓ﴾ تنزّهَ عن الْولد وعن كُلّ ما لا يَليقُ بجَلالِهِ وعظيم صفاته.

وتَدُلُّ هٰذه العبارة على أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ مُنَزَّهٌ عن أن يَتّخِذَ ولداً بالتّبَنّي.

لمَاذَا يصْطَفِي اللّهُ لِنَفْسِه مِنْ عباده وَلَداً، وكُلُّ شيءٍ يُريدُه يَقُولُ لَهُ: كُنْ، فَهُوَ يَكُونُ بأمْرِ التكوين فقال تعالى:

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

❀ ❀ ❀

قول الله عزّ وجلّ في سورة (مريم) أيضاً:

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾:

**القراءات:**

• قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبُو جَعْفر، ورُوَيس: **[وَأَنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ]** بفتح همزة «أنَّ» على أنّ الجملَةَ معطوفة في أحْسَنِ ما رأيْتُ من أقوال، على معمول قولِ عِيسَىٰ: ﴿وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي: وأوصاني بأنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوه.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ بِكَسْرِ همزَةِ «إِنَّ» على أنَّ الجملة مُسْتَأْنَفَة.

فالوجهان صالحان، وبينهما تَنْويعٌ بيانيّ، مُتَمَشٍّ علىٰ ما هو جائزٌ في اللّسان العربي.

• وقَرَأ قُنْبُل: [هذا سِرَاط] بالسّين، وهو وجْهٌ عَرَبيٌّ لهذه الكلمة.

وقرأ باقي القرّاء العشَرَة: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ﴾ بالصّاد، وهو وجْهٌ عَرَبيٌّ آخر لنطق الكلمة.

وأشَمَّ خَلَفٌ عَنْ حَمْزَة الصاد زاياً، وهو أيضاً وجه عربِيٌّ آخر لنُطْقِ هذه الكلمة.

**التدبّر:**

قال الطفل: «عيسَىٰ» عليه السّلام في أوّل كَلامِهِ: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ ويَلْزَمُ عقْلاً مِنْ كونه عبْدَ اللّه أنْ يكُونَ اللّهُ رَبَّهُ.

لٰكِنْ أرادَ في آخِرِ القول الَّذي أنْطَقَهُ اللّه به، أو قالَهُ بَعْدَ كِبَرِه وبِعْثَتِه إذْ جاء بَعْدَ الآيتَيْنِ المعتَرِضَتَيْن، أنْ يُعْلِنَ صَراحةً في اللَّفظ أنّ الله رَبُّهُ، وأنَّ رُبُوبيَّة اللّهِ لَهُ يُشَارِكُهُ فيها تماماً الَّذين يُخاطِبُهُمْ من النَّاس، فَهُوَ مِثْلُهُمْ، هو عَبْدٌ لِلّه، وهُمْ عبيدٌ له.

وعبوديَّةُ الْعَبْدِ لِربِّهِ تُوجبُ علَيْه أن يَعْبُدَهُ بالإيمان والدُّعاء والطَّاعة، ولهذا قالَ لهم: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ بَعْدَ أن قال لهم: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾.

إنّ الرّبوبيَّةَ سُلْطَانٌ مِنَ الله مُهَيْمِنٌ على العباد في كل لحظَةٍ وأقَلَّ مِنْها من وُجودهم، فبقاؤهم يَحْصُل بإمداداتِ رُبوبيته لهم، وحياتُهم وموتُهم، وأرْزاقُهُمْ، وصِحَّتُهُمْ ومَرَضهم، وما يُحبُّونَ وما يكرهون، وكلُّ ما يجري فيهم، لهم أو عليهم، أمورٌ محكومةٌ بسُلْطان رُبوبيته لهم، إذْ هم ملكٌ له، وهم عَبِيدُه، ومن حقِّهِ عليهم أن يعبُدوه، ولا يُشْرِكوا بعبادته شيئاً.

ولمّا كانت عبادة الله عزّ وجلّ بكلّ معانيها الاعتقاديّة والسلوكيّة، بالأعمال الباطنة والظاهرة، الجسَديَّةِ والنفسيَّة، فكراً وقَلْباً ومشاعر إراديَّة، ونيَّات، وكلٌّ ما يَخْضَعُ لسلطان إرادة الْعَبْد، هي صراط الله المستقيم الذي لا عِوَج فيه عن الحقّ والخير والفضيلة، جاء في آخِر عبارة عيسَىٰ عليه السّلام:

● ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

وهكذا جدَّدَ عيسَىٰ بكلامه مُنْذُ طفُولَتِه عبوديَّتَهُ لله ربّه، ونُبوَّتَه، وما اختصه الله به من صفات، ومسؤوليته الشخصيَّة تجاه رَبّه، وحدَّد مضمون رسالَته بصيغَةٍ عامّة، هي الصيغة التي سيُبَلّغَها للناسِ حين يَبْعَثُهُ الله رسولاً.

❁ ❁ ❁

قول الله عزَّ وجَلّ في سورة (مريم) أيضاً:

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

**القراءات:**

(٤٠) ● قرأ يَعْقُوب: [**يَرْجِعُونَ**] بفَتْحِ الياء وكسْرِ الجيم على أن الفعل مبنيٌّ للمعلوم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بضمّ الياء وفتح الجيم علَىٰ أن الفِعْل مبنيٌّ لما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُه.

وبين القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ في الأداء البياني، إذِ المعْنَىٰ أنَّهُمْ يُرْجَعُونَ

إلى اللَّهِ يوم الْبَعْثِ للحسَاب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء بخَلْقِ الله، فَهُمْ يَرْجِعُونَ إلى اللَّهِ بطاعَةٍ جَبْرِيَّةٍ نَاتِجَةٍ عن أَمْرِ التَّكْوينِ الرَّبَّاني، ليَتَلَقَّوْا حِسابَهُم، وفَصْلَ القضاء بَيْنَهُمْ، وجزاءهم.

**التدبّر:**

• ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾:

أي: فاختَلَفَ الأحْزَابُ من المنْتَمِينَ إلى الْإِيمَان بعيسَىٰ واتّباعه، الَّذِين قالوا: إنَّا نَصارَىٰ، بشَأْن عِيسَىٰ وأُمِّه، وشأن الرَّبّ جلّ جلاله.

ويُعْجِبُنِي فِي بَيَانِ اختلافِ هؤلاء الأحزاب، ما رواه عبد الرَّزاق، وابْنُ أَبِي حاتم، عَنْ قتادة، قال:

«اجْتَمَع بَنُو إسْرَائيل[١]، وأَخرَجُوا منْهُمْ أَرْبَعَةَ نَفرٍ، من كُلّ قَوْمٍ عَالِمَهُمْ، فَامْتَرَوْا[٢] في عِيسَى حينَ رُفِع.

• فقال أَحَدُهُمْ: هو الله، هبَطَ إلى الأَرْض، وأحْيَا منْ أحْيَا، وأَمَاتَ مَنْ أمات، ثم صَعِدَ إلى السَّماء. وهُمُ اليعقُوبيَّة.

فقال الثلاثة: كذَبْتَ.

ثُمَّ قَالَ اثْنَانِ مِنْهُمْ للثالث: قُلْ فيه.

• فقال: هو ٱبْنُ الله، وهم النَّسْطُورِيَّة.

فقال اثْنَانِ منْهُم: كَذَبْتَ. ثُمَّ قَالَ أَحَدُ الاثْنَيْنِ لِلْآخَر: قُلْ فيه.

• فقال: هُو ثَالِثُ ثلاثَة، اللَّهُ إلَه، وعِيسَىٰ إلَه، وأُمُّهُ إلَه، وهُمُ الإسْرَائِيلِيَّة، وهُمْ مُلُوكُ النَّصارىٰ.

---

(١) أي: الذين اتبعوا عيسىٰ من بني إسرائيل.

(٢) **فامْتَرُوا**: أي: فتجادلوا.

● فقال الرابع: كذَبْتَ، هو عَبْدُ اللّهِ وَرَسُولُهُ، ورُوحُهُ مِنْ كَلِمَتِه، وهُمُ المسْلِمُونَ (أي: من النصارى).

فكان لكلّ رَجُلٍ منْهُمْ أتْبَاعٌ على ما قال، فَاقْتَتَلُوا، فظهروا علَىٰ الْمُسْلِمِينَ، فذَلِكَ قولُ الله سُبْحَانه:

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1].

قال قتادة: وهم الذين قال الله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾.

قال: اخْتَلَفُوا فيه، فصاروا أحْزاباً، فَاخْتَصَمَ الْقَوْم.

● فقال المرْءُ المسْلِمُ: أنْشُدُكُمْ بالله، هَلْ تَعْلَمُونَ أنّ عِيسَىٰ كانَ يَطْعَمُ الطَّعَامَ، وأنَّ اللَّهَ لَا يَطْعَمُ؟ قالوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

قال: فَهَلْ تَعْلَمُونَ أنَّ عيسَىٰ كانَ ينامُ، وأنَّ الله لا ينامُ؟. قالُوا: اللَّهُمَّ نعم.

فخصَمَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، فَاقْتَتَلَ القوم.

قال قتادة: فَذُكِرَ لَنَا أنَّ اليَعْقُوبيَّةَ ظَهَرتْ وأُصِيبَ المسلمون، فأنزل الله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قول الله تعالى في النصّ:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾:

**وَيْلٌ**: كلمةُ عَذَاب، وفيها معنى وَعِيدِ اللّهِ بحلُول عقابه فيهم.

وورَدَ أنّ كلمة «وَيْل» اسْمُ عَلَمٌ على وادٍ في جهنم.

أي: فعذابٌ شديدٌ مؤلِمٌ موجعٌ للّذِين كَفَرُوا جميعاً، ومنْهم الّذِين

---

(١) الآية (٢١) من سورة (آل عمران).

كفَروا مِنْ أهل الكتاب اليهود والنّصارىٰ. وهذا الْعَذَاب يَحْصُل لهم من شُهُودِ يَوْمٍ عظيم يشْهَدُونَهُ، وهو يوْمُ الدّين.

﴿مَّشۡهَدِ﴾: مصْدَر ميميّ بمعنىٰ الشُّهود، وهو الحضورُ في الدار الآخرة يوم الدّين.

وقد أُسْنِدَ حصُولُ العذاب لهم، إلى أَنَّهُ يكُون من حُضُورِ وَشُهُودِ يَوْمٍ عظيم، هو يوم الدين، لأنَّ شُهُودَهَم لِهَذا اليوم يَسْتَتْبِعُ مُحَاسَبَتَهُمُ الّتي تكُونُ فيه، وفَصْلَ القضاء بشأنهم، ويَسْتَتْبِعُ مجازَاتَهُمْ بالعذاب في دار العذاب، فهو من إطلاق الحدَثِ على ما يلْزَمُ عَنْهُ من أمُورٍ وأحداثٍ أخرى.

فحضور الكافرين في هذا اليوم، يلْزَمُ عنه مُحَاسَبَتُهم، وفَصْل القضاء بشأنهم، ثم يكونُ إنزال عذاب الله فيهم على كُفْرِهم، إذْ جَعَلَ الله عزّ وجلّ يَوْمَ الدّين، هو الْيَوْمَ المخصَّصَ بحِكْمَتِه تعالىٰ، لتحقيق الجزاء الأوفَىٰ.

- ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا﴾:

أي: مَا أشَدَّ سَمْعَ الْكَافِرِينَ وَما أَشَدَّ بَصَرَهُمْ، يَوْم يَأْتُونَنَا للحسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء.

جاء التعبير بضَمِيرِ المتكَلّم العظيم الرَّب جلَّ جلالُهُ، لأنّ مَوْقف الحساب بين يَدِي الله يوم الدّين مَوْقِفٌ رَهِيبٌ، تَنْخَلِعُ مِنْهُ قُلُوبُ الجبارة، لأنّ الجبَّارَ الْقَهَّارَ بصِفَةِ جَبَرُوتِه، وصِفَةِ قَهْرِهِ يحاسِبُ الكَفَرَة المجرمين.

﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ﴾: كُلٌّ من الْفِعْلَيْن من صِيَغِ التَّعجُّبُ، أي: وأبْصِرْ بهم. قالوا: صِيَغَةُ «أفْعِلْ» من أفْعِلْ به، صيغَةُ أمْرٍ، ومعناها الْخَبَر. أي: سَمْعُهم يَوْمئذٍ شديد، وبَصَرُهم شديد.

وهَذا يكونُ في بعض مواقفهم يوم الدّين، وفي بعض أحوالهم فيه. بينما يكونُون في مواقف وأحوال أخرى عُمْياً وَخُرْساً، واختلاف النصوص القرآنية في هذا يَدُلُّ على اختلاف المواقف والأحوال.

• ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾:

لقد اسْتَدْعَىٰ ذكْرُ شِدَّةِ سَمْعِهِمْ، وشدّةِ بَصَرِهم حينَ يأتُونَ ربَّهم لموقف الحساب وفَصْلِ القضاء، وصْفَ حالهم المناقِضِ لذلِكَ في الحياة الدّنيا، فجاء بيَانُ هٰذا الوصْفِ على طريقَةٍ مشابهة للاستدراكِ باستعمال حرف «لَكِنْ» الذي هو حرف ابتداء لإفادة الاستدراك.

فَهُمُ اليوْمَ في الحياة الدُّنيا صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ، إلّا أنّ هذا المعنىٰ لَمْ يَأْتِ بتَعْبِيرٍ مُبَاشر، إنَّما جاء بتعبير غير مباشر، وهذا التَّعبير غير المباشر يُفْهَمُ منه باللُّزوم العقْلِيّ أنَّهُمُ الْيوم في الحياة الدُّنيا صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ، فَهُو من الكِنَاياتِ الجميلات في التعبير البياني.

إنَّهُم اليومَ في ضلالٍ مُبِينٍ، ولا يَكُونُ في ضَلَالٍ مُبَينٍ، إلّا مَنْ كانَ أصَمَّ أعْمَىٰ مِنْطَمِسَ الحواسّ، الَّتي تُقَدِّمُ للفِكْرِ أَجَلَّ المعارف.

أي: لَكِنِ الظالمون مُسْتَقِرُّون في ضلالٍ مُبينِ الْيَوْمَ في الحياة الدُّنيا، إذْ هُمْ مِنْطَمِسُو الحواسّ، عن إدْراكِ الحقائق ذاتِ الصِّلَةِ بيومِ الدِّين، وإنْ شاهدوا وعَلِمُوا كثيراً من ظواهِرِ الحياة الدُّنيا.

وسبَبُ انطماس حواسّهم أنَّهُمْ ظالمونَ، متجاوزون لحدُودِ الحقّ والخير بإراداتهم الحرَّة، لا أنَّهُمْ مفْطُورُونَ على ذلك.

وضع الاسم الظاهر: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بَدَل الضّمير للإشعار بأنّ الكافرين يَدْخُلونَ في عموم الظالمين.

• ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾:

أي: وأنذرْهُمْ أيُّها الرَّسُولُ، وأيُّها الداعي إلى الله من أمَّتِه عذابَ يَوْمِ الحسْرَةِ، حِينَ قُضِي بِعذاب الظالمين بسبب ظلمهم.

اسْتُعْمِلَ الفعلُ الماضي في عبارة ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ مع أنّه ممَّا سَوْفَ يَحْدُثُ في المستقبل، للدلالة على تحقُّق وقُوعِه، فكأنَّهُ قد وقَعَ فِعلاً.

وقد نُزّل ما سوف يكونُ من قضاء الله عزّ وجَلَّ بَيْنَ العباد يَوْمَ الدّين، منزلة الشيْءِ الَّذي قُضِيَ فعلاً، ولهذا صَحَّ إبدالُ ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ من ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾.

**الحسْرَة**: التأسُّفُ والحزْن.

ويومُ الحسْرَة، من أسْمَاءِ يَوْم الدّين، لأنَّ النَّاس يتحسَّرُونَ فيه على ما فاتَهُمْ في الحياة الدُّنيا من عمل صالح لم يَعْمَلُوه، ويتحسَّرُونَ فيه على ما ارْتَكَبُوا مِنْ قبائِحَ وَسَيِّئَات.

• ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

أي: وأنْذِرْهُمْ وحَالُهُمْ الْيَوْم أنَّهُمْ في غَفْلَةٍ، قَدْ حُجِبتُ أسماعُهُمْ عن سَمَاع بيانات الْهُدَىٰ، وحُجِبَتْ أبْصَارُهم عَنْ رُؤيَةِ آيات الله، بغِشَاواتِ أهوائهم وشهواتهم.

﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: وهُمْ لَا تُوجَدُ في قُلُوبهم الدَّوافع لأن يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبلاً، بسَبَب اسْتِغْرَاقهم في غفلاتهم.

• ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

هذه الآية هي مِسْكُ ختام هذا الدَّرْس الثاني من دروس السورة، وهي آيَةٌ تتعَلَّقُ بركْنِ الإيمان بقانون الجزاء الأكْبر المؤجّل إلى يوم الدين.

وفي هذه الآية يتحدَّثُ الرَّبُّ جلَّ جلالُهُ بضمير المتكلّم العظيم، في أرْبعة مواضع: ﴿إِنَّا﴾ و﴿نَحْنُ﴾ و﴿نَرِثُ﴾ و﴿إِلَيْنَا﴾ لأنَّ الموضوع جليلٌ

وعظيم، يتعلّقُ بإنْهاء ظروف الحياة الدنيا، وإيجاد ظروف الحياة الأخرىٰ، ويتجلَّىٰ فيه سُلْطَانُ الرُّبوبيَّةِ وحْدَه، وتَسْقط فيه المِلْكِيَّاتُ الصُّورِية، وَيَرِثُ اللَّهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

أي: لا يَبْقَىٰ لها مالِكٌ غَيْرُ الله المالكِ الحقيقيّ لها دواماً، وانْفِرَادُ الله عزّ وجلَّ بِمِلْكِيَّتِها يَوْمئذٍ شُبِّهَ بالميراث.

إنَّهُ بَعْدَ مَوْت الخلائق، وانْتِهَاء مُدَّة البرْزَخِ الْفَاصِلِ بيْنَ الحياة الأولى، والحياة الأخْرَىٰ، يُرْجَعُ النَّاسُ إلى بارئِهِمْ بالخلْقِ الجبْريّ، لمحاسبتهم على ما قدّمُوا وأخَّرُوا في رِحلة الحياة الدُّنيا حياة الامتحان، وبَعْدَ مُحَاسَبَتِهِمْ يَفْصِلُ اللَّهُ عزّ وجل القضاء بشَأْنِ كُلِّ مُكَلَّفٍ فيهم، وبَعْدَ ذَلِكَ يجازي اللَّهُ كُلًّا بحَسَبِه، بالْعَدْلِ أوْ بالْفَضْل.

❁ ❁ ❁

**سابعاً:**

وبيْنَ مَرْحَلَةِ طُفُولَةِ عيسَىٰ عليه السَّلام، وبِعْثَته نبيًّا رسولاً، لَا نَجِدُ في القرآن إلَّا خَبَر أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ آواه وأمَّهُ إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ ومَعِين. فقال الله عزّ وجلَّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾.

**القراءات:**

- قرأ ابْنُ عامر، وعَاصِم: ﴿رَبْوَةٍ﴾ بفَتْحِ الرَّاء.

وقرأها باقي القراء العشرة [رُبْوَة] بضَمّ الرَّاء.

وهُما وجْهَانِ عَرَبيَّانِ لنُطْق هذه الكلمة، الدّالّة على كُلِّ ما ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ وَرَبَا.

**التدّبر:**

• ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾: أي: وجعَلْنَاهُمَا بألْطَافِ مَقَادِيرِنا يَأْوِيَانِ إلى رَبْوَةٍ، أي: إِلَىٰ مكانٍ مُرْتَفِعٍ نَقِيّ الرِّياح، حَسَنِ الإقامة.

•﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾: أيْ ذَاتِ مَكَانٍ صَالِحٍ للسَّكَنِ والطّمَأْنينَةِ والْإِقَامَة الطويلَةِ والاسْتِقرار.

• ﴿وَمَعِينٍ﴾ أي: وَذَاتِ مَاءٍ جارٍ مُتَجَدِّد. يُقَالُ لُغَةً: مَعَنَ الماءُ، أي: سَهُلَ وسَالَ وَجرَىٰ، فَهُوَ مَعِينٌ.

وقَدْ جاء في بيان مَوْضِعِ هٰذِهِ الرُّبْوة عِدَّةُ أقوال:

(١) قيل: هو في دمشق.

(٢) وقيل: هو الرَّمْلَةُ من فلَسْطِين.

(٣) وقيل: هو في مصر، وهذا القولُ يوافِقُ مَا جاءَ في الإنْجيل المنسوب إلى «متّى» وفي الإنْجيلِ المنسوب إلى «بَرْنَابَا» في قصّةٍ أورَدَاها وهي تتلخَّصُ بما يلي:

أمَرَ «هِيرُوس»[1] بقَتْلِ كُلّ طفلٍ ببيْت لَحْم، فَأُمِرَ يُوسُفُ النَّجَّارُ في منامه بأنْ يَذْهَبَ بالطّفْلِ وأُمّه إلى مصر، فذهَبَ بهما إليها، وأقاموا بِها إلى أنْ هلَكَ «هيرُودِس».

ولمَّا بلَغَ «عيسَىٰ» من العُمْر سبْع سنين، رَجَعَ مع أمّه إلىٰ الناصرة، ولمَّا بَلَغَ اثْنَتَيْ عشْرَةَ سنة من عمره، سافَرَ مَعَ أُمّهِ إلى بَيْتِ المقدس، ودخَلَ وَسَطَ العلماء، وصارَ يُحَاجُّهُمْ في النامُوس[2] (وهو الشريعة التي وضَعَها مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام بَوَحْيٍ من الله).

---

(١) هو «هيرودس» الكبير مَلِك فلسطين بموافقة رُوما، والذي وُلِدَ عيسَىٰ عليه السّلام في أواخر أيامه، وقد أمر بقتل جميع الأطفال في بيت لحم، حتَّىٰ لا ينجو ابن داود، ولا يملك على اليهود ويتربَّع على عرشه، «أخذاً من قاموس الكتاب المقدّس».

(٢) كلمة ناموس: يونانيّة الأصل معناها «شريعة أو قانون».

**ثامناً:**

ولا نجدُ في القرآن الكريم ما يتحدَّثُ عن فُتُوَّةِ عيسَىٰ عليه السلام: ولَا عَنْ شبابه.

لكن نجد فيه ما يَدُلُّ على دَعْوَتِه بَعْدَ بعثَتِه، وتَبْلِيغِه رِسالَةَ رَبه، وكان حينئذ كَهْلاً، قد بلغ الثلاثين من عمره.

فنجدُ في سورة (آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول) لقطاتٍ تتعلَّقُ ببِعثَتِه، ودَعْوته في قومه، وهي في الآيات من (٤٩ ـ ٥١).

قالَ اللَّه عزّ وجلّ فيها:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾:

**القراءات:**

(٤٩) • قرأ نافع، وأبو جعفر: [إِنِّيَ أَخْلُقُ] بِكَسْرِ همزَةِ «إِنَّ» وفَتْح ياء المتكلّم.

وقرأ ابنُ كثير، وأبو عَمْرو: ﴿أَنِّىَ أَخْلُقُ﴾ بفتح همزة «أَنَّ» وفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أَنِّيْ أَخْلُقُ] بفتح همزة «أَنَّ» وإسْكان ياء المتكلم.

وهٰذه القراءات وُجوهٌ عَرَبيَّة جائزةٌ، لا يختلف بها المعنى المراد.

(٤٩) • قرأ أبو جعفر: [كَهَيَّةِ الطَّائِرِ] بقلب همزة «هيئة» ياءً، وإدْغامِهَا في الياء قبلها، فصارت ياءً مُشَدَّدة، وهي لهْجَة عَربيَّةٌ في نُطْق الكلمة. وبالمفرد في «الطائر».

وقَرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾.

**الطَّائر**: مفرد، ويجوز أنْ يَكُونَ اسْماً للْجَمع، كما قال الفارسي، فهو بهذا مُسَاوٍ للطَّيْر.

**وَالطَّيْرُ**: جمع، أي: كَهَيْئَةِ الطيور.

فالقراءتان مُتكافئتان في الدلالة على المعنى المراد، أي: كَهَيْئَةِ الطيور فتكونُ طيوراً.

(٤٩) • قرأ نافع، وأبو جَعْفر، ويَعْقُوبِ: [فَيَكُونُ طَائِراً].

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [فَيَكُونَ طَيْراً].

والقراءتان وجهان عربيان جائزان، فالنصبُ على أن الفاء سببيَّة، والرفع على أنّها عاطفة.

(٤٩) • قرأ ورْشٌ، وأبو عمْرو، وحفْصٌ، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿فِى بُيُوتِكُمْ﴾ بضَمّ الباء.

وقرأ باقي القراء العشرة: [في بِيُوتِكُمْ] بِكَسْرِ الباء.

ضمّ الباء وكَسْرُها من «بيوت» لغتان عربيّتان.

(٥٠) • قرأ يعقوب: [وَأَطِيعُونِي] بإثبات ياء المتكلّم وصلاً ووقْفاً.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ بحَذْف ياء المتكلم وتقديرها ذهناً وصلاً ووقفاً.

والقراءتان وجهان عربيان جائزان.

(٥١) في كلمة ﴿صِرَٰطَ﴾ وجوهٌ عندَ القُرَّاء، تنطَقُ بالصّاد، وبالسّين، وبالصّاد المشمومَةِ صَوْتَ زَاي.

**تمهيد:**

جاء في هذا النصّ بيانُ أنّ عيسَىٰ عليه السّلام، قَدْ بعَثَهُ اللَّهُ رسُولاً إلى بَنِي إسرائيل، أي: هُم المخاطَبُونَ الأَوَّلُونَ من الناس برسالته، إذْ كانت رسالتُه عامَّةً للنّاس، لكّنها تَنْتَهِي بِبِعَثَةِ محمّدٍ ﷺ، فخُصُوصِيَّتُها خُصُوصِيَّةٌ زَمَانيّة، لا خُصُوصيَّةٌ بقَوْمٍ دون قَوْمٍ.

واشتمَلَ هٰذا النّصّ على تلخيصٍ لرسالَتِه، وبُرْهَانِ صِدْقِه في أنّه نبيُّ اللَّهِ ورسُوله.

**التدبّر:**

• ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: هذه العبارة من تَوابع قول الملائكة لمريمَ عليها السّلام، حينَ بشَّرُوها بعيسَىٰ عليه السلام.

أي: ويَبْعَثُهُ رَسُولاً إلى بَنِي إِسْرَائيلَ الضَّالّين، بَعْدَ أَنْ يجعلَهُ نبيًّا بالْوَحْي إليه.

• ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

**الآية:** هي العلامة، والعلامةُ على صدْق الرَّسُول لا بُدَّ أَنْ تَكُونَ معجزةً خارقَةً للعادة.

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: أي: لا مِنّي، وفي هذا البيان تبرُّؤٌ مِنْ كونِه هُوَ الّذِي يُجْرِي الآيَة. بل رَبُّهُمْ هو الذي يجريها له، دليلاً على أَنَّهُ صادقٌ فيما يُبَلّغ عنه.

وهٰذه الآية الإعجازية لَهَا خَمْسُ ظَواهِرٍ دَلَّ عليها النصّ:

**الظاهرة الأولى**: دلَّ عليها: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾:

**الْخَلْقُ**: يأتي في اللُّغَةِ بمعْنَىٰ التقدير، وهو إعطاء أجزاء الشَّيْءِ مقاديرَها. وهذا هو المراد هنا في النصّ، فمعنى «أخْلُقُ» هنا: أُقَدِّرُ وأُصَوِّرُ وأصْنَعُ مِنَ الطّين.

ويأتي الْخَلْقُ بمعنى ابْتِداع الشْيءِ على غير مثال سبَق، وعلى إيجاده من العدَم، وهذا لا يكونُ إلَّا من الله جلَّ جلالُه.

فالمعنى: أنّي أُصَوّرُ لَكُمْ تَماثيلَ من الطين كهَيئة الطُّيُور، فتكُونُ طُيُوراً بإذْن الله.

**الظاهرة الثانية**: دَلَّ عليها: ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ﴾ وجاء في الآية بعْدَ ذِكْرِ ظَاهِرَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ، تَقْيِيدُ هذا الإبراء بإذْن الله.

**الأَكْمَهُ**: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ علىٰ الأعمَىٰ، وعلىٰ الأعْشَىٰ، وهو الذي لا يَرَىٰ رُؤْيَةً سَلِيمةً في اللَّيْل.

ولم يَكُنْ إبْراؤُه لِلأَكْمَهِ بعلاجٍ دوائي، وإنَّما يكُونُ بِلَمْسٍ ودُعَاء.

**الظَّاهرة الثالثَة**: دَلَّ عليها: ﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾ عطفاً على «الْأَكْمَه» وهو أيضاً مُقَيَّدٌ بإذن الله، لمَا يأتي في النصّ.

**البرَصُ**: من الأمراض العسيرة الّتي ليْسَ لَهَا عِلاجٌ حاسم. وقَدْ كان عيسَىٰ علَيْه السّلام يُبْرِئه بإذْنِ الله باللَّمْسِ والدُّعاء.

**الظاهِرَةُ الرابعة**: دلّ علَيْها: ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ هذا القَيْد: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ مُنْسَحِبٌ على إبراء الْأَكْمَهِ والأَبْرَصِ.

وقد جاء في تاريخ دعْوَته بَعْدَ بِعْثَتِهِ أنَّه كان عليه السَّلام يحيي الموتى بإذن الله.

**الظاهرة الخامسة**: دلّ عليها: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْۚ﴾.

وهٰذه الظاهرة هي نوعٌ من الاطّلاع على بعض المغَيَّبَاتِ عن الحواسّ، باطْلَاع الله له عليها.

وما يَدَّخِرُونَ في بيوتِهم يشْمَلُ المدَّخراتِ من الأطْعِمَةِ وغيرها من الأشياء التي تُدَّخر.

**ادَّخَرَ يَدَّخِرُ**: أصْلُها: اذَّخَر، وهذه أصْلَها «اذْتَخَرَ» دخَلَتْ على الفعل تاء «افْتَعَل» للمبالَغَة في معنى الفعل، والاجتهاد في إحداثه. والماضي غير المزيد: «ذَخَرَ» يقال لغة: ذَخَرَ الشَّيْءَ يَذْخَرُه ذَخْراً وَذُخْراً[1]، أي: خبَّأَهُ لِوَقْتِ الحاجة إليه.

• ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

جاء هذا البيان تعْقيباً على ظواهر الآية الإعجازيّة الّتي آتاه اللَّهُ إيّاها، فالمشار إليه باسم الإشارَة في: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ظواهر الآية الّتي آتاه الله إيّاها.

﴿لَآيَةً لَّكُمْ﴾: أي: لَعَلامَةً بُرْهَانِيَّةً لَكُمْ، تَشْهَدُونَهَا فَتُقْنِعُكُم بأنّي نبيٌّ ورسولٌ صادقٌ فيما أبَلِّغُكُمْ عَنْ رَبّي، أرسلني الله ربّ كلّ شيءٍ إليكم، وأنتم تَسْتَجِيبُون لدلالة ظواهر هذه الآية، إنْ كُنْتُم مُؤمنين، أي: إنْ كنتم مسْتَعِدّين مُسْتَقبلاً لأنْ تُؤْمِنُوا بما جئتُكُمْ به من عند الله رَبّكم.

فاسم الفاعل هنا كالفعل المضارع يَدُلُّ على الاستقبال كما يَدُلُّ على الحال.

---

(١) القاعدة الصرفيّة في وزن «افْتَعَلَ» المزيد بالتاء، أنّه إذا كانت فاء الفعل دالًا، أو ذالًا، أو زاياً، أُبدِلت تاؤه دالًا، وعندئذٍ لك في النطق أن تقول في مثل: «اذْتخر»: اذْدَخر، وادَّخر، واذَّخر.

• ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾:

أبان عيسىٰ عليه السَّلام لبني إسرائيل بهٰذا أنّ رِسَالَتَهُ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ التوراة، الّتِي تشتمل على أحكام الشريعة الّتِي يَعْمَلُونَ بها، تتلخَّصُ بأمْرَين:

**الأمْرُ الأول**: التَّصْدِيقُ بما جاء في التوراة الصحيحة غير المحرّفة.

**الأمْرُ الثاني**: التخفيف عنْكُمْ في بَعْضِ مَا كان مُحَرَّماً عليكم، بسبب ظُلْمٍ منْكُمْ ومن أسلافكم، كتَحْرِيم الشُّحُوم، وكلّ ذي ظُفر، فَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ عزّ وجلّ عن هٰذه الأشياء حُكْمَ التّحْريم، وَجعَلَها مُبَاحَةً في رِسَالَتِي إلَيْكُمْ.

• ﴿... وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾:

﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: أي: وجئتكم بآيَةٍ بيانيّة مِنْ ربّكُمْ، هي كتابُهُ الإنجيل الذي آتاني إيّاه، لتَتَّبِعُوهُ مؤمنين به، ولتنتفعوا بما جاء فيه من حِكَمٍ ومواعِظَ ووَصايَا وبَيَانَاتٍ نافِعَاتٍ للدّنيا والآخرة.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾: أي: فاتّقوا عِقَابَ الله، فآمِنُوا بي، ولا تكْفُرُوا بما جئتُكُمْ به، وأَطِيعُوني لتكونوا مِنَ الفائزين بالخلاص من عَذَابِ الجحيم، وبالخُلُود في جنّاتِ النعيم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾: أي: إنّ الله الذي أرسَلَنِي هو رَبّي، إذْ أنَا خَلْقٌ من خَلْقِه، وعبْدٌ من عباده، وَهو رَبُّكُمْ، إذْ أنتم خَلْقٌ من خَلْقِهِ، وعبادٌ من عباده، ونَحْنُ جميعاً مَفْتقِرُونَ إلى عطاءات رُبوبيته دواماً، في ذواتنا، وفي صفاتنا.

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾: أي: فحقِّقُوا بإراداتِكُمْ عُبُودِيَّتَكُمْ لِرَبِّكُمْ، بأنْ تُؤْمِنُوا به، وَبِكُلِّ رُسُلِه وكُتبِه، وبكُلِّ مَا بَلَّغَكُمْ رُسُلُهُ عنه، وأنا واحد مِنْهُمْ، فَعَلَيْكُمْ أنْ تُؤْمِنُوا بي.

وحقِّقوا بإراداتِكُمْ عُبُودِيَّتَكُمْ لِرَبِّكُمْ بأنْ تُؤَدُّوا مَا يَأْمُرُكُمْ به، وتَجْتَنِبُوا مَا يَنْهَاكُمْ عَنْه، ممّا أُبَلِّغُكُمْ إيّاه عَمَّا أوحى به إليّ.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾: أي: هـذا الّـذِي آمُـرُكُـمْ بـه مـن اتّـقـاءِ عذاب الله، وطاعَتِي، وعبادة رَبِّكُمْ بالإيمان والْعَمل هو صراطٌ مُسْتَقِيمٌ يوصِلُكُمْ إلى رِضوانِ الله وَالخلودِ في جِنّاتِ النعيم يوم الدّين، والخلاص من عذاب الجحيم.

❁ ❁ ❁

**تَاسعاً:**

تكْمِيلٌ آخَرُ جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) وهو موصولٌ بما جاء قبْلَهُ:

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

**القراءات:**

(٥٢) • قرأ نافع، وأبو جعفر: [مَن **أَنصَارِيَ إِلَى الله**] بفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة بإسكانها.

**التدبّر:**

• ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾:

أي: فلمَّا عَلِمَ عِيسَىٰ عليه السّلام، بَعْدَ دَعْوَتِهِ بني إسرائيلَ ولا سيما علماؤهم، ورَبَّانِيُّوهم، وأصحاب الخدمة الدّينيَّة منهم، وهم المخاطبون الأوَّلُون من أمَّةِ دَعْوَتِه العالميَّة، أنَّهُم مُصِرُّونَ على الكُفْرِ به، وبما جاء به عن رَبّه، مَعَ وَفْرَةِ الآيات الدالَّات على صِدْقِه، وأنَّهُ نبيُّ الله ورَسُولُهُ حقًّا وصِدْقاً.

يقال لغة: «**أَحَسَّ الشيْءَ وأَحَسَّ بِهِ**» أي: عَلِمَه، والمرادُ بالإحْسَاس بالشيْءِ إدْراكُهُ إدْراكاً قَوِيًّا مشابِهاً للإدْرَاكِ بالحواسّ الظاهرة، فَهُوَ يجري مَجْرَىٰ المشاهَدَة.

• ﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؟:

أي: قالَ عارضاً على أفراد الّذين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ، ليأخُذَ الْعَهْدَ علَيْهِمْ بمتابعَةِ الجهاد في سبيل اللَّهِ لِنَشْرِ دينِهِ، وتَبْلِيغِه للنَّاس.

﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؟: أي: مَنْ الَّذِينَ ينْصُرُونني، سَاعِينَ إلى بُلُوغ مَرْضَاةِ اللَّهِ عزّ وجلّ، بالجهاد الدَّعَوِيّ في سبيله، مُبَلِّغِين دينَهُ مهْمَا تَلَقَّوْا من الناس من أذًى واضطهاد؟.

ضُمّنَ لفْظُ «أَنْصَارِي» معنىٰ لفظ «السَّاعِينَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بحرف الجرّ «إلى» أي: مَنْ أَنْصَارِي السَّاعين إلىٰ الله؟

ومعلومٌ أنَّ السَّعْيَ إلىٰ الله، هو السَّعْيُ إلى بُلوغ مرضاته، للظَّفَرِ بالمراتب الْعُلْيَا في جنَّتِه، ويكونُ ذَلك بالْعَمَل بمحَابِّهِ من عباده، وبما يُرْضيه منهم، والأمْرُ الذي يَدْعُوهُمْ إليه عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام هُوَ الجهادُ الدَّعَوِيُّ في سبيلِ الله، وتبليغُ دِينِهِ للنّاس.

والقرائن السّابقَةُ واللاّحِقَةُ تَدُلُّ على المطويّات في النّصّ.

**أنصار**: جَمْعُ «نَصِير» وهو القويُّ في نُصْرَته، الثابتُ الّذي لا يضْعفُ ولا يتوانَىٰ وَإِنْ لَاقَىٰ الصِّعَابَ والاضطهادَ من الخصُوم والأعداء، أخذاً من صيغة «فَعِيل» الّتي هي من صِيَغِ المبالغة.

• ﴿... قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾: جمْعُ «الحواريّ» وهو الصّاحبُ والناصر، وأصْلُ الحواريّ في اللُّغة، مُبَيّضُ الثياب، وهو القصّار، وهو أيضاً الَّذي اختِير وَنُقِّيَ لصَفائِه وخُلُوِّه من العيوب، وهذه المعان ملاحظة لدى انْتِقاء الأنْصَارِ المخْلِصِينَ، الَّذينَ يُطْلَقُ عليهم لفظ «الحواريينَ».

ويُعْرَف الحوارِيُّونَ عِنْدَ الإنْجيليِّين بأَنَّهُمْ تلامِيذُ المعلّم «يَسُوع = عيسَىٰ» عليه السّلام، وكانوا اثْنَيْ عَشَرَ تلميذاً، وهم كما ذَكر الإصحاح العاشر من الإنْجيل المنسوب إلى «متَّىٰ»:

١ ـ «سِمْعَانُ» الّذي يُقَالُ له: بُطرُس.

٢ ـ «أَنْدَرَاوُس» أَخُو «سِمْعان».

٣ ـ «يَعْقُوبُ بْنُ زَبْدِي».

٤ ـ «يوحَنَّا» أخو يعقوب بن زَبْدِي.

٥ ـ «فِيلُبُّس».

٦ ـ «بَرْثُولَمَاوُس».

٧ ـ «تُومَا».

٨ ـ «مَتَّىٰ الْعَشّار».

٩ ـ «يَعْقُوب بْنُ حَلْفَىٰ».

١٠ ـ «لَبَّاوُس» الملَقّب: تَدَّاوُس.

١١ ـ «سِمْعَان القانوني».

١٢ـ «يَهُوذَا الإسْخَرْيُوطي» الّذي خان عيسَىٰ عليه السَّلام، ودَلَّ أعداءَه على مكانه، مقابل دُرَيهماتٍ مَعْدُودات. وهؤلاء أرسلهم دعاة لخراف بني إسرائيل الضالة.

أمّا التلاميذ الذين بعَثَهُمْ عيسى عليه السّلَام لِيُبَشِّرُوا بدِين الله في كُلّ مَدِينَةٍ ومَوْضع، من بلاد الدُّنيا، فَهُمُ سبعون كما جاء في الإصحاح العاشر من الإنجيل المنسوب إلى «لوقا».

وآخرون أيضاً كما جاء في الإصحاح التاسع منه.

ويعرف هؤلاء المبعوثون عند الإنجيليّين بأنّهم رُسُل، أي: رسُلٌ أرسَلَهُمْ عيسَىٰ، ومنحهم بعض القوى الّتي آتاه الله إيّاها، كشفاء المرضى، وإخراج الشياطين من الأجساد الإنسيَّة الّتي يدخلون فيها.

وكلمة «الحواريّين» تعبير عربي، جاء في «الصحيح» عند البخاري وغيره، أنّ الرسول ﷺ قال:

«لِكُلّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌ، وحَوَارِيِّ الزُّبَيْر».

وأدْرَكَ حَوارِيُّو عيسىٰ عليه السّلام، أنَّ قَوْلَهُ: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؟ يُريد به، مَنْ يَنْصُرُوني سَاعِياً إلى نَشْرِ دِينِ الله، فهو بذلك يَنْصُر الله، فقالُوا:

• ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾: أي: أنصار الله بِصِدْقٍ وإخْلَاصٍ وتضحية، فهٰذِه هي النُّصْرَة الحقيقيَّةُ لله، وأَبَانُوا السَّبَبَ الدَّافِع لهم فقالوا:

• ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: أي: وأَسْلَمْنَا له، بدليل قولهم عَقِبَ هٰذا للرسول عيسىٰ عليه السّلام:

• ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾: أي: واشْهَدْ بأنّا قائمونَ بالأعمال الّتي تَجِبُ علينا في الإسلام، إذْ يدْفعُنَا إلى ذَلِكَ صِدْق الإيمان.

ويظهر من قولهم هذا أنَّهُمْ كانُوا يُدْرِكون الفرق بين الإيمان والإسلام، وأنَّ الإيمان عقيدة راسخَةٌ في القلْب، وأنّ الإسلامَ آثاره في السُّلوك، ومن آثاره في السُّلُوك ما يُمْكِنُ أنْ يُشْهَدَ بالحواسِّ الظَّاهِرَة، فتَصِحُّ الشهادةُ به، ولهذا طالبوا عيسَىٰ عليه السَّلام بأنْ يَشْهَدَ لهم عنْدَ رَبّهم أنَّهُمْ مُسْلِمُون، ولم يُطالِبُوهُ بأنْ يشْهَدَ لهُمْ بأنَّهم مُؤْمِنُون، إذِ الإيمان من أعمال القلوب، والله وملائكَتُهُ المكلَّفُون أنْ يُرَاقبوا أَعْمالِ العِبَاد الظاهرة والباطنة يَعْلَمُونَ ما تُكنُّهُ الْقُلُوب، والناسُ مع الناسِ إنَّما يَعْلَمُونَ الظواهر ويَشهَدُونَ بها.

وتوجّه الحواريّون لربّهم قائلين:

• ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾: أي: آمَنَّا بِكُلِّ الَّذِي بَلَّغَنا إيّاه رسولُك عيسَىٰ عليه السلام.

﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾: أي: واتَّبَعْناهُ مُطِيعِينَ له، ومُسْلِمِينَ كُلَّ شؤونِنَا لأَوَامِرِه ونواهيه وتَوْجيهاته. ومن طَاعَتِنَا لَهُ، وقيامِنَا بِمَا يُكلِّفُنَا إيَّاه، سعْيُنَا في نَشْرِ الدّين الّذي جاءنا به، وتَبْلِيغِ تَعْلِيمَاتِه، تَعَهَّدْنَا به، إذْ قُلْنَا له: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: القائمون بالدَّعْوَةِ إلى دينِ اللَّهِ وصِرَاطِهِ المستقيم.

﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: أي: فَأَمِدَّنَا بالْعَوْنِ والتوفيق للقيام بهٰذه الْوَظِيفَةِ التبليغيّة، وأمِدَّنا بالسَّدَادِ في مسيرتنا الدعوية، حتَّىٰ تكْتُبنا في ديوان مُبَلِّغِي دِينِكَ مع الشَّاهِدِين، الَّذِين يشْهَدُونَ على الناس يوم الدين، بأَنَّهم بلَّغُوهم دينَكَ، والتّعليماتِ الّتي جاءَ بها رَسُولُك.

• ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

هٰذه الآية تتضمَّنُ بياناً مُجملاً لَا تَفْصِيل فيه، عمّا فَعَلَ أعداءُ عيسَىٰ عليه السلام، وأعداءُ الدِّين الذي جاء به، وأعداءُ من آمَنَ به واتَّبَعَه، من الْيَهُودِ والحكام الزمنيّين يومئذٍ، مِنْ مَكْرٍ للتخُّلصِ منْ كُلِّ ذَلِكَ.

**المكر**: هو في اللُّغَة تدبير أَمْرٍ في خفاء، ومعلومٌ بداهَةً أنَّ ما يُدَبَّر في الخَفَاء لا يقْتَضِي أنْ يكون شرًّا، بَلْ قَدْ يكونُ خيراً.

والمكْرُ في الخير لا يُنَافي الكمال، بَلْ هو من عناصره، إنَّ الحاكم العادِلَ الَّذِي يَخَافُ الله يَمْكُرُ، ومَكْرُهُ لا يكون إلَّا في الْخَيْر، إنَّهُ قَدْ يَمْكُر بالمجْرِمينَ، الَّذين يتَوَارَوْنَ عن عُيون السلْطَة، لئلَّا تُطَبَّقَ عَلَيْهِمْ أحكام العدل، فيَمْكُرُ بهم حتَّىٰ يقْبضَ عليهم، ويَقْضِيَ في شَأْنهم بالْعَدْل، وهذا مكْر في الخيْر.

واللَّهُ جلَّ جَلَالُه يَمْكُرُ بأعداء دينِه، وأعداء رُسُله، وأعداءِ أوْليائه، وهو خَيْرُ الماكرين، الّذِين يُدَبُّرون أمُورَهم في خفاء.

• ﴿وَمَكَرُوا﴾: أي: ومَكَرَ الْيَهُودُ بعِيَسَىٰ، فأشَاعُوا أَنَّهُ يَسْعَىٰ لِكَيْ يَكُونَ مَلِكاً على بني إسْرَائيل، ويَطْرُدَ الحكَّام الرُّوم، الحاكمين لبلاد الشَّام كلّها، ومنْها فلسطين وبيتُ المقدس حينئذ.

وكَثُرَتْ وشاياتهم وأقوالهم، فتوارَىٰ عيسَىٰ عليه السَّلامُ عن عُيُون النَّاس هو وحوارِيُّوه.

وشدَّدَ الْيَهُودُ مع رِجالِ الدَّوْلَةِ الرُّومانيَّة، في البحث عن المكان الذي يتوارَىٰ فيه عيسَىٰ الرَّسُولُ عليه السّلام.

وأوحَىٰ الله عزّ وجَلّ إلى عيسَىٰ بالأَمْر، وأعْلَمَهُ بالرَّجُلِ الَّذِي سيَدُلُّ عَلَيْهِ من حوارِيّيه، وهو يَهُوذا الإسخريوطي.

وأشعر عيسَى حَوَارِيّيه بأنَّ مُدَّةَ بقائه معهم قَدْ أوشكَتْ أنْ تنتهي، وأنَّهُ ذَاهِبٌ إلى رَبّه.

وقال عيسى لحوارِيّيه كما جاء في الإنْجِيل المنسوب إلى يُوحَنَّا، في الإصْحاح (١٣) منه:

«٢١.. الْحَقُّ والْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ وَاحِداً مِنْكُمْ سَيُسَلِّمُني ٢٢ فَكَانَ التَّلَاميذُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ وهُمْ مُحْتَارُونَ فِيمَنْ قَالَ عَنْهُ ٢٣ وكانَ مُتَّكِئاً في حِضْنِ يَسُوع واحد من تلاميذِه كان يَسُوعُ يُحِبُّهُ ٢٤ فأَوْمأ إِلَيْهِ سِمْعَانُ بُطْرُسُ أنْ يَسْأَلَ من عَسَىٰ أنْ يكُونَ الّذِي قال عنه ٢٥ فاتَّكأ ذَاكَ على صَدْرِ يَسُوعَ وقَالَ لَهُ يَا سَيِّد مَنْ هُوَ ٢٦ أَجَابَ يَسُوعُ هُوَ ذَاكَ الَّذِي أَغْمِسُ أَنَا اللُّقْمَةَ وَأَعْطِيهِ. فَغَمَسَ اللُّقْمَةَ وَأعْطَاهَا لِيَهُوذا سِمْعَان الإِسْخَرْيُوطي ٢٧».

«٣٠ فَذَاكَ لَمَّا أَخَذَ اللُّقْمَةَ خَرجَ لِلْوَقْتِ. وَكَانَ لَيْلاً ٣١ فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ يَسُوعُ: الآن تَمَجَّدَ ٱبْنُ الإنْسَانِ وَتَمجَّدَ اللَّهُ فيه ٣٢ إِنْ كان اللَّهُ قَدْ تمجَّدَ فِيه فإِنَّ اللَّهَ سَيُمَجّدُهُ في ذَاتِه ويُمَجّدُهُ سَرِيعاً ٣٣ يَا أَوْلَادي أَنَا مَعَكُمْ زَمَاناً قَلِيلاً بَعْدَهُ سَتَطْلُبُونَنِي، وكما قُلْتُ لِلْيَهُودِ: حَيْثُ أَذْهَبُ أَنَا لَا تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا...».

وأبلغ «يَهوذَا الْإِسْخَرْيُوطِي» أعداءه بمكانِ وُجُودِه.

وأَوصَىٰ عيسَىٰ علَيْهِ السَّلام تلاميذه بأَنْ يحِبَّ بعضُهُمْ بَعْضاً، وأوصاهُمْ بأَنْ يَتَّبِعُوا الرَّسُول الّذي يَجْعَلُهُ اللَّهُ خاتمَ النَّبِيّين والمرسَلِين.

وجاء الجنود، ودَاهَمُوا المكان، ورَفَعَ اللَّهُ عيسَىٰ إلَيْه، وأَلْقَىٰ شبَهَهُ على مَنْ دَلَّ عليه.

وظَنَّ أعداء عيسَىٰ عليه السَّلام من الْيَهُود، أَنَّ مكْرَهُمْ الَّذِي مكَرُوه قَدْ تحقَّقَ على ما رَسَمُوهُ، وأَنَّهُمْ أوصلوا عيسَىٰ إلى القَتْلِ والصَّلْب، بأَمْرِ السُّلْطَةِ الرُّومانية.

وافْتَرَوا على أُمِّه فِرْية الفاحشَة، واعْتَبرُوهُ وَلَدَ خطيئة.

وقال الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾.



## عاشراً:

تكميلٌ آخر جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) وهو موصولٌ بما جاء قَبْلَهُ أيضاً وهو الآيات من (٥٥ ـ ٦٠):

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

## القراءات:

(٥٧) • قرأ حفص: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ بضمير الغائب وهو يعود على الله جل جلاله وبكسر هاء الضمير.

وقرأها رُوَيس: [فَيُوَفِّيهُمْ] بضمير الغائب أيضاً، ولكن بضَمّ هَاءِ الضّمير.

الضَّمُّ والكَسْرُ في هاء الضمير لغتان عربيَّتان.

وقَرأ رَوح: [فَنُوفِّيهُمْ] بضمير المتكلّم العظيم وضمَّ هاء الضمير.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [فَنُوفِّيهِمْ] بضمير المتكلّم العظيم، وكَسْر هاء الضمير.

وبَيْنَ ضمير المتكلّم العظيم، وضَمِير الغائب، تَفَنُّنٌ في التَّنْويع البياني، مع ما في ضمير المتكلّم العظيم من تَرْبِيَةِ الْمَهَابة من جلال رُبوبيَّةِ الرَّبّ وعظيم جوده في هذا البيان، لتعلُّقِه بمكافأة الّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات.

**التّدبّر:**

• ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ . . .﴾:

هذا البيان موصُولٌ بالّذِي قَبْلَهُ وَهُوَ قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: ومَكَرَ اللَّهُ فَدَبَّرَ أَمْرَهُ في خفاء، حِينَ قَالَ اللَّهُ يَا عيسَىٰ. . . فدلَّ هذا البيان على أنّ مَكْرَ الله قد كان وقت قول الله يا عيسَىٰ. . . إلى آخره.

وقد جاء في الآيات (٥٥ و٥٦ و٥٧) من هذا النّصّ بيانُ ثمان قضايا بعْدَ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ﴾.

**القضيّة الأولىٰ:** دلَّ عَلَيْها: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ خطاباً لعيسَىٰ عليه السلام.

أي: إنّي فاصلٌ بين رُوحك الممدَّة لَكَ بالحياة الإراديّة، وبيْنَ نَفْسِكَ، ويظْهَرُ أنَّ هذا الْفَصْل قد كان من قبيل النوم العميقِ جدًّا، الّذي تَنْفَصِلُ فيه الرُّوح انفصالاً جزئيًا تَنْعَدِمُ به الحركة الإرادية، وهو شبيه بالتَّخْدِير الشّامِلِ لإجراء العمليّات الجراحيّة.

فقد جَعَلَ اللَّهُ عزّ وجلّ التَّوَفِّيَ تعبيراً قَدْ يَدُلُّ على الْفَصْل الكلِّي الَّذِي يَحْدُث به الموت، وقَدْ يَدُلُّ على الْفَصْلِ الجزئي الّذي يَحْدُثُ بِالنوم.

ويَدُلُّ على هذا قول الله تعالى في سورة (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

ويَدُلُّ علىٰ أنَّ التَّوَفِّيَ الَّذِي أَنْزَلَهُ الله عزّ وجلّ بعيسَىٰ عليه السَّلام، هو من نَوْعِ الْفَصْلِ الْجُزْئِيّ بَيْنَ رُوحِهِ ونفسه أمران:

**الأمْرُ الأوّل:** قول الله له في النصّ: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ إذ لا ميزة لرفع جسده إلى السماء مع الموت، لكنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ رَفَعَهُ إلى السماء تطهيراً وتكريماً دون أن يميته.

**الأمْرُ الثاني:** أنَّ الله سَيُنْزِلُهُ إلى الأرْضِ لِيُؤَدِّي وظائف عظيمةً في الناس، وسَيُؤْمِنُ به جُمْهُورٌ من أهل الكتاب كانوا به كافِرين، ويَكُونُ هٰذا قَبْلَ مَوْته، وقد دلَّ على هذا قولُ اللَّهِ عزّ وجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾.

أي: إلّا لَيُؤْمِنَّنَ بهِ مُسْتَقْبَلاً قَبْلَ مَوْتِهِ، فدَلَّ هٰذا على أن التَّوَفِّيَ الّذِي حَصَلَ لَهُ قَبْلَ رَفْعِهِ إلى السَّماء لم يَكُنْ من نوع الموت، بلْ كان من نوع الْفَصْل الْجُزئِيِّ بَيْنَ رُوحِهِ ونَفْسِه علَيْهِ السَّلام.

وقد ثَبَتَ عن النبيّ محمّد ﷺ بصُورَةٍ قَطْعِيَّةٍ نزول عيسَىٰ عليه السّلام، في آخِرِ الزّمان، وثَبَتَ أَنَّهُ يَكْسِرُ الصليب، ويقتلُ الخِنْزِير، ويَكُونُ هَلاكُ الدَّجّالِ على يَدِه.

**القضية الثانية**: دَلَّ عليها: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ خطاباً لعيسى عليه السلام، أي: ورافِعُكَ من الأرض إلىٰ جِهَتِي، أي: إلى السَّماء، وأنْتَ مُتوفَّىٰ تَوَفِيّاً جُزْئِيًّا لَمْ تَمُتْ فيه مَوْتاً كُلّيًّا.

**القضيَّة الثالثَة**: دَلَّ عليها: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ خطاباً لعيسَىٰ عليه السلام، أي: وعَاصِمُكَ من أنْ يَقْتُلَكَ الّذين كَفَرُوا، إذْ لوْ لَمْ يَعْصِمْهُ اللَّهُ عزّ وجلّ من ذَلك، لكان جَسَدُه محَلًّا يُفْعَلَ فيه رِجْسُ جُرْمِهِمُ العظيم.

وقد وصَفَ اللَّهُ الشِّركَ بأنَّهُ رِجس، ووصف المشركين بأنَّهم نَجَسٌ، ووصَفَ شُرْبَ الْخمْرَ، والمقامَرَةَ بالميْسِر، بأنَّهُما رِجْسٌ في السُّلوك من دَرَكَةِ كَبَائر الإثم، وجَعَلَ النِّفَاقَ رِجْساً من أَرْجاسِ السُّلُوكِ النَّفْسِي، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَتْلُ رَسُولٍ من رُسُل الله من الأَرْجاس الكُبْرىٰ.

فَحِمايَةُ عيسَىٰ عليه السّلام من أن يَقْتُلَهُ الّذينَ كَفرُوا، هو تَطْهيرٌ لَهُ من أنْ تَكُونَ حيَاتُهُ وَذَاتُه محلًّا يَرْتَكبون فيه رِجْسَهُمُ العظيم، فَعَصَمَهُ الله، ورفَعَهُ إلى السَّماء تطهيراً لِجَسَدهِ من رِجْسِهم، مع أنَّه في ذَاتِه علَيه السّلام، في نَفْسِه وفي جَسَدِهِ طَاهِرٌ زَكِيٌّ لَا يَتَغَيَّرُ من جَوْهَرِه شيء.

فالمرادُ بالتَّطْهير هنا عِصْمَتُهُ مِنْ أنْ يقْتُلَه الذين كَفرُوا أو يُعَذِّبوه.

وهٰذَا نظير أنْ نَرْفَعَ المصْحَفَ مِنْ أَيْدِي من أرادوا إلْقَاءَ النجاسات

عليه، فنقول: لقد أردنا تَطْهِيرَ المصْحَفِ من أَرْجَاس المجرمين، مع أن المصْحَفَ يشْتَمِلُ على كلام الله عزّ وجلّ، وهو في ذاته طاهر لا يَنْجُس، لكِنْ قَدْ يكونُ محلًّا لتنجيس يَفْعَلُهُ المجرمون، وقد خَفِيَ هذا المعنَىٰ الدَّقيق علىٰ كثير من المفسّرين.

**القضية الرابعة**: دلَّ عليها: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ﴾ خطاباً لعيسَىٰ عليه السّلام:

أي: وجاعلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ مُؤْمِنينَ بِكَ إيماناً صحيحاً، وعامِلِينَ بأحكام الشّرِيعَةِ الَّتِي أوصَيْتَ بالْعَمَلِ بها، فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِكَ سَعَادَةً، ومَنْزِلَةً في الْقُلُوب، ومَعِيشَةً لا نَكَدَ فيها، وقَلْباً مطمئنًّا، وذِكْراً حسناً، إلى يَوْمِ القِيامَة.

ويَنْطَبِقُ هٰذا علَىٰ الَّذِينَ كانُوا علىٰ الإيمان الصحيح والعمل الصَّالح، من الَّذِين قالوا: إنَّا نَصارَىٰ، قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أمَّا بَعْدَ بِعْثَةِ مُحمّد بْن عبد الله، فَمُتَّبِعُو عيسَىٰ عليه السّلام في الحقيقة هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بمحمَّدٍ واتَّبَعُوه، واتَّبَعُوا ما أنْزَل اللَّهُ في القرآن المجيد، لأنَّ عيسَىٰ عليه السَّلامُ قَدْ بَشَّرَ بمحمَّد ﷺ، وأمَرَ أَتباعَهُ باتِّبَاعِهِ حينَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ رَسُولاً للنَّاس أجمعين، فَمَنْ لَمْ يتَّبِعْ محمّداً ومَا أنزل اللَّهُ عليه، لا يَكُونُ مُتبعاً لعيسَىٰ في الحقيقةِ، وإنَّما يَكُونُ متَّبِعاً لِتحْرِيفاتِ الشَّيَاطِين الَّتِي نَسَبُوها إلى عيسَىٰ عليه السلام.

أمّا تَفَوُّقُ الدُّوَلِ الكافرةِ المنْتَمِيَةِ إلى عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام انْتِماءً باطلاً، مَاديًّا وعَسْكَرِيًّا، فَلَيْسَتْ هِيَ الْفَوْقِيَّةَ السَّعِيدة، على أنَّها في عَصْرِنَا ظاهِرَةٌ عابِرَةٌ، قَدْ يُنْهِيهَا اللَّهُ عزَّ وجلَّ إذا صَلَحَ حالُ المسلمين، ورَجَعُوا إلى الاسْتِمْسَاكِ بدينهم صَادِقين مخْلِصِين، وفَهِمُوا الإسْلاَمَ فَهْماً سليماً لَا شوائِبَ تَشُوبُ مَفْهُومَاتهم في عقائده، وشرائِعه، وأحكامه.

ولا نَنْسَىٰ أنَّ أَتْبَاع عيسَىٰ الصَّادِقِين كانُوا مضطَّهدِين بَعْدَ رَفْع عيسى عليه السلام، واسْتَمَرُّوا في الاضطهاد أكثر من ثلاثَةِ قُرون، وبَعْدَ أن تَنصَّرَ «قُسْطَنْطِين الأكبر» وجعل دَولته دولَةً نصرانية على عقيدة التَّثْليثِ الّتي هي كُفْرُ بالله وبعيسى، لَمْ يَكُنْ لأتباع عيسَىٰ الصَادِقِين سُلْطَانٌ مُتَفَوّقٌ في الدّولة الرُّومانية، بل كان التفوُّقُ الماديُّ والسُّلْطانِيّ للكفَرَةِ المنتمين إلى عيسَىٰ انتماءً بَاطلاً.

**القضية الخامسة**: دلَّ عليها: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

هٰذا القول مُوَجَّهٌ للناس جميعاً، إلَّا أنَّ المخاطَبِينَ الأوّلين به، هم المنْتَمُونَ إلى عيسَىٰ عليه السلام، بباطلٍ أو بحقٍّ، فهم الذين اختلفوا فيه، هل هُوَ الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثَة، والذين قالوا: هو عبْدُ اللَّهِ ورسولُهُ، وكَلِمَتُهُ ألقاها إلى مَرْيم وروحٌ منه، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سُلْطَانٌ ودَوْلَةٌ متفوّقَةٌ، إلَّا أنَّهُمْ كَانُوا فوقَ الَّذِينَ كَفرُوا بما أفَاضَ الله عزّ وجلّ عليهم من سعادات نفسيَّة وقلبيَّة، وطُمَأْنِينَةٍ، ورضاً عن الله، وآمالٍ متعلّقة بالنعيم الخالِدِ يوْمَ الدّين.

وحُكْمُ اللَّهِ يَوْمَ الدّين بيْنَ المختلفين، يكُونُ بالحكم لمَنْ كانَ علَىٰ الحقّ ومَا أنْزَلَ الله بصِدْق، بالهداية، والنجاة، والظفر بجنَّاتِ النعيم. وبالحكم علَى مَنْ كانَ علىٰ الباطل وعَلىٰ غير ما أنزل الله، بالضّلال واستحقاق العقاب في الجحيم.

**القضية السادسة**: دَلَّ عليها: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: فأمَّا الَّذِينَ كَفرُوا بَعْدَ ظُهور الْحَقِّ لَهُمْ، ومعانَدَتِهم له، فَأُعَذِّبُهم عذاباً شَدِيداً في الدُّنيا، بأنواعٍ من العذاب النفسيّ والجسَدِيّ، الَّتِي تأتي

بصورة إفراديَّة، وبأنواع من العذاب التي تأتي بصورة عامَّةٍ، كالَّتي تأْتي بها الحروبُ المدمّرة، وكالكوارث العامَّةِ المهلكة والمدمّرة.

وأُعَذِّبُهُمْ عذاباً شديداً في الآخرة، لأنَّهُمْ يكونون خالدين في عذاب الجحيم، ومن أشدّ عذابها ما يُلاقُون فيها من حَرِيق.

وما يَجِدُون لأنفسهم من ناصرِين ينْصُرُونهم فَيَدْفَعُون عنهم عذاب اللَّهِ لهم، أو يَرْفَعُونَهُ عنهم، سواءٌ مَا كانَ مِنْهُ معجَّلاً في الدُّنيا، أمْ مُؤَجّلاً إلى يَوْمِ الدِّين.

لفظ «مِنْ» في: ﴿مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ حَرْف جرٍّ زِيد لإفَادة استغراق عمُوم النفي والتَّنصيص عليه.

**القضية السّابعة**: دلّ عليها: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾. وفي القراءة الأخرى: [فَنُوَفِيهِمْ أُجورَهُمْ] بضمير المتكلّم العظيم.

أي: فَيُوَفِّيهم رَبُّهُمْ، وفَنُوَّفِّيهم أُجُورَهُمْ بِحَسَبِ أعْمَالهم، وقَدْ دَلَّت النُّصُوصُ علىٰ أنَّ الحسنةَ بِعَشْرِ أمثالها في أدْنَىٰ الحدُود، ثُمَّ إلى سبعمائةِ ضِعْفٍ، إلىٰ أضْعَافٍ كثيرة من فَيْضِ عطاء الله.

**القضيّة الثامِنَة**: دلَّ عليها: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾:

أي: واللَّهُ لا يُحبُّ الظالِمِينَ منَ الَّذِينَ آمَنُوا، والظَّالمُونَ هُنَا هم العصاة من المؤمنين.

وقَدْ دَلَّتْ نُصُوصٌ أخرى على أنَّهم يكونُونَ عُرْضَةً للعقاب بحَسَبِ معاصيهم، فيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ، ويُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، ومَشِيئَات الله عزّ وجلَّ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ بِحَالٍ من الأحوال.

❀ ❀ ❀

قول الله عزّ وجل:

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

• ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾:

الخطابُ في هٰذِهِ الآيَةِ مُوَجَّهٌ للرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ.

﴿ذَٰلِكَ﴾: المشارُ إِلَيْهِ الآيات الّتي جاءت في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) من الآية (٣٣) إلى غاية الآية (٥٧).

﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾: أي: نُتَابِعُ إِمْلَاءَهُ عليك، وجاء التعبير بالفِعْلِ المضارع، للدَّلَالَة على أنَّ بقاءَ النَّصّ يُتْلَىٰ بِمَثَابَةِ تِلَاوَةِ اللَّهِ له دَواماً، وهٰذا المعنى يُلائمه الفِعْلُ المضارعُ لا الماضي.

﴿مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾: أي: من الآيات المعجزات الدالَّاتِ علَىٰ أَنَّهَا تَنْزِيلٌ مِنْ عِنْدِ رَبّك، ومِنَ القُرآن المجيد، الذي هُوَ الذِّكْرُ الحكيم، الَّذِي يَجِبُ على المؤمنين أن يَضَعُوهُ في ذاكراتهم، وأنْ يَذْكُرُوا ما فيه من وصايا، وأوامر ونواهي، وأحكامٍ وتَشْرِيعَاتٍ ومَفْهُومَاتٍ، عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ داعِيَةٍ إلى ذِكْرِ شَيْءٍ منه، فَهُوَ حَكِيمٌ في أَسَاليب بيانه، حكيمٌ في مبانِيه، حكيمٌ في معانيه.

• ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾:

أي: مَا كان يَصِحُّ عقلاً من الَّذِينَ اخْتَلَفُوا في عيسَىٰ، أن يَجُرَّهُمْ ميلادُهُ مِنْ غير أَبٍ إلى الفتْنَةِ التي سقَطُوا فيها، إِذْ زَعُموا أَنَّه هو الله، أو ابن الله، أو ثالِثُ أقانيم ثلاثة.

فآدَمُ قد خَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ تُرَابٍ دُونَ أَبٍ ولَا أُمّ، ولم يكن ذلك سَبَباً لأَنْ يَدَّعِيَ أَحَدٌ إلٰهيَّتَهُ أو رُبُوبيَّتَه، أوْ أَنَّه ابْنُ الله، أو نَحْوَ ذَلِكَ مِنْ ضَلَالَات.

﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: أي: وبَعْدَ أن صَوَّرَهُ اللَّهُ مِنْ تراب، ومَرَّتْ عليه مُدَّةٌ مُتَراخية مَرَّ فيها بمراحِل الطين اليابس، فالصَّلْصَالِ المشابه للفخار، قال الله: كُنْ فَكَانَ كَمَا قَدَّرَه اللَّهُ وقضاه.

كان الظاهر أن تأتي العبارة: «كُنْ فكان» لا ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ لكِنْ جاء النَّصّ على خلاف الظاهر، والحكْمَةُ في هٰذا الإشعار بأنَّ آدم قد انْطَبَقَ عليه القانون الرَّبَّانيُّ العام في الخلْق، وهُو قانُون: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ والتقدير: ثمَّ قالَ لَهُ: كُنْ فكانَ، مُجْرِياً عليه القانون العامّ في خلْقِ اللَّهِ لكلّ شيء: وهو قانون: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

• ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾:

أي: هذا الّذي نَتْلُوه علَيْكَ من القرآن، هو الحقُّ المَنزَّلُ مِنْ عِنْدِ ربّك، أيُّها المتلَقِّي لهذا القرآن أيّا كُنْتَ، فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِين، أي: فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الشّاكّين، ولا تَكُونَنَّ فيه من المجادلين.

﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: أي: من الشّاكين، ومن المجادِلين. يقالُ لُغَةً: امْتَرَىٰ في الشَّيْء، أي: شَكَّ فيه، والتماري والمماراة، هي المجادلَةُ على مَذْهب الشَّكّ والرّيبة، ويقال للمناظَرةِ مُمَاراة، لأنَّ كلَّ واحِدٍ من المتناظِرَيْن، يسْتَخْرِج ما عِنْدَ صَاحِبِهِ ويَمْتَرِيه، كما يَمْتَرِي الحالِبُ اللَّبَنَ من الضَّرْع.

وبهذا انْتَهَىٰ تدبُّر الدَّرس الثاني مع تَدَبُّر نُصُوصٍ مَتَعدِّدَة مُوزَّعَةٍ في سور القرآن، تتَعَلَّقُ بما جاء فيه بشأن مريم وعيسَىٰ عليهما السّلام.

والحمد لله على معونته، وتوفيقه، وفتحه، إنّه الوهّاب الكريم.

❁ ❁ ❁

## (٦)
## التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُرُوس سورة (مريم) وهُوَ الآيات من (٤١ ـ ٥٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)﴾.

### القراءات:

(٤١) و(٤٦) ● قرأ هشام: [إِبْرَاهَامَ] ـ [يَا إِبْرَاهَامُ] وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ ـ [يَا إِبْرَاهِيمُ].

إبراهيم وإبراهام وجْهَان لنُطق هذا الاسم عند العرب.

وجاء اسمه عليه السّلام في سِفر التكوين بلفظين: «أَبْرَام» و«إِبراهيم».

(٤٢) و(٤٣) و(٤٤) و(٤٥) ● قرأ ابن عامر، وأبو جعفر: [يَا أَبَتَ] بفتح التّاء في المواضع الأربعة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ بكسْر التاءِ في المواضع الأربعة.

القراءتان وجهان لنُطق هذه التاء في اللّسان العربي، وهٰذه التاء عوضٌ عن يَاء المتكلّم في النداء فَقط للفظَتَي: «أب» و«أمّ» ويَرَىٰ النحاةُ أنَّها تاءُ التأنيث.

**أقول**: الظّاهر أنّ الغرض من الإتيان بهٰذه التاء بدَلَ ياء المتكلّم التحبُّبُ والتَّذَلُّلُ وخَفْضُ الجناح، برّاً بهما، ولترقيق قُلُوبهما.

(٤٥) • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وَأَبُو جَعْفَر: **[إِنيَ أَخَافُ]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسكانها مع المدّ في الوصل.

وسبق ذكر أنّ القراءتين وجهان لنُطق ياء المتكلّم في اللّسان العربي مرَّاتٍ عَدِيدات.

(٤٧) • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: **[رَبِّيَ إِنَّهُ]** بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿رَبِّيٓ إِنَّهُۥ﴾ بالإسكان مع المدّ في الوصل.

**تمهيد:**

كانَ من سياسة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلامُ في دَعْوَته، أَنَّهُ بَدَأَ بأقْرَب النَّاس إلَيه، وهذا تعليمٌ رَبَّانيٌّ في مجالِ الدَّعوةِ إلى الله، وإلى صراطه المستقيم، فقد أمَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ به رسولَهُ محمّداً خاتم المرسلين عليهم الصلاة والسَّلام أَجْمَعِين.

واهتماماً بالقيام بهٰذه السّياسة الحكيمة الرَّشِيدَة، أَلَحَّ إبراهيمُ عَلَيْهِ

السَّلامُ على أبيه في الدَّعْوة إلى دينِ الله الحقّ، وإلىٰ نَبْذِ اتّخَاذ الأوثان وعبادتِها، ونوَّع له أساليبَ الإقناع، وقَدَّمَ له الحجج والبراهين، واسْتعطَفَهُ واسْتَلانه، وتخضَّعَ له، وتَرَفَّقَ به، وعاشَرَهُ بإحسان، ولم يُقابلْهُ بما يكْرَهُ.

وحينَ طلَبَ منه أبُوه أنْ يَهْجُرَهُ إلى حين، استجاب لطَلَبه، ووعَدَهُ بأن يَسْتَغْفِر لَهُ رَبّه، قبْلَ أنْ يَعْلَم أنَّهُ مُصِرٌّ علَىٰ أن يكونَ عَدُوّاً لله، فلمَّا عَلِمَ أنَّهُ عَدُوٌّ لله تبرَّأ مِنْه.

ونفهم من هٰذا النَّصّ الذي جاء في سُورة (مريم) أنَّ إبراهيم عليه السَّلامُ قَدْ أضْجَر أبَاه في دعوته له، مقْرُونَةً بالْحُجَجِ البُرْهَانيَّةِ المقنِعَة، رَجَاء أن يسْتَجِيبَ له، فيكونَ من المؤمنين الموحِّدِينَ النَّاجين من عذاب الله الخالد في نار جهنّم، وأنّ الضّجَر قد أوصل الأب إلى أنْ يُهدِّدَ ٱبْنَه إبراهيم الناصح له، والملِحَّ عليه بالنصيحة، وبإقامَةِ البراهين المقنعة، فيتوعَّدَهُ بالرجم، فقال له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي: لأقتلُنَّك بوسيلة الرَّجم بالحجارة.

ويظهر أنَّ هٰذا التَّهْدِيدَ قَدْ صدَر من الأَب وهو في حالَةِ ضيقِ صَدْرٍ، إذْ لم يَسْتطع أنْ يَرُدَّ على حُجَج ابْنِه البرهانيّة بما يُزَيِّن تَقْلِيدَهُ الأعْمَىٰ في شركِيَّاته، ومعلومٌ أنّ ضيق الصَّدْرِ يُوَلّد غضباً، ومَعَ الْغَضَب تَصْدُرُ عبارات التهديد، الَّتي قدْ تَصِلُ إلى التَّهْدِيدِ بالْقَتْل.

ويظهر أنَّهُ لمَّا سَكَتَ غَضَبُه تراجَعَ عن التهديد بالرَّجْم، وطلب من ابْنِه إبراهيم عليه السَّلام أن يهْجُرَهُ مُدَّةً طويلَةً من الزّمن، فقَالَ له: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾.

**الْمَلِيُّ**: المدَّةُ الطويلة من الزّمن.

ويظهر أن إبراهيم عليه السّلام استشْعَرَ مِنْ قَوْلِ أبيه لَهُ: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ وعْداً ضمنيًّا بأن يُراجع نفسه، ويتفكّر في الأمر، ويتّخذ تدابير

يتخلَّصُ بها من ضَغْط بيئته الاجتماعيَّة، فوعَدَهُ بأنْ يسْتَغِفَرَ لَهُ رَبَّه، وقالَ له: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾:

أي: إنَّ رَبّي كَانَ بِي لطيفاً مُكْرِماً ذَا عِنايَةٍ بي، فأرجو أن يستجيب لي إذا دَعَوْتُهُ طالباً منه أنْ يغفر لك.

**التدبر:**

قول الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾:

أي: وضَعْ في ذاكِرَتِكَ أيُّها المتلَقِّي أيًّا كنْتَ، خَبَراً مُنَزَّلاً في الكتاب (=القرآن الكريم) فاحفظْهُ، وتدَبَّرْه، واستذكره عند المناسبات الدّاعيات، لتَنْتَفِعَ به.

اذْكُرْ نبيَّ اللَّهِ وَرَسُولَهُ إبراهيمَ عليه السّلام، في صفاته الذَّاتيَّة، وفي أخْبارِ دَعْوَتِه، الّتي يجبُ أَنْ يَتَأَسَّىٰ بها الدُّعاةُ إلىٰ الله.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾:

**صِدّيق**: على وزْنِ «فِعّيل» وهو من صيَغ المبالغة والتكثير، وله في العربية نظَائر مسْمُوعَةٌ لَا يُقَاسُ عليها، منها: «خِرِّيت» وهو ذو الحذْقِ بالطُّرُقِ والْمَسَالِك، ومنها: «ضِلّيل» وهو كَثِيرُ الضَّلَالِ والتضليل.

**الصّدِيق**: هو عظيم الصّدْقِ في أقواله، وعظيم الصِّدْقِ في أفعاله، وأعماله، فلا يُنَافِقُ بها ولا يُرَائي.

الصّدْق في الأعْمَال الدّينيَّة أَنْ تكُونَ خالصَةً لله عزَّ وجلّ.

ويَأتِي الصّدِّيقُ بمعْنَىٰ كثير التصْدِيقِ بما يأتي من بيانَاتِ عن الْوَحْي الصادق، فلا يَشُكُّ في شيءٍ منها، مهْمَا كانَ غريباً عجيباً، إذا كان من الممكنات العقليّة.

ولهذا وُصِفَ أبو بكر رضي الله عنه بأنَّه صِدّيق.

وإبراهيم عليه السّلام قد كان صِدِّيقاً بكلّ معاني الكلمة، فقَدْ كان عليه السّلام كثير الصّدْقِ في أقواله وأعماله، وَكان كَثِير التَّصْدِيق عن الله، حتَّىٰ مَا يَراه في المنام، ومنْهُ تَكليفهُ في الرُّؤيَا أن يَذْبَحَ وَلَدَهُ إسماعيل عليهما السلام، فصَدَّق وباشر التنفيذ، إلّا أنّ الله عزّ وجلّ فدَىٰ إسماعيل بذِبْحٍ عظيم.

﴿نَبِيًّا﴾: النبيُّ، عبْدٌ اصطفاه اللَّهُ بالوحي إليه.

**النُّبُوَّة:** هي في اللُّغَةِ مأخوذَةٌ من النَّبأ، وهو الخبر، أو مِنَ «النَّبْوَة» وهي ما ارتفع من الأرض.

**والنُّبُوَّة:** هي في الاصطلاح الشرعي، اصطفاء الله عبداً من عباده بالْوَحْي إليه.

وبين هذا المعنىٰ الشرْعي، وبين المعنى اللُّغَويّ، مناسَبَةٌ ظاهرة، مع كُلٍّ من مَعْنيَي النُّبوة في اللُّغة: الخبر، والارْتفاع.

وصيغَةُ نبيّ «فَعِيل» تأتي بمعنى اسم الفاعل «مُنْبِئ» أو «مُنَبِّئ» وتأْتي بمعنَىٰ اسم المفعول «مُنَبَّأ» أي: هو مُنَبَّأٌ مِنْ قِبَلِ الْوَحْيِ.

• فعلَىٰ تقدير أنَّ هذه الصيغة هي بمعنى اسم الفاعل، فهي على معنىٰ، أنَّ النبيَّ مُخْبرٌ بما يتَلَقَّاهُ مِنَ الوحي عن الله عزّ وجلّ، أو أنَّ النبيَّ مُرْتَفِعٌ عَنْ غَيْرِه، بسَبَبِ اصطفاء الله له بالوحْي.

• وعلى تقدير أنَّ هذه الصيغة هي بمعنى اسم المفعول، فهي علىٰ معنىٰ: أنَّ النبيَّ مُنَبَّأٌ ببيَانَاتٍ وأخبارٍ ومُغَيَّبَات يُنَبِّئُهُ بها الوحي عن الله عزّ وجلّ، أو أنّ النبيَّ مَرْفوعٌ على غيره من غير الأنبياء، بسَبَبِ الاصطفاء بالوحي.

فإبراهيم عليه السَّلامُ قَدْ كانَ صِدِّيقاً، وقَدْ كانَ نبيّاً، وقد جاء إثباتُ رِسَالَتِه بلَفْظٍ صريح في نصّ آخر. أمّا في هذا النصّ من سورة (مريم) فتُفْهَمُ رِسَالَتُه باللُّزوم العقْلِيّ، إذْ دلّ عليها قيامُه بواجِب الدَّعْوَةِ إلى الله.

قول الله تعالى:

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾: أي: واذْكُرْ في الكتاب قصّة إبراهيم حينَ قال لِأبيه....

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: لَقَدْ تَلَطَّفَ إبراهيم عليه السّلام مع أبيه، فخاطبَهُ بتَذَلُّلٍ وخُضوع وإشعارٍ بارْتفاع منزلة أبيه بالأبوة، فناداه بأداة النّداء الموضوعَةِ للْبَعِيد، ووضع بدَل يَاء المتكلّم تَاءَ التأنيث، الَّتي يَسْتَعْطِفُ بها رِقَّتَهُ الَّتِي يُشَارِكُ الْأَمَّ بها، فكَأَنَّهُ قال له: يا أَبِي الَّذِي هُوَ مِثْلُ أُمِّي في الشفقَةِ عليَّ والرَّحْمَةِ بي، إنَّ مِن البرِّ بِكَ، أنْ أنْصَحَكَ، وأدُلَّكَ على الحقِّ وصِرَاطِ الْهُدَىٰ، وأُحَذِّرَكَ مِنْ عذابِ الله.

﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾:

بدأ إبراهيم عليه السَّلام نُصْحَهُ لأبيه بِطَرْحِ سُؤَالٍ لَا بُدَّ أنْ يَطْرَحَهُ على نفْسِهِ كُلُّ مَنْ يمارِسُ عمَلاً من الأعمال، ولَا بُدَّ أنْ يطْرَحَهُ الدَّاعي الحكيم علىٰ من يمارِسُ عملاً بَاطلاً، أوْ فاسداً لَا يَرْضاه منْهُ، ويَجِدُهُ في عَمَلِه مُنْحَدِراً إلى تَهْلُكَتِهِ وشقائه وعذابه.

سُؤالٌ فيه معنى الاستفسار، وفيه معنى الاستنكار، وفيه معنى التعجُّب.

أي: يَا أَبَتِ، هَلْ لَكَ مَقْصِدٌ يَتَحَقَّقُ لَكَ، بعبادتِكَ أوثاناً جامدةً، لا تَسْمَعُ دُعاءك، ولا تُبصر ذاتك، ولا تَنْفَعُك بنافعة، ولَا تَصْرِفُ عنْكَ شيئاً ممَّا تكْرَه.

﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْئًا﴾: أصل معنى «أغناه» كفاه. والكفايَةُ عند الحاجَةِ إلى ما يَدْفَعُ المكْرُوهَ، تتضمَّنُ معنى الكَفِّ والصَّرْف، فمعنى: ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْئًا﴾: وَلَا يَكُفُّ عَنْكَ ولا يَصْرِف عنْكَ شيئاً ممَّا تكرَهُ. فَعُدّي فِعْلُ «يُغْنِي» تَعْدِية فعل: «يَكُفُّ أو يَصْرِفُ» وفْقَ قاعدة التضمين، الّتي هي إحدى أساليب التعبير القرآنيّة الإبداعيَّةِ الإيجازيَّة.

فالمعنى: لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَكْفِيكَ بشيءٍ، ولا يَصْرِفُ عنْكَ شَيْئاً تَكْرَهُه. أو لم تَعْبُد ما لَا يكْفِيكَ بشيءٍ صارفاً عنْكَ شيئاً ممّا تكْرَه.

وهذا السؤال لا يُمْكِنُ أن يجيب عليه عاقلٌ إجابة صحيحة إلَّا بأنْ يقول: وجَدْتُ قَوْمي وآباءهم يَعْبُدونَ هذه الآلِهَةَ مِنَ الأوثان فَعَبَدْتُهَا، وأسْتَبْعِدُ أنَّهم كانوا على ضلالَة.

ولم يأتِ في النصّ ما يَدُلُّ على أَنَّ أبَاهُ وجَدَ جواباً على هٰذا السؤال الاستفساريّ المتضمِّن معنى التعجُّب والاستنكار.

ولهذا انْتَقَلَ إبراهيم عليه السّلام إلى اتّخاذ وسيلَة إقناعِ أبيه بالحقّ الذي يَدْعُوه إلَيه، بَعْدَ أنْ أحْرَجَهُ بالسؤال السّابق الذي لم يسْتَطِع أنْ يجيبَ عليه، فقال له:

• ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾:

كرَّرَ استعطافَهُ لأبِيه بقوله له: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾. وأكَّدَ لَهُ أَنَّه قَدْ جاءه من الْعِلْمِ الّذي يَسْعَىٰ إليه العقلاء الرَّاشِدُون، ما لَيْسَ عند أبيه منه.

وهُنَا لَا بُدَّ أَنْ تَجْرِي مُحَادَثَةٌ بَيْنَهما، يُثْبِتُ فيها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام لأبيه الْعِلْمَ الَّذِي جاءه، بشأن الرُّبوبيَّةِ والإلَـٰهِيَّة، وحقِّ الله الرَّبّ على عباده، في أن يَعْبُدُوهُ ولَا يُشْرِكُوا بعبادته شيْئاً، وأنَّ مَنِ اتَّخَذَ آلهَةً من دون الله، جَعَلَهُ الله عزّ وجلَّ من الخالدين يوم الدّين في عذاب النّار وبئس المصير.

ولا بُدَّ أن يكون إبراهيم عليه السَّلامُ قَدْ أبان لأبيه أركان الإيمان بالحجَّةِ والبرهان.

ومن الْواضِحِ أَنْ لَا يَجِدَ الأَبُ كلاماً يَصِحُّ في العقول، ينْقُضُ به أدِلَّة الابْنِ إبراهيم عليه السّلام، بشَأْن أركان العقيدة الإيمانية، وأُسُسِها الْعَقْلِيَّة، وجُذُورِها الوِجْدَانيَّة.

وبانقطاع الأب، وعَجْزِه عن متابَعَةِ المناظَرَةِ المنطقيَّةِ المقبولة في العقول السليمة، وجَدَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلامُ أَنَّ من المناسب عنْدَ هٰذا الموقف الْحَرِجِ على أبيه أن يفتح له مَخْرَجاً فقال له:

﴿... فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾﴾:

أي: إنّ القاعِدَة الإيمانيَّة مُلْزِمَةٌ لكُلّ ذي عقْلٍ سَوِيّ بالإيمان بها، وبناءً علىٰ القاعِدَةِ الإيمانيَّةِ يَأْتي السُّلُوكُ الظَّاهِرُ والباطن، فانْطِلَاقاً مِنَ الحقّ الّذِي تَأَلَّفَتْ مِنْهُ أَرْكَانُ الْقَاعِدَة الإيمانية، لا يكُونُ السُّلُوكُ الَّذِي توجِبُه هٰذهِ الأركان إلَّا على صِراطٍ سويّ.

إنَّ مَنْ آمَنَ بأنَّ الرَّبَّ المهيْمَنِ على الكَوْن كُلِّه هو واحِدٌ لا شَرِيكَ لَه، وأنَّهُ خَلَقَ النَّاسَ لِيَمْتَحِنَهُم في ظُروفِ هٰذِهِ الحياة الدُّنْيا، ثُمَّ لِيُحاسِبَهم، ويَفْصِل القضاء بشأنهم في ظروف حياة أخرى، وأنَّ حقّ رُبُوبيّته لَهُم أنْ يعبُدوه، ولَا يُشْرِكوا بعبادتِه شيْئاً، وأنَّ عبادَتَهُ تكُونُ بطاعَتِه والْعَمَلِ بمراضيه، والتقرُّب إلَيْهِ بمَحَابِّه من عباده، فَلَا بُدَّ أَنْ يُدْرِكَ أَنَّ هٰذا هو الصراط المستقيم السَّوِيّ.

**الصّراطِ**: هو الطريق الواضِحُ الميسَّرُ السَّهْل، الّذي لا توجَدُ فيه عقباتٌ وَلَا عَرَاقيل ولا موانع.

**السَّوِيّ**: هو المستوي المعتدل، الَّذِي لا اعوجاجَ فيه ولا انحراف، ولَا مُرْتَفَعاتٍ وَلَا منخفضات.

وقد جاء في نُصوص القرآن والسُّنَّة، إطلاقُ لفظ «الصراط» علَى الشرائع والأحكام، والنصائح والوصايَا، وسائر البيانات والتعليمات الدّينيَّة، المتَعلِّقة بسُلُوك العباد الظاهر والباطِن في الحياةِ الدُّنيا، عبادَةً لربِّهم، على سبيل الاستعارة القائمة على تشبيه البرنامج الاعتقاديّ والعمليّ الموصل إلى السَّعادة الَّتي هي أجَلُّ مقاصِد أولي الألباب، بالصراط الموصِل إلى الغاية المطلوبَةِ للسَّالِكين في أسفارهم، وانتقالاتهم، وارتحالَاتهم.

﴿أَهْدِكَ﴾: يُقَالُ لغة: هَدَاهُ الطَّرِيقَ، وهَدَاهُ إليه، أي: بَيَّنَهُ وأوضَحَهُ لَه، وأرْشَدَهُ إليه، وأعْلَمَهُ به.

ولمَّا كانت الهِدَايةُ إلى الصراط السّويّ، لا تتحقَّقُ إلَّا باجتِناب سُبُلِ الضَّلَال، ولمَّا كانَ السَّيْرُ في سبُلِ الضَّلالِ هو من طاعَةِ الشيطان الذي صمَّمَ وتعَهَّد، أن يَبْذُلَ كُلَّ ما في وُسْعِهِ، حتَّىٰ يُبْعِدَ آدم وَذَرّياته عن الصراط المستقيم، ويَجْعَلَهُمْ يسْلكُونَ السُّبُلَ المضَلِّلَةَ الّتي تَنْتَهِي بهم إلى عذَابِ الجحيم، مُتَّبِعِينَ خطواته، وكانَتْ هٰذهِ الطَّاعَة للشيطان من العبادة المناقضَةِ لعِبَادة الله، قالَ إبراهيم عليه السَّلامُ لأبيه:

• ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾﴾.

فأبان إبراهيم عليه السّلامُ لأبيه أنّ عبادة الأوثان، هي في الحقيقة عبادةٌ للشيطان الذي أوحى بها، وأمَرَ أوْليَاءَهُ مِنَ الإنْسِ بِتَزْيِين عبادتها.

وأبان له أنّ الشيطان كَانَ شديد الْعِصْيان للرَّحْمٰن، والتمرُّدِ على أوامِره ونواهيه.

وذكَرَ له من أسماء الله الحسنى في دعوته إياه اسمَهُ الرَّحْمٰن، ليُحَرِّكَ وِجْدانَهُ وعاطفته الخيّرة نحو رَبِّه، الَّذِي يُمِدُّهُ بالحياة والرِّزْق والصِّحَّةِ، وسائر محابِّهِ من حياته برحْمَتِه، والَّذِي تُرْجَىٰ رَحْمَتُه دَواماً، والَّذِي يَغْفِرُ للتَّائِبِينَ ويَعْفُو عنهم بِرَحْمَته.

**الْعَصِيُّ**: هو الشَّدِيد العصيان. يقال لغة: عَصَاهُ مَعْصِيَةً وَعِصْيَاناً، أي: خَرَجَ مِنْ طاعته، وخالَفَ أمْرَه. لفظ «عَصِّي» من صِيَغِ المبالغة.

وقد بدأَتْ مَعْصِيَةُ الشَّيْطان إبليس، بإِبَائِه أن يَسْجُدَ لآدم طاعَةً لأمْرِ الله، وانْتَهَتْ بِجُحُودِه وُجوبَ طاعَةِ رَبّه، وإنكارِه لإِلَهيَّته.

وبَعْدَ هذا الأسْلُوب التنفِيرِيّ من عبادة الشيطان، الَّذِي اتَّخَذَهُ إبراهيم عليه السَّلامُ مع أبيه، والشيطان مَخْلُوقٌ مَطْرُودٌ من رَحْمَةِ الله خالِقِه وبارِئه، رأىٰ إبراهيم عليه السَّلامُ أنْ يُحذِّرَ أَبَاهُ من عذابِ الرَّحْمٰن المعَجَّل، بسَبب شِرْكه، مع احتفاظِه بالأسلوب الاستعطافيّ الرَّفيق، المشحون بالشفقة عليه، فقال له:

• ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥﴾:

أي: يَا أَبَتِ إنّي أخَافُ من طُولِ إصْرَارِك على الشِّرْك، أنْ يَمَسَّكَ في حياتك الدُّنيا عذاب من الرَّحْمٰن، فَتَكُونَ بذلك من المحكوم عليهم بأنَّهُمْ من أولياء الشيطان وجماعَتِه وحزْبه، الَّذِينَ يمَسُّهم في الدُّنيا قَبْلَ الآخرة عذابٌ عقابيٌّ معجَّل، قَبْلَ العذابِ العقابيّ الأكْبَرِ يوم الدّين.

ورُبما يجْعَلُه هذا العذاب المعجّل يَلْجَأُ إلى وسائل قومه الشركيّة، فَيَزْدادُ في اتّباع الشيطان، حتّىٰ يَكُونَ لَهُ وليًّا حَقًّا.

دلَّ على أنَّ مُرادَهُ العذابُ المعجلُ فِعْل ﴿أَخَافُ﴾ المشْعِرُ بالظّنّ، وفِعْل: ﴿أَن يَمَسَّكَ﴾ دُونَ: أَنْ يُنْزِلَ بك، واستعمال اسم الله «الرَّحْمٰن» دون اسْمِه المنتقم الجبار.

ومعلوم أنّ من سُنَّة الله عزّ وجلّ احْتِمالَ تَعْجِيل بَعْضِ عذابه لِبَعْضِ عباده.

قول الله تعالى:

• ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾:

دلَّ هذا الرَّدُّ المعبّر عن حالَةٍ غضبيَّةٍ خرج فيها الأبُ عن مزاجِهِ السَّوِيّ، لأنّ ٱبْنَه إبراهيم عليه السّلام، قد حاصَرَهُ من كلِّ جوانِبه الفِكْرِيَّةِ، والْوِجْدانيّة، والعاطفيَّة، والأدبيّة، فوَجَدَ الأبُ نَفْسَهُ مَغْلُوباً، مَهْزُوماً فِكْرِيًّا ونفْسِيًّا.

ولَمَّا كَانَ الأبُ غيرَ مستَعِدٍّ لِنَبْذِ تقاليده الباطلة، لم يَجِدْ وسِيلَةً غَيْرَ التهديدِ بالرَّجم، مستخدماً سلطته الأبويَّة.

لكِنْ لمَّا بَرَدَتْ جَذْوةُ غضَبِه طَلَبَ من ٱبْنِه إبراهيم عليه السلام، أنْ يَهْجُرَهُ مُدَّةً طويلَةً، لئلَّا يكُونَ بينهما احتكاك مَا في مسائل الدّين وقضاياه.

• ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: أتارِكٌ أَنْتَ آلِهَتِي ومخالفٌ لي في ديني وعبادَتِي؟.

يُقال لُغَةً: رَغِبَ عَنِ الشيءِ، أي: تَرَكَهُ زُهْداً فيه، أو إنكاراً له.

ويقال: رَغِبَ في الشيء، أي: أرادَهُ وحَرِصَ عليه، أو طمِعَ فيه.

كان يَكْفِي أن يقول: «أَرَاغِبٌ عن آلِهَتي يا إبراهيم» من غير أن يُضيفَ إلى العبارة ضمير الفصْل «أنت».

ونَسْتَطِيعُ أنْ نفهم أنَّ هذا الإطنابَ لَهُ غَرَضٌ بلاغيٌّ، وهُوَ إشعار الأب ٱبْنَهُ إبراهيم، بأنَّه من المستغرب منه وهو البارُّ الحَرِيصُ على بِرِّ أبيه، أَنْ يَرْغَبَ عن عبادة آلِهَتِهِ، ويَسْلُكَ سَبيلاً غَيْرَ سبيله.

أي: مِثْلُكَ لَا يَفْعَلُ هذا.

وقال لَهُ: ﴿عَنْ ءَالِهَتِي﴾ ولم يَقُلْ له: عن آلهة قَوْمي لِيُؤَكِّدَ لَهُ أنَّ مَنْ

كان مِثْلَهُ في بِرِّهِ لأبيه، لَا يَرْغَبُ عن طريقته، ولا يتَّخِذُ لِنَفْسِه طَرِيقاً آخر.

وكان غضبُ الأب قَدْ بَلَغَ الذِّرْوة، فقال لابْنِهِ إبراهيم عليه السلام:

• ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾:

اللّام في «لَئِنْ» واقعةٌ في جواب قَسَم محذوف، والتقدير: أُقْسِمُ لئن لم تنْته فتكُفَّ عمّا أنْتَ فيه من مُحَارَبَةٍ لعبادة الأوثان، والدَّعْوَةِ إلى الإيمان بالله وحده، وإلى عبادته وحْدَهُ لَا شريك له، لأرْجُمَنَّكَ.

**الرَّجْمُ**: هو الرَّمْيُ بالحجارة، يُقالُ: رَجَمَهُ يَرْجُمُهُ رَجماً، أي: رَمَاهُ بالحجارة، سواءٌ أقتلَهُ بها، أمْ لم يَقْتُلْه.

ويظْهَرُ أَنَّهُ بَعْدَ هذا التهديد بَرَدَ غَضَبُه، وأدْرَكَ أَنَّ ابْنَهُ إبراهيم لنْ ينْتَهِيَ عمَّا نَهَاهُ عنه، فأتْبَعَ كلامه بقوله:

﴿... وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا ۝٤٦﴾:

أي: واهجُرْني مبتعِداً عَنِّي زمناً طويلاً.

**الْمَلِيُّ**: هو في اللُّغَة الزمان الطويل.

وشعر إبراهيم علَيْه السَّلامُ بتَنَازُلِ حِدَّةِ غضَب أَبيه، وظنَّ أنّه إذا استجاب لطَلَبه فهَجَرَه مُدَّةً طويلَةً من الزمان، تراجَعَ عن إصراره وعناده، وصَار أطْوَعَ وألْيَنَ وأكْثَرَ تَقَبُّلاً للحقّ، فقال لأبيه مَا جاء في البيان القرآني التالي:

• ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ۝٤٧ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ۝٤٨﴾:

في هاتين الآيَتَيْنِ بيانُ أرْبَعِ قضايا وَجدَها إبراهيم علَيْهِ السَّلامُ مُلائمةً وحكيمةً في هذا الموقف:

**القضيَّةُ الأُولَىٰ**: قول إبراهيم عليه السَّلام لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾:

في هٰذه العبارة تكريمٌ من الابْنِ النبيّ الرَّسُول لأبيه الكافر المشركِ الوثنيّ، بتَحيَّةِ وداعٍ فيها غاية الاحترام والتَّلَطُّف، وهٰذا من المصاحَبَةِ بالمعروف، ومن الحكمة في أساليب معامَلَة الدَّاعي للمدْعُوّ.

وَالأدنَىٰ من عبارة «سَلامٌ عَلَيْكَ» عبارة «سَلَاماً» فالمفارقة بعبارة «سَلاماً» أسلوبٌ علّمه الله عزّ وجلّ لعباد الرَّحْمٰن حين يفارقون الَّذِين يخاطِبُونَهُمْ بجهالَة من الجَاهِلينَ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾:

ولعلماء البلاغة تَحْليلٌ دقيقٌ في بيان أنَّ عبارة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ أحْسَنُ من عبارة «سَلَاماً» وأرْقَىٰ دَرَجَةً. وهذا التحليل يَعْتَمِدُ على أنَّ الجملة الإسمية آكَدُ من الجملة الفعلية، لأن الجملة الفعلية فيها إسناد الفعل إلى الفاعل مَرَّة واحدةً، أمّا الجملة الإسمية ففيها إسناد الخبر إلى المبتدأ مَرَّتَيْن، **الأولى**: إسناده إلى المبتدأ الظاهر، **والثانية**: إسنادهُ إلى ضَمِير المبتدأ المطويّ في الخبر، لأنّ قولَنا مثلاً: قَامَ زَيْدٌ، لَيْسَ فيه إسناد القيام إلى زيد إلّا مَرَّةً واحدة، أما قولنا: زَيْدٌ قَائم، ففيه إسنادان: إسناد «قائم» إلىٰ زَيْد، وإسنادُه إلَىٰ ضمير زَيْدٍ المستتر في قائم، أي: زَيْدٌ قَائِمٌ هو.

**القضيّة الثانية**: قول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾:

في هٰذه العبارة وَعْدٌ من إبراهيم علَيْهِ السَّلام لأَبِيهِ بأَنْ يَسْأَلَ الله رَبَّهُ أَنْ يَغْفِرَ له.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾: أيْ: إنَّ رَبّي كان لطيفاً بي مكرماً لي، ذَا عِنَايَةٍ عظيمةٍ بتحقيقِ مطالبي، والإحْسَانِ إليّ.

**الحفيُّ بِكَ**: هو في اللُّغَة اللّطِيفُ بك، الَّذِي يَبَرُّكَ ويُكْرِمُكَ ويُحْسِنُ إليك، ويَعْتَنِي بك.

وقَدْ وَفَّىٰ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بوَعْدِهِ لأبيه، فَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، إذْ كان يَرْجو أن يَلِينَ قَلْبُهُ، ويَنْبِذَ الشِّرْكَ، ويُؤْمِنَ بالدّينِ الحقّ.

فلمَّا تبيَّنَ لَهُ أنَّ أَبَاهُ مُقيمٌ على كُفْرِهِ بإصْرَارٍ وعِنَادٍ، وأَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ تبرّأَ مِنه، إذْ لا يَجُوزُ للنَّبِيّ ولا للمؤمنين بالله إيماناً صحيحاً أَنْ يَسْتَغْفِرُوا للمشرِكين ولو كانُوا أولي قربَىٰ، إذا تبيَّنُوا أَنَّهم بِعَدْلِ الله من أصحاب الجحيم، لأنّهم يَسْأَلُون الله باستغفارهم لهم أمراً قَضَىٰ اللَّهُ فيه قضاءً مُبْرماً بأنْ لا يَسْتَجِيبَ لِمَنْ دَعَاهُ به.

وفي اسْتغفار إبراهيم عليه السّلام لأبيه، قال الله عزّ وجلّ في سورة التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

**أوَّاه**: كثير الحزْن، كثير الدُّعاء، رَحِيمٌ، رقيقُ الْقَلْب، كثير التضَرُّع إلى الله، مع يَقِينِهِ بأنَّ اللَّهَ لَا يُخَيِّبُه.

**القضِيَّة الثالثة**: قول إبراهيم عليه السّلام لأبيه، وللذين مَعَهُ من أسْرَته الملازمين لشِرْكِهِمْ: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

أي: ما دُمْتُم ملازِمينَ شِرْكَكُمْ بعِنَادٍ وَإصْرَارٍ على الباطل، ولَمْ تَعْبَؤُا بما أنْذَرْتُكُمْ به من عذاب الله للكافرين، فإنّ المنْهَجَ الدَّعوِيَّ يَقْتَضِي مِنّي أَنْ أعْتزِلَكُمْ، وأعْتَزِلَ مُشَاهَدَةَ مَا تَدْعُونَ من دُون اللَّهِ منْ أَوْثَانٍ أَنْتُمْ تَصْنَعُونها بأيْدِيكم.

**أعْتَزِلُكُمْ**: أي: أَبْتَعِدُ عَنْكُمْ وَأَتَنَحَّىٰ، يُقالُ لغة: اعْتَزَلَ فلانٌ الشيْءَ، واعْتَزَلَ عنه، أي: ابْتَعَدَ عنه، وتنَحَّىٰ إلى ناحيَةٍ غَيْرِ نَاحِيَته.

﴿وَمَا تَدْعُونَ﴾: أي: وَمَا تَعْبُدونَ من أَوْثَانٍ بالدُّعاء، وبتَقْدِيم القرابين والنُّذور، وبالتَّمَسُّحِ بها، والطَّوَافِ حَوْلها، والسُّجود والرُّكوعِ لها، ونحو ذلك.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: من أشياءَ غَيْرِ الله، هي بطَبيعَتِها تقَعُ دُونَه، في مقابل اتّصَافه ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُم سُلْطَانه ـ بالفوقيَّةِ المطْلَقَةَ، والْعُلُوِّ الذي لا يُسَاوِيه ولا يُدَانِيه علوّ.

**القضيَّةُ الرَّابعة**: قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾:

أي: إنَّنِي حينَ أعْتَزِلُكُمْ سَأُتَابعُ مَعَ غَيْرِكُمْ في أيّ موقعٍ أكونُ فيه عبادةَ رَبّي، بالدَّعْوَةِ إلى دينِه الحقّ، ومُقاومَةِ كُلِّ بَاطلٍ وكُفْرٍ وضَلَالٍ عن سبيل الهدىٰ والرَّشاد.

فعلُ «أدْعُو» أصْلُه النداء، أي: أُنادِي، ثُمَّ صار بمعنَىٰ سؤال الله، ولـمَّا كان دُعاءُ الله، من أعْظَم عناصر عبادته، صَار يُطْلَقُ الدُّعاء على العبادة، ولـمَّا كانت دَعْوَةُ الدّاعي إلى دِينِ اللَّهِ مِنْ أعظم عباداته لرَبّه، صارَ يُطْلَقُ الدُّعاء ويرادُ به الدَّعْوَة إلى دين الله وصراطه المستقيم.

ودلَّ على أنَّ هذا المعنى هو المراد بقوله: ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي﴾ قَوْلُهُ بَعْدَهُ مُتَرَجّياً: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾: أَيْ: عَسَىٰ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِي مستجيبُونَ من الَّذِينَ أدعُوهم، وعسَىٰ ألَّا أَكُونَ خائِباً في دَعْوَتي، فلا يَسْتَجِيبَ لي أَحَدٌ، فَأَحْمِلَ في نَفْسِي، آلامَ عَدَمِ اسْتِجَابَةِ أَحدٍ لي، وَهٰذَا مِمَّا يُؤلِمُنِي، ويُشْقِينِي، وَيُعَذِّبُنِي في داخِلِ نَفْسِي.

﴿شَقِيًّا﴾: يُطْلَقُ الشَّقَاءُ لُغَةً على كُلّ مَا لَا يَسُرُّ الإنْسَانَ من أمور، وعلى كُلِّ مَا يُخَالِفُ رَغْبَتَهُ ومَطْلُوبَه، في عاجِلِ أمْرِه أوْ آجله، من أدْنَىٰ المزْعِجَات، إلى أشدّ المؤلمات، حتَّىٰ العذاب الأبدِيّ الْخَالِدِ في جهَنَّم.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

**تمهيد:**

ذكر المؤرّخُونَ أنّ إبراهيم عليه السّلام لمَّا اعْتَزَلَ عَشِيرتَهُ وقومه، انتقل إلى «أُور الكَلْدَانِيّين» وهي مدينَةٌ كانت قُرْبَ الشَّاطِئ الْغَرْبيّ للفرات، وكَان معَهُ في رِحْلَتِه زَوْجَتُهُ «سَارَة» وكانَتْ قد آمَنَتْ به، وابْن أخيه «لُوط بْنُ هَارَان بْنِ آزَر» وكانَ قد آمَنَ به واتَّبعه، وهاجَرَ مَعَهُ جماعَةٌ من قَوْمِه الَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه، وهاجَرَ معه أيضاً أبُوهُ «آزَر» دُونَ أَنْ يُؤْمِنَ به.

وجاء في سفر «التكوين» من العهد القديم عند الإسرائيليين في الإصحاح «الحادي عشر» أنَّ «أُور الْكَلْدانِيّين» هي مَسْقَطُ رأس إبراهيم عليه السلام، فهِي المدينَةُ الَّتي وُلِدَ وَنَشَأَ فيها.

وجاء في «قاموس الكتاب المقدّس» أنَّ مكان «أُور الْيَوم خرائب، تُدْعَىٰ «المغَبَّر» وهي تقع في منتصف المسافة بَيْنَ بغداد والخليج العربي وعلى مسافة (١٠) أميال شَرْقي مجْرَىٰ نَهر الفرات في الزّمَن الحاضر.

قالوا: وقد احْتَلَّ المدينَةَ السُّومَرِيُّون، والْعِيلَامِيُّونَ، والْبَابِليُّونَ، والكَلْدَانيُّونَ على التوالي.

وذَكَرُوا أنَّ الكُشُوف الحديثَة قَدْ أثْبَتَتْ أنّ مَدِينة «أُور» كانت موجودَةً قبل عصْرِ إبراهيم عليه السَّلام بنَحْو ألْفِ عام، وأنَّها قد كَانَتْ في ذَلِكَ الزّمَنِ السَّحِيق مَرْكزاً لِمَدَنيَّةٍ رَاقية.

قال المؤرّخون: وقد أقام بعْدَ اعتزاله عشيرته وقَوْمَهُ في «أُور الكلْدَانيّين» حِقْبَةً من الزّمن، ثمّ رحل إلى «حَاران» أو «حَرَّان».

**حاران**: مَدِينة بيْنَ النَّهْرَيْنِ، على نَهْرِ «بَلِيخ» وهو فرعٌ للفرات، وتقع على مسافة (٢٨٠) ميلاً إلى الشمال الشرقيّ من «دِمَشق».

قالُوا: وكانت هٰذه المدينة مَرْكزاً تجاريّاً، لكَوْنِهَا على أحد الطُّرُق الرَّئيسة بين «بابل» و«الْبَحْر المتوسّط».. وهٰذه المدينة هي الآن قريةٌ صغيرةٌ تُعْرَفُ باسْم «حَرَّان».

قال المؤرّخون: ثم رَحَلَ إلى أَرْض الكَنْعَانِيّين (وهي أَرْضُ فِلِسْطِين) وأقام في «شَكِيم» وهي مَدِينة «نابلس» المعروفة اليوم.

قال المؤرّخون: ومن رِحْلاتِ إبراهيم عليه السلام، رِحْلَتُه إلى مصر، وكان ذَلِكَ في عَهْدِ مُلُوكِ الرُّعاة، وهُمُ الْعَماليق، ويُسمِّيهم الرُّومان «هِكْسُوس».

واسْم فرعون مصر أيام رحلة إبراهيم علَيْه السَّلام إليها «سِنَانُ بْنُ عُلْوان» وقيل: «طُوليس».

وكانت «سارة» امْرَأة جَمِيلَةً حَسْناء، وكان من عادة الجبابرة المُلوك، أَنَّهُمْ إذا رَأَوْا أَوْ عَلِمُوا بامْرَأة حَسْناء صادَرُوها، وقَتَلُوا زَوْجها إذا كانت ذاتَ زَوْجَ، واسْتَأْثَرُوا بها لأنفسهم.

فعزَمَ إبراهيم عليه السَّلام في نفسه أنَّه إذا حَدَث لزَوْجَتِهِ «سارَة» شيءٌ من ذَلِكَ أنْ يَقُولَ إذا سُئِلَ عَنْهَا هي أختِي، قاصِداً أنّها أُخْتُه في الإسلام[1].

وأوصى إبراهيم عليه السلام زَوْجَتَه «سَارَة» بأن تقول عن إبراهيم هو

(١) جاء في «قاموس الكتاب المقدس» أنّ سارة كانت أخته أيضاً في الواقع، إذْ كان الزواجُ من الأخوات جائزاً بحَسب الشرائع القديمة ولو كان الأمْرُ كما ذَكَرُوا لم يكُنْ قوله: «أختي» إحدى كذباته التي يَعُدُّها على نفسه.

أخي، قاصدَةً أنَّه أخُوها في الإسلام، إذا أرادهَا لنفسه أَحَدُ الجبّارين، صيانَة لإِبْراهيم من أن يَعْزِم الجبَّارُ على قَتْلِه، لِيَسْتَأْثِر بزوجته «سارة» كعادة جبابرة عَصْرِهِمْ.

رَوى البخاريُّ ومُسْلِمٌ عن أبي هريرة قال: قال رَسُول الله ﷺ:

لَمْ يَكْذِبْ إبْراهِيمُ إلَّا ثَلَاثَ كَذْبَاتٍ، ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ في ذَاتِ اللَّهِ: قولُه: «إِنِّي سَقِيم» وقولُه: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا».

وقال: (بَيْنَا وَهُوَ ذَاتَ يَوْم وسَارَة، إذْ أتَىٰ على جَبَّارٍ من الجبابرة، فقِيلَ له: إنَّ هٰهُنَا رَجُلاً مَعَهُ امرأَةٌ من أحْسَنِ الناس، فأرْسَلَ إلَيْهِ، فَسَأَلَهُ عنْهَا: مَنْ هٰذِهِ؟ قَالَ: أُخْتِي، فأتَىٰ «سَارَة» فقالَ لَهَا: إنَّ هٰذا الجبّار، إنْ يَعْلَمْ أَنَّكِ امْرَأتي يَغْلِبْنِي عَلَيْكِ، فإنْ سألَكِ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكِ أختِي، فإنَّكِ أُخْتِي في الإسلام، لَيْسَ على وَجْهِ الْأَرْض مؤمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُك.

فأرْسَلَ إلَيْهَا، فأُتِي بها، وقَامَ إبْرَاهِيمُ يُصَلِّي، فلَمَّا دَخلَتْ عَلَيْهِ، ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِه، فَأُخِذَ حَتَّىٰ رَكَضَ بِرِجْلِه، فقال: ادْعِي اللَّهَ لي ولا أضُرُّكِ، فَدَعَتِ الله فَأُطْلِقَ، ثُمَّ تَنَاوَلَها الثَّانِيَة، فَأُخِذَ مِثْلَها أَوْ أَشَدَّ، فقالَ: ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أضرُّك، فَدَعَتِ اللَّهَ فَأُطْلِقَ. فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتِهِ فَقَالَ: إنَّكَ لم تَأْتِنِي بإنْسَانٍ، إنَّمَا أَتَيْتَنِي بشَيْطَان، فَأَخْدَمَها «هاجر». فأتَتْهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فأوْمأ بِيَدِهِ «مَهْيَمْ؟» (أَيْ: مَا حَالُكِ؟ مَا شَأْنُكِ؟» قالت: رَدَّ اللَّهُ كَيْدَ الْكَافِرِ في نَحْرِه، وأَخْدَمَ «هَاجَر»).

قال أبو هريرة: «تِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاء» أي: هي أُمُّ إسْماعيل بْنِ إبراهيم عليهما السّلام.

قال المؤرخون: وقد وهب فرعون «سارة» بَعْدَ أن عَصَمها اللَّهُ منه استجابةً لدُعاء إبراهيم، جاريةً من جوارِيه اسْمُها «هاجر».

وكانت «سارَة» في سِنّ اليأسِ من الإنجاب، إذْ كانَ عَمْرُها يومئِذٍ

(٧٥) سنة، على أنّها كانت في شبابها عاقراً، فوهَبَتْ خادمتها «هاجر» لزَوْجها إبراهيم، لعلَّ الله يَرْزُقَهُ منها بولَد.

فولَدَت «هاجَرُ» لإبراهيم إسماعيل عليهما السّلام، وكان عُمْرُ إبراهيم سِتًّا وثَمانِينَ سنة.

وسافر إبراهيم بأمّ إسماعيل وَوَلَدِها منه إلى وادي مكَّة، وتَرَكَهُمَا عِنْدَ مكان بيت اللَّهِ الحرام، بأمْرٍ من الله، في قِصَّةٍ جاءت في الصحيح عن الرَّسُول ﷺ.

وعادَ إلى أَرْض الكَنْعَانِيِّين.

ولمّا بَلَغَتْ «سَارَةُ» من الْعُمْر (٨٩) سنة، وبلغ إبراهيم عليه السَّلام من عُمْره (١٠٠) سنَة، بَشَّرَهُما اللَّهُ عزّ وجلّ بولَدٍ منهما، هو «إسْحَاق» عليه السّلام، بخَبَرٍ تَلَقَّيَاهُ من الرُّسُلِ من الملائكة الّذِين زَارُوه قَبْلَ أَنْ يَذْهَبوا إلَىٰ قَوْمِ «لُوطٍ» لِإهْلَاكِهِمْ، وقَلْبِ قُراهُمْ عَالِيهَا سَافِلَها.

فوهَبَهُ الله عزّ وجلَّ من زَوْجَتِه «سَارَةَ» ولَداً سمَّاه إسحاق، وكبِرَ إسْحَاقُ، وتَزَوَّجَ وأَنْجَبَ وَلَدين: «عِيصو» و«يَعْقُوب».

**التدبّر:**

• ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

أي: فلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ، واعْتَزَلَ عن مُشَاهَدَةِ ما يَعْبُدُ قَوْمُهُ من أوثانٍ وَخُرَافاتٍ، في الْهِجْرَاتِ الّتي سبَقَ بيانُها في التمهيد.

• ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾.

**إسْحَاق**: هو ابْنُ إبراهيم عليه السّلام من زوجته «سَارَة» وهو الولَدُ الثاني لإبراهيم، إذ كان قد وهبه الله «إسماعيل» من «هاجَر» المصريّة، الّتي سبَقَ بيانُ قِصَّتِها في التمهيد، وكان ابْنُهُ «إسماعيل» غُلَاماً يافعاً يضربُ بالسّهام، حِينَ وُلِدَ إسْحَاق.

**يعقوب**: هو ٱبْنُ إسْحَاقَ بن إبراهيم عليهم السلام، فهو حفيد إبراهيم وزوجتِهِ «سارة».

﴿فَلَمَّا﴾: الفاء حرف عطف. «لمَّا» ظَرْفُ زمانٍ بمعنى الحِين، وهو يدخل على الفعل الماضي.

وهنا يَرِدُ سؤال: ما الحكْمَة من استعمال حرف العطف «الفاء» هنا الذي يَدُلُّ على التعقيب، مع وجود الفاصل الزمَنِيّ الطويل بَيْنَ هجْرَة إبراهيم عليه السَّلام إلى «أُور الكَلْدَانيّين» ثم إلى «حاران» ثم إلى «شَكيم = نابلس» حتّىٰ اسْتَقَرَّ بعد ذلك في المكان الذي توطَّنَهُ من فلسطين، وبَعْدَ ذلِكَ جاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ بِهِبَةِ ولَدٍ له من زَوْجته «سارة».

وكان مقتضىٰ الظاهر أن يكونَ البيان: واعْتَزَلَهم، ثُمَّ وهبنا له إسْحَاقَ ويَعْقُوبَ.

ويظْهرُ لي في جواب هذا السؤال: أنَّهُ قَدْ جاء في النَّصّ: فلمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّه، أمَّا اعْتَزالُه قَوْمَهُ فقد حَصَلَ مُنْذُ هاجَر إلى: «أُور الْكَلْدانِيّين» لكنّه بهٰذِهِ الهجرة لم يَعْتَزِل ما يَعْبُدون من دون الله إذْ كانَ أهْل «أور» يَعْبُدُونَ أوثاناً كما يَعْبُد قومُه الذين اعْتَزلهم، فلمَّا لم تُؤَثِّر فيهم دَعْوَتُه، هاجَرَ إلى «حَارَان» فوَجَدَهم كذلِكَ عُبَّادَ أوثان، ولمّا لم يسْتَجِيبوا لدعوته اعْتَزَلَهُمْ وَهاجَرَ إلى «شَكِيم = نابلس» من أرض الكنْعَانيّين في فلسطين، فوجدهم كذلك عبّاد أوثان، ولم يسْتطع في كُلّ هجراته أن يَعْتَزِلَ مُشَاهدةَ عِبَادَةِ الأَوْثان، حتى إذا استقرَّ في أرضٍ من أرض فِلِسطِينَ، لا يُشَاهِدُ فيها عبادة الأوثان وَهبَه الله إسحاق، وقد كانت هذه الهِبَةِ عَقِبَ اعْتِزَالِهِ مَا يَعْبُدُ الناس في هذه البلاد من دُون الله.

فكان وُجُود «الفاء» في النصّ مناسباً للدّلَالَةِ على اعْتزاله الأمْرَين معاً، قومَهُ، ومَا يَعْبُدونَ من دون الله.

• ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾: وكُلًّا من إسحاق ويعْقوبَ قد جَعَلْنَاه بالوحي إليه نَبيًّا، إذْ وَجَدْنَاهُ أَهْلاً لاصطفائه بالنبّوة.

ثم جَعَلَهُما الله رَسُولين، بدلالة نصوص أخرى.

• ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾: أي: وَوَهَبْنَا لإبراهيم وإسحاق ويعقوبَ من رَحْمَتِنَا خيراً كثيراً، ومجداً عظيماً، غير الاصطفاء بالنبوّة والرّسالة، وهذا يتناسب مع عظمة وجلال الرُّبوبيَّة اللَّذَيْن دَلَّ عليهما ضمير المتكلّم العظيم.

• ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾:

أي: وجَعَلْنَا لَهُمْ أيْضاً في أَلْسِنَةِ فُضَلَاءِ النّاس ثَنَاءً حَسَناً رَفيعاً فائِقَ الْعُلُوّ.

جاء في هٰذه الجملَةِ التعبيرُ عن الثّناء الحسَنِ بأنَّه لِسَانُ صِدْق، أي: ثَنَاءٌ باللّسَان الناطق بالصِّدْق لا بالكذب.

وهذا الثناء عليٌّ رَفِيعٌ يُنَاسِبُ ارتفاعَ مَنْزِلَتِهِمْ في الفضائل بين الأنبياء والمرسلين.

وتحتمل العبارة معنى آخر، وهو أنّ الله جعل ألسنتهم تَجْهَرُ بالحقّ صادقين في الدعوة إلى الله.

قال المؤرخون؛ وقَدْ تزوّج إبراهيم عليه السلام بعْدَ وَفَاة «سَارَة» زَوْجَةً اسْمُها «قَطُورة» فولَدَتْ له سِتَّةَ أولاد، وكان عُمْرُه قُرابَةَ (١٤٠) سنة.

قالوا: وقد عاش عليه السّلام (١٧٥) سنة، والله أعلم.

وبهذا انتهى تدبّر الدرس الثالث من دروس سورة (مريم) والحمد لله على معونتِهِ وتوفيقه وفتحه.

❀ ❀ ❀

## (٧)
## التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (مريم) وهو الآيات من (٥١ ـ ٥٣)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾:

**القراءات:**

(٥١) • قرأ عاصم، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: ﴿مُخْلَصًا﴾ بفَتْح اللّام، أي: جعَلَه اللَّهُ عزّ وجل خالصاً من الشوائب، ومصطفًى من الله بالنبوّة، ومصطفًى لحمْلِ رسالة عظيمة، ذاتِ وَظائفَ جسَامٍ، قد اختاره الله لحْمِلها.

وَقرأ باقي القرَّاءِ العشرة: [**مُخْلِصاً**] بِكَسْرِ اللّام، أي: إنَّه كان مُخْلِصاً لله في أعمالِهِ الظَّاهِرَةِ والباطنة، الجسديَّةِ والنفسيّة، فَهُو يَبْتَغِي بكُلّ تَصَرُّفٍ من تَصَرُّفاته الإراديَّةِ مَرْضَاةَ الله جلَّ جلالُه، فلا يُنَافِقُ بها، ولا يُرَائي.

يُقَالُ لغة: خَلَصَ الشَّيْءُ خُلوصاً، أي: صَفَا من الشوائبِ والأَكْدَار. ويُقال: أخْلَصَ فُلَانٌ الشَّيْءَ: أي: صَفَّاهُ ونَقَاهُ مِنْ شوائبه. ويُقَالُ: أَخْلَصَ الأَمِيرُ فُلاناً، أي: اخْتَارَهُ واخْتَصَّهُ لِنَفْسِه.

ويُقالُ: أَخْلَصَ العبْدُ عَمَلَهُ لِرَبِّه، أي: جعَلَهُ خالياً من النّفاق، ومن الرّياء والسُّمْعَة.

فالقراءتان متكاملتان في أداء المعنىٰ المراد، إذْ كان موسَىٰ علَيْه السّلامُ مُخْلِصاً لله في أعمالِهِ الإراديَّةِ كُلّها. وكَانَ مخْلَصاً مِنَ الله عزّ وجلّ ومختاراً للنبوة ولحمل رسالة عظيمة.

(٥١) و(٥٣) • قرأ نافع: [نَبِيئاً] بإثبات الهمزة بعد الياء في الموضعين وقرأ باقي القراء العشرة ﴿نَبِيًّا﴾ بإبْدَال الهمزة ياءً وإدْغامها بالياء قبلها، في الموضعَيْن.

والقراءتان وجهان لنُطْقِ الكلمة في اللِّسَان العربي.

**التدبر:**

• ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾:

أي: وضَعْ في ذاكِرَتك أيُّها المتَلِقّي أيًا كُنْتَ، خبراً مُنَزّلاً في الكتاب (=القرآن) فاحفظه، وتَدَبَّرْهُ، واسْتذِكرْهُ عِنْدَ المناسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ لتَنْتَفِعَ به.

اذْكُرْ نبيَّ اللَّهِ ورسُولَهُ مُوسَىٰ، واذكُرْ أَخَاه هارونَ الذي اصْطَفَيْناه نَبِيًّا، وجاء في نصوص أُخْرَىٰ أنَّهُ رسُولٌ أيضاً، ولعلَّ اختياره لمشاركة أخيه موسى عليهما السلام بالرّسالة قد كان متأخراً عَنِ اختيار مُوسَىٰ للرّسالة، فاكْتَفَىٰ هذا النَّصُّ بذكْره نُبُوَّتِه.

الخطاب في هذه الجملة القرآنيّة موجَّهٌ لكُلّ صالح للخطاب يتلقَّىٰ آيات الله من كتابه المجيد قراءةً، أو تلاوةً، أو سَمَاعاً.

وجاء بأُسْلُوب الخطاب الإفرادي لتحميل كلّ فَرْدٍ صَالِحٍ للخطاب مُسْؤوليَّتَهُ بشأن هذا التكليف.

الأمر بفِعْل: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ يَسْتَدْعي باللُّزُوم الفِكْريّ التَّلَقِّيَ، والْفَهْمَ بتَدَبُّر، ووَضْعَ الشيء المأمُورِ بذِكْرِهِ في الذّاكِرَة الواعية، آلة التذكُّر في الدّماغ.

والغرض من التَّذكُّر، الانتفاعُ مما استَدْعَتْهُ الذّاكرة لساحَةِ التَّصوُّرِ الحاضر، عند المناسبات الدّاعيات.

وهٰذهِ العبارَةُ معطوفة على نظائرها في السُّورَة.

﴿مُوسَىٰٓ﴾ مفعولٌ به للفِعْل في: ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ وظاهرٌ أنّ المرادَ ذِكْرُ الأخبار القرآنيَّة الواردة بشأنِه، لا مُجَرَّدُ ذِكْر لفظ: «موسَىٰ».

لفظ «موسى» اسم مِصْرِي قديم، معناه «وَلَد» ومعناه بالعِبْرِيَّة «مُنْتَشَل» سُمِّي بموسَىٰ لأنَّه انْتُشِلَ مِنَ الماء.

فقد كان من قصَّتِه أنَّ فِرْعُوْنَ مِصْرَ في السَّنَةِ الَّتِي وُلِدَ فيها مُوسَىٰ عليه السَّلام، قَدْ شَدَّدَ الأمْرَ بقَتْلِ صِبْيان العبرانيّين، وكان مُوسَىٰ أصْغَرَ أولاد أبيه، وثالِثَ ثلاثة: أخْتُهُ: «مَرْيم» الكُبْرى، وبَعْدَها: «هارون» وبَعْدَه: «مُوسَىٰ».

قَالُوا: وقَدْ أخفَاهُ وَالِدَاهُ ثَلَاثَة أشْهَر، لكِنَّ عُيُونَ فِرْعَوْنَ مِنْ جنوده قد كانُوا شَدِيدِي المراقبة والتجسُّسِ على أَوْلادِ الإسْرَائيلِيّن.

فألْهَمَ اللَّهُ أُمَّه أنْ تَضَعَهُ في تابوت، وهو سَفَطٌ مَطْلِيٌّ بالْحُمَرِ[1] والزِّفْت، وأنْ تُلْقِيَهُ في النّيل، وقَضَتْ مقادير الله عزّ وجلّ أن يَجْرِي به ماء النهر إلى شاطئ قَصْرِ فِرْعَوْن، ونزلَت ابْنَةُ فِرْعون لتغتسل في النَّهر، فرأتِ الصَّبِيَّ في السَّفط، فَرَقَّ له قَلْبُها، وقالَتْ: هذا من أولاد العبرانيّين.

وقالت امرأةُ فِرْعَون له: هذا الولد قُرَّةُ عَيْنٍ لي ولَكَ، لا تقتلوه، عسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا، أو نَتَّخِذَه ولداً.

فاستجاب فرعون لطلَب زوجته، ونشأ موسى عليه السَّلام في قَصْرِ فِرْعَوْنَ نَشْأَة أَوْلادِ الملُوك.

ورفَضَ الطفْلُ أثداء المرضعات، وكانت أُخْتُه مريم تقترب من القصر الفرعوني، وتتردَّدُ إلى جِهَتِه، ورُبّما تَخْدِمُ فيه، فلمّا رَأتْ أَنَّه رفض أثداء المرضعاتِ المصريات، قالت لمنتشليه من الماء في القصر الفرعوني: ﴿هَلۡ

---

(١) الْحُمَر: مادّة يُطْلَى بها للحفظ وسَدِّ الثُّغَرات في الخشب.

أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ سورة (القصص/ ٢٨).

فقَبِلُوا عَرْضَهَا، فَرَدَّهُ الله عزّ وجلّ بألطافه الْخَفِيَّة إلى أُمِّه، فكانت حَاضِنته ومُرْضِعَتَهُ بالأجْرِ للقَصْرِ الفرعوني.

وتَتَابَعَتْ مقادير الله بشأنِه حتَّىٰ اصطفاه اللَّهُ نَبِيًّا ورسولاً، ذا معجزاتٍ بَاهراتٍ.

- ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾: سبق تدبُّر هذه العبارة لدى بيان القراءات.

- ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾: أي: وكان رَسُولاً مُرْسلاً مِنَ اللَّهِ لتَبْلِيغ رسَالَاتِ رَبّه، لبني إسرائيل، ولفرعون وقومه، ومن حَوْلَهُمْ من الَّذِين تبلُغُهم دعوته.

وكان نبيًّا قد اصطفاه الله عزّ وجلّ بالنُّبُوَّة.

قد يُقال: إنَّ كونَهُ رَسولاً يسْتَلْزِمُ أَنْ يكونَ نبياً، فما الفائدة من ذكر كونه نبيًّا، بعد بيان أنَّه كانَ رَسُولاً.

أقول: إنّ الاصطفاء بالنبوّة يأتي قَبْل التَّوجيه لأداء رسالة الله للناس، وقد تكون النُّبُوَّةُ لمن اصطفاه الله بها، دون أن يختاره الله لحمل رسالَةٍ يبلغها للناس.

ولدفع توهُّم احتمال أنْ يكُونَ الإنسان رَسُولاً ضمن المفهوم اللّغوي، دون أن يكون نبيًّا، أثْبَتَ الله الوصفين معاً.

وكان الظاهر يقتضي أن تكون العبارة، وكانَ نبيًّا رسُولاً، لكن جاءت العبارة على خلاف مقتضى هذا الظّاهر لمراعاة التناظر في رؤوس الآيات السّابقات واللاحقات.

- ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾:

**الطّور**: جَبَل يُسمَّىٰ عنْدَ التوراتيِّين: «حُورِيب» ويُطْلَقَ عليه عندهم:

«جَبَل سِينا» وهو يَبْعُدُ عن مصر مسيرة ثلاثة أيَّام، قالوا: وتُحِيطُ بهذا الجبَلِ بَرِّيّة كافِيةٌ لأن يُعَسْكِرَ فيها العبرانيون لمدّة سنة.

وفي تحديد موقعه الآن رأيان:

**الرّأي الأول**: «جَبَلُ سِرْبَال» في «وادي فيران» ولكن لا توجَدُ عنْدَ هذا الجبل بريّة تكفي لأن يُعَسْكر فيها العبرانيُّون لمدَّة سنة.

**الرأي الثاني**: هو الجبل المعروف الآن باسم «جَبَلَ موسى» وهو جبل عظيم الارتفاع، وحادُّ الصخور، وشديد الانحدار، ولا يسْتطيع الإنسان أن يطيل النظر إليه دون أنْ تُؤْلِمَهُ عيناه، لأنَّه شديد الضوء، (أو شديد عكس الضوء).

ويوجَد عند «جبل موسى» أديرة، وكنائس، اكتُشِفَتْ فيها بعض النُّسَخ القديمة من أسفار ما يُسَمَّىٰ عند أهل الكتاب «الكتاب المقدس». باللّغات اليونانيَّة، والسّريانيّة، والجورجيَّة، والأثيوبيَّة، والسُّلافية، والعربية، وغيرها.

ويبدو أنّ هذا الرأي هو الرأي الراجح.

• ﴿وَنَدَيْنَهُ﴾: أي: ودَعَوْنَاهُ بصَوْتٍ مُرْتفع، وكانَ نداءُ الله عزّ وجلّ لموسىٰ من وراء حجاب..

العبارة اشتملت على ضمير المتكلّم العظيم، للدَّلالة على أنّ جَلالَ عظمة الرَّب وهيْبَتِه قد شَعَر بهما موسىٰ عليه السّلامُ في أعماق فؤاده، مع هذا النداء الرَّبّاني.

وجاء في سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول) بيان الكلام الّذي اشتمل عليه هذا النداء، وهو قول الله عزّ وجلَّ فيها:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ

لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

• ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾:

في هذه العبارة تَحْدِيدٌ لِمَصْدَرِ الكلام الذي نادى اللَّهُ به مُوسى عليه السلام.

يَبْدُو أنّ موسىٰ عليه السّلام كانَ مُتوجّهاً بوجْهِه وصَدْرِه لِجِهَةِ الجبَل، فالجبَلُ بالنّسْبَةِ إليه يكونُ على ثلاثة أقسام؛ قسم يواجِهُهُ بِصَدْرِه، وقِسْم يَقَعُ إلىٰ جهة الْيَمِين بالنسبة إليه، وقسم يقَعُ إلى جهة الشِّمَال بالنسبة إليه.

أمّا مَصْدَرُ النّداء فقد كان من جانب الطُّورِ الأيمن بالنسبة إلى موسى عليه السلام، لا مِنْ وَسَطِه، ولا مِنْ جانبه الأيْسَر.

• ﴿... وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾:

أي: وبعْدَ أن نادَيْناه، وقُلْنا لَهُ: ﴿أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ كما جاء في سورة (النمل) قَرَّبْنَاهُ إلَىٰ جهة النِّداء، وَجَعَلْنا مُكَالَمَتَهُ مُنَاجَاةً، **الْمُنَاجَاة**: هي الإسرارُ في المحادثة.

**النَّجِيّ**: هو المناجي، أي: المحادث في السِّرّ بصَوْتٍ منخفض.

فمحادثة الله عزّ وجَلَّ لموسَىٰ عليه السّلام بَعْدَ تَقْرِيبه، كان على طريقة المناجاة، لا بالنداء ورفع الصوت.

ومع هذا التقريب والمناجاة بقي الكلامُ محاطاً بجلَالِ وهَيْبَةِ المتكلّم الرَّبّ العظيم.

• ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾:

أي: وجعَلْنَا أخاه هارونَ نَبِيًّا، فأوحينا إليه، استجابَةً لطَلَبِه، ليكونَ مَعَهُ رَسُولاً إلى فرعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَإلى بَني سرائيل.

وقد دَلَّ على هذا قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (طَهَ/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في مَعْرِضِ بيان تكليفِ الله موسَىٰ بالرِّسالة:

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

وبهذا تم تدبّر الدّرس الرابع من دُروس سورة (مريم) والحمد لله على مَعُونَتِه وتوفيقه وفَتْحِه وفَضْلِه.



## (٨)
## التدبّر التحليليّ للدرس الخامس من دُروس سورة (مريم) وهو الآيتان: (٥٤ و٥٥)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾.

**القراءات:**

(٥٤) • قرأ نافع: [نَبِيئاً] بإثْبَاتِ الهمزة بَعْدَ الياء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة ﴿نَبِيًّا﴾ بإبْدَالِ الهمزة ياءً، وإدْغامها بالياء قبلْهَا.

والقراءتان وجْهان عَرَبيَّانِ لنُطق هٰذِهِ الْكَلِمة.

**تمهيد:**

**إسماعيل عليه السلام عند أهل الكتاب[١].**

إسماعيل بن إبراهيم من هاجر المصرية «أَمَة» زوجته «سَارَة» التي وهبتها لزوجها «إبراهيم» رجاء أن يُنْجِبَ منها نَسْلاً، إذ كانت «سَارَةُ» عَاقِراً لَا تُنْجِبُ، وقد شاخَتْ وَهِي علىٰ ذلك.

وَوَلَدَتْ هاجَرُ «إسماعيل» لمَّا كانَ عُمْرُ إبراهيم (٨٦) سنة، وبَعْدَ أنْ كان له في أرْض «كَنْعَان» عشْرُ سنين.

ويكْبُرُ «إسماعيل» أخاه من أَبِيه «إسْحَاقَ» بنحو (١٤) سنة.

واشْتَرَكَ «إسماعيل» معَ «إسْحَاقَ» في دَفْنِ أبيهما «إبراهيم بَعْدَ موته».

ومات «إسماعيل» بعد أن بلغ من العمر (١٣٧) سنة.

ولفظ «إسماعيل» اسم عِبْرِي معناه «يَسْمَعُ الله».

**أبرز ما تعرض له المؤرخون من حياة «إسماعيل» عليه السلام:**

(١) لمَّا بلَغَ «إبراهيم» عليه السلام من العمر (٨٦) سنة، ولَدَتْ لَهُ أمَتُهُ المصْرِيَّةُ «هاجَر» ابْنَهُ «إسماعيل» وذَكَرُوا أنَّ معناه «مُطِيعُ الله» أو «يَسْمَعُ الله».

(٢) أمَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ نبيَّه ورسولَهُ «إبراهيم» عَلَيْهِ السلام، أن يُسْكِنَ طِفْلَهُ «إسْمَاعيل» مع أُمِّهِ «هَاجَر» في وادِي مكَّة، فسَافَرَ بهما إلى هذا الوادي، وأسْكنَهُمَا فِيه طَاعَةً لِلَّهِ عزّ وجلّ وانْصَرَفَ عَنْهُمَا عَائِداً إلى مَهْجَرِهِ في الشَّام، في أَرْضِ الكنعانِيِّين، واسْتَوْدَعَهُمَا عنْدَ اللَّهِ يَرْعَاهُمَا بِرعَايَتِه، وَيَكْلَؤُهُما بحفْظِهِ.

---

(١) أخذاً من «قاموس الكتاب المقدس» عند كلمة «إسماعيل».

(٣) لمَّا نَفَدَ الماء الّذي كان مع أُمّ إسماعيل، واشْتَدَّ الظَّمأُ بالصَّبِيّ، سَعَتْ أُمُّهُ بيْنَ الصَّفَا والمرْوَةِ بَاحِثَةً عَنِ الماء، لعلَّ اللَّهَ يَجْعَلُ لهَا مِنَ الشّدَّةِ فَرَجاً، فأرْسَلَ اللَّهُ المَلَكَ فَبَحَثَ في مكان زَمْزَم، فَتَفَجَّرَ الماء، ولمَّا رَأتْ ذَلِكَ أقبَلَتْ وسَقَتْ وَلَدَها «إسماعيل» وقد امتلأ قَلْبُهَا سُروراً وَفَرَحاً.

(٤) أحَسَّتْ قَبِيلَةُ جُرْهم ـ وهي من القَبَائل العربيّة ـ بأنّ الواديَ قَدْ صَار فيه ماءٌ، فوفَدَتْ إلَيْهِ، وضَرَبَتْ فيه خيامَهَا إلى جانب الماء، بَعْدَ أن استأذنَتْ من «هاجر» أم الصبيّ وأذِنَتْ لهم.

(٥) شبَّ «إسماعيل» وتَعَلَّمَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّة، وتَزَوَّج امرأة من «جُرْهم» ثمّ طلَّقَها بإشارة من أبيه الذي كان يتعهَّدُهُ آناً ثُمَّ آناً، لقد اختبرها «إبراهيم» عليه السلام، فوجدها شاكيةً متضجّرةً من شظَفِ العيْشِ وشِدَّته.

ثم تزوَّج «إسماعيل» عليه السلام بامرأةٍ أُخرى.

قالوا: وَقَدْ وُلِدَ لإسماعيل عليه السلام (١٢) ولداً ذكراً، وكانوا رُؤساء قبائل، ومن نَسْلِه تكاثر العرب الّذين يُعْرَفُونَ بالعرب المستَعْرِبَة، ومِنْهُم قُرَيش.

قالوا: وَوُلِدَتْ لَهُ أيضاً بنْتٌ زَوَّجها من ٱبْنِ أَخِيه «عيسُو» بْن إسحاق.

(٦) ثم أمر الله عزّ وجل «إبراهيم» في المنام بأنْ يذْبَحَ ولَده «إسماعيل» ابتلاءً لهما، واسْتَسْلَما لأمْرِ الله، وعنْدَ مباشرة التنفيذ فداه الله عزّ وجل بذِبْحٍ عظيم، جاء به الملَكُ «جِبْرِيلُ» عليه السلام.

(٧) عَمِلَ «إسماعيل» مع أبيه «إبراهيم» عليهما السلام، في عمارة الكَعْبَةِ المشرَّفَةِ بَيْتِ الله الحرام، وقاماً بأداءِ مَنَاسِكِهما كما أمَرَ اللَّهُ جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانه.

(٨) عاش «إسماعيل» عليه السلام (١٣٧) سنة، ومات بمكَّة، ودُفِنَ في الحِجْر، المعروف بحجر إسماعيل إلى جانب الكعبَة، بجوار قَبْر أُمِّه «هاجر» وكانت وفاته بعد وفَاة أبيه «إبراهيم» عليهما السلام بـ(٤٨) عاماً.

واللَّهُ أعلم.

**التدبّر:**

جاء ذكْرُ «إسماعيل» عليه السلام في القرآن (١٢) مرَّة، في (٨) سُور، ويحْسُن بي أن أتَدَبَّرَ هذه النصوص تدبّراً تكامليًّا.

**النص الأول:**

ما جاء في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) في قول الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

فوصَفَهُ الله عزّ وجلّ في هذه الآية بأنَّهُ من زُمْرَةِ الأخيار من المرسلين.

وقد سبَقَ تَدَبُّر هذا النَّص، لدى تدبّر سورة (ص/٣٨).



**النّص الثاني:**

ما جاء في سورة (مريم/١٩ مصحف/٤٤ نزول) الّتي أجتهد مستعيناً بالله العليم الوَهَّاب في تدبُّرها، وهُوَ الآيتان: (٥٤ و٥٥) من السُّورة.

قول الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ﴾:

الخطابُ موجَّهٌ لكُلِّ صالح للخطاب، ويجب عليه أنْ يتَلَقَّىٰ آيات كتاب اللَّهِ القرآن، قراءةً، أو تِلاوَةً، أو سَماعاً.

أي: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المتَلقِّي أيًّا كنْتَ، خبراً مُنَزَّلاً في الكتاب (=القرآن) فاحفَظْهُ، وتَدَبَّرْهُ، واستذكِرْهُ عنْدَ المناسبات الدّاعيات لتنْتفع به، ولتفيد به غيرك.

إنّ الأمْرَ بالذّكر يسْتَدْعي التَّلَقِّيَ والْفَهْمَ بتَدَبُّر، ووضْعَ الشيْءِ المأمور بتذكُّرِهِ في الذاكرة، لاستدعائه والانتفاع به عند المناسبَات الدّاعيات.

وهذه الجملة معْطُوفَةٌ على نَظِيراتِها في السُّورة.

قول الله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾

أي: إنَّ «إسماعيل» عليه السلام كان من صفاته البارزات في حياته، صِدْقُ الْوَعْد، فكان عليه السّلام لا يَعْدِ وعداً ما وهو يُريدُ الإخْلافَ فيه، بل يَعِد وهو عازمٌ على الوفاء بوعده. وكان عليه السّلام إذا وَعَدَ وعْداً وَفَّىٰ به، مَهْمَا كَلَّفَهُ الأمر، باستثناء ما يكون فوق طاقته الوفاء به، فالوفاء بالوَعْد من لوازِم الصّدْقِ فيه.

ومن صِدْقه في وَعْدِه عليه السلام أنَّهُ لمَّا أنْبَأَهُ أبوه «إبراهيم» علَيْهما السَّلام، قائلاً لَه: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ أي: إنِّي مأمُورٌ من قِبَلِ رَبِّي بأنْ أَذْبَحَكَ، وقَدْ جاء هٰذا الأمْرُ حُلْماً في المنام، وأحْلَام الأنبياء والمرسَلِينَ صادقة، ويجب طاعَةُ الأمْرِ الرَّبَّانيّ الوارد فيها. فقال «إسماعيل» الابْنُ عليه السلام لأَبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فَوَعَدَ أباهُ بأن يَسْتَجِيبَ لأمر الله ويَسْتَسْلِمَ للذّبح، فوفَّىٰ بوعْدِه، وذهبَ مع أَبِيه ليذْبَحَهُ طاعةً لِأَمْرِ الله عزّ وجلّ، وأسْلَما أَمْرَهُما إلى الله، فَتَلَّ إبراهيم ولَدَهُ إسماعيل لِلْجَبِين، وأخذ وسائله لذبحه، عندئذٍ

جاء النداءُ الرَّبَّانِيُّ عن طريق الوحي: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَآ﴾ وجاءه الأمْرُ بالتَّوَقُّف عن ذَبْحِ ولَدِه «إسماعيل» وفداه الله بذِبْحٍ عظيم، إذ أحضر له الملك كَبْشاً عظيماً قَدَّمه له، فذبحه بَدَل ذبْحِ وَلَدِهِ بأَمْرِ رَبّه.

قول الله تعالى:

﴿... وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾:

سبق لدَى تدبر الآية (٥١) تحليلُ نظير هذه العبارة، فلا حاجة إلى الإعادة.

فأثبتَتْ هذه العبارة أن «إسماعيل» عليه السلام قَدْ كَانَ نبيًّا يُوحَىٰ إليه، وكان رَسُولاً حاملاً لوظائف رسالة رَبَّانيَّةٍ ومؤدِّياً لها.

أمّا رسالَتُه فكانت لأهله أوّلاً، فلِقَبيلَتِه «جُرْهُم» الَّتِي ساكنَتْهُ في مكَّة، ثُمَّ امتدَّتْ إلى سائر قبائل العرب.

وذكر المؤرخُون أنَّ الله أرسَله أيضاً إلى قبائِلِ الْيَمن، وَإِلَىٰ الْعَمَالِيق، فَسُكَّانُ شبه الجزيرة العربيّة كانوا مجال امتداد رسالته.

قول الله تعالى:

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾:

أي: وَكان مُلْتَزِماً بمَنْهَجِ دَعْوَةِ الأقربين، والعَمَلِ على إصْلَاحِهم، والاهتمام بأَمْرِهِمْ بالمعروف ونَهْيِهِمْ عن المنكر، قبْلَ أنْ يَنْتَقِلَ إِلَىٰ غيرهم، وهذه السّياسة الحكيمة هي السّياسةُ الّتِي كان إبراهيم عليه السلام ملتزماً بها، وكذلك سائر النبيّين والمرسَلِين، وهي السّياسة الّتي أمَرَ اللَّهُ بها رسُولَهُ محمّداً ﷺ، إذْ كلّفَهُ أن يُنْذِرَ عَشِيرَتَه الأقْرَبين.

أمّا وصْفُ «إسماعيل» عليه السلام بأنّه كان يأمُرُ أهلَه بالصلاة والزّكاة، فلا يُفيد أنّه كان يقْتَصِر على الأمر بهما في توجيه أهله لفِعْل

الخيرات وترك المنكرات، إذْ ليْس في الجملة حصْرٌ، بل هو خَبَرٌ عادِيٌّ يَصِحُّ أَنْ يضاف إليه أخبارٌ أُخْرى بلا حصر، ولكنَّه يُفِيدُ أنَّه كان عليه السّلام يُولِي الأمْرَ بالصلاة وبالزكاة عنايةً فائقة، لأنَّهما الرُّكْنَان الأوَّلان من أرْكان الإسلام، بعد إعلان الانتماء إلى الدّين، الَّذي آمَنَ الْقَلْبُ بقاعدَتِه الإيمانيَّة وبأركانه، وكان يكرّر ذلك كلّما دعَتْ الحاجة إلى التكرير.

أمَّا الصلاة فكانت عند إبراهيم وسائر المرسلين عليهم السّلام تشتملُ على قيامٍ، وَرُكُوعٍ، وسُجودٍ، وتلاواتٍ، وأذْكَارٍ، وأدعية، دون أن نَجْزمَ بالتفصيلات القابلات للتَنَوُّع.

وأمَّا الزَّكاة فهي حقٌّ ماليٌّ مفروضٌ على الواجدين، يَبْذُلُونَهُ لذوي الحاجات، وفي سبيل نَشْر الدّين، ولا نستَطِيعُ أنْ نَجْزِمَ بالمقادير الّتي كانَتْ تَجِبُ على المؤمِنين في أموالهم، في الشرائعِ السابقة، إذْ ليْسَ لَدَيْنَا نُصُوصٌ ثابَتَةٌ تُبيّنُ ذلك.

قول الله تعالى:

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ۝٥٥﴾:

أي: وَكان عند رَبّهِ جَلَّ جَلَالُهُ مَرْضِيًّا عَنْه، لأدائِه مَا هُو مفروضٌ عليه تُجَاه رَبّه، ولِتَوَسُّعِهِ في أعمال البِرِّ الكثيرة، ولتحقُّقِهِ في عبادة رَبّه بمرتَبَةِ الإحسان، أعلَىٰ مَرَاتب المؤمنين.

مَرْضِيّ: اسم مفْعول بمعنى أنّ الله عزّ وجلَّ قَدْ رضي عنه.

**النصّ الثالث:**

ما جاء في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) وهو الآيات من (٨٣ ـ ٨٦) من السورة، وقد جاء فيه ذكر (١٨) نبيًّا رسولاً، وجاء في الآية (٨٦) منه قول الله عزّ وجل:

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾:
فجاء ذكْر «إسماعيل» في هذا النَّصّ بأنَّهُ من المرْسَلِينَ، وبأنَّه مِنَ الّذين فضَّلَهُمُ اللَّهُ على العالمين.



## النصّ الرابع:

ما جاء في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ حكايةً لقَوْل إبراهيم عليه السّلام في ثنائه على ربّه:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾:

أبَانَ هٰذا النَّصُّ أَنَّ «إبْرَاهيم» عليه السّلام أثْنَىٰ علَىٰ رَبِّهِ حامداً، إذْ وهَبَ لَهُ على كِبَرِ سِنِّه إسْماعيل وإسحاقَ استجابة لدُعائه، الّذي دَلَّ عليه ثناؤه على رَبّه بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

وقَدَّم «إبراهيم» ابْنَهُ «إسماعيلَ» في عبارته على ابْنِه «إسْحَاق» لأنَّ الله وهَبَهُ له أوّلاً من أمَتِه «هاجر» المصرية، ثُمَّ وَهَبَ لَهُ «إسْحَاقَ» من زَوْجَتِه «سَارَة» الَّتي كانت عاقراً، فأكْرَمَها اللَّهُ وهِيَ عَجُوزٌ عقيم، فأصلَحَها للحَمْل والولادة فأنْجبَتْ «إسْحَاق» والله على كُلِّ شيْءٍ قَدِير.



## النصّ الخامس:

ما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

جاء في هذه السورة ذِكْرُ «إسماعيل» عليه السلام ضمن ذِكْرِ عَدَدٍ من المرسَلين، وَجاء في هاتَيْنِ الآيَتَيْن بعد ذلك بيانُ أنّ إسماعيل وإدْريسَ وَذَا الكِفْلِ كَانُوا من الصَّابرين، وأنَّهُمْ كانوا من الصَّالحين، وأنَّ الله عزّ وجلّ بعظمة رُبوبيته أدْخلَهُمْ في رَحْمَتِه، وهذا يَشْمَلُ إدْخالَهُمْ في الدّرجاتِ الرَّفيعات من جنَّتِه.

❁ ❁ ❁

**النصّ السادس، والسابع، والثامن، والتاسع، والعاشر:**

ما جاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) وقد جاءت هذه النصوص فيها ضِمْن نصّ طويل، وهو الآيات من (١٢٥ ـ ١٤٠) من السورة.

**فالسادس**: هو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿... وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾:

﴿وَعَهِدْنَآ﴾: يُطْلَقُ الْعَهْدُ على عدّة معانٍ، ومنها: الوصِيَّة، وكُلُّ ما أَمَرَ الله عزّ وجلَّ بِه أوْ نَهَىٰ عنه، وهٰذا هو المناسب لعهد الله عزّ وجل إذْ أوحىٰ إلى إبراهيم، فكلّفَهُمَا أَنْ يُطَهِّرا بَيْتَه الحرام في مكَّة من الأرجاس المادّيَّة والمعنويّة، ومن الأرجاس المعنوية الأوثان، وسائر الشركيّات، والمعاصي والمحرَّمات. وأمَرَهُما بأن يَجْعلاهُ طَاهراً لعبادته، بالطواف، والاعتكاف، والصَّلاة.

**الْعَاكفون**: هم الملازمون لعبادة الله بهذه الملازمة في فِناءِ بيت الله الحرام، انقطاعاً عن شواغل الدُّنيا، للذكر والتسبيح والتأمُّل والتفكّر في آيات الله وفي آلائه، وتلاوة آياته البيانيَّة المنزّلَات، إلى غير ذلك من أنواع عبادات تلائم الملازمة في الْبُيُوت المخصَّصَةِ لعبادة الله.

**الرُّكَّع**: جَمْعُ «الرَّاكع». **والرُّكوع**: هو في اللّغة الانحناء، وأقصاه أن تَمَسَّ الرُّكْبَتَان الأرض. والرُّكوع الشرعي في الإسلام، هو الانحناء بعد القيام، حتَّىٰ تُوضع الرَّاحتان على الرُّكبتَيْن.

**السُّجُود**: جمع «السَّاجد» يقال لغة: سَجَدَ يَسْجُدُ سُجُوداً، أي: خضع، وأحْنَىٰ ظَهْرَهُ وتَطَامَن، ويقال: سَجَدَ، أي: وضعَ جَبْهَتَهُ على الأرض، فهو سَاجد، وجَمْعُهُ «سُجَّد» و«سُجُود» على صيغة المصدر.

والسجود الشرعي في الإسلام، يكون بوضع الجبهة على الأرض، مَعَ الكفَّيْنِ، والرُّكْبَتَيْن، ، والْقَدَمَيْن.

❁ ❁ ❁

**والسابع**: هو قول الله عزّ وجل في سورة (البقرة) أيضاً:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾:

أبان هذا النصّ أنَّ «إسماعيل» عليه السلام قد اشْتَرَكَ مع أبيه «إبراهيم» عليه السّلام، في بنَاء الكعْبَةِ بيت الله الحرام، واشتَرَكَ مَعَهُ في الأدعية الّتي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا هٰذا النَّصّ، ويظهر أنّه كان يومئذٍ بالغاً راشداً، أو شابًّا جَلْداً.

﴿ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾: أي: من الكَعْبَة بيتِ الله الحرام، وقواعد البيت هي أساساته، ورَفْعُهَا يكُونُ ببناءِ الجدْرَانِ عليها.

والتعبير برفع القواعِدِ من البيْتِ يَدُلُّ على رفع جُدْرَانِهِ فَوْقَ الأساسات القديماتِ الّتي كَشَفَهَا الله لهما عن طريق الوحي، إذْ هو أوّلُ

بَيْتٍ في تاريخ البشريَّة وُضِعَ للنّاس بَيْتاً لعبادة اللَّهِ عزّ وجلّ فيه، وفي فِنائه.

ودُعاؤُهُما وهما يَرْفَعَانِ القواعد من البيت قد اشتمل على سِتّ فقرات:

**الفقرة الأولى**: دَلَّ عليها: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: أي: تَقَبَّلْ مِنَّا هٰذا العَمَلَ الصالح الذي نقوم به طاعةً لأمْرِك، وابْتِغَاءَ مَرْضَاتِك، فاجْعَلْهُ بفَضْلِك مقبولاً عندك تأجُرُنا عَلَيْهِ يَوْمَ الدّين.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: أي: إنَّكَ وحْدَكَ رَبَّنَا السَّمِيعُ لكُلِّ ما يُسْمَع، والْعَلِيم بِكُلّ مَا يُعْلَمُ، في الوجود كُلّه، ومنه سَمَاعُكَ لدُعَائنا، وعِلْمُكَ بأعْمَالِنَا وَنِيَّاتِنَا، وفي هذا الثناء إشارةٌ ضِمْنِيَّةٌ إلى أنَّهُ جلّ جلاله سيستجيب لدُعائِهما بفضله ومَنِّهِ وجُودِهِ.

وفي العبارة حصر حقيقي دلَّ عليه تعريف طرفي الإسناد، مع توكيد المسند إليه بضمير الفصل «أنت».

**الفقرة الثانية**: دلَّ عليها: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾: أي: واجعلنا مُسْتَسْلِمَيْن مُطِيعَيْنِ لأوامركَ ولنَواهِيكَ في سلوكنا الجسَدِيِّ والنفْسِيّ الظاهر والباطن.

هذا الدُّعاء دَلَّ على أنهما قد اختارا بكامل حُرِّيَّاتهما أن يكونا دواماً مُسْلِمَيْن لله في كُلّ أمورهما، لكنّهما يطلبان من الله عزّ وجل إيجاد الوازع في أنفسهما، والتوفيق، والمعونة للتطبيق بإحسان.

**الفقرة الرابعة**: دلّ عليها: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾: أي: واجْعَلْ بعْضَ ذُرِّيَّتِنَا بِحِكْمَتِكَ وَتَوْفيقك ومَعُونَتِكَ، أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، ومثل هذا الدُّعاء لا يَلْزَمُ منه الْجَبْر، لأنَّ الذُّرِّيَّة لا بُدَّ أن يوجد فيها من يختار بإرادتِه الحرَّة الإيمانَ، وأَنْ تتجه إرادَتُه ليكون مسلماً، فهو بحاجة إلى

وَازِع وتوفيق ومعونة من الله حتى يتحقَّق بالصفات الّتي يكون فيها مُسْلِماً قولاً وعملاً، والأمّةُ تَصْدُقُ بأقلِّ عَدَد.

**الفقرة الرّابعة**: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: أي: وأَرِنَا كيْفِيَّاتِ عبادَتِنَا لَكَ، والأماكنَ الخاصّة الّتي جَعَلْتَها لعبادتِك، وطرائق عبادتك، ومنها مناسِكُ الحجّ، والذبائح التي تُذْبَحُ هدياً ابتغاء مرضاة الله، وأماكنُ ذبْحِها إنْ كانت ذات أماكِنَ خاصة، أو مَذَابح خاصة، إلى غير ذلك من عبادات.

**المنْسَك**: بفتح السّين وكسْرِها، هو في اللّغة الطريقةُ الّتي يُعْبَدُ بها المعبود، كالطواف، والسعي، والصلاة، والحجّ، وذَبْح ذبائِح الْهَدْي، إلى غير ذلك.

وقد طلَبَا رُؤيَةَ المناسِكِ بأعينهما ليقلّداها بالتَّطْبِيق على وفْقِ رُؤيتهما لها، وسبيلُ ذلك يكُونُ عن طريق الوحي، كأن يُرْسِلَ اللَّهُ إليهما جبرِيل فيُؤَدّيَ المناسك أمامَهما، فيتَعَلَّمَانِ منه بالتقلْيد والمتابعة.

ومعلوم أنّ التطبيق الْعَمَليّ أَيْسَرُ وَسِيلَةٍ لاكتساب المعرفة العمليّة.

ولهذا قال الرسول محمد ﷺ لأصحابه: «صلُّوا كمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي» وكان المسلمون يقلّدون الرَّسول في أعمال الحج ومناسكه.

**الفقرة الخامسة**: دلَّ عليها: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

أي اقْبَلْ رَجْعَتَنَا إِلَيْكَ مِنْ خطايانا، فارْجع إلينا بغفرانك وعفوك وحُسْنِ عطائك، وفيضِ جودِك.

**تاب**: هي في اللّغة بمعنى «رَجع» يقال لغة: تابَ العَبْدُ إلى ربّه، أي: عزم على الرُّجوع إلى طاعته، بعد وقُوعه في الخطيئة. ويقال: تَابَ الله على عبْدِه، أي: قَبِلَ رَجْعَتَهُ، فَرَجع إليه بالغفران والعفو، وتجاوَزَ عن خطاياه.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾: أي: إنَّكَ وحْدَكَ يا رَبَّنَا الكثير التوبَة على عبادك المذْنِبين، وإنَّك وَحْدَك الكثيرُ والعظيمُ الرَّحْمَةِ بكُلِّ عبادك.

وفي هذا الثناء على الله معْنَىٰ اسْتجداء تَوْبَتِه ورَحْمَتِه وغُفْرانه وعفوه.

إنَّ إبراهيم كان في ذلك الوقت نبيًّا ورسولاً حتماً، وكان معصوماً عن المعاصي من مرتبة التقوىٰ، ورُبَّما كان إسماعيل كذلك في ذلك الوقت، فدُعاؤهما مَحْمُولٌ على أنَّهما كانَا يَشْعُرانِ بتقصيرهما في حقوق مَرْتَبَتَي البرِّ والإحسان، ويَعْتَبِران ذلِك من الذنوب الَّتي يجب عليهما أنْ يَتُوبَا منها، عليهما السّلام.

**التَّوَّابُ**: صيغَةُ مبالغة لاسم الفاعل «تائب».

**الرحيم**: على وزن «فَعيل» وهذا الوزن من صيغ المبالغة أيضاً.

**الفقرة السَّادِسة**: دلَّ عليها: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

كان في تقدير «إبراهيم» عليه السلام أنَّه يُؤَسِّسُ أُمَّةً كبيرة في بلَادِ العرب، عن طريق ابنه «إسماعيل» عليه السلام. ورُبَّما عَلِمَ ذلك عن طريق الوحي، أو عن طريق الإلهام، والتفرُّس في الحوادث الّتي جرت لَهُ ولِوَلَدِهِ «إسماعيل» وأُمِّه هاجر، إذْ أَمَرَهُ اللَّهُ عزّ وجل بأن يأتي بهما إلى وادي مكة، ويَتْرُكَهُمَا فيه.

وأعلم «إبراهيم» ولَدَه «إسماعيلَ» عَلَيْهما السَّلام بذلك، وأدْرَكا أنَّ هٰذِهِ الأُمَّةَ ستَنْسَىٰ تعليماتِ ومفهوماتِ الدّينِ الّتي يُعَلِّمُهُمْ إياها إسماعيل، وأنَّها ستدخلُ إليهم شرْكيّات ومفهومات باطلات، فتوجَّهَا بالدّعاء لله رَبِّهما بأنْ يَبْعَثَ فيهم رسُولاً مِنْهُمْ، يتحلَّىٰ بالصفاتِ الَّتي ذَكَرَاهَا في دُعائهما.

ورُبَّما كانت صِيغَةُ هذا الدُّعاء قد جَاءَتْهُمَا بوَحْيٍ أو إلهامٍ من الله،

أَوْ أنَّهما كانّا يَعْلَمان أنّ الرَّسول يَنْبَغِي أن يتحلّىٰ بهذه الصفات، حتّى يؤدّيَ رسالة رَبّه في قومه على أحْسَنِ وجْهٍ وأكْمَلِه.

﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾: أي: رَسُولاً من هذه الأمَّة الناطقة باللّسان الْعَربيّ، وقد اسْتجابَ الله دُعاءَهما، فَبَعَثَ في الأمَّة العربيَّة رَسُولاً منهم من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، هو النبيُّ الرَّسول العربي الأميّ محمد بن عبد الله ﷺ، وكان الرَّسولَ الخاتم للأنبياء والمرسلين.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾: أي: يتلو عليهم آيات كتابك الذي ستُنْزِلُهُ علَيْه. وفي عبارة «يَتْلُو» إشعارٌ باحتمال أن يكون أُمّيًّا في أُمَّةٍ أمّيَّة، لا تقرأ ولا تكتُب، كما كانت قبائل العرب حينئذٍ.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أي: ولا يقتصر على تلاوة آيات كتابك عليهم، بل يُعَلِّمُهم الكتابَ كُلَّه، حتَّىٰ يُتْقِنُوا تِلاوَتَهُ وقراءته، ويَجْتَهِدُوا في تَدَبُّر معَانِيه، ويَنْقُلُوه إلى الأجيال من بَعْدِهم، حتَّىٰ يَنْتَشِرَ في الناس أجمعين.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: أي: ويُعَلِّمُهُمْ أيضاً الحكمة في الأمور كلّها ببيانات منه، مضافات إلى ما يشتملُ عليه كتابُكَ المنزَّلُ عليه.

**الحكمة:** هي وضع الأشياء في مواضعها، عملاً، أو فكراً، أو مَعْرِفةً، أو اعتقاداً، أو غير ذلك من أنواع السلوك الإرادي. وتكون الحكمة باختيار أفضل الأشياء وأتْقَنِهَا وأحْسَنِهَا، مِنْ كُلِّ البدائلِ لِمَا تُخْتَارُ له.

وقد استجاب الله دُعاءَهُمَا في رَسُوله مُحَمَّد ﷺ، إذِ اشتملَتْ سُنَّتُهُ القَوْلِيَّة، والعَمَلِيَّة، والإقراريَّةَ، على الحكْمَةِ في كُلّ الأشياء الّتي تَعَرَّضَ لَهَا بعْدَ بِعْثَتِه ﷺ، وتعلَّمها صفْوَةُ أصحابه منه، ونقلَها الحفَّاظُ عنه.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: أي: ويُرَبّيهم بوسائله التربويَّةِ الرَّفيعة على الطَّهارَةِ من

كلّ الأرجاس المادّيّة والمعنويّة. ويُرَبِّيهم على تنميةِ أنْفُسِهِمْ بالأعمال الصالحة الَّتِي تُرْضي الله عزّ وجل.

**التزكيَةُ**: تأتي في اللُّغَةِ بمعنىٰ التطهير، وتأتي بمعنَىٰ النماء، وهذانِ المعنيان يشْمَلَان التَّخلُّصَ مِنْ الأرْجَاسِ الحسيَّة، والأرجاس الفكريَّةِ والنفسيّة والسُّلوكيّة، وإنَّماء الذَّات بالفضائل على اختلاف أنواعها، الفكريّة والنفسيَّة والاعتقادية والسُّلوكية الظاهرة والباطنة.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: في هذه العبارة ثَنَاءٌ عَلَىٰ الله مُشَابهٌ للثناء عليه في العبارات السَّابقات في فقرات الدُّعاء، واختير في هذا الثناء من أسماء الله الحسنىٰ «العزيز» و«الحكيم».

**العزيز**: أي: القوي الغالب، القدير على فعل ما يشاء، والصيغة صيغة مبالغة، إذْ هي على وزن «فعيل». أو صفة مشبَّهَةٌ فيها معنى الثباتِ والدوام.

**الحكيم**: أي: الذي يختار أفضل الأشياء وأحسنها، ويضَعُ كُلًّا مِنْها في أحْسَنِ المواضع الملائمة لها.

وذِكْر هٰذَين الاسمين من أسماء الله الحسْنَىٰ، يُلائم المدْعُوَّ به قبلَهُما، فَبَعْثُ الرَّسُول مُتَحلّياً بالصفات التي سبَقَ شَرْحها، يَتَطلَّبُ قُوَّةً غالبة للتنفيذ، وحكمةً بالغةً في الاختيار.

❀ ❀ ❀

**والثامن**: هو قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة) أيضاً بعد قولِهِ تعالى بشأن إبراهيم عليه السّلام: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾:

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا

تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾:

فذكر أبناء يعقوب عليه السّلام من آبائه «إبراهيم» وهو جَدُّه، و«إسْمَاعيل» وهو عَمُّهُ الْأَكْبَرُ سِنًّا من أبيه، على اعتبار أنّ الْعَمَّ كالْأَب تقديراً واحتراماً ووُجُوبَ بِرّ، وذَكَرُوا أَبَاهُ «إسْحَاقَ».

وذكَرُوا أنَّ مَعْبُودَ «إبراهيم وإسماعيل وإسْحَاق» معبودٌ واحِدٌ لا شريكَ له، وهو اللّٰهُ عزّ وجلّ، وأعْلَنُوا لِأبيهم يعقوب أنَّهم لهذا الإلَٰهِ الواحد مُسْلمون.

لكن كثيراً من ذَرَارِيهم بعْدَ ذَلِكَ غيَّرُوا وَبَدَّلُوا وحرَّفوا في الدِّين، وأدْخَلُوا الشّرْكيات والوثنيات، واتَّبَعُوا الشهواتِ، وارتكَبُوا كبائر الذُّنُوب، وكانوا مجرمين.

❁ ❁ ❁

**والتاسع**: هو قول الله عزّ وجلَّ في سورة (البقرة) أيضاً:

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾.

**الْهُود**: اليهود.

أي: وقال اليهود للمؤمنين المسلمين: كُونُوا يَهُوداً تَهْتَدُوا.

وقال النصارى للمؤمنين المسلمين: كونوا نصارىٰ تَهْتَدُوا.

﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: أي: قُـلْ يَـا أَيُّـهَـا المؤمِنُ الْمُسْلِمُ الَّذِي آمَنَ بمحمَّدٍ وبما أَنْزَل الله إليه: لا أَتَّبِعُ ملَّةَ اليهود، ولا مِلَّةَ النَّصَارَىٰ المحَرَّفَتَيْن، بل أَتَّبِعُ مِلَّةَ إبراهيم اتّباعاً حَنِيفاً مائلاً عن كلِّ انْحِرَافٍ واعْوِجَاجٍ إلى الاستقامةِ علىٰ الحقّ المنزَّل مِنْ عِنْدِ رَبّي، ومَا كان إبراهيم من المشركين الَّذِين يَعْبُدُون من دُونِ الله إلٰهاً آخر، كما فعل النصارى بعيسى عليه السّلام، وكما فَعَلَ اليهود إذ اتَّخَذُوا إِلَهَهُمْ هَوَاهُم، وعَبَدُوا من دون الله ما لم يُنَزّل به سلطاناً، وإذ اتخذ بعضُهُم عُزَيْراً ابناً لله سبحانه وتعالى عمّا يصفون.

**الملة**: الدّين، والشريعة.

﴿حَنِيفًاۖ﴾: الحنيف هو المائل عن كلّ الأديان الباطلة، وهذا لا يكون إلّا بالاستقامة على دين الله الحقّ ذي الصراط المستقيم، لأنّ كُلَّ الأديان الباطلة مائلةٌ عنه إلى جهات مختلفات، مالئاتِ الساحات اللَّواتي ليست على الصراط المستقيم، فالميْلُ عنها جميعاً لا يكون إلا بالاستقامة على صراط الله المستقيم، إيماناً وعملاً وسُلُوكاً ظاهراً وباطناً.

وقد جاء في هذا النَّصّ بيانُ أنَّ إسماعيل عليه السلام من الرُّسل الَّذِين أَنْزَلَ الله إليهم بيانَاتٍ دينيَّة، على شكل صحف، أو زُبُر، أو كُتُب، لتكونَ نصوصاً هاديةً لأممهم.

**الأسْبَاط**: هم أولادُ وأحفادُ يعقوب عليه السلام، وأحفادُ أحفاده، فقد بعثَ الله منهم رُسلاً وأَنْزَلَ إليهم تعليماتٍ، ووصايا في نصوصٍ دينيَّة، دون أنْ يأتي في القرآن ذكْرُ أسمائهم.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾: أي: لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وبين غيره في الإيمان، فلا نُؤمن ببعضهم ونكْفُر ببَعْضِهِمْ، بل نُؤْمن بهم جميعاً، لأنَّهُمْ جميعاً رُسُلُ الله، والإيمان بالله يوجب الإيمان بكلِّ رُسُلِه، أمّا

بالنّسبة إلى اتباع الشرائع والأحكام اتّباعاً إسْلاميًا، فَنَحْنُ نَتّبعُ مَا أَمَرَنَا اللَّهُ باتّباعه، وهو ما أنزل إلى الرسول محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وقد دَلَّ على هذا قول الله تعالى عقب هذه العبارة: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾: أي: مُسْلِمُونَ قِيَادَنا له، في اتّباعِ أوامره واجتناب نواهيه، بحسب الصيغة الأخيرة الّتي يُوَجّهُهَا لنا.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍۖ﴾:

﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾: أي وإنّ نَأَوْا مُدْبِرين فلَمْ يُؤْمِنُوا بمثل ما آمنتم به من الحق.

﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍۖ﴾: أي: فإنَّما هم في خلافٍ وعداوة، وسمِّي هذا شقاقاً، لأنّ كلّ فريق مِنْ فريقَي الخلاف، قد اتَّخذ شِقًّا، أي: ناحية غير شِقّ صاحبه، وهذا يُولّد لدى الفريق المبْطِل حِرصاً على محاربة الفريق الآخر، حامل لواء الحقِّ والداعي إليه. ولهذا جاء في التعقيب قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿.. فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: أي: فسيتولّى اللّهُ دَفع شرورهم عَنْكَ، إذا اتّبَعْتَ أوامر اللّهِ ونواهيَهُ فيما يَتَعلَّقُ بشؤونهم، وسَيَمْنَحُكَ غَنَاءً بمَا يُعْطِيك من وسائلِ نصْرٍ عليهم، إذا كادُوا لَكَ كيداً ما.

وعَلَيْكَ أنْ تَلْجأَ إلى الله بالدُّعاء الصادق، والعمل الصالح، فهو السَّمِيع لدعائك، والْعَلِيم بأعمالك الظاهرة والباطنة، وهو سميع لكلِّ ما يُسْمَع، وعليم بكُلّ ما يُعْلم.

الخطاب في النصّ موجَّهٌ للرَّسُول أوّلاً، فَلِكُلِّ حاملٍ لِرَسَالَتِه من أمته، وقد جاء الخطاب بأسلوبِ الخطاب الإفرادي، لإشعار كلِّ واحدٍ من المخاطبين، بأنَّ الله جلَّ جلالُه يَقْصِدُهُ في الخطاب، وهذا يولّد لَدَيْه دافعاً قويًا للإيمان والطاعة، والعمل بمراضي الله، والثقة التامّة بوعده الكريم.

❁ ❁ ❁

**والعاشر**: هو قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة) أيضاً:

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾:

زعم اليهود أنّ هؤلاء الرُّسُل وَفيهم «إسماعيل» وأنّ الأنبياء والرسُلَ من الأسباط كانُوا يهوداً.

وزَعَمَ النَّصَارَىٰ أَنَّهُمْ كانوا نصارى.

وكتَمَ الفريقان ما لديهم من علم عن هؤلاء الرُّسل، وهذا الْعِلْمُ فيه شهادةٌ من الله تُثْبتُ أنَّهم كانُوا على الملّة الحقّ الّتي لا شركَ فيها ولا تحريف، وهو ما تغيرت فيه اليهوديَّة والنصرانيَّة عن دين الله الحقّ.

ولهذا أمَرَ الله عزّ وجلَّ رَسُولَهُ فكُلَّ دَاعٍ إلى الله من أمَّتِهِ أنْ يَقُول لهم: إنكم تَكْتمُونَ عَلْمًا عنْدَكم جَاءَكم من الله، وتَجْعَلُونَ أنفُسَكُمْ أَعْلَمَ من الله، فتقولون أقوالاً على خلاف ما عندكم من عِلْم أتاكُمْ من الله رَبِّكم.

وهذا الكتمانُ من أعظم الكبائر، وقد انْحَدَرْتُم به إلى دَرَكَةٍ سَحِيقَةٍ لَا تَجِدُونَ دُونَها أشَدَّ ظُلْماً منها، بل يشاركُكُمْ فيها أَظْلَمُ الظالمين، وهذا ما دَلَّ عليه قول الله عزّ وجل في النصّ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾؟ استفهامٌ يُرادُ به بيَانُ أنه لَا يُوجَدُ أظلَمُ مِنْهُ، ولكن يُوجَدُ مَنْ يُسَاويه في الظُّلم.

وبعد ذلك توعَّدَهم الله بالعذاب على ظلمهم، بأسلوب غير مباشر، فقال لهم: ﴿.. وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾.

نلاحظ في هذه النصوص الخمسة من سورة (البقرة) ما يلي:

(١) أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ عَهِدَ إلى إبراهيم وابْنِه إسماعيل بتطهير بيته الحرام في مكّة للطائفين والعاكِفِينَ والرُّكَّعِ السجود.

(٢) أنّ إسماعيل عليه السّلام قَدْ عَمِل مع أبيه إبراهيم عليه السلام، في رَفع القواعد من البيت الحرام.

(٣) وأنّه دَعا مع أبيه بالدَّعَوات الّتي دَعَا بها أبوه رَبَّه.

(٤) أنَّ أبناء يعقوب عليه السّلام قَدْ ذكَرُوا «إسماعيل» ضمْن آبائهم وقَدَّمُوه في الذكر على أبيهم إسحاق، باعتبار أَنَّ العمّ يُطْلَقُ عليه لفظ «أب» احتراماً وتوقيراً وطاعةً وبرّاً.

(٥) وأنّ الله عزّ وجلّ قدْ أنْزَل إلى إسماعيل تعاليم دينيَّة كما أنزل على أبيه إبراهيم عليهما السلام.

(٦) وقد ذكر «إسماعيل» قبل ذكر أخيه «إسحاق» إذْ كان أسبَقَ منه وجوداً.

(٧) وأن «إسماعيل» كان على الحنيفية الّتي كان عليها أبوه، فلَمْ يكن يهوديًا ولا نصرانيًا، كما زعم اليهود والنَّصارىٰ.

❀ ❀ ❀

## النصّ الحادي عشر:

ما جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) وهو قول اللَّهِ عزّ وجل فيها خطاباً لرَسُوله فلِكُلّ مؤمن به وبرسالته:

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾:

في هذا النصّ يأمُرُ اللَّهُ عزّ وجلّ رَسُولَهُ فكُلَّ مُؤْمِنٍ به وبما أَنْزَل اللَّهُ عَلَيْهِ في الرّسالة الخاتمة، أن يُعْلِنَ إيمانَه بما أَنْزَلَ اللَّهُ على رُسُلِه السَّابقين، وأنْ يُعْلِنَ أنَّهُ لَا يُفَرّقُ بَيْنَ أحَدٍ من الرُّسل وبين غيره في الإيمان، أمَّا التطبيقات الإسْلَاميَّةُ العمليّة فهو فيها وكذلك سائر المؤمنين مُسْلِمُونَ لله مُسْتَسْلِمُون، متّبِعُون فيها لأوامره ونواهيه، وفْقَ آخِرِ بيان يُنَزِّلُهُ للعمل به، دُونَ تَشَبُّثٍ بما كان أنْزَلَ من قبله من أحكام وتكاليف وأوامر ونواهي، وتَتَعَلَّقُ بأنواع السُّلُوك العمليّ الجسَدِيّ والنفسيّ.

وتَحْلِيلُ الآية (٨٤) في هذا النَّصّ قَدْ سبق نظيره لدى تحليل الآية (١٣٦) من سورة (البقرة) تحت عنوان «النصّ التاسع» بفارق أن الآية (١٣٦) التي من سورة (البقرة) قد جاء فيها: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ وكذلك بالنّسبة إلى سائر الرسل المذكورين فيها. أمّا الآية (٨٤) الّتي من سورة (آل عمران) فقد جاء فيها: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وكذلك بالنسبة إلى سائر الرُّسل المذكورين فيها. والغرض من هذا التنويع الإشارة إلى أنّ بعْضَ ما أنْزَل الله من بيانات في رسالاته لعباده هي من قبيل التعليم النافع لهم دون أن يكون مقترناً بتكليفٍ في أمْرٍ أو نَهْي، وهذه يلائمها من التعبير عبارة: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾. وأنّ بعضها الآخر قد اشْتَمل على تكاليف في أمْرٍ أو نَهْيٍ، وهذه يُلائمها مِنَ التعبير عبارة: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ إذ في حرف «علَىٰ» معنى الاستعلاء الملائم للتكاليف الرَّبَّانية.

على أنّ استعمال حرف «إلىٰ» في سائر النصوص القرآنيَّة المشابهة، تشملُ دَلَالَتُه النُّصوصَ البيانيَّة التعليميَّة الّتي ليس فيها تكاليف بأمر أو نهي، والنُّصوصَ البيانية التكليفيَّة الّتي فيها أَمْرٌ ونَهْي، ويُلاحظ حينئذٍ في معنى «إلى» أنَّ ما أُنْزِلَ إلىٰ العباد من رَبّهم ولو كان تكليفاً، هو لخيْرهم وسَعَادَتِهم ومصالح حياتهم في الدّنيا، ولتحقيق سعادتهم يوم الدين، يوم الخلود والبقاء.

**النصّ الثاني عشر:**

ما جاء في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) وهو قول الله عزّ وجلَّ فيها، خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾:

فجاء في هذه الآية ذكر «إسماعيل» عليه السَّلام ضِمْنَ أنبياء أوحَىٰ الله إليهم، واصطفاهم للنبّوة.

وبهذه الدراسة للنصوص التي جاء فيها ذكر «إسماعيل» عليه السلام، تبيّن لنا التكامل فيما بينها، وأنَّهُ ليس فيها مكرَّرات.

وبهذا انتهىٰ تدبّر الدرس الخامس من دروس السورة، والحمد لله على معونته وتوفيقه وفتحه.



## (٩)
## التدبر التحليلي للدرس السادس من دُروس سورة (مريم) وهو الآيَتَان: (٥٦ و٥٧)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾:

هذا النَّصُّ قَدْ جاء فيه ذِكْرُ النَّبيّ الرَّسُولِ «إدْرِيسَ عليه السلام، وجاء ذِكْرُهُ في القرآن مرّةً أُخرَىٰ، وهو النَّصّ الّذي تَدَبَّرْنَاهُ في الدّرس الخامس السابق، وهو قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) معطوفاً على عدَدٍ من الرُّسُل عليهم السلام.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾:

جاء في هذين النَّصَّيْن وصف «إدْريس» عليه السلام بسِتّ صفات هي ما يلي:

**الصّفَةُ الأولَىٰ**: أنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً، دَلَّ على هذا الوصف قول الله عزّ وجلَّ في سورة (مريم): ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾.

**صديق**: على وزن «فِعّيل» من صيغ المبالغة والتكثير، ويأتي بمعْنَيَيْن:

**المعنىٰ الأول**: أنَّه عظيم الصّدْق في أقواله، وفي أعماله.

• أمّا الصّدق في الأقوال بالنسبَةِ إلى المتكلّم، فهو أن يقول المتكلّم كلاماً مطابقاً لما يَعْتقد.

• وأمّا الصَّدق في الأعمال، فَهُو أن تكُونَ إرادةُ العامل بعملِه مطابقَةً لما يَدُلُّ عليه العَمَلُ الظاهر، فلا يكون منافقاً ولا مُرَائياً يُرِيدُ بعَمَله الظاهر غير ما يَدُلُّ عليه.

فالصلاة عمل ظاهر، يَدُلُّ على أنَّ المصلّي يَعْبُد الله بها، فإذَا كان يُريد بصلاته هذه مراءَاةَ الناس، ليكْسِبَ منهم مغنماً، إذْ يتصوّرون أنّه من أهل التقوى، كان كاذباً في عمله غير صادق.

وإعلانُ الشهادتَيْنِ اللّتَيْنِ تُدْخِلَان الكافر في الإسلام، عمل ظاهر يدلُّ على أنّ النّاطق بالشهادتين مؤمِنٌ بأرْكانِ الإيمان، فإذا كان يُريد بالنُّطْق بِهما إيهامَ المسْلِمين بأنّه صار مُسْلِماً، وهو في قلبه غَيْرُ مؤمِنٍ حقًّا بأرْكان الإيمان، كان كاذباً في عمله هذا غَيْرَ صادق، وهو كافرٌ منافق صاحب غرض يقصِدُه من نفاقه، وكالشهادَتين سائر الأعمال الإسلاميَّة بالنسبَة إليه.

وقد صَحّ عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقاً، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّىٰ الْكَذِبَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّاباً».

**المعنى الثاني:** أنّه كثير التَّصْدِيقِ بمَا يَأْتِي مِنْ بَيَانَاتٍ عن الوحي الصَّادق، فلا يشُكُّ في شيءٍ منها، مهما كان من العجائب والغرائب وخوارقِ العادات.

**الصفة الثانية:** أَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا، أي: اصْطَفَاهُ الله للنُّبُوّة، فأوحَىٰ إليه ونبَّأه بما شاء أن يُنَبِّئَه به من أمور الدّين، ومن الحكمة، ومن الحقائق الغيبيّة، وغير ذلك.

دلّ على هذه الصفة قول الله تعالى في سورة (مريم): ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

**الصفة الثالثة:** أَنَّهُ كان عليه السّلام رَسُولًا، إذْ ذَكَرَهُ الله عزّ وجل ضمن طائفة من الرُّسُل في سورة (الأنبياء) فقال تعالى فيها عطفاً على عدد من الرسل:

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

فهو بهذا البيان قد كان رَسُولاً لأمَّةٍ من الأمم السابقة، وسيأتي إن شاء الله ما ذكره المؤرخون بشأنه.

**الصفة الرابعة:** أنَّهُ عليه السلام قد كان من الصّابرين، وقد دَلَّ على هذه الصفة ما جاء في الآية الآنفة الذكر من سورة (الأنبياء).

أي: كان من الصابرين على مشقَّات العبادات، وما كان منها من أفعال ينبغي له أن يفعلها، أو يَحْسُنُ به أن يفعلها. وما كان منها من تُرُوكٍ يَنْبَغِي لَهُ أن يَتْرُكَها، أو يَحْسُنُ به أنْ يَتْرُكها.

وكان من الصابرين أيضاً على ما كان يَبْتَلِيه اللَّهُ به من المصَائِب والمؤلمات.

**الصفة الخامسة:** أنَّهُ كان عليه السَّلام من الصالحين، وقد دَلَّ على هذه الصفة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء) متحدّثاً عنه ضمن طائفة من المرْسلين: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾:

ومعنى كونه من الصالحين أَنَّهُ كان عليه السَّلامُ خالياً من الشوائب المفُسِدَة لما تكون فيه. وَكان من النافِعين المفيدين حيثُما حلَّ وارتَحَل.

يقالُ لغة: صَلَح الشيءُ، أي: زَال عنْهُ الفساد. وصار نافعاً مفيداً لَا فَسَاد فيه.

وقد جاء في القرآن لفظ «الصّالِحين» وصفاً للأنبياء والمرسَلين، ووصفاً للمؤمنين ذوي الدّرجات الرّفيعات في البرّ والإحسان.

**الصفة السادسة:** أنّ اللَّهَ عزّ وجلَّ قَدْ رَفَعَهُ مكاناً عَلِيًّا، أي: رفَعَهُ الملَكُ الّذِي أَمَرَهُ الله برفعه إلى السَّماء الرابعة، لأنّ الله عزّ وجلَّ قضىٰ بأن تُقْبَض رُوحُه وهو في الموضع الذي وصل إليه من السّماء الرابعة، قال المؤرخون: وكان عمره حين رَفْعِه (٨٢) سنة.

وجاء في حديث معراج الرَّسُول ﷺ، الّذي رواه البخاريُّ ومسلم، قول الرَّسُول:

«ثُمَّ صَعَدَ بي (أي: جبريل) حتَّىٰ أتَىٰ السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ، فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟. قال: «جبريل». قيل: وَمَنْ مَعَكَ؟. قَالَ: مُحَمَّد. قيلَ: وقَدْ أُرْسِلَ إلَيْه؟. قال: نعم. قِيلَ: مَرْحباً بِهِ، فَنِعْمَ المجيءُ جَاءَ. فَفُتِحَ. فلَمَّا خَلَصْتُ فإذا إدْرِيس، فقال: هذا إدْرِيسُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمْتُ علَيْه، فَرَدَّ. ثُمَّ قَالَ: مَرْحباً بالْأخ الصَّالِحِ والنَّبِيِّ الصَّالِحِ».

قول الله تعالى في نصّ سورة (مريم):

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾:

أي: وضَعْ في ذاكرَتِكَ أَيُّها المتلَقِّي أيًّا كنْتَ خبراً منزلاً في الكتاب (= القرآن) فاحفظه، وتَدَبَّرْهُ، واسْتَذْكِرْهُ عند المناسبات الداعيات لتنتفع به، ولتفيد به غيْرَكَ.

وقد سبق تدبُّر نظائر هذه العبارة، مع مزيد من البيان.

وهذه العبارة معطوفة على نظيراتها في السورة.

**إدريس عليه السلام على ما ذكر المؤرّخون بشأنه:**

ذكر المؤرخون عن الإسرائيليّين، أنَّ «إدْرِيسَ عليه السَّلام» هو أَخْنُوخُ بْنُ يَارَدَ بْنِ مَهْلَلْئِيل بْنِ قَيْنَان بْنِ أَنُوش بن «شِيث عليه السّلام» بن آدم عليه السلام.

وذكر المؤرخون أنّ «شِيثاً» كان رَسُولاً، وأنّ الله قد أنزل عليه كتاباً يُسمَّىٰ «صُحُفَ شيث».

وجاء في الأثر عن النبي ﷺ فيما رواه أبو إدريس الْخَوْلَاني، عن أبي ذَرّ الغفاريّ:

«أنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَىٰ شِيثٍ خَمْسِينَ صَحِيفَةً، وعلىٰ إدْرِيسَ ثَلَاثِينَ صَحِيفةً».

وذكر المؤرخون أنّ أُمَّةَ السُّرْيَان أَقْدَمُ الأمم، وأنْ مِلّتَهُمْ هي مِلَّةُ الصَّابئين، نِسْبةً إلى «صَابِي» أَحَدِ أولاد «شيث» عليه السلام.

وذكر الصّابِئُون أنَّهم أَخَذُوا دِينَهُمْ عَنْ شِيثٍ وإدْريسَ عليهما السلام، وأَنَّ لهم كتاباً يَعْزُونَه إلى «شيث» ويُسَمُّونَه «صُحُفَ شِيثٍ».

ويتضمَّن هذا الكتابُ على ما ذَكَرُوا ما يلي:

(١) الأمرَ بمحاسِنِ الأخلاق، والنَّهْي عن الرَّذائل.

(٢) الأمْرَ بعبادة الخالق جلَّ جلالُه وحْدَهُ لَا شريك له.

(٣) تخْلِيصَ النُّفوس من العذاب في الآخرة بالْعَمل الصالح.

(٤) الْحَضَّ علىٰ الزُّهْدِ في الدُّنيا.

(٥) العمل بالعدْل.

وذكر المؤرخون أنّ للصابئين عباداتٍ منها ما يلي:

(١) سبع صلوات في اليوم واللَّيْلَة: خمس صلوات منهنَّ توافق صلَوات المسلمين، والسّادسة صلاة الضُّحَى، والسابعة صلاةٌ يكون وقْتُها في السّاعة السّادِسة من اللَّيْل.

وصلاتهم تُشْبِه صلاةَ المسلمين، بالنيَّة، وبعدم خَلْطِها بشيءٍ من غيرها.

قالوا: ولَهُمْ صلاةٌ علىٰ الميّتِ بلا رُكوعٍ وَلَا سُجود.

قالوا: وعندهم صيامُ شهرٍ قَمَرِيٍّ من السَّنَة، ويَصُومُونَ من رُبْعِ اللّيل الأخير حتَّىٰ غُرُوب قُرْصِ الشمس.

ويُعظّمُونَ بيتاً للَّهِ في مَكَّة.

قال ابن حزم: والدِّينُ الذي انْتَحلَهُ الصابئون أقْدَمُ الأدْيان على وجْهِ الدَّهر، وقد كان هو الغالبَ على الدُّنيا، إلى أن أحْدَثوا فيه الحوادث.

قال المؤرخون: «إدْريس» عليه السلام هو أوّلُ من خَطَّ بالْقَلَم، وأوّلُ مَنْ نَظَر في النجوم والْحِسَاب، وأوَّلُ من خاط الثياب.

قالوا: وَكانت مُدَّةُ إقامة «إدْريس» عليه السلام في الأرض (٨٢) سنة، ثُمَّ رَفَعَهُ الله إليه.

وكان مَكْتُوباً على فَصِّ خاتمه: «الصَّبْرُ مَعَ الإيمَانِ بِاللَّهِ يُورِثُ الظَّفر».

وكانت لَه مواعظ وآداب، ومنْ حكْمَتِه أنَّهُ كان يكْتُبُ على المِنْطَقَةِ الَّتِي يَلْبَسُها: «الأَعْيَادُ في حِفْظِ الفُروضِ، والشَّريعَةُ مِنْ تَمامِ الدِّينِ، وتَمامُ الدِّينِ كَمالُ المُرُوءَة».

وكان مكْتُوباً علىٰ المِنطَقةِ الّتي يَلْبَسُها وَقْتَ الصَّلاةِ علىٰ الميّت: «السَّعِيدُ مِنْ نَظَرَ لِنَفْسِهِ، وشَفَاعَتُهُ عِنْدَ رَبِّهِ أعْمَالُهُ الصَّالِحَة».

ومن كلامه: «لَنْ يَسْتَطِيعَ أحَدٌ أنْ يَشْكُرَ اللَّهَ عَلَىٰ نِعَمِهِ بِمِثْلِ إنْعَامِهِ علىٰ خَلْقِهِ».

ومن كلامه: «إذَا دَعَوْتُمْ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَأَخْلِصُوا النِّيَّة، وكَذَا الصِّيَامَ والصَّلاة فَافْعَلُوا».

ومن كلامِهِ: «تَجَنَّبُوا المكَاسِبَ الدَّنِيئة».

إلى غير ذلك من أقوال منسوبة إليه.

ويزعم جماعةٌ من أهل العلم أنَّ جميع العلُوم الَّتي ظَهَرَتْ قَبْلَ الطُّوفان، إنَّما صَدَرَتْ عَنْه.

واللَّهُ أعلم بكلّ ذلك.

وبهذا انتهى تدبر الدّرْس السادس، والحمد لله على معونتِهِ وتوفيقه.

## (١٠)
## التدبّر التحليلي للدرس السابع من دُرُوس سورة (مريم) وهو الآية (٥٨)

قال الله عزّ وجل:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)﴾.

**القراءات:**

- قرأ حمزة، ويعقوب: [**عَلَيْهُمْ**] بضم الهاء في الموضعين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بكسر الهاء في الموضعين أيضاً.

- قرأ نَافع: [**النَّبِيئِينَ**]. وقرأها باقي القراء العشرة: [**النَّبِيِّينَ**].
- قرأ أبو جَعْفَر: [**إسْرَايِيلَ**] بالتسهيل مع المدْ.
- وقرأها باقي القراءة العشرة: [**إسْرَائِيلَ**] بتحقيق الهمزة.
- قرأ حمزة، والكِسَائيُّ: [**وَبِكِيًا**] بِكَسْرِ الباء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَبُكِيًا**] بضم الباء.

وهذه القراءات وجوهٌ عَرَبيَّةٌ في النطق.

**تمهيد:**

هذه الآية آية مدنيَّة التنزيل تأخّر إنزالُها لأنَّ فيها بياناً عن بعض الذين آمَنُوا من اليهود بعد الهجرة، فهداهم الله كعبد الله بن سلام، وضمت إلى سورة(مريم) المكية للمناسبة الفكرية.

جاءت هذه الآية عقب ذكر طائفة من النّبيِّين، بَدْءاً من «زَكَرِيَّا» عليه السلام، الذي جاء الحديث عنه في أوّل السورة، وحتَّىٰ «إدْرِيسَ» عليه السلام الذي جاء الحديث عنه في الآيتين (٥٦ و٥٧) منها، وجاءت الإشارة إليهم باسم الإشارة: [**أُولئِكَ**].

قد يقال: لم خصَّ اللّهُ عزّ وجلّ هؤلاء النبيّين بأنَّهُ أَنْعَمَ عليهم، وجعل ذلك مقصوراً عليهم، أخذاً من تَعْريف طَرَفي الإسناد، في قول الله تعالى في الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ مع أنّ كُلَّ النبيّين قَدْ أنْعَمَ الله عليهم بنعمة النبوّة، ومنهم من أنعم الله عليهم بنعمة الرّسالة.

**أقول:** إنَّ هؤلاء النبيّين المذكُورين في السُّورة، بدءاً من «زكريا» عليه السلام، وحتى «إدْريسَ» عليه السّلام قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ في حيواتهم نِعماً خاصَّةً لم تُوجَدْ نظائرها في سائر النبيّين.

(١) فزكريا عليه السلام قد وهبَ لَهُ الله على كِبَرِ سِنِّه وكَوْنِ امرأتِه عاقراً النبيّ الرَّسُول «يَحْيَىٰ» عليه السلام.

(٢) و«يَحْيَىٰ» بن زكريّا عليهما السلام قَدْ آتاه اللَّهُ الْحُكْمَ صَبياً، وقال الله عزّ وجلّ بشأنه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾.

(٣) و«عيسى» بن مَرْيَم عليه السَّلام قد خلقه الله من أُمّ بلا أَبٍ، ليكون آيَةً من آيات الله للناس، وأنْطقَهُ وهو صَبيٌّ رضيع في المهد، إذْ ﴿قَالَ﴾ للناس من حول أُمّه الّتي تُرْضِعُه: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾.

(٤) و«إبْراهيم» عليه السلام قد أنْعَمَ اللَّهَ عليه بتسْلِيمه من النار الّتي قَذَفه فيها النمرود، إذْ قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾.

وأنعم عليه بأن وَهَبَ له من زوجته «سارَة» العاقر «إسحاق» نبياً رَسُولاً.

وأنعم عليه إذْ فدىٰ وَلَدَهُ «إسماعيل» من الذبح، بذِبْحٍ عظيم جاء به الملَكُ إليه، وأعْلَمَه أنّه قَدْ صَدَّقَ الرُّؤْيا، وباشر التنفيذ، لكن الله أنعم عليه بالفداء، وإسقاط تكليفه بذبح ولَدِه.

(٥) و«موسى» عليه السّلام، قد أنعم اللَّهُ عليه بالنجاة من القتل وهو صبيّ، وأنعم عليه بأنْ رَبَّاه في القصر الفرعوني، الذّي أصدر الأمر بقتل المواليد الذكور من بني إسرائيل، في سنة ميلاده.

وأنعم عليه بأن كلَّمه تكليماً سمعته أُذُناه عند جبل الطور.

وأنعم عليه إذ استجاب لدُعائه فجعل له أخاه هارون نبيّاً رَسُولاً.

(٦) و«إسْمَاعيل» عليه السّلام أنعم الله عليه بالْفِدَاء من الذَّبحْ.

(٧) و«إدْرِيسُ» عليه السّلام أنعم اللَّهُ عليه بأن رَفعه وهو حيٌّ إلى السَّماء الرابعة، وفيها قُبضَتْ رُوحه.

هذه نِعَمٌ خاصَّةٌ لَمْ تَجْرِ نظائرها لسائر النبيّين، فصحَّ استعمال العبارة الدالَّة على الحصر والقصر في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: نعماً خاصَّةً لم يكن لسائر النبيين نظائرها.

**التدبّر:**

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

سبق في التمهيد بيان الغاية من القصر في هذه العبارة.

**الإنْعَام**: الإحْسَانُ والزّيادة من العطاء، والقرائن تَدُلُّ على المراد.

﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: حرف «من» للتَّبعيض، أي: من بعض النبيّين.

• ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾: وينطبقُ هذا البيان على «إدريس» عليه السلام، لأنّه كان قبل «نوح» عليه السلام.

• ﴿وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍ﴾: أي: مَنْ بقي منهم، وهم ذُرّيّته، لقول الله عزّ وجل في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ۝٧٧ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٩﴾:

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٢٦﴾.

• ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾: وينطبقُ هذا البيان على «إسماعيل» و«مُوسَىٰ» و«زكريا» و«يَحْيَىٰ» و«عيسَىٰ» عليهم السلام.

**«إسْرَائيلُ»** هو يعقوبُ عليه السلام، ومعنى لفظ «إسرائيل» يُجَاهِدُ مع الله.

• ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾: أي: وممَّنْ حَكَمْنَا لَهُ بالهِدَايَة من عبادِنا إذْ وَجَدْنَاهُ مَهْدِياً، وممَّن اجْتَبْيناه فجعلْناه رَسُولاً أو من المقرّبين.

**الاجتباء**: الاصطفاء والاختيار، وإنّما يجتَبِي اللّٰهُ الصالحين من عباده.

• ﴿... إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝٥٨﴾:

أي: إنّ المعنيين ممّن هَدَيْنَا واجْتَبَيْنا، من صفاتهم أنَّهُمْ إذَا تُتْلَى عليهم آيَاتُ الرَّحْمٰن البيانيّة المنزلَة على رسُولٍ من رُسُلِنا، خرُّوا سُجَّداً وبُكيّاً جاء ذكر «الرحمٰن» هنا للإشعار بأن صفة رحمة الله هي الماثلةُ في تصوراتهم فهم يلتمسون فيوضها.

﴿خَرُّوا﴾: أي: هَوَوْا بِدُون توقف. يقال لغة: خَرَّ يَخِرُّ، ويَخُرُّ، خَرّاً، وخَرِيراً، وخُرُوراً، أي: سَقَطَ بلا تَوَقُّفٍ من عُلْوِ إلىٰ سُفْلٍ بصَوْت، فيقال مثلاً، خرَّ الماء، وخرّ البناء.

ويقال: خَرَّ الْعَابِد راكِعاً أو ساجداً، أي: فَعَلَ كما يَفْعَلُ الماء ساقطاً، مع صَوْتِ الذِّكْرِ للّهِ عزّ وجلّ.

﴿سُجَّدًا﴾: أي: حالة كونهم سُجَّداً لله عزَّ وجل عابِدِين خاضعين.

**سُجَّد**: جمع «ساجد» ويجمَعُ أيضاً على «سُجُود» جمعاً مشابهاً في اللَّفظ للمصدر.

يقال لغة: سَجَدَ، يَسْجُدُ، سُجُوداً ، أي: خضع، وأحْنَىٰ ظَهْرَه،

وتَطَامَنَ، وغاية السّجودِ تكونُ بوضع الجبْهَة على الأرض، فيُطْلَقُ على الركوع لغة لفظ السُّجود.

والسُّجود في الاصطلاح الشرعيّ في الإسلام، يكون بوضع الجبْهَةِ على الأرض، مع الكفّينِ من جهة باطنهما، ومع الرُّكبتَيْن، والقَدَميْن، لقول الرَّسُول ﷺ:

«أمِرْتُ أنْ أسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أعْظُم».

وأبان الرَّسُول ﷺ بالتطبيقِ العمليّ كيْفِيَّةَ السُّجود.

[وَبُكِيّاً] الأظهر في لفظ «بُكِيّ» أنّه جمع «بَاكٍ» على غير قياس.

جاء في «لسان العرب» لابْنِ منظور: **الْبَكيُّ**: الكثير الْبُكاء، على «فَعِيل» ورَجُلٌ بَاكٍ، والجَمْعُ «بُكَاة» و«بُكِيّ». فمَنْ جعَلَ «بُكِيّاً» مصدراً، وأوّلَهُ بمعنى الْبكائين، فقد تعَسَّفَ وتكَلَّف.

وكَسْرُ الْبَاءِ في القراءة الأخرى للإتْبَاع.

والبكاء من خشية الله مظهر من مظاهر انْفِعَالٍ نَفْسِيٍّ مُرَكَّبٍ من الحبّ، والإجْلالِ، والخوْف.

وهٰذه الصِّفة التي جاءت في هذه العبارة قد وصف اللَّهُ عزَّ وجلَّ بها بعضُ العلماء من أهل الكتاب، فقال الله عزَّ وجلَّ في معرض الحديث عن القرآن في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿... إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩ ﴿١٠٩﴾﴾.

ذكر المفسّرون من هؤلاء الّذين أُوتُوا الْعِلْمَ منْ قَبْلِ القرآن، الذين جاء وصفهم في هذا النصّ:

(١) زَيْدَ بْنَ عَمْرو بْنِ نُفَيْل.

(٢) ورَقَة بْنَ نَوْفَل.

(٣) عبد الله بْنَ سَلَام.

وأرى أنّ التكرير الّذي جاء في هذا النّصّ مبيّناً لخرورهم، إنّما يَصِفُ حالتَيْن لهم، أو حالتَيْن لِقِسْمَيْن منهم:

**الحالَةُ الأولى**: أنّهم يَخِرُّون لِلأذْقَانِ سُجّداً، ويقولون في سُجُودِهم: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾. أي: إنَّ وَعْدَهُ الَّذِي جَاء في كُتُب أهْلِ الكتاب بِبَعْثِ مُحَمَّدٍ خاتَم الأنبياء والمرسَلِين، قَدْ تَمَّ، وصَارَ حقيقةً مَشْهُودَة.

**الحالَةُ الثانية**: أنَّهُمْ يَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ يَبْكُونَ، فَيَمْنَعُهُمُ البكاء من التسبيح، ويَزِيدُهُمُ القرآن خُشوعاً، أي: وَيَزِيدُهُمْ التفكُّرُ في معانيه ودَلَالاته سُكوناً وطُمَأْنِينَةً، إيماناً بالحقّ الذي كانوا مؤمنين به خبراً، قبلَ وُقُوعه فِعْلاً بِبِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وتَنَزُّلِ القرآن عليه.

وأبان الله عزّ وجلّ أيضاً أنّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بآيات اللَّهِ البيانيَّة المنَزَّلة إيماناً راسخاً، من مستوىٰ إيمان الأبْرَارِ والمحسنين، من صفاتهم أنَّهم إذَا ذُكِّرُوا بآيَاتِ اللَّهِ خَرّوا سُجّداً، وسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ في سُجُودهم، وهم لا يَسْتَكْبِرُونَ، ومِنْ صِفَاتِهم أنَّهُم تَتَجافَىٰ جُنُوبُهُمْ عن المضاجع، نُهُوضاً إلىٰ عبادة الله عزّ وجلّ، وأنَّهُمْ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ في حالَةِ الخوفِ، لِيَحْمِيَهُمْ مِمَّا يَخافون، وفي حالة الطمع، لِيَهَبَ لهم مَا يَطْمَعُونَ فيهِ، وأنَّهُمْ يُنْفِقُونَ ممّا رَزَقَهُمُ الله.

فقال الله عزَّ وجلَّ في سورة (السَّجْدَةَ/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا

وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

أمّا المؤمِنُونَ مِنْ عُلْيَا دَرَجَاتِ مَرْتبة المتقين، فَقَدْ جاءَ وصْفُهُمْ في سُورَةِ (الأنفال/٨ مصحف/٨٨ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها على سبيل الحصر أيضاً:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

## تتمّات تَحْلِيليّة لتدبّر الآية (٥٨) من سورة (مريم):

(١) تضمَّنَتْ هٰذِهِ الآية بيان أنَّ النبيِّن ذُرِّيَّةٌ بعضهم من بعضٍ إلى آدم عليه السلام، فالْمُوَرِّثَاتُ المؤهِّلاتُ للاصطفاء بالنبُّوةِ، فالاصطفاء للرّسالة، مُنْحَصِراتٌ بحِكْمَةِ الله في خُطَّةِ تكْوِين المجتمع البشريّ في أصلابِ النبيِّين، وَذَرَارِيهم.

- فالنَّبِيُّونَ جَمِيعاً مِنْ ذُرِّيَّة النَّبِيّ آدم عليه السلام، دلَّ على هذا قول اللَّهِ عزّ وجلّ في الآية:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾.

- النَّبِيُّون الّذِينَ كَانُوا قبل نوح عليه السَّلام، وقَدْ ذُكِرَ مِنْهُمْ في السُّورة «إدْرِيس» عليه السلام هم مِنْ ذُرِّيَّةِ آدم بداهة.

ونوح عليه السلام هو أيضاً من ذُرِّيَّة آدم بداهةً، وعند أهل الكتاب التَّوْرَاتِيِّين أنّه من ذُرِّيَّةِ «إدْريس» الّذي هو من ذُرِّيَّة «شِيثِ» بن آدم، عليهم السّلام.

• والنَّبِيُّونَ الَّذِينَ جاءُوا بَعْدَ نُوحٍ عَلَيْهِ السّلام هم من ذُرِّيَّة نوح، دَلَّ على هذا قول الله تعالى في الآية:

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾.

ولمّا كانت هٰذه العبارة تحتملُ أن يكون الأنبياء من بَعْدِ نوح من غيْر ذُرّيّته، لأنَّ نوحاً عليه السلام قد حمل معه في السَّفِينَةِ غير أولاده، كان من التكامل التقييدي في البيان الرَّبّاني في القرآن، قول الله عزَّ وجل في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) في معرض الحديث عن نوحٍ عليه السلام:

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

أي: فذُرّيَّة نوح كانوا هم الباقين من البشر بعد الطوفان، أما الآخرون فلم تكُنْ لهم ذُرّيات.

وعند المؤرخين أنَّ السُّلالَات البشريّة تَرْجع إلى أولاد نوح الثلاثة: «سام» و«حام» و«يافث».

• فالنبيُّون من بعد نوح هم من ذُرّيّته حتماً، ومنهم «إبراهيم» و«لُوطٌ» عليهما السلام.

• أمّا النبيُّون الّذين جاءوا بَعْدَ «إبراهيم ولُوطٍ» عليهما السلام، فهم من ذُرِّيَّةِ إبراهيم، دَلَّ على هذا في الآية قول الله تعالى:

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ بَعْدَ قَوله: ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾.

وللإيضاح، ولئلا يقع الالتباس، قال الله عزّ وجل في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

وقال اللّٰهُ عزّ وجلّ في سورة (الْعنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) في معرض الحديث عن إبراهيم علَيْه السلام:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ . . . ﴿٢٧﴾﴾.

ويَدْخُلُ في ذُرِّيَّته «إسماعيلُ عليه السلام» وخاتم الأنبياء والمرسَلِين «محمّد بن عبد الله» ﷺ، لأنَّهُ من ذُرِّيَّة «إسماعيل» بْن إبراهيم.

فكُلُّ النبيّين الذين جاءوا من بَعْدِ إبراهيم عليه السلام هم من ذُرِّيَّتِه، وكثيرٌ منهم وهم أنبياء بني إسرائيل، هم من ذُرِّيَّة «يَعْقُوب» الّذي هو «إسرائيل» عليه السلام.

وآخرون هم من ذُرِّيَّةِ «إبراهيم» دُون أن يكُونوا مِنْ ذُرّية «يعقوب = إسرائيل» فجاء في آية سورة (مريم):

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وجاء في الآيات من (٨٣ ـ ٨٧) من سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) تَفْصِيلٌ ذُكِرَ فيه عَدَدٌ من النبيّين الّذين هم من ذُرِّيَّة إبراهيم عليهم السلام.

وقد أفادنا التدبُّر التكامُلِيُّ للنّصوص القرآنيّة الواردة بشأن هٰذا الموضوع، أنَّ النَّبِيِّين ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهُمْ من بعض إلى آدم عليه السّلام.

وبهذا تمّ تَدَبر الدّرس السابع بمعونة الله وتوفيقه وفتحه فالحمْدُ لَهُ على ما أوْلَىٰ من فَضْلِه.



## (١١)

# التدبُّر التحليلي للدرس الثامن من دروس سورة (مريم) وهو الآيات من (٥٩ ـ ٦٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ

شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

## القراءات:

(٦٠) • قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، وشُعْبةُ، وأبو جعفر، ويعقوب: [يُدْخَلُونَ] بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فَاعله.

وقرأ باقي القراء العشرة: [يَدْخُلُونَ] بالبناء للمعلوم الفاعل.

وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني، أي: يُدْخَلُونَ الجنَّة بأمْرِ الله، فَيَدْخُلُونَها حَامِدِين.

(٦٣) • قرأ رُوَيس: [نُوَرِّثُ] من فعْل «وَرَّث» المضعف.

وقرأ باقي القرّاء العشرة [نُورِث] من فعل «أَوْرَثَ» المهموز.

والقراءتان متكافئتان لأن المهموز أخو المضعف في المعنى، فهما من التيسير على الناطقين من العرب أيّام التنزيل.

إنّ التعدية بالتضعيف مثل التعدية بالهمزة.

## تمهيد:

جاء هذا البيان في هذا الدَّرْس كاشفاً لأحوال بعض الّذِين خَلَفُوا الأنبياء من ذراريهم من بَعْدِهم، إذ كانوا خَلْفاً فاسِدِين، فلم يحافظوا على وصَايا أجدادِهم الأنبياء، ولم يتَّبِعوا أحكام دين الله، فأضاعوا أعظم رُكْنٍ عَمَلِيّ من أركان الإسلام لله عزّ وجلّ، وهو ركْنُ الصلاة، واتَّبَعُوا شهواتِ نفوسهم من زينات الحياة الدنيا.

وجاء هذا البيان كاشفاً لمصير هؤلاء الفاسدين عند ربّهم يوم الدين،

ولو كانوا أولاد الْأنبياء أو أحفادهم، باستثناء الَّذِينَ يتوبون إلى الله، ويُؤْمِنُونَ إيماناً صحيحاً صادقاً، ويَعْمَلُون عملاً صالحاً، فإنّ الله يَتُوب عليهم، ويُدْخِلُهُمْ الجنَّةَ يوم الدين خالدين فيها أبداً.

**التدبّر:**

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾:

أي: فخلَفَ مِنْ بَعْدِ الأنبياء الّذين سبَقَ ذِكْرُهم في السّورة خَلْفٌ فاسِدُون من ذُرّيّاتهم، تَرَكُوا ما كان عليه آباؤهم من الْتِزام للصراط المستقيم، وارْتَكَبُوا المحرّمات، وتركوا الواجبات الدّينيّة، حتَّىٰ أَضَاعوا الصلاة الّتي هي أوّل الأركان العمليَّة وأجلُّها بَعْد إعلان الإسلام لله بفعل ما أَمَرَ به، واجتناب ما نهى عنه، واتَّبَعُوا الشهوات، بدَلَ أَنْ يتَّبِعُوا ما أُنْزل إليهم من ربّهم.

• ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾: الْخَلْفُ بإسكان اللّام الفاسِدُ من الناس الذي لَا خير فيه، والعاصي الكثير الخِلَاف، والذُّرّيَّة الفاسدة، والولَدُ الفاسد.

على ضِدِّ «الْخَلَف» بفتح اللّام، إذْ هُم الْخَلَفُ الصّالح من الناس، والذُّرّيَّة الصالحة، والولَدُ الصالح.

ولمّا كَانَ الّذي هم في مكانٍ ما قَد يخْلُفُهُ فيه غيره مع وجوده حيًّا، كمن يخلف موظّفاً في وظيفته الّتي عُزِلَ عَنْهَا، وكَمَنْ يخلُفُ ساكناً في سُكْنَىٰ مَنْزِلٍ تركه أَوْ أُخْرِج منه.

ولمّا كان الفاسِدُونَ من ذُرّيَّة الأنبياء المذكورين في السورة قبل هذا

النصّ، قد جاءوا من بَعْدِ وَفَيَاتِهم، ولم يخْلُفُوهُمْ في حيواتهم في أماكنهم، ولا في أقوامهم.

كان قولُ الله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِهِمۡ﴾ قيْداً لازماً، لبيان الواقع، ودَفعاً لاحتمال كونهم خلفوهم في حيواتهم.

﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: جَعَلُوا الصَّلَاةَ مفقودَةً مِنْ حَيَواتهم غير موجودة، بسبب إهمالهم لها، وعدم اكتراثهم لأدائها، مع أنَّها أوَّل الواجبات العمليَّة اليوميَّة عليهم تُجَاهَ رَبِّهم، بعْدَ إعلانِهم انتماءهم إلى دين الله الإسلام، الَّذِي هو الدين عند الله، مُنْذُ بَدْءِ الخليقة الموضوعة موضع الامتحان في ظروف الحياة الدُّنيا، وحتَّىٰ آخِرِ مكلَّف ممتَحِنٍ منهم.

يقال لغة: أضاع فلانٌ الشيْءَ، أو العملَ الواجب، أي: جعَلَهُ يُفْقَدُ بإهماله له، فلا يكون لَهُ وُجودٌ يُشاهد، أو لا يكُونُ له وجُودٌ مطلقاً.

ويقال لغة: ضاعَ الشيْءُ يَضِيعُ ضياعاً، أي: فُقِدَ، أَوْ أهْمِلَ فصار كالمفقود.

والمرادُ بالصلاة العبادة الخَاصَّة المشتمِلَة على أقوالٍ وأعمال، فيها تلاواتٌ وأذكار ودَعوات، وفيها قيام وركُوعٌ وسُجُود، ولها شروط لأدائها، كالطهارة، وستر العورة، واستقبال القبلة، ودخول وقت وجوبها.

وهٰذا البيان يدُلُّ على أنَّ جميع النَّبِيِّين السَّابقين قد كانوا يُصَلُّون لرَبّهم صلواتٍ مَفْرُوضاتٍ، وكانوا يأمُرُون أتْبَاعهم من المؤمِنين بأدائها. ويَدُلّ علىٰ أنَّ أتْبَاعَهُمْ قد اسْتَمَرُّوا على أدائها من بَعْدِهم، حتَّىٰ جاء الْخَلْفُ الفاسِدُون الَّذِين أضاعوا الصلاة.

• ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: أي: وَعَصَوُا الله في أوامِره ونواهيه، وأوغَلُوا في الابْتِعَاد عن صراطه المستقيم، بسبب اتّباعهم الشهوات المحرَّمات.

ودَلَّت صيغة الجمع في «الشَّهَوات» على اختلاف أنواعها.

فقد كانت الشهواتُ هي الآسرة لهم، والقائدة لمسيراتهم في حيواتهم.

**الشَّهَوات**: هي كُلُّ مَا تَرغب فيه النفوس من اللَّذَّاتِ الجَسَدِيَّةِ والنفسيَّة، الّتي جَعَلَها اللّهُ من زينَاتِ الحياة الدنيا، للامتحان بها، سواءٌ أكانت من المباحات أمْ من المحرَّمات.

والّذي يُخْرِجُ عن صراط الله المستقيم هي الشهواتُ المحرَّمات، فَمَنْ اتَّبَعَهَا للاستمتاع بها وقع في المعاصي لا محالَة، وصغائر المعاصي تجرُّ إلى كبائرها، والكبائر تجرُّ إلى دركات الكفر بالله، وباليَوم الآخر، وتُزْلِق مُرْتَكِبِيها إلى طبقاتِ السَّعير، حيثُ الحريقُ في نار جهنَّم وبئْسَ المصير.

• ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾:

﴿فَسَوْفَ﴾: أي: في المستقبل البعيد الّذي يكون يوم الدّين، بَعْد البعثِ للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء الّذي وعَدَ الله به عباده.

﴿يَلْقَوْنَ﴾ أيْ: يَسْتَقْبِلُونَ ويُوَاجِهُونَ بكُلِّ حواسّهم وإدْراكاتهم. يقال لغة: لَقِي فُلانٌ الشيءَ، أي: استقبَلَهُ وَوَاجَهَهُ.

﴿غَيًّا﴾: الغيُّ يأتِي في اللُّغَة بمعنى الضَّلَال، وبمعنىٰ الفساد، وبمعنىٰ الخيبة.

• فعلَىٰ معنىٰ الضلال ومعنى الفساد، يَكُونُ المراد: فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عنْدَ رَبِّهم جزاءَ ضلالهم وفسادهم، نتيجة حُكْمِهِ عليهم بالْغَيّ، أي: بأنَّهم كانوا في الحياة الدُّنيا ضَالّين فاسِدِين.

وهذا من إطلاق السَّبَب وإرادَة المسبَّب، وهو الجزاء.

• وعلى معنى الخيبة، يكون المراد: فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عند رَبّهم يوم الدّين خيبةً عظيمة، يخْسَرُون بها أنفسهم، إذْ يَذُوقُونَ العذابَ الّذِي يَسْتَحِقُّونه، وَيَذُوقُونَ آلَام الحرمان من النجاة، والحرمان من النّعيم الذي أعَدَّهُ اللَّهُ للمتقين في الجنَّة.

• وورد أنّ الغيّ وادٍ في جهنّم.

• وورد أنّ الغيَّ نهرٌ في أسْفَل جهنَّم يَسِيلُ فيه صَدِيدُ أهل النار.

أخرج ابْنُ مُرْدَوَيْهِ عن ابْن عباس عن النبي ﷺ، قال: «الْغَيُّ وَادٍ في جَهنّم».

وكذلك رُوي عن البَرَاء بْنِ عازب.

ورُوي عن أبي أُمَامَة أنَّ النبي ﷺ فَسَّرَ كلمَتي: «غَيّ، وأثام» بقوله: «نَهْرَانِ في أسْفَلِ جَهنَّمَ يَسِيلُ فِيهمَا صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ».

والله أعلم.

قول الله عزّ وجل:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾.

استَثْنَتْ هٰذه الآية من الْخَلْفِ الفاسِدِين، الَّذِينَ أَضَاعُوا الصَّلَاة، واتَّبَعُوا الشهوات، الّذِينَ تحقَّقَتْ فيهم ثلاث صفات:

**الصفة الأولى**: تَوْبَتُهُمْ ممّا كانُوا فيه من إضاعة الصلاة واتّباع الشهوات المحرَّمات عصاةً لله رَبّهم، الأمر الّذي جرَّهم إلى الكُفْر بوجه من وجوه الكفر، وأنزَلَهُمْ إلى شيءٍ من دركاته.

هٰذه التوبة الّتي تداركُوا بها أمْرَهم في الحياة الدُّنيا، قَدْ قِبَلَها اللَّهُ منهم، فغفر لهم ما سَلَفَ من معاصيهم الواقعة في دائرة حقوق الله عليهم.

هذه الصفة دَلَّ عليها قول الله تعالى في الآية: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾.

**الصفة الثانية:** إيمانُهُم الصَّادِقُ الصَّحِيح، الَّذي جَدَّدُوا به صَفْحَةَ حياتهم، وبَدَؤُوا به صِلَتَهُمْ بِرَبِّهم، وتعامُلَهُمْ معه على قاعِدةٍ اعتقاديَّة صحيحة ثابتة.

وهذا الإيمانُ يَشمل الإيمانَ بالله عزّ وجل، والإيمانَ بكلّ صفاته وأسْمائه الحسْنَىٰ، والإيمانَ بكلّ ما جاء عن الله على لسان رُسُلِهِ الصادقين، والْإِيمانَ بالجزاء وبِيَوْمِ الدّين، وبما فيه من حساب وفَصْل قضاء، وتحقيق جَزَاء في الجنَّة دار المتقين، أو في النار دار تعذيب العُصَاة والمجرمين.

دلَّ على هٰذه الصفة قول الله تعالى في الآية: ﴿وَءَامَنَ﴾ عطفاً على قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾.

**الصفة الثالثة:** العمل الصالح، الّذي يُعَبِّرُ به التائب الذي آمن عن صِدْق إسلامِهِ لرَبّه، وعن صِدْق إذْعانِهِ لأوامِره ونواهيه، وحَقِّه عَلَيْهِ في أَنْ يُطِيعَهُ ويَعْبُدَهُ وحْدَهُ، دون أن يُشْرِك بعبادته أحداً، فهذا هو العمل الصالح الّذي يَقْبَلَهُ اللَّهُ من عباده.

فَمَنْ حقَّقَ في ذَاتِهِ بإرادته الحرَّة هذه الصفات الثلاث من الْخَلْفِ الفاسِدِينَ، استَدْرَكَ نفسه، فأخْرَجَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بالاستثناء من جَمْعِهِمُ المَرْكُوم، وعزَلَهُ عنهم، وجَعَلَهُ مع الذين يَدْخُلُونَ الجنَّة ولا يُظْلَمُونَ شيئاً، فلا يَنْقُصُ اللَّهُ من أجْرِهِ شيئاً بسبب ما كان منه من سيّئات وكبائِرَ وكُفْرٍ، قَبْلَ توبته، وإيمانه ومَا يُؤَدِّيهِ من عَمَلٍ صالحٍ يقبلُهُ اللَّهُ منه.

وقد دلَّ على هٰذه الصفة الثالثة قول الله تعالى في الآية: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

وأشار الله عزّ وجلّ إلى ارتفاع منزلة التائبين الذين آمنوا وعملوا

صالحاً من الْخَلْف الفاسدين، ارْتفاعاً عظيماً، عن الخليط الفاسِدِ الذي كانوا فيه، باستعمال اسم الإشارة «أُولَئِكَ» الموضوع للمشار إليه البعيد، والمرادُ بُعْدُ مَنْزِلَتِهِمْ في جهةِ العلُوّ، فقال الله تعالى في الآية:

﴿. . . فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾.

**الظلْمُ**: تجاوز الحدّ، ووضْعُ الشيء في غَيْرِ مَوْضعه، وإعطاءُ ذي الحقّ أنْقَصَ من حقّه الثابت له، ولَوْ بالْوَعْدِ الكريم.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بدل من لفظ «الجنَّة» في قول الله تعالى في الآية (٦٠) ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾.

**الجنة**: اسْمٌ عَلَمٌ علىٰ كل دار النَّعيم الّتي أعَدَّها الله عزّ وجلّ للمؤمنين، على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم، يدخُلُونَها خالِدين يوْمَ الدّين، يَوْمَ الجزاء الأكبر، يَدْخُلونَها بفَضْلِ الله، ولكن بسبَبِ إيمانِهم وإسلامهم وأعْمَالهم الصالحَةِ في الحياة الدُّنيا دار الابتلاء.

وقد وصف الله عزّ وجلّ هٰذه الجنَّة بأنّ عَرْضها كعَرْض السَّماء والأرض، فقال تبارك وتعالى في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

وهٰذه الجنَّةُ الكُبْرَىٰ العظمىٰ ذَاتُ أقْسَام ومَرَاتِب ودَرَجَاتٍ متفاضِلَاتٍ، وكُلُّ قسْمٍ من أقْسامها هو بمفْرَدِهِ جنَّةٌ كَبيرةٌ جدّاً، مُتَميِّزَةٌ بحُدُود وصِفَاتٍ خاصَّة، تتناسَبُ مع أَحْوَالِ مُسْتَحِقّيها من أهل الإيمان.

فهي باعتبار أقْسَامِهَا جَنَّاتٌ كثيراتٌ. وباعتبارها داراً عامَّةً لِنَعيم المؤمنين على اختلاف مراتبهم ودَرَجَاتهم، جنَّةٌ كُبْرىٰ عُظْمَى، متميّزَة عن سائر ما خَلَقَ الله من أكْوان، كتَمَيُّزِ دَارِ عذاب الكفرَة والعاصين.

﴿عَدْنٍ﴾: أي: ثَباتٍ واستقرار دائم.

يقال لغة: عَدَنَ بالمكان يَعْدِنُ وَيَعْدُنُ عَدْناً وَعُدُوناً، أي: استَقَرَّ فيه وثبت. وتقول: عَدَنْتُ البلَدَ، إذا جَعَلْته لَكَ وطناً للاستقرار والثبات فيه.

فَجَنَّاتُ عَدْنٍ، هي جنَّاتُ ثباتٍ واستقرار، وهي وسَطُ الجنَّاتِ ضِمْنَ الجنَّةِ العظمىٰ.

وقد جاء ذكْرُ جنَّاتِ عَدْنٍ في القرآن (١١) مرَّةً في (١١) سورة. ولدى تدبّر النّصُوص الّتي فيها لفظ «جنَّاتِ عَدْنٍ» لا بُدَّ أن يكتَشِفَ المتدبّر أنَّها درجاتٌ مُرْتَفِعَاتٌ من الجنَّاتِ هي فوق الدُّنيا، ودونَ الفردوس الأعلى.

• فقد جاء في بعضها أنَّ أهل جنَّاتِ عَدْنٍ يُحَلَّوْنَ فيها من أسَاوِرَ مِنْ ذَهب، أمّا الذين هم فيما دُون جنَّاتِ عَدْن فيُحلَّوْن أَسَاوِر مِنْ فضَّة.

• وجاء في بعضها بيانُ أنّ الدَّرجات الْعُلْيا في الجنَّةِ هي جنَّاتُ عَدْنٍ.

• وجاء في بعْضِها وَصْفُ أهْلِ جَنَّاتِ عَدْنٍ من المسلمين بأنَّهم يُؤْمِنُونَ بالله ورسُوله، ويجاهدون في سبيل الله بأمْوَالِهِمْ، وأنفسهم، ومعلوم أنّ هذا الجهاد من أعمال السّابقين بالخيرات بإذْنِ الله، وليس من أعمالِ الظالمين لأنفسهم، ولا من أعمال المقتصدين.

• وجاء في بَعْضِها بيانُ أجرِ مَنْ أحْسَنَ عملاً، بأنَّ لهم جنَّات عَدْن، ومعلوم أنّ من أحْسَنُوا عملاً هُمْ فوق الظالمين لأنفسهم وفوق المقتصدين.

• وجاء في بعضها بيان أنّ الذين صَبَروا ابتغاء وجْهِ رَبِّهم، وأقاموا الصلاة، وأنفقوا ممَّا رَزَقَهم الله سِرّاً وعلانية، ويَدْرَؤُون بالحَسَنةِ السَّيِّئة، لهم جنّات عَدْن، ومعلوم أنَّ هذه الصفات هي من صفاتِ السابقين بفعل الخيرات.

• وجاء في النصّ الذي نتدبَّره من سورة (مريم) بيانُ أنّ جنَّاتِ عَدْنٍ يُورثُها اللَّهُ من عباده مَنْ كان تَقِياً، أي: بالغاً الدَّرَجَةَ العلْيا من دَرَجاتِ التقوى، لأنَّ لفظ «تقِي» على وزن «فَعِيل» وهذا من صيغ المبالغة، أي: ليس مقتصراً على أن يكون متقياً بعض التقوى، بل هو تقيٌّ[1].

• ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾:

جاء في هٰذه العبارة وصْفُ جنَّاتِ عَدْنٍ بأنَّها الّتي وَعَدَ الرَّحمٰن بها عبادَهُ، فيما أنزلَ من كُتُبِه، وفيما أنْطَقَ به رُسُلَه.

والعائد في صلَة الموصول محذُوفٌ مُقَدَّر، أي: وعَدَها الرَّحْمٰنُ، أو وعَدَ بها الرَّحمٰن عباده.

وتوحي هذه العبارة بأنّ الموْعُودِينَ هم فئة عباد الرحمٰنِ المرشحين لأن يكونُوا أئمَّةً للمتقين، والذين جاء بيان صفاتهم في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) والّتي سبَق تَدَبُّرُها.

وهذا ينسجم مع ما سَبَق بيانُه من أنّ «جَنَّاتِ عَدْنٍ» دَرَجَاتٌ مُرْتفعاتٌ من الجنَّاتِ، وأنَّها تَقَعُ وَسَطاً بين الدَّرَجات السُّفلَىٰ، وبين الفردوس الأعلى.

**الْوَعْد**: هو الإخبار بما تَمَّ العزْمُ علىٰ فِعْلِهِ في المستقبل، يكونُ في الخير، ويكُونُ في الشرّ.

---

(١) انظر الملحق الثاني من ملحقي سورة (مريم): «جنَّات عَدْنٍ ومستحقوها».

يقال لغة: وعَدَهُ بنفع، ووعَدَهُ بضُرّ. ويقال أيضاً: وَعَدَهُ نفعاً، ووعَدَهُ ضُرّاً، ففعل: «وَعَدَهُ» يتعدّى للمفعول به الثاني بنفسه، أو بحرف الجرّ «الباء».

وهذا الوعْدُ مُوَجَّهُ لِعُمُوم عِبَادِ الله، ولكِنَّ الموْعُودَ به لا يُنال إلَّا بشَرْطه، وشَرطُ الظَّفَر يوم الدّين بجنَّاتِ عَدْنٍ أنَّ يكون المؤمِنُ تَقِياً، أي: بالغاً دَرَجَةَ الكمال في التقوىٰ بصورة عامة، لقول الله عزّ وجل في الآية (٦٣) من هذا النصّ:

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: جارٌّ ومجْرُورٌ متعلّقانِ بحالٍ مَحْذُوفَة، صاحِبُها ضميرُ الجنَّات، والباء ظرفيّة بمعنى «في» والتقدير: جنّات عَدْنٍ الّتي وَعَدَهَا الرَّحْمٰنُ حَالَةَ كَوْنِهَا مَوْجُودَةً في عَوالم الغيب عَنِ الموعُودِين بها.

**الغيب**: هو كُلُّ ما هُو محْجُوبٌ غائبٌ عَمَّنْ هو لا يُشَاهِدُه، إذْ بَيْنَه وَبَيْنَه حجابٌ ماديٌّ أو معنويٌّ مكانِيٌّ أو زَمَانِي، أو لَيْسَ لَدَيْهِ الأداة الصالِحَةُ لأن يُشَاهِدَهُ بها.

• ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾: أي: إنَّ الله مُحَقِّقٌ وَعْدَهُ حتماً، فإمَّا أنْ يَأْتِي إِلَيْهِ الموْعُودُ به، إذَا كَانَ ممّا يُؤْتَىٰ إليه كالجنَّة، وأمّا أنْ يُؤْتَىٰ بالشيء الموعُود به إلى مَنْ كانَ هو المقْصُودَ بالوعْدِ، إذا كان هذا الشيْءُ ممَّا يُؤْتَىٰ به في العادة، كطعام أو كُسْوة أو مالٍ قابلٍ لأنْ يُنْقَلَ ويُؤْتَىٰ به.

فالمكانُ المسْتَقِرُّ مثلاً، يُؤْتَىٰ إلَيْه، وتحقيقُ الْوَعْدِ به يكونُ بإيصال الموعود إليه، أو تمكينه من الوصول إليه، وإحْلاَلِه فيه، تمليكاً أو انتفاعاً وارتفاقاً.

والأشياء الّتي من شَأْنِها أَنْ تُنْقَلَ، يُؤْتَى بها للموعُودِ، تحقيقاً للوعد.

والموعُودُ به في كلْتَا الحالَتَيْن مأتِيٌّ إلَيْه، أو مأتِيٌّ به.

﴿مَأْتِيًّا﴾: «مَـأْتـي» اسـم مفـعُـولٍ من فِـعْـل «أتَـى يَـأْتـي فـهـو آتٍ» والمفعول: مأتِيٌّ إليه، أو مأتِيٌّ به، وحذفُ المفعول في مثْلِ هذا كثير.

﴿وَعْدُهُۥ﴾: **الوَعْدُ**: مَصْدَرُ «وَعَدَ» وقد أريد به هُنَا الشيْءُ الموعُودُ به. وهذا من إطلاق السَّبَب وإرادة المسبّب، أوْ من إطلاق الملزوم وإرادة لازمه، فالوعْدُ يسْتلْزِمُ عقلاً موعوداً به.

واستعمالُ فعل «كان» في هذه العبارة يَدُلُّ على الكيْنُونَة الدائمة المستمرّة، الّتي تُصَاحِبُ كُلَّ الأزمِنَة، الماضِية، والحاضرة، والمستقبلة، لأنَّها تتعلَّقُ بصفةٍ من صفات الله جلَّ جلَالُه وعظم سلطانه.

قول الله تعالى:

● ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾:

هذا وصفٌ يتعلّقُ بجنَّاتِ عَدْنٍ وأهلها وهم يُنَعَّمُونَ فيها.

﴿لَغْوًا﴾: **اللَّغْوُ**: هو ما لا يُعْتَدُّ به من كلامٍ وغيره، إذْ لَا فائدة منه، ولا نَفْعَ فيه، وكذلك الكلامُ الّذِي يَنْطَلِقُ من لسان ذي الإرادة، ولكن لا يُريد به معناه، كلَغْوِ الْيَمِين.

فأهل «جَنَّاتِ عَدْنٍ» هم في نعيم دائم، ومعلومٌ أنَّ اسْتِمْرَارِيَّةَ النَّعِيم لَا تَسْمَحُ بأَنْ يَضيعَ أَقَلُّ وَقْتٍ مِنْهُمْ في اللَّغْوِ، حتَّىٰ اللَّغْوِ في الكلام، لأنَّ اللَّغوَ يُعَكِّرُ صَفْوَ الاستغراق في النعيم.

ومن النَّعِيم ما يسْمَعُونَ مِمَّا يلَذُّ لهم من كلامٍ وأصْواتٍ بها يَطْرَبُون، وبها يَسْعَدُون.

ولو كانَ في الجنَّةِ لَغْوٌ يطْرُقُ أسماعَهُمْ لتعكَّر صفوهم.

﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾: «إلَّا» هُنَا أداة استدراكٍ بمعنى «لَكِنْ».

أي: لكِنْ يسمَعُونَ سلاماً، وهذه تحيَّةٌ يُسَلِّمُ بها بعضُهُمْ عَلَىٰ بعض، ويُسَلِّم بها الملائكةُ عليهم، وظاهِرٌ أنّ هذه التحيَّة ليْسَتْ من اللَّغو حتَّىٰ تُسْتَثْنَىٰ منه، بل هي تكريمٌ يزيدُ في النعيم.

ولا يُعْجِبُنِي في مِثْلِ هٰذه العبارة أن يقال: هذا استثناء منقطع، فالأولَىٰ منه أن يقال: «إلّا» أداةُ استدراك، مثل: «لكن» والمرادُ دفْعُ توَهُّم أنّ عبارات التحيّة الّتي يَسْمَعُونَها هي من اللّغو، بلْ هي إضافاتٌ جميلاتٌ على خمائل النَّعِيم، كنَثْرِ الأزهار الشّذِيَّة على بساط الذهب المطعم بنفائس الجواهر.

وجاء في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) بيان أَنَّ المقرّبين، وهم أهل الدرجات الرّفيعات في الجنّة، لا يَسْمَعُونَ فيها لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً، أي: ولا تَلْوِيماً بإثْمٍ فَعَلُوهُ، لكِنْ يَسمَعُونَ قولاً محبَّباً إليهم: «سَلاماً سَلاماً» وهذا يَزِيدُ في نعيمهم وسعادتهم.

فقال الله عزّ وجلّ فيها، في معرض بيان نعيم المقرّبين في جنّاتِ النعيم:

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾.

جاء في هذا النصّ تكرير التحيّة للإشعار بمزيد العناية بهم، لأنَّهم من المقرّبين، وهم أعلىٰ دَرَجَةً من أهل «جنَّاتِ عَدْنٍ».

قول الله تعالى:

• ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾:

**الرّزق**: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ به ممَّا يُؤْكَلُ ويُلْبَس، وقَدْ يَخْتَصُّ بما يكونُ غذاءً وقُوتاً.

﴿بُكْرَةً﴾: **الْبُكْرَةَ**: أوَّل النهار إلى طُلُوع الشمس.

﴿وَعَشِيًّا﴾؛ **الْعَشِيُّ**: نصف النهار الثاني إلى غُرُوب الشمس.

لكِنَّ الجنَّة لَيْسَ فيها ليلٌ، ولا أشعَّةُ شَمْسٍ تَصِلُ إلَىٰ أهلها، بَلْ كُلُّ أوْقَاتها نُورٌ وظِلٌّ دائم، فالّذِي يَظْهَرُ لأهلِهَا فيها من الأوقات وقتان مُتَمَيِّزان: وقْتٌ مُشَابِهٌ لأوّل النهار حتَّىٰ طُلوع الشمس، وقْتٌ آخَرُ مَنَاظِرٌ لَهُ يَكُونُ بَعْدَ مُرُور أكْثَر ساعات الْيَوْمَ، وهكذا تداوُلاً إلى الأبَد.

ويَظْهَرُ لي أنّ المرادَ بالرّزْقِ هنا ما يكونُ به الْغِذَاء والْقُوتُ الأسَاسِيَّانِ، فهُمَا يُحْضَران لهم بَكْرَةً وعَشيًّا، كما جاء في هذه الآية.

أمّا الفاكهةُ وأنواعُ الأشْرِبة فهي حاضرةٌ عِنْدَهُمْ في كُلّ الأوقات، بدليل قول الله عزّ وجلّ في سور (الواقعة/٥٦ مصحف/٤٦ نزول) مبيناً بعْضَ نعيم أصحاب اليمين:

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾.

وقوله تعالى بشأن نعيم المتقين، في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول):

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾.

أخرج الترمذِيُّ في نوادر الأُصول، أنّ النبي ﷺ قال بشأن الجنَّة:

«لَيْسَ هُنَاكَ لَيْلٌ، وإنَّمَا هُوَ ضَوْءٌ وَنُورٌ، يَرِدُ الْغُدُوُّ عَلَىٰ الرَّواح، والرَّواحُ عَلَى الْغُدُوّ، تَأْتِيهِمْ طرَفُ الْهَدَايَا مِنَ اللَّهِ، لمواقيت الصَّلاة الّتي كانُوا يُصَلُّونَ فيها في الدُّنيا، وتُسَلِّمُ عليهم الملائكة».

قول اللَّهِ تعالَىٰ:

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾:

﴿نُورِثُ﴾: أي: نَهَبُ بفَضْلٍ مِنَّا، وأُطْلِقَ مَعْنَىٰ الإرْثِ علىٰ هِبَةِ مَا في الجنَّة، لأنَّ مُعْظَم أقْسَامِها كَانَ مُعَدّاً لِمَنْ قَضَىٰ الله أن يَدْخُلَ رحلة

الامتحان في الحياة الدُّنيا، إنْ آمَنَ واتَّقى، فَلَمَّا كَفَرَ الْأَكْثَرُونَ، واستَحقُّوا دُخُولَ النار، أخَذَ المتّقونَ حِصَصَهُمْ، فورثوا بذلك الحصَصَ الّتي كَانت مُعَدَّةً في الجنَّة لسائر العباد لو آمَنُوا وعَمِلُوا صالحاً، ويأخُذُ أهل الجنَّةِ من هذا الميراثِ العظيم كلٌّ منْهُمْ بحَسَبِ مَرْتَبَتِهِ ودَرَجَتِهِ، والله أعلم.

﴿تَقِيًّا﴾: على وزن «فَعِيل» وهو من صِيَغ المبالغة، أي: بالِغاً الدرجات العاليات في مرتبة التقوى، وهؤلاء هم الذين يرثونَ دَرَجات جَنَّاتِ عَدْن.

أما المتقون من دون ذلك فلهم منازلُ دون درجات جنَّاتِ عدن.

وبهذا تمّ تدبّر الدرس الثامن، والحمْدُ للَّه على فتحه وتوفيقه وتيسيره.

❀ ❀ ❀

## (١٢)
## التدبّر التحليليّ للدّرْس التاسع من دُرُوس سورة (مريم) وهو الآيتان (٦٤ و٦٥)

قال اللَّهُ عَزَّ وجلّ:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

**تمهيد:**

هذا درسٌ اعتراضيّ بين مُقدّمَاتِ موضوع السُّورة، وبَيْنَ موضوعها الرئيس، الذي يُعَالجُ واقِعَ حَالِ المدْعُوّين إلى الإيمان والإسلام واتّباعِ الرَّسُولِ محمَّد ﷺ فيما جاء به عَنْ رَبّه، إبَّانَ نُزُولِ السّورة.

وكان من الحكْمَةِ الإجرائيَّةِ الْفَصْلُ بَيْنَ المقدِّمَاتِ التَّمْهِيديَّة، وبين موضوع السورة الرئيس، بدَرْسٍ اعتراضيٍّ يُعَالِجُ قضيَّةً طَرَحَها الرَّسُول محمّد ﷺ على جبريل أمين الوحي عليه السّلام، إبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ، إذْ قال له: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورنا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنا»؟!

فأنْزَلَ اللَّهُ عزّ وجلَّ آيَتَيْ هذا الدَّرْس من دُرُوس السورة.

أخرج البخاريُّ وغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل:

«مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا»؟!

فأنزل الله عزَّ وجلَّ قَوْلَهُ حكايَةً لمَا قَالَهُ جِبرِيلٌ للرَّسُول:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

**التدبّر:**

• ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾: أي: وَمَا نَنْزِلُ نحنُ الملائكة حِيناً فَحِيناً آخَرَ، أو ثُمَّ حيناً آخَرَ بتمَهُّلٍ وأناةٍ.

يقال لغة: **تَنَزَّلَ**: أي: نَزَلَ في مُهْلَةٍ دُونَ استعجالٍ.

وفي هذا إشارةٌ إلىٰ أنَّ أوامر اللَّهِ عزَّ وجلَّ مقدَّرَةٌ بِأوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ، فلا يُوَجِّهُهَا لملائكتِهِ للقيام بما يُكَلِّفُهُمْ إيَّاهُ إلَّا في أوقاتِها المحدَّدَة، الَّتي لا يَحْتَاجُونَ مَعَهَا لأنْ يَسْتَعْجِلُوا، فَهُمْ يتنزَّلُونَ بتمَهُّلٍ على وَفْقِ أوامِرِ الرّبّ جلّ جلالُه، إذْ لا يخافون التأخير، نظراً إلى أنَّ مُدَّة التَّنَزُّلِ مَحْسُوبة، وأنّ الزَّمَنَ لِتَأْدِيَةِ الْوَظِيفَةِ مُحَدَّدٌ ومعلومٌ، فكلُّ شيءٍ يَتِمُّ في وقْتِهِ المقدَّرِ له.

• ﴿إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾؛ أي: إلَّا بسَبَب أَمْرِ رَبِّكَ لَنا بالتَّنَزُّلِ، ولمَّا كانَتْ أَوَامِرُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ حَكِيمَةً دَواماً، كانَ ممَّا يَنْبَغِي أنْ نفْهَمَه باللُّزوم الفِكْرِيّ، أَنَّ الله عزَّ وجلَّ يَأْمُرُهم بالتَّنَزُّلِ، للقيام بوظائف، أو تَبْليغاتٍ، أو أعمالٍ يَقُومُونَ بِها في الأرض.

واستكمالاً للْبَيَانِ الإيمانيّ الّذي لَهُ صِلَةٌ ما بتَنَزُّلِ الملائكة من مواقِعهم في السّماء إلى الأرض جاء في هذا الدَّرْس بَعْدَ تقرير القضيّة الأولىٰ بيانُ سِتِّ قضايا أُخرى:

**فالقضيّة الأولى**: هي القضية الّتي سَبَقَ تدبُّرُها، وقد دَلَّت عليها عبارة: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾.

**القضية الثانية**: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ﴾:

﴿لَهُۥ﴾ أي: لله جلَّ جلالُه، واللَّام هي لَامُ المِلْك بكَسْرِ الميم، الّذي لا يَنْفَكُّ عَنْهُ الْمُلْكُ بضَمّ الميم، بالنسبة إلى اللَّهِ عزّ وجلّ، فالمعنى: لِلَّهِ مِلْكُ وَمُلْكُ كُلِّ شيءٍ هو مَوْجُودٌ بَيْنَ أَيْدِنَا من أَمْكِنَةِ الكَوْنِ وأَزْمِنَتِه، أي: أَمَامَ تَوَجُّهِ وُجُوهِنَا، وكُلِّ شيءٍ هو موجودٌ خَلْفَنَا من أَمْكِنَةِ الكَوْنِ وأَزْمِنَتِهِ، أي: وَرَاءَ ظُهُورِنا، أو وَرَاء ما يُمْكِنُ أَنْ نَشْهَدَهُ من الكون، وكُلِّ شيءٍ هو مَوْجُودٌ بَيْنَ ذَلِكَ، أي: في الأماكِنِ والأزمِنَةِ الّتي لَيْسَتْ أَمَامَنَا وَلَا خَلْفَنَا، وهذا يشْمَلُ كُلَّ مَوْقِعٍ يَكُونُ فيه موجودٌ ما لَيْسَ أمام الملائكة ولا خَلْفَهُمْ، فهو جُزْءٌ مِمَّا هُوَ داخِلٌ في مِلْكِ اللَّهِ وَمُلْكِه.

والمعنى: فلا نتحرَّكُ حَرَكَةً، ولا نَعْمَلُ عَمَلاً إلَّا بأمْرِهِ جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطَانُه.

ويُلاحظ أَنَّ هذه العبارة قَدْ جَاءَ فيها تفصيل إطنابيٌّ يُلائم حالَةَ تَنَزُّلِ الملائكة من مواقعهم في السماء، وصعودهم بعد ذَلِكَ إليها.

وكانت تُغْنِي عنها عبارة: «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والأرض» أو نحوها، لكِنَّ التعبير الملائم في هذا المقام هو ما جاء في النّصّ القرآنيّ هنا، للدلالة على أنّ الملائكة لا يملكونَ أن يتحرَّكُوا حرَكةً ما في الكَوْنِ كلِّه إلَّا بأمر الله.

وفي مُناسباتٍ أُخْرىٰ جاء التعبير في القرآن المجيد بعباراتٍ أخرى منها:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴿١١٦﴾﴾ (التوبة/ ٩).
- ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴿١٨٩﴾﴾ (آل عمران/ ٣).
- ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ... ﴿١٢٠﴾﴾ (المائدة/ ٥).

ونحوها من عبارات، ومَنْ لَهُ مُلْكُ وَمِلْكُ كُلِّ شيءٍ لا بُدَّ أَنْ يكونَ عِلْمُهُ محيطاً بكُلّ شيءٍ، ولا بُدَّ أنْ يَكُون ذا سلطانٍ كامل على ما هُو مِلْكُهُ ومُلْكُهُ، إذْ لا شريك لَهُ ولا نِدَّ له، جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانه.

**القضيّة الثالثة**: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿... وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾:

جاء في هذه العبارة نَفْيُ كوْنِ الله عزّ وجلّ يَنْسَىٰ شَيْئاً، أي: فلا يُؤَخِّرُ أَمْراً عنْ وقْتِهِ المقدّر له، الّذي قضاهُ في خُطَّةِ تكوينه.

أصْلُ النسيان في الُّلغَةِ التَّرْكُ. يقال لغة: نَسَا فُلانٌ الشَّيْءَ يَنْسُوهُ نَسْوةً، أي: تَرَكَهُ عامداً أو غيْرَ عامد، فهو ناسٍ ونَسِيّ.

ونفيُ التَّرْكِ يقْتَضِي نَفْيَ النِّسْيَانِ بمعنىٰ غيابِ المعلُومِ عن التذكُّر الحاضر.

نَسِيٌّ: على وزْنِ «فعيلٍ» من صِيغ المبَالغة، وقد يقال: كَانَ من المناسب لصفات الله عزَّ وجلّ أن يُقال: وما كان رَبك ناسِياً، أَوْ ذا نسيان، لأنّ نفي كثرة النسيان لا تُفيد نفيَ القليل منه.

وفي الإجابة على هذا أقول:

(١) إنّ عِلْمَ الله ومقاديره في خَلْقِهِ لا تُحْصَىٰ، فلو نَسِيَ من كلّ مليار من الأشياء مثلاً شيئاً واحداً، لاجتمعت منسيَّاتٌ كثيراتٌ يصحُّ مَعَها أن يوصف بأنّه نَسِيّ.

(٢) ملائمةُ رُؤوس الآيات قبْلَها وبَعْدَها تَقتضي اختيار كلامة «نَسِيّ» لا «ناسٍ» ولا «ذا نِسْيَان» ولا عبارة «ينْسَى» إيثاراً للجمال الفنّي في العبارة.

(٣) جاء في كتُب اللُّغة أنّ لفظ «نَسِيّ» يقال للمذكر والمؤنث، ويظهر أنّ العرب اسْتَخْدَمُوا كلمة «نَسِيٌّ» مثل اسم الفاعل الّذي لا مبالغة فيه، مسقطين دَلَالة الصيغة على الكثرة.

وجاء في هٰذه الجملة اختيار عبارَة: ﴿رَبُّكَ﴾ دون سائر أَسْمَاء الله الحسنىٰ، للإشارَة إلى أنّ مَنْ لَهُ الرُّبُوبيَّةُ المتصرِّفَةُ بالمربُوبين في كُلّ أصْغَرِ وحْدَةٍ زمَنِيَّة، لا يمكن أن يترُكَ أمراً ما قضَتْ به حِكْمَتُه، وأمْضَاهُ بقضائِهِ وقَدَره، ولو كان اللّهُ الرَّبُّ تاركاً شيئاً ما في كَوْنِهِ، لتعرَّضَتْ أشياءُ كثيرة من الكائنات، لِلْخَلَلِ والفساد، لكنَّ شيئاً من هذا لم يَحْدُث في شيءٍ من هذا الكون العظيم، على الرّغم من مُرُور مليارات القرون عليه.

**القضيّة الرابعة**: دَلَّت عليها عبارة: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾:

هذه العبارة بدل من عبارة ﴿رَبُّكَ﴾ أو خبر لمبتدأ محذوفٍ تقديرُه «هو» أي: هو رَبُّ السَّمَاوَات والأرض وما بينهما.

عبارة: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَاۚ﴾ تَدُلُّ علىٰ أنَّ ما نراهُ فراغاً بين السَّماواتِ من أعْلَىٰ سَماءٍ فيها وَبَيْنَ الأرْض ليْسَ فراغاً على الحقيقة، بل هو بمثابة وِعاءٍ لكائناتٍ غَيْرِ منظورة هي من خَلْقِ الله، وهي خاضِعَةٌ لرُبوبيَّتِه جلَّ جلالُه وعظُمَ سلطانه، وهو يُجْرِي فيها تصاريفَهُ الحكيمة على ما يشاء، كما

يُجْرِي تصاريفَهُ الحكيمة بربوبيته في السَّماوات والأرض، وفي كُلِّ ما فيهما، وكُلِّ مَنْ فيهما.

وجاءت السَّمَاواتُ في العبارة مجموعةً، لأنَّها متعدِّدَةٌ في واقِعِ حالها.

وجاءت الأرضُ مُفْرَدة، لأنّها واحدةٌ في الكَوْنِ كلّه، ولهذا لم تأتِ الأرضُ مجموعَةً في القرآن كُلّه.

وأمّا ما جاء في بَعْضِ الأحاديث النبويَّة من ذكر «سَبْعِ أرضِين» فالمراد بها طبقاتٌ تُرابيَّةٌ وصخريَّة ورَمْلِيَّة في الأرض نفسها، وبعْضُهَا فَوْقَ بعضٍ وملاصقٌ له.

**القضيّة الخامسة:** دلَّت عليها عبارة: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾:

الفاء هنا سببيَّة غير عاطفة، أي: فبما أنَّهُ رَبُّكَ وَرَبُّ السَّمَاوَات والأرض وما بينهما اعْبُدْهُ.

أي: اسْتَسْلِمْ لمقاديره ومجاري حِكْمَتِهِ، فلا تَقُلْ لِرَسُولِ الوحي إليك: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنا»؟!

إنّ العبادة الكاملة لله عزّ وجلّ تكونُ بكمال الإيمان، وكَمَالِ الإسلام، وكَمَال الاستِسْلَامِ لمقاديره وتصاريفه، والتَّسْلِيم التَّامّ بأنَّهَا حكيمةٌ، وكمالِ الطاعة لأوامره ونواهيه، مع التَّقَرُّب إليه بمحابّه مِنَ النَّوافل الّتي هي من أعْمال البرّ والإحْسَان، ومع المجاهدة في كلّ ذلِكَ، ببَذْلِ غايَةِ الجهد.

ومن كان سَيّد الأنبياء والمرسلين فلا بُدَّ أن يسْعَىٰ للتَّحقُّقِ بِكَمَالِ العبادة، في كلّ عناصِرِها المادّيَّة والمعنويَّة.

**القضيَّةُ السادسة:** دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾:

﴿وَاصْطَبِرْ﴾: أي: وكلّف نفْسَكَ غايَة مَا تَسْتَطِيعُ من صَبْرٍ على مَا تتحمَّلُ به من مشقّاتٍ نفسيَّةٍ وَجَسَدِيَّة، في عباداتِك الّتي تُؤَدّيها لرَبّك، ما كان منها ظاهراً أو باطناً، والّتي تَنْشُدُ بها الكمال.

**اصْطَبِرْ**: أصْلُها: «اصْتَبِر» على وزن «افتعل» بزيادة تاء الافتعال على فعل «اصْبِر» للدّلالَة على معنَىٰ التكلُّف وبَذْلِ غاية ما تستطيع من صبر.

﴿لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾: أي: لبُلُوغ عبادتِه عبادةً من دَرَجَةِ الكمال الّتي تَلِيقُ بك، بوصْفِكَ خاتمَ النبيِّينَ، وسَيِّدَ الأولين والآخِرين.

والمعنى: واصْطَبر بالغاً لعبادَتِه عبادةً من دَرَجَةِ الكمال الّتي تليق بك.

فالنصّ كلُّه مُوجَّهٌ لتَرْبِيَةِ الرَّسُول محمد ﷺ.

أي: ومن كمال تَسْلِيمِكَ للَّهِ في عبادتِكَ لَهُ أنْ لَا تقولَ لي: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنا»؟! وأنْتَ تَعْلَمُ أنِّي لَا أَفْعَلُ شيئاً إلَّا بأمْرِ اللَّهِ رَبي.

**القضيّة السّابعة**: دَلَّتْ علَيْهَا عبارة: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾؛

أي: هلْ تعلَمُ له شبيهاً أو مثيلاً أو نظيراً في صفاته وكمالاته، وأزَليَّتِه وأبديّته، ورُبوبيتِه المهيمنة على كلّ شيء في الوجود والمتصرّفة فيه؟

والجواب التّلْقَائيُّ هو النَّفْيُ حتماً، إذْ لا شبيه له في صفاته. ولا شريك له في رُبُوبيَّته.

إذَنْ: فهو وحْدَهُ المستحقُّ لِأنْ يُعْبَدَ في كلّ الأحوال عبادَةً من دَرَجَةِ الكمال، وعندئذٍ يَسْتَحِقُّ العابد أنْ ينال شرَف أنَّهُ عَبْدٌ لِلَّهِ حقاً، وقد نال هذا الشّرف العظيم سيّدنا محمَّدٌ ﷺ، فقال الله عزّ وجلّ بشَأْنِهِ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

وقال الله عزّ وجلّ بشأنه في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً للناس:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

وبهذا انتهىٰ تدبر الدّرْس التاسع من دروس السورة، والحمْدُ لله على معونته وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

## (١٣)
## التدبّر التحليلي للدرس العاشر من دروس سورة (مريم) وهو الآيات من (٦٦ ـ ٧٢)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

**القراءات:**

(٦٦) • قرأ ابن ذكوان في إحدى روايَتَيْن عنه: [إذا] بحذف همزة الاستفهام، والعبارة مع حذفها هي على معنى الاستفهام، لأنّ همزة الاستفهام يجوز حذفها، وتكون مقدّرة ذهناً.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أَءِذَا] بإثبات همزة الاستفهام، وهو هنا استفهام تعجُّبيٌّ يقولُه الإنسان المنكر للبعْث وليَوْم الدين.

(٦٦) • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب: «مُتُّ» بضَمّ الميم.

وقرأها باقي القراء العشرة: [مِتُّ] بكسر الميم.

«مُتُّ» و«مِتُّ» وجهان عربيان لنطق هذه الكلمة. وأصل القاعدة أن يقال: «مُتُّ» بضم الميم، (انظر بقية البيان لدىٰ ذكر القراءات في الآية (٢٣) من هذه السورة.

(٦٧) • قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم: [أَوَلَا يَذْكُرَ] من فعل «ذَكَرَ يَذْكُر».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: «**أَوَلاَ يَذَّكَّرُ**» أصْلُها يَتَذَكَّرُ، أدْغمَت التاء في الذَّال فصارت ذالاً مُشَدَّدة، من فعل: «تَذَكَّرَ يَتَذَكَّرُ».

وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في الأداء البياني، فبَعْض النَّاسِ يكْفِيهِ أَنْ يُنَبَّهَ تَنْبِيهاً يَسِيراً ليَذْكُر. وبعض الناس يحتاج تنبيهاً شديداً بعُنْفٍ حَتَّى يَتَذَكَّر، وهذا تلائمه قراءة «أَوَلَا يَذَّكَّرُ».

(٦٨) و(٧٢) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي: [**جِثِيا**] بكسر الجيم في الموضعين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة «جُثِياً» في الموضعين أيضاً بضم الجيم. والقراءتان لغتان عربيّتان في نُطْقِ الْكَلِمَة.

(٦٩) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي: [**عِتِيّاً**] بِكَسْرِ العين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: «**عُتِيّاً**» بضمّ العين.

والقراءتان وَجْهان عربيان لنُطْق هذه الكلمة.

(٧٠) • وقرأ حفص، وحمزة، والكِسَائي: [صِلِيًّا] بِكَسْرِ الصاد.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: «صُلِيّاً» بضم الصاد.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق هذه الكلمة.

(٧٢) • قرأ الكسائي، ويعقوب: «ثُمَّ نُنْجِي» من فعل: «أَنْجَىٰ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [ثُمَّ نُنَجِّي] من فعل: «نَجَّىٰ» المضعَّف.

والقراءتان متكافئتان، فالتعدية بالهمز أُخْتُ التَّعْدِية بالتضعيف.

**تمهيد:**

إن معالجة منكري البعث إلى الحياة الأخرى للحساب وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء، موضوعٌ قرآنيٌّ له خطٌّ متتابع الحلقات الموزّعات في عدد كثيرٍ من سُور القرآن المجيد.

• فمن هذه الحلقات ما يتضمّن خبراً.

• ومن هذه الحلقات ما يتضمّن وصفاً لبَعْض أحداث يوم الدين وما يجري فيه.

• ومن هذه الحلقات ما يتضَمَّن بيان الدليل العقليّ المستند إلى حكمة الله عزّ وجلّ، وأَنَّهُ أحكم الحاكمين.

• ومنها ما يتضمَّن الرَّدَّ على أقوال المكذبين بالبعث وبيوم الدين.

وقد جاء هذا الدّرْس العاشر من الدروس الخاصة، بالموضوع الأساس لسورة (مريم) معطوفاً بحرف العطف «الواو» ولا نَجِدُ في السُّورة من أوَّلها حتَّىٰ هذا الدّرْس، ما يَصْلُحُ لأن يكون هذا الدرس العاشر منها معطوفاً عليه.

لكِنَّنَا إذا اسْتَعْرَضْنَا السُّوَر القرْآنِيَّة، الَّتي نزلَتْ قبْلَ نزول سورة

(مَرْيم) وَجَدْنَا تِسْعَ معالجاتٍ صريحاتٍ لمنْكِري البعث، غَيْرَ البيانات الخبريَّة، والبيانات الوصْفِيَّة لبَعْضِ أحْدَاثِ يوم الدين وما يجري فيه.

وبناءً على هذا نستطيع أنْ نقول: إنَّ «الواو» في عبارة:

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في مطلع هذا الدّرْس العاشر، تَعْطِفُ على محذوفٍ ملاحظٍ ذهْناً، وهذا المحذوف يُدْرِكُه من أحْسَن تَدَبُّر ما جاء في السُّوَر النَّازِلَة قبل سورة (مريم) حول موضوع هذا الدرس.

**أوّلاً:**

ما جاء في سورة (التّين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول) قد تضمَّن إقامة الدَّليل العقليّ على أنّ البعث للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، أمْرٌ تقتضيه حتماً حكْمَةُ الرَّبّ أحْكم الحاكمين، إذ جاء فيها قول الله عزّ وجلّ خطاباً لمنكر الجزاء الرّباني:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾.

**ثانياً:**

ما جاء في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) قد أبان العِلَّةَ النفسيَّة للمكَذِّب بيَوْم الدّين تكذيباً قائماً على مجرَّد الاستبعاد والاستغراب.

هذه العلّةُ هي إرادتُه الجازمة بأنْ يَنْطَلِقُ فَاجِراً في مستقبل حياته، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾.

**الفجور**: هو الانبعاث القبيح الوقح الواسع في فِعْل الشرور والآثام والكبائر، وكلّ ما فيه ظلْمٌ وضُرٌّ وبغيٌ وعُدْوانٌ، دونَ وازعٍ ولا رادعٍ من داخل النفس.

**ثالثاً:**

ما جاء في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) قد تضمَّن معالجةً تَعْتَمِدُ على تقديم مشْهَدٍ رَهيبٍ من مَشَاهِد تعذيبِ المكذبين بيوم الدّين وما يجري فيه، فقال اللَّهُ عزَّ وجَلَّ فيها:

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ (٢٨) ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢٩) ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ (٣٠) لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ (٣١)﴾.

**رابعاً:**

ما جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) قد تضمَّن بيانَ أنَّ المكذِّب بيوم الدِّين لا حُجَّةَ له إلّا التَّعجُّب من الإحياء بعد الموت، وجاء فيها معالجةٌ إقناعيَّة بوجوه من الإقناع تناسب شكُوكه.

فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ (١) بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ (٢) أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ (٣)﴾.

وجاء بعد هذا في السورة معالجة المكذبين بدفع توهُّمَاتهم، وإثبات أنّ الله عزّ وجلّ عليم بكلّ شيءٍ، وقدير على ما يشاء.

**خامساً:**

ما جاء في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول) قد تضمّن بيانَ أنَّ من خَلَقَ الإنسان من ماءٍ دافق، قادرٌ على إرجاعه إلى الحياة بَعْدَ موته وفناء جسَدِه.

فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ (٦) يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ (٧) إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ (٨)﴾.

## سادساً:

ما جاء في سورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول) قد تضمَّن حِكايةً لمقالَة الّذين آمنُوا من الجنِّ عن الإنس، بأنّ كُفْرَهم بالبَعْثِ لا مُسْتَنَدَ لهم فيه إلَّا الظَّنُّ الضعيف، الَّذِي لا تقومُ بِهِ حُجَّة، إذْ قَالُوا لإخوانهم من الجنّ عن الإنْس:

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾.

## سابعاً:

مَا جاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) قَدْ تضمَّن بيان أنّ المكذبين بيوم الدّين يجعلون تكذيبَهُم مستَنِداً إلى أنّ الوعد فيه لم يبيّن الله فيه الوقت.

فقال الله عزّ وجل فيها:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨﴾.

وجاءت المعالجة على هذا القوْلِ بأسْلُوب الْإِنْذَارِ بقيام ساعَتِهِمْ، وتقديم صُورَة حَالِهم، وحَالِ مقالتهم عند البعث، وخُرُوجِهِم من الأجداث يَنْتَشِرُونَ.

وتضمَّن بيان مقالَةِ بعضِ المكذّبين بالبعث إذْ أخَذَ عظماً بالياً ففتَّهُ وذَرَّهُ، وقال: أيُحْيِي اللَّهُ هذا بَعْدَ مَا رَمَّ وَبَلِي؟ فجاء الرَّدُّ الرَّبّاني بقياس الإعادة على البدء، لإثبات قُدْرَةِ الخالِق على الإحياء بعد الإماتة، وهو قياسٌ بُرْهاني.

فقال اللَّهُ عزَّ وجلّ فيها:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾.

وجاءَ بَعْدَ هذه النصوص ما تضمَّنَهُ الدَّرْسُ العاشِرُ من دُرُوس سورة (مريم). ومعالَجَةُ منكري البعث بَعْدَ الموت ليوم الدّين، تعتمد فيه على الإقناع الفكري، فالموعظة بالترهيب.

إنّ منكر البعث بعد الموت الّذي جاءَتْ به البيانات الرَّبَّانِيَّةُ الّتي بَلّغَها رُسُل اللَّهِ المؤيَّدُونَ بالمُعْجِزاتِ الباهرات، لا يُقَدِّمُ دليلاً ما تقبله العقول السليمة.

إنّما يُقَدِّم تَعَجُّباً واستبعاداً للأمر بأسلوب الاستفهام التَّعَجُّبِيّ الإنكاريّ، ويعتَبِرُ هذا كافياً لتَحْسِينِ مَوْقِفِه الجاحد.

**التدبّر التحليل:**

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾.

سبق في التمهيد بيان أنّ حرف العطف «الواو» في مطلع هذه الآية يَعْطِفُ على مَحْذُوف، وهذا المحذوف يُدْرِكُه من أَحْسَنَ تَدبُّر ما جاء في السُّور النَّازِلَة قبل سورة (مريم) حول موضوع هذا الدرس.

أي: تعجَّبَ الإنْسَانُ منكرُ البَعْثِ بعد الموت إلى يوم الدين، من هذا النبأ الرَّبَّاني، وقال: أئذا مَا مِتْنا وصِرْنا تراباً، نَرْجع إلى الحياة مرَّةً أخرى، ذلك رَجْعٌ بعيدٌ لا يقبلُه العقل، وتَعلَّل بعَدَم بيان وقْتِ قيام ساعة البعث، وضرَبَ لَنَا مثلاً ونَسِيَ خلقه، قالَ: مَنْ يُحْيِي العظام وهي رَميم؟ وبَعْدَ كُلّ الأدلّة البرهانية الّتي قُدِّمَتْ له، والترهيب الشديد بالبيانات الّتي تَخْلَعُ قلوب أولي الألباب، يقول الإنسان المكذّبُ بِيَوْم الدّين: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾؟:

جاء لفظُ «الإنْسَان» تَعْبيراً عَنِ الكافر المكذّب بيَوْم الدّين، إذْ لَم

يَنْتَقِلُ بَعْدُ إلىٰ زُمْرَةِ الّذِين آمَنُوا بالحقّ الرّبّاني، حتّىٰ يظفر بشَرَفِ اسْم المؤمن، ودلّتْ مقالَتُه هذه على كُفْرِهِ وتَكْذِيبِه بنَبأ يوم الدين، يوم الحساب، وفصْل القضاء، وتحقيق الجزاء.

وقد ساقَ مقالَتَهُ بأسْلُوب الاستفهام التعجُّبِيُّ الإنْكَارِيّ، الذي لم يقترن بدليل عَقْلِي، ولم يتضمّنْ حُجّةً ما حتّىٰ تُعَالج بالرّدّ العلميّ المنطقيّ.

وما زال موقفه حتى وقت نزول سورة (مريم) موقف المتعجّب الّذي يُنْكِرُ الحقّ لمجرّد أنّهُ يَراهُ مستغرباً مُسْتَبْعداً، غير واقِعٍ في دوائر المألوف بالحواسّ الظاهرة.

إنَّ أيّ جاحدٍ للحقّ يَسْتَطِيعُ أن يُنْكره بدون دليل، ويَستطيعُ أنْ يُظْهِر تَعَجُّبَهُ من أيّ حقٍّ لا يَرُوقَ له، لئلّا يَلْتَزِمَ تَبِعَاتِ إيمانِهِ بهذا الحق، ولئَلّا يُقَالُ: إنّهُ يُؤْمِنُ بشيءٍ وَلاَ يَعْمَلُ بمُقْتَضَىٰ إيمانِه به.

إنَّ الإنكارَ المجرَّدَ عن دليلٍ يَدْعَمُهُ، وإنَّ مجرَّدَ التعجُّبِ من أمْرٍ ما، دُونَ دَلِيلٍ يَنْفِي المتعجَّبَ مِنْه الّذِي يُنْكِرُه، من الأمور السّاقطة الّتي لَا تَرْتَضيها العقولُ المفطورة عَلَىٰ رفض الباطل، والإذْعان لِلْحَقّ المؤيَّدِ بالْحُجَجِ والبراهين.

والحديث عن الإنسان بالإفراد يَشْمَلُ كُلَّ أنسان قالَ هذه المقالة، أو نظيرها، على التّناوب، فيُمْكن أنْ يُعادَ الضّمِير عليه بالجمع.

والظرف في: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ﴾ متَعَلّقٌ بِفِعْلِ ﴿أُخْرَجُ﴾ فَهُوَ مَعْمولٌ له، ولا تمْنَعُ لَامُ الابتداء في عبارة: ﴿لَسَوْفَ﴾ مِنْ عَمَلِ مَا بَعْدَهَا فيما قَبْلَها عنْدَ المحققِين من النُّحاة.

﴿مَآ﴾ بعْدَ ﴿إِذَا﴾ زائدة لتزيين اللّفظ، ولتأكيد تحقُّق الموت هنا في العبارة.

﴿لَسَوْفَ﴾: اللَّامُ لامُ الابتداء، ويؤتَىٰ بها للتوكيد «سَوْفَ» حرف يستعمل للدّلالة على المستقبل البعيد غالباً، أمّا المستقبل غَيْرُ البعيد، فيُسْتَعْمل للدلالة عليه حرف «السين».

والبعث إلى الحياة بَعْدَ الموت بحسَب علم النَّاس وهم في الحياة الدُّنيا سوف يكون في المستقبل البعيد، لكنّه بالنسْبَةِ إلى إدْراكِهم بَعْدَ البَعْثِ هُوَ مُسْتَقْبَلٌ قريبٌ جدّاً، إذْ يُلْغَىٰ الحسّ بالزّمن من شُعور النَّفْسِ الإنسانيَّة في مُدَّةِ البرْزَخ بَيْنَ الموتِ والحياة بَعْده، إذْ يشْعُر الإنسانُ عند البعث بأنَّه لم يَلْبَثْ بَيْنَ الموتِ والبعْث إلَّا عَشِيَّةً أوضُحاها.

ويتصوَّر المبْعُوثُونَ أنَّهُمْ كانُوا نَائِمينَ، فَبُعِثُوا مِنْ مَرْقَدِهِمْ الّذي كانوا نَائِمينَ فيه، لا مِنْ قبورهم ومدافنهم، ولا يَشْعُرُونَ بأنَّ أجْسَادَهُمْ كانَتْ فانيةً، فَخَلَقَهَا اللَّهُ خَلْقاً جديداً، وأعَاد إلَيْهَا الحياة.

﴿أُخْرَجُ حَيًّا﴾: أي: أُخْرَجُ من رُفَاتي في الأرض حالَةَ كَوْني حيّاً حياةً أُخرىٰ غَيْرَ الحياة الأولى، والحال هذه مؤكّدةٌ للعامل، لأنّ المراد بإخْراجِهِ إحْيَاؤُه.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾.

جاءَ في هذه الآية الرَّدُّ القُرْآنيُّ علىٰ التَّعَجُّبِ الإنكاريّ الذي صَدَرَ عن الإنْسَان الكافِر المكذّب بيَوْم الدّين.

الاستفهام في هذه الآية يُرادُ به انتزاع إقرار الإنسان المكذّب بيوم الدّين، بأنّ اللَّهَ قد خَلَقَهُ من قبل أن يُوجَدَ في حياة مُدْركة واعيَةٍ، ولَمْ يَكُنْ قَبْلَ خَلْق الله له شيئاً مَا يُذْكر، أي: فَمَنْ خَلَقَهُ ولم يَكُنْ شيئاً، أَلَيْسَ بقادر على أن يَخْلُقَهُ مَرَّةً أُخْرَىٰ بَعْدَ أنْ أماتَهُ وأفناهُ، وأنْ يكرِّرَ ذلك إلىٰ ما لا نهاية لو شاء ذلك؟!

وقد جاء الحديث عنه بأسلوب الحديث عن الغائب إعراضاً عنه، ومعاملةً له بمثل صنيعه، إذْ أعرض عن أدلَّة الحقّ، والغرضُ من الاستفهام التلويم.

«الواو» في ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ تعطِفُ على محذوفٍ مقدّرٍ ذهناً، يستَطِيعُ المتدبّر المتأنّي اللَّمَّاحُ أنْ يُدْركه، وتقديره: ألا يَعْلَمُ الإنسان أنّ الله الّذي خلَقَهُ قديرٌ على خَلْقِ ما يُرِيدُ خَلْقه؟! أوَلَا يَذْكُرُ أو يَتَذَكَّرُ أنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ من قَبْلُ ولم يَكُ شيئاً.

وجاء التعبير بضمير المتكلّم العظيم: ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ﴾ لأنّ الخلْقَ الإبداعيَّ من الْعدم لا يكونُ إلَّا من الرَّبّ العظيم.

إنّ قُدْرَةَ اللَّهِ الرَّبّ العظيم ظاهرةٌ آثارُها في كُلّ شيءٍ من هذا الكون العظيم، إذْ إنَّ آيَاتِهِ فيه دالَّاتٌ عليها، وهذا أمْرٌ مَشْهُودٌ دَوَاماً لكلّ من آتاه اللَّهُ عزَّ وجلَّ فكراً وقُدْرَةً على الفهم وحِسّاً.

وحِينَ يَعُودُ الإنْسَانُ إلى نَفْسِهِ يَتَذَكَّرُ أنَّهُ لم يَكُنْ ثُمَّ كان، ويُدْرِكُ بعقْلِهِ أنَّ خالقاً قَدْ خَلَقَهُ بَعْدَ أن لم يَكُنْ شيْئاً.

وهُنا يستَطيع أنْ يَقيس أحداثَ المستَقْبَل علىٰ أحداث الماضي، فالخالِقُ الَّذِي خَلَقَهُ بَعْدَ أَنْ لم يكُنْ شيئاً، وأعطاهُ صفاتِه الَّتِي تميَّزُ بها عَنْ سائر ما خَلَقَ الله، قادِرٌ على أن يَبْعَثَهُ إلى الحياة بَعْدَ أن يُميتَهُ ويُفْنِيَهُ.

جاء في إحدى القراءتَيْنِ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وهٰذِه تُناسِبُ من كانَ صاحبَ ذَاكِرَةٍ حسنَةٍ، تَسْتَدْعِي المعلوماتِ المخْزُونَاتِ في جهاز التخزين الْعِلْمِيّ لدَيْه دُونَ تكلُّف.

وجاء في القراءة الأخرى: «أوَلَا يَذَّكَّرُ الإنْسَان» وهذه تناسِبُ من كان صاحب ذاكرة تَسْتدعي المعلوماتِ المخزوناتِ في جهاز التخزين العلميّ لدَيْه بِجَهْدٍ وتكَلُّف.

وكلٌّ من الفريقين سيتذكَّر بالتَّنْبِيه وبالإثارة للتَّذَكُّر، فالقضيّة من الحقائق الّتي يَعْلَمُها من نَفْسِهِ كُلُّ إنسان.

﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾: أي: ولَـمْ يَكُنْ شيئاً، يجوز حذفُ نُونِ الفعل المضارع من فعل: «يَكُون» بشَرْطِ كوْنِه مجزوماً بالسّكون، غَيْرَ مُتَّصِلٍ بضمير نَصْبٍ ولا سَاكن.

والدَّاعي البلاغي لهذا الحذف هُنَا الإشْعَارُ بأَنَّ مَنْ كانَ مَعْدُوماً في الواقع، يَحْسُنُ أَنْ يُوجَزَ الحديث عَنْهُ في اللَّفْظ، ومن هذا الإيجاز حذفُ ما يجوز في اللّسان العربيّ حَذْفُه في النُّطْق.

والمرادُ أَنَّهُ لم يكُنْ شيئاً يُقَالُ له: «إنسان» ولو كانت عناصِرُ جَسَدِهِ موجودةً تُراباً في الأرض.

وقبْل خَلْق الكون كُلِّه لم يَكُن شيئاً مُطْلقاً، إذْ كان عدماً محْضاً.

وممّا لا شَكَّ فيه أنّ دَلِيلَ قياس قُدْرَةِ الرَّبّ على الإعادَةِ إلى الحياة بَعْدَ الموت، على قُدْرَتِهِ علىٰ بَدْءِ خَلْقِ المَخْلُوقِ الحيّ ثُمَّ إمَاتَتِه وإفنائه، دليلٌ بُرْهَانيٌّ، إذ الرَّبُّ الخالِقُ أزلِيُّ الذّاتِ، وأَزلِيُّ الصِّفَاتِ، وهو على الدَّوام مُحِيطٌ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً، وممَّا هو داخلٌ في عِلْمه ـ جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُه ـ كُلُّ جُزْءٍ صَغُرَ أَمْ كَبُرَ من ذوات مَخْلُوقاته وصفاتها، مهْما تَبَدَّلَتْ وتَحَوَّلَتْ في أطوار وجُوداتها، وبنائها وتناقُصِها حتَّىٰ فَنَائها.

قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾.

بَعْد إقامة الدّليل البرهاني، انتقل البيان القرآنيُّ إلى توجيه الموعظة بالترهيب في هذه الآيات الثلاث.

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ الفاء فيها معنى التفريع على ما جاء في الآية (٦٧) والخطاب بالْقَسم الذي استُخْدِمتْ للدّلالة عليه واو القسم، موجّه لكلّ مؤمن برُبوبيَّة الله عزّ وجلّ، بأسلوب الخطاب الإفراديّ، تكريماً له، وحثاً ضمنيًّا له على أَنْ يَجْتَهِد في إقناع من يراه من النّاس مكذّباً بالبعث وبيوم الدين.

وقد أقْسَمَ الله عزّ وجلَّ بوصْفِه أنَّهُ رَبٌّ، لأنَّ المقْسَمَ عَلَيْهِ من تصاريف رُبُوبيَّتِه لعباده، جلَّ جلالُهُ وعَظُم سلطانُه.

وقد يستَفيدُ مِنْ هذا الْقَسَم بعض مُنْكِري البَعْثِ ويوم الدينِ على وَجْهِ التَّعْرِيض، لا على سبيل توجيه الخطاب لهم، إذْ لَا تأثير لمثْلِ هذا الْقَسَم في نفوسِهم، فكان من الحكْمَةِ تَرْبَويّاً عَدَمُ توجيه الخطاب لهم، وكان من المناسب لحالِهم التَّعْرِيضُ مع الإعراض عنهم.

﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾: أي: لَنَجْمعنَّهم ولَنَسُوقَنَّهُمْ. **الْحَشْرُ**: هو في اللُّغَةِ الْجَمْعُ والسَّوْق.

«اللام» واقعة في جواب الْقَسم، والفعْلُ قَدْ أُكِّد بنُون التوكيد الثقيلة، وهذه اللّام ونون التوكيد في الفعل المضارع واجبتان في اللّسان العربي بَعْدَ القسم.

﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾: أي: ولَنَحْشُرَنَّ الشياطين الّذين أغْوَوْهُمْ من شياطين الإنْسِ والجن.

﴿جِثِيًّا﴾: بضم الجيم وكَسْرِها، وهما قراءتان ولغتان عربيتان، أي: جالِسِين على رُكَبِهم.

يقالُ لغة: «جَثَا فُلانٌ يجْثُو جَثْواً وَجُثُوًّا» أي: جلَسَ عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، أو قام علىٰ أطْرَافِ أصابِعِه، فهو «جَاثٍ» والْجَمْعُ: «جِثِيّ» و«جُثِيّ».

﴿لَنَنزِعَنَّ﴾: أي: لَنَجْذِبَنَّ بِشِدَّةٍ وعُنْف، وفي هذا إذلَالٌ وإهَانَةٌ للمنْتَزَعِينَ، وهم قادة المجرمين وأئمتهم.

﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾: أي: من كلٍّ فِرْقَةٍ وَجَمَاعَةٍ وحِزْبٍ من أحْزَاب الكافِرين.

**الشّيعَة**: الفرقة، والجماعة، الّتي يُناصِرُ بَعْضُهُمْ بعضاً، وَيَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بعْضاً.

﴿عِتِيًّا﴾ و«عُتِياً» كما في القراءة الأخرى، أي: اسْتِكْباراً وتجاوزاً للحدّ الأقْصَىٰ.

يقالُ لغة: «عَتَا يَعْتُو عَتْوّاً وَعُتِيًّا وعِتِيًّا» أي: اسْتكْبَر وتجاوز الحدّ، فهو «عَاتٍ» أي: جبَّارٌ مُسْتَكْبِرٌ، وهم «عُتَاةٌ» و«عُتِيٌّ».

﴿أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾: أي: أولَىٰ بجهنَّم احتراقاً بنارِها، يقال لغة: «صَلِيَ النَّار، وصَلِيَ بها، يَصْلَىٰ صَلىً وَصِلِياً» أي: احترقَ بها، فكلِمَةُ «صِلِيّ» مَصْدَرُ فِعْل «صَلِيَ» بمعنى احْتَرَق.

وقد تضمَّنَتْ هذه الآيات الثلاث القَسَم على أربع لقطاتٍ تَصْوِيرِيَّة من مشاهد يوم القيامة، الّتي سوف تَحْدُثُ حَتْماً للكافرين المكذّبين بالْبَعْثِ، للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

**اللقطة الأولى**: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾: أي: فترتيباً وتفريعاً على ما سبَقَ من بيان إصرار المكذّبين بيوم الدّين على موقفهم العناديّ الّذي ليس لهم عليه حجَّةٌ ما، غير الاستبعاد والاستغراب، نُقْسِمُ لك أيُّها المؤمِنُ بوصْفِ كونِنا رَبَّكَ: لنجمعَنَّهُمْ في يوم الحشر، ولنَسُوقَنَّهم والشياطين من شياطين الإنْس والجنّ، جمعاً منْفَصِلاً متميّزاً عن المؤمنين، مقدّمةً لإحضارِهِمْ حَوْلَ أبْواب جهنَّم.

لفظ «رَبّ» هو من أسماء الله الحسنىٰ، وهو مشتقٌّ من معنىٰ التربية، ومعلومٌ أنَّ التربيةَ علاقةٌ دائمةٌ بين الخالِق والمخلوق.

والكاف في «رَبِّكَ» ضمير خطاب موجَّه لكل صالح للخطاب من غير المكذِّبين بيوم الدّين، بأسلوب الخطاب الإفراديّ.

ولدى الاستقراء تبيَّن لي أنّه لم يسْتَعْمَل في القرآن لفظ «رَبّ» دالاً على الله عزّ وجلّ إلّا مضافاً إلى بعض خَلْقِهِ.

**اللقطة الثانية**: دلّت عليها عبارة: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾: هذه العبارة داخلَةٌ في جواب القسم: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾.

أي: وبَعْدَ زَمَنٍ متراخٍ دلَّ عليه حرف العطف «ثُمَّ» لنَسُوقَنَّهُمْ قَهْراً، ولنَجْعَلَنَّهُمْ قهراً، يحْضُرُونَ حَوْلَ أبواب جهنَّمَ دار عذابِ المجْرِمين، جاثِينَ علىٰ رُكَبِهِمْ ذَلِيلَينَ خاسِئين.

دلَّ على إحضارهم حولَ أبواب جَهنَّمَ الّتي يُكَبُّون إلى داخلها منها خالدين، قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) بشأن الكافرين وسوْقهم إلى جهنَّم زُمَراً:

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢)﴾.

أي؛ فَبِئْسَ مَكَانُ إقَامَةِ المتكَبِّرِين علىٰ رَبّهم، الّذي يَسْتَقِرُّون فيه خالِدين أبداً.

**جهنَّم**: اسْمُ عَلَمٌ من أسماء دار العذاب التي اعتدها الله عزّ وجلّ لتعذيب الكافرين والعصاة فيها يوم الدّين، وهو ممنوع من الصرف للعلميَّة والتأنيث.

**اللقطة الثالثة**: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩)﴾:

هذه العبارة داخلةٌ أيضاً في جواب القَسَم: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾.

أي: وبَعْدَ زَمَنٍ متراخٍ عن إحضارهم حوْل أبواب جهَنَّم حالَةَ كَوْنهم جاثين على رُكَبِهِمْ أذِلَّاءَ مُهَانِينَ، لَنَجْذِبَنَّ بشِدَّةٍ وعُنْفٍ وقَسْوَةٍ مِنْ كُلِّ جماعَةٍ وَفِرْقَةٍ وزُمْرَةٍ وحِزْب منْ أحزابهم، مَنْ كان منْهُمْ في الحياة الدُّنيا أشدَّ استِكْباراً وتجاوزاً للحَدِّ الأقْصَىٰ، علىٰ الرَّحْمٰنِ رَبّ العباد. وهُمْ قَادَةُ أحزاب الكُفْر، وأيادِيهمُ المنفِّذَةُ لجرائِمهم، والقائمون علىٰ إضلال الناس، وإغْواء من يسْتَجيبُ لهم منَ الأتباع.

ويظهَرُ أنَّ الْغَرَضَ عَزْلُهُمْ وَجَعْلُهُمْ في مُقَدَّمة الذين يُكَبُّونَ في النار، إلى حيث يَذُوقُونَ فيها عذابَ الحريق.

﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾: جمهور المعربين من النُّحاة، وهو مذْهبُ سيبويْه، يَرَوْنَ أنَّ كَلِمَة «أيّ» هنا اسْمُ موصول مبنيٌّ على الضمّ، وهي بمعنى «الذي» وأنّ كلمة «أشَدُّ» خبر مبتدأ محذوف، وأنّ الجملة صلة الموصول، و«أيُّهُمْ» وصِلَتُهَا في محلّ نصْبٍ مفعول به لفعل: «نَنْزِعَنَّ». و«عَلَى الرَّحْمٰنِ» متعلّقٌ بـ«أَشَدُّ» و«عِتياً» تمييز.

وقد جاءت كلمةُ: «أيّ» موصولَةً مبنيَّةً على الضمّ في قول الشاعر:

إِذَا مَا أَتَيْتَ بَنِي مَالِكٍ ... فَسَلِّمْ عَلَىٰ أَيُّهُمْ أَفْضَلُ

أي: فَسَلِّمْ على الّذي هو أفضلهم.

**اللّقطة الرابعة**: دلّت عليها عبارة: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾؛

﴿صِلِيًّا﴾: أي: احتراقا بنار جهنم.

هذه العبارة داخلَةٌ أيضاً في جواب القسم: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾.

أي: وبَعْدَ زَمَنٍ متراخٍ يمضي على نَزْعِ أئمة الكُفْر وشياطينهم وأنصارهم الَّذِين كانوا أشدَّ على الرَّحْمٰن في الدنيا استكباراً وتجبراً، وبَعْد

عَزْلِهم عَزْل إذلالٍ وإهانةً، وبَعْدَ وضْعِهم في المقدّمة على مقْرُبَةٍ من أبْواب جهنَّم.

بعْدَ ذلك لتَقْذِفَنَّ هؤلاء إلى الدَّرْك الذي يَسْتَحِقُّونَ فيه عَذَابَ الحريق بالنارِ في جهنَّم، إذْ كُلَّما كانَ الدَّرْكَ أكثر تَسَفلاً في جهنَّمَ كان أشَدَّ حَرِيقاً، وأشدّ عذاباً.

هذا المعنى لم يأت التعبير عنه في العبارة القرآنيَّة بأسْلُوبٍ ذي دَلَالَةٍ مُبَاشَرة، إنَّما جاء بأسْلُوبِ الكناية، ذات اللَّوازِمِ الفكرية الموصِلَة إلى الإشعار بهذا المعنى.

فكَوْنُ الله عزَّ وجلَّ أعْلَمَ بالَّذِينَ هُمْ أوْلَى وأجْدَرُ بجهَنَّم احتراقاً بلهَب نيرانها، من سائر مستحقّي العذاب فيها، مع ملاحظة أنَّهُ - جلَّ جلالُهُ وعَظُم سلطانه - أحْكمُ الحاكمين، وأعْدَلُ العادلين، يستَلْزِمُ عقلاً أَنْ يَبْدَأَ اللَّهُ عزّ وجلَّ بقَذْفِهم إلى دَرَكَاتهم في جهنَّم دارِ عذاب المجرمين، قبل سائر المجرمين.

وجاء التعبير بضمير المتكلّم العظيم: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ﴾ لأن الحديث يتعلَّقُ بجَبَرُوت سُلْطَان الرّبّ وقَهْرِهِ، وتنفيذ أحكامه العادلة، فالمناسِبُ فِيه ضَمِيرُ المتكلِّم العظيم.

وكوْن اللَّهِ عزّ وجلَّ يَبْدَأُ بالّذين هُمْ أولَىٰ بجهنَّم احتراقاً وتَعذيباً، فيَأْمُر ملائكتَهُ المصاحبين حشْرَهم وسَوْقَهمْ، وإحضارَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جثياً، ونَزْع الَّذين كانوا منهم في الدنيا أشدّ على الرَّحْمٰنِ عِتِيًّا، بقَذْفهم إلى الدَّرَكاتِ الّتي يسْتَحِقُّونها فيها، يَدُلُّ علَىٰ أنَّ اللَّهَ عزّ وجَلَّ يُلْحِقُ بهم سائر الكافِرِينَ المكذّبين بيوم الدّين المحضَرِين حولَ أبواب جهنَّم جثياً، فيَأْمُرُ ذَوي الاختصاص من ملائكتِهِ بِقَذْفِهِمْ إلى الدّركات الّتي يسْتَحِقُّونها بحسَبِ جرائمهم، ويُنَفِّذُ الملائكةُ أمْرَ اللَّهِ بشَأْنِهم، فَيوزِّعونَهُمْ في دراكاتِ جهنَّم

تَوْزِيعاً عادلاً بحسَبِ أحكام الله فيهم الّتي لا يَظْلِمُ اللَّهُ فيها أحَداً مثقالَ ذرَّة، والّتي كان عَدْلُ الله فيها مناسِباً لأحوالهم الّتي كانُوا عليها في الدُّنيا.

قول الله عزّ وجل:

• ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾:

تَرَجَّحَ لدَيَّ أنّ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ تتحدَّثَانِ عن الْوُرُودِ على الصّراط، وهُوَ جِسْرٌ يُضْرَبُ على وَسَطِ أَعْلَىٰ جهنَّمَ من حافةٍ إلى الحافة المقابلَة لها، كما وَرَدَ في الأحاديث الصحيحة عنْد البخاريّ ومُسْلم والإمام أحمد، عن أبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرة.

إنّ المارَّ على الصّراط المضروب على وسَطِ أعْلَىٰ جهنَّم يقالُ بشأْنِهِ: قد ورَد جهنّم، بمعنىٰ: مَرَّ مُشْرفاً عليها، كَمَا يقال لمَنْ دَخَلَهَا ونَالَ شيئاً منْ عَذَابها: قَدْ وَرَدَها.

فكلمة الورود مستَعْمَلَةٌ على المعنَيَيْن.

جاء في «لسان العرب»: قال ابْنُ مَسْعُودٍ، والحسَنُ، وقتادَة: إنَّ وُرُودَ جَهَنَّمَ لَيْسَ دُخُولَها.

أي: لَيْسَ دُخُولُها أمْراً لازماً أخذاً من دلالة جُمْلَة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾.

وحُجَّتُهُم في ذَلِكَ قَوِيَّة، لأنَّ الْعَرَب تقول: وَرَدْنا ماءَ كذَا وَلَمْ يَدْخُلوه. ويُقَالُ لُغَةً لِمَنْ بَلَغَ إلىٰ الْبَلَدِ وَلَمْ يَدْخُلْهُ: وَرَدَ بَلَدَ كذا.

قال أبو إسحاق: وفي اللُّغَة: وَرَدَ بَلَدَ كَذَا، ومَاءَ كَذَا، إذَا أَشْرَفَ عَلَيْهِ، دَخَلَهُ أمْ لم يَدْخُلْه. وقال: فالْوُرُودُ بالإجماع لَيْسَ بدُخولٍ، أي: عنْدَ أهل اللّغَة.

فقول الله تعالى خطاباً لعموم الناس ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي: وَمَا أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدٌ جَهَنَّمَ، دُخُولاً فيها، أو عُبُوراً على الصراط المشْرِفِ عليها، الّذي يُضْرَبُ على وسَطِ أعْلاها من حافَةٍ إلى حافَة.

الواو عطفت الجملة علىٰ ما سبَقها من جُمَل. و«إنْ» حَرْفُ نَفْيٍ بمعنى «ما» والجملة فيها قَصْرٌ بالنَّفْي والاستثناء. أي: وما أحَدٌ مِنْكُمْ أيُّها الناس إلَّا لَهُ صِفَةُ وُرُودِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الدّين.

• ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾: أي: كان بقضاء الله وقَدَره هذا الورودُ عى جهنَّم، أمْراً أَوْجَبَ رَبُّكَ على نفسه أنْ يُنَفِّذَه، فَهُوَ أمْرٌ حَتْمُ التَّنْفِيذ، وهو سَوْف يكون مُنَجَّزاً مَقْضِياً لا محالة.

﴿حَتْمًا﴾: أيْ: واجباً قَضَاهُ اللَّهُ قضاءً مُبْرَماً. يقالُ لغة: حَتَمَ بكذا يَحْتِمُ حَتْماً، أي: قضىٰ وَحَكَمَ. ويقالُ: حَتَمَ الأمْرَ، أي: أحْكَمَهُ. ويقالُ: حَتَمَ عَلَيْهِ الأمْرَ، أي: أوْجَبَهُ، فالأمْرُ حَتْمٌ. ويُقَالُ: انْحتَمَ الأَمْرُ، وَتَحَتَّمَ، أي: وَجَبَ وُجوباً لَا يُمْكِن إسقاطُه.

﴿مَّقْضِيًّا﴾: أي: سوف يكون منجَّزاً واقعاً بالأمْرِ التكوينيّ لا محالة، في الوقت المحدَّد لتنْفيذه.

ومَعْلُومٌ أنَّ لِلَّهِ جلَّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطانه ـ أنْ يُوجب على نَفْسِهِ ما شَاءَ بقضائِه وقَدَرِه، وممَّا أَلْزَمَ به نَفْسَه تبارَكَ وتَعَالىٰ: أنَّهُ حَرَّمَ الظُّلْمَ علىٰ نفسه، وأنَّهُ لَا يُخْلِفُ الميعاد. وما أوجَبَهُ الله على نَفْسه، هو من قضائه وقَدَرِه، ومِنْ أحكامِه الَّتِي يُبْرِمُها.

والوُرُودُ على الصّراط الّذِي يُضْرَبُ على ظَهْرَانَيْ جهَنَّم لَهُ أَحْوالٌ تُلائِم أحوال الواردينَ عليه، فالمحسِنُونَ يَمُرُّونَ كَطَرْف الْعَيْن، وتتنازَلُ الدَّرَجاتُ، فَمِنَ المؤمنين من يَمُرُّ علىٰ الصّراط كالْبَرْق، ومِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كالرِّيح، ومِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كالطَّيْر، ومنهم مَنْ يَمُرُّ كَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ.

ويَتَساقَطُ في النّار الْعُصَاةُ المذْنِبُونَ الّذِينَ لَمْ يَشْمَلْهُمُ الْعَفْوُ والغفران، وبَعْدَ أنْ ينالَ كُلٌّ مِنْهُمْ مَا قُضِيَ عليه من عذاب، يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا واتَّقُوا ولَوْ من أدْنى درجات التقوى، الّتي تعادِلُ مثقال ذَرَّة، من بَقِيَّةِ مَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ عذاب، فيأمُرُ بإخراجهم من دار العذاب على مراحل متتابِعةٍ بحَسَب ذُنُوبِهم ومعاصيهم الّتي ارْتَكَبُوها في الدُّنيا.

أمّا الآخَرُون الظّالِمُونَ فيُبْقِيهم فيها جُثِيّاً.

• ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى﴾: أي: وبَعْدَ مُدَّةٍ متراخية من الزّمن، نُنَجّي مِنَ الاستمرار في دار العذاب، الَّذِين ورَدُوا جَهَنَّمَ وُرُودَ دُخُول، ولم يَمُرُّوا على الصراط عابرين حَتَّى نهايته.

نُنَجِّي: أي: نُخَلّص.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾: أي: الَّذِينَ كان لهم في الدُّنْيَا مقدارٌ مَا من وقايَةِ أنْفُسِهِم من بعض عذاب الله، ولو من أدْنىٰ دَرَجَات الْوِقَايَةِ والحماية.

﴿وَّنَذَرُ﴾: أي: ونَتْرُكُ. يقالُ لغة: «وَذِرَهُ يَذَرُهُ» أي: تَرَكه يَتْرُكه، وفي الْأَمْر يُقَالُ: «ذَرْهُ». وقد أمات العربُ ماضِي هذا الفعل ومَصْدَرَهُ. فإذا أُريد الماضي قالُوا: تَرَكَهُ. ولا يُسْتَعْمَلُ منْه اسم الفاعل، فلا يُقالُ: «واذِر».

﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ أي: الَّذِينَ لم يُوجَدْ في صَحَائِفِ أعْمَالهم إلَّا الظُّلْمُ وتجاوز الحدّ، وهذا يَدُلُّ على أنَّهُ لم يُوجَدْ في قلوبهم في حَياة الابتلاء مثقال ذَرَّةٍ من إيمان.

«أل» في: ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ هُنا هي الدّالَّةُ على استجماعهم كلَّ عناصر الظُّلْم دُون خَلِيطٍ من الخير.

﴿فِيهَا جِثِيًّا﴾: أي: في جهَنَّمَ جاثِينَ جالِسِينَ على رُكَبِهِمْ أذِلَّاءَ مُهَانين، يَنالُونَ عذابَهُمُ الخالد الّذِي يَسْتَحِقُّونه.

وقَدْ جَاء ما دَلَّتْ عَلَيْه هٰذه الآيَةُ مُفَصَّلاً، فيما صَحَّ عن الرسُول ﷺ من بيانَاتٍ قَوْلية.

## ممّا جاء في السُّنَّة بشأنِ الْوُرُودِ على جِسْرِ جَهَنَّم:

(١) روى البخاريّ ومُسْلِمٌ والإمام أحمد، من حديثٍ ذُكِرَتْ فيه أحداثٌ من أحداث يَوْم القيامة، عن أبي سَعِيدٍ الخدري رضي الله عنه، أنّ الرَّسُولَ ﷺ قال فيه:

«ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَىٰ جَهَنَّمَ، وتَحُلُّ الشَّفَاعَةُ، ويَقُولُون: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ».

قيل: يَا رَسُولَ الله، وما الْجِسْرُ؟. قال:

«دَحْضٌ مَزَلَّة[١]. فيهِ خَطَاطِيفُ، وكَلَاليبُ[٢]، وحَسَكَةٌ تَكُونُ بنَجْدٍ، فيها شُوَيْكَةٌ، يُقَالُ لها: السَّعْدَان، فَيَمُرُّ المؤمِنُونَ كطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكالْبَرْق، وكالرِّيح، وكالطَّيْرِ، وكأجاويدِ الْخَيْلِ والرِّكاب[٣]، فناجٍ مُسَلَّمٌ، ومَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ[٤]، ومَكْدُوسٌ في نَارِ جهَنَّمَ[٥]، حَتَّىٰ إذَا خَلَصَ المؤْمِنُونَ من النَّارِ، فَوَالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ، مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لِلَّهِ في اسْتِيفَاءِ الْحَقّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ لإخْوَانِهِمْ الَّذِينَ في النَّارِ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا

---

(١) **دَحْضٌ**: أي: زَلِقَ. **مَزَلَّة**: أي: مَوْضِعُ الزَّلَلِ والانزلاق. تَنْزَلِقُ عنه الأقدام وتَزِلُّ.

(٢) **خَطَاطِيف**: جمع «خُطَّاف» وهو كُلُّ حَدِيدَةٍ مُعْوَجَّة. **كَلاليب**: جَمْعُ «كُلَّاب» وهو حديدة مُعْوجَّة الرأس يُنْتَشَلُ بها الشيءُ أو يُعلَّق.

(٣) **الرِّكاب**: الإبل المركوبة، **ومَخْدُوشَ مُرْسَل**: أي: ينالُهُ خَدْشٌ ويُتْرَكُ.

(٤) **ومَكْدُوسٌ في نار جهنم**: أي: ومَرْمِي فيها ومجموعٌ بتزاحم مع المعذّبين.

(٥) **حُمَماً**: أي: فَحْماً، وكُلَّ ما احْتَرَقَ مِنَ النَّارِ، واحِدَتُه «حُمَمَة».

يَصُومُونَ مَعَنَا، وَيُصَلُّونَ، وَيَحُجُّونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ، فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ علَىٰ النّار، فَيُخرِجُون خَلْقاً كَثيراً، قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إلىٰ نِصْفِ ساقِهِ، وَإِلَىٰ رُكْبَتِهِ.

فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا بَقِيَ مِنْ أَحَدٍ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا به.

فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ارْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ من خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ.

فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كثيراً، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أحداً مِمَّنْ أَمَرْتَنا بِهِ.

ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوه.

فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثيراً، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنا لَمْ نَذَرْ فيها ممَّنْ أَمَرْتَنَا أحداً.

ثُمَّ يَقُولُ: ارْجَعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُم فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوه.

فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْراً.

فَيَقُولُ اللَّهُ: شَفَعَتِ الْمَلاَئِكَةُ، وشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ المؤمْنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلّا أَرْحَمُ الرَّاحِمينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النّارَ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْماً لَمْ يَعْمَلُوا خَيْراً قَطُّ، قَدْ عَادُوا حُمَماً، فَيُلْقِيهِم فِي نَهرٍ فِي أفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهرُ الحياة، فَيَخْرُجونَ كَمَا تَخرُجُ الْحِبَّةِ في حَمِيلِ السَّيْلِ[1]، أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَىٰ الْحَجَرِ أوالشَّجَرِ، مَا يَكُونُ منها إِلَىٰ الشَّمْسِ أُصَيْفِرَ

(١) الحِبَّةُ: بِكَسْرِ الحاء بُزور الْعُشْبِ والْبُقُولِ الْبَرِّيَّةِ، وحَمِيلُ السَّيْلِ هو ما يَحْمِلُهُ مِنَ الْغُثَاءِ والطِّين.

وَأُخَيْضِرَ، وَمَا يَكُونِ مِنْهَا إِلَىٰ الظّلّ يَكُونَ أَبْيَض، فَيَخْرُجون كاللُّؤلُؤِ، في رِقَابِهِمْ الْخَواتِيمُ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّة، هٰؤُلاَءِ عُتَقَاءُ اللّهِ مِنَ النّار، الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوه، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوه.

ثُمَّ يَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ.

فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ.

فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هذا؟

فَيقولُونَ: يَا رَبَّنَا، أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هٰذَا؟

فَيَقُولُ: رِضَايَ، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً».

(٢) وجَاءَ فِي رِوَايَـةٍ أُخْـرَىٰ عـن أبـي هـريـرة، وعـن أبـي سَـعِـيـدٍ الخدْريّ، زِيَادَةُ وَصْفِ حَالِ آخِرِ أَهْلِ النَّارِ دُخُولاً الجنَّة، وكَيْفَ يَتَدَرَّجُ في طَلَبَاتِهِ مِنْ رَبِّهِ مَرْحَلَةً فَمَرْحَلَةً، حَتَّىٰ يُدْخِلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، ويَقُولُ لَهُ: تَمَنَّ، فَيَتَمَنَّىٰ، حَتَّىٰ إِذَا انْقَطَعَتْ أُمْنِيَّتُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ؛ زِدْ كَذَا وَكَذَا، أَقْبَلَ يُذَكِّرُهُ رَبُّهُ، حَتَّىٰ إِذَا انْتَهَتْ بِهِ الأَمَانِيُّ، قَالَ اللَّهُ عزّ وجلَّ، لكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ مَعَهُ».

وفي رِوَايَةِ أبي سَعِيد: «وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ مَعَهُ».

(٣) وَرَوَىٰ البخاريُّ ومُسْلِمٌ، وأحمُدُ، والتِّرْمِذِيُّ والنَّسَائِيُّ عَن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَانَ في قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إلا اللَّهُ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً».

كُلُّ هَٰؤلَاءِ الَّذِينَ يُخْرِجُهُمُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ عَلَىٰ مَرَاحِلَ، يَدْخُلُونَ في عُمُوم قول الله عزّ وجلّ:

﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس العاشر من دُرُوس سورة (مريم) والحَمْد لله على معونته وتَوفيقه ومَدَدِه وفتحه.



## (١٤)
## التدبّر التحليليّ للدرس الحادي عشر من دُروس سورة (مريم) وهو الآيات من (٧٣ ـ ٧٦)

قال اللَّهُ عزّ وجل:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

**القراءات:**

(٧٣) • وقرأ حمزة ويعقوب: «عَلَيْهُمْ» بضمّ هاء الضمير، وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بكسر هاء الضمير. والقراءتان وجهان عربيان في النُّطْقِ.

(٧٣) • وقرأ ابنُ كثير: «**مُقاماً**» بضَمّ الميم الأولىٰ، من فعل «أقام» المزيد وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿مَّقَامًا﴾ بفتح هذه الميم، من فعل «قَامَ» الثلاثي غير المزيد.

والقراءتان متكاملتان في الأداء البَياني، أي: يُهَيَّأُ لهم «مُقَام» فهم يتخذونه «مَقَاماً» بالجَبْر أو بالاختيار «مُقَام» و«مَقَام» كلٌّ منهما يَصْلُحُ لأنْ يكونُ اسم مكان، أو مصدراً ميمياً، ويُسَمَّى «اسْمَ مَصْدَر».

أي: خَيْرٌ مَكانَ إقامَةٍ، أو خَيْرٌ إقَامةً.

(٧٤) • قرأ قالون، وابْنُ ذَكْوَان، وأبو جَعْفر: [وَرِيّاً].

**الرِّيُّ**: امتلاء الْبَدَنِ بما يُعْطِيه حُسْناً ونضارةً وجَمالاً من السّوائل والأشربة والغذاء الحسن.

• وقرأها باقي الْقُرَّاء الْعَشَرَة: ﴿وَرِءْيًا﴾.

**الرِّئْيُ**: حُسْنُ المنْظَر في البهاء والجمال، سواء أكان في الملابس، أمْ في الأبدان.

والقراءتان متقاربتان في الدَّلالة على المعنى المراد، وفيهما تفنُّنٌ مُسْتَعْذَبٌ، في استخدام لفظَتَيْن متقاربتَيْن في النُّطْق، ومتقاربتَيْن في المعنى.

**تمهيد:**

هذا الدرس من دروس السورة يُعَالج بالبَيانِ الحكيم ذَريعةً تَذَرَّعَ بها الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ عُتَاةِ وأئِمَّةِ مشركي مَكَّة، في المرحَلَةِ المكيَّةِ منْ سِيرَةِ الرَّسُول الدَّعَويّة، ويَتَذَرَّعُ بها الجبابرة وأهل الوجاهة والثراء في كُلّ عَصْرٍ وفي كلّ أمَّة، لتحْسِينِ مواقِفهم الكُفْرِيَّة الْقَبِيحَةِ وتَزْيِينِها.

لَقَدْ كَفَرَ كبراء مُشْركي مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيلِ بما جاءَ في آياتِ اللَّهِ البيّنات المنزَّلَاتِ على رسول الله محمّد ﷺ، وقَدَّمُوا للّذينَ آمَنُوا ذَرِيعَتَهُمْ التالية.

وَهِيَ أَنَّهُمْ يتمتَّعُونَ بمكانةٍ اجتماعيَّة رفيعة، ولهم في بيئتهم أنْصارٌ وأعوانٌ مَؤَيِّدونَ لهم من عِلْيَة الْقَوْمِ، ولَهُمْ نادٍ يَتبادَلُونَ فيه الرأيَ والمشورة، وطرائف الأحاديث والأخبار، ويَتَمَتَّعُونَ أيضاً بِوَفْرَةٍ من زِينَةِ الحياة الدُّنْيا ولَذَّاتِهَا وأموالها ومُمْتَلَكاتِها.

بينما كان المسلمون في العهْد المكيّ من تاريخ دَعْوَة الرَّسُول ﷺ، مَحْرُومين من ذلِكَ الَّذِي كَانَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمتَّعُونَ به.

فَتَوَهَّمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ من اعتقادٍ وسُلُوكٍ خَيْرٌ مِمَّا يَدْعُوهم إِلَيْهِ الرَّسُولُ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، إذْ كانَ هُو السَّبَبُ في تَفَوُّقِهم في مظاهر الحياة الدُّنيا وزِيناتها.

هٰذه النظرة القاصِرَةُ الضيِّقَةُ قَدْ يُفْتَنُ بها بَعْضُ المؤمنين المسلمين، ضعفاء الإيمان، أو الجهلة بحكْمَةِ الله في عباده.

لكنَّ الحقيقة مخالفة لها تماماً، فنحن نعلَمُ من قواطع النصوص، وبراهين العقل، أنّ دار الحياة الدنيا دار امتحان، ونَعْلم أنَّ الامتحان فيها يكون على مقدار ما فيها من متناقضات، ومتضادّات، ومُتخالفات، ومتماثلات.

فيكونُ الامتحان بالغنى وبالفقر، وبالعزّ وبالذّل، وبالصحَّةِ والمرض، وبارتفاع المكانَة الاجتماعيَّة وبانخفاضها، وبسائر ما في الحياة من أعراض وتصاريف، ويكون بامتحان الناس بعضِهم ببعض، ويجري امتحان العباد بها سواءٌ أكانوا مؤمنين أمْ كافرين، دون تفريقٍ بَيْنَ الزُّمَرِ المتباينَةِ في مفهوماتها ومعتقداتها.

أمّا امتحان كلّ إنسان فيكُونُ بحكْمَةِ اللَّهِ جلَّ جلالُه ملائماً لتكوين خريطَتِه النفسيَّة، الّتي لا يَعْلَمُها علماً شاملاً إلّا الله ـ جلَّ جلالُه وعَظُم سُلْطَانُه ـ الّذي وضَعَها موضِع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا.

ولولا أن يُفتَن المؤمنون فتنةً شديدةً لا يجدون في نفوسهم مُقَاوَمَةً لها، لجعل الله عزّ وجلّ للكافرين في الحياة الدنيا، كُلَّ ما يحبُّونَ من زينتها وزُخرُفها ورَفاهيتها، ولجعَل المؤمنين المسْلِمِينَ مَحْرُومِين من ذلك، يعيشون في الحياة الدُّنيا بلا زينَةٍ ولا زُخْرُفٍ ولَا رَفاهية.

لكنَّ حكْمَةَ اللَّهِ جلّ جلالُهُ لَمْ تَشأ ذَلِكَ، لَئِلَّا يَكْفُرَ النَّاسُ جَمِيعاً، إذْ لَا يَكُونُ الْأَمْرُ قائماً على الامتحان الأمثل.

بلْ شاءتْ حِكْمَةُ اللَّهِ أنْ يَكُونَ النَّاس جميعاً، مؤمنُوهم وكافروهم خَاضِعِينَ لسُنَّةٍ عَامَّةٍ تَشْمَلُ الجميع، وأنْ يكون التوزيع الفرديُّ بحَسَبِ خصائص النُّفُوس، وخَرَائِطِها التَّكْوينيَّة الّتي لا يَعْلَمُها إلَّا هو ومَنْ يُعْلِمُه، فَهُوَ بِحِكْمَتِهِ يُوسِّعُ الرزْق لِمَنْ يَشَاءُ، ويُضَيِّقُ الرِّزْقَ علىٰ من يَشَاء، ويُعزُّ من يشَاءُ، ويُذِلُّ مَنْ يَشاء، ويُوَزِّعُ المتناقضاتِ والمتضادَّات والمتخالفات والمتماثِلَاتِ بمقاديره الحكيمة علىٰ عباده، بِحَسَبِ عِلْمِهِ بهم، وبحَسَب حكمته في امتحان كلٍّ منهم، التي يُراعِي بها حالة الخريطة النفسيَّة الّتي فَطَرَهُ عليها، ويُراعي بها أحْسَنَ صُور الامتحان الأمثل له.

وقد دلَّ على هذه المعاني نُصُوصٌ قرآنيَّةٌ كثيرة، منها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول): ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿نُّمِدُّ﴾: أي: نُعْطِي عطاءاً فيه سعةٌ وتطويل، وقد يكون بتَتَابُعٍ واتّصَال.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾: أي: من كُلِّ الناسِ على اختلاف عقائِدهم وألْوانهم ولغاتهم ومَواطِنِهم وأُصُولهم وأعْرَاقهم، مؤمِنيهِمْ وكُفَّارِهم.

والواقع البشري يُبَيِّن المراد بهذا النَّصّ.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّخْرُف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول):

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ

سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَزُخْرُفًا﴾: **الزُّخرُف**: الذَّهَبُ، والزِّينة، وكَمال حُسْنِ الشيء. يُقَال لغة: زَخْرَفَهُ، أي: زيَّنَهُ وكمَّلَ حُسْنَه وجمالَه.

أي: ولولا أنْ يكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً كَافِرَةً، افْتِتَاناً بزينات الحياة الدُّنيا الَّتي تُخَصَّصُ لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمٰنِ، لَجَعَلْنَا الكافِرِينَ في الحياة الدنْيَا هُمْ أصْحَابَ الْغِنَىٰ والثراء والرَّفَاهِيَةِ من زيناتِ الحياة الدُّنيا.

لَقَدْ عَزَلَ الكافِرُون عَنْ مَفْهُومَاتِهم مَفْهُومَ أنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا حَيَاةُ امْتِحَانٍ بمقادير الله في المتناقضات، والمتَّضاداتِ، والمتَخالِفَاتِ، والمُتَمَاثِلَاتِ، والسّارّاتِ والمؤلمات، ضِمْنَ ظُروفِ الحياة الدنيا، وعَزَلُوا عَنْ مَفْهُومَاتهم تَصوُّرَ الْيَوْم الآخِرِ ومَا فيه مِنْ حِسَابٍ وفَصْلِ قضاءٍ وتحقيقِ جزاء، فتوَهَّمُوا أنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا هِيَ كُلُّ الحيَاةِ الّتي يُمرُّ بها وُجودُهم. فإذا رأوا أَنَّهُمْ في الحيَاةِ الدُّنْيَا أَحْسَنُ مكانةً اجتماعيَّةً بَيْنَ قَوْمِهِمْ وأَوْفَرُ مَالاً، وأكْثَرَ رَفاهيَةً، وغَضَارةً ونَضَارَةً وقُوَّةً وبَأساً، وأنْصاراً وأعواناً، من جماعَةِ المؤمنين المسلِمِينَ اتَّخذُوا ذَلِكَ حُجَّةً علىٰ المؤمنينَ المسْلِمين، بِأَنَّ طَرِيقَتَهُمُ المعاديَة للدّين الحقِّ، هيَ الّتي جَلَبَتْ لَهُمْ هذا التفوُّقَ الدُّنْيَويّ، وأنَّ طَرِيقَة المؤمِنينَ المسْلِمين، هيَ التي جَلَبَتْ لَهُمْ مَا هُمْ فِيه مِن انْحِطَاطٍ وضَعْفٍ وفَقْرٍ وضَعَة، وهٰذا وهْمٌ باطِلٌ أبانَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في هذا الدَّرْسِ بُطْلانَهُ وفساده.

**التدبر:**

قول الله عزَّ وجلّ:

- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: الضمير في: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يُرادُ به المدْعُوُّونَ إلى دِينِ اللَّهِ الحقّ، إذْ هُمُ المعنيُّون بِتَوْجِيهِ التِّلاوَة، أخْذاً من السِّبَاقِ والسِّيَاقِ والْقَرائن.

﴿ءَايَٰتُنَا﴾: أي: آياتٌ من القرآنِ المجيدِ الذي هو تَنْزِيلُنا على عَبْدِنا محمَّدٍ، ليُبَلِّغَهُ للنَّاس، باعْتِبارِهِ، أُنْزِلَ لتعليمهم وهدايتهم، ضِمْنَ تَعْليم وهدايَةِ النَّاسِ جَمِيعاً.

﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: أي: حالَة كونِها وَاضِحَاتِ جَلِيَّاتِ الدَّلاَلاتِ، ومشْتَمِلَاتٍ على الهدايَة لِلَّتِي هِيَ أقْوم، وعلى الموعظة الحسنَةِ بالتَّرْغيب والترهيب، وعلى المجادَلَةِ بالّتي هِيَ أحْسَن، وهذه هي الكلّيَّاتُ الَّتي تَرْجِعُ إلَيْهَا تَفْصِيلَاتُ آيَاتِ القرآن المجيد، والمشتملات على هدايته للناس.

يقال لغة: «بَانَ الشَّيْءُ يَبِينُ بَيَاناً، فهو بَائِنٌ وَبيِّنٌ» أي: ظَهَر وَوَضَح وَكَان جَلِياً.

ويُقال: «بَيَّنَ الشَّيْءُ» أي: ظَهَرَ واتَّضَحَ. ويقال: «أبَانَ فُلاَنٌ الشيْءَ إبَانَةً، وبيَّنَهُ تَبْييناً وَتِبْيَاناً» أي: أوضَحَهُ وأظْهَرَهُ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾: أي: قال الَّذِينَ كَفَرُوا كُفْراً نَاتِجاً عن إرادةٍ جازمة من المدْعُوِّينَ إلى دِينِ اللهالحقّ، بَعْدَ إدْرَاكِهِمْ دَلاَلاتِ الآياتِ البيّنات وَقيام الحجَّةِ عليهم بها.

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: الّذين يَدْعُونَهُمْ إلى الإيمان والإسلام لإنقاذ أنفسهم من عذاب اللَّهِ يوم الدّين، وللظفر بالنَّعيم الخالِدِ في جنَّاتِ النّعيم.

﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾: أيْ: أيُّ فَرِيقَيْنا، يَا مَنْ تَتْلُونَ عَلَيْنا هٰذِهِ الآيات. الَّتي تَقُولُون: إنَّها آياتٌ مُنَزَّلَاتٌ مِن عنْدِ اللَّهِ على محمَّد.

﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ أو «خَيرٌ مُقاماً» كما في القراءة الأخرى، أي: خَيْرٌ إقَامَةً، أو خَيْرٌ مَكَانَ إقَامَةٍ، كِلَا المَعْنَيَيْنِ مقبُولان، عند جمهور علماء الأصول، الّذِينَ يَرَوْن حمْلَ اللَّفْظِ على مَعْنَيَيْهِ فأكْثر إذا لم يكن بيْنَهما تناقُضٌ أو تضادّ، وقد سبق في شرح القراءات تحليل كلمة «مَقَاماً» و«مُقَاماً».

ومُرادُهُم بأفضليَّةِ الإقامة، وأفضليَّةِ مكانها، كُلُّ مَا يَسْتَمْتِع به المقيم من متاع الحياة الدنيا وزينتها، وأبْنِيَتِها وقُصُورِها، وَأَثَاثِها وَمَطَاعِمِهَا وَمَشَارِبها، ومَنَاكِحِها، وسَائر لذَّاتِها ومُتَعِهَا.

لَقَدْ تَهَرَّبُوا من مُنَاظَرَةِ المؤمنين حوْل مَضْمُون آيات الله البيّنات، ولَجَؤُوا إلىٰ الاحْتِجاج بالتفوُّق فيما هم فيه من زينة الحياة الدُّنيا، وبأن أهل ناديهم أحسن حالاً من الذين آمنوا.

﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾: «النَّدِيُّ» مجْلِسُ الْقَوْمِ، ومُجْتَمَعُهُمُ الّذي يَتَبَاحَثُونَ فيه حَوْلَ أُمُور حيَاتهم، أفْرَادِهم وجَماعَاتهم، والّذي يتشاورون فيه، ويُدَبِّرون ويُخَطّطون فيه لأمور المستقبل.

ويَأتي؛ «النَّدِيُّ» بمعنى القوم الذّين يجتمعون للتباحُثِ، والتَّشَاوُرِ، والتدبير، والتخطيط لأمور المستقبل، وهؤلاء يكونون عادةً من عِلْيَةِ القوم.

فالذين كفَرُوا يحْتَجُّونَ بأنّ أهْلَ نَاديهم أحْسَنُ أجْسَاماً، وأحْسَنُ رَأْياً وإدْراكاً للأُمور من جماعَةِ المؤمنين.

لقد جَعَلُوا ذريعَتَهُمْ لرفْضِ دعوة الداعين لهم إلى دين اللَّهِ الحقّ، بتِلَاوَةِ آيات اللَّهِ البيّناتِ عليهم، افْتِخَارَهُمْ بتَفَوُّقهم على الدَّاعينَ لهم بأنَّهُمْ خَيْرٌ مَقَاماً في الحياة، وبأنَّهُمْ أحْسَنُ نَدِياً.

فالاستفهام في عبارتهم: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾؟ يُرِيدُونَ بِهِ إعلانَ تَفَوُّقهم في الحياة الدُّنيا علىٰ فَرِيق المؤمنين، ويُريدُون به

الافتخار بهذا التفوُّق، وهم يَعْتَبِرُونَ هذا بمثابَةِ دَلِيلٍ على صِحَّةِ طَرِيقَتِهِمْ، وعَدَمِ صِحَّةِ طَرِيقة المؤمنين.

لكن لم تمْضِ عدَّةُ سنواتٍ حتَّىٰ انقلبَتِ الأوضاع، وصار المؤمنون الضُّعفاء الأذِلَّاء هُمْ أصحاب السُّلْطَةِ والعِزَّةِ والقوّة، والغِنَىٰ والثراء، وصَارَ الكافرون هم الضعفاء والأذلاء والمهانين والمنكَسِرين.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ۝٧٤﴾.

في هذه الآية رَدٌّ علَىٰ شُبْهَةِ الّذِينَ كَفَرُوا التَّوهُّمِيَّة، الّتي جاء بيانُها في الآية السَّابقة (٧٣).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾: أي: وعَدَداً كثيراً أهلكْنَا قَبْلَهُمْ إهلاك تَعْذِيبٍ وإبادَةٍ جَمَاعِيَّةٍ.

﴿مِّن قَرْنٍ﴾؛ **الْقَرْنُ مِنَ النَّاس**: هُمْ أَهْلُ زَمانٍ واحدٍ، والْجَمْعُ قُرُون.

﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾: أيْ: هم أحْسَنُ منْهُمْ أثَاثاً في أمتِعَتِهِم ووسائل رفاهيتهم، وأحْسَنُ مِنْهُمْ خُصُوبَةَ أبدانٍ ونُضْرَةً تَدُلُّ على مَا كَانُوا فيه من مَعِيشَةٍ ناعِمةٍ مرفَّهَة، وأحْسَنُ مكانَةً اجتماعيَّةً في أقوامهم.

«كَمْ» في هٰذِهِ الآية هي «كَمْ» الخبريَّة، وهِي كنايةٌ عن عَدَدٍ كثيرٍ مُبْهم، وهي في محلّ نصبٍ علىٰ أنَّها مَفْعُولٌ به لفِعْل ﴿أَهْلَكْنَا﴾ أي: كثيراً من الْقُرُونِ أَهْلَكْنَا إهلاكَ تَعْذِيبٍ وإبادةٍ بسَبَبِ كُفْرِهم، فَلَمْ يُغْنِ عِنْهُمْ مَا كانوا فيه من تَفَوُّقٍ في مَظَاهِرِ الحياةِ الدّنيا وزينَتِها شَيْئاً.

وعبارة: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تَمْييزٌ لـ«كَمْ» مُبَيِّنٌ لها.

والواو في: ﴿وَكَمْ﴾ هِيَ فيما أرَىٰ تَعْطِفُ على محذوفٍ مُقَدَّرٍ، يُمْكِنُ للمتدبّر العميق التفكيرِ أَنْ يُقَدِّرَهُ استخراجاً من لوازم الأفكار، وقياساً علىٰ

الأشباه والنظائر القرآنية، وتقديرُه: كم من قَرْنٍ قَبْلَهُم كانُوا أحْسَنَ منهم أثاثاً وَرِئْياً، وكانوا مَعَ ذَلِكَ لَا يَعْقِلُونَ شيئاً، وكانوا لَا يهْتَدون إلى صراطِ نجاتِهم وسعادتهم، أو كانوا يَتَّبِعُونَ الشّيْطان الّذي يَقُودُهُم أو يَسُوقهم إلىٰ عذاب السَّعير. وكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أحْسَنُ أثاثاً وَرِئْياً، بسبب كفرهم وفجورهم.

﴿أَثَـٰثًا﴾: **«الأثاث»**: جَمْعٌ مفرده «أَثَاثَة» وهو يُطْلَقُ علىٰ مَتَاعِ البيْت، الّذي يُفْرَشُ فيه، أو يُتَّخَذُ فيه للْجُلوسِ والنَّوْمِ والزّينَة، ويُطْلَقُ أيضاً على أدواتِ المطاعم والمشارب وسائر حاجات المساكن.

ويُطْلَقُ الأثاثُ أيضاً على جميع الأموال، ما كان منها ثابتاً لَا يُنْقَلُ، وما كان مِنْها مُتَحَرِّكاً يُنْقَلُ.

وكلُّ هذه المعاني مرادة بكلمة ﴿أَثَـٰثًا﴾.

﴿وَرِءْيًا﴾: **«الرِّئْيُ»** حُسْنُ المنظر في الأجساد والأبدانِ النَّضِرَة الممتَلِئَةِ خُصُوبَةً وبهَاءً وَرَوْنَقاً، بسبب ما هي فيه من معيشَةٍ نَاعِمَةٍ مُرَفَّهَة.

وفي القراءة الثانية **[وَرِيّاً]**: أي: وامتلاء بَدَنٍ امتلاءً يُعْطِيه حُسْناً وَنَضَارَةً وَجمالاً، من وفْرَةِ وَسَائل الرَّفاهية.

القراءتان متقاربتان في المعنى.

وفي استِخْدَام كَلِمَة «الرِّئْي» أو «الرِّيّ» هنا إشارةٌ إلىٰ أنَّ الّذين كَفَرُوا إنَّما يَفْتَخِرُونَ بِحُسْنِ أجْسَامِ أهْلِ ناديهم، لا بَجَوْدَةِ عُقُولهم، وحُسْنِ آرائهم، وإنْ أوْهَمُوا في مقَالَتِهم بأنّ أهْلَ نَادِيهم، ومَجْلِسَ كُبَرَائهم أحْسَنُ رَأْياً وإدْراكاً للأمور.

والرَّدُّ القرآنِيُّ الّذي جاءَ مُصَرَّحاً به، قدْ تَضَمَّنَ أنَّ كثيراً من كُفَّارِ

القرون السابقة، كقَوْم عادٍ، وقوم ثمود، وقوم فرعون، قد أهلَكَهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ إهلاكاً شاملاً مقروناً بتعذيب، بسَبَبِ عِنادهم وإصرارِهم على الكُفر، وإمعانِهِمْ في جرائمهم، مع أنَّهُمْ كانُوا أحْسَنَ مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ في كُلِّ مَا يَفْتَخِرُونَ بِهِ على المؤمنين المسلمين، من أنَّهُمْ خَيْرٌ مقاماً وأحْسَنُ نَدِياً، فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ شيئاً مَا كانُوا يَتَمَتَّعُونَ به من زينَةِ الحياة الدُّنيا، وما كانوا يَفْتَخِرُونَ بِهِ، من أجْسَامٍ حَسَنَةٍ مُعْجِبَةٍ، ذَوَاتِ بَهَاءٍ ورَوْنَقٍ وجَمال.

إنَّ الاغْتِرَارَ بمظاهر الحياة الدنيا سِمَةُ الَّذِينَ ليْسَتْ لَهُمْ عُقُولٌ يَعْقِلُونَ بها أهواءهم وشَهَوَاتِهِم، عن أن تَنْطَلِقَ بهم إلى مَهالِكِهم.

وهٰذا الرَّدُّ القرآنيُّ قَدْ تَضَمَّنَ حُجَّةً صحيحةً تَقْبَلُها العقولُ السّليمة، إذ هي مستندةٌ إلىٰ واقع من التاريخ البشريّ، فوقائع التاريخ الّتي تُعْرَفُ أسْبَابُها تَتَضَمَّنُ حُجَجاً صحيحة من الدرجَةِ الأولى، وقَدْ تَصِلُ إلى مستوى الْحُجَجِ البرهانيَّة.

قول الله عزّ وجلّ مخاطباً المؤمن الداعي إلى سبيل ربه:

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾:

**تمهيد:**

بعد تقديم الحجّة الدامغة في الآية السابقة (٧٤) أبان الله عزَّ وجلّ في هذه الآية (٧٥) سَبَب كَوْن الَّذِين كَفَرُوا يتمتَّعُونَ بزينَة الحياة الدنيا وأموالها وزُخْرُفِها، وهو أنّ الله بحِكْمَتِهِ ـ جلّ جلالُه وعظُمَ سُلْطانه ـ يُمِدُّهم بعَطَاءَاتِ رَحْمَتِهِ، لِيُوَفِّيَهُمْ نَصِيبَهُمُ المقدَّرَ لَهُمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا، فِي ظُرُوفِ امْتِحَانِهم الامتحانَ الأمثلَ.

وعلى طريقَةِ التَّنْوِيعِ في الأساليبِ البيانيَّةِ كلَّفَ اللَّهُ الداعِيَ إلى

دينِ اللَّهِ الحقُّ، أنْ يَقولَ لهم مُبيِّناً سُنَّةَ الله في عباده، القائمةَ على سِيَاسَةِ الإمدادِ غَيْرِ المنْقطِع بمتاع الحياة الدنيا، لِمَنْ كَانَ مَغْمُوساً في الضَّلالَةِ بإرادَتِهِ الجازِمَةِ، وأنَّ هٰذَا الإمْدَادَ يَسْتَمِرُّ حَتَّىٰ يُلاقِي مَا وَعَدَ اللَّهُ به الضَّالِّينَ المجْرِمِين، وهو واحِدٌ مِنْ أمْرَيْن:

**الأمْرُ الأوّل:** الْعَذَابُ المعجَّلُ في الدنيا، نَظِيرُ الذي أنزلَهُ الله عزّ وجلّ بالمهْلَكِين من القرونِ السَّابِقة، معَ ما يلاقي من عذاب يوْم الدّين جزاءَ كُفْرِه، وإصرارِه على رفض الاستجابَةِ لدَعْوَةِ الحقّ الّتِي يَدْعُوهُ رَبُّهُ إلَيْهَا.

**الأمْرُ الثاني:** إمْهَالُهُ حتَّى تَأْتِيَ سَاعَتُهُ الّتي يَهْلِكُ فيها، وبَعْدَهَا يَلْقَىٰ عذابَ رَبّه في مُدَّةِ الْبَرْزَخِ الفاصِلِ بَيْنَ الموت والبعث إلى الحياة الأخرى. ثُمَّ يلْقَىٰ العذابَ الأكبَرَ يَوْمَ الدّين، بَعْدَ أنْ تَقُومَ السَّاعَةُ الّتي يَكُونُ بِها بَعْثُ الأمواتِ، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء.

ويَوْمَئِذٍ يَجِدُ نَفْسَهُ في شرّ مكان يقُومُ فِيهِ، ويَجِدُ نَفْسَهُ في غاية الضَّعف والذِّلَّةِ والمهانَة، مَحْرُوماً من نَصِيرٍ ما ينْصُره، ومُعِينٍ ما يُعِينُهُ، ومُنْقِذٍ ما يُنْقِذُهُ من عذاب رَبّه، علىٰ ما أسلف في رحلة امتحانه في الحياة الدُّنيا.

**التدبّر:**

﴿قُلْ﴾: فعْلُ أمْرٍ مُوجَّهٌ لكُلّ داعٍ إلى اللَّهِ علَىٰ سبيل الخِطَابِ الإفرادي، وأوّلُ الدُّعَاة رسُول الله ﷺ.

﴿مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ﴾: «مَنْ» اسْمُ شَرْطٍ يجزم فِعْلَيْنِ أوّلُهما فعْلُ الشَّرْط، والثاني جوابُهُ وجزاؤه.

﴿ٱلضَّلَـٰلَةِ﴾ كالضَّلال، مَصْدَرُ «ضَلَّ» أي: ابْتَعَدَ عَنِ طَرِيقِ الْهُدَىٰ والرّشاد.

ودَلَّ حرف الجرّ: ﴿فِي﴾ على انْغِمَاسِهِ في أوْحَالِ وَقَذَارَات الضَّلال، بَعِيداً عن الْهُدَىٰ والرَّشاد.

أي: مَنْ كانَ مُنْغَمِساً انغِماساً كُلّياً في الضَّلالَةِ.

﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾: الفاء واقعة في جَوابِ الشَّرْط، واللَّامُ هي لَامُ الأمْر، دَخَلَتْ على مضارعِ «مَدَّ».

وفعْلُ «مَدَّ» يأتي بمعنَىٰ «أمْهَلَ». يقالُ لُغةً: مَدَّ الدائنُ للْمَدِينِ، أي: أمْهَلَه.

ويَأْتِي بمعنَىٰ «زَادَ» يُقال لغة: مَدَّ الشيءَ، أي: زَادَ فيه، ومِنْهُ يُقَالُ: مَدَّ خَلِيفَةُ المسلمين الجيْشَ، أي: أضافَ مَدَداً من الجنود.

وأرَىٰ أنَّهُ يُرادُ بهٰذِهِ العبارَةِ لازِمُ معناهَا، فإمْهَالُ الرَّحْمٰنِ لعَبْدِهِ، وإمْدَادُهُ بمزيدٍ من عَطَاءَات رَحْمَتِهِ، يُعْطِيهِ زَمَناً طَويلاً لمراجعة نَفْسِهِ بالتوبَة، فإذَا لم يَتُبْ كان إمهالُهُ قاطعاً لمعاذيره الّتي قَدْ يَتَذَرَّعُ بها مُعْتَذِراً يَوْمَ الدّين.

وتوالي مَزِيد العطاء يَجْعَلُ الْعَبْدَ الكافِرَ يَتَمادَىٰ وَيَزْدَادُ في كُفْرِهِ وَغَيِّهِ وإثْمِهِ، ويَسْتَفْرِغُ غايَةَ ما عنْدَهُ مِنْ شَرٍّ، لِيَكُونَ عِقَابُهُ وعذابُهُ الخالدُ مطابقاً لكمالِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيّ.

فصيغَةُ الطَّلَب في عبارة: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ لَا يُرادُ بها تَوجِيهُ الطَّلَبِ للَّهِ عزَّ وجلّ، إنَّما يُرادُ بها التَّحْذِيرُ مِنْ إمْهَالِ اللَّهِ له، والتَّخْوِيفُ من سُوءِ العاقِبة، أو نقول: يُرادُ بها لازم مضمونها، أي: فَلْيَسْتَمتع كما يشاء بإمهال الله ومزيد عطائه، فسوف يلقى مَصِيرَهُ الذي يكون فيه نادِماً خاسئاً ذليلاً معذّباً. ومثل هذه العبارة يمكن إدخالُها تحت عنوان «الكنَاية» أو تحت عنوان «المجاز المرسل». والطلب فيها خارج عن أصل معناه إلى معنى التحذير والوعيد بسوء المصير.

ويمكنُ أن يكون لازم المفهوم من العبارة على معنى «الإمهال» هو كما يلي: فَلْيَسْتَفِدِ المنْغَمِسُ في الضَّلَالَة مِنْ إمْهال اللَّهِ له، بمراجعَة نَفْسِهِ وتَوْبَتِهِ، إنْ كان لَدَيْهِ اسْتِعْدادٌ لذلك. أو فَلْيَتَماد في غَيِّهِ وضَلَالِهِ مَا شَاءَ أَنْ يَتمادَىٰ، ولْيُتَابعْ مَسِيرَتَهُ الظَّالِمَة المجْرِمَة مُمْعِناً فيما هُو فيه، ومسْتَغْرِقاً في استمتاعاته، بما أَمَدَّهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ وَسَائِل مُتَعِهِ وَلَذَّاتِهِ، وتحقيق أهوائه وشهواتِهِ إلَىٰ أقْصَىٰ حدّ يَسْتَطِيعُ اغْتِنَامَهُ في حياتِه الزَّائلة، فَسَوْف يُلاقي حتماً مَصِيرَهُ، خَيْبَةً وَحَسْرَةً وَنَدَامَة وعَذَاباً أليماً.

وهذا نظيرُ أنْ يُقَالَ لِذِي نَهَم وشَرَهٍ يَزْدَرِدُ الطَّعَامَ ازْدِرَاداً: فَلْيُطْعِمْهُ المطعمونَ مِنْ كُلِّ المآكلِ الَّتي يَشْتَهِيهَا، حتَّىٰ يَنْفَجِرَ بَطْنُهُ ويَسْقُطَ صَرِيعاً.

أي: فَلْيَفْعَلْ بنَفْسِهِ مَا يَشَاءُ مُمْعِناً في غَيِّهِ، حتَّىٰ يَلْقَىٰ مَصِيرَهُ آلاماً وأَوْجَاعاً وهَلاكاً، ما دامَ مُعانداً لا يَسْتجيبُ لنُصْحٍ ولا لِمَوْعِظَةٍ حَسَنَةٍ تَهْدِيهِ إلى رُشْدِهِ، وحُسْنِ عَاقِبَتِهِ.

ونظيرُهُ أنْ يُقَالَ لمغامرٍ عَنِيدٍ يَعْبُرُ الصَّحراء الّتي سَتُفْضِي به إلى تَهْلُكَتِهِ: فَلْتُعْطِهِ الصَّحْرَاءُ كُلَّ أبْعَادِها، فَسَيَكُونُ الْهَلاكُ مَصِيرَهُ لا مَحالَة.

وهٰذا لَوْنٌ من الأدَبِ في البيان مُسْتَعْمَلٌ بِكَثْرَةٍ في عبارات النّاس، دُونَ أنْ يُدْرِكُوا أنَّهُ تَعْبِيرٌ يُرَادُ بِهِ لازمُ معناه.

وَيَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ المراد: فَلَا تَعْتَرِضْ أَيُّهَا المتعجّبُ مِنْ إمْهَالِ اللَّهِ للكافِرِينَ، ومِنْ إمْدَادِهِمْ بِعَطَاءاتِ رَحْمَتِهِ، دُونَ مُعَاجَلَتِهِمْ بالْعِقَاب، فَحِكْمَةُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ قَضَتْ بذلك، وعَيْشُهُمْ في الحياة الدنيا قَصِير، وسَوْفَ يَلْقَوْنَ سُوءَ المصير، إن عاجلاً في الدنيا، وإن آجلاً إلى ما بَعْدَ الموْتِ.

والْغَرَضُ مِنَ الإمْهَالِ بِالنّسْبَةِ إلى الكافرين المعاندين المصرّينَ على كُفْرِهم، بَعْدَ إدْرَاكِهِمْ لِلْحقّ الرَّبَّانِيّ، ورفْضِهِمْ الاستجابَةَ لدَعْوَته، قد جاء

بيانُهُ صريحاً وواضحاً، في قَوْلِ الله عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

أي: إنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَنْكَشِفَ كُلُّ ما في أنْفُسِهِمْ من شرٍّ بالواقِع الاختباريّ، ولِيَنَالُوا بَعْدَ ذَلِكَ عِقَابَهُمْ بالْعَدْلِ، وَهُمْ مُبْلِسُونَ ساكتون يائسُون نادمون، دُون أن يَسْتَطِيعُوا التَّهرُّبَ، ودون أنْ يَجِدُوا لأنْفُسِهِمْ معاذِيرَ يَتَذرَّعُونَ بِها كذِباً وزُوراً.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾:

أي: حتَّىٰ إذا رَأَوْا مستَقْبلاً مَا يُوعَدُونَ مِنْ جزاءٍ بالْعَدْلِ معجَّلٍ أَوْ مُؤَجَّلٍ، وهذا الوعْدُ مسْتَمِرُّ التجدُّدِ، بدليل استعمالِ الفِعْلِ المضارع في: ﴿يُوعَدُونَ﴾. والموعودون به: عذابٌ مُعَجَّلٌ احتمالاً، وعذابٌ مؤجَّلٌ قطعاً إلى ما بَعْدَ الموت، وأوْفَىٰ عذابهم الأكبر يكونُ يوْمَ الدّين، بَعْدَ البعث للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيقِ الجزاء.

وجاء حرف التفصيل: ﴿إِمَّا﴾ لبَيَانِ أنَّ جزاءهم على كُفْرِهم، الّذي ظَلَمُوا بِهِ حَقَّ رَبّهم عليهم، قَدْ يَأْتِي قِسْمٌ منْهُ مُعَجَّلاً، كَمَا حَصَلَ لِبَعْضِ كُفَّار الْقُرُون الأولى، وأمَّا القِسْمُ المقطوعُ به، فَهُوَ مُؤَجَّلٌ إلىٰ ما بَعْدَ الموت، وأوفاهُ يَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ بَعْدَ البعْث.

ودَلَّ على العذاب المعجَّل الَّذي قد يقضي اللَّهُ عزّ وجلَّ به إذا كَانَتْ حكمَتُهُ تَقتضيه، قولُهُ تعالَىٰ: ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾: أي: إمّا العذابَ الَّذِي قَدْ يُعَجِّلُهُ اللَّهُ لهم قَبْلَ الموت.

ودَلَّ على العذَابِ المؤجَّلِ المقْطُوعِ بِهِ، والمقرَّرَ في الْخُطَّةِ العامَّة، بدليل نُصُوصٍ أخرى كثيرة، قولُه تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾.

ولكلّ حَيٍّ ساعَتَانِ: ساعَةٌ خَاصَّةٌ به، وهِيَ سَاعَةُ إمَاتَتِه، وسَاعَةٌ عَامَّةٌ، وهيَ ساعَةُ البعْثِ، الّتي يكونُ عندْها بَعْثُ الخَلاَئِقِ جميعاً إِلَىٰ يَوْمِ الدِّين، وبَعْدَ الموْتِ تَلْقَىٰ نَفْسُ الكافِرِ عذابَ الْبَرْزَخِ المسمَّىٰ بعَذَاب القبْر، وبَعْدَ الْبَعْثِ إلى الحياة الأخرى، يَلْقَىٰ الكافِرُ عذَابَ يوم الدين.

والمرادُ بِرُؤْيَتِهم ما يُوعدون، رؤيَتُهُمْ مقدِّمَاتِ العذابِ القادِمِ عليهم.

وبهذا البيان تكُونُ العبارَةُ على تقدير: حتَّىٰ إذا رَأَوْا مُقَدِّمَاتِ ما يُوعَدُونَه مِن جزاءٍ بصُورةٍ مُتَجَدِّدَةٍ، إمَّا العذابَ المعجَّلَ احتمالاً في الحياة الدنيا قبْلَ موتِهِمْ، وإمَّا العذابَ المؤجَّلَ المقطوعَ به إلى مَا بَعْدَ سَاعَةِ مَوْتهم، وإلى ما بَعْدَ ساعَةِ بَعْثِهِمْ.

- ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾:

جاء استعمال «سين» التسويف، مراعاة لحال بعض العذاب الذي قد يُعجَّلُ لهم في الدنيا، ومراعاة للعذاب الذي يُعذَّبُونه بَعْدَ الموت، وهو أمْرٌ قريب. على أنَّ عذاب يوم الدين هو بالنِّسبَةِ إلى شعور الناس قريبٌ أيضاً، لأنّ مُدَّة البرزخ بالنسبة إلى شعورهم بعد البعث، هي بمثابَةِ ساعَةٍ من نهار، في رقْدَةٍ صَباحِيَّة، أوْ رَقْدَةٍ في العشيّ.

أي: فَعِنْدَئذٍ يَجِدُونَ أنْفُسَهُمْ عاجِزِينَ عَنْ أيَّةِ مُقَاوَمَةٍ، وأنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ مَا يَدْرَؤون بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ عذابَ الله.

ثُمَّ يَبْحَثُونَ عن أحوال الذين آمنوا، فَيَجِدُونَ أنَّهُمْ نَاجُونَ، وأنَّهُمْ سُعَدَاءُ بِمَا يَتقلَّبُونَ فيه من نعيم مُقيم هُمْ فيه خالدون، ويَذْكُرُونَ أنَّهُمْ كَانُوا يَفْتَخِرُونَ عَلَيْهِمْ في الحياة الدُّنْيا بأَنَّهم خَيْرٌ منْهُمْ مَقَاماً ومكانة، وأحْسَنُ مِنْهُمْ نَدِيًّا وأثاثاً وَرِئياً.

وعندئذٍ يَعْلَمُ الكافرون خَيْبَتَهُمْ، ومَهَانَتَهُمْ، وأنَّهم كانوا قَبْلَ رؤيَتِهم مصيرهم، في مكانٍ أَحَطَّ وأخَسَّ من مكان المؤمنين الذي كانوا فيه، وأنَّهم كانُوا أضعف جُنْداً، لأنَّ ما كانوا فيه قد جَرَّهُمْ إلى الْمَصِير الوخِيم، والعذاب الأليم، بخلاف المؤمنين فقَدْ كَان مَكَانُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وملائِكَتِهِ عظيماً، وكان جُنْدُهُمْ أشَدَّ قُوَّةً، إذْ هُمْ من جُندِ اللَّهِ المسَخَّرِينَ لنُصْرَتهم، إلَّا أنَّهُمْ لم يَكُونُوا من الّذين تراهُمْ عُيُون النَّاس، فَهُمْ غَيْرُ ظاهِرِينَ فلا رِئْيَ لهم.

قول الله عزّ وجل:

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾:

في مقابِلِ إمْهَالِ اللَّهِ للكافرين، وإمْدَادِهم بوسائِلِ مُتْعَتِهم ورفاهيَّتهم من زينَةِ الحياةِ الدُّنيا، يَزِيدُ اللَّهُ الّذين اهْتَدَوْا بالإيمانِ والإسلام هُدىً، فيُعِينُهُم على ذِكْرِهِ وشُكْرِهِ وحُسْنِ عبادَتِه، ويَغْفِرُ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ وخطاياهم، ويَعْفُو عنهم، ويُضاعِفُ أجُورَهُمْ، ويُجْرِي أعمالَ الخيْر والْبِرّ والإحسان على أيْدِيهم، ليَرْفَعَ من مراتِبِهِم ودَرَجَاتِهم في جنَّاتِ النَّعيم.

وإذا كانوا من أهل مرتبة عباد الرَّحمٰن بدَّلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ سَيِّئاتِهِمْ حَسَنات.

بكلّ ذلِكَ وأشباهه يَزيدهُمْ اللَّهُ عزّ وجلّ هُدًى مُضَافاً إلى ما كَسَبُوهُ بإرادتهم وجهادهم من هُدَىٰ، فهي زيادات تَوفيقٍ ومعونَةٍ، ووازِعٍ مِنْهُ لَهُمْ على فِعْل الخيرات.

ومن الْهُدَىٰ الَّذِي يزيدُهُمْ اللَّهُ مِنْهُ:

(١) الارتقاء في درجات الإيمان.

(٢) والارتقاء في درجات الإسلام والأعمَالِ الصالِحَةِ الباطِنَةِ والظاهرة، إذْ يَجْعَلهم يَشْعُرُون بلَذّاتِ الأعمال الصالحة، وبالسَّعَادة القلبيَّة والنفسيَّة لدى ممارَسَتها.

وقيامهم بأعمال التقوى والبرّ والإحسان، الّتي انْدَفعُوا إلى ممارَسَتِها بالْهُدَىٰ الّذي زَادَهُمْ اللّهُ عزّ وجلّ منه، جَعَلَ صحائفهم مشحونَةً بالخيرات، وهذه هي الباقياتُ الصالحاتُ من الدنْيَا إلى يوم الدين.

وهذه الباقياتُ الصالحاتُ خَيْرٌ مِنْ كُلِّ ما في الدّنيا عند الله ثواباً، وخَيْرٌ عنْدَ اللَّهِ مَرْجعاً أوْ رُجُوعاً من الموت إلى الحياة، لأنَّها سببُ الظَّفَرِ بثوابٍ عظِيم خالدٍ في جنَّاتِ النعيم، وسببُ الظَّفَرِ برُجُوعٍ أو مَرْجِعٍ كَرِيم عِنْدَ رَبّ العالمين.

دَلَّ على هٰذا قول الله تعالىٰ في الآية: ﴿... وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

أي: خَيْرٌ من كُلّ مَا في الحياة الدُّنيا مِنْ مُتَعٍ ولَذَّاتٍ، ولَوْ حيزَتْ كُلُّها لِحَيٍّ واحد.

﴿مَّرَدًّا﴾: «الْمَردُّ» اسْمُ مكانٍ، أو مَصْدرٌ ميمي، وهو كالْمَرْجِع.

وبهذا انتهىٰ تدبّر الدرس الحادي عشر من دروس سورة (مريم) والحمْد لله على معونته وتوفيقه وفتحه.



## (١٥)
## التدبُّر التحليليّ للدرس الثاني عشر من دُروس سورة (مريم) وهو الآيات من (٧٧ ـ ٨٠)

قال اللّهُ عزَّ وجل:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾.

## القراءات:

(٧٧) • في الهمزة الثانية من: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ عدّة قراءاتٍ عنْدَ القرَّاء العشرة، فمِنْها تحقيقُ هٰذِهِ الهمزة، ومنها تَسْهِيلها، ومِنْهَا إبدالُها ألفاً مع المدّ المشْبَعِ في الوصْل فقط، ومنها حَذْفها.

وهذِهِ وُجُوهٌ عَرَبيَّةٌ من الأداء في النُّطق.

(٧٧) • قرأ حَمْزَة والكِسَائِيُّ: [وُلْداً] بضَمّ الواو وإسكان اللّام.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَلَداً] بفتح الواو واللّام.

«الْوَلَدُ، والْوُلْدُ، والْوِلْدُ»: كُلُّ ما وُلِدَ، تُطْلَقُ على الذكر المفرد والأنثى، والمثنَّىٰ، والجمع، ويُجْمَعُ على «أوْلاد» و«وِلْدَة».

فالقراءتان متكافئتان، لأنّهما لُغَتَانِ عربيتان، وقد وردتا أيضاً في الألفاظ الثلاثة الآتيَةِ في السُّورة.

## ممّا ورد في سبب النزول:

(١) روىٰ البخاريّ ومُسْلِمٌ عَنْ خَبَّابٍ قال: كُنْتُ رَجُلاً قَيْناً (أيْ: حداداً) وكانَ لي علىٰ العاصِ بْنِ وائلٍ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أتَقَاضَاهُ، فقال لي: لَا أقْضِيكَ حتَّىٰ تكْفُرَ بمحمّد.

قال: قُلْتُ: لَنْ أكْفُرَ بِهِ حتَّىٰ تَموتَ ثُمَّ تُبْعَثَ.

قال: وإنِّي لَمَبْعُوثٌ بَعدَ الْمَوْتِ؟! فَسَوْفَ أقْضِيكَ إذا رَجَعْتُ إلى مالٍ وَوَلَد.

قال فنزلت: [أَفَرَأَتَ الَّذِي كَفَرَ بآيَاتِنَا...] الآيات من (٧٧ ـ ٨٠).

(٢) وفي رواية للبخاريّ ومُسْلِمٍ، أنَّ خباباً قال: «كُنْتُ قَيْناً فِي الْجَاهِلِيَّة».

(٣) وفي رواية للبخاري: «فَعَمِلْتُ لِلْعَاصِ بْنِ وَائِلِ السَّهْمِيّ سَيْفاً».

**تمهيد:**

هذا الدرس يعالِجُ ظاهرةَ قَوْلٍ تَهَكُّمِيّ من قِبَلِ بَعْض الذين كَفَرُوا بآياتِ الله، بأنَّهُ إنْ بُعِثَ إلى الحياة بَعْدَ الموت فَسَوْف يَكُونُ لَهُ مالٌ وَوَلَدٌ، أي: لَنْ يكُونَ الْبَعْثُ إلى الحياة الأُخْرىٰ، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء، على خلاف رحلة الحياة الدنيا.

وقد جاء في هذا الدَّرْس معالجَةُ ظَاهِرِ قَوْلِهِ، دُونَ النَّظَرِ إلَىٰ غَرَضِهِ التهكُّمِيّ مِنْه.

**التدبّر:**

قول الله تعالى:

• ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: الخطاب في هذه العبارة موجَّهٌ لكُلِّ صالح للخطاب بصورَةٍ إفراديَّة، بغية تَحْمِيلِ المخاطب مسؤوليَّتَهُ الفرديَّة، تُجاهَ مَضْمُون ما خوطِبَ به، باعتبار أنَّ الله عزَّ وجلَّ يَقْصِدُهُ بالخطاب، والخطابُ يتكرَّرُ بعَدَدِ الأفراد المخاطبين به، مَهْمَا كَثُرُوا على تَوَالي العصور.

والجملة استفهامية مُصَدَّرَة بهمزَةِ الاستفهام، والمرادُ بهٰذا الاستفهام التعجيبُ من أمْرِ المكذّب بآياتِ الله، المستهزئ بأنْبَاء البعث بَعْدَ الموت، الّذي يُقَدِّمُ استهزاءه بصورة ادّعاء كاذبٍ يَدَّعيه بشَأْنِ المستقبلِ الْغَيْبِيّ الّذي لَا يَعْلَمُ منه شيئاً.

وقد دلَّتْنا قِصَّةُ سَبَبِ النُّزُولِ على استهزائه وافترائه، على أنَّ النَّصَّ لا يختصُّ بالعاصِ بْنِ وائل، بَل يَشْمَلُهُ وَيَشْمَلُ كُلَّ نظرائه الذين يُنْكِرون البعثَ للحساب، وفصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، ويسْتَهْزِئُونَ مثل اسْتِهْزَائه.

الفاء في ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ تَعْطِفُ على مَحْذُوفٍ مُقَدَّرٍ ذهناً، وتُسَمَّىٰ عند النحويين «الفاء الفصيحة» والتقديرُ: أَنَظَرْتَ فَرَأَيْت[1].

والمعنى: أكان لدَيْكَ أيُّها العاقل الرَّشيد الصالح لهذا الخطاب اهْتِمامٌ بهذا الكافر المستهزئ المفْتَري، فنَظَرْت نظراً تَفَكُّرِيًّا، فرَأيْتَ رُؤْيَةً علميَّةً؟

إذا لم يكن لدَيْكَ اهتمامٌ فيما سبَقَ، فانْظُرْ فإنَّكَ سَتَرَىٰ كُفْراً عَجَباً.

والنظر والرُّؤْيَةُ يُراد بهما التفكُّر والبحثُ العلميّ، الموصِلانِ إلى مَعْرِفَةٍ مُحَقَّقَةٍ ظاهرةٍ، مُشَابِهَةٍ لما تراهُ الأبْصار.

• ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: أي: الّذي كفَرَ كُفْراً إراديّاً جازِماً، بَعْدَ مَعْرِفَتِه أدِلَّة الحقِّ الرَّبَّانيّ الدامغةَ له.

المراد بآيات الله الجليل العظيم، الْعلاماتُ والْبَيَانَاتُ الدَّالّات على صِدْقِ الرَّسُول محمَّد فيما يُبَلّغُ عَنْ رَبّه.

وجاء التعبير بضمير المتكلّم العظيم، لأنّ آياتِ الله دالّاتٌ علىٰ عظمة رُبُوبيَّةِ الرّبّ جلّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانه.

وآيَاتُ الله تَشْمَلُ آيَاتِه الكونيَّة الدّائمة، وآيَاتِهِ الإعجازيَّة من الخوارق، وآياتِه الجزائيّة كالعقوبات الّتي أَنْزَلَها ويُنْزِلُهَا بالْمُجْرِمين، وآياتِه الْبيَانيَّاتِ المنزَّلَاتِ في كُتُبِهِ، ومِنْهَا آياتُ الْقُرْآنِ المجيد.

• ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾: أي: وقالَ مُسْتَهْزِئاً بِنَبَإِ البَعْثِ، ومُقْسِماً، لَئِنْ: بُعِثْتُ بَعْدَ الْمَوْتِ لَأُتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً، أيْ: كَمَا أُوتِيتُ فِي هٰذِهِ الحياةِ الّتِي أَنَا فِيها الآنَ مالاً وَوَلَداً، إنَّهُ لَمْ يَضَعْ فِي تَصَوُّرِهِ إلَّا بَعْثاً لحياةٍ مشابِهَةٍ لهٰذه الحياة الّتي هو فيها بكُلِّ ظُروفها وأحوالها.

---

(١) لدى تتبُّعي لتدبّر آيات القرآن وجدت أن العطف على محذوف مقدّر ذهناً، لا يقتصر على «الفاء الفصيحة» بل هو يشْمَلُ كُلَّ حروف العطف.

لَقَدْ قَاسَ الحيَاةَ الْأُخْرَىٰ حياةَ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتَحْقِيق الجزاء، على الحياة الأولىٰ حياةِ الابتلاء، مع الْفَرْقِ الشَّاسِعِ جدّاً بَيْنَهُما.

هذا القياس الفاسد الباطل قَدْ تكرَّرَ علىٰ أَلْسِنَةِ عَدَدٍ مِنَ الكافِرِينَ بيَوْم الدّين، لَقَدْ تَذَرَّعُوا به جدلاً، وهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بالحياة الأخرى، ولا بالجزاء يَوْم الدّين.

(١) فقد جاء بشأن الإنسان الكافر، قولُ الله عزّ وجلَّ في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠)﴾.

لقد استَبْعَدَ هذا الكافر عن تَصَوُّرِه أنّ الحَيَاة الدُّنيا حياة امتحان، وأنَّ الحياة الأخرى حيَاةُ حِسَابٍ وفَصْلِ قضاءٍ وجزاء.

وزعَمَ أنَّه لو تحَقَّقَ هذا الاحتمال المشكُوكُ فيه، وعادَ إلَىٰ الحياة مَرَّةً أُخرى، فسوف يَمْنَحُهُ رَبُّهُ مِثْلَما مَنَحَهُ في الحياة الأولى، وسَوفَ يُعْطِيهِ العطايا الْحُسْنَى، لأنَّهُ يَسْتَحِقُّها بصفاته الذَّاتية، مستَبْعداً أَنْ يكونَ اللَّهُ عزّ وجلَّ يَمْتَحِنُهُ فيما يُعْطِيه.

(٢) وجاء في عرض قِصَّةِ المسْتَكْبِرِ المَغْرُور بجَنَّتَيْه الكافر باللَّهِ، والمنكر ليوم الدّين، الْمُحَاوِرِ لصَاحِبِهِ المؤمِنِ، قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿... فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا (٣٥) وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾.

لقد غَرَّهُ مَا هُوَ فيهِ مِنْ نِعْمَةٍ، فكان حالُهُ مِثْلَمَا وَصَفَ اللَّهُ حال الإنسان الكافِرِ الَّذِي جَاءَ بيانُهُ في النّصِّ السَّابِقِ من سُورَةِ (فُصِّلَت).

قول الله عزّ وجلّ في الرَّدّ على الَّذي كَفَر بآياتِ رَبِّهِ، وقال: لَأُوتَيَنَّ مالاً وَولداً، إنْ بُعِثْتُ إلى الحياة مَرَّةً أُخرىٰ:

• ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّاۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾:

هٰذا الرَّدُّ القرآنيّ يَشْتَمِلُ على أمْرَين:

**الأمر الأول:** بيان افترائه على ربّه في مقالته.

**الأمر الثاني:** موعِظَتُه بالترهيب بالعقوبَةِ الأليمَةِ ذَاتِ الأمَدِ الطويل، على كُفْرِهِ وافترائه.

• أمَّا بيانُ افترائه على رَبّه في مقالته، مجاراةً لظاهر قَوْلِه، وهو من المحسِّنَاتِ المعنويَّة عند علماء البديع من البلاغيّين، فقد جاء في قول الله تعالىٰ:

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا﴾:

استفهامٌ مَطْرُوحٌ عَلَيْهِ بأسْلُوبِ الحديث عن الغائب حول احتمالَيْنِ لَا ثَالِثَ لهما: وكُلٌّ مِنْهُما باطل، وببُطلانِهما يَظْهَرُ افتراؤه حتماً.

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾؟: أي: أعَلِمَ الغيبَ المستقْبَلِيَّ الّذي سوف يكونُ يوم الدّين، فأبانَ له عِلْمُه أنّهُ إنْ بُعِثَ بَعْدَ الموت، فَسَوْفَ يَكُونُ لَهُ مالٌ وَوَلَد؟

هذا استفهامٌ إنكاري، يَدُلُّ على أنّهُ ما اطَّلَع الغيبَ ولَا يَعْلَمُ عَنْهُ شيئاً.

يُقَالُ لغة: اطَّلَعَ الشَّيْءَ، واطَّلَعَ عَلَيْه، أي: عِلْمَهُ.

إنَّهُ لاَ يَعْلَم ما سَيُحْدِثُ غداً، فضلاً عن أن يَعْلَم ما سَيَحْدُث لَهُ بَعْدَ الموت، وما سَوْفَ يَحْدُثُ لَهُ بَعْدَ الْبَعْثِ للحياة الأخرى.

على أنّه هو مُنْكر للبعثِ أصْلاً، فادّعاؤه الافتراضيُّ افتراءٌ على الحقيقة ظاهر.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾: أي: بَلْ أجعَلَ مع رَبّه الرَّحْمٰنِ عَهْداً بأنْ يكُونَ لَهُ مالٌ وَولَدٌ، إذا أحياهُ الحياة الأخرى؟

إنّ رَبَّهُ الرَّحْمٰنَ الّذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ السَّمَاوات والأرض، وبِيَدِهِ تصاريف الكَوْنِ في الماضي والحاضر والمسْتَقْبل، وهو الذي يُقَدِّرُ ويَقْضِي وَيَخْلُقُ كُلَّ شيء، لم يُعْطِهِ عهداً بذلك.

بَلْ أعطاهُ إنْذاراً وَوَعِيداً بعذابٍ أليم خالدٍ في الجحيم، إذْ قَدَّمَ لرَبّه كُفْراً به، وتكْذيباً لِرَسُوله، وتكذيباً بِيَوْم الدّين.

«الْعَهْدُ»: هو الوَعْدُ الموثَّقُ بَيْنَ طَرَفَيْنِ بالْأَيْمَانِ، أو بغير الأيمان من وسائل التوثيق.

﴿كَلَّا﴾: أداةُ رَدْعٍ وزَجْر، أي: فَلْيَرْتَدِعْ عن افتراءاته وتَكَهُّنَاته وأكاذيبه واستهزاءاته.

قالوا: ويجوزُ الوقوف عند «كلّا» والابْتِداءُ بَعْدها.

• وأمَّا مَوْعِظَتُهُ بِالتَّرْهِيب بالْعُقُوبَةِ الْأَلِيمَةِ على كُفْرِهِ وافْتِرَاءاتِهِ، فقد جاء في قول اللّهِ تَعالَى:

﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾.

جاء في هذا الترهيب استخدام ضمير المتكلّم العظيم، لأنَّ الترهيبَ يُلائِمُه بَيَانُ عظَمَةِ رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ وجَلَالُها.

وقد اشتَمَلَ هذا الترهيبُ على أَرْبَعِ قَضَايَا سيكونُ وقوعُ بَعْضِها

مُحَقَّقاً في المستقبل القريب، إذا بَقِيَ مُصِرّاً علَىٰ كُفْرِهِ وافتراءاتِه، وسوف يكون وقوع بعضها الآخر بعد الموت، وبعد الْبَعْثِ، إذا ماتَ مُصِرّاً علَىٰ كُفْرِهِ وافتراءاته.

**القضيَّةُ الأولى**: دَلَّت علَيْها عبارة: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾: أي: سَبَقَ أنْ كَتَبْنَا ما قال، وسَنَكْتُبُ كلَّ ما يَقُولُ حالاً، ومستقْبَلاً، لنُحَاسِبَهُ عَلَيْهِ يَوْمَ الدِّين، ولنَفْصِلَ القضاء بشأنِه، ولنُجَازِيَهُ علىٰ كُفْرِهِ، وافتراءاته، وسائِرِ جرائِمِه.

ومن المعلوم أنّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ جَعَلَ لكلّ إنسان ملَكَيْن يَرْصُدان أقوالَهُ وأعمالَهُ الظَّاهِرَة والْبَاطِنَة، الجسَدِيَّة والنَّفْسِيَّة، ويَكْتُبَانِها، بأمْرِ اللَّهِ عزَّ وجلّ، فكِتَابَتُهما بأمْرِهِ يُقَالُ بِشَأْنِها كِتابَتُه.

وممَّا قالَهُ سابقاً هذا الإنسان الكافر: لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلداً بَعْدَ البَعْثِ إلى الحياة مَرَّةً أُخرَىٰ، إنْ حَصَلَ بَعْثٌ كَمَا يَزْعَم محمَّدٌ والذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه.

إنّ قضيَّة كتَابَةِ أقوال العباد وأعمالهم الظَّاهرة والباطنَة، ومنْها نيَّاتُهُمْ ومقاصِدُهُمْ وسائر ما يَصْدُرُ عن إرادَاتِهِمْ الحرَّة، هِيَ من العقائد الَّتي اشتَمَلَتْ عليها تَفْصِيلَاتُ الإيمانِ بالْيَوْمِ الآخرِ، ودَلَّتْ عَلَيْها نُصُوصٌ مُتَعَدِّدَةٌ مِنَ القرآن المجيد، ومنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول):

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

وقد سبَقَ تَدَبُّرُ هذه الآية في موضِعِها من سورة (يس).

(٢) وقول الله عزّ وجلَّ في سورة (الانفطار/٨٢ مصحف/٨٢ نزول) خطاباً للكافرين المكَذِّبين بالجزاء الرَّبَّاني:

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾،

فوصف الله عزّ وجلّ الملائِكَةَ المرافقين للموضوعين في الحياة الدُّنْيا موضع الامتحان بأنَّهُمْ حَافِظُونَ، وبأنَّهُم كِرَامٌ لا يَظْلِمُونَ أحداً. وبأنَّهُمْ كاتِبُونَ، وبأنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُ العبادُ بإراداتهم، حتَّىٰ نيَّاتهم.

**القضيَّةُ الثانية:** دلّت عليها عبارة: ﴿... وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾:

توجَدُ بَيْنَ كتابَةِ أقواله وأعماله في الدنيا، وبَيْنَ تَعْذِيبه في جهنَّمَ مراحلُ مُتَعَدِّدَة، منها إماتَتُه، ثُمَّ بَعْثُهُ، ثُمَّ حَشْرُهُ، ثُمَّ مُحَاسَبَتُه، وفَصْلُ القضاءِ بِشَأْنِهِ، ثم إدْخَالُهُ في جهنَّم.

هذه المراحلُ مطويَّةٌ لَمْ يُصَرَّحْ بها في النّص، ولكنَّها ملاحظَةٌ ذِهْناً، ويَسْهُلُ على المتدبِّر تَقْدِيرها.

أي: سَنَكْتُبُ مَا يَقُول، ونكتُبُ سائر تصرُّفاتِه الإراديَّة، ثم نُميتُهُ، ثُمَّ نَبْعَثُه، ثُمَّ نَحْشُرُهُ، ثُمَّ نُحَاسِبُهُ، وَنَفْصِلُ الْقضاءَ بشأنه، ثُمَّ نَكُبُّهُ في النَّارِ لِيَذُوقَ جزاء كُفْرِهِ، وتَكْذِيبِهِ بالجزاء الرَّبَّانيّ، وبِيَوْم الدِّين، وجزاءَ سائر جرائمه، وحينئذٍ نَمُدُّ لَهُ مِنَ العذابِ مداً.

والمعنى: ونَزِيدُهُ من العذابِ زياداتٍ تُعَادِلُ زِيَادَاتِه من الجرائم، على ما لَدَيْهِ من كُفْر.

ومن جرائمه استهزاؤه وسُخْرِيَتُهُ بأنْبَاءِ الْبَعْثِ لِيَوْمِ الدِّين، وافتراءاتُه على ربّه، وآثامٌ أخْرَىٰ بحُقُوقِ عباد الله، كمَنْعِهِ أداء الحقوق لأصحابِهِا وأكْلِهِ أمْوَالَ النَّاسِ بالباطل، ومقاوَمَتِهِ الدُّعَاة إلى دين الله، واضطهاده لهم، وظلْمِهِ وعدوانه وفِسْقِهِ وفجوره.

**القضية الثالثة:** دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾:

أي: إنَّهُ كَانَ يقولُ وهو في الحياة الدُّنْيا: هٰذه أملاكي، هٰذه أموالي، هذه مَسَاكِني، هٰذه أنعامي، هٰذهِ كُنُوزي من الذهب والفِضَّة، وهذه، وهذه.

ولكِنْ بَعْدَ أنْ نُميتَهُ يَكُونُ في مِلْكِنا المحْضِ كُلُّ ما كان يقول في حياة امتحانه: إنَّهُ مِلْكُهُ، ونَحْنُ بَعْدَ ذَلِكَ نُعْطِيهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبادنَا، فنَجْعَلُهُم خلفاء فيما كان يقولُ: إنَّهُ مِلْكَهُ.

إنَّهُ بَعْدَ مَوْتِهِ لا يَسْتَطِيعُ أن يتصرَّفَ بشيءٍ ممَّا كان يَرَى أنَّهُ داخلٌ في مِلْكِهِ، أو تَحْتَ سُلْطَانِ مُلْكِهِ، ولَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْسُبَ إلى نَفْسِهِ شيئاً منه.

ونتساءل: كيف يَرِثُ اللَّهُ عزّ وجلّ أموالَ عباده، وهُو الّذي لَهُ مُلْكُ وَمِلْكُ السَّمَاوَاتِ والأرض، وما فيهما ومَنْ فيهما؟؟!.

والجوابُ المناسب: أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ لمَّا قَضَتْ حِكْمَتُه أنْ يُمَلِّكَ عبادَه الَّذِينَ هُمْ وَمَا يَمْلِكُونَ مِلْكُهُ، تَمْلِيكَ تَصَرُّفٍ بما يُمْكِنُهُمْ أن يتصرَّفُوا فيه على سبيل الانتفاع المباشر، أو على سبيل العطاء للآخرين، بتبادُلٍ أو هِبَةٍ أو غَيْر ذلِكَ، ليَمْتَحِنَهُمْ في قضايا الأموال ضِمْنَ ظُروف الحياة الدنيا، جعَلَ سبحانَهُ وَتَعَالَىٰ انْتِزَاعَهُ ممتلكاتهم مِنْهُمْ بمَوْتِهِمْ أو بغير ذلك، بمثابَةِ ميراثٍ يَرِثُهُ هو مِنْهُمْ، لأنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يُوَرِّثُهُ مَنْ يَشَاءُ أو ما يَشَاء من عباده، من بَعْدِهم، بأمْرِهِ وبقضائِه وقَدَرِهِ، وتدبيراته، أو يتصَرَّفُ فيه بوجْهٍ آخَرَ من الوجوه الكثيرة على مقْتَضَىٰ حِكْمَتِهِ، دُونَ أَنْ يُنْسَبَ شيءٌ من هٰذه الممتلكاتِ إلى مالكيها السّابقين، الذين ماتوا.

وقد يَكُونُ انتزاع الممتلكاتِ من مالكيها بوسِيلَةٍ أُخرَىٰ غَيْرِ إماتَتِهِمْ، كانْتِزاعِها بالجوائح، وكالممتلكاتِ الَّتي يُخَلِّفُها المنهزمون المغلُوبُون في الحروب، إنَّها تَرْجِعُ ملكاً محضاً للَّهِ جلَّ جلالُهُ وعَظُم سلطانه. وبمثابَةِ مِيراثٍ ورِثَهُ من عباده المغلوبين المهزومين، الّذين نَصَرَ أعداءَهُمْ عليهم،

مع أنَّ مِلْكِيَّتَهُ لَهَا لَمْ تَنْقَطِعْ طرفَةَ عَيْنٍ ولا أقلَّ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ هُوَ يُورِّثها بحِكْمَتِهِ مَنْ يشَاءُ من عباده، على صُورةِ غَنائِمَ يَغْنَمُونَها، أو على صُورٍ أخرىٰ.

ومن النُّصُوص القرآنيَّة المبيِّنَةِ تَوْريثَ الغنائمِ المنقولَة، وتَوْرِيثَ أَرَاضي الأعداء ودِيارِهم، ما يلي:

(١) قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) خطاباً لأصحاب الرسول ﷺ بشأنِ بني قُرَيْظَة:

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

(٢) وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن بني إسرائيل بَعْدَ خُرُوجهم من مصر، وميراثهم أراضِيَ الوثنيّين مالِكي الأراضي المقدَّسَةِ في فِلَسْطِين يومئذٍ، وبعد وفاة هارُونَ ومُوسَىٰ عليهما السلام:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

**القضيَّة الرابعة**: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿... وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾: أي: ويأتينا يَوْمَ الدّينِ فَرْداً، لَا أَوْلَادَ لَهُ يَشُدُّونَ أَزْرَه، ولَا أَنْصَارَ لَهُ يُعِينُونَه، على خِلَاف قولِه: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

إنّ كُلَّ إنْسَانٍ يَوْمَئذٍ يَكُونُ مشْغُولاً بنَفْسِهِ، يَحْمِلُ هَمَّ مَصِيرِه.

وقد أبَانَ اللَّهُ عزّ وجلّ أنَّ كُلَّ عبادِه يَأْتُونَ رَبَّهُمْ يَوْم الدِّينِ فُرادَىٰ.

- فقال الله عزّ وجلّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) الّتي نتدبَّرُ دُرُوسَها وآياتها:

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾:

• وقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ﴾: أي ما أعْطيْناكُمْ متفضّلِين بِه علَيْكُمْ، يُقَال لغة: خَوَّلَهُ الشيءَ، أيْ أعْطاهُ إيَّاهُ متفضّلاً.

﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟﴾: أي: الَّذِين زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ شُركاءُ لله، حالَةَ كَوْنِهِمْ فيكُمْ ومَخْلُوقُونَ مِثْلَكُمْ، ولَيْسَ لَهُمْ من الرُّبُوبِيَّة شيء. وهؤلاء الشركاء بَشَرٌ من الْبَشر، اتَّخذَهُمُ المشركونَ شركاءَ لله وهم فيهم وعَاشُوا بَيْنهم.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾: في قراءة نافع، وحفص، والكِسَائي، وأبي جَعْفر، أي: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ مَا كَانَ واصلاً بَيْنَكُمْ وبَيْنَ شُرَكائِكُمْ، إذْ لَم تَجِدُوا له أثراً، وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنُكُمْ﴾ بضمّ النّون: يأتي الْبَيْنُ في اللُّغَة بمعنىٰ: الصِّلَة والمودة، فالمعنى على هذه القراءة: لقد تَقَطَّعَتْ المودَّةُ والصّلَةُ الّتي كانت بيْنَكُمْ وبيْنَ شُرَكائِكُم، فلم يَبْقَ لها أثر.

وبهذا انتهىٰ تدبر الدرس الثاني عشر من دُروس سورة (مريم).

والحمد لله على معونته وتوفيقه وفتحه.



## (١٦)
## التدبر التحليلي للدرس الثالث عشر من دُروس سورة (مريم) وهو الآيتان (٨١ و٨٢)

قال اللَّهُ عزَّ وجل:

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾:

**تمهيد:**

في هذا الدَّرْس بَيَانُ غَرَضٍ من أغراض المشركين، في عبادتهم لآلِهَتِهِم، وهو أنّ يكونُوا لهم سبَبَ قُوَّةٍ وانتصارٍ على أعدائهم في حُروبهم، ومعالجتُهُم بتَيْئِيسِهِمْ من تحقيق هذا الغرض، فَسَيَجِدُونَ أنّ آلِهَتَهُمْ لَمْ تَنْفَعْهُمْ بنافِعة، ولم تُعْطِهِمْ عِزَّةً ولَا قُوَّةً ولَا شيئاً من النَّصر، فيَكْفُرُونَ بآلِهَتِهم، ويَكُونُون عَلَيْهِمْ ضِدًّا.

إنَّ معْظَمَ المشركين كانُوا يَعْبُدون آلِهَتَهُمْ من دُونِ الله، ويَجْعَلُون لَهَا تَمَاثِيلَ تَرْمُزُ إليها، ويَتَوَجَّهُون لِعِبادة هٰذِهِ التَّماثيلِ الرُّمُوز، وهُمْ يَقْصِدُون مَنْ تَرْمُزُ إليه، لتُحَقِّقَ لَهُمْ آلِهَتُهُمْ بتقَرُّبهم إلَيْها بالدُّعاء، وبأشْكالٍ من العباداتِ، ومنها ذَبْحُ القرابين لَهَا، بَعْضَ مطالبِ حيَاتِهِمْ، ومنْ هٰذِهِ المطالِب أنْ تَنْصُرَهُمْ على أعْدَائهم، وأنْ تكونَ لهم عِزًّا، أي: قُوَّةً غالِبَةً لأعدائهم، اعتقاداً منْهم بأنَّها قادرةٌ علَىٰ نَصْرِهم، وعلى مَنْحِهِمُ الْعِزَّةَ بمَعُونَاتٍ وَتصاريفَ غيبيَّة.

ومَعْلُومٌ أنَّ المعوناتِ والتصاريفَ الغيبيَّةَ هي من خصائصِ رُبُوبيَّةِ الرَّبِّ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُه، فهي لا تكونُ لغيره، ولا يَكُونُ شيءٌ مِنْها لِغَيْرِه، ولا يُشارِكُهُ فيها أحَدٌ غَيْرُه.

فالمشركونَ إذَنْ يَعْتَقِدُونَ أنَّ آلِهَتَهُمْ تَفْعَلُ لهم أشياءَ هِيَ من خصائص رُبوبيَّةِ الرَّبِّ جلَّ جلالُه، وهذا من الإشراك في رُبُوبيَّةِ اللّٰهِ ببَعْضِ مَا هو من خصائصِ الرَّبِّ، غَيْرِ خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ الذي كانَ المشركون في الجاهليّة العربيَّةِ يَعْتَقِدُونَ انفرادَ اللّٰهِ به، وأنَّهُ لَا شَرِيكَ له فيه.

وقد سبَقَ في سورة (يَس/٣٦ مصحف/٤١ نزول) بَيَانُ أنّ المشركين يَرْجُونَ مِنْ عبادَتِهِمْ آلِهَتَهُمْ مِنْ دُون اللّٰهِ، أنْ تَنْصُرَهُمْ عَلَىٰ أعدائهم، فقال اللّٰهُ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: وهم مَسُوقُون لنُصْرَةِ آلِهَتِهِم بدافعِ اعتقاديٍّ تَوهُّمِيّ، وبتحريضِ من سَدَنَةِ الأوْثانِ المنْتَفِعين.

وسبَق أيضاً في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بيان أنَّ معظم مشركي العَربِ في الجاهليّة كانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بأنَّ اللَّهَ هُوَ الّذِي يَرْحَمُهُمْ، بل كانوا يْعتِقدُونَ أنَّ آلِهَتَهُمْ هي الَّتي تَرْحَمُهُمْ، فتَسْتَجِيبُ لمطالِبِهِمْ منْها في شؤون حياتهم، فهم يَتوجَّهُونَ لها بالعبادة مِنْ أجْلِ ذَلك.

وهذا يَدُلُّ علَىٰ أنَّ المشركِينَ يَجْعَلُون لآلِهَتِهِمْ بعْض مَا هو من خصائص رُبُوبيَّة الرَّبّ جلَّ جلالُه، فهي شريكَةٌ للَّهِ في بَعْضِ خَصَائصِ رُبُوبيَّتِهِ بِحسَب اعتقادِهِمُ الباطل.

فقال اللَّهُ عزَّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بشأن المشركين:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾.

وقد سبَق في سورة الفرقان تَدَبُّرُ هذه الآيَة، وماجاء بعدها من إقناعٍ رَبَّانِيٍّ بأنَّ اللَّهَ هُو الرَّحْمٰن.

فالمشْرِكُونَ كَانُوا يُنْكِرُونَ صِفَةَ الرَّحْمَةِ للَّهِ الرَّبّ الخالق ـ جل جلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ ـ فلا يُطْلِقُونَ علَىٰ اللَّهِ اسْمَ «الرَّحْمٰن» من أسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، ويَعْتَقِدُونَ أنَّ الرَّحْمَةَ مِنْ صفاتِ آلِهَتِهم الَّتي اتَّخذُوهَا مِنْ دُونِ الله، فَهُمْ يَدْعُونَها، ويَعْبُدُونَها، وَيَتَقرَّبُونَ لهَا بالْقَرابِين، لِتَرحَمَهُمْ فَتَسْتجيبَ لهم، وتُحقِّقَ لَهُمْ مطالِبَهُمْ.

ومَعْلُومٌ بما لَا مجالَ فيه للشّكّ، أنّ إجابَةَ مطالب العباد بوسائل غيبيَّة، هي من خصائص رُبُوبيَّةِ الرَّبّ الخالقِ جلَّ جلالُه.

وهؤلاء لَا يَكْتَفُونَ بأنّ يَجّعلُوا آلِهَتَهُمْ شُرَكاءَ للهِ في بَعْضِ خَصَائِصِ رُبُوبِيَّتِه، بلْ يَجْعَلُونَ الاستجابة لمطالبهم في حياتهم مِنْ خَصَائصِ آلِهَتِهِمْ، ولا يَجْعَلُونَ لِلَّهِ منْها شيئاً.

فَظَهَر أَنَّهُمْ يُخَصِّصُونَ اللَّهَ عزّ وجل بخَلْق السَّمَاوات والأرض، ويَعْتَقِدُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمْ مخْتَصَّةٌ بِتَلْبِيَةِ مطالِبهم في شؤون حياتهم، فوزَّعُوا عَنَاصِرَ الرُّبوبيَّة، فجَعَلُوا قسماً لله، وجَعَلُوا قِسماً آخر لآلهتهم.

فهم لا شكَّ مشركونَ في بعض عناصر الرُّبوبيَّة لله عزَّ وجلَّ، معَ أنَّ كُلَّ عَنَاصِرِ الرُّبُوبيَّةِ هِيَ للَّهِ وحْدَه، ولَيْس شَيْءٌ مِنْها لغَيْرِ الله عزّ وجل.

لله الخلْقُ، ولَهُ الأمر، وهو الذي له الحكم التشريعي، ولَهُ الحكْمُ القضائي، وهو الرَّحْمٰن الرَّحيم، وهو وحْدَهُ الذي يُجيبُ دُعاء مَنْ دَعَاه، وهو المتصرّف في شؤون عباده برُبُوبيّته الدائمة.

وروى لنا رُواةُ السّيرة النَّبويَّة، أنَّ أبا سفيانَ قائِدَ جَيْشِ المشركين في غَزْوَةِ أُحد، بَعْدَ أَنْ تَحوَّلَتْ رِيَاحُ النَّصْرِ عَنِ المؤمِنين بسَبَب مَعْصِيَةِ بَعْضِ الرُّمَاة أوامرَ الرسُول ﷺ، ونادَىٰ بأعْلَىٰ صَوْتِه لِيُسْمِعَ الرَّسُول ﷺ، ومَنْ حوْلَهُ مِنْ أصحابه: «أعْلُ هُبَلْ» اعتقاداً منه بأنَّ إلَه المشركين «هُبَل» هُو الذّي حقَّقَ لهم بعض النَّصْر في هذه المعركة.

فأمَرَ الرَّسُول ﷺ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب أَنْ يُنَادِي لِيُسْمِعَ أبا سُفْيَانَ والمشركين حولَه، فيَقُول: «اللَّهُ أَعْلَىٰ وأَجَلّ» ففعل عُمَر ذَلِكَ.

وذَكَرُوا أنَّ العبَّاسَ عَمَّ الرَّسُول ﷺ يومَ فَتْح مَكَّةَ، قال لأبي سُفيان فيما معناه: كيفَ رَأَيْتَ آلِهَتَكَ، هَلْ تَصْنَعُ لَكُمْ شيئاً أَمَامَ جَيْشِ المسْلِمين؟.

فقال أبُو سفيان: مَا أَظُنُّ أَنَّها تَفْعَلُ شيئاً، ولو كان عندها شيءٌ لفَعَلَت.

**التدبّر:**

قول الله عزّ وجل:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١﴾:

أي: واتَّخَذَ المشركونَ لأنْفُسِهِمْ آلِهَةً هي بطبيعَتِها من دُونِ الله الرَّبّ الخالق الرازق المحيي الْمُمِيتِ الرَّحْمٰن، فجَعَلُوا يَعْبدونها ويَتَقَرَّبُونَ لَهَا بالقرابين، ويَدْعُونَها لمطالب حياتهم، لِيُجَازُوهُمْ على عبادتهم لَهُم، بأنْ يَكُونُوا لَهُمْ بَتأْثيراتِهم الغيبيَّة قُوَّةً غالِبَةً تَنْصُرُهم على أعْدَائهم.

﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾: أي: وجَعَلُوا بتكلُّفٍ على خلاف نظام الفِكْرِ السويّ.

«اتَّخَذَ» على وزن «افْتَعَل» من فِعْل «أَخَذ» وأصْلُ الأخذ تَنَاوُلُ الشَّيْءَ والْقَبْضُ علَيْهِ وَحيازَتُه، وصارَ بالتداوُل في الاستعمال يَحْمِلُ معنَىٰ الْجَعْل.

فالمعنى: وجَعَلُوا بصُنْعٍ متَكلَّفٍ منْهُمْ آلهةً لأنْفُسِهِمْ من خَلْقِ اللَّهِ الواسع، وهي لَيستْ بطبيعَتِها آلهةً، لأنَّهَا ليْسَتْ أرْبَاباً ولَا تَمْلِكُ من صفاتِ الرّبُوبيَّةِ وَخَصَائِصِها شيئاً.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: من أشياء غير اللَّهِ هي بطبيعَتِها تَقَعُ دُونه، في مقابل اتِّصَافِهِ جلَّ جلالُهُ بالْفَوْقِيَّةِ المطلَقَة.

﴿ءَالِهَةً﴾: أي: مَعْبُودِينَ لَهُمْ بغَيْرِ حقٍّ.

﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾: أي: ليكونوا لَهُمْ قُوَّةً غالِبَةً تَنْصُرُهم على أعدائهم.

**العِزُّ والعِزَّةُ**: الْقُوَّةُ الغالبة، يُقَالُ لغة: عزَّ، يَعِزُّ، عِزّاً، وعِزَّةً. أي:

قَوِي واشْتَدَّ وصَارَ ذَا قُوَّةٍ غالبة. ويقول العرب: مَنْ عزَّ بَزّ، أي: مَنْ غَلَبَ سَلَبَ.

قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾:

﴿كَلَّا﴾: أداةُ رَدْعٍ وزجْر، أي: لَنْ تكُونَ آلِهَتُهُمُ الَّتي اتَّخذُوها مِنْ دُون الله لَهُمْ عزّاً، بمْعنَىٰ لَنْ تَكُونَ لهم بذواتِها قُوَّةً غَالِبَةً، ولَنْ تَمْنَحَهُمْ بوسائل غيبيَّةٍ قُوَّةً غالِبة، إذ العزَّةُ لِلَّهِ ولرسُولِهِ وللمؤمنين.

- ﴿.. سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾:

أي: وحِينَ يَنْصُرُ اللَّهُ أَوْلِيَاءَهُ المؤمنين به وبِرَسُوله، ويَمْنَحُهُمُ العزَّةَ، ويُذِلُّ أعداءَهم المشركين، ويَجْعَلُهُمْ هُمُ المغْلُوبِينَ المنْهَزِمِينَ في المعارِكِ القتاليَّة، سيَكْفُرُ المشركُونَ بعِبَادَةِ آلِهَتِهم، إِذْ يَرَوْنَ أَنَّهَا عَمَلٌ باطلٌ، واعتقادٌ فاسد، وسَيَكُونُون عَلَيْهِم ضِدًّا، فيُحَطِّمُونَ الأوثانَ الَّتي كانُوا يَعْبُدُونها، ويُشَارِكُونَ المؤمِنِين في معادَاتِها، وتكْسِيرها وجَعْلِها جُذَاذاً.

وعندئذٍ يسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ محمّد ﷺ، إلى توحِيدِ الرُّبُوبيَّةِ والإِلَهيَّةِ لله عزَّ وجَلَّ.

وقد دلَّ على أنَّ هذا سيكُونُ قرِيباً في الحياة الدنيا استعمال حرف «السّين» دون «سُوْف» في هذه العبارة.

وفِعلاً قَدْ حصَلَ هذا بعْدَ الانتصاراتِ الإسلاميَّةِ في الغزوات، ولا سِيمَا فَتْحُ مكَّة.

فهذِهِ العبارة قد كانَتْ مِنَ المبشّراتِ بانتصار الإسلام وامتداده، وأنَّها كانت تُخْبِر عن أمْرٍ سيَحْدُثُ قَرِيباً، وقَدْ حَدَثَ فعلاً.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدرس الثالث عشر من دروس سورة (مريم) والحمد لله على معونته، ومَدَدِهِ، وتوفيقه، وفتحه.

## (١٧)
## التدبّر التحليليّ للدرس الرّابع عشر من دُروس سورة (مريم) وهو الآيتان (٨٣ ـ ٨٤)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾:

**القراءات:**

(٨٤) • قرأ حمزة، ويعقوب: «عَلَيْهُمْ» بِضَمّ هاء الضّمير.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بكَسْرِ هاء الضّمير.

وهما لُغَتَان عَرَبِيّتَان.

**تمهيد:**

يَكْشِفُ هذا الدّرْسُ حالةَ حركاتِ الّذين كَفُروا الثائرةِ المهتاجَةِ في صُدُورِهم، ذَاتِ الآثار الظاهِرةِ في سلوكهم، ضدّ الرسول وضدّ الّذين آمَنُوا بِهِ واتّبَعُوه، في المرحلة الزَّمَنِيَّة الّتي نزلَتْ فيها سورة (مريم).

ويوجّهُ اللَّهُ عزّ وجلّ فيه رسُولَه للصَّبْر على حركاتِهِم، وهِيَاجَاتِهم، وارْتفاع أصواتهم الدَّالَّة على ما في نفوسِهِمْ منْ غَلَيَانِ غَضَبٍ وحَنَقٍ وإرادةِ انتقامٍ من المؤمنين.

ويطمئِنُه إلى أنَّ اللَّهَ جلَّ جلالُهُ يُدَبِّر الأمْرَ الحكِيم لنُصْرتِه ونُصْرَةِ المؤمنين عليهم، وأنَّهُ يَعُدُّ لَهُمُ الوحداتِ الزّمنيَّة الصغرىٰ لإمْهالهم، حتَّىٰ إذا حَانَ حِينُ انْفَاذِ قضائه وقَدَرِهِ فيهم، تَمَّ ذلِكَ دُونَ تأْخير.

**التدّبر:**

• ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ﴾: تكرَّرَ في القرآن المجيد استعمالُ أمْثَالِ هذه العبارة، وفيها اسْتِفْهَامٌ مُسَلَّطٌ علَىٰ النفي.

ويظهر من تحليل هذِهِ العبارة وأمْثالِها أنَّها اسْتِفْهَامٌ عَنْ عَدَم الرُّؤْيَةِ، بمْعَنىٰ العلم الواضِح الْجَلِيّ المشابه للرُّؤْيَةِ الْبَصَرِيَّةِ.

وظاهر من هذا الاستفهام أنَّهُ لَيْسَ لِطَلَبِ الإفهام، بَلْ هو هُنَا مُسْتَعْمَلٌ مجازاً للإعلام بالمستَفْهَم عنْهُ، وبيان حصوله.

• ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾:

أي: اعْلَمْ أيُّها المتلَقِّي الصّالِحُ لِمْثلِ هذا الخطاب، أنَّا أرْسَلْنَا ـ بِسُلْطانِ الرُّبوبيَّة العامّ، وبمُقْتَضَىٰ النظام العامّ للخلائق ـ الشّياطينَ على الكافرين، تُغْرِيهم، وتُهَيِّجُهُمْ، وتُؤَجِّجُ نَارَ أفْئِدَتهم، لمقاومَةِ دَعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانِيَّة، واضطهاد أنصارِها والْعَامِلين على نَشْرِهَا.

إنّ من سُنَنِ اللّهِ في النِّظام العامّ للأحياء، أنَّ مَنْ كفَرَ بالْحَقّ الّذِي جَاءَ بِهِ رُسُلُ الله بَلاغاً عنه جلّ جلاله، بَعْدَ أنْ عَرَفَهُ ببَراهينِه وحُجَجِهِ، وكان كُفْرُهُ جحوداً واتّباعاً لِأهْوَاء نَفْسِه وشهواتها، وَكِبْرِهَا وَفُجُورِها، تَسَلَّطَتِ الشَّيَاطين عليه من شياطين الجنّ وشياطين الإنْسِ، فأغْرَتْهُ، وحرَّكَتْهُ، وهيَّجَتْهُ، وأوقَدَت نار غَضَبِهِ وحنَقِهِ، فاستجابَ لَها.

وهذا مثل قولنا: مَنْ وَضَعَ يَدَهُ في النار أحْرَقَها اللَّهُ لَه، ضِمْنَ نظامِه العامّ في الأسْباب والمسَبَّبات.

• ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أي: أرْسَلْنَا الشَّياطينَ مُسَلَّطِينَ على الكافرين، لأنّ الكافرين قَدْ جَعَلُوا أنْفُسَهُمْ جنُوداً للشياطين.

أمّا عبادُ اللّهِ المؤمِنُونَ فَلا سُلْطانَ للشياطين عليهم، لأَنَّهُمْ مَحْمِيُّونَ بِحِمَايَةِ اللّهِ جلَّ جَلالُه.

قال اللّهُ عزَّ وجلّ في سورة (الحِجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) حكايةً لِمَا قَالَهُ لإبليسَ أمام كلّ الشياطين:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

وقال اللّٰه عزّ وجلّ في سورة (النَّحْل/١٦ مصحف/٧٠ نزول) خطاباً لكلّ مؤمن بأسلوب الخطاب الإفرادي:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

فالمؤمنون المتّقون إذا استعاذوا بالله من نزغات الشياطين، كانوا في حماية الله لهم، عُقلاء راشدين، يحْسِنون التصرُّف في حياتهم، ويُدَبّرون الخُطط الملائمة الّتي تُبعِدُهُمْ عن الحماقات، ولا تؤزّهم الشياطين.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: أي: تُغْرِيهم، وتُهَيِّجُهم، وتُوَجّجُ نارَ أفْئدتهم، وتَجْعَلُ مَرَاجِلَ قلُوبِهِمْ تَشْتَدُّ غلَيَاناً، حتَّى يكُونَ لها أزِيز، أي: صَوْتٌ مَسْمُوعٌ، بحَسَبِ حَالَتِهِمْ، وبحَسَبِ شِدَّةِ الأَزّ.

يُقَالُ لغة: «أَزَّ، يَئِزُّ، أَزّاً، وأَزِيزاً، وأزَازاً، أيْ: تحرَّكَ، واضطربَ، وصَوَّت مِنْ شِدَّةِ الْغلَيَان.

ويُقَالُ: أَزَّ الْقِدْرُ، وأزَّ الرَّعْدُ، أي: تحرَّكَ واضطرب وصوَّت. ويُقال لغة: أَزَّ فُلَانٌ فُلاناً، أي: أغراهُ وهَيَّجه، إنّ إرْسَالَ الشياطين، وأزّها للكافرين، من الأمُور الخفيَّةِ غيْرِ المرئية، لكِنَّ لهَا آثاراً في سلوك الكافرين تَدُلُّ عليها.

ومِنْ آثارها في سُلوكهم، حركَاتُهُمُ الثائرات عن حَنَق، وعداءٍ، وغضبٍ، وضيق صدر، ونارٍ متّقِدَةٍ في صُدورهم، وإرادة كيد.

ومن آثارها ارْتفاعُ أصواتهم بالهزء، والسُّخرية، والشتائم، والتهديد، والوعيد للمؤمنين.

ومن آثارها متابَعَتُهُمْ لضُعفَاءِ المؤمنين بالاضطهاد، والتعذيب، والإكراه على الكُفر.

ومن آثارها هياجُهم غير المتّزن، وعَجِيجُهُم، وضجيجُهُمْ بالأصوات الإعلاميّة، الَّتي يُزَيِّفُونَ بِها الحقائق.

ومن آثارها أعمالُهم المختلفة في مقاومَةِ الدَّعْوَةِ إلى الإسلام.

فدلَّ هذا البيانُ على أنَّ الظواهِرَ السُّلُوكيَّة تَدُلُّ على البواطِنِ داخل النفوس، وما يجري فيها من حَرَكات، وما يَتَكَوَّنُ فيها من دوافع شيطانيّة.

ونفهم من قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾:

اعلَمْ أيها المتلَقّي لهذا الخطاب، أنّ من الظواهر السلوكية المرئيَّة لدَىٰ الكافرين، مَا يَدُلُّ علىٰ أنَّ الشَّياطين تُغْرِيهم، وتُهَيّجُهُمْ، وتُؤَجّجُ نَارَ أفئِدَتهم، وتَجْعَلُ مَراجلَ قُلُوبهم تَشْتَدُّ غَلَيَاناً، حتَّىٰ يكُونَ لَهَا أزِيزٌ بصَوْتٍ مَسْمُوع، من مستوى أزيزِ المِرْجَلِ، إلى مستوى أزيز الرَّعد، وهذا الخطاب موجَّهٌ أوّلاً للرّسول، فلكل مؤمن مسلم مُتَّقٍ.

فعل: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ يَدُلُّ على أحداثٍ سبَقَتْ إنْزَال هذا النَّصّ، من مكايد الكافرين.

إنّ الظواهر السُّلُوكيَّة قَدْ تَدُلُّ على البواطن الخفيَّة، دَلالَةً قَطْعِيَّةً، تُشَابِهُ في قَطْعِيَّتِها الرُّؤيَةَ الْبَصرِيَّة، وهذا ما دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَـرَ﴾.

ولمَّا كان من أعمالِ كُفَّار مكَّةَ، في أواسِطِ المرْحَلَةِ المكيَّةِ مِنْ دَعْوَة

الرَّسول ﷺ، مُقَاوَمَةُ الدَّعْوَةِ إلى الإسلام، واضطهادُ المسْلِمِين وأذاهُمْ، ومُشَاقَّةُ الرَّسُول، والإعدادُ لِحَرْبِهِ وحَرْب الْذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، وهذه الأعمال هي من ظواهر أَزِّ الشَّيَاطِين لهم، كَانَ مِنْ شَأْنِها أَنْ تُثِير في نَفْس الرسول ﷺ ونُفُوسِ كِبَارِ أَصْحَابِه أَنْ يأذن الله لَهُ بالدُّعَاء عليهم، للإسراعِ في إهْلاكِهم، أَوْ يَأْذَنَ لَهُ بالْقِيَام بالتَّدْبيراتِ اللّازِمات لمقاتَلَتِهِمْ، وقَمْعِ شُرُورهم.

لِكنْ مَا زَالَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ تَقْضِي بإمْهالِهم، وَتَطْوِيلِ أَجَلِ مُعَالَجَتِهِمْ بالحكمة، والموعظَةِ الحسَنَةِ، والجدَالِ بالَّتي هي أحْسَن، إذْ مازَال يَتَوافَدُ مِنْهُمْ إلى حَظِيرَة الإسلام مُسْلِمون، يَتْرُكُونَ دِينَ قَوْمِهم، ويَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ الحقّ.

فجاء في هذا الدَّرْس بيانٌ مُرَتَّبٌ ومُتَفَرِّعٌ على هٰذِهِ الخواطِر الَّتي كانت تَعْتَلِجُ في نَفْسِ الرَّسُولِ ونُفُوسِ بعض كبار أصْحَابِه. وهذا البيان هو بمثابَةِ جوابِ أسْئِلَةٍ مطويَّة غير مصرَّح بها، وهو ما جاء في الآية (٨٤) من الدرس، وهو:

قَولُ الله عزَّ وجل خطاباً لرَسُولِه، ثُمَّ لكل فردٍ من أصحابه: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾.

أي: فلا تَعْجَلْ داعياً عَلَيْهِمْ بالإهلاك السريع، ولا تَعْجَلْ بتَدْبير الخُطَط للتَّسلُّطِ عليهم، بُغْيَة الخلاص من أذَاهُمْ وشَرِّهم، فَهُمُ الآنَ في مُدَّةِ الإمْهَال، ولهم أجلٌ مُحَدَّدٌ، مَعْدُودٌ بالْوَحدات الزّمنيَّة الصغرى جدّاً، ومتىٰ بَلَغُوا أجَلَهُمْ حلَّ بأفرادِهم وجماعاتهم ما يَسْتَحِقُّونَ من عقاب، على وفق مقتضىٰ الحكمة.

- ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾: أي: مَا نُهمِلُهُمْ، وما نَتْرُكُ مُتَابَعَتَهُمُ الدَّقيقة، في كُلّ أصْغَر وأقْصَرِ مُدَّة زمَنِيَّة.

إنَّمَا نَعُدُّ وَحَدَاتِ زَمَنِ إمْهالهم عَدًّا دقيقاً، حتَّىٰ إذَا انْتَهَىٰ وقْتُ الإمْهال، وحلَّ الأجَلُ، أنْزَلْنَا بِهم العقابَ الَّذِي يسْتَحِقُّونه، وتقتضيه الحكمة.

«**العدُّ**» حسابُ الأشياء القابلَةِ للعدّ، وإحصاؤها. يُقالُ لغةً: عدَّ الدَّرَاهِمَ أَوْ غَيْرَها، يَعُدُّها، ويَعِدُّها، عدّاً، وتَعْدَاداً، أي: حَسَبَهَا وَأحْصَاها.

لقد جاء في النُّصوص النَّازِلَةِ قَبْلَ سورة (مريم) توصيَةُ الرَّسُولِ ﷺ، بأنّ يَدَعَ أذَىٰ الكافِرين، ولا يُقَابِلَهُمْ عَلَيْهِ بمِثْله، وبأنْ يُمْهِلَهُمْ، وبأنْ يَصْبِرَ علَىٰ أَذَاهُمْ وشُرُورِهِمْ، مَعَ مُراقَبَتِهِمْ مُرَاقَبَةً دَقِيقَةً ليكون على بصيرة بما يُدَبّرون وبما يكيدُونَ من كيْد.

أمَّا هذا النَّصُّ من سورة (مريم) فقد جاء مُتَضَمِّناً نَهْيَ الرَّسُول عن أن يَعْجَلَ عليهم كما جاء في التدبّرِ آنفاً، ويُلْحَقُ بالرَّسُول أصحابه رضوان الله عليهم.

ومتضمّناً بيَانَ أنّ كُفَّارَ ملَّة هُمُ الآنَ في مُدَّةِ إمْهَالِهِمْ. وهٰذِه المدّةُ مُتَابَعَةٌ مِنْ قِبَلِ الرَّبّ العظيم الجليل (أخذاً من استخدام ضمير المتكلّم العظيم) بالْعَدِّ الدَّقيق، لأصْغَرِ الوحداتِ الزَّمَنِيَّة الّتي يُمْكِنُ أنْ يُجزَّأَ الزَّمَنُ على وَفْقِها، فما كان رَبُّكَ نَسِيًّا ولا مُهمِلاً شيئاً.

إذا كان الضَّوْءُ يَقْطَعُ في الثانية الواحدة مقدار (٣٠٠) ألف ك. م. فإنَّ الْعَدَّ الرَّبَّانِيَّ يُتَابعُ كُلَّ وَحْدَةٍ زَمَنِيَّة يَقْطَعُ فيها الضَّوْءُ مقدار واحدٍ في المئة من «السَّانتمتر» الواحد، وأقْصَر من ذلِكَ حتَّىٰ أقْصَرِ وحْدَةٍ زَمَنِيَّةٍ يُمْكِنُ تَجْزِئَةُ الزَّمَنِ لها.

فإذا انْتَهَتْ مُدَّة الإمْهَالِ الَّتي يَحُلُّ بَعْدَ آخِرِها أَجَلُ معاقَبَتِهِمْ بالعقاب الّذي يستحِقُّونَه، وتقتضيه الحكمة، أنزل الله عزَّ وجلّ البيانات الملائماتِ بشَأْنهم.

فلا تَعْجَلِ الآن علَيْهم، واطمَئِنَّ إلى حكمة الله، ومتابعَتِهِ لعباده، فالله لَا يُهْمِلُ شيئاً، مهْمَا أمْهَلَ بِحِكْمَتِهِ.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدَّرْس الرابع عشر من دُروس سورة (مريم) والحمدُ لله على معونَتِه وتوفيقه ومَدَدِه وفتحه.



## (١٨)
## التدبّر التحليلي للدرس الخامس عشر من دُروس سورة (مريم) وهو الآيات من (٨٥ ـ ٨٧)

قال الله عزّ وجل:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾:

**تمهيد:**

بَعْدَ عَرْض طائفةٍ مِنْ مواقف الّذين كَفَرُوا في المرحلة التاريخيَّةِ الّتي نَزَلت فيها سورة (مريم) ومعالَجَةِ هذه المواقف بما اقتضَتْهُ الحكمة الرَّبَّانيَّة.

جاء هذا الدرس الخامس عشر من السُّورة مشتملاً على بشارَةٍ للمتّقين، وإنْذَارٍ للمجْرِمين، أخَذاً بأُسْلُوب الموعظةِ الحسنة القائمة على الترغيب والترهيب.

**التدبّر:**

قول الله عزَّ وجلّ:

- ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾:

• ﴿يَوْمَ﴾ ظَرْف منْصُوبٌ على الظرفية، والعاملُ فيه: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾.

• ﴿نَحْشُرُ﴾: الحشرُ هُوَ الْجَمْعُ والسَّوقُ، يُقَال لغة: «حَشَرَ الأَمِيرُ جُنْدَهُ يَحْشُرُهُم وَيَحْشِرُهم حَشْراً» أي: جَمَعَهُمْ وساقَهُمْ.

• ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾: هُمْ أَهْلُ مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ على اختلاف دَرَجاتِهِمْ وتفاضُلِها، وكذلِكَ أَهْلُ مَرْتَبَةِ الْبِرّ، وأَهْلُ مَرْتَبَة الإِحْسَانِ، لأنّ أهل هاتَيْنِ المرتَبَتَيْن المرتقِيَتَيْنِ يَصْدُقُ عليهم أنَّهم مُتَّقُون، إذِ الزّيادَةُ على أعمالِ التَّقْوىٰ من أعْمَالِ الْبرّ وأَعْمَال الإحسان، لا تُخْرِجُ صَاحِبَها مِنْ وصْفِ كَوْنِه من المتَّقِين، بَلْ تَزِيدُهُ فَيُوصَفُ بأَنَّهُ من الأبرار أَيْضاً، وبأَنَّهُ من المحسنين.

فكُلُّ من كَانَ من المحسنين هو من الأبرار ومن المتقين، وكلُّ مَنْ كان من الأبرار هو مِنَ المتقين، بخلاف العكْس.

إنّ الارتقاء إلى المرتبَةِ الأعْلَىٰ لَا يُلْغِي التحقُّقَ بالمرتبَةِ أو المراتِبِ الّتِي هي دُونها.

وأدْنى دَرجاتِ مَرْتَبَةِ التَّقْوى، هي دَرَجَةُ اتِّقَاءِ الخُلُود في عذاب النار، بإيمان صحيح مقبولٍ عنْد الله للخلاص من الخلُودِ في عذاب النار.

ولا يَقْتَضِي النصّ أنَّ كلّ الّذين يَنْطَبِقُ عليهم أَنَّهُمْ متَّقُون، ولو كانوا من أصحاب الدَّرجاتِ الدُّنيا من مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ يُحْشَرُونَ مُكَرَّمين وَفْداً إلى الرَّحْمٰن، إذْ ثَبَتَ في نُصُوصٍ أُخرَىٰ أنَّ أهل الأعرافِ يَكُونون موقوفين، لأَنَّهُمْ قدْ تساوت سيِّئَاتُهُمْ وحَسَنَاتهم.

• ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾: أي: نَجْمَعُهُمْ على شَكْلِ زُمَرٍ بحَسَبِ دَرَجاتهم ومَرَاتِبِهم مَسُوقِينَ مُكَرَّمِينَ مُعَزَّزين إلى الْجِهَةِ الّتِي يَتَجَلَّىٰ فيها اسْمُ الله «الرَّحْمٰن» بِرَحْمَتِه، وهي الْجِهةُ الَّتِي تَكُونُ فيها جنَّتُهُ، دَارُ كرامَتِهِ لِعبَادِهِ المتَّقِين.

• ﴿وَفْدًا﴾: «**الوَفْدُ**» جَمْعُ «**الْوَافِد**» مثل: «راكِب ورَكْب، وصاحِبٍ وصَحْب. وجَمْعُ «الْوَفْدِ»: «الْوُفُود».

والوفْدُ في استعمال العرب، هُمُ المعَزَّزُون المكَرَّمُونَ الّذين يَفِدُونَ إلى الْمُلُوكِ والعظماء والرُّؤساء، لِيَنَالُوا التَّكْرِيمَ وَحُسْنَ الوِفادة.

يُقَالُ لغة: وَفَدَ يَفِدُ وَفْداً، أي: خَرَجَ إلى مَلِكٍ أو رَئيسٍ، أَوْ أَمْرٍ خَطِيرٍ ذِي شَأْن.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾:

«**السوق**»: الحثُّ علىٰ السَّيْرِ مِنْ خَلْفِ الْمَسُوق.

«**الْمُجْرِمُون**»: هُمْ مُرْتَكِبُوا كبائرِ الذُّنُوب الّتي حَرَّمَهَا اللَّهُ تَحْرِيماً شديداً.

وقَد جاء هذا اللَّفْظ في الاصطلاح القرآنيّ عُنْواناً مُقَابلاً لِلْمُسْلِمين، ووصفاً للكافِرِينَ الّذينَ أَهْلَكَهُمْ اللَّهُ في الدُّنيا، ووصفاً للمُعَذّبين في النار، فيظهر أَنَّ المراد بهذا اللَّفْظِ مُرْتَكِبُو الكبائر من دَرَكَةِ الكُفْر.

• ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾: أي: إلى الجهة الَّتي تَكُونُ جَهَنَّمُ قريبَةً إليها.

«**جَهَنَّم**»: اسْمُ عَلَمٌ مِنْ أسماء دار العذاب الَّتي أعْتَدَها الله لِيُعَذِّبَ فيها الكافرين، والْعُصَاةَ يَوْمَ الدِّين.

وسُمِّيَتْ «جَهَنَّمَ» لأنَّها كالْوَادي السَّحِيق، وكالْبِئْرِ الْبَعِيدَة الْقعْر. يقال لغة: بِئْرٌ جَهَنَّمُ، أي: بَعِيدَةُ الْقَعْر.

• ﴿وِرْدًا﴾ الْوِرْدُ في اللُّغَةِ، الْوُرَّادُ إلى الماء، وهم الجماعَةُ الّتي تَرِدُ الماءَ مِنْ قَوْمٍ عِطَاش، أو إبلٍ عِطَاش، أو طَيْرٍ أو غير ذَلِكَ.

قال: الزَّجّاج: أي: مُشاةً عِطاشاً.

وظاهِرٌ مَا في هذا السَّوْق، كَسَوْقِ البهائم، مِنْ إهَانَةٍ وإذْلالٍ وَتعْذِيب.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾:

أي: لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْ فَرِيقَي المتَّقِين والمُجْرِمِين أَنْ يَشْفَعَ لَهُ شَافِعٌ ما، مأْذُونٌ لَهُ بالشَّفَاعَةِ، إلّا مَنْ كان لَهُ عَهْدٌ عنْدَ الله، بأنْ يَأْذَنَ لِبَعْضِ عبادِه بالشفاعَةِ له.

والمرادُ بمِلْكِيَّةِ الشَّفَاعَةِ إمكانيَّةُ الاستفادة مِنْها، والانتفاعِ بها، إذِ الأَصْلُ في مِلْكِيَّةِ الْعِبَادِ للأشياء تَمكُّنُهُمْ من الانتفاعِ بها، والَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الانتفاع بالشيءِ ولا التَّصرُّفَ فيه لا يكُونُ مالكاً له، أو هو بمثابَةِ مَنْ لَا يَكُونُ مَالكاً له.

والْعَهْدُ الّذي يكُونُ عنْدَ الرَّحْمٰنِ هو الْوَعْدُ الكَرِيمُ، الّذِي وعَدَهُ عِبادَهُ المتّقين، بأنْ يأْذَنَ لِمَنْ منَحهُمُ الشَّفَاعَةَ بأَنْ يَشْفَعُوا لِلْمُذْنِبينَ، ضِمْنَ الْحُدُود التي يأذَنُ لَهُم بها.

واتِّخَاذُ نَصِيبٍ من هذا الْعَهْدِ الْعَامّ يَكُونُ بالإيمان الصحيح المقبولِ عند الله، وبِتَقْدِيم أعْمالٍ صالحةٍ تَسْتَدْعي بحِكْمَةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ أَنْ يَأْذَنَ بالشَّفَاعَةِ لِلْمُذْنِبِ الَّذِي قَدَّمَها، ضِمْنَ حُدُود الإذْن الّذي يَأْذَنُ بِهِ جَلَّ جَلَالُه.

أَمَّا أنَّ الشّفاعَةَ لَا تَكُونُ يَوْمَ الدِّين إلّا بإذْنِ اللّهِ رَبّ العالمين، ولو كانت من الأنبياء والمرسَلِين، فالنُّصُوصُ القرآنيَّة الدَّالَّةُ عَلَيْهَا كَثِيرَة.

وأَمَّا أنْ يكُونَ المشْفُوعُ لَهُ مِنَ المؤمِنينَ الَّذِين شَهِدُوا بالْحَقّ الَّذِي

اشتَمَلَ علَيْه دِينُ الله لعِباده، فقد دَلَّ عليه قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (الزُّخرُف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: إلَّا مَنْ شَهِدَ بالْحَقِّ الَّذِي أنْزَلَهُ الله على رسُولِه، شهادةً صادِرَةً عنْ إرادَةٍ واعِيَةٍ، يَعْلَمُ صَاحِبُهَا مَا يَصْدُرُ عنه مِنْ تَصَرُّف.

جاء في هذا الدّرْس عبارتا: [نَحْشر] و[نَسُوقُ] باستخدام ضمير المتكلّم العظيم، لأنَّ الموضوع يُلائمهُ الإشعار بجلَال الرَّبّ العظيم، إذْ يَتَعَلَّقُ بِبَيَانِ إكْرَامِهِ وإنْعَامِهِ للمتَّقِينَ، وإهانَتِه وانْتِقَامِهِ مِنَ الْمُجْرِمينَ.

واشْتَملَ هذا الدَّرْسُ على مُعَالَجَةٍ تَرْبَوِيَّةٍ بالْمَوْعظة الحسنة، القائمة على الترغيب والترهيب، وكان هذان بتَقْدِيم لقْطَتَيْنِ تَصْويريّتَيْن، من مَشَاهِدِ يَوْم الدّين، مُشِيرَتَيْن إلى ما فيه من جزاء بالثواب العظيم للمتقين، وجزاءٍ بالعذاب الجسيم للمُجْرمين.

**اللقطة الأولى**: كشفَت طَرَفاً من مَشْهَدِ جَمْعِ المتّقينَ وُفُوداً زُمَراً، أعزّاءَ بِعزَّةِ الله، مُكرَّمِين بأمْره، يُسَاقُونَ سَوقَ تَكْرِيمٍ إِلَىٰ جِهَةِ الجنَة دَار كرامَةِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيم للمّتقين، حيث تَظْهَرُ فيها وفيما حولها آثار رحمة الله العظمىٰ، كَمَا تُسَاقُ الْوُفود المكرمة مِنْ عِلْيَةِ الأقوام إلى قُصُور المُلُوكِ والعُظماء، مع فارق المقدار بَيْنَ قصور الملوك الفانية، وجنَّةِ الرَّبّ العلي الأعلى ذي الْعَرش الكبير المتعالي، ودَارِ كرامَتِه الخالدة.

**اللَّقطَةُ التَصْويريَّة الثانية**: كشفت طرفاً مِن مَشْهَدِ سَوْقِ المجرمين زُمراً، سَوْق إهانَةٍ وإذْلَالٍ، كما تُسَاقُ الأنْعَامُ والدَّوابّ.

وسَوْقُ هؤلَاءِ يكونُ إلىٰ جِهَةِ جَهَنَّمَ دَارِ عذابِهِم، مُشَاةً عِطَاشاً أَشْقياء، بحَسَبِ أنواع جرائمهم.

ولَا يَمْلِكُ أحَدٌ مِنَ الْفَرِيقَيْن أنْ يَشْفَعَ لَهُ شَافِعٌ، ولَوْ كَانَ الشَّافِعُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أو النبيّين أو المرسَلِين، إلّا مَنْ كَانَ في الحياة الدُّنيا ممَّن مَاتَ على إيمانٍ صحيح مقْبُولٍ عنْدَ الله جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سلطانُه، فاتَّخَذَ بما كَسَبَ في حياته الدنيا من عَمَلٍ صالح عَهْداً عند ربّه، بأنْ يكونَ ممَّنْ يأْذَنُ اللَّهُ للشُّفعاءِ يَوْمَ الدّينِ بِأَنْ يَشْفَعُوا لَهُ بشَأْنِ ذُنوبه في حدود مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ، أو بَشأْنِ تَقْصِيراتِهِ بالنِّسْبَةِ إلى حُقُوق ما فَوْقَها من مَرْتَبَةِ الْبِرّ، أو مَرْتَبَة الإحسان، حتَّىٰ يَرْتَقِي في دَرَاجات جنَّاتِ النَّعِيم إلى درجات مَرْتَبَةِ الأبرار، أو إلى دَرَجَاتِ مَرْتَبة المحْسِنِينَ الْعُلْيَا.

وقد جاء في القرآن المجيد تَكْمِيلٌ لهٰذَيْن المشْهَدَيْن التَّصْويريَّيْن، ومِنْ هذا التَّكْمِيلِ بَيانُ أَنَّ كُلّا مِنَ الَّذِين كَفَرُوا، ومِنَ الَّذِين اتَّقَوْا يُساقُون زُمراً، بَحَسبِ أحْوالِ كُلِّ زُمْرَةٍ منْهُمْ في الحياة الدُّنيا.

وهذا التكْمِيلُ قَدْ جاءَ في قول اللَّهِ عزّ وجلَّ في سورة (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

دلَّ هذا النصّ والنَّصّ الذي من سورة (مريم) علَىٰ أنَّ كُلّا من الَّذِين اتَّقَوْا، والَّذِين كَفرُوا، يُساقُون، ولَكِنَّ الَّذِين اتَّقَوْا يُسَاقُونَ سَوْقَ تَكْرِيم، كما تُسَاقُ الْوُفُودُ المكرَّمَةُ إلى الملوك، أمّا الَّذِين كَفَرُوا فإنَّهُمْ يَساقُونَ

سَوْقَ إهانةٍ وإذْلَال، كَما تُسَاقُ الأنْعَامَ والبهائم إلى الْوُرُودِ مُشَاةً عِطاشاً.

وأَخْطَأَ مَنْ فَسَّرَ «وِرْداً» بقَوْله: «أفْرَاداً» إذْ لَمْ يَتَنَبَّهْ إلى ما جاء في سورة (الزُّمر) من أنَّ الكافِرين يُسَاقُونَ إلى جهَنَّم زُمَراً.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرْس الخامس عشر من دروس سورة (مريم) والحمْدُ لله على معونته وتوفيقه ومَدَدِه وفَتْحه.



## (١٩)
## التدبر التحليلي للدّرس السادس عشر من دُرُوس سورة (مريم) وهو الآيات من (٨٨ ـ ٩٥)

قال اللَّهُ عزّ وجل:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)﴾.

**القراءات:**

(٨٨) و(٩١) و(٩٢) • قرأ حمْزَة، والكِسَائيُّ: **«وُلْداً»** في المواضع الثلاثة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلَدًا﴾.

«الْوَلَدُ» و«الْوُلْدُ» و«الْوِلْدُ» كُلُّ مَا وُلِدَ، يُطْلَقُ على الذكر والأنثى، المفرد، والمثنّىٰ، والجمع.

فالقراءتان مُتَكافئتان، إذْ هُما لغتان عَرَبيتان لمعنًى واحد.

(٩٠) • قرأ نافع، والكسائي: ﴿يَكَادُ﴾ بالياء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [تكاد] بالتّاء.

والقراءتان وجْهَان عَرَبيان جَائزان، لأنّ الفاعل مجازيّ التأنيث.

(٩٠) • قرأ نافع، وابْنُ كَثير، وحفْصٌ، والكسائي، وأَبُو جعفر: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: «يَنْفَطِرْنَ».

القراءتان وجْهَان عربيان جائزان ومتكافئان. يقالُ لغة: «تَفَطَّرَ، يَتَفَطَّرُ» و«انْفَطَرَ يَنْفَطرُ» وكلاهما بمعنى تَشَقَّقَ، أو انْشَقَّ. وقد يَدُلُّ فعل «يَتفَطَّر» على شِدَّة الانشقاق، وهذا يكون بالنسْبَةِ إلى الأجسام القاسيَّة الصُّلْبَة، فبين القراءتين على هذا تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

**تمهيد:**

هذا الدّرْسُ يُعالجُ الكبيرَة الكُفْرِيَّةِ الّتي زَعَمَ أصْحَابُها فيها أَنَّ الرَّحْمٰنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اتَّخذَ وَلَداً، ومنْهُمُ النصارىٰ الَّذِينَ قالُوا: عيسَىٰ ابن الله.

وهذا الدَّرْس لَهُ صِلَةٌ بالدّرْسِ الثاني من دُرُوس السُّورَة، الّذِي جاء فيه عَرْضُ لقَطَاتٍ من قِصَّة مَرْيَمَ وابْنَها عِيسىٰ عليه السّلام، ولا سيما ما جاء في الآيتين (٣٤ و٣٥) منه، وهُمَا قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾.

**التدبّر:**

قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾:

أصْحابُ هذا القول هُمُ النصارىٰ الّذِين قالوا: «الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ]. وبَعْضُ الْيَهُودِ الَّذِين قالوا: «الْعُزَيْرُ ابْنُ الله» وبَعْضُ الْعَرَبِ في الجاهليّة الَّذِين قالوا: «الملائكة بَنَاتُ الله» لأنّ الإناثَ يَدْخُلْنَ في عُمُوم لفظ الولد، كما سبَقَ بيانه.

وقد كان في مكَّةَ في المرحلة المكيَّةِ من دَعْوَةِ الرسول ﷺ بعض النصارى، وكانَ يأتي إليها بعض يَهود المدينة، ومَعْلُومٌ أنّ الدَّعْوَةَ الشَّامِلَةَ للنَّاس جميعاً، تقتضي مُراعاة ومعالَجَةَ جَمِيعِ أحْوالِ المخالِفينَ لها، وَتَوجِيهَ وَسائِلِ وأدِلَّةِ الإقناع الفكريّ لهم، وَتوجيه الْموعظَةِ الحسَنَةِ بالتَّرْغِيب التَّرهيب، رَغْبَةً في إنْقَاذِهِمْ ممَّا هُمْ فيه من كُفْرٍ.

ومعنى: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾: جعَلَ لِنفْسِهِ وَلَداً مُشْتَقّاً مِنْ ذاتِهِ، إذْ هَوَ في أوّلِ نَشْأتِه جُزْءٌ مِنْه. أو جَعَلَهُ لِنفْسِهِ وَلَداً بالتَّبَنِّي، وهو خَلْقٌ مِنْ خَلْقِه.

قول الله عزّ وجل:

﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾.

بَعْدَ أنْ تَحدَّث اللَّهُ عزّ وجلَّ عَنْهُمْ بأُسْلُوب الحديثِ عن الغائبين في الآيَة (٨٨) واجَهَهُمْ بالخطاب في هاتين الآيتين (٨٩ و٩٠).

إنَّ هذا التحُّولَ مِنَ الغيبة إلى المواجهة بالخطاب يَدْخُلُ فيما يُسَمَّى عنْدَ البلاغيِّين «الالتفات» وهو أحَدُ فُنُون الحركة البديعةِ في أساليب البيانِ

القائمةِ على المفاجأةِ في الحديث، دُونَ مقدّمات تُشْعِرُ بالتحُول، ومن تأثيرات هذا الأسْلُوب شدُّ الانْتِباه بِقُوَّة، والإيقاظ من الغفلة.

• ﴿إِدًّا﴾: «الإِدُّ» الشَّيْءُ المنكَرُ الشَّنِيعُ الكبير، الَّذِي لَا تتحَمَّلُ شِدَّة وَقْعِه النُّفُوسُ الَّتي تُفرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ والباطل.

إنّ هَذا الافتراء الشَّنِيعَ على الله الواحد الأحَدِ، الْفَرْدِ الصَّمَدِ، الَّذِي لم يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، ولَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أحَد، من شأنِه أَنْ يَجْلُبَ لهم نِقْمَةَ الله، بإطْبَاقِ قِطَعٍ صُلْبَةٍ من السَّمَاءِ والأرض والجبال عليهم، ودفْنِهِمْ تَحْتَ الأنْقَاضِ عُقُوبَةً لهم.

ولَوْلَا أنّ الله رَحْمَانٌ رَحِيمٌ حَلِيمٌ، لا يُسْرِع بالانتقام مِنَ الظَّالِمين المجرمين، المفْتَرِين على صِفاتِ ذاتِه الْأَزَلِيَّةِ الْأَبَدِيَّةِ، بَلْ يُمْهِلُهُمْ وَيُمْلِي لهم، لكان مِنْ آثار غَضبه علَيْهم، أَنْ يُفَطِّرَ السَّمَاءَ فَيُسْقِطَهَا عَلَيْهِمْ كِسَفاً، وأنْ يُشَقِّقَ الأرض من تَحْتِهِمْ فَيَغُوصُوا في أعْمَاقها، وَأنْ يُكَسِّرَ الْجِبالَ فَيَجْعلَها تَخِرُّ علَيْهِمْ هَدّاً.

لكِنَّهُ سُبْحانَهُ يُمْسِكُ برَحْمتِه غضَبه، فلا يَدَعُهُ يَصِلُ إلى هذا المستوىٰ الانتقاميّ، بَلْ يُوقِفُهُ عِنْدَ مَرْحَلَةٍ تَكَادُ فيها السَّمَاوات تتفطَّر، وتكادُ فيها الأرض تَتشَقَّقُ، وتَكادُ فيها الجبالُ تَتكَسَّرُ فَتَخِرُّ هدّاً، لأنَّهُ هُوَ سُبْحَانَهُ يُمْسِكُها بِقُدْرَتِهِ في الوجودِ معَ توالي الأزمان، ولو رفَعَ إمساكَهُ لَهَا لعادتْ إلَىٰ أصْلِها وَهُوَ الْعَدَمُ المحض.

• ﴿تَكَادُ﴾: من أفعال المقاربة، فمعنَىٰ: «كادَ يفْعَلُ كذا» قاربَ أَنْ يَفْعَلَه.

واسْتِعْمَالُ فِعْل: «يَكَادُ» في هذا الموضوع يُشْعِرُ بأنَّ غَضبَ اللَّهِ على الَّذِين قالُوا: «اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً» يكادُ يكونُ من آثارِهِ تَفَطُّرُ السَّمَاوات، وتَشَقُّقُ الأرْض، وتَكَسُّرُ الجبال وخُرُورُها عَلَيْهِمْ، لإهْلاكهم وَدَفْنِهِمْ في الرُّكَام.

﴿يَنفَطَّرْنَ﴾: أيْ: يَتَشَقَّقْنَ.

جاء في النصّ بالنّسْبَةِ إلى السّماوات استعمالُ فعل: ﴿يَنفَطَّرْنَ﴾ وبالنسْبَة إلى الأرض استعمالُ فعل: [تنشق] مع أنْ معْنَىٰ الفِعْلَيْنِ واحد، استبعاداً للتكرار في اللَّفْظ غَيْرِ المستحبّ في الأسْمَاع، وتفنُّناً بديعاً في التعبير.

• ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ﴾: أي: وتَسْقُطُ الجبال منْ عُلْوٍ إلى سُفْلٍ دون تَوَقُّفٍ، بَعْدَ أنْ تتكَسَّرَ صُخُورُها من غَضَب الله عزّ وجل.

﴿هَدًّا﴾: أي: سقوطاً مَعَ إحداثِ أصْوَاتٍ عِنْدَ خُرُورِها.

ولفظ «هَدّاً» هُنَا مَفْعولٌ مُطْلَقٌ لفعل [تَخِرُّ] من معْناهُ لَا مِنْ حُروف لفظه. فكُلٌّ مِنَ الْخُرُورِ والْهَدِّ يتضمَّن معْنَىٰ إحداثِ أصواتٍ عنْدَ السُّقُوطِ السَّرِيع المتتابع للأجزاء..

يُقال لغة: «هَدَّ الجدَارُ يَهِدُّ هَدّاً وهَدِيداً» أي: سَقَط وأحْدث أصواتاً عنْدَ سُقُوطه.

ويقال: «هَدَّ فُلَانٌ البناءَ يَهُدُّهُ هَدّاً وَهُدُوداً» أي: هَدَمَهُ، فأحْدَث صَوْتاً شَدِيداً.

وهُنَا قَدْ تَتَسَاءَلُ نُفُوسٌ لَا تُدْرِكُ مبْلَغَ شناعَةِ قَوْلِ القائلين: «اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً» فتقول: مَاذَا في نِسْبَةِ الْوَلَدِ إلى الله عزّ وجلَّ، من أمْرٍ فظيعٍ شَنِيعٍ، يقْتَضِي أنْ يُفَطِّرَ اللَّهُ علَىٰ قائليه السَّمَاوات، ويُشَقِّقَ الأرض، ويُكَسِّرَ الجبالَ وَيَهُدَّها؟.

وقد جاء الجواب على هذا التَّسَاؤل الّذي يُشْعِرُ بِضَآلَةِ فِكْرِ طَارِحِيه، في قوله تعالى في الآيات من (٩١ ـ ٩٥) من هذا الدرس.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾.

أي: تكاد السَّماواتُ يَتفَطَّرْنَ مِنْه، وتكادُ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ، وتكادُ تَخِرُّ الجبالُ هَدّاً، لأجْلِ الشنِيعَةِ الكُبْرَىٰ في ذَاتِ الله وصفاته، الّتِي دَعَوْا فيها للرَّحْمٰنِ وَلَداً، كَذِباً وافتراءً عليه، زاعِمين أنَّ الْخَالِقَ الأَزلِيَّ الْأَبَدِيَّ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيْءٌ، مِثْلُ خَلْقِهِ، يَتَّخِذُ زَوْجَةً ويُنْجِبُ مِنْهَا وَلَداً، وهو مُنَزَّهٌ عن ذَلِك. ولَزِمَهُمْ أَنْ يَتَصَوَّرُوا أَنَّ هٰذا الْوَلَدَ جُزْءٌ مُنْفَصِلٌ عَنْ أبيه الخالِقِ الأزليّ، فَلَهُ مُشَارَكَةٌ لِلَّهِ سُبْحانَهُ في خَصَائِصِ ذاتِه وصِفَاته، فَهُوَ رَبٌّ مِثْلُهُ، ويَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ، إِلَىٰ غَيْرِ هٰذِه من ضَلَالَاتٍ كُبْرَيَاتٍ شَنِيعاتٍ.

لَقَدْ دَعَوْا أَنَّ للرَّحْمٰنِ وَلَداً كَذِباً وَزُوراً وافْتِراءً علىٰ الله [وَ] حَالُ كمالِ ذَاتِ اللَّهِ وصِفَاتِه وتَنَزُّهِهِ عَنْ مُشَابَهِةِ الحوادث ﴿مَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ وهو خالقُ كُلِّ مَوْجُود سِوَاه، ومُفِيضُ عطاءاتِ رُبُوبيَّتِه على عِبَادِه جميعاً بِرَحْمَتِه.

**[ما ينبغي]**: أي: ما يَلِيقُ ومَا يَصْلُحُ بذَاتِ الرَّحْمٰنِ وصفاتِه أن يكُونَ لَهُ ولَدٌ مُشْتقٌّ مِنْه، أو مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ بالتَّبَنِّي.

إنّ اتِّخَاذَهُ الولَدَ مِن المستحيلاتِ العقليَّة المناقِضَةِ بِشدَّةٍ للحقيقَةِ والْوَاقع، بَسَبب أَنَّ كُلَّ مَنْ فِي السماوات والأرض خَلْقٌ من خَلْقِه وعَبِيدُه، ومُمْلُوكُونَ لَه، فَكَيْف يكون واحِدٌ مِنْهُمْ ولداً نَسَبِيًّا له؟!. هذا تناقضٌ ظاهر، الْوَلَدُ النَّسَبِيُّ لَا يكُونُ مَخْلُوقاً لأبيه، والْعَبْدُ المملُوكُ الْمَخْلُوقُ لَا يَكُونُ ابْناً لخالقه مُشْتَقاً مِنْ ذَاته، لأنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ للَّهِ عزّ وجلّ يَتِمُّ خَلْقُهُ وإيجادُه بأمْرِ التَّكْوين الرَّبانِيِّ: «كُنْ» فالْمَخْلُوقُ «يَكُون» دُونَ أَنْ يَنْفَصِل شيءٌ مِنْ ذَاتِ خالِقِهِ، فيَكُونَ فيه.

وأمّا الابْنُ بالتَّبنِيّ فهو يَدُلُّ علَىٰ حَاجَةِ المتَبَنِّي عاطفيًّا لِلْوَلَدِ، والرَّبُّ الخالِقُ مُنَزَّهُ عَنْ ذلِكَ، ولو كانت لَدَيْه حاجَةٌ عاطفيَّةٌ إلَىٰ الْوَلد، لَخَلَقَ مَخْلُوقاً منَ الأَزَلِ ذَا صِفَاتٍ عظيمَةٍ وَتَبَنَّاهُ، ولَأَعْلَمَنَا به، ولكِنْ تَعالَىٰ اللَّهُ عن ذلِكَ عُلُوًّا كَبيراً.

**قول الله عزّ وجلّ:**

- ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾: «إِنْ» حَرْفُ نفي بمعنَىٰ «ما». أي: مَا كُلُّ مَنْ في السَّمَاواتِ مِنْ ملائِكَة، ومَنْ في الأرْضِ مِنْ ملائِكَةٍ وَجِنٍّ وَإِنْسٍ، وكائناتٍ ذَواتِ عِلْم، إلَّا سَوْفَ يأتي الرَّحْمٰنَ يَوْمَ الدِّين خَلْقاً مِن خَلْقِهِ، وعَبْداً مِنْ عِبادِه الْمَمْلُوكِينَ له، وهو يأتي الرَّحْمٰنَ مُعْتَرِفاً بِعُبُودِيَّتِهِ لَهُ، خاضعاً لِجَلالِهِ وعَظِيمِ سُلْطانِه خُضُوعاً تامًّا.

قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجل:

- ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾:

﴿لَّقَدْ﴾ عبارة جاءت لتأكيد مضمون ما جاء بَعْدها.

﴿أَحْصَىٰهُمْ﴾: أي: عَلِمَ مقدارَهُمْ عدَداً. يُقالُ لغة: أحصى فُلَانٌ ما لَدَيْهِ مِن أنْعام، أي: عَلِم مقدارها، ولو على سبيل الجملة.

﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾: أي: ولم يكُنْ إحْصَاؤه لَهُمْ مُجَرَّدَ جَمْعٍ جُمْلِيٍّ لهم، ولكِنْ عَدَّهُمْ عَدّاً تفصِيليًّا حسابيًّا شاملاً كُلَّ فَرْدٍ من أفرادِهم على التَّعْيين.

﴿عَدًّا﴾: مَفْعُول مطلق لتأكيد معنَىٰ الفعل.

قَوْلُ الله عزّ وجلّ:

- ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾:

أي: وكُلٌّ واحدٍ مِن عباده سَوْف يأتي رَبَّهُ الرَّحْمٰنَ يَوْم القيامَةِ فرداً، لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَنْصِرَ بأحَد، ولَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكوِّنَ عُصْبَةً مع أحد.

ثمَّ يُفْرَزُون عبيداً لله، فيُحْشَرُونَ زُمَراً:

- أمَّا المتَّقُونَ، فَيُحْشَرُونَ إلى جِهَةِ الْجَنَّةِ زُمراً، بِحَسَبِ أنبيائهم، أَوْ أئمّتِهم، أو ما يَتميَّزُون به من صالح أعمالهم.
- وأمَّا الْمُجْرِمُونَ، فَيُحْشَرُونَ إلىٰ جِهةِ جهَنَّمَ زُمراً، بِحَسَبِ أئِمَّتِهِمْ في الضَّلَال، أو بِحَسَبِ كُفْرِيَّاتهم، أو بِحَسَبِ جرائمهم.

وبهذا انتهى تدبُّر الدَّرْس السادس عشر من دُرُوس سورة (مريم) والحمد لله على معونته، وتوفيقه، ومَدَدِه، وفَتحه.



## (٢٠)
## التدبّر التحليلي للدرس السابع عشر من دُرُوس سورة (مريم) وهو الآية (٩٦)

قال اللّهُ عزَّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾﴾.

**تمهيد:**

آيَةُ هذا الدرس قَدْ بَشَّرَ اللّهُ عزَّ وجلّ بها أصحاب الرَّسُول محمّد ﷺ، الذين كانوا وَاقِعينَ تحْتَ الاضطهاد والإذْلَال وأنواع الأذىٰ في الْعَهْدِ المكّيّ من تاريخ دَعْوَةِ الرَّسولِ، مع ما يُوجِّهُهُ لَهُمْ كُبَراءُ المشركينَ وأتْبَاعُهُمْ من نَبْذٍ وكراهِيَةٍ وعِدَاء، بأنَّ هذهِ الأحوال سَتَتَبَدَّلُ في الْمستَقْبَل القريب، إلى ضِدِّ ذَلِك، فسَيَجْعَلُ اللّهُ لَهُمْ وُدًّا في الْقُلُوب،

وهذا الْوُدُّ سَيَجُرُّ لَهُمْ عزًّا وقُوَّةً ومَجْداً وخيراً كثيراً، بمُقْتَضَىٰ سُنَّةِ الله عزّ وجلَّ في عِباده، فَمَنْ كَانَ لَهُمْ وُدٌّ فِي قُلُوب النَّاسِ كان لهم تأييدٌ وقوةٌ وعزّةٌ ونَصْرٌ، ثُمَّ كانَ لهم مَجْدٌ عظيم وخَيْرٌ كثير.

**التدبّر:**

• ﴿وُدًّا﴾: «الْوُدُّ»: نوْعٌ مِنَ الْحُبِّ الهادئ الثابتِ، الّذي يكُونُ بيْنَ الْأَصْحَاب والإخوان، وذَوِي الصّدَاقاتِ الْقَوِيَّات.

يـقـالُ لـغـة: «وَدَّهُ، يَـوَدُّهُ، وُدّاً، ووِدًّا، ووَدّاً وَ وُدَاداً، وَوِدَادَةً، وَمَوَدَّة».

• ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾: هذه العبارة تضمَّنَتْ بِشَارَةً مِنَ الله لأصحاب الرّسُول إبَّانَ التّنْزِيل بأنَّ الله سيَجْعَلُ لَهُمْ في قُلُوبِ عبادِهِ وُدًّا، وما يَنْجُمُ عن هذا الْوُدِّ ويَكُونُ أثراً له.

ودلَّ على أنَّ هذه البشارة ستَتَحقَّقُ لَهُمْ قَرِيباً فِي الدُّنيا، استعمالُ حرف «السين» الذي يُسْتَعْمَلُ غالباً للدّلالة على المستَقْبَل الْقَرِيب.

وهذه البِشَارَةُ بصِيغَتِها الْعَامَّة تَشْمَلُ كُلَّ الَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحات بصِدْقٍ وثباتٍ وصَبْرٍ، في كلِّ عَصْر من الْعُصُور اللَّاحِقَةِ لِعَصْرِ الرَّسولِ ﷺ، فَلَهَا صِفَةُ السُّنَّةِ الثابِتَةِ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ في عباده.

إلّا أنَّ إنْزَالَها في أواسِط الْعَهْدِ المكيّ من تاريخ دعْوَةِ الرّسُول ﷺ، يَجْعَلُ أصحابَ الرّسُولِ بالنَّظَرِ إلى أحوالهم الّتِي كانوا عليها حينَئِذٍ، أوَائِلَ المُبَشَّرِينَ بها.

لقد كانت أحوالُهُمْ في تِلْكَ المرْحَلَةِ من تاريخ دَعْوَة الرَّسول في ظُرُوف اضطهادٍ، وإذْلَالٍ، وَنَبْذٍ، وَكَراهِيَةٍ، مِنْ قِبَلِ الكَثْرَةِ الكاثِرَةِ في مكّة، الْخَاضِعِين لسُلْطَانِ أئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْر فيها، وقَدْ تَفَاقَمَ الْأَمْرُ عَلَيْهِم

قُبَيْلَ نُزُول سورة (مريم) وضَاقَتْ بذلك صُدُورُ كثيرٍ منهم، وعظُمَ هَمُّهُمْ، وصَارُوا يَسْأَلُونَ اللَّهَ الْفَرَج وَيَتَرَقَّبُونه.

فكان مِن الحكْمَةِ التَّرْبَوِيةِ مُعَالَجَتُهُمْ بِبشَارَة رَبَّانِيَّةٍ، تَنْزِلُ في قرآن يُتْلَىٰ، وهٰذهِ البشَارَة تُنْبِئُهُمْ بأَنّ حَالَتَهُمْ سَتَتَبَدَّلُ قَرِيباً، فَسَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُمْ وُدًّا، ومن طبيعَةِ هذا الوُدّ أن يَجُرَّ لَهُمْ قُوَّةً، ومَنَعَةً، وعِزًّا، ومَجْداً، وأمْناً، ورزْقاً حسناً، ثمَّ انتصاراتٍ على أعْدائِهم، وخيراً كثيراً، ودُنْيَا وَاسِعةً، ومُفْتَاحُ هٰذِهِ الأُمور كلِّها الودّ الذي سَيَجْعَلُهُ اللَّهُ لَهُمْ في قُلُوب بعْضِ عباده.

وقَدْ تحقَّقَتْ هذه البشارَةُ لأصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ بَعْدَ زَمَنٍ غَيْرِ طَويل.

وكانَتْ بدايَةُ تَحْقِيق هٰذهِ البِشَارَةِ في مَوْسِمِ حجٍّ، الْتَقَىٰ فيه الرَّسولُ ﷺ عنْدَ العقَبَةِ نَفراً مِنْ أهْلِ يَثْرِبَ مِنَ الْخَزرَجِ، سِتَّةً أَوْ ثمانية.

فقال لهم الرَّسول ﷺ: «مَنْ أَنْتُمْ؟».

قالُوا: نَفَرٌ مِنَ الْخَزْرَج.

قال: «أَمِنْ مَوَالِي الْيَهُودِ؟» أي: أَمِنْ حُلَفَائِهم؟.

قالوا: نَعَمْ.

قال: «أَفَلَا تَجْلِسُونَ إِلَيَّ أُكَلِّمكُمْ»؟.

قالوا: بلَىٰ. فجَلَسُوا إِلَيْهِ، فَدَعَاهُمْ إلى اللَّهِ، وعَرَضَ عَلَيْهِمُ الإِسْلَامَ، وتَلَا عَلَيْهِمُ القرآن.

فأسْرَعُوا إلى قَبُولِ الإسلام، لأنَّ اليهود كانُوا يقولون لعَرَب يَثْرِب: «إِنَّ نَبِيًّا مَبْعُوثاً الْآنَ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهُ، ونَقْتُلُكُمْ، مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَم».

فتهامَسُوا فيما بَيْنَهُمْ: «تَعْلَمُونَ ـ واللَّهِ ـ أَنَّهُ النَّبِيُّ الَّذِي تَوَعَّدَكُمْ بِهِ يَهُودُ، فَلَا يَسْبِقُنَّكُمْ إلَيْه».

فلَمَّا عَادُوا مِنَ الْمَوْسِمِ إلى قَوْمِهم، ذَكَرُوا لَهُمْ مَا كانَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ الرَّسُول ﷺ، ودَعَوْهُمْ إلى دِينِ الله، وفَشَا فيهم الإسلام.

وفي العام القابل قَدِمَ على النبي ﷺ اثْنَا عشَرَ رَجلًا من الأوس والخزْرَج، وبايَعَهُمْ على السَّمْع والطاعة، في الْعُسْرِ والْيُسْرِ، والمنْشَطِ والْمَكْرَه، وعلَىٰ الأمْرِ بالمعروف والنَّهْيِ عَنِ المنكَر، وعَلَىٰ أَنْ يَقُولُوا الحقَّ، وأَنْ لَا يَخَافُوا فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائم، وعلَىٰ أَنْ يَنْصُرُوهُ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ يَثْرِبَ، فيَمْنَعُوهُ ممّا يَمْنَعُون أنْفُسَهُمْ، وأَزْواجَهُمْ، وأَبْنَاءَهُمْ منه، على أَنَّ لَهُمُ الجنَّة.

ولمَّا وَصَلُوا إلىٰ يَثْرِبَ كَتَبُوا إلى رسُول اللَّهِ ﷺ، أنِ ابْعَثْ إِلَيْنَا مَنْ يُقْرِئُنَا الْقُرْآنَ، فأرسَلَ إليهم «مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْر» رضي الله عنه، ونَزَلَ علَىٰ «أَسْعَدِ بْنِ زُرَارَة» سَيِّد الْخَزْرَج، ونَقِيبِ بَنِي النَّجَّار، وسابِقِ الأنْصَارِ إلى الإسلام.

ثُمَّ أَسْلَمَ «أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْر» و«سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ» سَيِّدا قوْمِهِمَا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَل، اسْتِجابَةً لِدَعْوَةِ «مُصْعَب بْنِ عُمَيْر».

وانْتَشَرَ الإسلامُ بإسْلَامِهِمَا في يَثْرِبَ، حتَّىٰ لَمْ تَبْقَ دَارٌ منْ دُور أَهْلِ يَثْرِبَ إلَّا وفيها رجَالٌ مُسْلِمُونَ، ونِسَاءٌ مُسْلِماتٌ.

ثُمَّ كانَتْ بَيْعَةُ الْعَقَبَةِ الثّانية، وفيها اجْتَمعَ على الرَّسولِ ﷺ مِنْ أَهْلِ يَثْرِب (٧٣) رَجلاً، وامْرأتان، فبايَعُوهُ علىٰ أن يَمْنَعُوهُ ممَّا يَمْنَعُونَ منْهُ نِسَاءَهُمْ وأبْنَاءَهم علىٰ أنَّ لَهُمْ الجنَّة.

وألْقَىٰ اللَّهُ عزّ وجلَّ في قُلُوبِ مُسْلِمِي يَثْرِب وَمُسْلِمَاتِها وُدَّ إِخْوَانِهِمُ المضطهدين في مكّة، حتّىٰ صاروا أنْصَاراً حَقِيقيّين، يُؤْثِرُونَهم على أنْفُسِهِمْ، وَلَوْ كانَ بَهِم خَصَاصَة.

وأخَذَ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ مُسْلِمِي مَكّةَ يَتَوافَدُونَ أفْراداً وجماعاتٍ،

ويَسْتَقْبِلُهُمْ إخوانُهم المسلِمُون في يَثْرِب، الَّتي سَمَّاها الرَّسُول ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ «المدينَة» بوُدٍّ عجيبٍ وإخاءٍ لَا نظير له، ويُنْزِلُونَهُمْ في منازلهم ضُيُوفاً آمِنِينَ مَرْزُوقين.

وحَمَىٰ الأنْصَارُ في المدينَةِ إخوانَهُمُ المهاجِرينَ إلَيْهم، ممَّا يَحْمُونَ مِنْهُ أنْفُسَهُمْ وَنِسَاءَهم وَأَوْلَادَهم. وكانَ هذا ثَمرَةَ وُدٍّ وإخاءٍ إيمانِيٍّ صَادِقَيْن، جَلَبَهُمَا الإيمانُ الصَّحِيح القوِيُّ الصادق.

وظَهَرَتْ مِنَ الْأَنْصَارِ لإِخْوَانِهِمْ الْمُهَاجِرِين إيثَارَاتٌ عجيباتٌ، لَا نظائر لها في تاريخ البشريَّة، أو نظائِرُها قَلِيلَةٌ جدًّا.

ومنه ما رواه البخاريّ في صحيحه، عنْ عَبْدِ الرَّحْمٰن بْنِ عوفٍ، أنَّ رسُول الله ﷺ، آخَىٰ بَيْنَهُ وَبيْنَ «سَعْدِ بْنِ الرَّبيع» الأنصاريّ، فجاء سَعْدٌ فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُقَاسِمَهُ مَالَهُ، وقالَ لَهُ: انْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ أَحبُّ إِلَيْكَ أَتنازل لَكَ عَنْها، حتَّىٰ إذا ما انْتَهتْ عِدَّتُها تَزَوَّجْتَهَا، فَأَبَىٰ «عَبْدُ الرَّحْمٰن» وَقَالَ لَهُ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ في أَهْلِكَ وَمَالِكَ، ولَكِنْ دُلَّنِي علىٰ السُّوق، فدَلَّهُ علىٰ السُّوقِ، فبَاعَ وابْتَاع، حتَّىٰ صَارَ لهُ مالٌ، وتَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَار، بوزْنِ نواةٍ من ذَهَب، فقال لَهُ النبيُّ ﷺ: «أَوْلِمْ ولَوْ بِشَاةٍ».

وأقْبَلَتِ الانتصارات للمسلِمين، وكانَ مِفْتَاحُها الْمَوَدَّةَ الَّتي ألْقَاهَا اللَّهُ عزّ وجلّ في قُلُوب مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ المدينة.

وشواهدُ التاريخ كثِيرَةٌ بشأْنِ الودّ الّذي يُلْقِيه اللَّهُ عزَّ وجلَّ في قُلُوب بَعْضِ عبادِه، للّذِين آمَنُوا وعملوا الصالحاتِ صادقين مُخْلِصِينَ صابرين، ولا سيما الذين اضطهِدُوا من أجلِ دينهم، وجهادِهم في سبيل ربّهم.

وثَبَتَ في الصحيح أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ إذَا أَحَبَّ عبْداً حَبَّبَ به عبادَهُ، وهذا يَدْخُلُ في الوُدّ الذي وعَدَ اللَّهُ أَنْ يجْعَلَهُ للّذِين آمنوا وعَمِلوا الصالحات، ومنه ما يلي:

(١) روى البخاري ومُسْلِمٌ عَنْ أَبي هُرَيْرَة، أنّ النبي ﷺ قال:

«إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْداً نَادَىٰ جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَاناً فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ في أَهْلِ السَّماء، إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَاناً فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ».

(٢) ورویٰ الترمذيُّ عَنْ أبي هُرَيْرَة بإسنادٍ صَحِيحٍ، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال:

«إِذَا أحَبَّ اللَّهُ عَبْداً نَادَىٰ جِبْرِيلَ: إِنّي قَدْ أحْبَبْتُ فُلَاناً فَأَحِبَّهُ، فَيُنَادي في السَّمَاء، ثُمَّ تُنَزَّلُ لَهُ الْمَحَبَّةُ فِي الْأَرْض، فذلِكَ قولُهُ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾.

وَإِذَا أَبْغَضَ اللَّهُ عَبْداً نَادَىٰ جِبْرِيلَ: إِنِّي أَبْغَضْتُ فُلَاناً، فَيُنَادَىٰ في السَّمَاءِ، ثُمَّ تُنَزَّلُ لَهُ الْبَغْضَاءُ في الْأَرْضِ».

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدَّرْس السابع عشر من دُروس سورة (مريم) والحمد لله على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفتحه.



## (٢١)
## التدبّر التحليليّ للدرس الثامن عشر الدّرسِ الأخير من سورة (مريم) وهو الآيتان (٩٧ ـ ٩٨)

قال الله عزّ وجلّ خطاباً للرسُول محمّد ﷺ:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾.

**القراءات:**

(٩٧) • قرأ حمزة: «لِتَبْشُرَ» مِنْ فِعْلِ «بَشَرَهُ يَبْشُرُهُ».

وقرأها باقي القرَّاء العشرة: [لِتَبَشِّرَ] من فعل «بَشَّرَهُ يُبَشِّرُهُ».

يقال لغة: بَشَرَ فَلَانٌ فلاناً يَبْشُرُهُ، وبَشَّرَهُ يُبَشِّرُه، أي: أخْبَرَهُ بخَبَرٍ يُفْرِحُهُ ويَسُرُّه.

والقراءتان متكامِلَتان في الأداء البياني، فبعضُ المتقين تكفِيه البشارة دون تأكيد وتَشدِيد، وبَعْضُ المتقين يحتاج إلى تأكيد وتَشْدِيدٍ في بشارته، بحَسَب حالته النفسيَّة، وغفلاته.

**تمهيد:**

يخاطبُ اللَّهُ عزّ وجلّ في هذا الدَّرْس الرَّسُول ﷺ، بشَأْنِ وَظيفة من وظائف القرآن، وهي تَبْشِيرُ المتقين بما جاء فيه من مُبَشِّرات، وإِنْذَارُ الْمُكَابِرين المعاندين المخَاصِمين المجادلين بالباطل، بما جاء فيه من إِنْذَارَاتٍ بعقاب اللَّهِ عزّ وجل للكافرين.

وهذا الدَّرْسُ مَوْصُولٌ بما جاء في السُّورَةِ مِنْ حَدِيثٍ عن القرآن في عِدَّةِ مواضع، منها:

(١) قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ... ﴿١٦﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ ... ﴿٤١﴾﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ ... ﴿٥١﴾﴾.

(٤) وقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ ... ﴿٥٤﴾﴾.

(٥) وقول الله عزّ وجل: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ ... ﴿٥٦﴾﴾.

فكان من المناسب في خاتِمَةَ السُّورَةِ بَيَانُ وَظيفَةٍ كُبْرىٰ من وظائف

هذا القرآن، الَّذِي أنْزَلَهُ اللَّهُ عَرَبيًّا بِلِسَانِ خاتَم المرسَلِينَ، ومُيَسَّراً للحِفْظِ والتِّلَاوَةِ، وهي أنْ يُبَشِّرَ به الرَّسُولُ ﷺ المتقين، وينْذِرَ بِه قوماً شديدي الخِصَام، والجدالِ بالباطل وبزُخْرفِ من الْقَول، وشدِيدي المكابرة والعناد، الَّذِين لا تَلِينُ قُلوبُهم للأدلَّةِ الكافِيَةِ لِإقْنَاعِ أولي الألباب، ولَا تَجْذِبُ نُفُوسَهُمُ الْأَخْبَارُ المبشّرة المفرحَةُ السَّارَّة، الَّتي تُوَجَّهُ للمتَّقِين وَعْداً من الله، فلا وسيلَةَ مَعَهُمْ إلَّا الإنْذَارُ بالعذاب الأليم يَوْم الدِّين، والتهديدُ بالإهلاكِ الشَّامِلِ في الدُّنيا، إذا وَصَلُوا إلى حالَةٍ يَسْتَحِقُّونَ مَعَها أنْ يُهْلِكهُمُ اللَّهُ، كما أَهْلَكَ كُفَّار الْقُرونِ السَّابقة.

ويُلْحَقُ بالرَّسُولِ ﷺ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، فهم أيضاً يُبَشِّرُون وَيُنْذِرُون بما جاء في القرآن من مُبَشِّرَاتِ ومُنْذِرات.

**التدبّر:**

قول الله عزّ وجل خطاباً لِرسوله محمّد ﷺ:

- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾:

الفاء في: ﴿فَإِنَّمَا﴾ تَعْطِفُ هُنَا على مَحذوف، وهي الّتي تُسَمَّىٰ عنْدَ النُّحاة الْفَاء الْفَصِيحَة، وهٰذَا المحذوفُ يَدُلُّ عَلَيْهِ بَعْضُ ما جاء بَعْدَها في الآية.

والتقدير: فبَشِّر المتقين بما جاء في القرآن من وعْدٍ بمُبَشّرات، وأَنْذِرْ قَوْماً لُدّاً بما جاء في القرآن من وَعِيدٍ بِمُنْذِراتٍ يوم الدّين، ورُبّما مُعَجّلَاتٍ أيضاً في الدُّنيا، فَإنَّما يَسَّرْناهُ بِلَسَانِكَ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينَ، لِتَقُومَ بِوَظَائِفِ رِسَالَتِكَ ومِنْهَا التبشِيرُ والإنْذَار.

ويُلْحَقُ بالرَّسُول في هٰذا حَمَلَةُ رِسالَتِهِ ومُبَلّغوها مِنْ أُمّتِه.

- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾: أي: فإنّما يَسَّرْنَاهُ باللّسَانِ العربيّ

الْمُبِين، الذي هو لُغَتُكَ الّتي تَنْطِقُ بها يا مُحمَّد، وتُعَبِّرُ عمَّا في نَفْسِكَ بحُرُوفها وكَلِمَاتها وجُمَلِها وأساليب بيانها.

وقَدْ اختار اللَّهُ اللُّغَة الْعَرَبِيَّةِ، والرَّسُولَ الْعَرَبِيَّ الَّذِي هُوَ خَاتَمُ الأنبياء والْمُرْسَلِينَ، لإنْزَالِ كِتَابِهِ الْمُبِينِ الخاتِمِ لِلْكُتُبِ الَّتي أَنْزَلَها على رُسُلِهِ السَّابقينَ بأَلْسِنَتِهِمْ، والْمُعْجِزِ في مَبَانِيهِ وَفي مَعَانِيه، فاللِّسَانُ العربيُّ قَابِلٌ لِتَفَاضُلِ أَسَالِيبِ الْبَيَانِ فِيهِ إلىٰ حَدِّ الإعْجاز، مع تَيْسِيرِه للناطِقِينَ باللِّسَانِ الْعَرَبيّ.

«إِنَّمَا» أداة حَصْرٍ وقَصْر.

﴿يَسَّرْنَٰهُ﴾: أي: يَسَّرْنَا الكِتَابَ الَّذِي هو القرآن، والذي جاء ذِكْرٌ لَهُ في السُّورةِ في عِدَّةِ مواضع، سبَقَ ذِكْرُها آنفاً.

والمرادُ بِتَيْسِيرِ القرآن عدّة أمور:

(١) تلْيِينُهُ للناطِقِ العربي، وتَسْهِيلُهُ للحفظ والذِّكْر، وهٰذِه ظَاهِرَةٌ مَشْهُودَةٌ في الْمُسْلِمِين، إذْ يَحْفَظُهُ الملايين من المسْلِمين ذُكُوراً وإناثاً، في كُلّ بقَاعِ الأرض، بخلاف سائر الكتب السابقة، فلا حُفَّاظ لها، أو حُفَاظُها نادِرُونَ جدّاً، إذْ لاَ نَجِدُ مَنْ يَتْلُوها مِنْ حفظه وذاكِرَتِه من المنْتَمِينَ إليها دِينيًا، وهم أَئِمَةٌ في أديانِهم.

(٢) وتَسْهِيلُهُ لِلْفَهْمِ بِمُسْتَوَيَاتٍ تُلَائم قُدراتِ الْفَهْم عِنْدَ النّاس، إذْ كُلٌّ مِنَ النَّاطِقينَ بالْعَرَبِيَّةِ الفصيحَةِ يَفْهَمُ مِنْهُ على قَدْرِهِ إدْراكاً واسْتِيعَاباً، وهٰذا الْقَدْرُ يَنْفَعُهُ في معرفَةِ أُصولِ دِينِهِ، وكُبْرَيَاتِ الأحْكَام التَّكْلِيفِيَّة فيه، وما فيه من حَثٍّ على مكارِمِ الأَخْلاق ومَحَاسِنِ الشِّيَم، إذا كان من الَّذِينَ يَتَعَهَّدُونَ الْقُرْآنَ بالتِّلاوَة.

وقد أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) قولَه:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾:

وقد جاءَتِ هذه الآيَةُ مُكَرَّرَةً في سورة (القمر) أَرْبَعَ مَرَّات، على شَكْلِ فواصِلَ بَيْنَ مَقَاطِعَ مِنها.

وتَيْسِيرُ القرآن للذّكْرِ يَسْتَلْزِمُ عَقْلاً تَيْسِيرَهُ للحفْظِ، وَتَيْسِيرَهُ لِفَهْمِ مَا يَحْتَاجُ الإنْسَانُ العادِيُّ أَنْ يَفْهَمَ مِنْهُ لأمُورِ دِينِهِ الْأَسَاسِيَّة.

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عزّ وجلَّ قَوْلَهُ في سورة (الدُّخَان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول) خطاباً لِرَسُولِه محمّد ﷺ:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: يَسَّرْنا القرآن بلسَانِكَ العربيّ المبِينِ يَا مُحمّد، رَغْبَةً في أَنْ يَتَلَقَّاهُ العربُ الناطِقُون بِلِسَانِكَ، فيتفَهَّمُوا مَعَاني آياتِه، ويَحْفَظُوها، وَيَتَذَكَّرُوها عند المناسبات الدَّاعيات، فإذا تَذَكّرُوها وهُمْ مُؤْمِنُونَ عَمِلُوا بها، وكانوا دُعاةً لها في النَّاس أجْمَعِينَ، معَ مَنْ يُؤْمِنُ ويُسْلِمُ مِن الشعوب الأخرى غير أهل اللّسَان العربي.

• ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: أي: لِتُخْبِرَ بمَا جاء فيه مِنْ وَعْدٍ كريم من اللَّهِ عزّ وجلّ يُفْرِحُ وَيَسُرّ.

يُقَالُ لغة: «بَشَّرَهُ يُبَشِّرُهُ» أي: أَخبَرَهُ بمَا يَسُرُّهُ، وَيُفْرِحه، وهذا التبشيرُ خاصٌّ بالمتقين.

«**المتقُون**»: عنوانٌ يَشْمَلُ كلَّ مَنْ لَدَيْهِمْ مِقدارٌ ما مِنَ التقوى، من أَدْنَىٰ دَرجاتِ التَّقوى، وهي الّتي يكونُ بِهَا النَّجاةُ من الْخُلُودِ في العذاب في الدَّارِ المعدّة لتعذيب الكافرين والْعُصَاةِ من دُون الكفر. إلى أعْلَىٰ دَرَجاتِ التقوى، وهي الّتي يَكُونُ بها الخلاصُ من استحقاقِ العقاب على تَرْكِ مَا أوجَبَ الله، وفِعْلِ مَا حَرَّمَ الله، فَقِمَّةُ التَّقْوىٰ تكُونُ بِفِعْلِ الواجباتِ وتَرْكِ المحرَّمَات.

ويَدْخُلُ في عُمُومِ المتَّقِينَ أَهْلُ مَرْتَبَةِ الْبِرّ، الَّذِين يتَوَسَّعُونَ في فِعْلِ الخيراتِ من النَّوافل، وفي تَرْكِ المكرُوهاتِ وغَيْرِ المستحبَّات، الَّتي يَرْغَبُ الباري في تَرْكها دُون أن يُحَرِّمها.

وَيَدْخُلُ في عموم المتقين أيضاً أهل مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، أعْلَىٰ مراتب المؤمنين، وهم الَّذِين يَعْبُدُونَ اللَّهِ بإحْسَانٍ كاملٍ كأَنَّهُمْ يَرَوْنه.

لأنَّ الأبرارَ مُتَّقُونَ وَزِيَادَة، ولأنّ المحسنين مُتَّقُونَ وأبْرَارٌ وَزِيَادة. وكُلُّ ما هُو رُكْنٌ أو شَرْطٌ للمرتَبَةِ الأدْنَىٰ، هُو رُكْنٌ أو شَرْطٌ لِلْمَرْتَبَةِ الْأعلى.

• ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾: أي: ولتُنْذِرَ بما جاء في القرآنِ من وَعيدٍ أنْذَرَ به المجْرِمينَ الكافِرين المكَذّبين لَكَ والمكذبين بِما جئت به عن ربّك.

«الإنْذار»: هو الإعْلَامُ والإخبارُ بعَواقِبَ غَيْرِ سَارَّةَ، كَشَرٍّ قَادِمٍ، أَوْ عُقُوبَةٍ علَىٰ مُكْتَسَبٍ إرادي، من اعتقاد أو قولٍ أو عَمَل.

والتَّحْذِيرُ مِنْ أَمْرٍ مَخُوفٍ منه، مَادِّيٍّ أو مَعْنَوِيٍّ.

يقالُ لغة: «أَنْذَرَهُ يُنْذِرُه» أي: أعْلَمَهُ بأمْرٍ مُتَوَقَّعِ الحدُوثِ، وفيه مَكْرُوهٌ له، لِيُخَوّفَهُ منه، فيَحْذَرَ الوقوعَ فيه.

• ﴿قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾: «الْقَوْمُ»: هم الجماعَةُ من النّاسِ الّذِين تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةٌ يَقُومونَ لها، ذُكوراً وإنَاثاً.

وقد يُسْتَعْمَلَ لفظ «القوم» للدَّلَالَةِ على جماعة الذكور فقط، ومنه قول الشاعر العربي زُهَيْر:

وما أدْري وسَوْفَ ـ إخَالُ ـ أَدْرِي ... أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِسَاءُ

**إخَالُ**: جُمْلة مُعْتَرِضَة بَيْنَ «سَوْف» و«أَدْرِي».

• ﴿لُدًّا﴾: جَمْعُ «أَلَدّ» وهُوَ ذُو الْخِصَام الشَّدِيد، المكابِرُ المعاند، الّذِي لَا يَلِينُ قَلْبُهُ لِلْأَدِلَّةِ الكافِيَةِ للإقْنَاع، وَلَا تُجْدِي معَهُ وَسَائِلُ التَّرْغِيبِ فيما تَرْغَبُ فيه النُّفُوسُ مِنْ وُعُودٍ آجِلَة، وآخِرُ وَسِيلَةٍ يُمْكِنُ اسْتِخْدَامُهَا معه الإنْذَارُ بالْمُرْهِباتِ الآجِلَاتِ إلىٰ يَوْم الدّين، وبالمرْهباتِ العاجلاتِ الّتي يُمْكِنُ أنْ يَقْضِيَ اللّٰهُ بها، كما قَضَىٰ فَأَهْلَكَ المجرمين الظالِمينَ الْفَجَرَة من كُفّار القرون السَّالفَة.

فالْقَوْمُ اللُّدُّ: هُمُ الكَفَرَةُ المعانِدُونَ المكابِرُون بالباطل، المجادِلُون المخاصِمُونَ بشِدَّةٍ وعُنْفٍ وفجور، ومن أمثلَتِهم في الجاهليّة، أبُو جَهْل، والْوَلِيدُ بْنُ المغيرة، وأبُو لَهَبٍ وامْرَأتُهُ حمَّالَةُ الحطَب.

إنَّ آخِرَ وَسيلَةٍ لِمُعَالَجَةِ الْقَوْم اللُّدّ، قَبْلَ إنْزَالِ العقابِ بهم، هي وسِيلَةُ الإنْذَارِ بالعذاب الَّذي سَيَنْزِلُ بهم، إذا أصَرُّوا على مواقف الجحود والكُفْرِ والعناد والمكابرة بالباطل.

قول الله عزّ وجل:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

بهٰذه الآية خَتَمَ اللّٰهُ عزّ وجلّ السُّورة، وهي تتضَمَّنُ احْتِمالَ إهْلَاكِ الكافِرِين اللُّدِّ من مُشْرِكي مَكَّة إهلاكاً عقابيًا جماعيًا مُعَجَّلاً في الحياة الدُّنيا، قَبْلَ يَوْم القيامة، مع ما سَوْفَ ينالُونَهُ من العذابِ الْأَكْبَر يوم الدّين.

وإهلاكُهُمُ المعجَّلُ هو نظير إهلاك الله لكثيرٍ من مُجْرمي القرون السالفة، بسَبَب كُفْرهم، وإصْرَارِهِمْ على جُحُودِ الحقّ الرَّبَّانيّ، وجدالهم بالباطل، لِيُدْحِضُوا به الحقَّ، وبِسَبب مَعْصِيَتِهِمْ رُسُلَ ربِّهم، وفَسَادهم وإفسادِهم في الأرْض، وبَغْيِهِمْ وطُغْيَانهم.

ولَمْ يُواجِهْهُم اللّٰهُ بالخطاب في هذه الآية، إنَّما تَحَدَّثَ عَنْهُمْ

بأسْلُوب الْحَدِيث عن الغائب، لأنَّهُمْ مُدْبِرُونَ عَنِ الحقّ، وعَنْ دُعَاةِ الحقِّ من الدَّرَكَةِ الْقُصْوَىٰ.

«الْقَرْنُ»: هو من الناس أهل زمانٍ واحدٍ، والجمع «قُرون».

«كَمْ» هذه هي «كَمْ» الخبَرِيَّة، وهي كنايَةٌ عن عَدَدٍ كثيرٍ مُبْهم، وهي في محلّ نَصْبٍ على أنها مَفْعُولٌ به لفِعْل ﴿أَهْلَكْنَا﴾ أي: كَثِيراً مِنَ الْقُرُونِ أهْلَكْنَا.

وعبارة: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تَمْييزٌ لإبْهام «كَمْ» مُبَيّنٌ لها.

والواو في: ﴿وَكَمْ﴾ عَاطِفَةٌ علىٰ الجملَةِ السابقة لها، أو هِيَ واو الحال.

• ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾: أي: هَلْ تُحِسُّ بِبَصَرِكَ أو بِلَمْسِكَ أحداً من القرون السّابقة، الّذِين أهلَكَهُمُ اللَّهُ إهلاكاً شاملاً بسبب كُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِم وإفسادهم في الأرض؟

**والجواب**: لَا أُحِسُّ منْهُمْ من أحد.

فهو استفهامٌ تَقْريريٌّ لانتزاع الإقرار بأنَّهُ لا وُجُود لأحَدٍ منهم، مع وجود بعض آثارهم، فقد أهْلَكَهُمُ اللَّهُ وأفناهم، ولم يُبْقِ لهم أثراً.

• ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي: أو تَسْمَعُ لهم صوتاً خافتاً خفيًّا.

«الرِّكْزُ»: هو في اللُّغَةِ الصَّوْتُ الخفيُّ.

والمعنىٰ: أنَّ إهلاكَهُمْ قَدْ كانَ إماتَةً، وإفناءً، فلا تُحِسُّ يَا مَنْ له إحْسَاسٌ دَرَّاكٌ أحداً مِنْهُمْ، ولا تَسْمَع يَا مَنْ لَهُ سَمْعٌ مُرْهَفٌ، أيَّ صَوْتٍ خفي لأحَدٍ منهم.

هذا الاستفهام التقريري مُوجَّهٌ لكلّ صالحٍ لمثلِ هذا الخطاب.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر هذا الدرسِ الأخير من دُرُوس السورة، وانتهىٰ تَدَبُّر سورة (مريم).

والحمد لله على معونته، ومَدَدِهِ، وتَوْفيقه، وفَتْحه.



## ملاحق لتدبُّر سورة (مريم)

**الملحق الأول**: مستخرجات بلاغية من السورة.

**الملحق الثاني**: جنَّاتُ عَدْنٍ ومستحقُّوها في الدلالات القرآنية.



# (٢٢)
# الملحق الأول
# مُستَخرَجات بلاغيّة مِنْ سُورَة (مريم)

تشتمل سورة (مريم) على نفائس بلاغيّة متَعدّدة، أُقَدِّمُ منها في هذا الملحق المستخرجات التاليات:

## أوّلاً:

في هذه السورة أمثلة متعدّدة من الإيجاز، وهو في اصطلاح البلاغيين: التعبير عن المراد بكلامٍ قَصِيرٍ ناقص عن الألفاظ الَّتي يُؤَدَّىٰ بها عادةً في متعارف الناس، مع وفائه بالدّلالة على المقصود، وهو قسمان: إيجازُ القِصَر، وإيجاز الحذف.

- ومن أمثلة إيجاز الحذف في سورة (مريم) ما يلي:

(١) في قول الله عزّ وجلّ:

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾.

في هذه الآية من الإيجاز حَذْف المبتدأ في: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾ لسهولة استخراجه بأدنَىٰ تأمل، والتقدير: هٰذا ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبّكَ عَبْدَهُ زَكريّا.

(٢) في قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣﴾.

«إِذْ» ظرف زمان والعامل فيه محذوف، والتقدير: أذْكُرْ إذْ نادىٰ زَكَرِيّا رَبَّهُ نداءً خَفِيًّا، بمعنى: ضع في ذاكرتِكَ أيّها المتلَقِّي الصالح للخطاب قصَّة زكريّا....

ونظائر هذا الحذف كثيرٌ في القرآن المجيد.

(٣) في قول الله عزّ وجلّ بشأن الكافرين:

﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا ... ۝٣٨﴾.

أي: وأبْصِرْ بهم، حذفت عبارة «بِهِمْ» لدلالة ما قبلها عليها، ومثل هذا الحذف سهْلُ الإدراك.

وهذا النوع من الحذف يسمّىٰ «الاكتفاء».

(٤) ومن الإيجاز بالحذف حذْفُ حرف من الكلمة يجوز في العربيَّة حذفها، ومنه في هذه السّورة لداعٍ بلاغي:

﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ۝٦٧﴾.

جاء في هٰذه الآية حذْف النون من «يَكُنْ». والداعي البلاغيّ الإشعار بأنّ مَنْ كان مَعْدُوماً في الواقع يحْسُنُ أنْ يُوجِزَ الحديث عنه في اللّفظ، إذا كان الحَذْف جائزاً لغةً.

وهذا النوع من الحذف يسمَّىٰ «الاقتطاع».

(٥) ومن الإيجاز بالحذف على طريقة «التضمين» وهو تضمين كلمةٍ

معنَىٰ كلمة أخرى، وجَعْلُ الكلام بَعْدَها مبنيًّا على الكلمة غيْر المذكورة.

قول الله عزّ وجلّ بشأن مريم عليها السلام وحملها بعيسىٰ عليه السلام:

﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾.

«انْتَبَذَتْ»: أي: اعْتَزَلَتْ نَاحِيَةً وانصرفت إلى ناحية أخرى، وهذا الفعل لا ينصب مفعولاً به، لكنْ ضُمِّنَ معنى فعل: «اختارت» أو «حَلَّتْ» فَعُدِّي تعديته.

والتقدير: فانتبَذَت بِه مختارةً أو حالَّةً مكاناً قَصِيًّا.

وهذا التضمين الإيجازي من نفائس القرآن المجيد.

(٦) ومن الإيجاز بالحذف على طريقة «التضمين» أيضاً:

ما جاء في العبارة المحكيَّةِ عن إبراهيم عليه السلام:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾.

كلمة: «أغنى يغني» هي بمعنى: «كفىٰ يكْفِيْ» يُقَال: أغناه: أي: كفاه، ومعلومٌ أنّ الكفاية عند الحاجة إلى ما يَدْفعُ المكروه تتضمَّن معنىٰ الصَّرْف والكفّ، فَضُمِّنَ فعلُ ﴿يُغْنِى﴾ معنى فعل «يَكُفّ» أو «يَصْرف» فَعُدِّيَ تَعْدِيته، وفق قاعدة «التضمين» فصار المعنى:

لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَكْفيكَ ولا يَصْرِف عَنْكَ شيئاً تكْرَهُه.

(٧) ومن الإيجاز البديع إيجازُ القِصَر، ومن إيجاز القِصَر اسْتِخدامُ العبارة بمعْنَيَيْن أو أكثر، إذا لم يكن بين المعاني تعارض، ومنْهُ التعبير القرآني في السورة عن قولِ قومِ مَرْيم لها حين جاءت بوليدها عيسَىٰ تَحْمِلُه:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَرِيًّا﴾: أي: أمراً عجيباً مُسْتَغْرَباً.

والذي يظهر أنّ قوم «مريم» عليها السلام كانوا فريقين:

**الفريق الأول:** يُبرِّئُها من الفاحشة، ويتعجَّبُ من الظاهرة نفسها.

**الفريق الثاني:** يتَّهِمُها، ويتعجَّبُ من سقوطها في الفاحشة، وهي القانتة الناسكة المتعبّدة.

فجاء في القرآن استخدام عبارة ﴿جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ صالحة للدّلالة على المعنَيَيْنِ معاً، أي: قال الفريق الأول: لقد جئتِ شيئاً عجيباً مستَغْرباً، ونَحْنُ نعلم عفافَك وطهارَتَكِ. وقال الفريق الآخر: لقد جئت شيئاً عَجِيباً مستغرباً، أَنْ يقع مثْلُكِ في فاحشة الزنى، ومَعْلُومٌ أنَّكِ غير ذات زَوْج.

جواز استخدام اللّفظ بمعْنَيَيْن أو أكثر، إذا لم يكن بينها تعارض، هو ما ذهب إليه معظم علماء الأصول: «المالكية والشافعية والحنابلة».

**أقول:** وهو الذي تشْهَدُ له نصوصٌ قرآنية متعدّدة.

**ثانياً:**

الإطناب، وهو في اصطلاح البلاغيين، كوْنُ الكلام زائداً عمَّا يُمْكِنُ أنْ يُؤَدّىٰ به من المعاني في مُعْتاد الفصحاء، لفائدة تُقْصد، وهو ينْقِسم إلى قسمين: إطناب بالْبَسْط، وإطناب بالزّيادة.

وللإطناب بالزيادة (١٥) طريقة.

(١) ومنها طريقة: «التوكيد» بمؤكداتٍ لفظيّة، ومنها في السورة، ما حكاه الله عزّ وجلّ عن قول زكريا عليه السلام في ندائه لربّه:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ... ﴿٤﴾﴾.

جاء في هذا الدُّعاء توكيد الخبر فيه بمؤكّدين: «إنَّ - والجملة الإسمية» مع أنّ الله عزّ وجلّ أعْلَم به من نفسه، فكيف يؤكد الخبر في دعائه لربّه.

**أقول:** لمّا كان الغرض من الخبر الذي اشتمل عليه الدعاء استعطافَ رَبّه واسْتِرْحامه، صحَّ أن يُؤَكّد زكريّا عليه السّلام شدّة اسْتِرْحَامه واسْتِعْطافِه رَبّه، فَهُو يُؤَكِّدُ الدُّعَاءَ المرادَ بعَرْض الخبر.

والاسترحام والاستعطاف هنا هو لازم الإخبار بأنّ عظْمَهُ قد وَهَن، وأنّ رأْسَهُ اشتعل شيباً، وفي الدُّعاء يحْسُن التوكيد، لأنّه بمثابة الإلحاح فيه.

(٢) ومن طرائق الإطناب: «وضع الاسم الظاهر موضع الضمير» لداعٍ أوْ أكثر من الدواعي البلاغية، ومن هذه الطريقة في السّورة، قول اللَّهِ عزّ وجلّ بشأن النصارى الذين اختلفوا في حقيقة عيسَىٰ عليه السلام:

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

كان الظاهر أن يُقَال: «لكنّهُمُ اليومَ في ضَلَالٍ مُبِين» لكنّ النَّصّ جاء على خلاف هذا، إذْ وُضِعَ الاسْمُ الظاهر: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بدَلَ الضمير. والداعي البلاغيّ الإعْلامُ بأنّ الكافرين يَدْخلون في عموم الظالمين.

(٣) ومن طرائق الإطناب التوكيد بضمير الْفَصْل، ومنها في السُّورة، ما حكاه اللَّهُ عزّ وجلّ عن قول أبي إبراهيم عليه السلام له:

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ ... ﴿٤٦﴾﴾.

هذا تعبير قرآنيٌّ عمَّا قَالَهُ الأَبُ الوَثنيّ الكافر، لابْنِهِ النبيّ الرسول إبراهيم عليه السّلام.

لَقَدْ كان يَكْفِي أن يَقُول: «أراغبٌ عن آلِهَتِي يَا إبراهيم» من غير إضافة ضمير الفصل: «أَنْتَ».

ونَسْتَطيع أن نفهم أنّ هذا الإطناب الذي جاء في التعبير القرآني، له غَرضٌ بلاغي، وهو أنَّ الأبَ كان يُريد إشعارَ ابْنِه إبراهيم، بأنّ من المسْتَغرب منه وهو البارُّ الحريصُ علَىٰ برّ أبيه، أنْ يَرْغَبَ عن عبادةِ آلِهَتِه، ويَسْلُكَ سبيلاً أخر، أي: مثْلُكَ لَا يَفْعَلُ هذا.

(٤) ومن الإطناب بالْبَسْط، ما جاء في التعبير القرآنيّ حكايَةً لِقَول جبريلَ عليه السّلام للرَّسُول ﷺ:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾.

كان يُغْنِي عن عبارة: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ عبارَةٌ أقْصَرُ مِنْهَا، لَيْسَ فيها هذا الْبَسْطُ الإطنابيّ، كأَنْ يَقُول: «لَهُ ما في السَّمَاوات ومَا في الْأَرْض» أو عبارة نَحْوَها أَوْ أقْصَر منها.

لكِنَّ الداعِيَ الْبَلَاغِيَّ لهذا الإطناب، أنَّ هذا التفصيل في العبارة يُلائِمُ حَرَكَةَ التَّنَزُّل والصُّعُودِ وَسَائِرَ تَحَرُّكات الملائكة، وأَنَّ أوامِرَ اللَّه عزّ وجلَّ لَهُمْ تَشْمَلُ كلَّ حركةٍ يَقُومون بها، إذْ لَهُ ـ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ كلُّ ما أمامهم، وكلُّ ما خَلْفَهُمْ، وكُلُّ مَا بَيْنَ ذَلِك، وهم لا يَمْلِكُونَ أنْ يتحَرَّكُوا حَرَكَةً في كُلِّ هٰذه المواقع إلَّا بأمْرِه أو إِذْنِه.

**ثالثاً:**

ومما جاء في السورة من البلاغيات الْقَصْر لدواعٍ بلاغية أو فكريَّة، وهو تخصيصُ شيءٍ بشَيْءٍ بعبارةٍ كلاميَّةٍ تَدُلُّ عَلَيْه.

ومن أمثلة القصْر في هذه السورة ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ حكايَةً لمقالة جبريل عليه السّلام للرسول محمّد ﷺ:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ... ﴿٦٤﴾﴾.

أي: وَمَا نَتَنَزَّلُ نحن الملائكة حيناً فحيناً آخر، أو ثُمَّ حيناً آخر، بتَمَهُّلٍ وأَنَاة إلَّا بأمْرِ رَبّك.

في هٰذه العبارة قصْرٌ لِتَنَزُّلِ الملائكة من مواقعها في السَّمَاوات إلى الأرض علىٰ أحوال تَوجيه الأمْر بالتَّنَزُّلِ، فَهُمْ بسَبَبِه يَتَنَزَّلُون.

وهذا قَصْرٌ حقيقيّ، لأنّ الملائكة لا يَعْصُون الله ما أمَرَهم، وهم يفْعَلُونَ ما يأمُرُهم به.

وهو من قَصْرِ مَوْصُوف وهو «تَنَزُّلُهُمْ» على صفةٍ، وهِيَ الأمْرُ الرَّبَّانِيُّ لهم.

وأداة القَصْر هنا: «النفي» و«الاستثناء».

(٢) قول الله عزّ وجلّ خِطاباً للنَّاسِ بشَأْنِ جَهَنَّمَ:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾.

أي: وما مِنْكُمْ مِنْ أحدٍ يا أيُّها النّاس إلّا واردٌ جهنَّمَ وُرُودَ دُخُولٍ، أو وُرُودَ إشرافٍ بمُرُوره على الصراط المضروب على مَتْنِها.

وهو قَصْرٌ إضَافي، أي: وما أَحَدٌ منكُمْ أيّها الناس إلّا لَهُ صفة الورود علىٰ جهنَّمَ يوم الدّين.

وهو من قَصْرِ موصوفٍ على صفة هي صفة الورود على جَهَنَّم، بالإضافَة إلى صفةِ عدم الورود عليها، لا بملاحظة كلّ ما يمكن أنْ يُتَصَوَّرَ مِنْ صفات للناس.

وأداة القصر هنا النفيُ بـ«إِنْ» والاستثناء بـ«إِلَّا».

(٣) قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾.

في هذه العبارة قَصْرُ كلِّ مَنْ في السَّماوات والأرض، على أنّه سَوْف يأتي يوم القيامة الرَّحْمٰنَ عبداً معترفاً بِعُبُودِيّتِهِ له.

وهو قَصْرٌ إضافي، أيْ: بالإضافة إلى ما يخالف العبوديَّة لله، وهو من قصر موصوف على صفة.

وأداة الْقَصر هنا النفيُ بـ«إِنْ» والاستثناء بـ«إِلَّا».

(٤) قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسُوله بشأن القرآن؛

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾.

في عبارة: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ قَصْرُ تَيْسِير القرآن على كونه بلسان محمّد ﷺ، وهي العربيَّة الفصيحة.

وهو قصرٌ إضافيّ، أي: بالإضافة إلى الألْسِنَة الأخرى غير العربية، وهو من قَصْرِ موصُوفٍ على صفة.

وأداة القصر هنا: «إِنَّمَا» الَّتي تنحَلُّ في معناها إلى نفي واستثناء.

**رابعاً:**

وممّا جاء في السورة من بلاغيّات، خرُوجُ الاستفهام عن أَصْل دلالته، الّتي هي طلبُ الإفْهَام والإعلام إلى معانٍ أخرى، ما يلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾.

الاستفهام في: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لَيْسَ لطَلَبِ الإفْهام، بل هو هنا مستَعْمَلٌ مجازاً للإعْلَام بالمستَفْهَمِ عنه.

أي: اعلَمْ أيُّها المتَلقِّي الصالح لمثْلِ هذا الخطاب أنَّا أرْسَلْنا بسُلْطَانِ الرُّبُوبيَّة العامَّ، وبمقتضىٰ النظام العامّ للخلائق، الشياطين على الكافرين تَؤُزُّهم أزّاً، أي: تُغْرِيهم وتُهَيِّجُهم، وتُؤَجّجُ نيرانَ غضبهم، لمقاومة دعوة الحقّ الرَّبّانيَّة، واضطهاد أنْصَارِها، والعاملين على نَشْرِها (انظر تدبُّر الآية في موضعها من السورة).

**خامساً:**

وممّا جاء في السورة من بلاغيات: **«الاستعارة»** وهي في اصطلاح البلاغيين: استعمال لفظ ما في غيْرِ ما وُضِعَ له في اصطلاح بِهِ التخاطب، لعلاقة المشابهة، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الموضوع له في اصطلاح به التخاطب.

ومن أمثلة الاستعارة في سورة (مريم) حكاية اللّهِ عزّ وجلَّ لقول زَكَرِيَّا عليه السلام، إذ جاء فيها:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ... ﴿٤﴾﴾.

في عبارة: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ استعارةٌ أصلُها تشبيهُ انتشار الشيْبِ في شَعْر الرَّأس، باشتعال النار في الهشيم، وقد اسْتُعِيرَ فعل: «اشْتَعَلَ» للدّلالة على معنى فعل «انْتَشَرَ» مع إضافة صورة متخيَّلَة مأخُوذَة من لَهَب النار.

(ينظر باقي الكلام في تدبر الآية عند موضعها من السورة).

**سادساً:**

وممَّا جاء في السورة من بلاغيّات: **«الالتفات»** وهو من أنواع «الخروج عن مقتضىٰ الظاهر» عند علماء المعاني.

وهو في اصطلاح البلاغيّين: التحويلُ في التعبير الكلاميّ من اتّجاه إلى آخر من جهات أو طرُق الكلام الثلاث «التكلّم ـ والخطاب ـ والغيبة»

مع أنّ الظاهر في متابعة الكلام يقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وفْقَ الطريقة المختارة أوّلاً، دون التحوُّل عنها.

**أقول**: وهو أحَدُ فُنُون الحركة البديعة في أساليب البيان القائمة على المفاجأة في الحديث، دون مُقَدّمات تُشعِر بالتحوّل. ومن تأثيراتِهِ شدّ انتباه المتلَقّي بقُوَّة، وإيقاظُهُ من الغفلة.

ومن أمثلَتِهِ ما في قول الله عزّ وجلّ في هذه السورة:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾.

مقتضىٰ الظاهر أن يُقَال: «لقَدْ جاءُوا شَيْئاً إدّاً» فَعُدِلَ عن الغيبة إلى الخطاب بحركة مفاجئة، لتثريب أصحاب مقالة: «اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً» وقَرْعِهِم بمقْرَعَةِ التوبيخ.

﴿إِدًّا﴾: أي: شيئاً مُنْكراً شديدَ النَّكَارَةِ والشناعة ومصادمة الحقّ، فمن شِدَّةِ شناعَتِهِ لا تتحمَّل النفوس السّويَّة شدّة وقعه.

**سابعاً:**

ومن الفنون البلاغيّة الرائعة: تقديمُ النّصّ اقتطاعاً من الحدَث الماضي، أو من الحدَثِ المستَقْبَلِيّ الّذي سيَحْدث، أو سوف يحدُث، لإحضار الصُّورة نَفْسِها مُفَاجأةً، كأنّ الحدَث يجْري مع الخطاب البيانيّ عنه.

وهذا الْفَنّ هو من بدائع القرآن البيانيّة، الّتي لم يَعْرِفْهَا الْبُلَغاء من قَبْل القرآن المجيد.

ومنه في السورة، قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾.

وقول الله عزّ وجل:

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ ... ﴿١٢﴾﴾.

**ثامناً:**

ومن الفنون البلاغيّة: «الكنايَة». وهي في اصطلاح البلاغيين: اللّفظ المستعملُ فيما وُضِعَ له في اصْطلاح التخاطب، للدَّلالَة بِه على معنىً آخر لازم له، أو مصاحبٍ له، أو يُشَارُ به عادة إليه، لما بيْنَهما من الملابَسَةِ بِوَجْهٍ من الْوُجُوه.

وممّا جاء في السّورة من هذا الفنّ البلاغي ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجل بشأن الكافرين، حينما يأتون لحساب ربّهم يوم الدين:

﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ﴾: أي: ما أشَدَّ سَمْعَهم وما أشدَّ بَصَرَهُمْ يومئذٍ.

وفي مقابل كوْنِهم شديدي الأسْمَاع والأبصار في موقف حسابهم يوم الدّين، جاء في الآية التعبيرُ عن كونهم صُمًّا وعُمْياً في الحيَاة الدُّنيا عن الحق والخير والهُدَىٰ، بعبارة: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ فدَلَّت هذه العبارةُ بأسْلُوب الكناية وعن طَريق لوازمها الفكريَّة، على كونهم صُمًّا وعُمْياً، فَمَنْ كان في ضلالٍ مبين لا بُدَّ أَنْ يكُونَ أصَمَّ أعْمَىٰ عن صراط هدايته ونجاته وتخلُّصِه من ضلاله المبين.

والمرادُ: الصَّمَمُ عمَّا يَهْدِيهم إلى الحقّ والصّراط المستقيم، والْعَمَىٰ عن رُؤيَةِ الحقّ والصراط المستقيم ببصائرهم، فهُمَا صَمَمٌ وعَمًى قَلْبيَّان.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في معرض الحديث عن جهنَّم:

﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿صِلِيّٗا﴾: أي: احتراقاً بلَهَبِها.

أي: لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالّذِينَ هم أولَىٰ بجهَنَّم احتراقاً بنارها. وقد دَلّت هذه العبارة عن طريق الكنايَةِ بمُلَاحظة اللّوازم الفكرية، على أنّ اللَّهَ العزيز القهّار سوف يكُبُّ هؤلَاءِ في جَهنَّم، ويُوصِلُهم إلى الدَّركَاتِ الّتي يسْتَحِقُّون فيها عذاب الْحَريق، لأنّ عِلْمَ الله بالّذِينَ هم أوْلَىٰ بها صِلِيًّا ضمْنَ مجاري عَدْلِهِ الحكيم يوْمَ الدّين، يَسْتَلْزِمُ أنْ يَكُبَّهُمْ فِي جَهَنَّم ليحترقوا بلَهَب نيرانها.

**تاسعاً:**

ومن الفنون البلاغيّة النفيسة، ما يُسَمَّىٰ عند البلاغيّين: «**المجاز المرسل**»: وهو المجاز الذي تكون العلاقة فيه بيْنَ المعنىٰ الحقيقيّ والمعنى المجازيّ الّذي استُعْمِل اللّفظ للدّلالة به عليه أمراً غير المشابهة، أو قائماً على التوسُّع على اللُّغَة دون ضابط معيّن.

وقد جاء في السورة من هذا الفنّ النفيس ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ فيها بشأن الّذِينَ كَفَرُوا:

﴿... فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: فَعذَابٌ للّذِينَ كَفرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عظيم، هو يَوْم الدّين. أُطْلِقَ في هذه العبارة «مَشْهَدُ يومٍ عظيم» أي: حضورُه، وأريد بِهِ مَا يَحْصُل في ذَلِكَ اليوم من أنواع عذابٍ للكافرين، وأُطْلِقَ لفظ: «يوم» وهو ظرف زمان علَىٰ المكان الذي يجري فيه ذلك الزمان. والعلاقة في الإطلاق الأوّل: «الحاليّة والمحلّيّة». والعلاقة في الإطلاق الثاني: «الاقتران».

والعبارة كلُّها بوجْهٍ عامّ من الكنايات، إذ جاء فيها إطلاقُ الحدَثِ، وهو «الشهود» على ما يلْزَمُ عنه من أمورٍ وأحداثٍ أخرىٰ، أو عمّا يقترنُ به.

(٢) قول الله عزّ وجلَّ فيها بشأن الذين جاءوا بعد الأنبياء والرُّسل السَّابقين، من ذراريهم، ومن ذراري أتباعهم:

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾.

«الغَيّ»: يَأْتي في اللُّغة بمعنى: الضلال، وبمعنَىٰ الفساد، وبمعنىٰ الخيْبَة، وعلى هذا المعنى الأخير ليس في العبارة مجاز.

لكن على مَعْنَيَيْ: الضلال، والفساد، نُلَاحظ أنّه أَطْلِقَ الغيُّ وأُرِيدَ بِه جزاءُ الغَيّ، وهذا من المجاز المرسل، وعلاقته: «السّببيَّة والمسَبَّبِيَّة».

فالغيُّ سببٌ، والعذابُ مُسَبَّبٌ عنه.

(٣) قول الله عزّ وجلّ:

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾﴾.

أَطْلِقَ الْوَعْدُ في هٰذه الآيَةِ وأُرِيد به الموعُودُ به، وهذا من إطلاق السبب وإرادة المسبّب، فهو من المجاز المرسل.

(٤) قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ ... ﴿٧٥﴾﴾.

أُطْلِقَتْ في هٰذه الآيَةِ عبارةُ: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾ طلباً من الله، والمراد بها التهديدُ والتحذير، والوعيد بسُوء المصير لمن كان في الضلالة، وهذا الْإِخراج للفظ عن أَصْل دلالته من المجاز المرسل.

(راجع تدبّر النصّ في موضعه من السورة).

**عاشراً:**

ومن الفنون البلاغيّة التي جاءت في السُّورة مَا يُسَمَّىٰ عند البلاغيّين: «المجاز العقلي» وهو إسناد المتكلم الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في اعتقاده، لملابَسَةٍ بَيْنهما، مع قرينَةٍ صارفة.

إذْ قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾.

جاء في الآية (٩٠) من هذا النّصّ إسناد أفعال: «تَكَادُ - يَتَفَطَّرْنَ - تَنْشَقّ - تَخِرُّ» إلى غير الفاعل الحقيقي، على طريقة المجاز العقلي.

والذي نَفْهَمُه من النَّصّ ما يلي:

تكادُ إرادة الله عزّ وجلّ تُفَطِّرُ السَّمَاواتِ فيَتَفطَّرنَ، وتُشَقِّقُ الأرضَ فَتَنْشَقُّ، وتُكسِّرُ الجبالَ فتَخِرُّ هَدّاً، غَضَباً علَىٰ مَنْ زعمَ أنَّ الله سبحانَهُ اتَّخذ ولَداً.

وعلاقة المجاز العقلّي هنا أنّ هذه الأشياء محَلٌّ تنفيذ إرادة الله بالتفطير والتشقيق، والخرور، لو شاء ذلك.

لكنّ الله عزّ وجلّ لم يشأ ذلك، بلْ كادَتْ مشيئته تتحقق، لولا أنّ رَحْمَتَه سبقَتْ غضبه، وأنّ حِكْمَتَهُ السّنيَّة قَدْ قَضَتْ بإمْهالِ أصْحاب هٰذه الفِرْيَةِ عَلَيْهِ من عباده.

## حادي عشر:

ومن الفنون البلاغية المستعذبة، اختيار البدائل من الألفاظ مُراعاةً لمَا هو أكثر وقعاً في الأسماع، وتأثيراً في النفوس، ومن هذا الفنّ في السورة، ما في قول الله عزّ وجلّ:

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾.

جاء في هذه الآية استعمالُ فعل: «يَتَفَطَّرْنَ» بالنسبَةِ إلَىٰ السماوات، واستعمال فعل: «تَنْشَقُّ» بالنسبة إلى الأرض، معَ أنّ معْنَىٰ الفِعْلَيْن واحد، والغرض من هذا الاختيار استبعادُ التكرار في اللّفظ، إذ التكرار غير

مستحبٌ في الأسماع، مع ما في هذا الاختيار من تفنُّنٍ بديعٍ في التعبير.

وأكتفي بهذا القدر مشيراً إلى أنّ كتاب الله لا تَنْتَهي عجائبُهُ مهما اجتَهَدَ المنَقِّبُون في استخراجها من بَحْرِه العظيم.



## (٢٣)
## الملحق الثاني
## جنَاتُ عَدْنٍ ومستَحِقُّوها في دَلالَاتِ النُّصُوص القرآنية

**المقدمة:**

جاء في القرآن المجيد (١١) نصًّا، فيها ذكْرُ جنَّاتِ عَدْنٍ، مع بعض وصْف لنعيم أهلها فيها، ودَلَالَاتٍ على مسْتَحِقِّيها من المؤمنين، ومعنى «جَنَّاتِ عَدْنٍ» جنَّاتُ ثَباتٍ واستقرارٍ دائم.

ولاكتشاف مُسْتَحِقّيها أخذاً مِنْ دَلَالَاتِ النُّصُوص القرآنيّة، يقْتَضِي الْبَحثُ الْعِلْمِيُّ منّا دِرَاسَةَ هٰذِهِ النُّصُوصِ بإمعان، لِنَعْرِفَ هل هذا الوصف «جنَّاتُ عَدْنٍ» وصْفٌ عامٌّ لكُلِّ دَرجَاتِ الجنَّةِ، من أدْناها حتَّىٰ أعْلاها في الفِرْدَوس الأعلى، أمْ هي في دَرَجَاتٍ مُتوسطاتٍ فَوْقَ الدَّرَجَاتِ الدُّنيا، ودُونَ الدَّرَجَاتِ العليا، وأهْلُ جِنَّاتِ عَدْنٍ هم من المتفوِّقين في دَرجَاتِ مَرَاتِب المؤمنين، أم غَيْرُ ذلك.

فإلى دِراسَةِ النُّصُوص القرآنيَّة الوارِدَةِ حَوْلَ هذا الموضوع، وفْقَ ترتيب نُزُولِ سُوَرِها:

**النصّ الأول:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (صٓ/٣٨ مصحف/٣٨ نزول):

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾

مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

سبَقَ تَدَبُّر هذا النّصّ في موضعه من سورة (ص) وكنْتُ رأيْتُ هُنَاك أنَّ عُنوان «جَنَّاتِ عَدْنٍ» عنوانٌ صالح التطبيق على كلّ دَرَجات المتقين، من أدناها إلىٰ أعْلَاها، أخْذاً مِنْ عُمُوم دَلَالَةِ عبارَة: [وَإِنَّ للمتَّقِين لَحُسْنَ مَآبٍ] في هذا النصّ، لكن بهذه الدراسة الشاملة اختلف رأيي.

**النصّ الثاني:**

قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾﴾.

وقَدْ سبَقَ تَدَبُّر هٰذا النصّ في موضعه من سورة (فاطر) وكُنْتُ رأيْتُ هُنَاكَ أنَّ عُنْوَانَ: «جنات عَدْن» عُنوانٌ خاصٌّ بمنازِلَ رفيعة من عُمُوم الجنَّة، وهو للسَّابقينَ بفِعْل الخيرات، بدَليل أنَّ أهْلَ جنَّاتِ عَدْنٍ يُحْلَّوْنَ فيها مِنْ أساور من ذهب.

أمّا غير السَّابقين بفِعْلِ الخيراتِ فقد جاء في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) بيان أنَّهُمْ يُحلَّوْنَ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ فيا بشأنِهِمْ:

﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾.

وجاء توكيدُ أنَّ السَّابِقِينَ بالْخَيْرَاتِ يُحلَّوْنَ في الجنَّة من أساوِرَ من ذهب فيما يلي:

(١) في الآية (٣١) من سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول).

(٢) وفي الآية (٢٣) من سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول).

ومعلومٌ أنّ أساور الذَّهَبِ أرْفَعُ قيمةً مِن أساور الفضّة، ولمّا كانت أساور الذَّهب موصُوفَةً بأنَّها لأهْلِ جنَّاتِ عَدْنٍ، وكانَ آخرون في الجنَّة يُحَلَّوْنَ بأساوِرَ مِنْ فِضَّة، كانَ هذا التفريق دَالًّا علَىٰ أَنَّ «**جنَّاتِ عَدْنٍ**» ذَوَاتُ دَرَجَاتٍ مُرْتَفِعَاتٍ، ودُونَها في عُمُوم الْجَنَّةِ دَرَجاتٌ أُخْرَىٰ لِغَيْرِ السَّابِقين بفِعْلِ الخيرات.

**النصّ الثالث:**

قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾﴾.

وقد سبَقَ تَدَبُّر هٰذا النَّصّ في مَوْضِعِهِ مِنْ سُورَةِ (فاطر) وكُنْتُ رَأيْتُ هُنَاكَ أنَّ جنَّاتِ عَدْنٍ يُورِثُها اللَّهُ من عبادِه مَنْ كان بَالغاً الدَّرَجاتِ الْعَالِيَاتِ في مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ، أخْذاً من عِبَارَةِ: ﴿مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ لأنّ لفظ «تَقِيّ» على وزْنِ «فَعِيل» هو من صِيَغِ المبالغة، وهذا اللفظ لَا يَنْطَبِقُ على المؤمنين العاديّينَ، الَّذِينَ لم يَرْتَقُوا في الدَّرَجاتِ الْعَالِيَاتِ مِنْ مَرْتَبَةِ التَّقْوى، بلْ هُو خاصٌّ بفِئَةٍ خاصَّةٍ من المتقين، ذَوِي الدّرَجاتِ الرَّفيعات.

**النصّ الرابع:**

قول اللَّهِ عزّ وجلَّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

أي: ومَنْ يأتِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَوْصُوفاً عِنْدَ رَبِّه بأنَّهُ كَانَ مؤمِناً صادق الإيمانِ في الحياة الدنيا، قد عَمِلَ الصَّالحاتِ، أي: على اختلاف أنواعها وأشكالها، الظاهرة والباطنة، وهذا يَنْطَبِقُ على مَنْ كان «تَقِيّاً» أي: بَالغاً الدَّرَجاتِ الرَّفيعات من دَرَجاتِ مَرْتَبَةِ التقوى.

﴿فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾: أي: الدَّرَجات الْعُلَا فِي دَرَجاتِ الجنَّةِ دَارِ نَعِيم المؤمنين.

وجاء تَفْسِيرُ هذه الدَّرَجاتِ الْعُلَا بِقَوْلِهِ تَعَالى:

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: فدَلَّ هٰذا البيانُ على أنَّ جنَّاتِ عَدْنٍ، تَقَعُ في دَرَجاتٍ عُلَا من عُمُومِ الجنَّةِ، وهي خاصَّةٌ بالسَّابقين في فِعْلِ الخيرات.

ويُؤَكِّدُ هذا قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في آخر النصّ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾: أيْ: جزاءُ مَنْ تَطَهَّرَ مِنْ أَرْجَاسِ المعاصِي والآثام، بوَسِيلَةٍ من وسَائِل التَّطْهِير، كالتَّوبة والاستغفار، وكالحجّ الْمَبْرُور، وكالاسْتِشْهَادِ في سَبِيلِ الله.

**النّصّ الخامس:**

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

فدَلَّ هذا النصّ على أن الملائكة حَمَلَة العرش، والملائكة من حوله

يدعُونَ رَبَّهُمْ أن يَغْفِر للّذِين تَابُوا من ذنوبِهم ومعاصيهم، واتَّبَعُوا سَبِيل رَبّهم بَعْدَ تَوْبتهم، أَنْ يقيَهُمْ عذابَ الْجَحِيم الّذِي استحقُّوهُ قَبْلَ أن يتوبُوا، وأنْ يَرْفَعَ دَرَجَاتِهِمْ في الجنَّةِ فَيُدْخِلَهُمْ «**جنَّاتِ عَدْنٍ**» ويُدْخِلَ مَعَهُمْ إكراماً لَهُمْ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائهم وأزواجهم وذُرِّيَّاتهم، أي: ولَوْ لَمْ يكونوا بأعمالِهم الخاصَّةِ من مُسْتَحِقي «**جَنَّاتِ عَدْنٍ**». وجاء في هذا النَّصّ دُعَاءُ الملائكة لهم بأنْ يَقِيَهُم اللَّهُ العِقابَ على السَّيِّئَاتِ الَّتي ارْتكبوها.

فما جاء في هذا النَّصّ يُؤَكِّدُ أنَّ «جَنَّاتِ عَدْنٍ» هي في دَرَجَاتٍ عالياتٍ مِنْ عُمُومِ الجنَّة، وأنَّ مُسْتحقيها هُمْ كُلُّ «تقِيٍّ» ارْتَفَعَتْ مَنْزِلَتُهُ بما قَدَّمَ مِنْ كَسْبٍ صالحٍ في دَرَجَاتِ التَّقْوىٰ الكامِلَةِ، وهذا يكون في الغالب من السَّابقين ـ ولو بِبَعْضِ الخيرات ـ في بَعْضِ درجات البرّ، أو بعض درجات الإحسان.

## النصّ السّادس:

قول الله عزّ وجل في سورة (الكَهْف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿مِّن سُندُسٍ﴾: أي: من نوعٍ من الثياب الرَّقيقة الناعمة المنْسُوجة من الحرير، وهي من أصناف الدِّيباج.

﴿ثِيَابًا﴾: أي: ومن نوع من الثياب الغليظة المنسوجة من الحرير أيضاً، وهي من أصناف الدّيباج أيضاً.

فدَلّ هذا النصّ على أنّ أهْلَ «جنَّاتِ عَدْنٍ» يُحَلَّوْنَ فيها من أساوِرَ

من ذَهب، بخلاف أهل درجاتٍ أدْنَىٰ في الجنَّة، فقد جاء أنَّهُمْ يُحَلَّوْن أسَاوِر من فضَّة، وجاء في هذا النَّص بَيَانُ أنّ مستَحِقّيها بفضل الله هم الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات المتعدّداتِ، وكانوا مِمَّنْ أَحْسَنُوا عَمَلاً، أي: مِمَّنْ لَهُمْ بَعْضُ أعْمالٍ هي من دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ المحسنين، فارْتَقَوا بها، حتَّىٰ صَارُوا مِنْ مُسْتَحِقّي «جَنَّاتِ عِدْنٍ».

وهذا النصّ يُؤَكّدُ أنَّ «جَنَّاتِ عَدْنٍ» هي في دَرَجَات عالِيَاتٍ من عُموم الجنّة، وأنَّ مُسْتَحِقِيهَا هُمْ كُلُّ «تَقِيٍّ» أو كانَ لَهُ تَعِويضَاتٌ عن تَقْصِيراته في مَرْتَبِةِ التقوى، وهذه التعويضات هي أعمال صالحة من دَرَجات مَرْتَبَةِ الإحسان، أو من درجات مرتبة البرّ.

**النصّ السابع:**

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: ويقالُ للّذِينَ اتَّقُوا بَعْدَ أنْ تَتَوَفَّاهُمُ الملائكَةُ طَيّبينَ: مَاذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ من بياناتِ دِينهِ لعباده على مُحمَّدٍ رسُول اللَّهِ إليكم؟ قالُوا: أنزل خيراً وآمَنَّا به واتَّبعناه.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾: دَلَّتْ هٰذهِ العبارة علَىٰ أَنَّ هؤلاء كانوا في الحياة الدُّنيا، من الذين لهم أعمال صالحات من دَرَجاتِ مَرْتبَةِ الإحسان، فَلَهُمْ في الدُّنيا من اللَّهِ حسَنَةٌ تَسُرُّهم وتُسْعِدُهم.

﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾: أي: خَيْرٌ مِنْ كلّ ما في الدّنيا من حسناتٍ مُسْعِداتٍ.

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: أي: ومَدْحٌ عظيم فائق لِدَارِ المؤمنين المتقين، كاملي التقوىٰ، بفِعْل كلّ الواجبات وتَرْكِ كُلّ المحرمات، أو مُكْتَسِبي حُقُوقِها، بالتعويضات عن التقصيرات والمخالفات، بأعْمَالٍ هي من حُقُوقِ مَرْتَبَةِ الْبِرّ، أو حُقُوقِ مَرْتَبَةِ الإحْسَان، أو بالتوبَةِ والاستِغْفَارِ، والأعمال التي هي مُكفّراتٌ وَمَاحياتٌ للسّيئات.

ودَارُ كاملي التقوىٰ هي: «جَنّاتُ عَدْنٍ».

﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: أي: ومِثْلُ جزاء المتقين من أمّةِ مُحمَّدٍ يَجْزِي اللَّهُ كامِلِي التَّقْوىٰ، مِنْ كُلّ أُمّةٍ ربّانِيَّة من أتباع الرُّسلِ قَبْلَ بِعْثَةِ محمَّدٍ، وَوُصُولِ بَلَاغاتِ رِسالَتِهِ الْخَاتِمة للموضعين في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان.

هذا النصُّ يتفِقُ في إيحاءات دَلَالَاته مع النُّصُوصِ المبيِّنَة أن **«جنّاتِ عَدْنٍ»** تَقعُ في دَرَجَاتٍ مُرْتَفِعَاتٍ في عُمُوم الجنّة.

**النصّ الثامن:**

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الرَّعد/١٣ مصحف/٩٦ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

نجد في هذا النصّ أنّ من صفاتِ الموعُودينَ بِدُخول «**جَنَّاتِ عَدْنٍ**» مَا هُوَ مِنْ حُقُوق «مَرْتَبَةِ التَّقْوى» كالْوَفاء بعَهْدِ الله، وعَدَم نَقْضِ الميثاق، وَوَصْل ما أمَرَ الله بِهِ أَنْ يُوصل، وإقامَةِ الصَّلاةِ المفروضة، وخَوْفِهِمْ من سُوءِ الحساب.

ونجد فيه من صفاتِهِمْ مَا هو من حقوق «مَرْتَبَةِ الْبِرّ» أو حقوق «مَرْتَبَةِ الإحْسَان» وهي أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ إجلالاً وتعظيماً وحُبًّا وخوفاً. وأنَّهُمْ صَبَرُوا ابْتِغاء وَجْهِ ربّهم، وأنَّهُمْ أنْفَقُوا ممَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ سِرًّا وعَلانية، وأَنَّهُمْ يَدْرَؤونَ بالْحَسَنَةِ السَّيِّئَة، ومَعْلُومٌ أنَّ حُقُوقَ مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ لَا تَمْنَعُ مِنْ مَقَابَلَةِ السَّيِّئَةِ بمِثْلِهَا ضِمْنَ قواعِدِ الْعَدْل.

إنّ هٰذه الصِّفاتِ الرَّفيَعاتِ الدَّرَجاتِ، قَدْ كُوفِئَتْ بِدُخولِ «جَنَّاتِ عَدْن» فَدَلَّ هذا أنَّ «جنّاتِ عَدْن» يسْتَحِقُّها المرْتَقُون في دَرَجاتِ الأعمال الصالحات، والسَّابِقُون بالخيراتِ بإذن الله.

وهذا يُؤَكِّدُ ما دَلَتْ عليه معظم النصوص السابقة دلالات واضحات.

**النصّ التاسع:**

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (البيّنة/ ٩٨ مصحف/ ١٠٠ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾:

إنَّ وَصْفَ هؤلَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بأنَّهُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّة، مع الإشارة إلَيْهِم بارْتفاع مَنْزِلَتِهم بعبارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وَوَصْفِهم بأنَّهُمْ رضي اللَّهُ عَنْهُمْ ورضُوا عَنْه، يَدُلُّ علَىٰ أَنَّهُمْ آمَنُوا إيماناً صحيحاً كاملاً صادِقاً، وأنَّهُمْ عَمِلُوا كُلَّ الصَّالِحات المطْلُوبَةِ مِنْهم إلزاماً، ونفهم أنَّ عَمَلِهِمْ كُلَّ

الصَّالحات يَلْزَمُ عَنْهُ عقلاً تَرْكُهُمْ لِكُلّ المحرَّمات، لأنّ التَّرْكَ الإراديّ هو أيضاً من الأعمال الصالحة، فهم إذنْ من أهل كمال التقوىٰ.

ولهذا استَحقُّوا أن يَكُونُوا مِنْ أهل جَنَّاتِ عَدْن، وهذا يَنْسَجِمُ مع دلَالات النُّصوص المبيّنَةِ أن «جَنَّاتِ عَدْنٍ» تَقَعُ في درجاتٍ مُرْتَفِعَاتٍ مِنْ دَرَجَاتِ الجنّة.

## النصّ العاشر:

قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الصَّفّ/ ٦١ مصحف/ ١٠٩ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣﴾.

إنَّ الجهاد في سبيل الله بالْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ لَيْسَ مِنْ حُقُوقِ «مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ» إلَّا أنْ يأمُرَ بِهِ الرَّسُول أو قائد المسلمين أمْراً إلْزاميًا، بَلْ هو من حُقوق «مَرْتَبةِ الْبرّ» أو «مَرْتَبةِ الإحْسَان».

وقد جاء الوعْدُ في هذا النصّ للمجاهدينَ في سبيل اللَّهِ بأموالهم وأنْفُسِهم، بأنْ يُدْخِلَهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ مَساكِنَ طيّبَةً في «جَنَّاتِ عَدْنٍ» فَدَلَّ هَذا على أنّ دَرَجات «جَنَاتِ عَدْنٍ» دَرَجاتٌ مُرْتِقّيات في عموم الجنّة.

وهٰذا يَنْسَجِمُ مَعَ دَلَالَات النُّصُوص السابقة الّتي دَلَّت علىٰ أنّ «جَنَّاتِ عَدْنٍ» تَقَعُ فِي دَرَجات مُرْتَفِعَاتٍ مِنْ دَرَجاتِ الجنَّة.

## النص الحادي عشر:

قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

في هذا النّصّ بيانُ أنَّ المذكُورين من المؤمنين والمؤمناتِ المسْتَحِقّين مَسَاكِنَ طَيّبَةً فِي «جَنَّاتِ عَدْن» من صِفَاتِهم ما يلي:

(١) بَعْضَهُمْ أَوْلياءُ بَعْضٍ، أي: مُتَعَاوِنُونَ مُتَنَاصِرُونَ مُتَوادُّون، وهذه الوِلَايَةُ في مسْتَوَاهَا الأعْلَىٰ، بَعْضُها مِنْ عُلْيا دَرَجات «مَرْتَبَةِ المتقين» وَبَعْضُهَا مِن دَرَجات: «مَرْتَبَةِ الْأَبْرَار» وبَعْضُها من دَرجات «مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنين».

(٢) أنهم يَأْمُرُونَ بالْمعْرُوف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر، أي: يُكَرِّرُونَ هذه الوظيفَة الاجتماعية، داخِلَ المجتمع المسلم، وهي من وظائفِ كامِلي التقوىٰ، ومن وظائف الأبرار والمحسنين.

(٣) أَنَّهُمْ يُقيمُونَ الصَّلاة المفروضَة، وهذه من أعمالِ كامِلِي التقوى.

(٤) أنَّهم يُؤْتُونَ الزَّكاة المفروضَةَ عليهم، وهذه من أعمال كامِلي التقوى.

(٥) أَنَّهُمْ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وهذه الطاعَةُ المتكَرِّرَةُ، مع كُلِّ مأمُورٍ به ومنهيٍّ عنْهُ، من أعمال كاملي التقوى.

هذه الصفات تُمَثِّلُ دَرَجَاتٍ عالِيَاتٍ من صالحات الأعمال، ويُلائِمُها دَرَجَاتٌ عُلْيَا مِنْ دَرَجَاتِ الجنَّة.

فجاء في الوَعْدِ أنَّ اللَّهَ سَوْف يُسْكِنُهُمْ مَساكِنَ طَيِّبَةً في «جَنَّاتِ عَدْن».

وقد دَلَّ هذا على أنّ «جَنَّاتِ عَدْنٍ» تَقَعُ في دَرَجاتٍ عُلَا من دَرَجاتِ الجنَّةِ، ودُونَها دَرجاتٌ لِمَنْ هُمْ دُونَهُمْ فيما كَسَبُوا مِنْ أعْمَالِ صَالحاتٍ في الحياة الدُّنيا.

يُضَاف إلى صفاتهم، أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَ أشارَ إلى ارتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِمْ فيما قَدَّمُوا من أعمالِ صَالحاتٍ باسْمِ الإشارة الموضوع للمشارِ إلَيْهِم الْبَعِيدِين، فقال تعالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾.

**خاتمة:**

من هذا الاستقراء للنُّصُوص القرآنيّة الّتي جَاء فيها ذِكْرُ **«جَنَّاتِ عَدْن»** مع التأمُّلِ الدَّقيق في مَعَانيها، ظَهَرَ لي أنَّ عُنْوَانَ **«جَنَّاتِ عَدْنٍ»** عُنوانٌ خَاصٌّ بِدَجَاتٍ مُرْتَفِعَاتٍ عُلَا في عُمُومِ الجنَّة.

وظَهَرَ لِي أَنّ مُسْتَحِقِّيها هُمْ مَنْ بَلَغُوا سَقْفَ مَرْتَبَةِ المتَّقِين، أَوْ قَرِيباً مِنْهُ، أو ارْتَقَوْا فوقَ سَقْفِ مَرتَبَةِ المتقين، وعَمِلُوا أعْمَالاً صالحاتٍ هِيَ مِنْ دَرَجَاتِ **«مَرْتَبَةِ الأَبْرَار»** أو مِنْ دَرجات **«مَرْتَبَةِ المحسنين»** أعْلَىٰ المراتب واسْمَاها.

وبناء على هذا فيَنْبَغِي تَعْدِيلُ مَا جاء في تَدَبُّر النّصّ الأوَّلِ الذي من سورة (صٓ/٣٨ مصحف/٣٨ نزول): إذْ كُنْتُ رَأَيْتُ فِيهِ أَنَّ عُنْوَانَ **«جَنَّاتِ عَدْنٍ»** عُنْوانٌ صَالِحُ التطبيق على كلّ دَرَجاتِ المتقين مِنْ أدْنَاها إلَىٰ أعْلَاها، أخذاً مِنْ عُموم دَلَالَةِ عبارَةِ ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ وهذا من التعجُّلِ في فَهْمِ النَّصِّ على ظاهره، وكانَ عَلَيَّ أَنْ اسْتَقْرِئَ النُّصُوص، كما فَعَلْتُ في هذا المَلْحَق، لِأَصِلَ إلى الْفَهْمِ الصواب، مُنْذُ دِرَاسَةِ أوّلِ نصٍّ جاء فيه عنوانُ «جَنَّاتِ عَدْن».

هذا اسْتِدْرَاكٌ أُسَجِّلُهُ على نَفْسِي، لِيَكُونَ المتدبِّرُون لكتَابِ الله على حَذَرٍ مِنَ التَّعَجُّل، وتَقْدِيم المفهومات غَيْرِ الْمُطَابَقَةِ للمراد من النصّ القرآني، الّذي يَدُلُّ عَلَيْه جَمْعُ النُّصُوص وتَدَبُّرها مُجْتَمِعَةً حَوْل مَوْضوعٍ واحد.

وبهذا انتهىٰ هذا الملحق، والحمْدُ للَّهِ على ما تفضَّل بِه عليّ.



# خاتمة المجلد السابع

بمعونة من رَبّي الجليلِ الوهّاب، وبمدَدٍ وتوفيق منه ـ جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه ووسِعَتْ رحمته كلَّ شيء ـ أتمَّ ربّي لي بأسبابه وألطافه الخفيّة تحبير هذا المجلّد السابع، وأنا على سرير المرض، أُعَانِي من آثار عمليّة جراحيَّةٍ كبيرة وخطيرة ومُوجِعَة، مع شيخوختي، وكبر سِنّي، وضعف جسْمِي.

لقد كنت ألتقط الساعات الّتي أستطيع أن أعمل فيها التقاطاً، من الزّمن الذي أكون فيه طريحاً على فراشي أو على البساط، في توجّع أو سبات.

وكنت ألجأ إلى الله بالدُّعاء أن يُعِينني ويُمدّني بمدده، فأجِدُ نَفْسِي معاناً إعانَةً عجيبة، أعمل في الساعة ما يَعْمَلُ الصحيح السليم في السَّاعَاتِ ذوات العدد.

رَبّ زدْني من مَدَدِك وفيض عطائك، واحفظني وأسرتي وكلّ من أحبّ وسائر المسلمين المؤمنين.

رَبّ وأوزعني أن أشكر فضلَكَ عليّ وعلى أسْرَتي، بالمجاهدة المتواصلة حتى آخر نفسٍ من أنفاسي في الحياة الدنيا، في خدمة كتابك، وخدمة رسالة نبيّك المجتبىٰ محمّد ﷺ.

وكان الانتهاء من تحبير هذا المجلد السابع في يوم الثلاثاء غرّة جمادى الأولى ١٤٢١هجرية الموافق لغرّة الشهر الثامن من عام ٢٠٠٠ ميلادية.

والحمدُ لله والسلام على عباده الذين اصطفىٰ.

**عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني**

# الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة



## (٤٤)
## سورة مريم
## ١٩ مصحف ٤٤ نزول

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة





